مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

وفيه

بيان طبائع الصهيونيين

وأن طبائع الآباء موروثة في الأبناء، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين

يا أهالي فلسطين! ويا أيها العرب والمسلمون! اقرؤوا هذه المحاضرات

على سورة يوسف، تعرفوا ما انطوى عليه الصهيونيون مما ورثوه من أصولهم

الجزء الثاني

من الآية الـ ٣٧ إلى آخر السورة

بقلم

عبد الله العلمي

(الغزي الدمشقي)

أستاذ دروس تفسير القرآن والتهذيب الإسلامي في الجامع الأموي بدمشق سابقاً

قام بتبييض مسودة الكتاب المخطوطة بخط يد المؤلف

وبترتيب مواضيعه وبوضع عناوينها وبشرح

بعض كلماتها في الهامش ابن المؤلف

الدكتور عبد الحليم العلمي

قدم له فضيلة الأستاذ العلامة

محمد بهجة البيطار

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

حقوق الطبع محتفظ بها وأما النقل و الترجمة
فمسموح بهما على أن يشار الى اسم المؤلف

الطبعة الأولى : **مكتبة ومطبعة دار الفكر بدمشق ١٣٨١ هـ - (١٩٦١ م)**
الطبعة الثانية : **مؤسسة دار الفكر في بـــيروت ١٣٩٠ هـ - (١٩٧٠ م)**

الفصل الخامس

يوسف (ع) يعرّف بحاله ويمهد للدعوة للتوحيد

آ (٣٧) «قالَ : لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرزَقانِهِ إلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ، ذَلِكُما مِمَّا عَلَّمني رَبِّي ، إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وهُمْ بالآخرة همكافرون».

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثلاثون فقام السيد عبد الحق الداغستاني وقال :

(قال) يوسف ، بلسان المعرف بنفسه تمهيداً لما بعده ، مخاطباً الفتيين في السجن (لا يأتيكما) ولا يحمل إليكما في هذا السجن (طعام ترزقانه) تأكلانه وتشربانه من أي نوع كان المأكولات والمشروبات . وهذا العموم مستفاد من وقوع النكرة وهي (طعام) في سياق النفي ، ومن كلمة ترزقانه أيضاً التي قصد بذكرها تأكيد إفادة العموم والشمول . أي لا يُحضر لكما وقت الصباح أو وقت الظهر أو المساء طعام ، أي طعام كان ، ترزقانه ويجلب لكما من الحكومة أو من بيوتكما (إلا نبأتكما بتأويله) أي بعبارته لو فرض أنكما رأيتماه مناماً (قبل أن يأتيكما) تأويله ، أي قبل ما يقع مصداقه ، و (ذلكما) التأويل والتعبير (مما علمني ربي) سبحانه وتعالى ، وكيف لا يكون لي ذلك و (إني تركت) أي اجتنبت (ملة قوم) كأهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ونحوهم (لا يؤمنون بالله) قائماً بذاته ، غير منتشر في ذرات هذا العالم، ولا حالّ ولا منبث في أحد من المخلوقين ، وليس له شريك ولا وسيل ، سوى عبادته

وطاعته وحده ، (وهم بالآخرة) أي بدار الجزاء (هم كافرون) منكرون وجاحدون .

(قال لا ياتيكما طعام ... الخ)

- ١ -

ههنا وقف الرئيس وترجى ثلاثة علماء كبار من علماء المؤتمر بأن يقولوا كل واحد بما يفتح الله به عليه في تفسير هذه الآية ، فنهض العالم الأول وهو العلامة الطرابلسي [1] وقال :

يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية

بدأ يوسف « ع » في هذه الآية والتي بعدها يذكر للفتيين شيئاً من ترجمة حياته الشخصية والعائلية ، العلمية والدينية ، بساطاً وتمهيداً للعظة التي أزمع على إلقائها عليهما ، فكأنه جرى في كلامه على ما يسمونه بسياسة (المراحل) أي التقدم مرحلة مرحلة ، ومن كلامه ظهر له أمران :

(١) أن هذا السجين بعدما كان في أعينهما مجهول الأصل ، غامض النسب إذا هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة .

(٢) أن هذا السجين بعدما كان في نظرهما مجرماً ، ظهر أنه هادٍ مرشد وأعظم معلم للخير .

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة ، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره ، وكأنه عليه السلام ، رام أجراً على تعبيره رؤييهما ، ولكن ما هو هذا الأجر يا ترى ؟ ليس هو ديناراً ولا درهماً

(١) نسبة الى طرابلس من بلاد الشام (لبنان) .

ولا شيئاً ما من الأمور المادية ، ولكنه إصغاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليمه ووعظه .

وهذه طريقة لطيفة ، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهدايةوالإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً،ويدعوه إلى ما هو أولى وواجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين ، لم يكن من باب التزكية .

ثم إن ما عمله يوسف (ع) يذكرنا اليوم بما يفعله أصحاب المستشفيات أو المدارس التبشيرية ، فإنهم يعالجون المرضى ، ويعلمون التلاميذ ليس في مقابلة أجرة من دينار أو درهم ، ولكن هذه الأجرة هي إصغاؤهم للكرز [١] الديني ، الأمر الذي يشعجنا نحن أن نعمل مثل هذا العمل ، ويدعونا أن نفترص الفُرَص كلما لاحت لأجل أن ندعو الجَحَدة للإيمان ، ونرشد العصاة للطريق القويم .

كان السكوت سائداً في غرفة السجن التي فيها الرئيسان ، فوقف يوسف أمامهما وقال بملء فيه : سأشرح لكما تعبير رؤييكما . ولكن أحب أن تنتظرا قليلاً ، ريثما أتكلم معكما بنبذة صالحة من تعريفكما بشخصي ومن العظة والذكرى .

قبل كل شيء إنني أشكر الله على أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه من أي نوع كان مما يرزق عادة إلا نبأتكما بما يؤول ويصير إليه ولو فرض أنكما رأيتما مناماً قبل أن يحدث لكما مصداقه وعاقبته يقظة ، فأنا مستعد أن أخبركما عنه قبل وقوعه وحدوثه ، وهذا الذي أذكر أني أعلمه في عبارة الرؤيا هو إنما علمني إياه ربي فعلمته ، فهو شيء استفدته من قِبَل السماء ، لا من قِبَل الأرض . وأني

(١) الكرز : هو الوعظ والارشاد الديني عند النصارى .

بكلمة (ترزقانه) ونكر (طعام) في سياق النفي لإفادة العموم - كأنه يقول:

إن علمي بتأويل الرؤى عام، وليس مقصوراً على تأويل طعام دون طعام، بل إني قدير على تفسير أي رؤيا كانت ، في أي طعام يكون مما يرزق عادة ، فكل نوع من أنواع الأطعمة التي ترزق إذا رآه الإنسان في منامه أقدر أن أفسره ، فأنا قدير على تعبير رؤيا طعام الخمر ، ورؤيا طعام الخبز ، كما أني قدير على تفسير ما عداهما من صنوف الطعام عموماً . ولست أريد المكاثرة بذلك ، ولكن التعريف برجل مجهول الهوية عندكم ، إني تركت منذ دببت إلى أن شبت ملة قوم لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ، وسببه أنهم لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، أو بوحدانيته ، لأن من لم يؤمن بالوحدانية ليس مؤمناً بالله الإيمان المطلوب شرعاً وهم كافرون بيوم الجزاء ، وإن إنكار الصانع ووحدانيته مع الكفران بيوم الدينونة هو العقبة الوحيدة في سبيل تلقي العلوم اللدنية من السماء .

فقوله : ﴿ إني تركت .. الخ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾، ومنه نعلم أن جزاء الإنسان على عقائده الحقة وأعماله الصالحة قد يتعجل شيء منه في الدنيا ، ثم ذلك الشيء المتعجل في الدنيا قد يكون مادياً ، وقد يكون معنوياً كما هنا ، فإن الله تعالى جازى يوسف على عدم ابتداعه باعتناق ملة الكفران ، وعلى اتباعه لملة التوحيد بأن علمه مما يشاء : ﴿ واتَّقُوا الله ويُعلِّمُكُم اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تَتَّقوا اللهَ يجعلْ لكم فُرقاناً ﴾ (٨ : ٢٩) .

ويريد يوسف بقوله : ﴿ إني تركت ﴾ إلى آخر آية ٣٨ ، إن الدين الذي هو عليه اليوم ليس دين « تعيين » عيّنه فيه أبوه مثلا ، ولا هو دين « تقليد » ، قلّد فيه الأسلاف ، بل هو دين « انتخاب » انتخبه هو لنفسه ، بالدليل والبرهان واعتنقه مختاراً له من دون سائر الأديان .

وقد يكون قد أشار بقوله : ﴿ إني تركت .. ﴾ إلى أنه « عصامي ». كما

أنه سيشير بقوله : ﴿ واتبعت .. ﴾ إلى أنه « عظامي » فهو جامع للشرفين . هذا ما تيسر لنا الآن . واتباع الحق أسلم والله أعلم .

« بارك الله فيك يا أستاذ »

(إني تركت ملة قوم ... الخ)

- ١ -

ثم نهض العالم الثاني وهو العلامة الحمصي وقال :

يوسف يغتنم الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتهما للتوحيد

يقول يوسف مخاطباً الفتيين السجينين ، انني بحمد الله على استعداد تام بوجه عمومي لتفسير كل ما ترون ، فعلى الخبير سقطتما – فقالا له : ذلك الظن بك أيها الإنسان المحسن – قال : يا سائليّ أما وأبيكما لتُنبآن ، فمن كان له منكما أذنان للسمع فليسمع ، ومن كان له قلب فليحضره ، لا يأتيكما في اليقظة طعام مأكولاً كان كالخبز الذي رآه أحدكما ، أو مشروباً كالعصير الذي رآه الآخر ، ترزقانه – (عبر بذلك لإفادة العموم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وما مِنْ دابةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه ﴾ (٦ : ٣٨) فزاد «في الأرضِ وجناحيه» لإفادة التعميم والإحاطة ، وكذلك ههنا زاد كلمة « ترزقانه » لإفادة الاستغراق والشمول ، فكأنه قال : « أي طعام كان مما عادته أن يرزقه الإنسان في هذه الدنيا » – إلا نبأتكما تأويله ، أي مصداقه ومرجعه ، وهو نفس الشيء المخبر عنه ، أي أنبئكما بالتأويل بلفظي وبياني ، قبل أن تريا بالتأويل بالذات ، ذلكما مما علمني ربي ولا فخر ، فما أنا إلا سفير من سفراء الحق ، ولسان من ألسنة الصدق ، ولهذا فتأويل الرؤى مهما عظمت هو أهون علي من قطع الخيط ولا أقول ذلك مفتخراً ، فإن آفة الحسب الفخر ، بل تحدثاً بنعمة الله تعالى .

جعل يوسف (ع) العلم اللدني ثواباً على تركه ملة من لم يؤمنوا بالله ولا بيوم

الدين ، ثم أخذه بملة التوحيد (انظر التعلق الرابع من خطاب مولانا عمر البيلاني على قوله : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (آ : ٢٢) .

ثم قال الصديق عليه السلام تتميماً لوعظه للفتيين : ولا أكذبكما ، ولا أخفي عنكما ، ما كان عرض لي أني استعملت عقلي ، واستخدمت أفكاري ، وجعلت البرهان رائدي ، والتبصر مطيتي ، وتفكرت في سائر الملل والنحل ، حتى وصلت لنور الحق ، وعرفت ما هي الملة التي ينبغي طرحها ، وما هي النحلة التي يجب اعتناقها ﴿فتركت ملة قوم .. ﴾ الخ وأنتما لو سلكتما طريقتي هذه لكفيتما شر التقليد، ووصلتما إلى نور الاستقلال الفكري ، الذي هو أصل كل خير ، وكنتما بعده تصلان إلى الملة الحقة فتعتنقانها .

هذا مرمى كلام الصديق (ع) ونرى أنه قد افترص فرصة سؤالهما له ، فحول مجرى الحديث إلى عظتهما ، وأخذت جمل الوعظ تنسال على شفتيه .

آنس منهما ارتياحاً ، فأحب أن يطيل معهما الحديث ، جرياً على رأي من قال :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

اقتحم هذه الفرصة لإرشادهما ، لأنه رجل ديني ، وأهل الدين يكرسون حياتهم لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب ، حتى إنهم ليطوفون السجون ويتعرفون إلى المسجونين ، ويتوددون إليهم ، ويعظونهم ويدعونهم إلى الحق ، ويحرضونهم على التوبة ، فما أتاه يوسف هو من أهله في محله .

سألاه فعول على اغتنام السانحة ، لعله يستطيع التسلط على أفكارهما ، فكاشفهما بأنه هو على عقيدة التوحيد ، خلافاً للمصريين ونحوهم ، ووفاقاً لعائلته الكريمة .

أتى في هذه الآية والآيات الأربع التي بعدها بحديث ذي شجون ، منه

ما يتعلق بترجمة شخصه ، ومنه ما يتعلق بترجمة أصوله ، ومنه ما له علاقة بالدعوة الدينية والوعظ والإرشاد ، ومنه ما هو جواب على سؤالهما .

المراد « بالترك » الامتناع

والمراد بكلمة « الترك » في قوله ﴿ إني تركت ﴾ الامتناع عنها رأساً ، كما يفصح عنه قوله الآتي : ﴿ ما كان لنا أن نُشرِكَ باللهِ مِن شيءٍ ﴾ (آ : ٣٨) ، لا تركها بعد ملابستها – حاشا – وإنما عبر بهذا التعبير لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به (ع) فهو للاستجلاب لهما أن يتركا ملتهما ، وقوله (إني تركت .. الخ) أول غمزة ، ولكن في الحاشية ، وقوله الآتي : (ما تعبدون ..الخ) هي الغمزة الثانية ، ولكن في الصميم .

القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف (ع)

وأما هؤلاء (القوم) الذين ذكرهم السيد الصديق (ع) فلم يبين المفسرون رضي الله عنهم من هم ، وكأنه لأنّ بيانهم من هم ليس مهماً ، ولكننا نحن نظن أنهم سكان العراق وسوريا وفلسطين ومصر ، الذين كانوا معاصرين له ومحيطين به ، وهم الأمم التالية :

(١) – القَينيّون : وهم قبيلة من العرب كانت متفرقة في الجنوب ، بين العمالقة .

(٢) – الحِثّيون : وهم قبيلة قوية ، استولوا على سورية ، وكانت عاصمتهم مجاورة لبلدة (حماة) .

(٣) – الفِرِزّيون : وهم إحدى قبائل فلسطين ، سكنوا في الجبال في داخلية البلاد ، وكانوا رعاة لا مُدن لهم .

(٤) – الأموريون : وكانوا في الدرجة الثانية بعد الحثيين في القوة ، كانوا

في اليهودية الجبلية ، وفي شرقي الأردن .

(٥) – الكنعانيون : وهؤلاء ينقسمون إلى خمسة أمم ، (صيدوني) سكان صيدا وصور ، (وعرقي) سكان لبنان ، و (أروادي) سكان جزيرة أرادس ، و (حماتي) سكان حماة ، و (حوّيّ) سكان شكيم أي نابلس .

(٦) – اليبوسيون : سكان أورشليم وهي بيت المقدس .

(٧) – الكلدانيون : سكان العراق .

(٨) – القبط : سكان مصر .

(٩) – الفلسطينيون : سكان البلاد التي بين نهر الأردن شرقاً ، والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

فهؤلاء الأمم كانوا وثنيين ، ولا يعتقدون بحقيقة يوم الدين « وكانوا معاصرين لإبراهيم فإسحاق فيعقوب عليهم السلام ، وبالطبع كان يوسف قد عرفهم ، لأنه تولد في العراق ، وبقي فيه إلى أن بلغ من العمر عشر سنين ، ثم هاجر مع أبيه يعقوب وسائر الأسرة اليعقوبية إلى سوريا ففلسطين ، وبقي في فلسطين سبع سنين ولما بلغ من العمر ١٧ سنة أخذ لمصر ، وعاش فيها إلى أن توفي ، وإنما قلنا : نظن أنه عنى بلفظ (قوم) هؤلاء الأمم لأنه عاش فيهم واختلط بهم وجاورهم فعرفهم حق المعرفة .

وههنا فوائد مهمة ، لا بد من التنبيه عليها :

الأدوار التي سكت فيها يوسف والأدوار التي تكلم فيها

الفائدة الأولى – نعلم أنه كان أتى على يوسف منذ غيابه عن والده ثلاثة أدوار . (الدور الأول) أخذ السيارة إياه لمصر كسلعة تجارية ،(الدور الثاني) – حالة الخدمة والعبودية للعزيز فوطيفار ، ونراه في هذين الدورين ساكتاً ، لم

يهتف بشيء من مدح شخصه ، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ ، ذلك لأنه لم يجد داعياً لذلك ، ولكنه الآن وقد انتقل إلى (الدور الثالث) – دور الاعتقال في أعماق السجون ، مع المجرمين ، متهماً بجريرة الفحشاء فقد رأى من اللازب اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه ، وأن يقرظ أسرته وأصوله بعض التقريظ ، شأن كل واحد ، ذوت زهرة فخره في نظـــر الناس وتصوّح غصن فضله في أعينهم ، وابتُدىء بثلبه ، وشُـرع في النَيل منه ، والغض عنه فإنه عندئذ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ما تستدعي الحاجة ، وتطلب المصلحة ويستند على أثيل منبته ، وكرم أصله ، ويأوي إلى سياج من شرف المحتد ، قد ضربه من حوله، فلله در هذا الصديق ، ما أحكمه في الحالتين ،حال السكوت وحال التكلم .

معنى ترزقانه

الفائدة الثانية – معنى (ترزقانه) تعطيانه وتنتفعان به ، جعـل الخمر رزقاً ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون تحريم شربها . أو الرزق هو كل مـا انتفع بـه مطلقاً ، سواء أكان حلالاً أم حراماً .

معنى ذلكما مما علمني ربي

الفائدة الثالثة – قوله (ذلكما مما علمني ربي) كمـــا أن الله علـّم يوسف تأويل الرؤيا في قديم الأيام ، كذلك علـّم ابن سيرين تأويلها في العصور الحديثة ، فابن سيرين هو يوسف البصريين ، كما أن الصديق هو يوسف المصريين ، فإن ابن سيرين رزق من علم (عبارة الرؤيا) العجب العجاب .

مصدر فضل يوسف

الفائدة الرابعة – قوله : (إني تركت ملة قوم الخ الآية إلى أن يقول :

يقول : واتبعت الخ الآية) يبين أن ليس مصدر فضله كونه ابن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، بل جعل مصدر فضله تركه ملة أولئك الجاحدين . واتباعه ملة آبائه الموحدين ، ففضل الإنسان بأعماله لا بنسبه ، قال أبو العلاء المعري :

لا يفخرن الهاشمي على امرىء من آل بربرْ

فالحق يحلف ما عليٌّ عنده إلا كقنبرْ

(ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاولة)

ثم هو يريد بقوله : (تركت) رفضت بدون سبق مزاولة ، كما أن (العَود) قد يطلق على الصيرورة ، بدون سبق المزاولة أيضاً ، ومنه : ﴿ أو يُعيدُوكم في مِلَّتِهِم ﴾ (١٨ : ٢٠) معناه يصيروكم ، لأن هؤلاء القوم لم يسبق لهم أن اعتنقوا ملة التثليث ، ومنه حديث معاذ : (أعُدْتَ فتّاناً يا مَعاذُ ؟) ، أي أصِرتَ ، ويقول كعب : (وددتُ أنّ هذا اللَّبَن يعودُ قطراناً) أي يصير ، فقيل له : لِمَ ذلك ؟ فقال : (تتبعت قريش أذنابَ الإبل وتركوا الجماعات) ، فكما أن العود إلى الشيء قد يستعمل بمعنى الصيرورة إليه ، بدون سبق مزاولة له ، فكذلك ترك الشيء قد يستعمل بمعنى رفضه وعدم معاناته ، بدون سبق التلبس به كما هنا ، وإلا فالأنبياء معصومون من الكفر والشرك ، حتى قبل النبوة .

ويعجبني ما رأيته لبعض المحققين من تعليل آخر لتعبيره بكلمة (الترك) وهو أنه لما كان يوسف مختلطاً بالوثنيين بالعراق ثم في فلسطين ثم في مصر ، وكان مكثوراً بهم ومغموراً بينهم — عبر (بالترك) نظراً للظاهر لهؤلاء الجهلة بحاله ، وقريب منه ما في قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذينَ استكبروا مِنْ قومِهِ : لَنُخرِجَنَّكَ يا شعَيب والذينَ آمَنُوا معَكَ منْ قرْيَتِنا أو لَتَعُودُن

في مِلَّتِنا - قالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ ؟ قَدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِباً إن عُدنا في مِلَّتِكُم بَعدَ إذْ نَجَّانا اللهُ منها ، وما يكونُ لنا أنْ نَعودَ فيها ﴾ الخ (٧ : ٨٧ و ٨٨) .

وقد عثرت لبعض العصريين[1] على تحقيق مهم في هذا المقام ، خلاصته : (العوامل التي تجذب البشر إلى السعادة أو الشقاء) :

(يوجد في هذا الكون عوامل تجذب البشر إلى السعادة أو الشقاء ؛ ومن أمثلة تلك العوامل أولاً (الحكومة) التي تسيطر على الناس ، وثانياً (المحفل أو النادي) الذي يحتشد فيه القوم للحديث أو السمر أو اللهو أو البيع والشراء أو مختلف الأعمال والمصالح ، وثالثاً (العائلة) التي تربي الأطفال ، ورابعاً (الوراثة) التي تنتقل من الآباء والأمهات والأجداد والجدات ، سواء من جهة الأب أو من جهة الأم ؛ وخامساً (الإقليم) الذين يشربون ماءه ، ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حرّه وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته ، وهذا المؤثر الخامس هو ما يسميه علماء النفس (بالبيئة الجغرافية) وأما العوامل السابقة فيسمونها (البيئة الاجتماعية) اهـ .

البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها

إذا تقرر هذا نقول: إذا كان الإنسان بسبيل أن يعتنق عقيدة ما، بسبب سيطرة (الحكومة) التي تعتقد تلك العقيدة، أو (المحفل) الذي يؤثر بالاختلاط أو (العائلة) التي منها الجد والجدة لأم ، ومنها الخال ، أو (الإقليم) ، ثم قاوم تلك المؤثرات ، واتخذ لنفسه عقيدة استحسنها ، فإنه يصح له أن يعبر بقوله : (تركت كذا واتبعت كذا) لأنه كان بسبيل أن ينفعل ويتأثر وينجذب لبعض

(١) وهو العلامة الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق .

هذه الجواذب ، ولكنه قاوم هذه كلها أشد المقاومة ، فيوسف الصديق كان عاش في العراق عشر سنين ، تحت سيطرة (حكومه) وثنيه على دين الصابئة ، وكانت عيشته تلك المدة في بيت جده لأمه (لابان) الذي كان وثنياً ، ثم عاش سبع سنين بفلسطين الوثنية ، ثم عاش بمصر في بيت « فوطيفار » نحو عشر سنين وأصحاب هذا البيت وسكانه كلهم وثنيون ، ثم دخل « السجن » مع سجناء من الشعب المصري الوطني وشعب الاحتلال الهكسوسي ، وكلهم من أهل التوثن ، وكل من كان كذلك كان بسبيل أن يكون على ملة هذه البيئات ويخشى عليه من وراثة طريقة أخواله ، ولكن يوسف الصديق بما أوتي من عقل وافر ، وحفظ إلهي ، تغلّب على كل هذه المؤثرات ، ولم يجذبه شيء من هذه الجواذب ، ولم يتمسك إلا بعقيدة التوحيد ، والإيمان بالنشأة الآخرة ، لا سيما وأن ذلك هو ملة آبائه الكرام ، كان كل هذا قبل النبوة ، وأما بعدها فالأمر ظاهر .

الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً

الفائدة الخامسة – قوله : (لا يؤمنون بالله) يحتمل معناه : لا يؤمنون بالله واحداً ، بل يشركون معه غيره ، وذلك (كالقوم) الذين عاصرهم يوسف ، من عراقيين وفلسطينيين ومصريين ، لأن هـؤلاء كلهم وثنيون ، لا يجحدون وجود الله ، بل يعترفون به ، ولكنهم لا يؤمنون به الإيمان الحق ، الإيمان المطلوب ، وهو إيمان التوحيد ، بل يشركون معه غيره من الآلهة التي يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، ويحتمل أن معناه لا يؤمنون بالله موجوداً ، وذلك كالماديين ، مع أن المادة جاهلة لا يمكن أن ينشأ عنها هذا الإبداع في الكون ، وارتباط المصالح في سائر العوالم ، مع وجود الحكمة في كل ما نرى ونسمع ونحس ، فكل صُنِع لغرض صحيح وقصد معقول ولا يمكن للمادة – وهي لا تعقل شيئاً وإنما تُحدِث عنها التفاعيل آثاراً صماء – أن توجد عقولاً مدبرة مفكرة ، تعمل بالحكمة وبمقدار في هذا الوجود .

الأدلة على وجود الله تعالى

كان يجب أن لا يختلف الناس في العقيدة بوجود الله ، لأن دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم ، والفعل المحكم على الحكيم – بديهية ، بل قالوا ، إن ذلك مما يدركه الحيوان ، فضلاً عن الإنسان ، فإنك إذا ضربت الحمار مثلاً ، التفت ليرى من ضربه ؟ لأنه مركوز في فطرته أن الأثر لا يكون بلا مؤثر ، والفعل لا يكون بلا فاعل ، قال تعالى : ﴿ ألم ترَ أنّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن في السموات والأرضِ والطيرُ صافّاتٍ ، كلٌّ قَدْ علِمَ صَلاتَهُ وتَسْبيحَهُ ؟!! ﴾ (٢٤ : ٤١) وأنت إذا رأيت كلمةً من ثلاثة أحرف لم تشك في أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير إلى الأوقات ، أيقنت أن لها صانعاً رتب أجزاءها وأعدها لتلك الغاية ، وما مَثَلُ من ينكر وجود الخالق – وهو أظهر من الشمس – إلا كمن رأى (خزان أسوان) بالقطر المصري ، أو (برج إيفل) بباريس ، فقال : إن ذلك على فخامته وضخامته لا يحتاج إلى (مهندس) ولا (صانع) !!! أو كمن رأى (كتاباً) بديعاً في مبانيه ، بليغاً في معانيه ، وفيه من الفلسفة العالية ، والأفكار السامية ، ما يفوق أفكار (أفلاطون) وفلسفة (أرسطاطاليس) وفيه من الأدب الرائع ، والشعر البارع ما يسمو على شعر (المتنبي) ، فلما نظر فيه قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت في صندوق ، وكان معها شيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية ، فوجد ذلك الكتاب على ما ترون ، فهلا ترمي صاحب ذاك القول بالجنون ؟ .

وإذا كنت لا تسلم أن (ساعة) توجد بلا صانع ، وأن (باخرة) توجد بلا مهندس ، بل لا تسلم أن « كلمة صغيرة » توجد بلا كاتب ، فكيف تسلم أن هذا « الكون » العظيم ، الذي يبهر العقول ، ويحير الألباب ، قد وجد بلا موجد ، ونظم بلا منظم ، وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل

ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار ، إلى أنواع لا يحصيها العد ، ولا يأتي عليها الحصر ، قد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم ، وينوعها إلى ما لا يحصى من الأنواع ، ويمتعها بما شاء من الخصائص المختلفة ، والمزايا المتباينة ، والصفات المتقابلة ؟ وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الدلالة على الله وجود – الأنثى – بجانب – الذكر – فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود « المرأة » فأوجدتها ؟ وغايرت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها ، فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومتّعتها بما يجذب الرجل إليها ، من صفات الجمال ، حتى في صوتها ، ومنحتها ما يحتاج إليه طفلها الصغير ، وقال أفلاطون : « يكفينا ما في – العين – من التدبير الذي جعلها في مكان مكين من الحَجاج [١] ، وجعل لها – الحاجب – ليقيها من العرق أن يتساقط فيها ، و – الهدب – ليقيها من الغبار ، ولا يمنعها الضوء » ، وهذا الباب واسع جداً ، وفيما ذكرناه كفاية .

عقيدة إبراهيم (ع) وأولاده وعقيدة العرب الجاهليين

والاعتقاد بوحدانية الله تعالى هو دين إبراهيم وأولاده من جهة إسحاق ومن جهة إسماعيل ، غير أنه كان وجد في العرب مشركون لله في العبادة لا في الخلق والإيجاد ، يعني أن هؤلاء الصنف من العرب كانوا مع اعترافهم بوحدانية الربوبية ، مشركين في الألوهية ، قال تعالى : ﴿ لَئِنْ سأَلْتَهُم مَن خلقَ السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمسَ والقمرَ لَيَقولُنَّ : اللهُ فأنّى يُؤفكون !! ﴾ إلى أن يقول : ﴿ ولَئِنْ سألتَهُم مَنْ نَزَّلَ من السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها ؟ لَيَقولُنَّ : اللهُ ، قُلْ الحمدُ للهِ ، بَلْ أكثَرُهُم لا يَعقِلون ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣) وقال تعالى :

---

(١) هو الحفرة العظمية التي فيها العين ويقال وقب .

﴿ قُلْ مَن يرزُقُكُمْ مِنَ السماءِ والأرض ؟ أمْ مَنْ يَملِكُ السَّمْعَ والأبْصار ؟؟ ومَنْ يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحيِّ ؟ ومن يُدَبِّرُ الأمرَ ؟ فَسَيَقولونَ : اللهُ - فقلْ : أفلا تَتَّقُونَ ؟ ﴾ (١٠ : ٣١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصرح بأن مشركي العرب إنما كانوا مشركين في الألوهية ، دون الربوبية .

وهكذا وجد في اليهود أناس كثيرون كذلك كما يعلم من البيان الآتي :

بيان سقوط أكثر بني إسرائيل في هاوية التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بأيديهم

(١) في عصر يعقوب : كان - على ذمة التوراة - يوجد في بيت يعقوب أناس وثنيون في بعض أيام حياته ، كما نستفيده من قول التوراة : (فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم) (تك ٣٥ : ٢) ، وقولها (فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) (تك ٣٥ : ٤) .

(٢) في مدة إقامتهم بمصر - « كانوا عبدوا آلهة المصريين » (لا ١٧ : ٧) و (يش ٢٤ : ١٤) و (حز ٢٠ : ٧ و ٨) و (إر ٤٤ : ٨ - ١٩) .

(٣) في أول مدة الخروج « عبد بنو إسرائيل العجل في البرية بعد ما خرجوا من مصر في مقاطعة جبل سيناء حتى قتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل » (خر ٣٢ : ٢٧ و ٢٨) .

(٤) في آخر مدة الخروج - « عبد بنو إسرائيل بعل فغور وذلك حينما كانوا في الغور فغضب الله عليهم وأمات منهم بالوباء ٢٤ ألفاً » (خر ٩ : ١٥)[١]

(١) تك : رمز لسفر التكوين ؛ لا : رمز لسفر اللاويين ، يش : رمز لسفر يشوع ، حز : رمز لسفر حزقيال ، ار : رمز لسفر ارميا ، خر : رمز لسفر الخروج ، وكلها من التوراة.

(٥) في مدة التيه - وقع أكثر بني إسرائيل في وهدة الشرك في جميع مدة التيه البالغة ٤٠ سنة لا فرق بين الآباء الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى ولا بين أبنائهم الذين تولدوا في البرية ، فالجميع عبدوا الأصنام في البرية ، وقربوا لها القرابين (خر ٢٠:٧-٢٦) و (تث ٩:٧) .

(٦) في عصر يشوع - وقد وقعوا في وهـــدة الشرك ، وهم تحت قيادة يشوع لآخر أيام حياته (يش ٢٤ : ١٤ و ٢٣) .

(٧) من موت يشوع إلى أول قاضي - وقد رجع بنو إسرائيل للسقوط في أودية الوثنية في الجيل الذي بعد يشوع إلى أيام أول قاض قام فيهم وهو « عثنيئيل » بن قناز (قض ٢ : ٨ - ٢٣ وقض ٣ : ٥ - ٩)[١] .

(٨) بعد موت القاضي الأول - مـــات القاضي « عثنيئيل » فعاد بنو إسرائيل لشركهم المعهود (قض ٣: ١٢ - ١٤) مع ملاحظة ما في (قض٢:١٩)

(٩) بعد موت القاضي الثالث - وقع بنو إسرائيـــل في أودية الوثنية بعد موت القاضي «شمجر» بن عناة (قض ٤ : ١ مع ملاحظة ما في قض٢:١٩)

(١٠) بعد موت دبورة وباراق- عاد بنو إسرائيـــل لشركهم وأدخلوا عبادة البعل إلى وسط البلاد وأقاموا له مذبحاً وسارية (قض ٦ : ٢٥و٢٨و٣٠) واعتقدوا أنالبعل إله،وبقواعلى هذا الحال حتىقام القاضي جدعون(قض٦:١)

(١١) في أيام جدعون - ثم وقع بنو إسرائيل بواسطة مخلصهم جدعون في الوثنية في أيام جدعون ، على إثر مقاتلته المديانيين (قض ٨: ٢٤ - ٢٧)

(١٢) على إثر موت جدعون - كان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزَنَوْا وراء « البعليم » وجعلوا لهم بعل بريث إلهاً (قض ٨ : ٣٣)

(١٣) بعد موت يائير - بعدما مات « يائير » الجلعادي الذي كان قاضياً

---

(١) تث : رمز لسفر التثنية ، قض : رمز لسفر القضاة وهما في التوراة .

ثامناً على بني إسرائيل عـادوا يعملون الشر ، وعبدوا « البعلِم والعشتاروت » وآلهة « آرام » وآلهة « صيدون » الخ ما في (قض ١٠ : ٦ و ١٠ و ١٣ - ١٦)

(١٤) بعد موت عبدون - بعد ما مات القاضي « عبدون » عاد بنو إسرائيل يعملون الشر المعهود بينهم وهو التوثن (قض ١٣ : ١) مـع ملاحظة ما في (قض ٢ : ١٩)

(١٥) شرك بعض اللاويين - ثبت أن بعض اللاويين كان يكهن في بيت الأصنام (قض ١٧ : ٤ - ١٣) في قرية « الطيبة » التابعة لقضاء «طول كرم»

(١٦) شرك سبط الدانيين - ثبت أن سبط « الدانيـين » صعدوا إلى جبل أفرايم، ونهبوا من بيت (ميخا) الذي في قرية « الطيبة » التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك التي هي آلهة (ميخا) ، وأقـاموا لأنفسهم التمثال المنحوت للعبادة (قض ١٨ : ١٧ و ٢٤ و ٣٠ الخ) .

(١٧) في عصر صموئيل - ثبت أن بني إسرائيل سقطوا في حفرة الشرك أيام النبي (صموئيل) ، فكانوا يعبدون في عصره الآلهة الغريبة و (المشتاروت والبلعيم) (١ صم : ٣ و ٤) .

(١٨) في عصر مُلك شاول - ثبت أنه كان يوجد في عصر (شاول) أول ملوكهم في بيت ابنته (ميكال) أصنام صغيرة ومجسمة ، على هيئة الإنسان بحيث من رآها يظنها إنساناً، وتسمى هذه الأصنام (تراقيم)(١ صم ٢٩ : ١٣) وهي في شريعة اليهود وحسب كتبهم قرينة الوثن (١ صم ١٥ : ٢٣) .

(١٩) في عصر سليمان - تقول اليهـود إن نساء سليمان أملنّ قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، فذهب وراء أربعة آلهة، وهم « عشتروت » و « ملكوم » و « كموش » و « مولك » (١ مل ١١ : ٤ - ٨) وكان يوجد في الرعية في عهده توثن ، فتركوا الرب وسجدوا للالهة «عشتروت» وللإله « كموش » والإله « ملكوم » (١ مل ١١ : ٣٣) وكانوا يقربون أبناءهم

وبناتهم للإله « مولك » وهو محمي بالنار (٢ مل ٢٣ : ١٠)[١] .

(٢٠) أيام رحبعام – ثبت من التاريخ أن أهالي المملكة الجنوبية مملكة يهوذا أيام ملكها «رحبعام» بن سليمان عملوا الشر وعبدوا الآلهة الباطلة، وبنوا لها مرتفعات وأنصاباً وسواري (١ مل ١٤ : ٢٢ و ٢٣) وكذا هم يقولون إن نفس الملك رحبعام أشرك بالله (١ مل ١٥ : ٣ و ١٢) .

(٢١) أيام أبيتا – سار « أبيتا بن رحبعام » في جميع خطايا أبيه الذي تقدم آنفاً أنه كان مشركاً ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الله (١ مل ١٥ : ٣) ولم تنزع الأصنام في مدته ، ولكن في مدة أبيه « آسا » (١ مل ١٥ : ١٢) .

(٢٢) أخزيا – توثن « أخزيا » ملك يهوذا بن « يهورام » (٢ مل ٨ : ٢٦) وأما الرعية فكانوا سقطوا في الوثنية بهمة أبيه « يهورام » أيام ملكه عليهم (٢ أي ٢١ : ١١ – ١٣) .

(٢٣) عثليا – « عثليا » ملكة يهوذا كانت مشركة ، لأنها هي التي أدخلت عبادة « البعل » إلى يهوذا (قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) .

(٢٤) أيام يوآش– رجعت يهوذا وهم أهالي مملكة القدس إلى السقوط في الوثنية أيام الملك « يوآش » (٢ أي ٢٤ : ١٨ و ١٩) حتى أنه لما قام النبي زكريا ينصحهم رجموه بالحجارة ، بأمر الملك «يوآش » في دار بيت الله (٢ أي ٢٤ : ٢٠ و ٢١) .

(٢٥) أيام أمصيا - وسقط أهالي مملكة يهوذا أيام « أمصيا » في القدس الشريفة في هوّة الوثنية (٢ مل ١٤ : ٤ و ٢ أي ٢٥ : ٢٠) كما أن ملكهم « أمصيا » كان كذلك (٢ أي ٢٥ : ١٤ – ١٦).

---

(١) ١ صم : رمز لسفر صموئيل الأول ، ١ مل : رمز لسفر الملوك الأول ، ٢ مل : رمز لسفر الملوك الثاني في التوراة .

(٢٦) أيام آحاز – وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الوثنية أيام ملك القدس آحاز ، هم وملكهم جميعاً (٢ مل ١٦ : ٣ و ٤ و ٢ أي ٢٨ : ٢ – ٤و٦ و ٢٣ – ٢٥) .

(٢٧) أيام منسي – وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الشرك أيام ملكهم « منسي » ملك أورشليم (٢ مل ٢ : ٢ – ١٦ و ٢ أي ٣٣ : ٢ – ١١) .[1]

(٢٨) أيام آمون – عبد « آمون » ملك يهوذا الأصنام التي عبدها أبوه « منسي » وسجد لها ، وترك الرب إله آبائه (٢ مل ٢١ : ٢١) وهكذا الشعب (٢ مل ٢٢ : ١٧ و ٢ مل ٢٣ : ٤ – ٢٦) .

(٣٩) أيام يوشيا – وسقطوا في الوثنية أيام « يوشيا » ملك يهوذا (٢ أي ٣٤ : ٣ – ٧) ولكن الملك كان موحداً مصلحاً .

(٣٠) أيام يهوياقيم – سقط « يهوياقيم » ملك أورشليم وشعبه في الوثنية (٢ مل ٢٣ : ٣٧ و ٢٤ : ٢ و ٣) .

(٣١) أيام صدقيا – سقطوا في الوثنية كل أيام الملك « صدقيا » ملك يهوذا (٢ أي ٢٦ : ١٢ – ١٧) .

هذا ما يتعلق بمملكة أورشليم التي هي مملكة يهوذا الجنوبية ، وأما الكلام على مملكة الأسباط العشرة الشمالية التي عاصمتها « شكيم » – وهي نابلس اليوم – فإنهم بالإجمال من دون استثناء قد سقطوا جميعهم في الشرك من أول أن تشكلت المملكة إلى أن زالت ، كما يعلم ذلك صريحاً من أسفار العهد العتيق ، فلا حاجة للإطالة بذكر تلك المواضيع ، ثم أيام سبي اليهود إلى بابل كانوا سقطوا في الوثنية أيضاً (حز ١٤ : ٢٢ و ٢٣) .

---

(١) ٢ أي : رمز لسفر الأيام الثاني في التوراة .

الإيمان بالله واليوم الآخر

الفائدة السادسة - عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، هو مصدر كل الشرور والأضرار كما بالمقابلة أن الإيمان بالله واليوم الآخر، هو مصدر كل خير ونفع، قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخرِ، يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورسولَهُ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عَشِيرتَهم، أولئكَ كتَبَ في قلوبِهم الإيمانَ، وأيّدهم برُوحٍ منهُ، ويُدخلُهُم جنّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنهُ، أولئكَ حِزبُ اللهِ، ألا إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المفلحونَ ﴾ (٥٨ : ٢٢) وقال تعالى: ﴿ فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ، فأمْسِكوهُنَّ بِمعروفٍ، أو فارِقُوهُنَّ بمعروفٍ وأشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم، وأقيموا الشهادةَ للهِ، ذَلِكُمْ يُوعَظُ به مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ (٦٥:٢) وقال تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسنةٌ، لِمَن كانَ يَرجُوا اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾(٣٣:٢١) وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كانَ لكم فيهم — أي في إبراهيم والذين معه — أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ﴾ (٦٠ : ٦) وقال تعالى: ﴿ والمطلّقاتُ يَتَرَبَّصْن بأنفُسِهِنَّ ثلاثةَ قُروءٍ، ولا يَحِلُّ لهنَّ أنْ يَكْتُمْنَ ماخَلَقَ اللهُ في أرْحامِهِنَّ، إنْ كُنَّ يُؤمِنَّ باللهِ واليوم الآخر ﴾ (٢٢٨:٢) وقال تعالى: ﴿ وإذا طَلَّقْتُم النساءَ، فبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ، فلا تَعْضُلُوهُنَّ أنْ يَنْكِحْنَ أزواجَهُنَّ، إذا تَراضَوْا بينهم بالمعروفِ، ذلك يُوعَظُ به مَنْ كانَ منكم يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾(٢ : ٢٣٢) وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمْرِ منكم، فإن تنازَعْتُم في شيءٍ، فرُدُّهُ إلى اللهِ والرسولِ، إن كنتم تؤمِنونَ باللهِ واليومِ

الآخِرِ﴾ (٤:٥٨) وقال تعالى :﴿ الزانيةَ والزاني فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مِئةَ جَلْدَةٍ ، ولا تأخُذْكُم بهما رأفةٌ في دينِ اللهِ ، إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ﴾ (٢٤ : ٢) .

يوم الآخرة

الفائدة السابعة – قوله : ﴿ وهم بالآخرةِ هم كافِرون ﴾ الآخرة هي اليوم الأخير الذي يبتدىء حين ترفع الشمس جاذبيتها عن الكواكب ، بإذن الله تعالى ، والأدلة متضافرة على وجود هذا « اليوم » المنتظر ، وأقربها تناولاً أنه إذا لم يكن آخرة ولا عقاب ولا ثواب ، كانت الحياة ضرباً من العبث ، لأن العدل في هذه الدنيا غريب تائه ، لا يعرف مأوى ، ولا نرى في أعمال الناس غير المظالم الفادحة ، نرى الأشرار في رغد وهناء وسعادة ، بينا نرى الأبرار يقاسون مرَّ العذاب ، وما كان ربك ليثيب الظالمين ، فستأتي ساعة تلقى فيها كلُّ نفس ما كسبت ، إن خيراً وإن شراً ، ﴿فويلٌ للذين كفروا مِنَ مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ﴾ (١٩:٣٧) ﴿ ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقِينَ ﴾ (١٦:٣٠) .

الإيمان بالآخرة والطوائف التي لا تعتقد به

الإيمان بالآخرة هو دين إبراهيم وأولاده سواءاً كانوا من سلالة إسحق ، أم من سلالة إسماعيل ، إنما وجد من سلالة إسماعيل طائفة من العرب كانوا لا يعتقدون بالآخرة : ﴿ وقالوا ما هِيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا ، نموتُ ونَحيا ، وما يُهلِكُنا إلا الدهرُ﴾ (٤٥ : ٢٣) ، كما أنه وجد من سلالة إسحق طائفة يقال لهم « صَدُّوقيُّون » نشأوا كما قاله « يوسيفوس » نحو سنة (١٥٠) ق.م أنكروا القيامة ، لأنهم أنكروا خلود النفس ، أي اعتقدوا أن النفس تموت مع الجسد ، فإذا كانت النفس قد تلاشت عند الموت ، لم يبق باب لحياة الجسد ، وهؤلاء

طائفة صغيرة في اليهود ، وسطوتهم قليلة بين الشعب ، وكان لهم ميل شديد إلى الفلسفة وكانت أفكارهم دنيوية ، وكان اعتبارهم للديانـــة الموسوية اعتباراً سطحياً ، وهم إذا رفضوا تعليم « القيامة » سقط عندهم تعليم الثواب والعقاب وهم يرفضون الاعتقاد بالملائكة والأرواح . (هـــذا ما يؤخذ من « قاموس الكتاب المقـــدس » لجورج بوست ، ومن « الكنز الجليل » في تفسير الإنجيل للدكتور وليم أدي الأميركاني) .

وقد كان يوجد شيعة في الإسلام يقال لهم « الخطابيـــة » زعموا أن الدنيا لا تفنى ، وأن الجنة هي ما يصيب الإنسان في الدنيا من خـــير ، وأن النار هي ما يصيبهم من شر ، وقريب منهم فرقة يونانية ، يقال لها « التناسخية » يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن لا بعث ولا آخرة ، وأما اليوم فيوجد فرقـــة ، يسمون أنفسهم « بالبهائية » ، مركز تبشيرهم بدينهم عـــكا وحيفا ، وهم لا يعتقدون بالآخرة ولا بالملائكة بالمعنى الذي نعرفه ، بل يؤوّلون ذلك بأن الآخرة هي آخرة الأفراد أو الأمم في الدنيا ، وأن الملائكة هم خيار الناس وصلحاؤهم ، هذا ما تيسر لنا الآن ، والله تعالى أعلم . (مرحى)

(إني تركت ملة قوم ... الخ)

— ٢ —

ثم نهض العالم الثالث وهو العلامة الحموي وقال :

اتباع يوسف ملة آبائه بعد التفكير

يقول السيد الصديق عليه السلام : إنه قبل أن يتبع ملة آبائه وأجداده ، كان تحرر واستقل وافتكر في ملل الناس ونحلهم فـلم ترق له ولم تعجبه ، فلزم ملة آبائه وأجداده ، لأنه رآها بالبرهان الساطع أحسن من غيرهـا ، من ملل المعاصرين ، ونحل المجاورين ، فلم يكن متبعاً لملة آبائه لمجرد التقليد المحض ، حسب العوائد المطردة ، عند أكثر الناس — حاشا له من ذلك — بل إنما كان ذلك بعد

الإيغال في التأمل والتفكر العميق ، ذلك لإنه كان تولّد فيه منذ الصغر الميل إلى البحث عن الأسباب ، والتماس البرهان عن كل شيء ، فنشأ لا يبـالى إلا بحقائق الأمور، ولا يحترم سوى العقيدة التي يطمئن لها القلب ، ويثلج بها الصدر وذلك لا يكون إلا غبّ الاستقلال، وبعده التفكر، ثم الانتحال،فكأنه يقول:

إني حررت نفسي من كل تقليـد ، وركنت إلى الاستقلال الفكري ، واستخدمت العقل ، وتعمقت في التفكير ملياً ، حتى وصلت بالبرهان والتعقل لملة التوحيد ، التي هي ملة آبائي وأجـدادي ، وأنا إذا لم أكن قد حررت نفسي سابقاً من كل تقليد ولم أركن إلى الاسقلال الفكري ، فلست مستحقاً أن أقوم بالدعوة الدينية ، التي أطلب فيها من المدعو أن يعمل نظير ما عملت ، يتحرر ويستقل ويعتمد على البراهين ، حتى يصل للعقيدة الحقة .

الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له

وقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أي لا يؤمنون بوجوده مطلقاً كالدهرية والمادية والطبيعية ، ولكن الاعتقاد بالله يكاد يكون عامـاً بين الشعوب ، فلا تكاد تخلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد بإله ، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، ولذلك فيمكن أن يكون قد عني بقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أنهم لا يؤمنون بـه كما يجب له من « الإنفراد » خلافاً « للوثنيين » ، ومن « الاختيار »خلافاً لفريق من «علماء الهيئة أي علماء الفلك» ومن « إحاطة » علمه بكل شيء ، حتى الجزئيات ،خلافاً«للفلاسفة» ، ومن أنه « خالق كل شيء » خلافاً « للمانوية » ، ومن كونه « هو الذي تقدم له وحده أنواع العبادات » كلها ، وأنه هو « الشارع » لا غير ، خلافاً « للمشركين له في الألوهية» ومن أنه «لم يتولد من شيء. ولم يتولد عنه شيء» ، خلافاً «للنصارى» ومن أنه تعالى « واحد » ليس اثنين هما الأب والابن » ، خلافاً « للمكدونيين »

الذين يقولون بألوهية الآب والابن فقط ويرفضون ألوهيـة الروح القدس ، فهم لذلك نصارى مثنية وإمـامهم في ذلك مكدونيوس ، أسقف القسطنطينية ، ومن أنه تعالى «واحد في ذاته وطبيعته الألوهية» ، خلافاً للنصارى « الملكانية » الذين يقولون بالثالوث وبطبيعتين ، والثالوث معنـاه أن الآب إله والابن إله والروح القدس إله ، والكل إله واحد ، ومعنى الطبيعتين أن الأقنوم[1] الابن طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو طبيعة الإنسان وطبيعة الإله ، وكل طبيعة على حدتها لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، وهؤلاء مثل اللاتين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت ، فهؤلاء يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد ، أو بأقنوم واحـد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم : « إنها أم الإله ، أو أم الله ، أو والدة الإله » .

ومن أنه تعالى «واحد في ذاته وطبيعته ، ولكن طبيعته ليست ممتزجة بطبيعة الإنسان » خلافاً للنصارى « اليعاقبـة » مثل السريان القديم والأرمن والأقباط بمصر ، وكانت اليعقوبية منتشرة في « غسان » وسائر قبائل الشام ، وكذا في نصارى « نجران » فهؤلاء الطوائف يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالإنسانية أو بالعكس ، وهؤلاء هراطقة [1] في نظر الملكانية .

ومن أنه تعالى « واحـد ذو أقنوم إلهي واحد » ، خلافاً « للنساطرة » القائلين بأقنومين أقنوم إلهي ، وأقنوم بشري ، كلاهما ممتاز عن الآخر ، والأول مشرق على الثـاني إشراق الشمس على الكون تقريباً ، وبناء عليه هم لا يقولون عن السيدة مريم إنها أم الله ، بل أم الإنسان فقط وهم على كل حال على غير حق ، وإن كانوا أقرب إليه بالنسبة لمن سواهم ، حتى مؤرخي النصارى اعتـبروهم « كالأريوسيين » ولذلك وقع اتفاق النصارى الملكانية واليعقوبية على أن هؤلاء

(١) الأقنوم في اللغة بمعنى الشخص أو الذات .

النسطورية هراطقة ومعظم أهالي هذا المذهب في العجم وفيما بين النهرين ، دجلة والفرات ، « في جبل النساطرة » وعند منابع نهر الزاب وبحيرة أرمية ، وبين الفرات وحدود إيران وجنوبي الهند وفي الموصل على دجلة ، وفي أذربيجان ، ويسمون « الكلدان » ، وكانت النسطورية منتشرة في « الحيرة » .

ومن أنه تعالى « واحد ولا دخل فيه للأنوثة والذكورة » ، خلافاً « للمريميين » من النصارى ، فإنهم يقولون بربوبية العذراء ، وهؤلاء كانوا بجزيرة العرب وهم معدودون في نظر جميع الطوائف النصرانية هراطقة ومن أهل البدعة .

ومن أنه تعالى « ليس إله جمال فقط ، ولا إله أرباح فقط ، ولا إله قبيلة واحدة دون أخرى ، ولا أمة واحدة دون سواها » خلافاً لقدماء اليونان ، و . . و . . الخ الخ .

عقيدة الإيمان الكاملة بالله

تلخص عقيدة الإيمان الكاملة بالله بأنه : ﴿ هو اللهُ أحدٌ ، الله الصمدُ لم يلدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحدٌ ﴾ (١١٢) ، ﴿ وربُّكَ يخلُقُ ما يشاءُ ويختارُ ﴾ (٢٨:٦٨) وهو ﴿ خالقُ كلِّ شيءٍ ﴾ (٦ : ١١٢) ، ﴿ إياكَ نعبُدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ (١:٤) وهو ﴿ ربُّ العالمين ﴾ (١:١) ، ﴿ ولله ما في السمواتِ وما في الأرضِ ﴾ (٣ : ١٠٩) ، ﴿ هُوَ الذي خلقَ لكم ما في الأرضِ جميعاً ﴾ (٢ : ٢٩) ﴿ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما ﴾ (٢٥:٥٩) ﴿ اللهَ رَبَّكم وربَّ آبائِكم الأوّلينَ ﴾ (٣٧ : ١٢٦) ﴿ اللهُ الذي سخّر لكم البحر ﴾ (٤٥:١١) ﴿ وألقى في الأرضِ رواسيَ أنْ تميدَ بكم ﴾ (١٦:١٥) ، ﴿ الله الذي رفعَ السموات بغير عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴾ (٢٣ : ٢) . ﴿ وهو الذي يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٧ : ٥٦) ، ﴿ جعلَ لكم الأرضَ

بساطاً ﴾ (٧١ : ١٩) ﴿ واللهُ جعلَ لكم مِنْ أنفسِكُم أزواجاً ﴾ (١٦ : ٧٢) ﴿ واللهُ أنبَتَكُم مِنَ الأرضِ نباتاً ﴾ (٧١ : ١٧) ، ﴿ وعندهُ مفاتِح الغَيبِ لا يَعلَمُها إلاّ هو ، ويَعلمُ ما في البرّ والبحر ، وما تسقُطُ مِنْ ورقةٍ إلاّ يعلَمُها ، ولا حبّةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مُبينٍ ﴾ (٦ : ٥٩) ، ﴿ إنَ اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ ﴾ (٢ : ٢٠) ، ﴿ إنّ ربكَ هو القويُّ العزيزُ ﴾ (١١ : ٦٦) . « أحسنت »

يوسف (ع) يبدأ بالدعوة الى التوحيد

آ(٣٨) « واتَّبعْتُ مِلَّةَ آبائي ، إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ما كانَ لَنا أنْ نُشرِكَ باللهِ مِنْ شَيءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناسِ ، ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يَشكُرونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثلاثون فقام السيد فتح الله اليماني وقال :

يقول يوسف : (واتبعت) مع تمسكي بالدليل والبرهان (ملة آبائي إبراهيم و) ابنه (إسحق و) ابنه (يعقوب) الأنبياء الكرام ، المعروفين في العراق وسورية والحجاز وفلسطين ، فأنا بحمد الله من بيت نبوة وتوحيد ، (ما كان) ما صح (لنا) نحن معاشر الأنبياء (أن نشرك بالله من شيء) لا شيئاً من الشرك ولا شيئاً من الشركاء ، فلا نشرك في عبادته ، وهو شرك الألوهية ، كما لا نشرك معه غيره ، وهو شرك الربوبية ، و (ذلك) التوحيد (من فضل

الله علينا) معاشر الأنبياء الهادين (وعلى الناس) المهتدين ، فلذلك نحن وهؤلاء الناس شاكرون له فعلاً بتمسكنا بالتوحيد ، وشاكرون له بتقديرنا هذه النعمة واعترافنا بهذا الفضل ، وثنائنا لله عليه (ولكن أكثر الناس) مع الأسف خاصة هؤلاء المصريين (لا يشكرون) نعمة التوحيد ، لافعلاً باتباعها ، ولا قولاً بالثناء على مجديها . ووجه كون التوحيد من فضل الله أنه تعالى نصب الأدلة التي ينظر فيها الإنسان ويستدل بها ثم لطف بن لطف حتى توفق للتوحيد، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكنهم لم ينظروا ولم يستدلوا اتباعاً لأهوائهم فبقوا كافرين غير شاكرين ، قال تعالى : ﴿ وقليلٌ مِنْ عبادي الشكور ﴾ (٣٤:١٣) والشاكرون في المائة لا يتجاوزون عدد الأنامل ، ولا حركات العوامل .

(واتبعت ملة آبائي : إبراهيم وإسحق ويعقوب)

— ١ —

وقام صنع الله الصيداوي [١] وقال :

ملة آباء يوسف (ع)

كان يوسف عليه السلام تابعاً لملة آبائه ، عقيدة وشريعة ، فكان تابعاً في ذلك لأبيه يعقوب ، التابع لأبيه إسحاق ، التابع لأبيه إبراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، « فالملة » هي في البدء لإبراهيم ، أما أنساله المذكورون ، فتابعون له فيها ، وإن كانوا أنبياء . ومن أمثلة ذلك أن أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ، تابعون له في شريعة التوراة وعقيدتها ، مؤيدون لها ، مفسرون لمعانيها ، حاضون على العمل بها والرجوع إليها ، مع أن كل واحد منهم ، نبي ،

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

وقد يكون البعض منهم رسولاً أيضاً ، وقد يكون كثير منهم أصحاب أسفار مجيدة .

أصول الدين الموجودة في كل ملة موحدة

نعلم من سابق قوله : ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ولاحق قوله : ﴿ واتبعت ملة آبائي .. الخ ﴾ أن ملة آبائه هذه التي اتبعها هي الإيمان بالله وبالآخرة ، ثم بالطبع كل من آمن بالله والآخرة لزم أن يعمل عملاً صالحاً ، وهذه الثلاثة هي أصول دين الله تعالى الموجودة في كل ملة ، لا يتباين فيها دين ودين ، بل الأديان فيها سواء ، قال تعالى : ﴿ إن الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والنصارى والصابئينَ ، مَنْ آمنَ باللهِ واليوم الآخرِ وعَمِلَ صالحاً ، فلهُم أجرُهُم عندَ ربِّهم ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون ﴾ (٢: ٦٢) ، وقال تعالى : ﴿ يؤمِنون بالله واليومِ الآخرِ ، ويأمُرونَ بالمعروفِ وينْهَونَ عن المُنكَرِ ، ويُسارِعُون في الخَيْراتِ ، وأولئكَ مِنَ الصَّالحينَ ﴾ (٣ : ١١٤) ، وقال تعالى : ﴿ وماذا عليهم لَوْ آمَنوا باللهِ واليومِ الآخرِ وأنفَقوا مِما رَزَقَهم اللهُ ؟ ، وكان اللهُ بهم عليماً ﴾ (٤: ٣٨) ، وقال تعالى : ﴿ إنَّما يَعمُرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ ، ولم يَخْشَ إلاّ اللهَ ، فعسى أولئكَ أنْ يكونوا مِنَ المُهْتَدين ، أجَعَلْتُم سِقايةَ الحاجِّ وَعِمارةَ المسجدِ الحرامِ كمَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، وجاهَدَ في سبيلِ اللهِ لا يَستَوونَ عِندَ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدي القومَ الظالمين ﴾ (٩: ١٩ و ٢٠) وقال تعالى : ﴿ ومِنَ الأعرابِ مَنْ يُؤمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ويَتَّخِذُ ما يُنفِقُ قُرُباتٍ عندَ اللهِ وصَلَواتِ الرسولِ ، ألا إنها قُرْبَةٌ لهم ، سيُدخِلُهُم اللهُ في رَحْمَتِهِ ، إنَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ ﴾ (٩ : ١٠٠) ، وقال تعالى : ﴿ قاتِلوا الذينَ لا يُؤمنونَ باللهِ ، ولا باليوم

الآخِرِ ، ولا يُحرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ، ولا يَدينُونَ دينَ الحقِّ مِنَ الذينَ أوتوا الكتابَ ، حتى يُعطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ ، وهم صاغِرونَ ﴾ (٩ : ٣٠) وقال تعالى : وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْباً ، فقالَ : يا قومِ اعبدوا اللهَ وارْجُوا اليومَ الآخِر ، ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسِدينَ ﴾ (٢٩ : ٣٦) ، وقال تعالى : ﴿ لقدْ كانَ لكم في رسولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، وذَكَرَ اللهَ كثيراً ﴾ (٣٣ : ٢١) ، هذا ما يحضرني الآن من الآيات التي تجمع الأصول الثلاثة المهمة ، وهي الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح .

أركان الإيمان الستة

ويزاد على هذه الثلاثة ثلاثة أيضاً ، وهي: الإيمان بالملائكة والأنبياء والكتب السماوية ، ومجموع الستة هو أركان الإيمان ، وهذه الستة مذكورة في نحو قوله تعالى : ﴿ ليسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبلَ المَشْرِقِ والمَغربِ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِر ، والملائكة والكِتاب والنَّبيِّينَ وأتى المال « على حُبِّهِ » ذَوي القُرْبى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والموفونَ بعَهْدِهِمْ إذا عاهَدوا ، والصابرينَ في البأساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ ، أولئكَ الذينَ صَدَقوا وأولئكَ هم المُتَّقونَ ﴾ (٢ : ١٧٦).

العمل بأركان الإيمان شرط هام في الدين

فالعمل شرط مهم لا ندحة عنه ، إذ ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب إليه ولا مجرد فهمه ومعرفته حق المعرفة ، فإن ذلك لا يهدي إلى خير ، ولا يدفع

شراً ، وإنما العمل الانتفاع بكل ما جاء فيه ، هو الذي يرقي صاحبه إلى ذرى الكمال ، وذلك «كالطب» ، فإنه لا يكفي أن يعتقد الإنسان أنه نافع ، فيبرأ من مرضه وأوصابه ، وإنما يحصّل ذلك باستعماله والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، ولذلك حرصت جميع الأديان على تبيان هذه الحقيقة للناس ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا باللهِ ورسولهِ ، ثمّ لمْ يرْتابوا ، وجاهَدوا بأموالِهِم وأنفسِهِم في سبيلِ اللهِ ، أولئكَ هُمُ الصادقون﴾ (٤٩ : ١٥) ، وقال تعالى : ﴿ ليسَ البرّ أنْ تولّوا وُجُوهَكُم ﴾ الخ الآية التي تقدمت ، فالبار الصادق التقي هو بحكم هذه الآية من جمع بين العقيدة الصحيحة ، والأعمال البدنية والمالية والأخلاق الحميدة ، وقال تعالى : ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أماني أهل الكتابِ ، مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ به ، ولا يَجِدْ له من دونِ اللهِ وَلِيّاً ولا نصيراً ومَنْ يعملْ مِنَ الصالحاتِ ، مِنْ ذكرٍ أو أنثى ، وهُوَ مؤمنٌ فأولئكَ يَدْخُلونَ الجنّة ، ولا يُظلَمُونَ نقيراً ﴾ (٤ : ١٢٢ و ١٢٣) وفي القرآن الكريم : ﴿ وقالوا : لن تمسّنا النارُ إلاّ أياماً مَعْدُودَةً قُلْ : أتّخذْتُم عِندَ اللهِ عَهْداً ؟ فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أمْ تقولون على اللهِ ما لا تعلَمونَ بَلى مَنْ كَسَبَ سَيّئةً وأحاطت به خطيئَتُهُ ، فأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنةِ ، هُمْ فيها خالدونَ ﴾ (٢ : ١١١ و ١١٢) .

ونقل عن المسيح ما معناه : «كل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت ، فلم يسقط ، لأنه كان مؤسساً على الصخر ، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها ، يُشَبّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدعت ذلك البيت

فسقط ، وكان سقوطه عظيماً » (مت : ٧ : ٢٤ – ٢٧) ونقــل عنه أيضاً ما معناه : « ماذا تظنون ؟ كان لإنسان ابنان ، فجاء إلى الأول وقال : يا ابني، اذهب اليوم اعمل في كرمي ، فأجاب وقال : ما أريد ؛ ولكنه ندم أخــيراً ومضى ، وجاء إلى الثاني وقال كذلك – فأجاب وقال : ها أنا ياسيد ، ولم يمض فأي الاثنين عمل إرادة أبيه ؟ قالوا له : الأول – قال لهم يسوع : الحقّ أقول لكم ، إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (مت ٢١:٢٨-٣١) .

عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد

كان نسب يوسف عليه السلام غامضاً عند المصريين ، وكان يحسب أنه من غمار الناس، سواء أيام وجوده عبداً في بيت العزيز، أو في أزمنة سجنه ، ولكنه لما وجد أنه اضطهد اضطهاداً زائداً ، وقد حانت له الفرصة ، أظهر نسبه أمــام الفتيين فبغتا عند سماعهما كلامه ، وعظم في أعينهما أكثر من ذي قبل (إذ قال لهما إني متولد من سلالة الموحدين ، دعاة التوحيد، وقد اتبعت ملتهم وهم إبراهيم وإسحاق عليهما صلوات الله ورحمته وبركاته ، ويعقوب حفظه الله ؛ فإن كنتما ممن سمع بهم فقد كفا كما سمعتماه ، وإن كنتما لم تسمعا بهم ، فسلوا عنهــم من أهل « ما بين النهرين » وأهل مملكة « آرام » ومملكة « أبي مالك ») .

وغني عن البيان أنه لا يريد بهذا القول الفخار بذكر سلسلة النسب ، لأن سائر الشرائع السماوية جاءت تدعو لمحو التعصب للقبيلة والتمسك بالأنساب، ففي الحديث الشريف : « المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » ، ولكن يوسف عليه السلام ذكر آباءه ضمن ذكره اتباع عقيدة التوحيد .

أو تقول : ذكر ذلك على سبيل التحدث بالنعمة ، لا عــلى سبيل الفخر والعجنهية وعلى كل فهو « ديمقراطي » صميم ، وليس فيه شيء من «الثيوقراطية».

وهنا نذكر الشيء بالشيء فنقول إن إبراهيم عليه السلام ولد سنة (٢٦٢٠) ق. هـ وكل حياته (١٧٥) سنة ، وبعد (١٠٠) سنة من عمره ولد له إسحاق عليه السلام فيكون إسحاق قد عاش مع أبيه (٧٥) سنة ، وكل حياة إسحاق (١٨٠) سنة ، وبعد ٦٠ سنة من عمره ولد له يعقوب عليه السلام ، فيكون يعقوب قد عاش مع أبيه (١٢٠) سنة ، وكل حياة يعقوب (١٤٩) سنة ؛ وبعد (٩٣) سنة من عمره ولد له يوسف عليه السلام ، فيكون يوسف قد عاش مع أبيه (٥٦) سنة ، وبذلك أمكن ليوسف أن يتلقى التوحيد ويتلقنه جيداً من أبيه يعقوب، كما أمكن ليعقوب أن يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إسحاق ، كما أمكن لإسحاق أن يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إبراهيم ، فضلاً عن أن كل واحد منهم قد صار فيما بعد نبياً ورسولاً كريماً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم .

إذا تقرر هذا ، فقوله : ﴿ واتبعت ملة آبائي ..﴾ الخ ، يحمل على اتباع فرد من أفراد الأمة لنبيها ، بالنسبة لمدته التي قبل نبوته ، حينما كان من أمة أبيه يعقوب تابعاً صرفاً له ، ثم صار بعد ذلك رسولاً ، كما قال: ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ من قبلُ بالبيِّناتِ فما زِلتُم في شك مما جاءَكم به ، حتى إذا هلَكَ ، قلتم : لن يَبعثَ الله مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾(٤٠ : ٣٤) ، فيوسف في هذا مع أبيه نظير « لوط » عليه السلام مع عمه إبراهيم ، حيث كان قبل نبوته فرداً من أفراد أمة عمه ، تابعاً له ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ (٢٩ : ٢٦) ، ثم صار لوط من بعد ذلك نبياً ورسولاً ، كما قال : ﴿ وإنْ لوطاً لَمِنَ المُرسَلينَ ﴾ (٣٧ : ١٣٣) وهكذا كان « يوشع بن نون » فتى موسى بالنسبة لموسى ، وسليمان بالنسبة لأبيه داود ، عليهم جميعاً الصلاة والتسليم .

(ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء)

-١-

وقام مولانا صنعة الله الهندي وقال :

يوسف ينهى عن الشرك بالله وأسلوب القرآن في استعمال النفي بمعنى النهي

يقول يوسف عليه السلام : (إن كل شيء من أمر الجاهلية والتوثن هو تحت أقدامنا ، هو موضوع ليس له قيمة ، هو خلاف قضية العقل ، ولا يجوز لنا شرعاً ولا عقلاً أن نجعل لله شريكاً في عبادته وطاعته ، كما في ربوبيته) أو هو نفي بمعنى النهي ، أي لننته عن الشرك . ويوجد في القرآن من هذا الأسلوب الشيء الكثير ، وإليكم بعض الشواهد :

(١) قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مساجِدَ الله أن يُذكَر فيها اسمُهُ وسعى في خَرابِها ؟.. أولئكَ ما كانَ لهم أن يَدخُلوها إلاّ خائفين ﴾ (٢ : ١١٤) ، أي لا ينبغي للمؤمنين أن يمكنوا هؤلاء من دخول مساجدهم ، إذ ما كان لهم في حكم الله وشرعه أن يدخلوها إلا خائفين ، فهذا النفي كناية عن نهي المؤمنين من أن يمكنوا أحداً من إلحاق الأذى بمساجدهم.

(٢) قوله تعالى : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) أي لا يباح لكم ذلكم ، فهو نفي للإباحة ، أو نهي بمعنى لا تؤذوا ..الخ .

(٣) قوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المُطهَّرونَ ﴾ (٥٦ : ٧٩) ، أي لا يجوز لهم مسّه بغير طهر ، أو هو نهي في المعنى أي لا يمَسّه إلا المطهرون .

(٤) قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً ﴾ (٤ : ١٤٠) أي لم يكن ليجعل من أحكام شريعته ، ما يُلزم المسلمين بالخنوع والإنقياد لأحكام الكافرين ، ولا يوجب عليهم السكون والطمأنينة لسلطانهم ، لأنه يريد أن تكون كلمة الذين كفروا هي السفلى وكلمته هي العليا، أو هو محمول على النهي ، والمعنى لا تجعلوا أيها المؤمنين سبيلاً عليكم للكافرين، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ﴾ (٤ : ٥٨) ، فكلمة « منكم » صريحة في أنه ليس للمؤمنين أن يطيعوا أولي الأمر من غير أنفسهم إلا أن يتقوا منهم تقاة ، إلى غير ذلك من الشواهد والأمثال القرآنية .

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الأنبياء

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الأنبياء حتى المسيح، فالمسيح ما جاء لينقض الناموس ، الذي أساسه التوحيد ، بل ليتمم ، ولكن « بولس » الذي هو أفضل مقدس عند النصارى ،نقض الناموس حجراً حجراً ،ولبنة لبنة، مع أنه يوجد عندهم نصوص واضحة في عقيدة التوحيد ، وإنما هم مع ـ الأسف ـ أهملوها وأولوها وحرفوها .

نصوص عقيدة التوحيد في « الإنجيل »

منها ـ قول المسيح : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوكَ أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) (يو ١٧ : ٣) فبيّن أن الله تعالى هو الإله وحده ، وأن يسوع المسيح إنما هو رسوله فقط ، وهذا هو الذي دعا إليه القرآن ، وهو عندهم بمثابة ما هو عندنا ، من قولنا : « لا إلهَ إلا اللهُ ، محمد رسولُ الله » ، وكان يجب أن يكون هذا النص أساس عقيدتهم ، يرد إليه

بالتأويل كل ما يوهم خلافه ، لأجل المطابقة بين المنقولات بعضها مع بعض ، ولأجل موافقة المنقول للمعقول .

ومنها – أن أحد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا ، فأجابه يسوع : (أول الوصايا « اسمعْ يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد – فقال له الكاتب جيداً يامعلم بالحق نطقت ، لأنه واحد ، وليس آخر سواه ... فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له : لست بعيداً عن ملكوت السموات) (مر : ١٢ : ٢٩ و ٣٢ و ٣٤) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولةالتي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ، فإن فرضنا أنه ورد ما ينافيها،وجب رده إليها .

الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية

والمراد من قوله : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ نفي جواز نوعي الشرك في الربوبية ، الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ، أما الشرك في الربوبية فهو أن يطاع غير الله في أمر ونهي وتشريع وتحليل وتحريم، وبعبارة أخرى : أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم لذاته ، فهذا هو الشرك في الربوبية المشار إليه بقوله : « أأرباب متفرقون خير ؟ » الخ وقد فسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً بطاعتهم فيما يحلون ويحرمون .

والشرك في الألوهية ، هو أن يعبد مع الله سواه ، وبعبارة أخرى ، أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية العامة ، فترجو نفعه وتخاف ضره ، وتدعوه وتذل له ، سواء شعرت في توجه قلبك إليه بأنه ينفعك بذاته ، أو بتأثيره في إرادة الله تعالى ، بحيث يفعل لأجله ما لم يكن يفعله لولاه ،

بمحض فضله ورحمته ، فهذا هو الشرك في الألوهية ، المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء ... ﴾ الخ (آ ٤٠٠) .

(وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس)

— ١ —

وقال جمال الدين البغدادي : —

« التوحيد فضل من الله على عباده »

يقول يوسف: إن ما ذكر من الترك والاتباع ، الذي حاصله ملة التوحيد، هو من فضل الله علينا ، لأنه وإن يكن بكسبنا وأعمال أفكارنا وسعينا ، ولكنا إنما وصلنا إليه ، وحصلنا عليه ، بتوفيق الله تعالى. أو إن (ذلك التوحيد هو من فضل الله علينا) وليس علينا نحن خاصة ، بل (وعلى) عموم (الناس) لأنه الوسيلة العظمى ، لجمع كلمة الخلق ، والذريعة الكبرى لانتظام أمور معاشهم ، فحسن العاقبة في معادهم ، وكيف لا .. وإن فكرة الحب الإنساني العام هى ناشئة عن الاعتقاد بوحدانية الله ، الله الذي نحن جميعاً (رعيته) وهو « الملك » الواحد الأكبر لجميع هؤلاء « الرعايا » فإذا « المملكة » واحدة و « مليكها » واحد و « الراية » واحدة ، و « التابعية » واحدة ، إذاً فنحن « إخوة » في الدين ، وليس بيننا « أجنبي » في هذه « المملكة الدينية » . أو أن « ذلك » التوحيد « من فضل الله . ؟ الخ » فهو مائدة مباركة منصوبة لمن يريد الجثو حولها ، والتناول منها ، فنصب هذه المائدة هو من محض كرم الله على عباده ، وأمـــا التوجه إليها وتغذية الروح بها ، فهو متعلق بكسبنا ، ولا ينال إلا بعمل الفكر وسعي العقل ، ومع كل ذلك ، فهذا التوجه لهذه المائدة ، يحتاج إلى لطف وتيسير من الله تعالى ، فعلى كل نحن أسراء فضـــل الله تعالى الموهوب والمكسوب ، قال الشاعر :

فلله سبحانه الحمد دومـاً ولـه الشكر بكرة وعشية

وهذا القول : ﴿ ذلك من فضل الله علينا .. ﴾ يذكرنا بقوله تعـالى : ﴿ يا بني إسرائيلَ : اذكروا نِعْمَتِيِ التي أنعمتُ عليكم ، وأني فضّلتُكُم على العالمين ﴾ (٢ : ٤٦) فهذا التفضلة التي فضلهم الله بها على عالمي زمانهم ، أي على الأمم المعاصرة لهم هي « التوحيد » الذي ذكر أنه من فضل الله عـلى بيت إبراهيم .

ومع ذلك فيوسف (ع) لم يخص شخصه ولا بيته بهذا الفضل ، بل قال: و « على الناس » فعممه للجميع موافقة للواقع .

المؤمنون إخوة

فالشرائع السماوية تهدم «الوحدة القَبَلية » «والوحدة العنصرية » وتكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس والعنصر ، فالمؤمنون كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله وتنفيذ أمره ، قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٩ : ١٠) وقال : ﴿ إنّ أكرَمكُم عند اللهِ أتقاكم ﴾ (٤٩ : ١٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتـل عصبية » وقال ﷺ : « من دعا إلى عصبية فمات ، مات ميتة جاهلية» ، وقال « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، وقال ﷺ : « الناس سواسية » ، وقال : « ربّ أشعث أغبر ، لو أقسم على الله لأبرّه » .

(المرء بأعماله لا بنسبه)

وثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « من بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » رواه مسلم ، وخطب النبي ﷺ في خطبة الوداع : « أيها الناس ، إن الله تعـالى أذهب عنـكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ،

ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

وقال الشاعر :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواءُ
فإن يكن لهم من قبل ذا نسب ... يفاخرون به فالطين والماءُ

وقال :

وإني وإن كنت ابن سيد (عامر) ... وفي السِر منها والصريح المهذّبِ
فما سوّدتني (عامر) عن ولادة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتّقي ... أذاها ، وأرمي من رماها بمنكبي

فهذا مع إمكانه أن يفتخر بالآباء ، لم يفتخر إلا بنفسه ، وقد أخذ هذا المعنى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الأحساب نتكلُ
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ورأى « المأمون » يوماً رجلاً ، من أبدع الناس زياً ، ووقاراً وهيبة ، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فسأل عنه المأمون ، فقيل له : « إنه عالم من العلماء » فأنشد عندئذ قول الشاعر :

كن ابن من شئت واتخذ أدباً ... يغنيك مأثوره عن النسبِ
إن الفتى من يقول : هـا أنا ذا ... ليس الفتى من يقول : كان أبي

وتكلم رجل عند « عبد الملك » بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فقال له وقد أعجبه : « ابن من أنت يا غلام ؟ — فقال : ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، التي نلت بها هذا المقعد منك ، — قال : صدقت » .

قالت عائشة (رض) ما معناه : « إذا كرمت أفعال الإنسان لم يضره آبائه ، وإذا لؤمت ، لم ينفعه كرم آبائه » وقال المعري :

لو يعلم الإنسان مقداره　　لم يفخر المولى على عبده
لولا سجاياه وأخلاقه　　لكان كالمعدوم في وُجْده [1]
ومجده أفعاله لا الذي　　مِنْ قبله كان ولا بَعدِه

وقال الحريري : تباً لمفتخر ، بعظم نخر ، إنما الفخر بالتقى ، والأدب المنتَقَى .

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما　　فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

وهذا « عصام » الجرمي ، الذي ترقى إلى أن صار حاجباً عند « النعمان ابن المنذر » لم يكن شريفاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشد الناس بأساً وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، فصار أقربهم إلى النعمان .

قال له رجل يوماً : « كيف بلغت هذه المنزلة من الملك ، وأنت دنيء الأصل ؟ » ـ فقال :

نفس عصام سودت عصاما　　وعلّمته الكرَّ والإقداما
وصيرته سيداً هماما

وبذلك صار يقال : (كن عصامياً ، ولا تكن عظامياً) أي افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم .

وللسيد رئيس المؤتمر :

إني وإن أكُ فرع بيت طاهر　　ما ينبغي لي أن أكون بفاخرِ

(١) في وجده : في وجوده .

لكن فخاري بالوداعـــة والتقى والعلم والقلب السليم العامـري[١]

(ولكن أكثر الناس لا يشكرون)

— ١ —

وقال الأستاذ فكرة التركي :

الغمز من قناة الفتيين ، أدب الأنبياء في الخطاب

يقصد يوسف من قوله : (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أن العدد الجم من الغفلة لا يشكرون الله بتوحيده ، بل يكفرون به إذ يشكرون ، فان كـثَرة النِعَم أكثر من الحصى ، وقد أراد يوسف (ع) بقوله هـــذا غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من الشكر في شيء ، ولكنهما بالعكس كفراً بنعمة التوحيد ولم يستعملا فيهما قواهما العقلية .

ويلاحظ أنه لم يقل (ولكن أكثركم لا تشكرون) كما أنه قال : (يا صاحبي السجن) (آ : ٢٩) ولم يقل « أيها المسجونان » وقال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (آ : ٤٠) ولم يقل (ولكن أكثركم لا تعلمون) تحسينـاً للجواب ما أمكن ، وتلطيفاً للخطاب مـــا تيسر ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ﴾ (١٦ : ٢٥) وقال : ﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لنْتَ لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانـفَـضُّوا مِن حولِكَ ﴾ (٣ : ١٥٩) وقال تعالى : ﴿ وإنـكَ لعلى خُلُـقٍ عظيمٍ ﴾ (٦٨ : ٤) وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ومظاهر أمره ، كلهم حكماء رحماء لطفاء أصحاب

---

(١) قوله العامري فيه تورية لأن أصول السيد رئيس المؤتمر القدماء من محلة بني عامر في بلدة غزة هاشم .

أخلاق كريمة وذوو خطابات أدبية ، خلافاً « للبولسيين » الذين نقلوا كما في (مت ١٥ : ٢٢ — ٢٨) أن امرأة كنعانية صرخت للمسيح ليشفي ابنتها المجنونة ، وكانت تقول له : « ارحمني يا سيد يا ابن داود » ، فلم يجبها بكلمة ، فصارت تصيح وراءه ، حتى طلب تلاميذه منه صرفها ، فقال لهم : « لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة » فجاءت وسجدت له قائلة : « يا سيد أعني » - فقال لها . « ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » فقالت له : « نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها » — حينئذ شفى لها ابنتها بعد هذا العناء العظيم ، والإلحاح الكبير . فانظر إلى هذه الجوابات القاسية ، والخطابات اليابسة ، في مقابلة كلام تلك المرأة اللطيف ، وخطابها الأديب ؛ بل إنهم نقلوا عنه أيضاً أنه كان يخاطب قومه بني إسرائيل بالسب واللعن بأفحش الألفاظ ، كقوله : « أيها المراؤون ، والقادة العميان والجهال والحيات أولاد الأفاعي » (مت ٢٣:١٣-٣٦) ، وقوله : « إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (مت ٢١ : ٣١) ، كل هذا نقوله ، ونحن بريئون منه إلى الله ، ولا نعتقد أنه صدر من السيد المسيح ، وإنما ننقله إلزاماً للخصم ، وإظهاراً لما تجر إليه قصص هذه الأناجيل، وبياناً لكمال وأدب البولسيين مع السيد المسيح عليه السلام !!

« هذا ما أعطانا الله وألهم ، وهو بالحقائق أعلم »

يوسف (ع) يدعو الى التوحيد

آ (٣٩) « يا صاحِبَيْ السِّجْنِ ، أأرْبابٌ مُتَفرِّقونَ خيرٌ أمْ اللهُ الواحِدُ القَهّارُ ؟! »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثلاثون فقام العلامة التونسي وقال :

يقول يوسف (ع) بلسان الهادي الداعي مخاطباً الفتيين السجينين : « يا صاحبي السجن » أي يا صاحبيَّ في السجن ، وقد أضاف صاحبيه إلى السجن كما تضاف الليلة للسارق في قولك : يا سارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف ، خاطبهما بذلك تحبباً إليهما وتودداً لأن النصح علاج مر فليصحبه شيء من حلو الكلام ، مثل : يا بني إسرائيل ويا أهل الكتاب ويا أيها الذين آمنوا ، التي صدرت بها جمل الوعظ في كتاب الله المجيد ، « أأرباب متفرقون » في العدد والتكاثر ، أو مختلفون ، أي أن تكون لكما أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا « خير » لكما « أم الله الواحد » أي أم يكون لكما الله الواحد الذي لا يشارك في ربوبيته ولا في ألوهيته « القهار » الذي لا يغالب بل هو الغالب ؟ أفتوني مأجورين ، أفيقوا من نومكم وأجيبوني — وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام المصرية كالفراعنة ، والعجول أبيس وبوخيس وغيرهما ، والشمس والتماسيح ونحوها من معبودات قدماء المصريين ، الذين كانوا يعتقدون بالحلول العام ، وانبثاث الروح الإلهي في العالم انبثاثاً متفاوتاً على قدر ما في المخلوق من مزايا وقوى .

(يا صاحبي السجن ، أأرباباً متفرقون خير ، أم الله الوحد القهار ؟!)

— ١ —

وقام السيد عبد العال البحريني [1] وقال :

يوسف يهدي الفتيين بالمحاجة والإقناع

وقف يوسف ، وقد ألقى على صاحبيه الفتيين نظرة الجد والحماس ، وقال « أيها الصاحبان واحد منكما رأى نفسه في (المنام) أنه يحمل الكأس في يده للملك ، وثانيكما رأى نفسه في (الحـُلم) يحمل الخبز على رأسه ،وأما أنا بدوري فإني أراني في « اليقظة » أحمل بين جنبي قلباً مُليء غيرة دينية ، وتوفرت لديه أسباب الدعوة والإرشاد ، ولذلك وبهذه المناسبة أقول لكما : ناشدتكما الله أأرباب متعددون متشاكسون ، متعادون ، مختلفون ، أفضل يا ترى ، أم الله الواحد القهار ؟ افتكرا وأجيباني ، إذ يجب أن يكون لنا أدمغة ، كما لنـــا رؤوس ، فابحثا فيما بعد هذه الجلسة ، في ذات أنفسكما ، هـل تريان ضمـيركما يشهد أن الأرباب المتعددة ، سيما المتشاكسة المختلفة ، خير من الواحد ؟ أظن أن جوابكما سيكون باختيار الشق الثاني ، فإن لم يحضركما شيء في هـذا الموضوع الآن ، فأجيباني فيما بعد .

يا شريكيّ في عواطفي وبلاي يا شريكي في هذا السجن الذي هو مدار الأشجان ودار الأحزان ومحل الهوان ، يا شريكيّ في السجن الذي تصفو فيه المودة وتخلص النصيحة ، يا شريكيّ في هذا السجن الذي تصير فيه الأعـــداء أصدقاء والبـُعَداء أنسباء ، أفتياني في سؤالي ؟!» .

« أنا لا أزيدكما علماً في ذلك ، فأنتما تعرفان حق المعرفة ، وتحسنـــان أن

---

(١) نسبة الى البحرين احدى الأمارات العربية في شرق جزيرة العرب .

تجيبا عنه الجواب الشافي ، فاترك الجواب في ذلك لكما ، لتحكما بما يوحي به إليكما الوجدان الطاهر ، والعقل الكامل ، أنتما فطنان عاقلان ، فلا توقعا نفسيكما فيما يخالف العقل السليم ، والنقل الصحيح ، فعسى أن تصغيا إلى نداء الضمير ، وتعطيا جواباً يرضاه الواقع » .

« أنا لا أريد أن أصادركما فيما تعتقدان ، ولا أقصد أن أهجم عليكما هجمة قاهرة بل كل الذي أريد منكما أن ترجعا إلى عقولكما ، وتستفتيا ضمائركما ، وتسألا وجدانكما ، أطالبكما بإلحاح أن تتأملا ، فإن الحقيقة بنت الفكرة ، والتدبر قنطرة الصواب ، والاستدلال بريد اليقين » .

« انظرا بعقولكما ، ولا تدوساها تحت أقدامكما ، فإن الله إنما أنعم عليكما بها لتستعملاها ، انظرا لا تستبد بكما رجال دينكما الكهنة المصريون، كما يستبد رجال الأديان الأخرى بعقول عوامهم ، ليكن دينكما عقلياً منطقياً ، ولا يكونن دين تقليد وجمود ، غير موافق للعقل والمنطق » .

هذا ما يرمي إليه كلام يوسف عليه السلام ، وقد أبرز وعظهما في صورة الاستفهام ، حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق.

وأما الفتيان فلم يجيبا يوسف على سؤاله بشيء ، كيف وهما قد يؤلمهما ويكوي غرورهما وكبرياءهما أن يكون جوابهما : ﴿ الله الواحد القهار خير ﴾.

وليسمح لي السادة أن أتكلم الآن كلمة عن الديانة الوثنية بمصر .

الديانة الوثنية بمصر

علمنا أن يوسف عليه السلام، جرى في خطابه للفتيين على طريقة الاختصار

وأجمل الكلام إجمالاً ، ولم يشأ أن يتوسع في تسمية آلهة المصريين الدنيئة مثل العجل أبيس ، والتماسيح والهرر ، بل وكل الحيوانات المنحطة ، ولم يطلق لنفسه العنان في قباحة اعتقادهم (بالثالوث) الأقدس ، المركب من أب وأم وابن ولهم ثواليث متعددة ، أي مجموعة آلهة ثلاثة ، كما في الثالوث المسيحي يعتقدون أن الثالوث هو إله واحد ، ولكن المصريين لا يعتقدون أن ثالوثهم إله واحد ، بل ثلاثة ، غير أنهم يعملون معاً ، وكان لكل مدينة معتبرة (ثالوث) يحرسها ويستحق عبادتها على نوع خاص ، ومن أشهر ثواليثهم (اوسوديس وايسيس وهورس) .

إن ديانة المصريين هي الشرك كباقي الأمم القديمة ، في فينيقية وأشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة والعرب ؛ والمصريون يعتقدون بآلهة كثيرة فائقة العدد ، ويعتقدون بانبثاث الآلهة في كل العالم ، فعندهم أن كل شيء فيه من الألوهية ، بحيث يستحق العبادة ، فأجازوا السجود لكل مخلوق ، وأجازوا أن يكون الإنسان إلهاً ومألوهاً في وقت واحد ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ (٧ : ١٢٦) ، ﴿ ما عَلِمْتُ لكم مِن إلهٍ غيري ﴾ (٢٨ : ٣٨) ، ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (٧٩ : ٢٤) .

كان لكل مدينة في مصر معبود لا يشبه معبود ما يجاورها من المدن ، وكانوا يسمون الإله في هليوبوليس (را) وفي منفيس (أمون) ، وكان لهم في منفيس ثور يدعى (أبيس) وفي جهة أخرى ثور يدعى (بوخيس) وكانوا يعبدون الشمس والليل والفجر والأسد والكبش وابن آوى وغير ذلك من الحيوانات .　(مرحبي)

(يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الواحد القهار ؟!)

– ٢ –

وقام الأستاذ الأزهري (من علماء الأزهر) وقال :

سأسرد على مسامع أعضاء المؤتمر الفوائد التي تضمنتها هذه الآية الكريمة :

واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثلة من القرآن

الفائدة الأولى ـ نجد أن يوسف (ع) قد خاطب الفتيين بأنهما رفيقاه في السجن ، وعشيراه في هذه المحنة ،تزلفاً إليهما ، وارتباطاً بهما وإيناساً لنفوسهما ، واحتراماً لشخصهما ، ذلك كله تمهيداً لما سيذكره من وعظهما ودعوتهما ، وهذا أسلوب لطيف في الوعظ ، كما تقول الوعاظ اليوم : (أيها الاخوان) مثلاً ،ومنه نعلم أنه ينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بكلمة تشف عن ارتباطه بالموعوظين واحترامه وتنزله لهم ، وحفظ كرامتهم ، لكي يستعدوا بذلك لقبول الموعظة الأمر الذي يشفع للواعظ بسبب ما يستلزمه الوعظ من فتنة الإهانة ، فعندئذ يسهل على الناس احتمال الوعظ . ويقرب قبولهم إياه ، وقد قال صاحبنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان : « النصح علاج مرّ ، فليصحبه شيء من حلو الكلام » وهذه طريقة القرآن الكريم التي جرى عليها في مواضع كثيرة جداً ، وإليك بعض أمثلة على ذلك :

أولاً – قال تعالى : ﴿ يا بَني إسرائيلَ ، اذكُروا نِعْمتيَ التي أنعمتُ عليكم وإني فضّلتُكُم على العالمين ، واتقوا يوماً لا تَجزي نفسٌ عن نَفسٍ شيئاً ، ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخَذُ منها عَدْلٌ ولا هم يُنصَرونَ ﴾ (٢ : ٤٧) ، أراد تعالى أن يأمرهم بالتقوى

فاستهل ذلك أولاً بتشريفهم بأنهم سلالة يعقوب ، وأنهم مهبط نعمة الله ، وأنه تعالى فضلهم على معاصريهم .

ثانياً — قال تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل ، اذكُروا نِعْمَتِي التي أنعمتُ عليكم وأوْفُوا بِعَهدِي أوفِ بعهدِكم ، وإيايَ فارهبونَ ﴾ (٢ : ٤٠) .

ثالثاً — ﴿ يا أهلَ الكتابِ ، لِمَ تَكفُرونَ بآياتِ اللهِ ، وأنتم تَشْهَدون ؟ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَلبِسُونَ الحقَّ بالباطلِ ، وتكتُمونَ الحقّ ، وأنتم تَعْلَمون ؟ ﴾ (٣ : ٧٠ و ٧١) .

رابعاً — ﴿ يا أيها الذين أوتُوا الكتاب ، آمِنُوا بما نَزّلنا مُصَدِّقاً لما مَعَكم ﴾ الخ (٣ : ٤٦) .

وتراه إذا أراد وعظ المؤمنين وإرشادهم يقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ، لا تقولوا « راعِنا » وقولوا « انظُرنا » ﴾ (٢ : ١٠٤) ، ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا استعينوا بالصبر والصلاةِ ، إنَّ اللهَ مع الصابرينَ ﴾ (٢ :١٥٣) ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ، ادخُلوا في السِّلْمِ كافّةً ، ولا تَتّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ ، إنّهُ لكم عَدوٌّ مُبين ﴾ (٢ : ٢٠٨) .

كما إنك تراه إذا خاطب كفار أهل مكة ، ناصحاً ومرشداً لهم يقول : ﴿ يا أيها الناسُ اعبُدوا رَبّكم الذي خلَقكم والذين من قبلِكم لعلكم تَتقون ﴾ (٢ : ٢١) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناسُ ، كلُوا مما في الأرضِ حلالاً طيِّباً ، ولا تَتّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ إنّه لكم عدوٌّ مبينٌ ﴾ (٢ : ١٦٨) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربّكم الذي خلَقكم مِنْ نفسٍ واحدةٍ ، وخلق منها زوجها ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا الله الذي تساءَلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٤ : ١) .

هذا .. وأما نحو ﴿ قُلْ يا أيها الـكافرون َلا أعْبُدُ ما تعْبُدون ﴾ (١٠٩ : ١و٢) الخ فهو ليس من باب الوعظ والإرشاد ، ولكنه من نوع التنصل والإنفصال ، ولم يرد في القرآن الكريم « يا أيها المنافقون » قط ، فافهم دقائق كتاب الله ، وإلا فالسلام عليك .

واجب المصلح المرشد

الفائدة الثانية – نتعلم من هذه الآية أن الرجل المصلح المرشد ينبغي أن لا يفتر عن تعليم الناس وإرشادهم في كل حين ، وفي أي مكان ، وعلى أي حال ، من عسر أو يسر ، من ضيق أو فرج ، من سرور أو حزن ، فهذا النبي يوسف الصديق قام بالنصح والإرشاد وهو في سجنه ، قياماً بحـــق الإنسانية ، ووفاء بواجب الدين ، نصح ولم تُعِقْهُ ضيقة السجن ، ولا زور التهمة عن أن يقشع عن الناس سحب الضلال ، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ، ويجلوها بجلاء المنطق والحكمة ، فكان بذلك من المحسنين ، فليقم العلمــاء والمرشدون ، إلى انتشال الأميين من وهدة الجهل ، وليرفعوهم إلى سماء الفضيلة ، وليعمموا العلم بـــين أفراد الأمة .

كما نتعلم من كلام السيد الصديق درساً آخر ، وهو أنه ينبغي للعالم المرشد أن لا يبخل برشده وهدايته على أحد مطلقاً ، حتى لو كان غريباً في الوطن أو الجنسية ، فقد نصح عليه السلام للمصريين ، وهو غريب عن وطنهم وجنسيتهم ، فلا ينبغي للعالم إذا وجد في بلد غير بلده ، أو بين أقوام ليسوا من جنسه ، أن لا يقرأ درس الوعظ والإرشاد ، ولا يقوم بهداية العباد ، بل عليه ذلك اقتداء بهذا النبي الصديق وباقي الأنبياء الكرام ، الذين لم يقتصروا في هدايتهم وإرشادهم على أهل وطنهم ، وذوي جنسيتهم ، بل عمموا العلم للجميع ..

الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا إكراه في الدين

الفائدة الثالثة – نتعلم من هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها ، أن الدعوة إلى الحق . لا تكون بالسيف والسنان ، ولكن بالدليل والبرهان ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ ، لستَ عليهم بمصَيْطِرٍ ﴾ (٨٨ : ٢١ و ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ يُطع الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ ، ومَنْ تولّى فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً ﴾ (٤ : ٧٩) وقال تعالى : ﴿ فإن أعرَضُوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً ، إنْ عليكَ إلا البلاغ ﴾ (٤٢:٤٨) وقال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائرُ منْ رَبكُم ، فمن أبْصرَ فلِنفسهِ ومَنْ عَميَ فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال تعالى ﴿ فإنْ تولوْا فقُلْ حَسبيَ اللهُ ، لا إلهَ إلا هو ، عليه تَوَكَّلْت ، وهُو رَبُّ العَرْشِ العظيم ﴾ (٩ : ١٣٠) وقال تعالى : ﴿ وكَذَّبَ بهِ قومُكَ وهو الحقُّ ، قلْ لستُ عليكم بوكيل ﴾ (٦:٦٦) وقال تعالى : ﴿ فمَنْ اهتَدى فلنفسِهِ ، ومَنْ ضلَّ فإنما يَضلُّ عليها ، وما أنتَ عليهم بوكيل ﴾ (٣٩ : ٤١) ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلههُ هواه ، أفأنتَ تكونُ عليه وكيلا ؟ ﴾ (٢٥ : ٤٣) وقال تعالى : ﴿ قل يا قوم أرأيتم إنْ كنتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وآتاني رحمةً منْ عِندِهِ فعُمِّيَتْ عليكم ، أنُلْزِمُكُموها ، وأنتم لها كارِهُون ؟.. ﴾ (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرونَ ، لا أعبُدُ ما تعبدُونَ ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ ، ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُم ، ولا أنتم عابدونَ ما أعبُدُ ، لكم دينُكم ، وليَ دين ﴾ (١٠٩) وقال تعالى : ﴿ وإنْ كَذَّبوكَ فقل لي عَملي ولكم عَمَلُكم ، أنتم بريئون مما أعمَلُ ، وأنا بريءٌ مما تَعْمَلون ﴾ (١٠ : ٤١) وقال تعالى : ﴿ الله ربُّنا وربُّكُم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ، لا حُجةَ بينَنا وبَيْنَكُم ،

الله يجمعُ بيننا وإليه المصير ﴾ (٤٢ : ١٥) ، فمعنى قوله (لا حجة) لا خصومة ، لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به ، فلا حاجة الى المحاجة ، وهو على نية مضاف ، أي لا يراد حجة ، وقال تعالى : ﴿ لا إكْراهَ في الدين ، قد تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ ﴾ (٢ : ٢٥٦) ، وسبب نزول هذه الآية مارواه أبو داود والنسائي وابن حيان وابن جرير عن ابن عباس قال : (كانت المرأة تكون (مقلاة أي لا يعيش لها ولد) فتجعل على نفسها إنْ عاش لها أنْ تهوده ، فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا :لا ندع أبناءنا)، فأنزل الله (لا إكراه في الدين) ، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة وعن ابن عباس قال : (نزلت « لا إكراه في الدين » في رجل من الأنصار من بني سالم ابن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستَكرِهُما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية) فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير أنه حاول إكراههما ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال : (يا رسول الله ، أيدخل بعضي النار ، وأنا أنظر ؟) ولابن جرير عدة روايات ، في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا ، وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا (إكراه) من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب — على الإسلام فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال عندما أنزلت : (قد خيَّرَ الله أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم) .

هذا هو حكم الدين الذي يزعم كثيرون من أعدائه أنه قام بالسيف والقوة قالوا : (إنه كان يُعرضُ على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه) ، هذا كلام أعداء الإسلام ، وهو تعنت أو جهل وإلا فهل كان السيف يعمل عمله في « إكراه » الناس على الإسلام في مكة ، أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفياً ، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع التعذيب ولا يجدون رادعاً ،حتى اضطر النبي وأصحابه إلى الهجرة ؟ أم يقولون :

إن ذلك « الإكراه » وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام ؟ ، وهذه الآية قد نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فإن غزوة « بني النضير » كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، وقال البخاري إنها قبل « غزوة أُحد » ، التي لا خلاف في أنها كانت في شوال ، سنة ثلاث للهجرة ،وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب .

لقد نقض « بنو النضير » عهد النبي ﷺ فكادوا له وهموا باغتياله مرتين، وهم بجوارهفي ضواحي المدينة ، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه « بإكراه » أولادهم المتهودين – على الإسلام ، ومنعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين « الإكراه » على الإسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (٢ : ٢٥٦) .

وقبل أن نختم هذا الموضوع نريد أن نذكر قوله تعالى : ﴿ وقلْ للذينَ أوتوا الكتابَ والأميّينَ ، أأسلمتم؟، فإن أسلموا فقد اهتَدَوْا ، وإن تَوَلّوا فإنما عليكَ البلاغُ ، والله بصيرٌ بالعباد ﴾ (٣ : ٢٠) ، فبهذه الآية نص قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله .

هذا وأما حديث : (أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاالله، فإذا قالوها ، عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها ،وحسابهم على الله)فليس بالإكراه على تلك الكلمة ، لأنهم يمكنهم المهاجرة ، والرسول لا يمنعهم منها ، ولأن المراد (بالناس) العرب في الجزيرة الذين كانوا استحقوا القتال باعتداءاتهم المتوالية على المسلمين ونقضهم المواثيق والعهود التي جاء ذكر نقضها في الآياتالتي قبل هذه الآية ، وجرت القاعدة الإلهية غالباً ، أنه متى قيل في القرآن : (يا أيها الناس) مثلاً ، فالمراد قريش وسائر عرب الجزيرة .

أو أن المعنى حتى يقولوها ولو ظاهراً بلسانهم، غير مكلفينأن يعتقدوها

بدليل التعبير «بالقول» وبكلمة «وحسابهم على الله» فيكون الغرض كف شرهم فقط، لأنهم إذا تظاهروا بالإسلام، لم يقدروا على إيذاء المسلمين المخلصين.

وهناك وجه رابع في الجواب عن هذا الحديث، وهو أنه وقع فيه اختصار من الراوي له، إذ الأصل: (أمرتُ أن أقاتل الناس — أي قريش — حتى يتمكن مريد الإسلام من قوله لا إله إلا الله) كما قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنــــة ويكونَ الدينُ لله﴾ أي حتى يصلوا في الضعف إلى أن لا يقدروا أن يفتنوا المؤمنين، وهو يدل على أن الغرض من القتال كان إيجاد الحرية للمسلمين في العقائد الدينية، قال تعالى: ﴿ما كان لِنَبِيٍّ أنْ يكونَ له أسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرض﴾ (٨ : ٦٧).

والذي يضطرنا إلى نحو هذه التأويلات قرائن منها رواية الترمذي في سننه عن جابر أنه بعد أن أتم الحديث السابق قرأ قوله تعالى: ﴿إنما أنتَ مُذَكِّرٌ لستَ عليهم بِمُصَيطِرٍ﴾ (٨٨ : ٢٢)، فهذه الآية التي استشهد بها رسول الله ﷺ تؤيد ما قلناه في معنى الحديث، وإلا فأي مناسبة بينها وبينه؟ ومنها التوفيق بين الحديث المذكور وبين الآيات القرآنية الكثيرة مثل قوله: ﴿وقُلِ الحقُّ مِن ربِّكُم، فمَنْ شاءَ فَلْيؤمِنْ ومَنْ شـــاءَ فَلْيكْفُرْ﴾ (١٨ : ٢٩) و ﴿ليسَ عليكَ هُداهُم﴾ (٢ : ٢٧٢) ﴿إنكَ لا تَهدي مَنْ أحبَبْتَ ولكنَّ الله يَهدي مَنْ يشاء﴾ (٢٨ : ٥٦) و ﴿وَلو شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهمْ جميعاً. أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنينَ﴾ (١٠ : ٩٩) و ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكم، لا يضُرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتُم﴾ (٥ : ١٠٨) و ﴿لا تَسبُّوا الذين يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ فيَسبُّوا اللهَ عَدْواً بغيرِ عِلْمٍ، كذلك زَيَّنا لكل أمةٍ عمَلَهم، ثم إلى ربهم مَرْجِعُهُم، فيُنَبِّئُهم بما كانوا يَعْمَلون﴾ (٦ : ١٠٨) و ﴿وإنْ أحــدٌ مِنَ المشركين استجارَكَ

فأجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ثم أبْلِغْهُ مأمَنَهُ ذلكَ بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾ (٩ : ٧) وهذه الآيات وأشباهها ليست منسوخة كما قال بعض الناس ، وقد ورد في الحديث الشريف : (سيكون أناس يضربون القرآن بعضه ببعض ليبطلوه ويتبعوا ما تشابه منه ، ولكل دين مجوس وهم مجوس أمتي وكلاب النار) .

انطباق الآية على معتقد البولسيين من النصارى ورد استدلالهم على معتقدهم في ألوهية المسيح

الفائدة الرابعة – ما أصدق هذه الآية الشريفة على « ثالوث » معتقد البولسيين فإنه يحتوي على أرباب متفرقين في الجوهر ، متفرقين في العمل ، أما كون هذا الثالوث مركباً من أرباب ، فلأنهم قالوا ، إنه مركب من الآب وهو رب وإله ، والابن وهو رب وإله ، والروح القدس وهو رب وإله ، والثلاثة واحد ، وأما كون هذه الأرباب الثلاثة أو الأقانيم الثلاثة أو الجواهر الثلاثة أو ما شاءوا يقولون – متفرقين في الأصالة ، فلأن أصل الجميع أقنوم الآب ، وأما الأقنومان الآخران فمشتقان منه أو متوالدان منه ، أو منبثقان منه ، أو ما شاؤوا يقولون ، وأما كون هذه الثلاثة متفرقين في الجوهر ، فلانهم قرروا أن جوهر الآب شخص مستقل قائم بنفسه وكذا جوهر الابن ومثله جوهر الروح القدس ، وأما كون الثلاثة متفرقين في العمل ، فلان الآب هو خالق ما كان وما يكون ، والابن به كان ما كان وبه يكون ما يكون ، والروح القدس هو الذي يبث العلم والنور والهدى في قلوب الناس كما كان هو الناطق بالأنبياء .

هذا ومن المدهشات استدلال النصارى على معتقدهم في ألوهية المسيح بقوله خطاباً لله تعالى : (أنت فيَّ وأنا فيك) (يو ١٧ : ٢١) ولكن هذه الجملة مقتطعة من مقال طويل ، لو سمعه الإنسان لم يقدر أن يستنتج منه معتقدهم ،

واليك نقل هذا المقال ، في دعائه لأتباعه هكذا : (ليكون الجميع واحداً ، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ، ليؤمن العالم أنك أرسلتني ، وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد ، أنا فيهم وأنت فيّ ، ليكونوا مكملين إلى واحد ، وليعلم العالم أنك أرسلتني ، وأحببتهم كما أحببتني) (يو ١٧ : ٢١ — ٢٣) ، وينقلون أيضاً عن المسيح عيسى أنه قال : (إني أنا في أبي ، وأنتم فيّ ، وأنا فيكم) (يو١٤: ٢٠)[١] فهذه العبارات إن ادعوا أنها تدل على ألوهية المسيح ، فلا شك أنه يلزمهم أن يقولوا ، إن تلاميذه أيضاً آلهة ، لأن ما عبر به عن نفسه ، عبر به أيضاً عنهم بلا فرق ، وقريب من هذه التعابير ، قول النبي ﷺ لعليّ (رض) : (أنت مني وأنا منك) أخرجناه في الصحيحين من حديث البراء بن عازب ، وفيهما عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو ، أو قلّت نفقة عيالهم في المدينة ، جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد ، ثم قسموه بينهم بالسوية ، هم مني وأنا منهم) وكذلك قال ﷺ عن حبيب : (هذا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه) ، رواه مسلم في صحيحه عن أبي برزة .

التثليث عند المصريين القدماء

الفائدة الخامسة — كان المصريون القدماء ، ومنهم المعاصرون ليوسف عليه السلام — من أهل « التثليث » ولكن ليس لهم « ثالوث » واحد ، بل كل مقاطعة تعبد « ثالوثاً » ، وكان أصحاب هيكل « منفيس » يعتقدون بثالوت مركب من « الله » قبل كل شيء ، ثم « الكلمة » ومعهما روح القدس ، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » : (لا ريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث

(١) يو : رمز لانجيل يوحنا .

المقدس « كلمة » هو من أصل وثني مصري ، دخـــل في غيره من الديانات كالمسيحية ، و « أبولو » المدفون في بلدة « دهلي » في الهند يدعـى « الكلمة » ، وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يعلّمه القسيس « بلاتو » قبـل المسيح بسنين عديدة ، « الكلمة هي الإله الثاني » وتدعى أيضـاً « ابن الله البكر » فالمصريون يقولون بلاهوت الكلمة ، وأن كل شيء صار بواسطتها ، وأنهـا « منبثقة » من الله ، وأنها هي الله ، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية ، وكذلك « أرسطو » وغيرهما ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بقرون (كذا قاله « بونويك » في كتابه « عقائد قدماء المصريين ») ، وهو أشبه شيء بما في مفتتح إنجيل « يوحنا » بلا فرق ، ولكن اعتقاد مبشري المسيحيين « مقدس » واعتقاد قدماء المصريين « نجس » !!!

وبمناسبة ذكر التثليث عند قدماء المصريين سأذكر التثليث عند باقي الأمم :

التثليث عند باقي الأمم

١ — (التثليث عند البراهمة) : « البراهمة » من الهند يعبدون « ثالوثاً » مركباً من « برهما وفشنو وسيفا » ، وعندهم أن هذه ثلاثة أقانيم متحدة لاتنفك عن الوحدة ، فهي إله واحد ، وعندهم أن « برهما » هو « الآب » و « فشنو » هو « الابن » و « سيفا » هو « الروح القدس » .

فبرهما الآب — هو الممثل لمبادىء التكوين والخلق ، وفشنو الابن — يمثل حفظ الأشياء المكونة — من الزوال والفساد ، هو منبثق عن اللاهوتية ، وسيفا الروح القدس — هو الذي له التصرف والتحويـل في الكون ، ويرمزون له بصورة « حمامـة » ، (كذا قاله « موريس » في كتابه « الآثار الهندية القديمة » ج ٢) وهذا هو نظير اعتقاد مبشري المسيحيين في « ثالوثهم » من كل وجـه . ولكن ثالوث البراهمة نجس ، وثالوث مبشري المسيحيين مقدس !!!..

٢ – (التثليث عند البوذية) : البوذية يعبدون « بوذا » ويسمونه « فو » ويقولون إنه إله ، له ثلاثة أقانيم ، هذا بالنسبة لبوذيي الصين ، وكذلك بوذيو « جيسنت » يقولون إن « جيفا – مثلث الأقانيم ، وكذلك شيعة « تاوو » التي ابتدأت قبل المسيح بنحو ٦٠٤ سنين ، وكانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، فإن « تاوو » عندهم هو العقل الأول ، انبثق منه واحد ، ومن الثاني انبثق ثالث ، وعن هذا الثالث انبثق كل شيء ، وهذا القول بالتولد والانبثاق أدهش العلامة « موريس » لأن قائله وثني ، ولكن الانبثاق عند هؤلاء الوثنيين باطل ، بخلاف الانبثاق عند مبشري المسيحيين فإنه حق !!!...

٣ – (التثليث عند الكلدانيين) الكلدان قوم إبراهيم لهم ثالوث مركب من « إل » و « بعل » و « حيا » وعندهم أن « إل » هو الله، وأما « بعـــل» فتعريبه« كما في قاموس جورج بوست »رب أو سيد،وهما اللفظان اللذان يلقب بهما المسيح كثيراً ، وأما « حيا » فيرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة، فهو قريب من « روح القدس » ؛ وعليه فيكون ثالوث مبشري المسيحيين ، الأب والابن والروح القدس تفسيراً لثالوث الكلدان « إل وبعل وحيا » ولكن ثالوث الكلدان غير صحيح وثالوث مبشري البروتستانت هو الصحيح !!!..

٤ – (التثليث عندالفرس وأهل آسية) : قال « دوان » في كتابـــه « خرافات التوراة » كان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، ويسمونهـا « اوزمرد ، مترات ، أهرمن » فأوزمرد الخلاّق ، ومترات ابن الله المخلّص والوسيط ، وأهرمن الملك ، ودين مبشري البروتستانت يشبه دين هؤلاء ولكن عقيدة المبشرين صحيحة وعقيدة أسلافهم الفرس باطلة !!!..

٥ – (التثليث عند اليونان) : كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ، ولكنه ذو ثلاثة أقانيم ، كذا في كتاب « سكان أوربا الأولين » ؛ وإن اليونان كانوا يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم، ونقل «دوان » عن«أورفيوس »

أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : « كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم » ، هذا اعتقاد اليونانيين القدماء . الذين جال « بولص » في بلادهم جولات واسعة ، وامتزج بهم امتزاجاً شديداً ، ثم إن الكنيسة المسيحية بعد دخول نصرانية « قسطنطين » فيهم ، اقتبست منهم هذا التعليم ، ولكن يوجد فرق جوهري بين عقيدة هؤلاء الوثنيين ، وبين عقيدة مبشري البروتستانت المحققين ، وهذا الفرق كله في قولنا : إن عقيدة وثنيي قدماء اليونان باطلة ، وعقيدة هؤلاء السادة المبشرين حقة !!!..

٦ - (التثليث عند الرومان) : كان الرومان الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث ، فيؤمنون بالله أولاً ، ثم « بالكلمة » ثم « بالروح » ، (كذا في كتاب الخرافات ومخترعوها) تأليف « فسك » ص ٢٠٥ ، وهل هذا سوى عقيدة مبشري البروتستانت اليوم ؟ غير أنهم نزلوا « الكلمة » على السيد المسيح .

٧ - (التثليث عند الفنلنديين) : كان للفنلنديين البرابرة الذين كانوا في شمال بروسية - إله اسمه « تريكلاف » ، وقد وجد له تمثال في « هرتونجرج » ، له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ، قاله « بارخوست » في القاموس العبراني ، وتريكلاف مركب من كلمة « تري » ومعناها ثلاثة ، وكلمة « كلاف » ومعناها إله .

٨ - (التثليث عند الإسكندناويين) : كان الإسكندناويون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، يدعونها « أودين ، تورا ، فري » ويقولون : الثلاثة الأقانيم إله واحد ، وقد كان أهل اسوج ونروج والدنيمارك يفاخر بعضهم بعضاً في بناء الهياكل لهذا الثالوث ، وكانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتماثيل هذا الثالوث ، ويدعون « أودين » باسم الأب ، «تورا» باسم الابن البكر « فري » باسم مانح البركة والنسل والسلام والغنى ، (كذا قاله « دوان » في

كتابه « خرافات التوراة» ص٣٧٧) ، وغير خاف أن هذا الثالوث الإسكندناوي قريب من ثالوث مبشري البروتستانت الأذكياء ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، ولكن عقيدة هؤلاء المبشرين الكرام صادقة ، وأما عقيدة أسلافهم الإسكندناويين فهي كاذبة !!!..

هذا ما تيسر لنا نقله في بحث الثواليث .

فرق النصارى الشهيرة

الفائدة السادسة - فرق النصارى الشهيرة ستة :

الفرقة الأولى الأريوسية : - يقولون بإله واحد ، هو الله ، وينفون الألوهية عن المسيح وعن الروح القدس ، ويحملون ما ورد في الأناجيل من تسمية الله بالآب وتسمية المسيح بالابن - على المجاز ، فهم من أهل التوحيد الصرف ولأجل رد قول رئيسهم « آريوس » بأن المسيح إنسان فقط ، ليس فيه لاهوت فقد انعقد أول مجمع في « نيقية » وهو محل قريب من الاستانة سنة (٣٢٥) مسيحية ، ويقال له « المجمع النيقاوي » وهو الذي قرر عقيدة الأمانة أو «قانون الايمان » وسمّى الآريوسيين « هراطقة » ولكن فكرة آريوس هذه ، وهي عقيدة التوحيد ونفي الألوهية عن المسيح ، قد انتشرت في أوربا في أواسط القرن السادس عشر ، لا سيما في إيطاليا وبولاندة وترانسلفانيا ، وقد اشتهرت هذه البلاد الأخيرة بأنها صارت مهد القول بتوحيد الله تعالى ، ثم انتشرت كنائس الموحدين من النصارى في أوربا وغيرها ، وكذلك أقيمت لهم المدارس في كبريات المدن العالمية ، وفي كل مملكة من الممالك الإسلامية ، وآريوس هـذا يعتقد في المسيح عين ما يعتقده فيه المسلمون ، ويقول عن المسيح إنه ابن الله مجازاً ، وقد كان كاهناً لكنيسة الإسكندرية ، وكان معه على هذا الاعتقاد أتباع من النصارى ورجال الدين كثيرون ، خصوصاً في الشرق ، في مصر وفلسطين ، وكان على

مذهبه من ملوك الرومان الملك « قسطنس » والملك « فالنص » ولما فتح القوط الغربيون « اسبانيا » في القرن الخامس للميلاد كانوا يدينون بالأريوسية ، وظلوا على ذلك قرناً وبعض القرن ، وفي أواخر القرن السادس تولى اسبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » ، اتبع المذهب الكاثوليكي سنة (٥٨٧) للميلاد ، فتبعه الأساقفة ثم الرعية ، فعادت اسبانيا إلى مذهب كنيسة رومية ، ولقد كان المذهب الأريوسي مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية وقضوا نحو مئتي سنة ، وهم على مذهب آريوس ، والذين استبدلوا مذهبهم في أول الأمر إنما استبدلوه مسايرة إلى « ريكارد » ، لا عن اقتناع بالبرهان لأن مذهب آريوس أقرب إلى إحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية ، قال «جين» مؤلف تاريخ المملكة الرومانية ، وهذه الفرقة من النصارى « موحدة » .

وقد حكم المجمع الذي ألّفه الملك قسطنطين سنة (٣٢٥) ميلادية بمقاومة آريوس وإحراق كتبه وتحريم اقتنائها ، ولما انتشر تعليمه من بعده قضى « تيودوسيوس » الثاني باستئصال مذهبه وإبادة الأريوسية بقانون روماني صدر في سنة ٦٢٨ مسيحية ، وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضاً .

الفرقة الثانية المكدونية – يقولون بألوهية المسيح دون الروح القدس ، نسبة إلى مكدونيوس ، أسقف القسطنطينية ، وقد انعقد المجمع الثاني القسطنطيني سنة (٣٨١) مسيحية ، لأجل الرد على مكدونيوس الذي أنكر ألوهية الروح القدس وهذه الفرقة من النصارى « مثنية » .

الفرقة الثالثة الملكانية - يقولون بالثالوث وبطبيعتين وأقنوم واحد . أي للمسيح طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو تقول : طبيعة الإنسان وطبيعة الإله وكل طبيعة على حدتها ، لم تمتزج مع الطبيعة الاخرى ، ومن هؤلاء اللاتين والروم الأرثوذوكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت فجميعهم يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد ، أو بأقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه

يقولون عن السيدة مريم إنها أم الإله أو أم الله ، أو والدة الإله أو الرب ، وهؤلاء طبعاً « مثلثة » .

الفرقة الرابعة النساطرة - يقولون بالثالوث وأن المسيح له أقنومان ، أقنوم ناسوتي وأقنوم لاهوتي ، وأن أقنوم اللاهوت ليس متداخلاً معه ، بل هو مشرق عليه إشراقاً فقط ، ولذلك فليس للمسيح عندهم سوى طبيعة واحدة بشرية ، وأن السيدة مريم لم تلد إلا أقنوم الناسوت ، فليست هي أم الإله ، بل أم الإنسان فقط وهم عند باقي طوائف النصارى أشبه بالزائفين ويسمونهم هراطقة وكان معظم أهالي هذا المذهب موجوداً في العجم وفيما بين النهرين ، أو حوالي ذلك ، ويوجدون عند منابع الزاب ، وبحيرة أورمية ، وما بين العراق وحدود الفرس وجنوبي الهند ، ويسمون « الكلدان » ، ويوجدون في الموصل على نهر دجلة وفي أذربيجان ، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الثالث الإفسوسي سنة (٤٣١) ميلادية ، وينسب هذا المذهب إلى « نسطوروس » أسقف القسطنطينية الذي لا يقول بالتجسد ، أي تجسد أقنوم الكلمة ، ولا يقول بالاتحاد ، أي اتحاد أقنوم الكلمة بناسوت المسيح ، خلافاً للملكانية ، وقد قرر المجمع المذكور أن أصحاب هذا المذهب هراطقة ، ولكنهم على كل حال « مثلثون » .

الفرقة الخامسة اليعقوبية - يقولون بالثالوث ولكن المسيح له طبيعة واحدة واليعاقبة هم اليوم عبارة عن أربع طوائف ، السريان غير الكاثوليك أو إن شئت قلت : السريان القديم ، والأرمن والأقباط بمصر والحبشة ، فهؤلاء يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالإنسانية أو بالعكس ، وهم عند غيرهم من النصارى هراقطة ، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الرابع الخلقيدوني سنة (٤٥١) م وقرر الطبيعتين .

الفرقة السادسة المريمية - تقول بربوبية العذراء ، وأنها أقنوم إلهي ،

وهؤلاء أصحاب بدعة في نظر طوائف النصارى ، (راجع خلاصة تاريخ الكنيسة للمعلم لومند الفرنسي تعريب الخوري يوسف البستاني المطبوع في بيروت، وغيره من تواريخ الكنيسة تقف على العجب العجاب من الخلافات والتفصيلات الكثيرة) .

وقبل الختام وعلى ذكر « الأقباط » نقول كان الأقباط أيام أجدادهم الفراعنة الوثنيين على طريقة الفراعنة في التوثن ، وما زالوا كذلك إلى سنة (٣٨١) ب.م[١] ، ومن هذا التاريخ اعتنقوا النصرانية بأمر « ثيودوسيس » ولكن على مذهب يعقوب البرادعي كما علمت ، وأما الرومان الذين كان لهم الانتداب على مصر فكانوا « ملكانية » ، ولذلك كان يوجد حزازات بين الحكومة الرومانية المنتدبة ، وبين القبط الوطنيين المنتدب عليهم .

شرك المصريين القدماء في الربوبية والألوهية

الفائدة الثامنة ـ نعلم من قوله « أأرباب ... الخ » ومن قوله الآتي « ما تعبدون ... الخ » أنه كان يوجد عند المصريين القدماء شرك في الربوبية وشرك في الألوهية ، فشرك الربوبية كان عندهم باتباع رؤساء دينهم الكهنة فيما يحلون لهم وما يحرمون عليهم « وشرك الألوهية كان عندهم بعبادة غير الله تعالى كالعجل أبيس وسواه ، وقد أخذ النصارى عن المصريين وسواهم هذين النوعين من الشرك ، ولذلك دعا النبي ﷺ أهل الكتاب في كتبه إلى الإسلام بقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يا أهْلَ الكتابِ تعالوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نَعبُدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ، ولا يَتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ الله ، فإن تولّوْا ، فقولوا : اشْهَدُوا بأنا مُسلمون ﴾

(١) أي بعد المسيح .

(٣ : ٦٤) فأهل الكتاب طرأ على توحيدهم شرك في الألوهية باتخاذ المسيح إلهاً وعبادتهم إياه، بل هم قد اتخذوا غيره من حوارييه آلهة بالوساطة والشفاعة، وطرأ عليهم فوق ذلك شرك في الربوبية باتباعهم لأحبارهم ورهبانهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم . فدعاهم النبي ﷺ الى توحيد الألوهية والربوبية معاً .

وحدانيتا الربوبية والالوهية

هذا وهناك وحدانيتان ، وحدانية الربوبية ، ووحدانية الألوهية ، فأما وحدانية الربوبية فهي ترجع إلى الائتمار بأمر الله وحده ، والانتهاء بنهيه وحده ، والرجوع إليه تعالى وحده في التشريع والتحليل والتحريم ، كما ورد في حديث عدي بن حاتم قال : (أتيت رسول الله ﷺ وسمعته يقرأ آية ﴿ اتَّخَذوا أحْبارهُم ورهبانهم أرباباً منْ دونِ اللهِ ﴾ (٩ : ٣١) فقلت له : يا رسول الله ، لم يكونوا يعبدونهم – فقال : (أليس يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله ؟ – فقلت : بلى – قال : فهو ذاك) فالرب هو السيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى وله حق التشريع الذي يربي به الناس .

وأما وحدانية الألوهية فهي ترجع للعبادة أي حصر العبادة في الله تعالى فلا يَسأل إلا الله ولا يَستعين إلا بالله ولا يَعبد سواه .

الدعوة الأدبية

الفائدة التاسعة – هذه الدعوة التي قام بها يوسف عليه السلام من الآية ٣٧ لآخر الآية ٤٠ هي دعوة أدبية وافية بالمقصود، لم تخرج عن دائرة الذوق والكمال الأمر الذي هو أوكد واجبات المناظرة ، فلم يسب تلك الآلهة الباطلة ولم يجرح عاطفة السامعين بكلمة ما ، كما في الحديث الشريف : « المسلم ليس بِسَبّاب ولا لعّان » والله تعالى يقول : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ فيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٦ : ١٠٨) .

(واجب الداعي التحقق مما يدعو إليه)

الفائدة العاشرة – قوله ههنا « أأرباب » الخ الآية الأربعون ، هو الأمر المقصود ، وأما قبله من قوله (ذلكما مما علمني) الخ الآيتين ، فهو تقدمة لهذا الغرض المقصود هنا ، أتى به قبله لأنه يجب على الداعي أن يكون متحققاً بما يدعو إليه ، لكي ينتفع بإرشاده ودعوته ، قال شعيب عليه السلام : ﴿ وما أُريدُ أنْ أخالِفَكم إلى ما أنهاكُم عَنه ﴾ (١١ : ٨٨) يقال خالفني فلان إلى كذا ، إذا قصده ، وأنت مول عنه ،ويقال خالفني عنه إذا ولّى عنه وأنت قاصده ، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء ، فتسأله عن صاحبه ،فيقول خالفني إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً ، وأنا ذاهب عنه صادراً ، فمعنى عبارة شعيب : لا أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها ، لا أستبد بها دونكم وقال تعالى:﴿ هل يستوي هُوَ ومَنْ يأمُرُ بالعدلِ وهُوَ على صِراطٍ مستقيم ؟ ﴾ (١٦ : ٧٦) يعني يأمر الناس بالخير، وهو في نفسه على سيرةصالحة ودين قويم .

وجاء في التنزيل ما فيه تقريع وتعجب من حال الذي يلقي الموعظة ويبسط لسانه بالأمر بالمعروف ، وهو تارك للعمل به من ناحية ، قال تعالى : ﴿ أتأمُرونَ الناسَ بالبرّ وتَنسَوْن أنفسُكمْ وأنتم تتلونَ الكتابَ أفلا تَعقِلونَ ؟ ﴾ (٢ : ٤٢) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تَقولون ما لا تَفعَلونَ ؟ كَبُرَ مقتاً عندَ الله أن تقولوا ما لا تَفعَلونَ ﴾ (٦١ : ٢ و٣).

سبب اقتصار يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد فقط

الفائدة الحادية عشر – الدعوة إلى إصلاح العقائد ، ووضع التوحيد محل التوثن : أمر مهم يقصد منه نقل النفوس من ملة إلى ملة ، ومعلوم أن تحويل

النفوس من عقيدة إلى أخرى صعب جداً على الداعي وعلى المدعو ، ولذلك سأل موسى عليه السلام ربه أن يشرك معه في الرسالة شقيقه هرون ، فقال : ﴿ واجْعَلْ لي وزيراً مِنْ أهْلي هرون أخي ، أشْدُدْ به أزْرِي ، وأشْرِكْه في أمْري ﴾ (٢٠ : ٢٩ - ٣٢) وبعث عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية برجلين اثنين ليدعواهم إلى الإيمان ، فقابلوهما بعناد وتكذيب ، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بعثتهما ، قال تعالى : ﴿ واضْرِب لهم مَثَلاً أصحاب القرية إذْ جاءها المُرسَلون ، إذ أرسَلْنا إليهم اثنين فكذَّبوهُما ، فعَزَّزنا بثالثٍ فقالوا : إنّا إليكم مُرسَلون ﴾ (٢٦ : ١٣ و ١٤) ، وبالنظر إلى صعوبة ذلك وأهميته جداً اقتصر يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد ، وأما الإرشاد إلى أحكام الدين العملية - مثلاً - فهو أيسر من إصلاح العقائد ووضع الإيمان موضع الجحود ، أو وضع التوحيد موضع التوثن ، على أن التوحيد هو الأساس ، فيجب البدء بالدعوة إليه أولاً ، وأما الأعمال الفرعية فينبغي تأخير الدعوة إليها بعد اعتناق الأصول ، وبهذا تعلم نكتة كون يوسف لم ينه رئيس السقاة عن سقي ربه خمراً ، فتفهم هذا ، وإلاّ فالسلام عليك .

مثل من يعبد عدة آلهة أو إلهاً واحداً كمثل العبد المملوك لشركاء عديدين أو لمالك واحد

الفائدة الثانية عشرة - نظير هذه الآية التي نطق بها يوسف عليه السلام قول الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً ، رجلاً ، فيه شُركاءُ مُتَشاكِسُونَ ورجلاً ، سَلَماً لرجل ، هلْ يَستَويانِ مثلاً ؟ ﴾ (٣٩ : ٢٩) فالرجل الأول مملوك من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهنٍ شتى ، ومشاده (أشغال) متنوعة ، وإذا بدت لهم حاجة تدافعوه ، فهو سادر (متحير) في

أمره ، قد تشعبت (فرقت) الهموم قلبه ، وتوزعت (فرقت) أغراضهم أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته ؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ؟

والرجل الثاني قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع ، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل شأناً ؟ ، والمراد تمثيل حال الرجل الأول الذي يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه ، من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ، ويبقى هو محيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد ؟ ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفقه ؟ فهمّه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وحال الرجل الثاني الذى لم يثبت إلا إلهاً واحداً ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما يرضيه ويسخطه ، لا يذل إلا لهذا السيد الفذ ، ولا يعتمد إلاّ عليه ، منه يطلب حوائجه ، وهو مع غيره حر ، مهما مسه الضر .

فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها

الفائدة الثالثة عشرة لقد فتح لنا يوسف الصديق بهذا المقال باب الوعظ والتبشير على مصراعيه ، والقرآن الكريم لا يزال يرشدنا إلى هذه الفكرة الحميدة ، فكرة الدعوة والإرشاد ، كما قال تعالى : ﴿ ولْتَكُنْ منكمْ أمّةٌ يَدْعونَ إلى الخير ، ويأمُرونَ بالمعروفِ ، ويَنْهونَ عنِ المُنكَرِ ﴾ (٣: ١٠٤) وهذا الأمر والنهي هو التواصي في قوله تعالى : ﴿ والعصْرِ إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ إلاّ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحات ، وتَواصَوا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ ﴾ (١٠٣ :) ، ثم إن لهذه الدعوة إلى الخير والأمر والنهي مرتبتان ، فالمرتبة الأولى هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ؛ وعليه فالخير والمعروف هو الإسلام ، والمنكر هو الشرك

والكفر ، ودعوة يوسف ههنا من هذا القبيل ، والمرتبة الثانية في الدعوةوالأمر والنهي – هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف، وتناهيهم عن المنكر،وعليه فالخير والمعروف هو الواجبات،والمنكر هوالحرام.

قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَروا مِنْ بني إسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى ابن مريمَ ، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُون ، كانوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنكرٍ فَعَلوه ، لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلونَ ﴾ (٥ : ٧٨) .

صفات الداعي إلى التوحيد

وإننا بمناسبة دعوةيوسف لهذين الوثنيين نريد أننذكر ما يجب أن يكون عليه « الداعي » من الصفات :

(١) العلم التام بما يدعو إليه ، وهو العلم بالقرآن والسنة والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين . وسلف الأمةالصالح ، وأهم ما يجب أن يعلمه«الداعي» من القرآن معاني الآيات المتعلقة بالنصارى والمسيح وأمه والحواريين ، والآيات التاريخية التي لها علاقتهابتاريخ اليهود .

(٢) العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم الاجتماعية .

(٣) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمة ، ليتيسر « للداعي » بيان ما فيها من الباطل ، فإن المدعو إذا لم يتبين له بطلان ما هو عليه ، لا يلتفت إلى الحق الذي عليه غيره ، وأهم شيء في هذا الباب ، الوقوف علىما عند النصارى « مثلاً » من المذاهب والتقاليد الدينية ، وأهم هذا الأهم، مطالعة كتب تواريخ الكنيسة وكتب الجدل التي لنا ولهم ، والوقوف التام على شرح ما بأيديهم مما يسمونه بالتوراة والإنجيل والتمكن من مواطن الخلاف بين فرق النصارى

الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وما تعتقده كل فرقة في غيرها ، مع الوقوف التام على عقائد الروم الأرثوذكس والروم اللاتين والبروتستانت ، وما تقوله كل فرقة في شأن غيرها .

(٤) – يجب أن يكون « الداعي » نزيهاً عن السباب والشتائم والصخب دمث الأخلاق ، وديعاً ، حمولاً ، حريصاً على مراعاة العواطف ، واحترام من يناظره أو يدعوه ، لا ينطق ببنت شفة تمس كرامة مدعوّه ، أو تجرح عاطفته كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والمَوْعِظَةِ الحسَنةِ ، وجادِلْهُمْ بالتي هيَ أحْسَنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) وأحسن شيء يربي في « الداعي » هذه الملكة ، مراجعته للآيات القرآنية الحاوية على الجدل المتبادل ، بين الأنبياء وأممهم ، والتأمل في ذلك تأملاً عميقاً ، لكي يتخلق بأخلاق الأنبياء ، ويتأدب بآدابهم ويتحمل كما تحملوا ، ويتلطف كما تلطفوا ، فإن في القرآن من ذلك العجب العجاب ، والكنز الثمين الذي لا يقدر بثمن .

اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين

الفائدة الرابعة عشرة – لقد حث يوسف صاحبي السجن في هذه الآية وما بعدها على التوحيد ، ولم يحثهما على الإيمان باليوم الآخر ، لأن ذلك كان من أكبر عقائدهم العتيقة ، من قبل وجود يوسف بينهم ، ولولا اعتقادهم بالدينونة في اليوم الآخر ، ما قال عزيز مصر لامرأته ، لما وجدها خاطئة : ﴿ واستغفري لِذَنْبِكِ إنّكِ كنتِ مِنَ الخاطئينَ ﴾ (آ : ٢٩) والظاهر أن هذه العقيدة ، أتت للمصريين ، من طريق الوحي إليهم ، ولذلك كانوا يعرفونها قبل اليهود ، وكانوا يعتقدون أن قلب الإنسان ، سيوزن يوم القيامة ، لمعرفة إن كان يستحق الرحمة أو العذاب ، ولعل مرادهم من ذلك هو كمراد القرآن عند المحققين مما ذكره مشابهاً لذلك في قوله : ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامَةِ ،

فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإنْ كان مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ ، أتينا بها ، وكفى بنا حاسبينَ ﴾ (٢١ : ٤٧) ، فالمقصود المبالغة في بيان دقة الحساب وكال العدل الإلهي ، في دينونة الخلائق ، كأن أعمالهم أو قلوبهم ، توزن وزناً دقيقاً .

فالمصريون القدماء ، كانوا يعتقدون بيوم الدين ، وكذلك بنو إسرائيل « طبعاً » كما يفهم من قول يوسف : ﴿ إني تركتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ (آ ٣٧) .

وجه عدم ذكر اليوم الآخر في التوراة

لم يذكر يوم الآخرة في أسفار العهد القديم ، لأن وجود بني إسرائيل بين المصريين مدة (٤٣٠) سنة على ذمة التوراة (خر ١٢ : ٤٠) أو مدة (٢١٥) سنة على ما حققه علماء التاريخ المدني- استدعى اقتباسهم منهمهذه العقيدة، التي كانت عالقة كثيراً بأذهان المصريين ، فانتقلت منهم لبني إسرائيل ، وأصبحت من الأمور التي لا يترددون في قبولها ، فلذا لم يحتاجوا للتذكير بها كثيراً .

وهناك وجه ثان لعدم ذكر اليوم الآخر في التوراة ، هو أن اليهود ،كانوا في تلك الأزمنة ، قصيري الإدراك ، بلداء الشعور ، وكانوا ذوي رقاب صلبة (خر ٣٢ : ٩) ، فلذا ما كانوا يتأثرون ، ولا تنفعل نفوسهم بالمواعيد الآجلة ، انفعالهابالمواعيد العاجلة،التي أكثرت كتبهم منذكرهالهم،لغلظ قلوبهم وقساوتها.

ولنا وجه ثالث في الموضوع ، وهو أن كتبهم كالتوراة والزبور دخلها نقض كثير ، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به ، فلعل عدم ذكر اليوم الأخير ، هو من أمثلة هذا النقصان ، ومن أفراد ذاك الحظ الذي نسوه .

عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين بيوم الدين

لقد نجم عن عدم ذكر اليوم الأخير في كتب العهد العتيق ، ضعف هذه العقيدة في اليهود ، وكأنها مع طول الزمن ، تلاشت من بين كثير منهم ، حتى أن اليهود انقسموا إلى قسمين ، قسم يعرفون باسم « فرّيسيّين » يعتقدون بيوم الدين ، وقسم يعرفون باسم « صَدُوقيّين » ينكرون البعث والقيامة (مت ٢٢: ٢٣ ، أ ع٢٣ : ٨) وهنا نتذكر قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا تتولّوْا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهم ، قد يَئِسوا مِنَ الآخرةِ ، كما يئِسَ الكفارُ من أصحابِ القبور ﴾ (٦٠ : ١٣) فهؤلاء « القوم المغضوب عليهم » هم يهود المدينة ، وهؤلاء « الكفار » الذين يئسوا من أن يلاقوا أقاربهم وأصحابهم ، لأنهم لا يعتقدون بالآخرة ، وهم الدهرية من العرب .

إذا تقرر هذا ، فكيف نقدر أن نفهم أن اليهود ، لا يعتقدون بالآخرة ، كالدهرية من العرب ؟ والجواب فيما يظهر لنا هؤلاء اليهود الذين هاجروا للحجاز كانوا من « الصدوقيين » الذين يقولون « لا بعث ولا قيامة » أو كان بعضهم « صدوقياً » وبعضهم « فريسياً » ولكن إذا طال عليهم الأمد ، وامتزج « الفريسي » بكل من « الصدوقي » اليهودي والدهري العربي، ضعف في جميعهم الاعتقاد بالقيامة ، فيئسوا من الآخرة ، كما يئس دهريو العرب .

ضعف عقيدة اليهود بيوم الدين كانت سبباً في كون أكثر معجزات المسيح (ع) تدل على هذه العقيدة

قال الدكتور توفيق صدقي : « وكأنه لهذا ــ أي لضعف هذه العقيدة في اليهود ولكثرة الشك بين الناس فيها ــ جاء المسيح عليه السلام ، لتبيين هذه العقيدة العظمى ، واشتهر بالتصريح بها ، أكثر من جميع من سبقه من أنبياء

بني إسرائيل ، وقد بين قدرة الله تعالى على البعث والنشور بمعجزاته العظيمة ، كإحياء الموتى وخلقه من الطين طيراً ؛ وبوجوده هو نفسه بدون أب ، خلافاً لما اعتاده الناس ، فالله تعالى الذي أجرى على يديه كل هذه الآيات البينات (أع ٢ : ٢٢)[١] لا شك أنه قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

لذلك نرى أن أكثر معجزات السيد المسيح عليه السلام ، هي مما له علاقة بإحياء الميت ليدل بذلك كله على قدرة الله التامة على البعث ، فإن الذي خلقه بدون استيفاء أهم الشروط المعتادة في خلق الأحياء الراقية ، ثم أحيا على يديه الموتى بل الجماد ، لا شك أنه قادر على بعث الخلائق يوم القيامة مهما طرأ عليهم من الفساد والإنحلال والتغيير ، ومهما فقد من الشروط المعتادةأو اللازمة للحياة في هذه الدنيا ، لذلك قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ (١٩ : ٢٠) وجاء عن لسانه مكرراً في موضع واحد قوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٣ : ٤٩ و ٥٠) أي إذا علمتم مما جئتكم به من الآيات ، أن الله موجود ، وأنه سيبعثكم للحساب يوم القيامة ، كان واجباً - عليكم إن كنتم تعقلون - أن تتقوه كمال التقوى وتطيعوني » . اه .

وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود القيامة

وقبل ختم هذا البحث ، يجب أن لا ننسى قوله تعالى في شأن المسيح : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (٤٣ : ٦١) ، وقد قرىء ﴿ عِلْمٌ ﴾ - بدون لام - أي هو سبب للعلم بها ، فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث ، وهذه العبارة في الآية مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، فإنه تعالى أطلق المسبب ، وهو العلم ، وأراد السبب ، وهو عيسى ومعجزاته ،

(١) أع : رمز لسفر الأعمال في التوراة .

كقولك أمطرت السماءُ نباتاً ، وقرىء (عَلَمٌ) ومعناه أن تولد عيسى من غير أب دليل على جواز قيام الموتى من قبورهم ، وذلك لأن فرقة من اليهود وهم (الصدوقيون) كما قدمته لكم ، كما ينكرون القيامة (مر ١٢ : ١٨)[1] فجعل الله تعالى ولادة المسيح من غير أب ، آية لهم على وجود القيامه ، بدون وساطة آباء ، بل بمحض إرادة الله تعالى .

هذا هو الاحتمال الأول لهذه الآية الكريمة ، وفيه الشاهد هنا ، ولبعض المتأخرين احتمال ثان ، وهو أن المسيح عيسى كان علماً لساعة انقراض النبوة من بني إسرائيل ونقلها إلى بني إسماعيل ، ولهذا قال لهم المسيح : (لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ، ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه ، يسحقه) (مت ٢١ : ٤٣ و ٤٤) .

التعليق على قوله « أم الله الواحد »

الفائدة الخامسة عشرة - تعليقاً على قوله ﴿ أم اللهُ الواحدُ ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلْ هو اللهُ أحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لم يَلِد ولم يُولَد ، ولم يكُن له كُفُواً أحَدٌ ﴾ (١١٢ : ١ - ٤) (فالله أحد) إشارة لتوحيد الربوبية ، (والله الصمد) إشارة لتوحيد الألوهية ، الذي كان العرب على خلافه ، وقوله (لم يلد ولم يولد .. الخ) رمز لتوحيد الكمية ، الذي مشى النصارى على خلافه ، إذ أن اليعقوبية من النصارى والأتوخية ومنهم السريان القديم والأرمن والأقباط ، يقولون إن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة لاهوتية فقط ، وليس له طبيعة بشرية ومن نتائج هذه العقيدة القول بأن المسيح هو الله ، وأن العذراء هي أم الله ووالدة الإله ، وأما الملكانية ، ومنهم الإنكليز والفرنسيون والألمان والإيطاليون والروس فيثبتون له طبيعة بشرية مع الطبيعة اللاهوتية .

---

(١) مر : رمز لانجيل مرقص .

التعليق على قوله القهار

الفائدة السادسة عشرة – تعليقاً على قوله (القهار) ، بخلاف هؤلاء الأرباب التي من دون الله ، فهي مقهورة وضعيفة : ﴿ مَثَلُ الذينَ اتخَذُوا من دونِ اللهِ أولياءَ ، كمَثَلِ العَنكبوتِ اتخَذَت بيتاً ، وإنَّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمونَ ﴾ (٢٩ : ٤١) فمثل المشرك الذي يعبد الوثن ، بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله ، مثل العنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافه إلى رجل يبني بيتاً بآجر وجبص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً ، بيت العنكبوت ، كذلك أصعب الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً ، عبادة الأوثان ، قال تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للناسِ ، وما يَعقِلُها إلا العالِمُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٣) .

هذه الكلمة (القهار) تشير إلى أن الرب الإله المعبود، لا يجوز أن يكون ذليلاً مقهوراً ، بل يجب أن يكون عزيزاً غلاباً ، لأن المؤمن يجب أن يكون عزيزاً ، فبالأولى يجب أن يكون معبوده عزيزاً .

يوسف عليه السلام يتابع الدعوة للتوحيد

آ(٤٠) « ما تَعبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلَّا أَسماءً ، سَمَّيْتُمُوها أَنتُمْ وآباؤكُمْ ، ما أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطانٍ ، إنِ الحُكْمُ إلَّا للهِ أَمَرَ أَنْ لا تَعبُدوا إلَّا إيَّاهُ ، ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ » .

افتتحت الجلسةوتليت الآية الأربعونفقام الشيخمصطفى الطنطاويوقال:

ما لبث يوسف أن وجه خطابه لصاحبيه في السجن ولمن على دينهما من أهل مصر بقوله: لا أخفي عليكمأيها المصريون القدماءأنكمما عبدتمو (ماتعبدون من دونه) أي من غيره تعالى ذات إله جوهرية مشخصة ، سوى وهم صرف وعدم محض ، بل لا تعبدون (إلا أسماء) لا غناء فيها ، أربأ بكم أن تعبدوها ، إذ سميتم ما لا يستحق الألوهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها،فكأنكم لا تعبدون سوى أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات ، وهذه الخيالات المعبودة (سميتموها) سميتم بها (أنتم و) من قبلكم (آباؤكم) آلهة ، وهذه المسميات في الحقيقة والواقع مألوهة لا آلهة ، فما أشبه ذلك منكم بتسمية العرب للإناء الفارغ ملآناً ، للسيارة الذاهبة قافلة ، وليست هذه التسمية في محلها ، بل هي كما قال القائل :

أسماءُ مملكةٍ في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

(ما أنزل الله بها) ولا ينزل ولن ينزل أبداً بتسميتها (من سلطان) من حجة ، إذ ليس بيدكم برهان على صحة عبادتها ، ولا عقل يسلم بذلك ، وإنما هي الشبهة تزوجت بتسويل الشيطان فحبلت بهذه المعبودات فولدتها ، فإذا هي تماثيل سيئة المثال ، فمعبوداتكم وليدة شبهة ، ونتيجة تقليد ، فأي باطل أخذتم؟ وأي حق رفضتم ؟!.. والحق الحق أقول : (إن الحكم) في أمر العبادة والدين (إلا لله) وحده لا يعدوه لسواه ، ثم بين ما حكم به فقال : (أمر أن لاتعبدوا إلا إياه) خاصة (ذلك الدين القيم) الثابت الذي دلت عليه البراهين ، والذي يقوم ويثبت به الحق ، والذي هو وحده الكفيل بإصلاح الإنسانية ، والذي يحمل في كيانه العزاء للمكدودين في الحياة ومن انتابتهم مصائبها ، وحلت بهم أرزاؤها ، وهو الذي يحمل في كيانه ما يرضي النفس ويحقق لها مطامحها وآمالها في حياة أخرى ، تقوم على العدل بين الناس ، ويرتفع فيها الغبن وعدم المساواة ، وهو الذي وحده يغرس الفضائل في النفس ، وينشر العواطف الكريمة ، وأمهات

الأخلاق الحسنة (ولكن أكثر الناس) أي السواد الأعظم من الناس في كل زمان ومكان (لا يعلمون) من أمر التوحيد شيئاً ، فالجهلاء على وجه الأرض أكثر من الجراد، ولا يخلو معظم الناس أن يكون من أهل الخُرَق[١] والثَّوَل[٢] لأنهم تبع لكل ناعق وناعر ، والعوام كالأنعام ، لو كانوا عبيداً لأبي يوسف ، صاحب أبي حنيفة ، لأعتقهم وأسقط ولاءه عنهم .

(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم)

- ١ -

وقام السيد الحسام المقدسي وقال :

لي ههنا عدة مسائل بها يتم تفسير الآية وهي:

اعتناق المصريين الأقباط النصرانية

المسألة الأولى – كان المصريون القدماء وثنيين منذ أول عهد الفراعنة ، وبقيت الوثنية فيهم إلى أن دخلت النصرانية في الديار المصرية بأمر « ثيودوسيس » (سنة ٣٨١ ب.م) فاعتنقها المصريون ، وهم الأقباط ، فصاروا على دين الدولة الرومانية الحاكمة في مصر وانقرضت الديانة الوثنية ، وهدمت هياكلها وكسرت تماثيلها ، ولكن كان « الأقباط» متمذهبين بالمذهب «اليعقوبي» وكان « الرومانيون » أصحاب الانتداب في مصر متمذهبين بالمذهب « الملكاني» فالمصريون الأقباط كانوا نصارى يعاقبة ، والرومان الحكام كانوا نصارى ملكانية.

وجوب الجهر بالدعوة الدينية

المسألة الثانية – رمى يوسف صاحبيه وغيرهما من المصريين بحجر واحد،

(١) الخرق بالضم والتحريك ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور.
(٢) الثول الجنون يصيب الشاة .

فقال « ما تعبدون » الخ بصيغة الجمع ، أو يقال : هو لم يرد التحكك بشخصية واحد منها . ولكنه أراد الانتقاد على عمل عام أطبقت عليه الأمة المصرية ، وهو عبادتها لغير الله تعالى ، والمخاطبان يدخلان في كلامه دخولاً أولياً ، رآهم استعبدوا للأهواء ، وخضعوا للأوهام ، وحصروا عقولهم في مضايق الخرافات فنعى عليهم سذاجتهم .

تعرض للطعن عليهم في دينهم ، ولم يبال بما يعلمه من أن كل من تعرض لدين قوم وجد المقاومة الشديدة من الأفراد ، ثم من الجماعات ، ثم من الدولة نفسها التي يمثلها الملك وبلاطه – لم يبال بذلك لأنه يجب على الإنسان الصدع بالأمر الديني والجهر بالدعوة الدينية على كل حال ، شأن أنبياء الله وهداة دينه .

الأمور الداعية لعبادة المعبود

المسألة الثالثة ـ عبادة المعبود نتيجة لأحد أمرين : الأول شعور الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه ، فهو لذلك يخضع له ، رغبة فيما عنده من الخير ، ورهبة مما يقدر عليه من الشر ، ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة ، لتخفيف ما ما ألم به من الكروب .

والأمر الثاني : شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يده من عظائم الأمور ، فالإنسان يتخيل لذلك أن تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة له من الإله القادر على كل شيء ، لأنه يحبه حباً جماً ، فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته إياه ، يرجو بها رضا المعبود الأول، الذي هو وحده خالق العالم،وهو وحده رب السموات والأرضين فإن كان حياً فهو الوسيلة ، وإن كان ميتاً قام قبره مقامه ، أو جعلت له صورة تمثله ، وقد تكون من حجر أو صفر أو ما شاكل ذلك ، وتعطي هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطي صاحبها في حياته .

وقد يكون التعظيم أو العبادة لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة ، أو لجماد نافع أو ضار ، لأن القوة التي أعطيها ، وبها ضر ونفع — أثر من آثار الخالق الوحيد ، وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل ، وتجعل صورته أو تمثاله مما يُقرّب من خالق القُوى ، ويسمون التمثال الذي على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب « صنماً » ؛ ويسمون الحجر الغُفْل من الصنعة « وثناً » وعلى ذلك ورد في القول المأثور عنه ﷺ : (لا تتخذوا قبري وثناً يعبد) .

العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته

المسألة الرابعة — العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشيء عن استشعار القلب بعظمة للمعبود لا يعرف منشؤها ، وعن اعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها ، أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، وإن قبّل موطيء أقدامه . ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً ، وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية ، أفيضت على الملوك من الملإ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً ، أو يعتقدون حلول حصة كبيرة من الألوهية في الملوك ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هـذا الاعتقاد إلى الشرك ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً ، وعبدوهم عبادة حقيقية ، كما هو الحال في المصريين مع فراعنتهم ، والحقيقة أن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له تعالى دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد ، فيعظم تعظيم العبادة . .

ليس في المخلوقات شيء من اللاهوت

المسألة الخامسة - يريد بقوله « الأسماء » إنكم سميتم ما لا يستحق الألوهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات

لأن معنى الألوهية فيها معدوم ، محال وجوده ، وهذا كقوله : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (٧ : ٧٠) ،وقوله: ﴿ ما يدعون من دونه من شيء ﴾ (٢٩ : ٤٢) ، فنتعلم من هذه الآية الكريمة أنه لا لاهوت في شيء من المخلوقات ، ما عبد منها وما لم يعبد ، لا فرق فيها بين الضار والنافع ، ولا بين القوي والضعيف ، خلافاً لقدماء المصريين وأمثالهم .

وقريب من هذا ، وإن يكن ليس من نوعه ، احترام الناس على أسمائها ، لا على أفعالها ، فتجد الإنسان متى فهم أن جليسه هو من الأسرة الفلانية أهال عليه الاحترام ، وقدم له الإكرام ، جزافاً بلا كيل .

وجوب علم أمور الدين علماً استقلالياً استدلالياً

المسألة السادسة ـ سبق في الآية التي قبل هـــذه أن يوسف (ع) أحال المخاطبين إلى غرائزهم وفطرهم ، والآن أقحم في هـــذه الآية كلمة « وآباؤكم » ليذكرهم بتأثير التربية التقليدية في أنفسهم ، ومناشيء عروض الشبهات لأذهانهم وإلزامهم الحجة بمحاسبة عقولهم ، ومخالفة التقاليد والمسلمات للغرائز والملكات وهم في الحقيقة تابعون لآبائهم في ذلك ، كما قال تعالى في إخوانهم من مقلدة قريش :

﴿ وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله ــ قالوا : بل نَتَّبِعُ ما ألفَيْنا عليه آباءنا ــ أوَلَو كانَ آباؤهم لا يَعقِلون شيئاً ولا يَهتَدون ؟ ﴾ (٢ : ١٧٠) وقال تعالى : ﴿ إذ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعوا مِنَ الذين اتَّبَعُوا ، ورأوُا العذابَ ، وتقطَّعَتْ بهم الأسبابُ ﴾ (٢ : ١٦٦) ، ومن هذا نعلم بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصبية جاهلية ، فيجب على الإنسان العلم الاستقلالي الاستدلالي في أمور الدين ، لا سيما الأحـــكام الأساسية الأصولية ، وإن في تحريم الأخذ بالدليل افتياتاً على دين الله ، ونسخاً لكتابه ، وشرعاً لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل ، وهذا منتهى الإفساد

للفطرة والعقل ، وهو أقطع المُدَى لأوصال الحق . وأفعل المعاول لهدم قواعد الأديان ، وعلة العلل لانتشار البدع التي تذهب بهداية الدين ، وتستبدل بها الخرافات ودجل الدجالين .

هذا ما تيسر لنا في هذا المقام ، بإمعان وإنعام ، واتباع الحق أسلم ، والله تعالى بالصواب أعلم . مرحى

وتكلم بعدئذ رئيس المؤتمر مشيراً إلى أنه لم يسمع من السيد الحاضر ما يشفي الغليل في بيانه على قوله تعالى : ﴿ ما أنزلَ اللهُ بها مِنْ سلطانٍ ﴾ فتقدم عندئذ ستة من العلماء الحاضرين طالبين التكلم على هذه الآية فدون أسماءهم ، وقام أولهم وهو الامام الزقازيقي وقال :

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ١ —

اصطلاحات القرآن اللفظية

كل (سُلطان) في القرآن هو بمعنى (الحجة) كما أنه — والشيء بالشيء يذكر - كل فعل في القرآن من (الإمطار) فهو العذاب دائماً بدون استثناء كما قاله البخاري ، وكل كلمة (صَيْحة) في القرآن هي بمعنى (الهلكة) كما قاله البخاري والكشاف ، وكل (ظلل الغمام) في القرآن هو عذاب ، كما يعلم من البخاري أيضاً ، ويعلم من الكشاف أنه متى قيل : (أتاهم الله) مثلاً فهو أيضاً العذاب ، كما إذا قيل (أتاهُم أمرنا) ، (فأتى الله بنيانَهُمْ)، (أو يأتي أمرُ ربك) ، (إلاّ أن يأتيهم اللهُ) ، وكل (وليّ الله) في القرآن ، فهو المؤمن التقي ، وكل (أهل الكتاب) فهو اليهود والنصارى ، وكل (يا أيها الناس) فهو كفار أهل مكة .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

-٢-

ثم قام الشيخ المنصوري [١] وقال :

السلطان والحق وتعظيم شأنهما

« السلطان » الحجة والبينة والبرهان ، وسميت الحجة سلطاناً ، لأن لها سلطة على العقل والقلب ، أو أن اشتقاقه من السليط ، وهو الدهن ، لإضاءته ، وغني عن البيان أن الشرك بالله أبطل الباطل ، فلا يمكن أن تقوم عليه حجة من العقل ، ولا بينة من الوحي ، وإذاً فما معنى قوله ههنا : (ما أنزل الله بها من سلطان ؟) والجواب عن ذلكم أنه تعالى عظم شأن « السلطان » في دينه ، وناط به تصديق دعوى المدعي وردها ، بصرف النظر عن موضوعها ، حتى كأن من جاء « بالسلطان » على الشرك يصدق فيه ، وهو من قبل فرض المحال للمبالغة في مدح البرهان ، وفضل الاستدلال ، وقد قال تعالى في سياق إقامة البراهين على توحيده : ﴿ أإلهٌ مَعَ اللهِ ؟ قُلْ : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢٧ : ٦٤) ، على أنه صرح بأنه ليس لديهم برهان فيما أقام على كذبهم فيه البرهان ؛ وكيف يكون لديهم ما هو في نفسه محال ؟ وذلك في قوله تعالى ﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ! سبحانه هو الغني ، له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ ﴾(١٠:٦٨) أي ليس لديكم أدنى دليل بهذا القول الفظيع الذي تقولونه ، مع أن مثله مما تبطله البراهين والدلائل البينة يحتاج مدعيه إلى أقوى البراهين والحجج ، وأعظمها سلطاناً على العقول ، ومن قبيل مقالة يوسف قول سلفه هود عليهما السلام :

---

(١) نسبة الى المنصورة من البلاد المصرية .

﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما نزل الله بها من سلطان ؟ ﴾ (٧ : ٧١) ، وقول جده إبراهيم : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ (٦ : ٨١) ، وقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وليس لهم به علم ، وما للظالمين من نصير ﴾ (٢٢ : ٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم — إنْ في صدورهم إلاّ كِبْر ، ما هم ببالغيه ﴾ (٤٠ : ٥٦) ومن أمثلة استعمال لفظ « البرهان » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يَدْعُ مع الله إلهاً آخر — لا برهان له به — فإنما حسابُهُ عِندَ ربِّه ، إنه لا يفلِحُ الكافِرونَ ﴾ (٢٣:١١٨) ومن أمثلة استعمال كلمة « حق » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْفُرون بآياتِ اللهِ ، ويَقتُلونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ الخ (٣ : ٢١) ، فهذا القيد يقرر لنا أن ذم الشيء ومدحه يدوران مع « الحق » وجوداً وعدماً ، لا مع الأشخاص والأصناف ، وهو تعظيم لشأن الحق ، حتى كأنه من قتل نبياً بالحق لا يؤاخذ ، وهو من باب فرض المستحيل مبالغة في احترام الحق !!! ونحوه قوله تعالى : ﴿ سأصْرِفُ عن آياتي الذين يَتَكَبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقّ ﴾ (٧ : ١٤٥) ، فلا ريب أن التكبر لا يكون مرة بحق وأخرى بغير حق ، ولكن رمزاً لاحترام الحق ، من حيث هو حق ، وفرضاً للمحال قيل : لو كان التكبر في الأرض بالحقّ لكان مقبولاً ولكنه مستحيل ، لأن التكبر لا يكون إلا باطلاً ، ومن أمثلة استعمال لفظي الحق والسلطان قوله تعالى: ﴿ قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفواحِشَ — ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ — والإثمَ والبغْيَ بغيرِ (الحق) ، وأنْ تُشْرِكوا باللهِ ما لم يُنَزِّل به (سلطاناً) وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تَعْلَمون ﴾ (٧ : ٣٢) وهكذا ورد قوله تعالى : ﴿ نحنُ نقُصُّ عليكَ نَبَأهُم (بالحق) ﴾ (١٨ : ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿ واتْلُ عليهم نَبأَ ابْنَيْ آدم (بالحق) ﴾ (٥ : ٣٠) فهذا ونحوه تعظيم للحق ، وإلا فالله تعالى لا يقص على نبيه نبأ دائماً إلا بالحق ، والنبي لا يتلو على قومه أي نبأ كان إلا بالحق .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

– ٣ –

ثم قام الحافظ البصري [١] وقال :

الدين مبني على الحجة والعلم

يقول ههنا (ما أنزل الله بها من سلطان) وسيأتي له أن يقول : (ولكنّ أكثر الناسِ لا يعلمون) فمن هاتين الكلمتين وأشباههما تتعلم أن الدين مبني على (الحجة) ومؤسس على (العلم) قال تعالى : ﴿ قلْ هاتوا بُرْهانَكم إن كنتم صادقينَ﴾ (٢ : ١١١) ، ﴿ وتلكَ حُجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومهِ ﴾ (٦ : ٨٣) ، ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يُجادِلُ في الله بغَيرِ علمٍ ﴾ (٢٢ : ٣) ، ﴿ إنْ يَتّبِعونَ إلا الظنّ ،وإنّ الظنّ لا يُغْني مِنَ الحقّ شيئاً ﴾(٥٣ : ٢٨)، ﴿ ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به عِلمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) هذا ما يصرح به القرآن ، وهذا ما تشهد به العقول النيرة ، فمن قال إن التقليد يكفي في الدين ، فقد غمس لسانه في حمأة الأغاليط .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

– ٤ –

ثم قام سيدي حسام آغا الفيومي [٢] وقال :

المسميات لا تتبدل بتبدل الأسماء كما أن العجل والشمس والتماسيح لا تصير آلهة بتبديل أسمائها

يقول : (ما أنزل الله بها من سلطان) ويريد أن المخاطبين على ثقة من

(١) نسبة الى البصرة من بلاد العراق .

(٢) نسبة الى الفيوم من البلاد المصرية .

ذلك ، يعقلونه بعقولهم ، ولكنهم يميلون إلى التقاليد المصرية ، الموروثة عن الآباء الأقدمين التي يسميها العلماء « الحركة المستمرة » فيقلبون الحقائق ، ويغيرون النواميس ، ويرون المألوه إلهاً ، والضعيف قوياً وما كانوا يدعون له في الصلاة عليه يوم وفاته ، صار يُدعى بعد نزوله في حفرته !! ، وإذا بلغ الناس في حالتهم العقلية الدينية ، إلى هذه الدرجة ، فقولوا : على عقولهم السلام .

ومعلوم أن المسميات لا تتبدل بتبدل الأسماء ، لا ذواتها ولا أحكامها ، ولا وضعيتها ، فالعجل « أبيس » الذي يعبدونه هو ما زال عجلاً ولو سمي إلهاً ، و « آمون » إله « ثيبة » الموقر عندهم ما زال مألوهاً ولو دعي إلهاً ، و « را » أي الشمس وهو الإله الشمسي عندهم في الواقع كوكب مخلوق ، وهكذا يقال في تماسيحهم وفراعنتهم وغيرها وأسْخِفْ بالعاقل إن عبد اسماً بلا مسمى ! وأجْهِل بالإنسان إن خضع لشيء موهوم ! حقاً إن هذا الحال ليذيب لفائف القلب ويقضي بالعجب العجاب !.

(ما أنزل الله بها من سلطان)

—٥—

ثم قام سميح المكي وقال :

سكوت صاحبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه

يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إن عبادتهم للشمس وللعجل « أبيس » ، وغيرهما لا تستند على برهان ، ولا تدعم بعقل ، فهل تظنهما بعد ذلك أصغيا إلى نداء الضمير ، إذا كان لهما ضمير ؟! — على أنك لو سبرت غور قلبيهما وهما يسمعان خطاب « الصديق » لرأيتهما يناجيان نفسيهما ليدفعا عنهما

تبكيت الضمير بشبهة أنهما – كغيرهما من المصريين – إنما اعتقدا تعدد الآلهة ، مشياً مع القول الشائع عندهم ، وهو أن الله « روح عظيم » منبث في هذا العالم ، انبثاث الكهرباء في الأجسام ، أو الأشعة في الفضاء ، أو الأثير في العالم ، وكل واحد له من هذا الروح حصة تناسبه على قدر الاستمداد والتأهل ، وعلى كل فلا نحسبهما إلا قد رأيا شخصيهما مغلوبين ، وأنه قد سدّ عليهما أبواب الجواب والدفاع ، لسطوع البرهان وظهور الصبح لذي عينين ، ولهذا نراهما قد سكتا ولم يفوها بكلمة ، مع أن لهما نفوذاً أن يتكلما مع يوسف ، إذ هما من أهل المناصب المعتبرة في بلاط الملك ، وأما يوسف فإنما هو عبد عبراني غريب قد اعتقل بتهمة تمس العرض والشرف ، وقد كان معهما في السجن كخادم لهما ، إذ أقامه رئيس الشُّرَط عندهما لأجل هذه المهنة ، فسكوتهما والحالة هذه حكم صامت واعتراف بصحة هذا الصديق عليه السلام .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

– ٦ –

ثم قام الأستاذ المدني وقال :

الاستدلال مطلوب في الدين

حُكي أن حامد بن العباس ، سأل قاضي القضاة أبا عمرو عن داء « الخُمار »[١] وعن دوائه ، فتنحنح القاضي لإصلاح صوته ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخُذوه ، وما نهاكم عنه فانتَهوا ﴾ (٥٩ : ٧) وقال النبي ﷺ : « استعينوا على الصناعات بأهلها » ، والأعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة وقد قال :

---

(١) داء الخمار هو المرض الناشىء عن الادمان على تعاطي المشروبات المسكرة .

وكـــأسٍ شربتُ على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكي يعـلم الناس أني امرؤ أتيت المروءة من بابهـــا

ثم تلاه أبو نواس في الاسلام فقال :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هـــي الداءُ

فقد استظهر في جواب المسألة بآية قرآنية ثم بحديث نبوي ثم بين الفتيا وأدى المعنى وتفصَّى من العهدة [1] ، فإذا كان الاستدلال مطلوباً حتى في أتفه الأمور فما بالـكم بالدين ، خصوصاً عقائده ، ولذلك طالبهمـا يوسف الصديق بالسلطان على ما يعتقدان إن كان لهما سلطان .

ولما انتهى الأستاذ من كلامه قام السيد الرئيس وشكر الأساتذة الستة على ما ذكروه من تفسير قيم لهذه الآية بحيث لم يتركوا زيادة لمستزيد .

(إن الحكم إلا لله)

- ١ -

قال عبد الملك الكردي :

الحكم الشرعي والحكم الفعلي

حكم الله نوعان : حكم شرعي وحكم فعلي ، فالحكم الشرعي هو بوحي الله الى رسله بأمره ونهيه وإيجابه وحظره ، وهذا يكون في العبادة والدين ، وما هنا من هذا النوع ، بدليل ما قبله وهو قوله : ﴿ما أنزل الله بهـا من سلطان﴾ وما بعده وهو قوله : ﴿ أَمرَ أن لا تَعبُدوا إلا إيَّاه ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أوفُوا بالعُقود ، أُحِلَّت لكم بَهيمةُ الأنعامِ إلا مـا يُتلى عليكم غيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأنتم حُرمٌ ، إن اللهَ يَحْكم مـــا يريد ﴾

(١) شرح الشريشي على الحريري .

(٥ : ١ و ٢) والحكم الفعلي بمعنى القضاء والنفوذ ، يفصل فيه بين الخلق ، تارة في الدنيا ، وتارة في الآخرة ، كما سيقول يعقوب عليه السلام ﴿ إنِ الحكم إلاّ لله ﴾ (آية : ٦٧) أي القضاء والنفوذ في الدنيا كالآخرة لله وحده ، وكما يقول الله : ﴿ واتَّبِع ما يُوحَى إليك واصْبر ، حتى يَحْكمَ اللهُ ، وهو خيرُ الحاكمين ﴾ (١٠ : ١٠٩) وحكمه هذا في الدنيا بين المسلمين وغيرهم بنصر الأقربِ للعدلِ والإصلاح في الأرض ، ومثل حكمه في الآخرة قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ : ليستِ النصارى على شيء ، – وقالت النصارى: ليست اليهودُ على شيءٍ ، – وهم يَتْلونَ الكِتابَ ! كذلك قال الذين لا يَعلمون مِثْلَ قولِهم ، فاللهُ يحكمُ بينهم يومَ القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٢ : ١١٣) فالحكم ههنا القضاء والفصل بتصويب قوم وإدخالهم الجنة وتخطئة قوم وإدخالهم النار .

(أمر أن لا تعبدوا إلا إياه)

قال نادر الزمان الأفغاني :

وحدة الألوهية ووحدة الربوبية

وهذه هي وحدانية الألوهية ، وهي ترجع إلى عبادة الله وحده ، والسؤال منه وحده ، والاستعانة به وحده ، ودعائه وحده ، (فالإله) هو المعبود الذي تُولِّه العقول في معرفته ، وتدعوه وتصمد إليه ، لاعتقادها أن السلطة الغيبية له وحده ، وكما لنا وحدة في الألوهية فلنا وحدة في الربوبية ، وهي الاعتقاد بأن مصدر الخلق والرزق والإحياء والإماتة وكذا التشريع والحظر والإباحة وسن الأحكام إنما هو لله وحده الذي يربي العالم بقوانينه السماوية ، التي ينزلها على رسله ، وإلى الوحدتين ، وحدة الربوبية ووحدة الألوهية الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ ، تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ، أنْ لا نَعْبُدَ

إلا الله ، ولا نُشرك به شيئاً ، ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ الله ، فإن تولَّوا ، فقولوا : اشهدوا بأنَّا مُسلمون ﴾ (٣ : ٦٤) .

(ذلك الدين القيم)

وقال عبد العظيم التركي :

الدين والعلم أخوان

نرى في هذه الآية الكريمة أن الدين والعلم أخوان ، متى ثبت أحدهما ثبت الآخر ، ومتى انتفى أحدهما انتفى الآخر ، ولا يقول قائل : إنه يوجد تباين بين الدين والعلم يتنافيان به ، فإن ذلك غير صحيح، وإنما جاء ذلك لهم من أجل أنهم جعلوا من الدين ما ليس به ، أو أخطأوا مقاصده ومعناه ، قال الفيلسوف (هربرت سبنسر) : (العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، ولكنه ليس بعدو للدين الحق الذي كثيراً ما تحاول هذه الأوهام ستره عن الأبصار ، نعم إنه يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ، ولكن هذا أيضاً من قبيل العلم الذي أكثره وهم ، إذ العلم الحقيقي الذي يغوص وراء حقائق الأشياء لا يناقض الدين) وقال إمام الفلسفة الحديثة (باقون) : (القليل من العلم يبعد من الله ، والكثير منه يقرب منه) ، وقريب منه قول ابن تيمية : (أضر شيء على الناس نصف فقيه ونصف مفسر ونصف محدث ونصف مؤرخ ونصف طبيب وهكذا إلى آخر الأنصاف) وقال (هكسلي) الحكيم الكبير : (الدين والعلم كتوأمين متلاصقين ، فصلهما يؤدي إلى موتهما ، فان العلم ينمو متى كان دينياً ، والدين يثبت متى كان علمياً) .

(مرحى)

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

—١—

قام شيخنا عبد العظيم اليوغوسلافي وقال :

يوسف يكرر الغمز من قناة صاحبيه في السجن

كان يوسف غمز من قناة الفتيين المصاحبين له في السجن بقوله لهم في الآية (٣٨) : (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ، وهنا في هذه الآية كرر الغمز من قناتهما بقوله لهما : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعرفون حقاً ، ولا تنكر عقولهم باطلاً ، وأما أنتما أيها الفتيان فلا بد أن تكونا قد عرفتما وجه كلامي إليكما ، ولا أحسبكما إلاّ مسلمين لي اعتقادي على طول الخط ، وهذه هي أهم مادة في برنامج (دين التوحيد) وقد ألفت نظركما إليها ، وعسى أن تصادف كلمتي معكما آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وهذه هي الحقيقة الراهنة ، فانحواها ولا تمحواها ، واكشفاها ولا تكسفاها ، واتبعاها ولا تبتدعاها :

لعمري لقد نبهت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذنان

هذا رأيي بثثته لكما ، وأما أنتما فما رأيكما ؟ وهذا قولي ، فما قولكما؟.
أترك الجواب عن ذلك إلى وجدانكما الطاهر ، وضميركما الحر ، وذوقكما السليم ، وليس من المتعذر على الباحث الذي يحمل مصباح عقله في يده اليمنى ونبراس علمه في يده اليسرى أن يصل إلى نتيجة صالحة تكفل له السعادة الدينية .

عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد

هذه عظة يوسف التي أتى بها استطراداً قد تمت ، وهذه دعوته التي قدمها انتهازاً للفرصة قد كملت ، ويظهر أنها إنما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في

رماد ، لأن الكتاب والتاريخ لم ينقلا لنا عن إيمانهما شيئاً ، لا سيما (رئيس الخبازين) الذي لم ينقل عنه الكتاب أقل كلمة تشمر بميله ليوسف ، وأما (رئيس السقاة) فقد أشار الكتاب إلى أنه مدح يوسف الملك الريان ، وخاطبه بلقب (صديق) ، ولما كان مأمور تحقيق في حادثة النسوة مع يوسف ظهرت له براءته وطهارته ، الأمر الذي لا بد أن يكون نتج عنه محبته ليوسف ، وحسن اعتقاده فيه ، هذا الذي نقدر أن نستنتجه من الكتاب ، وأما أن (رئيس السقاة) ترك دينه واعتنق دين التوحيد فلا صراحة فيه لا في كتاب ولا في حديث .

وجوب الجهر بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان وحال

وبعد فهذا الوعظ والتعليم من يوسف (ع) إقدام عظيم على بث عقيدة التوحيد على رؤوس الأشهاد ، مع أنه في محيط كله متوثن منذ أجيال : فدين الحكومة الرسمي هو التوثن ، وكذلك دين الشعب المصري الوطني ، وهكذا دين المستعمرين الهكسوس .

وقد أراد يوسف بما قال غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من العلم في شيء وإنما هو تقليد محض وتخرص وظنون وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

جهر يوسف بهذه الدعوة ، دعوة عقيدة التوحيد ، وهو طريد من بلاده ، وغريب في مصر ، ومعدود من عبدان بعض رجال الحكومة ، وسجين بدعوى جريمة شائنة ، ومع هذا كله لم يسعه سوى إعلان عقيدة التوحيد ، ودعوى الفتيين إليها ، والطعن في عقيدة التوثن التي عليها الفراعنة والأمة الهكسوسية ، وكأن الأرض – والحمد لله – لا تخلو من قائم لله بحجة في عباده ، حتى أرض السجن ، وهكذا كان يفعل الإمامان أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، وهما في سجنهما ببغداد أيام العباسيين يعلمان المسجونين معهما ، ويرشدانهم لما فيه خيرهم ، رغماً عما هما فيه من السجن .

وقد قال بعض المصريين : « لعمري إنه إذا لم يكن لدى الداعي جرأة وشجاعة أدبية في عرض دعوته ، فإن دعوته تموت، مهما كان واثقاً من صدقها، بل مهما كانت حقاً في نفسها ، وكم من دعوة حق ماتت في مهدها ؟ وكلمة صدق أطفئت في مشكاتها؟ بسبب تهيب الداعي من المقاومين، وما ينقصه من الشجاعة الأدبية في تحمل الكوارث والشدائد التي تعترض سيره ، ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة « الحرية الفكرية » ركناً من أركان مدنيتهم ، وعماداً قوياً لحضارتهم ، ولو قال قائل : إن مدنية الغربيين وظهور النوابغ فيهم، وعروجهم في العلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم في العزة والصولة والغلبة إلى الأوج الذي وصلوا إليه اليوم إنما هو أثر من آثار « الحرية الفكرية » — لو قال ذلك لما كان مغالياً ولا مبالغاً . ومن أحب أن يسمع محبوساً في أعماق السجون يقف في سجنه خطيباً ، ويجلس في مجالس الوعظ والدعوة إلى الله ، فليقرأ هذا البحث من قصة يوسف عليه السلام ، ولعمري إن هذا مما يجب أن يحملنا على الذهاب لدور السجناء ، لأجل وعظهم وإرشادهم ، وتذكيرهم بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ، وتشويقهم للتوبة ، وترغيبهم في الصبر الجميل .

حكم القرآن بالأحكام الرديئة على الأكثرية الساحقة من الناس

نقرأ في القرآن المجيد ، فنجده دائماً يحكم على الأكثرية الساحقة من الناس بالأحكام الرديئة ، كالجهل والكفر — إلى الفسق والشرك — إلى الإعراض والغدر والجدل ونحو ذلك ، وها كم بعض الشواهد على ذلك :

﴿ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعملونَ ﴾ (٥ : ٦٩) ، ﴿ ثم عَمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم ﴾ (٥ : ٧١) ، ﴿ وكثيرٌ حَقَّ عليهم العذابُ ﴾ (٢٢ : ١٨) ، ﴿ لا خيرَ في كثيرٍ مِنْ نجواهُم ﴾ (٤ : ١١٣) ، ﴿ ثم إنَّ كثيراً منهم بعد

ذلك في الأرض لمُسرِفونَ ﴾ (٥ : ٣٥) ، ﴿ وترى كثيراً منهم يُسارِعون في الإثمِ والعدوان وأكلِهِم السُّحت ، لَبِئْسَ ما كانوا يَعملونَ ﴾ (٥ : ٦٥) ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ماأنزِلَ إليك من رَبِّك طُغياناً وكفراً ﴾ (٥ : ٦٧) ﴿ ولا تَتَّبِعوا أهواءَ قومٍ قد ضَلُّوا من قبلُ ، وأضلُّوا كثيراً ﴾ (٥ : ٨٠) ، ﴿ ترى كثيراً منهم يَتَولونَ الذينَ كَفَروا - لبئسَ ما قَدَّمت لهم أنفُسُهم - أن سَخِطَ اللهُ عليهم ، وفي العذاب هم خالدونَ ﴾ (٥ : ٨٣) ، ﴿ وإنَّ كثيراً ليَضِلونَ بأهوائِهِم بغير عِلم ﴾ (٦ : ١١٩) ، ﴿ ولقد ذَرَأْنا لجهنمَ كثيراً من الجن والإنس ! لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ، ولهم أعينٌ لا يُبصِرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضَلُّ ، أولئك هم الغافلون ﴾ (٧ : ١٧٨) ، ﴿ إنَّ كثيراً من الأحبارِ والرهبانِ لَيَأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ ويَصدون عن سَبيلِ الله ﴾ (٩ : ٣٥) ، ﴿ رَبِّ إنَّهن أضْلَلن كثيراً مِن الناسِ ﴾ (١٤ : ٣٦) ﴿ ولقد أضلَّ منكم جِبِلاً كثيراً ﴾ (٣٦ : ٦٢) ﴿ وإنَّ كثيراً من الخُلَطاءِ لَيَبْغي بعضُهم على بعضٍ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، ﴿ وما أكثرُ الناسِ - ولو حَرَصْتَ - بمُؤمنين ﴾ (١٢ : ١٠٣) ، ﴿ فأبَى أكثرُ الناسِ إلاَّ كُفُوراً ﴾ (١٧ : ٨٩) ، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشكُرون ﴾ (٢ : ٢٤٣) ، ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون ﴾ (٧ : ١٨٦) ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلوكَ عن سبيلِ الله ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظنَّ ، وإنْ هم إلاَّ يَخرُصُونَ ﴾ (٦ : ١١٦) ، ﴿ ولكنَّ أكثرَهُم للحق كارهونَ ﴾ (٤٣ : ٧٨) ، ﴿ وأكثَرُهم لا يعقلون ﴾ (٥ : ١٠٤) ﴿ وما يَتَّبِع أكثرُهُم إلاَّ ظَنّاً ﴾ (١٠ : ٣٦) ، وما يؤمنُ أكثرُهُم بالله إلا وهُمْ مُشرِكون ﴾ (١٢ : ١٠٦) ، ﴿ بل كانوا يعبُدون الجنَّ ، أكثرُهم بهم مُؤمِنونَ ﴾ (٣٤ : ٤١) ، ﴿ فأعْرَضَ أكثرُهُم ، فهم لا يَسْمَعُون ﴾ (٤١ : ٤) ، ﴿ وما وجَدْنا لأكثرِهِم من عَهدٍ ، وإنْ وجَدْنا أكثرَهُم لفاسِقين ﴾

(٧ : ١٠١) ﴿ ولكنّ أكثرهُم يَجْهلون ﴾ (٦ : ١١١) ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

حكم القرآن بالأحكام الحسنة على القليل من الناس

كما إننا نقرأ في القرآن الكريم ، فنجد بصورة مطردة إنما ينسب الطاعة والإيمان والعلم والشكر والفقه وما أشبه ذلك من المحامد للقليل من الناس ، وإليك البيان : ﴿ وما آمَنَ مَعَه إلا قليلٌ ﴾ (١١ : ٤٠) قيل كانوا ثمانين نفراً ﴿ ما يَعْلَمُهُم إلاّ قليلٌ ﴾ (١٨ : ٢٢) ، ﴿ وقليلٌ مِنْ عباديَ الشَّكُور ﴾ (٣٤ : ١٣) ، ﴿ إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، وقليلٌ ما هُمْ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، ﴿ فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تَوَلَّوْا إلا قليلاً منهم ﴾ (٢ : ٢٤٦) ﴿ قال إنّ اللهَ مُبْتَليكُم بنهرٍ ، فمن شَرِبَ منه فليس منّي ، ومَنْ لم يطعمه فإنه مني إلا من اغْتَرَفَ غرفَةً بيده ، فشَربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ (٢ : ٢٤٩) ، ﴿ولا تزالُ تَطَّلعُ على خائِنةٍ منهم إلا قليلاً منهم ﴾(٥ : ١٤) ﴿ لَئِنْ أخَّرْتني إلى يومِ القيامةِ ، لأحْتَنِكَنّ ذُرِّيته ُ إلا قليلاً ﴾ (١٧ : ٦٢) ﴿ ولا يأتون البأسَ إلا قليلاً ﴾ (٣٣ : ١٨) ، ﴿ بل كانوا لا يَفْقهون إلا قليلاً ﴾ (٤٨ : ١٥) إلى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم ، والحالة الطبيعية تؤيدكل ما ورد من هذه النصوص ، فإن أهل الشر أكثر جداً وجداً أكثر من أهل الخير في كل مصر وعصر ، وكل كوخ وقصر ، (راجع كتب الملل والنحل وانظر كتب الجغرافية . تجد صدق ما قلنا)

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم

آ (٤١) « يا صاحِبَي السِّجْنِ أمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ ، فتأكل الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الأَمْرُ الذي فيه تَسْتَفْتِيانِ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والأربعون فقام أقاي حسن جم الهمذاني[1] وقال :

قال يوسف لصاحبيه بلسان المفتي المجيب (يا صاحبي السجن) لكل حادث حديث ، اسمعا تأويل رؤييكما (أما أحدكما) وهو « نبو » رئيس السقاة (فيسقي ربه) سيده (خمراً) حيث يخرج من هذا المعتقل بريئاً ، ويرجع لمقامه الأول عند « الريان » ، (وأما الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (فيصلب) على الجذع فيموت (فتأكل الطير من رأسه) ، لأنه يتهم بمقاومة الملك (قضي الأمر) قطع وتم (الذي فيه تستفتيان) ، ولو كنت أعلم أن التمني سينفع أحدكما (الخباز) لتمنيت له السلامة ، ولكن التمني لا يدفع مقدوراً ، والأمل لا يقضي على الحقيقة .

هذه فتوى يوسف التي خلاصتها هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

(١) نسبة الى همذان من البلاد الايرانية .

(يا صاحبي السجن ، أما أحدكما .. الخ)

— ١ —

وقال الصاحب البعلبكي [1]:

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم والصراحة

لما أتم يوسف عظتهما ، وقضى مناصحته إياهما ، رجع يجيبهما عما سألاه عنه فقال : يا صاحبي السجن يا رئيس السقاة ويا رئيس الخبازين من كان منكما له أذنان للسمع فليسمع ، أنا لست أريد أن أطيل عليكما القول في عبارة هذه الرؤيا ، بالكلام على مخيضها ، بل أقتصر على أن أبين لكما زبدتها فأقول :

أما أحدكما وهو أنت يا رئيس السقاة « نبو » فطب نفساً وقر عيناً ، فإن جدّك قد تحرك ، وإني أزف لك البشارة بإبقاء الملك عليك ، لظهور براءة ساحتك ، من المؤامرة على الملك أو من دسك السم في شرابه (راجع تفسير آية ٣٦) وصدور إرادته بإخراجك من السجن ، ورجوعك لوظيفتك ، بذات الراتب المقرر لك قبلاً ، فتقف بين يدي سيدك الملك الريان وتسقيه خمراً ، تصبها له من أباريقه العسجدية ، في القوارير الزبرجدية ، حسب سيرتك الأولى.

وأما الآخر وهو أنت يا رئيس الخبازين « مجلث » أو « مُلْحِب » فاعذرني إن صارحتك في تعبير رؤياك ، لتكون على بينة من أمرك ، وبصيرة من شأنك إذ سينزع الملك اسمك من ديوان الأحياء ، ويكتبه في سجل الموتى ، وترفع على أعواد الصليب ، وتأتي الطير تأكل من رأسك ، ذلك لأنه تبين دخولك في المؤامرة على الملك ، أو أنك دسست السم في خبزه ، وإنه لعزيز عليّ أن أحمل إليك الخبر

(١) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (لبنان) .

الذي يسوؤك ، ولكن ماذا أصنع وأنت تحدوني إلى تأويله ، وإخبارك بـــه كيفما كان ؟

هذا ما أعلمه مما علمني ربي ، وأما كونك يا رئيس الخبازين خليقـاً بهـذا العقاب لأنك دخلت في المؤامرة على الملك ، أو غير خليق لأنك لم تتآمر عليه ، فذلك مما لا أعلمه .

ثم وجه يوسف خطابه للفتيين وقال : قضي الأمر الذي فيـه تستفتيان ، فهو أمر لا مندوحة أن يقع ، ولا خيرة في الواقع ، وإن صوتي هذا لهو صوت من أصوات أهل السماء ، فإني لا أرمي القول جزافاً ، ولكني أتكلم عن الله عز وجل ، ولأن الرؤيا لأول عابر ، ولذلك فإن شأنكما لا يتجاوز كلامـــي خطوة واحدة ، وإن مع اليوم غداً .

هذا وقد وقع صوت البشارة على طبلة أذن رئيس السقاة وقوع الماء على قلب الظمآن وتمشت روح الفرح في أعضائه تمشي الشرف والمروءة في نفوس العرب.

وأما رئيس الخبازين فقد وقع صوت النذارة على أذنيه وقوع الصاعقة على الهشيم ، فانتفضت انتفاضة شديدة كادت تتطاير لها أجزاء نفسه ، ثم جمد الدم في عروقه ، وكرب الحال أن يذهب بلفائف قلبه . (مرحى)

(يا صاحبي السجن ، أما أحدكما .. الخ)

— ٢ —

وقال ولي الدين المراكشي :

إتماماً لتفسير هذه الآية وعدا عمـــا ذكره المحاضران الفاضلان نسرد التكميلات التالية :

إصغاء الفتيين الى وعظ يوسف

التكملة الأولى — كأنك بكل من رئيس السقاة ورئيس الخبازين قد رأيا

أن درس الوعظ قد امتد أكثر مما كانا يتوقعان ، وقد كان قلباهما متعشقين بالأكثر لسماع تأويل حلميهما ، فكانا يقولان في نفسيهما :

لك الحمد لم نسمع عبارة حُلمنا　　ونسمع ما نشتهي فلك الحمد

وكان كل منهما يهم بأن يقطع على يوسف سلسلة حديثه ، لولا أن ملكا نفسيهما ، فما شعرا إلا وهو يقول : ﴿ياصاحبي السجن أمّا أحدكما..الخ﴾ ذلك لأن الناس منذ القديم إلى اليوم ، لا يعتنون باللب عنايتهم بالقشور .

استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة

التكملة الثانية – كأنك بيوسف عليه السلام وقد وجد له في معتقله أخاً مظلوماً مثله ، تبرأت ساحته – كأنك به أنه تمنى أن يكون أيضاً قاربت آلامه النهاية ، والعامة من الناس تقول : « إن مطرت بلاد بشر بلاداً » .

الحجر الأول في بناء مجد يوسف

التكملة الثالثة ـ كان تعبير يوسف لهذين الحلمين هو الحلقة الأولى من سلسلة الحلقات التي تشكل سبب خروجه من السجن لدست وزارة المالية ، فتم ما قيل : « سعادتك بين شفتيك » .

وبعباره أخرى : كان تعبيره لهذه الرؤيا هو (الحجر الأول) في أساس خروجه من السجن وبناء مجده الخالد العظيم ، وأما (حجر الزاوية) فهو تعبيره رؤيا الملك الآتية ، وأما (ثالثة الأثافي) فهي ظهور براءته بلسان النسوة من كل ما رمي به ، حتى خرج من معتقله عزيز الجناب ، ناصع الجبين .

حال الفتيين حين سماعهما تعبير رؤييهما

التكملة الرابعة – كأنك (برئيس السقاة) لما سمع بشارة يوسف له ثمل من الفرح وصار نشوان بخمرة هذه البشرى ، وكأنك (برئيس الخبازين) بغت ووجم[1] وعض على سبابته ، وصار مُشْتَرَكاً[2] مشدوهاً[3] لا يحير جواباً ، ولا يعرف صواباً ، وسُقط في يده ، وندم ولات ساعة مندم .

النواة والشجرة والثمرة

التكملة الخامسة ـ كان هذا التعبير الابتدائي (نواة) لمجيء (رئيس السقاة) ليوسف مندوباً من جانب مليك مصر الريان ، ليعبر رؤيا الملك ، كما أن تعبيره رؤيا الملك أخيراً كان (شجرة) من تلك النواة ، وبالتالي كان خروج يوسف من السجن إلى البلاط الملوكي هو (الثمرة) لتلك الشجرة .

تسمية الملك رباً عند المصريين

التكملة السادسة ـ تسمية الملك (رباً) اصطلاح للمصريين كالكلدان والعبران ونحوهم وقد بحث عن ذلك سابقاً بما فيه الكفاية .

لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة

التكملة السابعة – لما وصل يوسف إلى تعبير رؤيا (رئيس الخبازين) تنازعه عاملان : عامل السكوت عن تأويل رؤياه ، لئلا يفزعه ويكدره ، ويكون قد واجهه بما يكره ، وعامل الصراحة ليكون ذلك الرجل على بينة من أمره ،

---

(١) سكت . (٢) هو الذي يحدث نفسه كالمهموم الموسوس ،
(٣) من دهش وتحير .

وبصيرة من شأنه ، فيجري ما يجب أن يجريه قبلما يصلب ، فربما كان عليه أو له دين ، وعسى أن يكون عنده أو له عند غيره أمانات ، ولعله يريد أن يوصي أهله بشيء ، أو يقيم على قاصر وصياً ، أو لعله إذا عرف أمره أن يتوب من جرائمه وأوزاره ، فهذا ولما كان كاتم العلم ملعون ، أو لأن الله يرسل الرؤيا لصاحبها ليعرف تأويلها ، ويعمل ما يجب عليه عمله بحسبها ، أو لأن يوسف ألهم أن هذا الرجل كان مجرماً ولا بد ، فحنق عليه ولم يتمالك أن أخبره ، فلأجل ذلك لم يجد بداً من أن يبين له تأويل رؤياه ، وكان هذا هو أصل ما يفعله حكام اليوم من تبليغهم المجرم ، الحكم الذي حكمت به عليه المحكمة ، ليكون على بينة من أمره .

وما مثل تعبير هذه الرؤيا إلا كمثل الفتيا التي تصدر من المفتي يسأل عن حكم شرعي ، فيجيب مطلقاً ، أعني سواء أكان في جوابه حظ ومنفعة للسائل أو كان فيه منع من إرث مثلاً أو غرامة ، حتى لو اقتضى الحال أن يجيبه أنه يستحق القتل إجابة بلا مواربة .

تحقق وقوع تعبير رؤيا الفتيين

التكملة الثامنة – كل ما أخبر به يوسف وقع ، فبعد ثلاثة أيام أرجع (رئيس السقاة) إلى عمله في قصر الريان ، ثم أخذ بتلبيب (رئيس الخبازين) ورفع على الصليب ونادى المنادي : « هذا جزاء من يدخل في المؤامرة على الملك أو التعدي على حياته » وجعل في أذنه رقعة مكتوب فيها (هذا جزاء من ثبتت عليه المؤامرة ضد الملك) ، وهذا الجاني هو (مجلث) ، كان أنه حينما أخرج من سجنه لشنقه ينظر إلى قصره ولسان حاله يقول :

يا منزلاً لم تبقَ أطلاله   حاشا لأطلالك أن تَبلَى
لم أبكِ أطلالك لكنني   بكيت عيشي فيك إذ وَلّى

وعندنا أنه بالنظر لكونه أطاع المؤتمرين على الملك فتآمر معهم عليه بشر

أو سم خبز ، كان حقيقاً بأن يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ ربَّنا إنَّا أطعْنـا سادَتَنا وكُبَراءنا فأضَلُّونا السبيلا ، ربَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ العذابِ والْعَنْهُم لَعْناً كبيراً ﴾ (٣٣ : ٦٧ و ٦٨) .

خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى

التكملة التاسعة - نقرأ في كتب التفسير أن (خبـاز) فرعون يوسف واسمه « مجلث » ، قتل صلباً ، ثم نقرأ في تلك الكتب أيضاً ، عنـد قوله تعالى : ﴿ ودخلَ المدينة على حين غَفْلَةٍ مِنْ أهلِها،فوَجَد فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ ،وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ، فاستغاثَهُ الذي مِنْ شِيعَتِهِ على الذي مِنْ عَدُوِّهِ ، فوكَزَهُ موسى فقَضَى عليه ﴾ (٣٨ : ١٥) فنرى أن هذا المصري كان خبازاً لفرعون موسى ، واسمه « فاتون » ، وكزه موسى فمات فطمره تحت الرمل ، فسبحان الله ! خباز علق فوق الأعواد،وخباز طمر تحت الرمل، وعلى كل فالنتيجة واحدة ، وهي الإماتة غير الطبيعية ، فما أسوأ حظ (الخباز) منذ القديم !!!

من عادة قدماء المصريين حلق شعور رؤوسهم ولحاهم

التكملة العاشرة — القول بأن الطير ستأكل من رأس هذا المصلوب ربما يدل على صحة ما قاله مؤرخو مصر إن من عادة قدماء المصريين حلق شعور رؤوسهم ولحاهم فلا يبقون منها شيئاً ، وربما كان يوجد عندهم عادة متبعة فيمن يراد صلبه وهي تجديد حلق شعر رأسه ولحيته . والذي يحدونا لأحد هذين الاحتمالين هـو أنه لو كان المصلوب موفر شعر الرأس واللحية كما هي العادة التي كانت مطردة في العبرانيين والعرب والفرس لما كان يتسنى للطير بسهولة أن تأكل من جلدة الرأس أو جلدة العوارض ، لكونها محجوبة بما يحوطها من الشعر .

الصلب عرفاً هو الإماتة على الصليب

التكملة الحادية عشرة - إذا قيل : «صلب فلان» فمعناه عرفاً أنه أُميت على الصليب ، فالصلب عرفاً لا يطلق إلا إذ كان معه إزهاق روح، فإذا صح هذا فلعل مرمى قوله ههنا « فيصلب » فتزهق روحه عليه ، ولذلك رتب عليه قوله « فتأ كل الطير من رأسه » لأن الطير لا تحوم حول رأس الحـيّ على الصليب ، ولكن على الميت فقط، والقرآن الكريم دائماً لا يستعمل « الصلب » إلا بهذا المعنى العرفي ، كما يقول في شأن عيسى عليه السلام ﴿ وما قَتَلوه وما صَلبُوه ﴾ (٣ : ١٥٦) أي لم يقتلوه على الأرض بأيديهم ولا على الصليب بواسطة مـــا كدوام التعليق وطول مدته ، أو بنحو المسامير والحراب والجوع والعطش والألم وما إلى ذلك ، مما يقتضي الموت فوق الصليب .

معنى الصلب في القرآن

فإذا صح هذا فلعل المنفي عن المسيح إنما هو الصلب المقرون بالموت ، ومن هذا النوع قول الكتاب الكريم : ﴿ ثُمّ لأُصَلّبنّكُم أجمَعينَ ، قالوا : إنّا إلى ربّنا لمُنْقَلِبُونَ ﴾ (٧ : ١٢٣ و ١٢٤) ، فهم قد فَهِموا من تصليبهم موتهم لا محالة ، فلهذا قالوا : إنهم حينئذ يذهبون إلى ربهم ، وكذا قوله تعالى : ﴿ إنما جزاءُ الذينَ يحاربونَ اللهَ ورَسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرض فساداً أنْ يقتّلوا أو يُصَلّبوا .. ﴾ الخ (٥ : ٣٦) فلعل معناه : يقتلوا باليد على الأرض بدون تصليب أو يشدوا على الصليب حتى تزهق أرواحهم ، بسبب مـــا من أسباب الموت ، فمادة « صلب » في القرآن الكريم لم ترد إلا فيما فيه إزهاق الروح فعلاً .

استشفاع يوسف بالناجي من الفتيين

آ(٤٢) « وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنهما : اذْكُرني عِندَ رَبِّكَ ، فأنساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنين » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والأربعون ، فقام الحاج موسى النابلسي وقال :

(و) بعد ذلك (قال) يوسف بلسان الرجاء والاسترحام (لِ) رئيس السقاة (الذي ظن أنه ناج منهما) من الصلب والحبس والتهمة (اذكرني عند ربك) أي صفني عند الملك الريان بصفتي ، وقصّ عليه قصتي ، لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ، فإن العلاقة بينك وبين الملك ستكون وثيقة والصلة متينة ، (فأنساه الشيطان) أي فأنسى الشيطان رئيس السقاة (ذكر ربه) أي أن يذكر يوسفَ لربه الذي هو الملك الريان (فلبث) يوسف (في السجن بضع سنين) أي سنتين وشيئاً من السنة الثالثة على التحقيق، والبضع واحد إلىأربعة.

(وقال للذي ظن أنه ناج منهما ...الخ)

— ١ —

وقال الشيخ بدر الدين الحمصي :

استشفاع يوسف بالفتى الناجي

ملَّ يوسف وسئم من طول مدة سجنه ، وصار يشعر أن نفسه سجينة في

صدره ، كما سجن جسمه في معتقله ، فزفر زفرة من زفرات الضيق ، فلذلك ولكونه قد رأى أن « الإنصاف » أخذ يدخل في السجن ليخرج المظلومين — صار له أمل قوي أن تشمله العدالة ، ويفوز بنعمة الخلاص ، ثم لكون « رئيس السقاة » على وشك الخروج من السجن والمثول بين يدي الملك ، أدلى برجائه إليه قائلاً له :

« أيها الشرابي ، إني مع احتفاظي بالاتكال على الله، والاستمداد من معونة الحق ، أقول لك : المعروف صيد هنيئاً لمن صاده ، والمعروف قروض ، ومع اليوم غدٌ ، وهذه فرصة لك فانتهزها ، تذكر ما كان بيني وبينك من أخوّة الضيق ، فاجعل ذلك شفيعي إليك ، وذمامي لديك ، أنت قد جربت الظلم ومرارة طعمه ، والقلوب التي عرفت الآلام هي التي تشفق على المتألمين ، والأفئدة التي احترقت بنار ظلم الحكام ، هي التي ترثي للمظلومين ، فأرغب إليك أن تجعلني منك ببال حينما تقف بين يدي (الريان) وأن تذكرني بكلمة إسعاد عنده وها أنا ذا سألتك حاجتي ولم أصنْ وجهي عن ذلك ، فأنت لا تَصُنْ وجهك عن التعب في تتميم هذا الأمر ، أنت صديقي ، وليس الصديق الذي يقبل عليك والدنيا في إقبال ويدنو منك ما حامت حولك الآمال ، إنما الصديق هو الذي يذكرك في الضيق ، أو ينقذك من ظلم الظالمين ، ولا مثوبة يقدمها المرء بين يدي الله تعالى ، يوم جزائه أفضل من إسعاد البائس ، وتفريج كربة المكروب (ومن فرّج عن أخيه كربة من كرب الدنيا ، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، والدال على الخير كفاعله ، وإن خيراً من الخير فاعله) وتذكر أني أسمعتك صوتي متخللاً في أعماق قلبك ليسرك ، ويحمل إليك البشرى بخروجك من هذا السجن ، فرقيك عند الملك ، فأنت بالمقابل ، أسمعني صوتك ، حاملاً إليّ — على الأقل — بشرى خروجي من السجن ، وخلاك ذم » .

هذا مرمى كلام يوسف الروحي ، وكأني « بالشرابي) قال له : (لبيك، سمعاً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فقد تفضلت بما لا طاقة لي على شكره ، فلاأبرح أذكر إحسانك إلى آخر نسمة من حياتي ، فثق أني لسوف أقوم بواجبك ، الذي هو حتم عليّ ، وأحسبني سعيداً إذا خدمتك) . قال ذلك ثم خرج يتعثر في أذياله لسرعته وفرحه بلقاء أهله وذويه ، وهو بحال السلامة كأنما جاء وليداً، وأعطي عمراً جديداً .

نسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك وأسبابه

هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق حتى أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف للملك ، بدليل قوله : (وقال الذي نجا منهما وادكر) فإن الإدكار إنما يكون بعد النسيان ، هذا هو الصواب ، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره ، إلا أن يكون قد اعتزل العقل والذوق ، بحيث هو لا يعرفهما ، وهما لا يعرفانه .

وإنما نسي الشرابي ذكر يوسف للملك ، لوسوسة الشيطان إليه بما شغله عن ذكراه له ، حتى ذهب عنه وزل عن قلبه ذكره ، فقربه من الملك أنساه بوعده السابق ، وقصر الملك أنساه السجن . وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء وأصحابه في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه ، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق والذل ، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه ، وبأهله وذويه ، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك ، أصبح شغله الشاغل ، هذه هي الوسائط التي استعملها الشيطان ، حتى غفل (الشرابي) عن يوسف ، ولكون هذه الأشياء وما اليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء اليه ، ولو أن يوسف عليه السلام استقبل من أمره ما استدبر ، لما كان قدم للشرابي رجاءه ولكن لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل .

وهذا النوع من النسيان معهود ، وليس ببدع ولا مستبعد ، بل هو كثير

في تاريخ الأصدقاء ، فكأي من يصحبك حال شدته وضيقه ، ينساك يوم الرخاء والفرج ، بل كثيراً ما ينسى الناس خالقهم في أيام الرغد والرخاء ، فلا عجب من أن ينسى (الساقي المصري) (يوسف العبراني) العبد السجين :

وكثيراً من الأولاد لا يذكرون أتعاب والديهم عليهم في صغرهم والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى أسندت لعهدتهم عمالة ما ، كما أن كثيراً من الأصحاب الفقراء إذا اغتنوا وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الخشن ، ونرى كثيراً من أهل الأمراض متى صحوا وشفوا ينسون طبيبهم ، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذتهم ، إلى آخر ما هنالك من الضروب والأشكال وقد قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الإنسانَ لَيطْغَى أنْ رآهُ اسْتَغْنى ﴾ (٩٦ : ٦) وقال تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ ؟! ﴾ (٨٠ : ١٧) ثم إن أنس لا أنسى أن من الأسباب الأساسية لنسيان (الشرابي) ذكر (يوسف) للملك ، معاطاته شرب الخمر ، فإن شربه ، كما يعمل تأثيراً سيئاً في الأخلاق والصحة والاجرام وفي المال وفي قوة الإنتاج ، فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان ، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار ، وكم هالهم أن تكون المسكرات سبباً لإصابات بالجنون .

وهذا وإن الفاء في قوله : (فأنساه) ليست تفريعية بمعنى أن الإنساء كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه ، بل هي عاطفية خلافاً للمفسرين ، إذ المعنى على ما نفهم أنه حصل أن يوسف قال كذا وكذا ، ثم فوراً حصل أن الشرابي نسي ما تكلم به معه ، هذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام ، والمناسب للواقع ، لا أقل ولا أكثر ، فكن لما ذكرناه من الحافظين وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين .

مدة بقاء يوسف في السجن

وعلى هذا النسيان لبث يوسف في سجنه بين أربعة جـــدران ، صابراً محتسباً ، سنتين وشيئاً من الثالثة كما ذكره المؤرخون ، إذ يستعمل البعض فيما دون العشرة كما حكاه ابن جرير ، ووجهه إن البضع هو البعض ، لأن الحروف واحدة ، والبضع الطائفة من الليل ، كا في القاموس ، يعني قلت أو كثرت .

وههنا فوائد لها علاقتها بتفسير الآية الكريمة :

التوسل وأنواعه والجائز منها شرعاً

الفائدة الأولى - كان هذا الطلب من يوسف « لرئيس السقاة » من باب الأخذ في الأسباب المأمور به شرعاً وعقلاً وعادة وطبعاً،إذ لولا الواسطة لذهب الموسوط والتوسط (وإن شئت قل التوسل) على أربعة أوجه :

(١)توسل الإنسان إلى الله تعالى بإيمانه به وطاعته له والعمل بما يرضيه تعالى، وهذا صحيح جائز باتفاق العلماء .

(٢) توسل الإنسان إلى الله بدعاء إنسان آخر وشفاعته ، بأن يطلب منه الدعاء إلى الله تعالى ، وهذا أيضاً صحيح جائز باتفاق الجميع ، وقد قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه حينما ذهب ليعتمر : « أشركنا يا أخي في دعائـــك » وفي رواية « لا تنسنا يا أخي من دعواتك » .

(٣) التوسل بمعنى الإقسام على الله بذات نبيّ أو وليّ أو مَلَك ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة تفعله ، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم المأثورة عنهم ، وهذا النوع الذي قال « أبو حنيفة » وأصحابه « أنه لا يجوز » ونهوا عنه قائلين :

« لا يُسأل تعالى بمخلوق » وهذه الأنواع الثلاثة هي فيما إذا كان المتوسَّل (بالفتح) إليه هو الله تعالى .

(٤) أما إذا كان المتوسَّل إليه إنساناً ، فلا مانع من أن يتوسّل إليه بإنسان آخر ، كما هو ظاهر ، ظهور الشمس في رائعة النهار ، ولا يخفى أن الذي صدر من يوسف هو من هذا القبيل ، فإنه استشفع عند مليك مصر برئيس السقاه وهو عمل معقول ومعقول جداً لأن الحامل عليه الكفكفة من «ظلم عزيز مصر» وتخطيه حدود العدل في سَجنه يوسف ، فعزيز مصر جار وظلم في حكمه على يوسف ، ويوسف يريد أن يرفع عنه هذا الجور بشفاعة هذا « الساقي » ، ولا مانع من ذلك ولا حرج فيه أصلاً ، وما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ، وليس في توسطه « بالشرابي » دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله تعالى ولكنه سعى في كف الظلم عنه بالوسائط المشروعة في كل دين .

الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر ـ التوكل

هذا وإن من الأسف أنه وجد من الناس من انتقد عمل يوسف هذا بما في دماغه ، عكساً للازم ، لأنه يلزم أن نزن ما في أدمغتنا من عقائد بالقرآن وبما ورد عن أنبياء الله تعالى ، لا أن نزن القرآن وأعمال الأنبياء بما في أدمغتنا مما تلقيناه عن المشايخ ، فنجعل الموزون ميزاناً ، والميزان موزوناً ، قلباً وحقيقة ، فنحن ههنا بدلاً من أن ننتقد ونستشكل عمل يوسف يجب أن نستنتج منه عقائدنا ، فنقول : بما صدر من يوسف نحتج على من يقولون أو يفضلون ترك الأسباب اتكالاً على القضاء والقدر ، وهو جهالة صرفة ، لأن هذا ليس من قبيل التوكل ، بل من قبيل العجز والكسل ، إذ التوكل هو الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه والاعتقاد أن الأمر منه وإليه ، مع الأخذ بالأسباب ، وهكذا ينبغي لكل عاقل متشرع أن يدخل لكل أمر من بابه ، ويطلب كل رغبة من أسبابها ، ولا يقدح في التوكل

تعاطي الأسباب ، اتباعاً لسنة الكون وسنة الرسول ﷺ فقد ظاهر الرسول عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وهاجر هو بنفسه ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه القوت من السماء ، وقد ورد : « أأعقل ناقتي أم أتركها وأتوكل ؟ — قال : اعقلها وتوكل » وقال ﷺ : « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي » مع أنه سيد المتوكلين . وقد روي أنه ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي ، وكان يطلب من يحرسه ، حتى جاء سعد بن أبي وقاص ، فنام .

وقال في القرآن على لسان المسيح عليه السلام : ﴿ مَنْ أنْصاري إلى الله ﴾ (٣ : ٥٢) هذا وإنه لا خلاف في جواز الاستعانة بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق وما إلى ذلك .

وإنا لنرى رجاة يوسف من رئيس السقاة نفعته في الجملة لأنه وإن لم ينفعه في الحال فقد نفعه في المآل ، إذ حين رأى الملك حلميه وأعوزه من يعبرهما له تذكر رئيس السقاة يوسف . وتذكر اقتداره في عبارة الرؤيا ، وتذكر أنه كان قد رغب إليه أن يذكره عند الملك فذكره حينذاك ، وعلى كل فيوسف لم يعمل بدعاً ،وليس ما أتاه غلطاً ، فعلى الإنسان الإجتهاد،وعلى الله قضاء المراد:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه   وليس عليه أن يساعده الدهر

تحقق رجاء يوسف من الشرابي

الفائدة الثانية ـ كانت فكرة يوسف الأولى وجوب استعمال الأسباب العادية ، تذرعاً لخروجه من السجن ، ولكن كان عدم وجود واسطة ترفع شكواه للملك يعترض مجرى هذه الفكرة ، فلذلك كان ساكتاً ساكناً ، ولكن

« مُكْرِهٌ أخاكَ لا بَطَلٌ » فالآن حيث وجد « الشرابي » يريد أن يخرج من السجن إلى البلاط ، فضل نشاطه على جموده ، وسعيه على كسله، منتهزاً الفرصة لانتداب هذا الرجل لهذه المهمة ، ولا سيما وأنه كان أفاده تعليماً دينياً ، وبشره بمرمى رؤياه ، وانعقدت بينهما أخوة السجن وآلامه ، فكلمه أن يصفه عند الملك بصفته ، ويقص عليه قصته ، لعله يرحمه وينتاشه من هذه الورطة .

تأمل يوسف أن تنفرج أزمته بواسطة هذا « الساقي » ومع أن هـذا الرجل نسي يوسف وأمله فيه ، فقد حقق الله رجاء يوسف ، وجعل ظنه في محله ، ولكن بأعجوبة ، أعني بسبب الرؤيا التي رآها الملك، بعد حين من الدهر، ولم يجد من يعبرها له ، وعليه فيصدق على يوسف أنه ما قال رأيه فيما فعل ، وما خاب ظنه فيما رجا ، فإن هذا « الشرابي » الذي نجا وادّكر بعد أمة، أخبر الملك بشأن يوسف ، فأرسله الملك إليه ، وبالنتيجة كان هذا من أكبر أسباب خروج يوسف من معتقله .

الاستعانة بالأسباب في قضاء الحاجة

الفائدة الثالثة ـ احتياج الإنسان للواسطة والرجاء في قضاء حاجته أو رفع الظلم عنه عادة قديمة ، وفي الغالب لا تكون إلا إذا كانت الحكومات ظالمة مستبدة ، لا يُعمل فيها بموجب الشرائع والأنظمة ، ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة وهذه الحال السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية المكسوسية، فهي سائدة في جميع الأمم ، بنسب تتفاوت تبعاً للتربية والأخلاق .

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال : (إن الشريعة كما حصرت « العبادة » في الله تعالى فقد حصرت « الاستعانة » فيه أيضاً ، إذ ورد : ﴿ إيّاكَ نعبُدُ وإيّاكَ نَستَعِين ﴾ (١ : ٤) فكما أمرنا تعالى أن لا نعبد غيره ، لأن السلطة

الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فكذلك أمرنا أن لا نستعين بغيره أيضاً) . فأجبته :

إن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب ،التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤداة إليه ، وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكّن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ، ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ، ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ، ثم نفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء ، ونلجأ إليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء ، إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب ، فقول يوسف هنا (اذكرني عند ربك) هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله تعالى ، وجعلها بتوفيقه ذريعة للمقصود،وهذا الضرب ، لا مانع منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَعاوَنوا على البِرّ والتقوى﴾ (٥: ٢) ، ولنضرب لذلك مثالاً :

الزارع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الأرض وريّها ، يفعل ذلك بنفسه ويستعين عليه بغيره ، ثم يستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوانح السماوية أو الارضية ، وإشراق الشمس وإنزال المطر الكافي ، على سبيل التعاقب بين الشمس والمطر بمقدار اللزوم ، فالاستعانة بالعبد على القسم الاول جائزة طبعاً وشرعاً ، وأما الاستعانة على القسم الثاني فإنما هي بالله وحده.

هل قام الشرابي بما طلبه منه يوسف فور خروجه من السجن

الفائدة الرابعة – كان رئيس السقاة رجلا شريفاً مصرياً من أشراف مصر (الاصطلاحيين) أي الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، فنظراً لذلك ونظراً لكون يوسف كان أوّل له رؤياه بما يعود عليه بالغبطة والسرور ونظراً لكونهما قد انعقدت بينهما أخوة السجن والاعتقال ظلماً ، وأقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، نعم إنه قد وحّد ما بينهما ما صب فوق رؤوسهما من الظلم ومازّجَ بين نفسيهما ما كان من الوحدة والعزلة عن العالم ، إلى الذكرى المؤلمة ، إلى البؤس المشترك ، فهما أخوان في المساءة والأحزان ، تجمعهما صلة الجرح الذي ذكرها الشاعر في قوله :

قد قضى اللهُ أن يؤلـّفنا الجر ح ُ وأن نلتقي على أشجانهْ
كلـّما أنّ «بالعراق » جريـح لمس «الشرق» جنبه في «عُمانه»

نظراً لذلك كله حسب يوسف أن مجموعة هذه الأمور تصلح لان تشكل سبباً يدفع صديقه (رئيس السقاة) لان يهتم بأمره ، ويرفع مظلمته للملك ، ويأخذ على عاتقه إطراءه والثناء عليه ، متخيلاً أن العظماء في دار الحكومة ، عظماء في المعروف ، عظماء في مقابلة الإحسان بالإحسان ، عظماء في تقدير الرجاء ، يقدرون القصد ويحسبرن أن المعروف صيد ، لا ينسون أصدقاءهم ، ولا يخلفون إذا وعدوا ، ولا يبخلون بجاههم – كان قد خيّل إليه ذلك كله ، فإذا هو قد خاب فأله ، واستسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضرم ، ولم ينتفع منه على الفور ، ولكن بعدما دقّ العظم ، ورقّ الشحم وبلغ السيل الزبى ، ثم حدث ما أوجب أن يتذكره قسراً ، ويطريه بسببه عند الملك قهراً ، وللمفسرين ههنا كلام ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه أقل من أن ينظر إليه الناظرون ، ويعلق عليه المعلقون .

أسباب عدم إخبار يوسف أباه بسجنه

الفائدة الخامسة ـ إنْ قال قائل : « لماذا لم يكتب يوسف لابيه يعقوب عليهما السلام بطاقة يخبره فيها بهذا الحادث ، عساه أن يأتي ويسعى في مساعدته وإخراجه من سجنه ، وقد جرت العادة أن الإنسان عند الشدة يفزع لأقاربه ويستنصر بهم ، وأن رجاء يوسف لوالده أفضل من رجاء الاجنبي ؟ » قلنا ، يظهر لنا في جوابه وجوه :

(١) أن خصيمه هو الحاكم ، فشكوى حاله لابيه لا تجديه شيئاً ، وقد قيل « إذا كان غريمك القاضي . فلمن تشتكي ؟.. » وقال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شَرِق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

(٢) ربما كان يخشى من سوء سمعته في فلسطين . لعدم وقوفهم على براءة ساحته مما اتهم به وحبس لاجله .

(٣) ربما كان لا يزال يخاف من إخوته وكيدهم إياه فيأتون لمصر ويتداخلون لاجل كيده مع الحكومة . فيزيدون الطين بلة .

(٤) إن يوسف كان قد رأى أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سيسجدون له . وهذه الرؤيا تفيد أنه لا بد أن يأتي يوم تسجد له فيه إخوته الاحد عشر وكذا تسجد له الشمس وهي أبوه . والقمر وهو مربيته بلهة . إن قلنا إن (الواو) في قوله تعالى : (والشمس والقمر) عاطفة . فإن قلنا إن هذه (الواو) واو المعية أفادتنا أن سجود الإخوة الاحد عشر ليوسف لا بد أن يكون اجتماع يوسف بالشمس والقمر أمراً مؤكداً عنده ، منتظراً له . كما كان أيضاً منتظراً لأبيه يعقوب . وعلى هذا فكان يعقوب يترقب اجتماعه بولده وينتظر ذلك اليوم المعهود . وكان يوسف يترقب اجتماعه بوالده يعقوب ، وينتظر ذلك اليوم الموعود أيضاً ، فكان الإثنان على مثل اليقين ، بل على حق اليقين من

اجتماعهما فيما بعد ، مهما طال الوقت ، فلذلك لم يسع يوسف في تعريف والده بوجوده ولم يجتهد على إحاطة والده بأنه في مصر لتحققه أن الاجتماع سيقع أو سوف يقع بكفالة سماوية ، ووعد رباني لن يتخلف ، هذا أقصى ما أمكننا من الاعتذار عن سيدنا يوسف عليه السلام .

فصول مأساة يوسف (ع)

الفائدة السادسة ـ كانت مأساة يوسف عليه السلام ذات فصول سبعة :
(١) إلقاؤه في الجب. (٢) نقل السيارة له من موطنه لوطن آخر. (٣) بيعه لفوطيفار كرقيق . (٤) اتهامه زوراً بالفحشاء . (٥) محنته بالنسوة المصريات . (٦) سجنه ظلماً . (٧) وأخيراً نسيان صديقه له وقد تشفع به أن يذكره للملك فكانت هذه الحادثة الأخيرة المؤلمة خاتمة هذه الفصول وتتمة تلك الذكريات المحزنة.

على من يريد انتقاد أحد أن يتمهل حتى تستوفي البينة نصابها

الفائدة السابعة ـ (وقال للذي ظن.. الخ) ههنا يحشر المفسرون أحاديث تحتوي انتقاد يوسف في هذا وفيما ذكر في آية ٤٧ و ٥٠ و ٥٥ ، ويا ليتهم تريثوا وتمهلوا وتأملوا ، ولم يكونوا سراعاً في إيراد الطعن من نبي في نبي ، كأننا نحن المسلمين لم نكتف بإيقاد نار الفتنة بين رجل ورجل من غمار الناس وغوغائهم ، حتى وسعنا في هذا الباب وفتحناه على مصراعيه ، وجعلنا ننقل مافيه إيقاد نار الفتنة بين الأنبياء الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، ويا ليت المفسر حينما يريد أن ينقل انتقاد نبي على نبي ، واعتراض رسول على رسول ، يصبر حتى تستوفي البينة نصابها ، فقد ورد أن عمر بن الخطاب استشار الناس في دية الجنين ، فقال المغيرة بن شعبة : (شهدت رسول الله ﷺ قضى فيه بغرةٍ عبدٍ أو أمةٍ)

– فقال عمر : (إئتني بمن يشهد معك) فشهد معه محمد بن مسلمة رواه ابن ماجه في سننه ، وفيها أيضاً أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلب من راوي الحديث شاهداً آخر ، وفي حادثة ميراث الجدة ، فقد روى ابن ماجة : جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها ، فقال لها أبو بكر : (مالك في كتاب الله شيء وما علمت لك في سنة رسول شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس) فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة : (حضرت رسول الله أعطاها السدس – فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ – فقام محمد بن مسلمة الأنصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأنفذه لها أبو بكر) .

تعليل تعبيره بكلمة (ظن) في الآية

الفائدة الثامنة – إنما قيل (ظن) في قوله (وقال للذي ظن أنه ناج) ، ولم يقل (عَلِم أو جَزَم) لأن عبارته لرؤيا الشرابي ، ليست مبنية على حس أو تواتر أو وحي ، لكن على ملكة ومقدرة ، وتوضيح المقام يحتاج لشيء من بسط الكلام :

للعقل أحكام قاطعة ، وهي ما تستند إلى يقينات كالمشاهدات والمتواترات والأمور الموحى بها من الله ، وللعقل أحكام غير قاطعة ، وهي ما تستند إلى ظن وقد رفع الله الظنون بعضها فوق بعض درجات ، فمن الظن ما يقوى ، فيوشك أن يكون علماً ، ومن الظن ما يضعف ، فيوشك أن يكون شكاً ، وقوة الظن وضعفه يرجعان إلى تفاوت الأمارات والدلائل التي توجده وتربيه في النفس ،فلهذا ولما كان اعتقاد يوسف بنجاة « رئيس السقاة » ليس مستند على حس أو تواتر أو وحي ، بل على مجرد ملكة في عبارة المرائي، ومقدرة وهبها الله له، ناسب أن يعبر في جانبه « بالظن » هذا هو الصواب في تعليل تعبيره بكلمة « ظن » خلافاً للمفسرين .

فدع كل صوت غير صوتي فإنني　أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

إطلاق لفظ الرب مضافاً للعاقل على غير الله تعالى

الفائدة التاسعة - نتعلم من قوله « عند ربك » أن إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل على غيره تعالى كان جائزاً عند يوسف وفي عصره ،نظير السجود، أي سجود الإنسان للإنسان على جهة الاحترام والترسم، فإنه كان جائزاً في ذلك العصر وما قبله لعهد آدم عليه السلام ، كذا قالوه ، وهو حسن ، ولكننا نزيد عليه ما هو أحسن إن شاء الله تعالى، وهو أن هذا النوع من التعبير مبني على اصطلاح عند المصريين والعبرانيين ، وهو اعتبارهم الملك سيداً ، وكل رجل من رعاياه عبداً له ، وهم كالعرب يعبرون عن السيد بالرب ، مضافاً للفظ العبد أو لضميره، فيقولون : رب العبد وربه ، وهذا ، أي إضافة لفظ الرب للعبد جائز لغة ، كما نص عليه (الأساس) .

علاقة الشر بالله تعالى

الفائدة العاشرة - نتعلم من قوله : (فأنساه الشيطان) أن ننسب ما كان من نوع الشرور إلى غير الله تعالى كأنفسنا والشيطان ، ولا ننسب لله عز وجل إلا ما كان من نوع الخير ، قال موسى عليه السلام ، لما قتل القبطي : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطانِ ﴾ (٢٨ : ١٥) ، وقال ابن مسعود لما سئل عن الفريضة :

« أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً ، فمن الله ، وإن يكن خطأ ،فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » ، وكذلك قال أبو بكر في الكلالة، وقال عمر نحو ذلك « ومرادهم أن الصواب قد أمر الله به وشرعه وأوجبه ورضيه ، والخطأ لم يأمر به ولم يحبه ولم يشرعه ، بل هو مما زينه الشيطان لنفسي ففعلته بأمر الشيطان ، فهو مني ومن الشيطان » وتوضيح ذلك : أن الله تعالى

وإن كان خالقاً لكل شيء ، ولكن لا يضاف إليه الشر مفرداً ، بل إما أن يدخل في العموم ، وإما أن يضاف إلى السبب ، كالشيطان والنفس الخبيثة مثلاً ، وإما أن يحذف فاعله ، فالأول كقوله تعالى : ﴿ اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ ﴾ (١٣ : ١٨) والثاني كقوله : ﴿ قلْ أعوذُ بربِّ الفلَقِ ، مِنْ شَرِّ ما خلَقَ ﴾ (١١٣ : ١ و ٢) أي من شيطان ونفس خبيثة ونحوهما ، كما قال تعالى : ﴿ وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ ، فلا تقعدْ بعدَ الذِكْرَى مَعَ القوْمِ الظالمين ﴾ (٦ : ٦٨) وقال فتى موسى : ﴿ وما أنسانِيه إلا الشيطانُ أنْ أذكُرَهُ ﴾ (١٨ : ٦٤) ، ولما نام النبي وأصحابه في الوادي عن الصلاة ، قال : (هذا وادٍ حضرنا فيه الشيطانُ) ، وقال : (إن الشيطان أتى بلالاً ، فجعل يُهَدِّيه ، كما يُهَدَّى الصبي ، حتى نام) ، والثالث : كقول الجنّ : ﴿ وأنَّا لا ندري أشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرضِ ، أمْ أراد بهم ربُّهم رَشَداً ؟ ﴾ (٧٢ : ١٠) وقد قال تعالى : ﴿ اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ ، صِراطَ الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ (١ : ٥ – ٧) فذكر أنه فاعل النعمة ، وحذف فاعل الغضبِ ، وأضاف الضلال إليهم ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفين ﴾ (٢٦ : ٨٠) وإنما يذكر الشر في المفعولات كقوله تعالى : ﴿ اعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب ، وأنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٥ : ١٠١) وقوله : ﴿ إن رَبَّكَ لسريعُ العِقاب ، وإنه لغفورٌ رحيمٌ ﴾ (٧ : ١٦٦) ، وقوله : ﴿ نَبِّىء عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ ، وأنّ عذابي هو العذابُ الأليمُ ﴾ (١٥ : ٤٩) ، وقوله ﴿ حَمٓ ، تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ العليمِ ، غافرِ الذَّنْبِ وقابلِ التوبِ ، شديد العقاب ﴾ (٤٠ : ٣) (منهاج السنة) .

معنى قوله « ذكر ربه » تذكير ربه

الفائدة الحادية عشرة – معنى قوله : ﴿ ذكر ربه ﴾ تذكير ربه ، فهو من إضافة المصدر لمفعوله ، فإن الذكر مصدر ، تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة إلى

المفعول ، كما يقال : دَقُّ الثوب ، ودَقُّ القصار ، ويقال : أكلُ زيدٍ وأكل الطعامِ ، ويقال : ذِكرُ اللهِ : أيْ ذِكرُ العبدِ اللهَ ، ويقال ذكرُ اللهِ : أي ذِكرُ اللهِ منْ ذَكَرَهُ ، وكل هذا في إضافة الذكر إضافة المصادر ، وقد يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة ، كقولك ثوب زيد : أي الثوب المختص بزيد وذكر الله : أي الذكر المختص بالله ، ويحتمل المعنيين قوله تعالى: ﴿ ومَنْ أعرضَ عن ذكري ، فإنّ له مَعيشةً ضَنكاً ، ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمى ، قال ربِّ لِمَ حشَرتَني أعمى ، وقد كنتُ بصيراً ؟ - قال كذلك أتتْكَ آياتُنا فنَسيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾ (٢٠ : ١٢٤ - ١٢٦) ، فقوله ﴿ ذكري ﴾ إن أضيف إضافة المصدر إلى مفعوله ، وإن أضيف إضافة الاسماء المحضة ، فذكره هو ما اختص به من الذكر ، والقرآن هو ما اختص به الذكر ، قال تعالى: ﴿ وهذا ذِكرٌ مُبارَكٌ أنزلناه ﴾ (٢١ : ٥٠) وقال أيضاً : ﴿ إنْ هو إلا ذِكرٌ مُبينٌ ﴾ (٣٦ : ٣٩) (منهاج السنة) .

سبب مكث يوسف في السجن بضع سنين

الفائدة الثانية ـ قوله : ﴿ فَلَبِثَ في السجْنِ بِضْعَ سِنينَ ﴾ هو مرتب على قوله : ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ رَبِّه ﴾ ولا علاقة له بقوله : ﴿ قالَ اذكرني عند ربِّكَ ﴾ ، حتى يظن أنه مجازاة ليوسف ، كما توهمه بعض من ليس عنده دقة وإدراك للأمور ، وليس عنده كبير احترام لأنبياء الله الكرام.

التحقيق في معنى « البضع » وفي مدة مكث يوسف في السجن

الفائدة الثالثة عشرة - « البضع » هو من واحد إلى عشرة ، نقله الطبرسي في (مجمع البيان) عن ابن عباس ، ونقله الشريشي في شرحه على مقامات الحريري عن الأخفش والفراء ، ونقل صاحب القاموس أن من معاني البضع ما بين الواحد

إلى الأربعة ، أو أن البضع ما بين العقدين من واحد إلى عشرة، ومن أحد عشر إلى عشرين وهكذا ، قال تعالى : ﴿ وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبونَ في بضْعِ سنين ﴾ (٣٠ : ٣) وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر « الروم » على « فارس » لأنهم أهل كتاب ، والمشركون يميلون إلى « فارس » لأنهم أهل أوثان ، فلما بشر الله المسلمين بأن « الروم » سيغلبون ، سُرّ المسلمون بذلك ، ثم أن أبا بكر رضي الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم ، فقال له « أُبَيُّ ابن خلف » : « خاطرني على ذلك » فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بخطاره مع « أُبَيّ بن خلف » فقال له النبي « ما حملك على تقريب المدة ؟ » — قال الثقة بالله ورسوله ، — فقال له : عُدْ إليه فزده في الخطر ، وازدد في الأجل » — فزادهم قلوصين ، وزادوه سنتين ، فظفرت (الروم بفارس) قبل انقضاء الأجل الثاني ، ولكن كان (أُبَيُّ بن خلف) قد مات فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية (أُبَيّ) وتصدق به ، وهذه الحكاية تدفع القول بأن (البضع) ما بين الثلاثة والعشرة ، وهل كان (أبو بكر) لا يعرف معنى البضع في اللغة العربية وهو من صميم العرب ؟ إذ لو كان البضع كما قالوا لم يخاطر في مدة ثلاث سنين بل في مدة بعد الثلاث سنين ، ولكان النبي ﷺ لم ينتقده من هذه الجهة ، بل أقره على فهمه ، ولكن أراد النبي الاحتياط بازدياد الأجل ، والخلاصة وبالنتيجة يصح لنا أن نقول إن مدة إقامة يوسف في السجن إنما هي سنتان وشيء من السنة الثالثة كما يستفاد من (تك ٤١ : ١) وكل ما يروى في تحديد مدة سجن يوسف بأكثر من ذلك فهو غير حائز على شروط الصحة ، ومبني على حب المبالغة التي هي عادة في الناس .

هذه هي كلمتي في هذا المحل وهي آخر كلمة فأرجو الإصغاء إليها ، وآمل من السامعين قبولها .

لا تحقر الرأيَ يأتيكَ الصغيرُ به   فالنحلُ وهو ذبابٌ طائر العسل

الفصل السادس

حلمــــا الملك

آية (٤٣) « ... وقالَ المَلِكُ : إنِّي أرَى سَبْعَ بقَراتٍ سِمانٍ ، يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ ، وأُخَرَ يابساتٍ يا أيها المَلأُ أفتوني في رُؤْيايَ ، إن كنتم للرؤيا تَعْبرونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والأربعون فقام الشيخ ناصر الدين الأفغاني وقال :

لقد تم الكلام في اعتقال يوسف وذيوله ، ولنتركه في سجنه كما قدر الله ، ونذهب بالقارىء إلى الملك الريان وحلميه ، وإليك البيــان : (وقال الملك) الريان بلسان المتفهم المستفتي (إني أرى) في المنام (سبع بقرات سمان) جمع سمينة (يأكلهن سبع) من البقرات (عجاف) جمع عجفاء ، والعجف الهزال الذي ليس بعده ، (و) أرى أيضاً في حلم آخر في ذات الليلة (سبع سنبلات) سبلات (خضر) وسبعاً (أخر يابسات) ، هذا ما رأيت في حلمي فهيّا (يا أيها الملأ) الأعيان من العلماء والحكماء والكهــان (أفتوني في رؤياي) علموني تأويلها وبينوه لي ، بينوا لي حكم هذه الحادثة (إن) كان عندكم ثروة علمية و (كنتم للرؤيا) المنامية (تعبرون) وتعرفون عاقبتها ومآ لها .

(وقال الملك : إني أرى سبع بقرات .. الخ)

- ١ -

وقال العلامة الروحاني البخاري :

الملك الريان يقص حلميه على الملأ طالباً تعبيرهما له

شاءت العناية الإلهية أن يخرج يوسف من سجنه بسبب شريف علمي .. فقد آن للمظلوم أن ينتصر على الظالمين ، وحان للحق أن يدفع الباطل ، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسباباً ،فلذلك لما أراد الله إخراج يوسف من معتقله ، وإسناد وزارة المالية وحاكمية مصر لعهدته ، أرى ملك مصر رؤيا منامية ذات بال ، إذ بينا (الريان) نائم رأى رؤيا أكبرها جداً وأفاق من نومه وهو خائر النفس ، وأصبح من جرائها في اضطراب لم ير قبله مثله ، ولن يضطرب بعده مثله ، وأوجس منها خيفة ، وأجفل أيما إجفال ، ولذلك جمع الكهنة والكتبة المقدسين والحكماء وقال لهم بلهفة وهو مضطرب الحواس ، محطم من آثار ما رأى في منامه : إني أرى حلماً ذا بال ، إذ رأيت فيه سبع بقرات سمان وحسنة الصورة ، طلعت من النهر ، فارتعت في روضة كثيرة الكلأ ، ثم رأيت سبع بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة ، فأكلت البقراتُ الهزيلةُ القبيحةُ البقراتِ السبعَ الأولى ، السمينة ، فدخلت أجوافها ولم تظهر علامات ذلك ، فكانت كأنها لم تأكلها ، وعليه فبقي منظرها قبيحاً كما في الأول ، وههنا استيقظت ، ثم نمت فرأيت في حلمي سبع سنابل خضر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، ثم رأيت سبع سنابل بيض يابسة رقيقة ملفوحـــة بالريح الشرقية نابتة وراءها ، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابلَ الحسنة :

فيا أيها الكهنة ويا أيها العلماء والحكماء والكتبة المقدسين أنيروا ظلمـة

نفسي ، وبينوا لي بفجر أفكاركم ، الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فقد التبس عليّ أمر هذه الرؤيا ، والتوى عني مآلها ، يا أيها الملأ الذين يملأون بهيئاتهم عيون الناس ، لله أبوكم ، بينوا لي مرمى ما رأيت ، إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا ، وتعرفون مآلها ومرجعها .

قال ذلك ، ولوائح الاهتمام تلوح على وجهه ، وظواهر العناية تبدو على لسانه .

وههنا نسرد ثماني مسائل لها علاقتها بتوضيح معنى الآية :

من هو الملك في قوله : وقال الملك...

المسألة الأولىـ إن هذا «الملك» الذي يعنيه القرآن هو «الريان بن الوليد» كما ذكره مؤرخو العرب ، وكما وجد اسمه منقوشاً على بعض الأحجار الأثرية ، وهو من العمالقة ، وبعبارة أخرى من الأسرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة لدولة الرعاة العربية بمصر ، أي الهكسوس ، إذ لما كانت السلالة الرابعة عشرة من الفراعنة المصريين تحكم في وادي النيل سنة (٢٠٠٠ ق.م) ، كانت الأقوام السامية تنتقل في شرقي مصر (مديرية الشرقية المسماة في التوراة أرض جاسان) على حدود البادية ، وهذه الأقوام هي التي كان المصريون يسمونها « شاسو » أو « هكسوس » أي البدو ، وهم قوم من البدو يشبهون العرب ، ويتكلمون لغة يظهر أنها كانت قريبة جداً من العربية ، وكانت هذه الأقوام تترقب ضعف الفراعنة في مصر ، فتسطو على المصريين في مدنهم أو يقطعون عليهم السابلة للغزو ، وكانت الفراعنة تخافهم وكثيراً ما سالمتهم واستعانت بهم في حروبهم ، لقوتهم وشجاعتهم ، شأن أهل البادية في كل عصر ، وما زالوا كذلك حتى سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر السفلى ، وامتلكوها ، وكيفية ذلك أنه لما حدثت الاضطرابات والفتن ، منذ السلالة الرابعة عشرة ، اغتنم الهكسوس ضعف دولة

النيل ، فوثبوا على مصر السفلى ، وأعملوا فيها يد النهب والسلب ، واستعمروا الوجه البحري ؛ وجزءاً من الوجه القبلي ؛ واستولوا على مـــدينة « منفيس » وضبطوا « الدلتا » بكاملها ، وولوا عليهم ملكاً منهم ، فتقهقرت الفراعنة إلى الجنوب ، ثم بدأوا يجبون الضرائب من الأهلين ، وما زالت مصر في حوزتهم حتى أول القرن الثامن عشر ق. م ودامت سيطرة العمالقة (الهكسوس) عـلى مصر نحو أو أكثر من خمسة قرون ثم طردهم المصريون .

دولة الهكسوس في مصر

وكانت دولة الهكسوس عندما انحسر تيارهم وقت ورود يوسف الصديق تقع في المثلث الذي تتألف منه رؤوسه ، من « مينـــا القمح » و « بوبسطة » (القريبة من الزقازيق) وصان الحجر ، وهي المسماة « صوعن » ، ثم لما تقدم ، لما بيع يوسف لم يجد أقل مشقة في محادثة الأهالي ، لأنهم كانوا منه ، وهو منهم ، يتكلمون كلهم لغة سامية ، فيوسف لم يخدم أحداً من فراعنة مصر ، لأن هؤلاء كانوا في « طيبة » في ذلك الوقت ، وكانت لغتهم مصرية لا يفهمها يوسف .

تعبير القرآن بلفظ «ملك» ولفظ «فرعون» لحكام مصر الأقدمين

المسألة الثانية ـ عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذي كان في عهد يوسف بلفظ « ملك » ولم يعبر بلفظ « فرعون » ، لأن هذا الملك «الملك الريان» لم يكن من «القبط» بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين في نظرهم ، وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة « فرعون » إلا على من كان مستولياً على مصر استيلاء شرعياً وكان مصرياً قحاً ، وليس دخيلا أو مستعمراً وعلى هذا جرت عادة كتاب الله أن يراعي الاصطلاحات المعروفة عند أهلها ، وهو ما فهمته في توجيه تسمية حاكم مصر في زمن يوسف بلفظ « ملك » في

خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة ، منها ما جاء في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ومنها قوله : ﴿ وقال الملك : ائتوني به ﴾ وقوله : ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ وقوله : ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ وقوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ فهذه خمسة مواضع أطلق الله فيها على حاكم مصر بصورة متمادية لقب « ملك » لا لقب « فرعون » ولكنه في سائر السور سمى ملوك مصر الوطنيين « فراعنة » جرياً على اصطلاح « القبط » ، كما في قوله تعالى في فرعون التسخير « رمسيس الثاني » من السلالة التاسعة عشرة : ﴿ فالتَقَطَهُ آلُ فرعونَ ﴾ (٢٨ : ٨) ، وقوله تعالى في فرعون الخروج « منفتا » الابن الثالث عشر لرمسيس الثاني : ﴿ وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم مِنْ إلهٍ غيري ﴾ (٢٨ : ٣٨) وقوله تعالى في بعض فراعنة مصر : ﴿ وضربَ اللهُ مثلاً للذينَ آمنوا امرأة فرعون ﴾ (٦٦: ١٠) وهذا لا نعلم من أي سلالة، وفي أي عصر هو ؟

غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر »

في زمن يوسف باسم « فرعون »

وبعد كل ذلك نعلم غلط جميع المؤرخين من أهل التاريخ القديم والحديث العرب واليهود والنصارى ، وكذا المفسرين والمحدثين ، في تسميتهم « ملك مصر » في زمن يوسف باسم « فرعون » لأنه مخالف للواقع ولاصطلاح أهل ذلك الزمن ، ولكتاب الله تعالى ، وقد تبع التوراة في هذه التسمية ، جمهور المفسرين والمؤرخين ، أو كأن المسلمين أخذوا تسمية الرعاة بالفراعنة ، عمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب ، فقلدوهم في ذلك ، حتى اتصل بالمفسرين ، والناس – كما قال ابن تيمية – أسراب طير يتبع بعضهم بعضاً ، وليعذرني القارىء الكريم في مخالفتي لجميع من ذكر ، فالهدهد رد على سليمان ، والمرأة أصابت دون النعمان

والفاروق يقول : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » ، والسمكة ردت على الشيخ محي الدين الأكبر .

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمتِ

وعندنا أن هذا من جملة البراهين على أن القرآن وحي يوحى ، وليس من تأليف البشر ، لأنه لو كان كذلك ، لاتبع القرآن ما هو المشهور عند أهل الكتاب ، المتداول على ألسنتهم ، المكتوب في أسفارهم ، من تسمية « ملك مصر » في زمن يوسف باسم (فرعون) كما هو كذلك في توراتهم وغيرها من كتب اليهود المقدسة عندهم .. (مرحى مرحى)

عدد سبعة في تاريخ يوسف

المسألة الثالثة ـ كثر عدد « السبع » في تاريخ يوسف ، فالبقرات السمان سبع ، والعجاف سبع ، والسنبلات الخضر سبع ، واليابسات سبع ، وسنوُ الخصب سبع ، والسنوُ الشداد سبع ، والحفلة النسائية التي تشكلت في قصر العزيز ، لكي تلتفت حوله وتراه ، كانت مؤلفة من سبع نسوة ، والأبواب التي غلّقتها امرأة العزيز كانت سبعاً ، والإخوة الذين تبعوا مشورة شمعون في قتل يوسف أو طرحه أرضاً كانوا سبعة ، ولما ماتت « راحيل » حضنت « بلهة » يوسف سبع سنين ، وكان عمر يوسف حين قام أبوه من حاران سبع سنين .

احتياج الملوك للعلماء

المسألة الرابعة ـ نتعلم من قول « الريان » للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكماء — أن الملوك مهما كانوا من ذوي الأيد والشدة ، لا يستغنون عن أهل العلم ، يستنيرون بنور علومهم ، في دياجي الحوادث ، فكم من ملك بنى القلاع والحصون ، وقاد الجيوش ، واستكثر من السلاح والكِراع ، وأوغل في الفتح

ودوخ البلاد ، واستعبد الأمم ، وعاش في الغبطة والسرور ، ومع كل هـذا لم يستغن عن سؤال العلماء ، والاستفادة من معارفهم ، فقول « الريان بن الوليد » هنا : « يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي » قول يتضمن احتياج الملوك للعلماء وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله !

الملأ جماعة من رجال البلاط والعلماء

المسألة الخامسة ـ « الملأ » جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون ، أو ينظرون فيملأون بهيئتهم العيون ، كذا قالوا ، وعليه يكون « ملأ » بمعنى مالىء ويحتمل عندنا أن يكون « ملأ » بمعنى مملوء ، لأنهم مملوؤن من الرأي ، ومملوؤن من الهيئة الجميلة، فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول، وقد عهد مجيء فَعَلٍ بمعنى مفعول أكثر من مجيئه بمعنى فاعل ، فمن ذلك :

حسب ، نقض ، صمد ، سكن ، ولد ، حصب ، نفض ، ذهب ، جلب ، سرب ،خرز ، ملك ، نعم ، طرح ، إلى غير ذلك.

وربما كان هذا « الملأ » من رجال البلاط ومن العلماء أصحاب المناصب في الديوان الملكي ، الذين ليسوا أخصائيين في عبارة المرائي المنامية ، ولذلك قال: ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فإن هذه الجملة تفيد أن الملك « الريان »لم يكن على بينة من أنهم يعبرون الرؤيا ، وليسوا مشهورين ولا أخصائيين في عبر المنام،هذا ما فتح به المولى الكريم ، وهو بكل شيء عليم .

يغلب على الحلم أن يرى ولا يسمع

المسألة السادسة ــ تعليقاً على قوله « إني أرى » قلما يحلم الإنسان حلماً تحتوي مادته على لغة وكلام ، وإنما الأكثر أن « يُرى » الحلم ولا يسمع ، وهو لذلك يسمى « رؤيا » فنحن في معظم أحلامنا خرس لا نتكلم وإنما نرى فقط ،

كما كان الإنسان في بدء حياته الإنسانية عقب خروجه من الطور الحيواني أخرس لا يتكلم ، ويوجد في هذه السورة خمسة مرائي : الأولى رؤيا يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ، والثانية رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً والثالثة رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، والرابعة والخامسة ، رؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل ، وكل ذلك رؤيا لم تحتو مادته على لغة وكلام ولكن على شيء منظور ، نعم في ذلك أفكار مجسمة ، وتجسيم الأفكار هو الأصل في الرموز ، ففي الرؤيا الأولى ، علو يوسف وشرفه مجسم في ذاته المسجود لها ، وخضوع إخوته مجسم في ذوات إخوته الساجدين ، وأما في الرؤيا الثانية فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته ، عند الملك هو مجسم في عصر الخمر للملك وأما في الرؤيا الثالثة فصلب رئيس الخبازين هو مجسم في الخبز المعلق فوق رأسه وأما في رؤيتَيْ الملك ، فالخصب مجسم في أشخاص البقرات السمان والسنابل الخضر ، والجدب مجسم في أشخاص البقرات العجاف والسنابل اليابسات ، فالأفكار والآراء تتجسم للرائي في الحلم أشخاصاً أو أشياء .

الفتوى

المسألة السابعة – (أفتوني) بمعنى علموني تأويل تلك الرؤيا ، ففي حديث رويناه ، في سنن ابن ماجه : (سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ، وأفتوهم) قال محمد بن الحارث للحكم بن عبدة : (ما أفتوهم قال علموهم) وأفتاه في الأمر أبانه له ، والفتيا والفُتوى وتفتح : ما أفتى به الفقيه (قاموس) .

تعبير الرؤيا

المسألة الثامنة – حقيقة (عبرت الرؤيا) ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما تقول : عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ، ونحوه أولت

الرؤيا ، إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها ، وعِبْر الوادي وعِبْر النهر ويفتح : شاطئه وناحيته ، وعَبَرت الرؤيا عبْراً وعبارة فأنا عابر ، أفصح من عبَّرت بالتشديد ، والتعبير والمعبر ، ثم لفظ (تعبرون) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة ، في هذا الموضع لا غير ..

إمكان رؤية حلمين في نوم واحد

وقبل الختام فعندي كلمة لا بد من التصريح بها ، وهي أن بعضهم سُئِلَ : هل يمكن أن يرى الإنسان في منامه حلمين من مراد واحد يتكرران في ليلة واحدة : فأجاب بأن هذا من الممكن ، بل من المرجح ، لأن الإنسان يحلم بما يشغل باله ، فإذا كان هذا الشاغل قوياً تكرر حدوثه بل إذا تذكرنا حلمي مليك مصر وهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة ، قلنا إنه واقع وثابت ، هذه هي كلمتي الختامية والسلام عليكم . (مرحى)

جهل الملأ بتأويل الأحلام وجوابهم

آية(٤٤) « قالوا : أضْغاثُ أَحْلامٍ ، وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالِمينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والأربعون فقام الشيخ اسعد الحوراني[١] وقال .

(قالوا) أي الملأ بلسان الجهل أو المكر (أضغاث أحلام) أي تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان،وأصل الأضغاث

(١) نسبة الى منطقة حوران من بلاد الشام (سورية) .

ما جمع من أخلاط النبات وحُزَم، الواحد ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى مِنْ، أي أضغاث من أحلام، فإن قلت: لِمَ قالوا أضغاث أحلام بصيغة الجمع؟ قلتُ هو جمع، لأنهما حلمان، فالسبع بقرات حلم، والسبع سنابل حلم بعده، إنما كلاهما في ليلة واحدة، وقد قيل أقل الجمع اثنان،(وما نحن بتأويل الأحلام) أي المنامات الباطلة (بعالمين) فليس لهما عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة، ويحتمل أن المعنى: هي أضغاث أحلام ومع ذلك فلسنا في تأويل الأحلام الصحيحة بنحارير، وههنا يظهر الفرق بين العالم والجاهل.

(قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)

— ١ —

وقال الأستاذ عبد الحق الاخصائي في علم النفس :

طعن الملإ في رؤيا الملك على اعتبار أنها غير صحيحة

سبق أن الملك الريان دعى « الملأ » الذي عنده في البلاط وقد حسن فيهم ظنه واستفتاهم في أمر حلميه، وهم كانوا في أثناء استفتاء الملك جالسين جلوس الأصنام، وقد جمد الدم في عروقهم، لأنهم رأوا أن جهلهم لا يساعدهم على تأويل رؤياه، فلذلك أجابوه وقد علاهم الاصفرار والخجل واكتنفتهم ظلمة الجهالة: أيها الملك، علا نجمك، وغاب نحسك، ودامت أيامك، إن هذه الرؤيا التي رأيت، لا يعول عليها في تصاريف الأيام بل هي تخاليط أحلام وأباطيلها، اقتضتها هواجس الملك وشكوكه؛ أو هي منامات باطلة ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة.

فترى أنهم طعنوا في الرؤيا بأنها غير صحيحة، وليست رؤيا رحمانية، بل هي حُلْم من الأحلام الشيطانية التي لا تستحق النظر، أرادوا أنهم وإن

يكن عندهم علم بتأويل الرؤى ، لكن هذه الرؤيا إنما هي حُلم شيطاني ليس له تأويل مطلقاً ، لا عندهم ولا عند سواهم .

جهل الملإ بتأويل رؤيا الملك على اعتبار أنها صحيحة

وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون معنى الأحلام في قولهم : (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) الرؤى المنامية الصحيحة ، كانوا يقولون : ومع ذلك فلسنا هناك ، فإننا غير أهل لتأويل المرائي المنامية مطلقاً ، حتى على فرض أنها صحيحة صادقة ، فقد نصدق إن قلنا : « خيراً رأيت » وقد نصدق إن قلنا « عكس ذلك » لا سمح الله ، فنحن لا نعلم إلا أننا لا نعلم ، وإن من العلم أن نقول : « لا نعلم ، بل الله أعلم » وعلى هذا فيكونون قد اعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير ، ويكون كلامهم هذا اعترافاً بالجهل أو العجز ، وانسحاباً من ميدان المقدرة على التعبير مطلقاً ، وإعلاناً لإفلاسهم من العلم والمعرفة ، وبهذا يكونون قد استراحوا من حيث تعب الكرام ، كما أنهم بهذا قطعوا آخر خيط في نفس الملك من خيوط الرجاء بوقوفه على تأويل رؤياه بواسطتهم ، وهذا الاحتمال الثاني قوي جداً ، وقول الملك لهم أولاً : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا في اعتقاده عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج الاستفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أو غير عالمين ، وقول الفتى الذي نجا ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ... الخ الآية ﴾ دليل أيضاً على ذلك .

ولنا هنا خمس فوائد :

كذب الملإ وصدقهم في جوابهم للملك

الفائدة الأولى ـ نرى أنهؤلاء «الملإ» قد كذبوا في جوابهم للملك وصدقوا أما كذبوا ، ففي قولهم : (أضغاث أحلام) فإن هذه الرؤيا ليست من قبيل أضغاث الأحلام ، بل هي من الرؤى المعتبرة ، وأما صدقوا ، ففي قولهم : (وما نحن ... الخ الآية) الذي حاصله الاعتراف منهم بالجهل .

جواب الملإ للملك يدل على جهلهم تعبير الرؤى

الفائدة الثانية – يوجد في هذه الآية نكتة ، وهي أن هؤلاء« الملإ » جمعوا في جوابهم بين قولهم ﴿ أضغاث أحلام ﴾ وقولهم ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ ذهاباً منهم إلى إرادة عدم الجواب على كل حال ، فهم يقولون : هذه الرؤيا لا تخلو من أحد أمرين ، فإن كانت أضغاث أحلام فيما نظن ، فليس لها عندنا ولا عند غيرنا تعبير ، وإن كانت من قبيل الحُلم الذي له تأويل فلسنا هناك ، لأننا لسنا من العلماء بتفاسير الأحلام ولو صحيحة ، فعلى كل حال لا تكلفنا أيها الملك بتعبير هذه الرؤيا .

معنى الضغث

الفائدة الثالثة – الضغث من العمل ما كان مختلطاً غير خالص ، فهوفِعْل بمعنى مفعول ، كالذِبح والحِمل ، من ضغث الحديث إذا خُلِط ، وأتانا ضَغثَةٌ من ناس : أي جماعة ملتبسة ، داخل بعضها في بعض ، ومنه قولهم للحُزمة من كلإٍ أو غيره « ضِغْث » وللاحلام الملتبسة « أضغاث » .

طاف عمر رضي الله عنه بالبيت فقال : (اللّهُم إن كنت كتبت عليّ إثماً أو ضِغثاً فامحه عني ، فإنك تمحو ما تشاء وعندك أم الكتاب) ، وفي حديث أبي

هريرة رضي الله عنه أنه أردف غلامه خلفه ، فقيل له : (لو أنزلته فيسعى خلفك فقال : لأنْ يسير معي ضِغثان من نار ، يحرقان مني ما أحرقا ، أحبّ إليّ من أن يسعى غلامي خلفي) ، الفائق .

وقد جاء هنا (أضغاث أحلام) بصفة الجمع والمقصود ضغثا أحلام ، لأنهما ضغثان اثنان فقط ، ولكن من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع كما تقول عند ذكر الحسنين : « كرّم الله وجوههما » وكما قال عز وجل : ﴿ إن تتوبا إلى اللهِ .. فقد صَغَت قلوبُكما • وإن تَظاهرا عليه . . فإنّ اللهَ هُوَ مَوْلاه .. الخ الآية ﴾ (٦٦ : ٤) ولم يقل « قلبا كما » ، وكما قال عز وجل : ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقْطَعوا أيْديهما ﴾ (٥ : ٤١) ، فلم يقل « يديهما » فقه اللغة .

الحِلْمُ والحُلْم

الفائدة الرابعة — « الأحلام » جمع حُلْمْ بالضم بمعني الرؤيا المنامية وهو من الباب الأول ، مثل حكم يحكم حكماً ، واسم الفاعل منه حالم ، ويقال : حَلُم يَحْلُم كحَسُن يَحْسُن من الباب الخامس ومصدره الحِلم بالكسر ؛ ومعناه صفح وستر وتأنى وتروى وتعقل ، واسم الفاعل منه حليم ، وجمع الحِلْم بمعنى العقل حلوم وأحلام أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ أم تَأمرُهم أحلامُهم بهذا ؟ ﴾ (٥٢ . ٣٢) وقال حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر   جسم البغال وأحلام المصافيرِ

احتمال تجاهل الملإ تعبير رؤيا الملك وسببه

الفائدة الخامسة — كل ما تقدم من أن هؤلاء « الملإ » جهلوا تأويل حلم الملك جهلاً حقيقياً ، لا تجاهلاً صنمياً ، هو ما ذهب إليه جميع مفسري القرآن

الكريم ومفسري التوراة ، وهو حسن ، وعندي أنه يجوز أيضاً أن يكونوا غير جاهلي تأويل هذه الرؤيا ، ولكنهم تجاهلوه ، تذكروا ما انطوت عليه الصدور وانحنت فوقه الضلوع ، من الحقد القديم ، والضغينة السياسية ، بين القبط الوطنيين ، الذين منهم هؤلاء « الملا » وبين أمة الهكسوس الذين منهم هذا الملك ولا بدع في كون الوطنيين كانوا يعدّون الهكسوس غريبين عنهم ، مغتصبين لبلادهم ، مع حلولهم بمصر نحو مدة (٥٠٠) سنة ، فهذه بلدة سلانيك ، ظلت في قبضة الترك (٤٨٢) عاماً ، وما فتىء أهلها يعدون الأتراك أجانب ومغتصبين وتراهم عند كل فرصة كانوا يثورون على دولة « آل عثمان » حتى سلمت إليهم .

وغني عن البيان أن تأويل هذه الرؤيا بسيط وبسيط جداً ، ولكن هؤلاء « الملا » لا يريدون أن يبينوا التأويل لهذا الملك الغريب المغتصب ، ولم يكونوا يريدون نصحه والإخلاص له ، لمكان الاختلاف بينه وبينهم في اللغة والعنصر والوطن والدين ، فلغتهم وجرثومتهم قبطية ، ولكن الملك الريان سامي في لغته وجرثومته ، وأما وطنهم فافريقية وهو من آسية ، وأما معبوداتهم فهي قطعاً غير معبوداته ، وإن كان كل من الفريقين وثنياً .

فهل بعد هذه المخالفات يمكن أن يخلصوا لهذا الملك ، أو لأيّ واحد من سلالته ، أو لأي سلالة من سلالات الهكسوس الثلاث ؟ ــ حاشا ــ

وعندي أنه بهذا الفهم ينحل إشكال ، صورته ما يلي :

كيف أن «الملأ» الذي يجمع بين السحرة والحازّة [١] والمنجمين والمفكرين والمعبرين لم يجيبوا عن سؤال الملك ، مع بساطة الجواب لا سيما على المصريين .

فإذا صح هذا يكون المعنى هكذا : سألهم الملك الريان عن رؤياه ، فتفاوضوا فيما بينهم قائلين : (إن هذا الملك العماليقي الغريب المغتصب قد استبد

---

(١) الحازة جمع حاز وهو المنقب والمستقصي .

هو وأجداده بمقدرات الشعب المصري، والآن (كما يستفاد من رؤياه) سيحدث بمصر حوادث هامة حيوية اقتصادية ، ربما أوجبت اضطراباً في مملكته وأنهكت قواه وزلزلت أقدام هؤلاء الغرباء ، وعليه فالأوفق أن ننصح له ، ولا نجيبه على سؤاله لئلا يستدرك ويلطف هذه الحادثة التي ستحدث، ولذلك قالوا له بأفواههم فقط دون قلوبهم ، لأنهم لا يعتقدون ما يلفظون : (أضغاث أحلام) تجاهلاً منهم ، وإلا فهم أهل لتعبير هذه الرؤيا وغيرها ، وأما قول الملك لهم : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) فليس هو من قبيل الشك في مقدرتهم ، ولكنه من قبيل الحث والتحضير لكي يدلوا هذه الرؤيا بجد وسرعة ، أو لكون الملك قد استصعبها في نفسه ، وإن لم تكن صعبة عليهم في الواقع ، هذا ما نذكره على سبيل الاحتمال ، والله تعالى أعلم .

وقبل الختام ، فلا ندحة لنا من أن نقول : جل الله القدير ، إن هؤلاء الملإ ، أطبقوا ، وتمالئوا على ما قالوا ، جهلاً منهم بمرامي الرؤى المنامية أو كراهة منهم للملك ، وإذا كان معاوية بن أبي سفيان كان قال في حادثة : (إن لله جنداً من العسل) ، فنحن هنا نقول : (إن ليوسف جنداً من جهل هؤلاء الملإ أو مكرهم بالملك) لأن يوسف انتفع بذلك ، ولولا جهلهم أو تجاهلهم لم يحتج إليه في تفسير رؤيا الملك ، فكان يبقى في معتقله لآخر لحظة من حياته ، ولكن هكذا أراد الإله القدير ، ولله تعالى في خلقه شؤون . مرحى

وعند جهينة « يوسف » الخبر اليقين

أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب إليه ليؤول له حلمَي الملك :

آ (٤٥) « وقالَ الذي نجا منهما ، وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة : أَنا أَنبِّئكُم بتأويله ، فأرسِلونِ »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والأربعون فقام الجان عبد السلام التركماني وقال :

سمع الملك الريان جواب (الملإ) فقال : سبحان الله ، ما هذه الحادثة التي هي أعقد من ذنب الضب ، وإن أعجب ، فعجب أنكم تقولون عنها إنها أضغاث أحلام ، ثم تقولون ما أنتم بتأويل الأحلام بعاملين (و) عند ذلك (قال) الفتى رئيس السقاة (الذي) كان في السجن مع يوسف ثم (نجا منهما) من الفتيين من القتل (وادّكر) تذكر يوسف وما شاهدَ منه ، ولكن مع الأسف إنما كان تذكر (بعد أمة) بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين حكى الملك الريان رؤياه واستفتى فيها الملأ ، وأعضل على الملإ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه رئيس الخبازين ، كما تذكر أيضاً طلب يوسف إليه أن يذكره عند الملك ، قال : (أنا أنبئكم) أخبركم (بتأويله) بواسطة من عنده علمه وهو الفتى العبراني خادم فوطيفار رهين السجن (فأرسلون) أي فابعثوني إليه لأسأله ومروني باستعباره .

(وقال الذي نجا منهما ... الخ)

— ١ —

ثم قام الحاج عبد القهار الألباني[١] وألقى المقال التالي :

تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهاب إليه ليستعبره حلمي الملك

سمع رئيس السقاة (نبو) سؤال الملك الريان وجواب (الملإ) السلبي ، فصار يضحك في قلبه على جهلهم ، ويقول بينه وبين نفسه : (إن هؤلاء الملإ ، هؤلاء العلماء الرسميين ، لهم أضعف من أن يقدروا أن يعبروا رؤيا الملك) ، ثم ما عتم أن تذكر يوسف العبراني ، فقام ووقف أمام الملك وركع بين يديه وكفّر وقال : (أيها الملك المعظم ، ما هؤلاء وذاك ؟ أعط القوس باريها ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

(أنا) بصفتي كوسيط (انبئكم بتأويله) بكل تدقيق وتفصيل ، على أهون سبيل ، فإن في معتقل الخاصة كهلاً فاضلاً صالحاً ، كثير العلم كثير الطاعة ، كنت معتقلاً معه أنا ورئيس الخبازين (مجلث)[٢] ، وكان كلانا رأى حلماً ، فقص كل منا حلمه على هذا الإنسان ، فذكر لنا تأويلهما بأسرع من لمح البصر ، وليس هذا هو العجيب ، بل العجيب أنه صدق في تأويل كليهما ، وما أخطأ في حرف واحد فإن رأى جلالة ربي الملك أن يبعثني إلى سجن الخاصة ، ويصحبني بمن يسمع ويعي معي ما يقوله ذلك السجين فعلت ورجعت بالجواب الوافي الذي يبرد الغلة ويشفي من العلة .

وهكذا هتف الشرابي بمدح يوسف وأفاض فيه ، حتى ألبسه ثوباً فضفاضاً

---

(١) نسبة الى بلاد الالبان الكائنة بين اليونان وايطاليا .

(٢) وفي رواية يسمى : « ملحب » .

من الإعجاب والتقدير ، وكانت تلوح على فمه آيات الصدق والإخلاص ، فلذلك قال له الملك : (ليكن كما تحب ، وليذهب معك من أردت ، دونك ما بدا لك) فسار في كوكبة من رجاله إلى يوسف السجين .

وههنا ملحوظات أربع :

ثمرة الإحسان

الملحوظة الأولى – نتعلم من هذه الآية أنه ما دلّ مليك مصر على يوسف الصديق ، وعرّفه بفضله إلا ذلك المصري (رئيس السقاة) ، لما سبق أنه سمع منه الحكمه والفوائد الجليلة ، مع ما عهده إليه يوسف من ذكره لمليكه ، فأثمر عنده الإحسان ووفى بالوعد ، وإن كان بعد طول العهد .

الحكمة من صرف الله الملأ عن تأويل رؤيا الملك

الملحوظة الثانية – لقد صرف الله الملأ عن تأويل رؤيا الملك ، وجمّد أفكارهم عن فهمها ، وألجم ألسنتهم عن بيانها ، حتى يسمع « الساقي » فيطير بها ليوسف ويقضي الله أمراً كان مفعولاً .

التدابير الإلهية وجهل الملإ

الملحوظة الثالثة – يا للبلاهة والسذاجة ! ألهذه الدركة يكون الجهل في هؤلاء الملإ ؟.. أين علماء « صوعن » ؟.. أين سحرة « تانيس » ؟.. أين حكماء « الوجه البحري » ؟ أين فلاسفة « الوجه القبلي » ؟.. أين حازّة « المديرية الشرقية » ؟.. أين عافة [1] « بوبسطة » ؟.. أفلا يوجد واحد على الأقل في هؤلاء يقدر أن يعبر حلمي الملك ؟.. لكن هي التقادير والتدابير الإلهية صرفت هؤلاء

(١) العافة الكهان الذين يتنبئون بالغيب .

عما هو بسيط ، وجملتهم يجهلون ما هو غاية في السهولة ، حتى يحتاج الريان لمراجعة ذلك السجين العبراني ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

الفتى الناجي يتحدى الملإ

الملحوظة الرابعة – رأى « رئيس السقاة » أن هؤلاء « الملإ » حوّلوا رؤيا الملك عن جهة كونها رؤيا معتبرة قيمة تستحق التعبير – إلى جهة كونها حلماً ليس له قيمة ، وليس له اعتبار ولا تعبير ، بل هو تخاليط وخيالات ، ثم رآهم أيضاً يتنصلون من معرفة التعبير مطلقاً – فلذلك قال : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) .

استعبار رؤيا الملك من يوسف

آ (٤٦) « ... يوسف ، أيها الصِدِّيقُ ، أَفْتِنَا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ ، يأْكُلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابِساتٍ ، لَعَلِّي أرجِعُ إلى الناسِ لَعَلَّهم يَعْلَمُونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والأربعون فقام مولانا أحمد حسن الهندي الكلكتي[1] وقال :

وافق الملك وحاشيته على إرسال « رئيس السقاة » إلى يوسف ، ولما أتاه قال له : (يا يوسف أيها الصديق) البليغ في الصدق ، لقد تعودنا أن نسمع حديثك اللذ ، وفتواك الصحيحة ، التي ذقت أحوالها وتعرفت صدقها في تأويل رؤياي ورؤيا صاحبي ، حيث قد جاءت كما أوّلت لنا ، فنرجوك الآن (أفتنا في سبع

(١) نسبة الى كلكتا احدى مدن الهند .

بقرات .. الخ) وإن أمكنك أن تكون الفتيا في هذه الجلسة فذاك هو المطلوب حيث الحاجة ماسة والمسألة مستعجلة ... (لعلّي أرجع إلى الناس) وهم الملك وحاشيته (لعلهم يعلمون) التأويل أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك .

(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان .. الخ)

— ١ —

وقال السيد محسن السامرائي [٢] :

الفتى الناجي يقابل يوسف ويمتدحه ويستعبره رؤيا الملك

قام رئيس السقاة يعدو في ذهابه ، حتى لتراه يخرج من إهابه ، وذهب إلى سجن يوسف ودخل عليه قائلا :

« يوسف » قبل كل شيء أطلب إليك الصفح ، فقد كنت أذنبت حيالك ، لأنني أنسيت أن أذكرك لربي ، وما أنسانيك إلا الشيطان أن أذكرك ، (أيها الصديق) لله أبوك ، لك الله من رجل صدق ، رجل حذق وذكاء ، لك الله من رجل جمع إلى الإحسان في عمله ، الصدق في رأيه وقوله ، أريد أن أجتديك ، وأعتفي فضلك، فقد أتيت لك بمهمة ذات بال : أفتنا وأنر ظلمة نفوسنا، وبين لنا المرمى في رؤيا سبع بقرات سمان اللحم وحسنة الصورة، طلعت من النهر فأرتعت في روضة فأكلتهن سبع بقرات مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة، طلعت البقرات الرقيقة القبيحة من النهر وراء تلك السبع الأولى فأكلتها ودخلت أجوافها، ولم يُعلم أنها دخلت أجوافها.

ثم أفتنا في رؤيا ثانية أيضاً ، رؤيت بعد الأولى في ليلة واحدة وهي سبع

(٢) نسبة الى سامراء بلدة في العراق .

سنابل خضر طالعة في ساق ممتلئة وحسنة، وسبع سنابل أخر يابسات ورقيقات نابتة وراء تلك ، ملفوحة بالريح الشرقية الجنوبية ، المعروفة بريح الخمسين تأتي لمصر من صحاري بلاد العرب اليابسة ، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع الحسنة ؛ هذا هو الحلم الذي استعجم علينا مآ له ، والتبك تفسيره ، فأفدني من فضلك وخلاك كتمان العلم ، لأني سأرجع إلى الملك « الريان بن الوليد » و« الملأ » الذين من حوله ، فأطلعهم على علمك وفضلك ، فتصير بالطبع تحت الطلب ، وأنا لا أكلفك بتوقيع الجواب عن سؤالي اعتباطاً ، بل لداع هام منحصر في دائرة ، وهي علم الملك وحاشيته بتأويلك ، فعلمهم بفضلك ، فخروجك من السجن ، فهذه الفتوى ليست مجانية ، بل مأجورة ، وأجرتها ما قد علمت ، فقد عودتنا الإحسان منذ القديم ، فجدد بفتواك اليوم سالف إحسانك ، وألحق النعمة بأولها ، وأنت تعلم أن (الساكت بين النائم والأخرس) فنرجوك الجواب، ولك من الله الثواب .

فلما سمع يوسف ذلك رأى وهو في ظلمات السجن ، دنوّ سلامته يشرق عليه كالقبس في الديجور ، وتفاءل من مجيء رئيس السقاة خيراً وفرجاً قريباً .

(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات .. الخ)

— ٢ —

وقال مولاي عبد الحفيظ التونسي :

سوف أقتصر كلامي على هذه الآية بالملحوظات التالية :

الشرابي ينبه يوسف إلى سابق صحبته له بدعوته إياه باسمه ولقبه

الملحوظة الأولى ـ نجد أن « الشرابي » قد بغت يوسف بذكر اسمه ولقبه لينبهه إلى صحبته لهسابقاً ، ومعرفته به وحاله، وليلفت فكره إلى ما كان سبق من عبارته رؤياه وصدقه فيها .

كرم أخلاق يوسف بعدم معاتبته الشرابي لعدم قيامه بما كان طلبه منه

الملحوظة الثانية – كان « الشرابي » يتوقع أن يوسف سيذكره بما كان رغب إليه فيه ، ويعاتبه على عدم قيامه به ، ولكن يوسف عليه السلام لم يفعل، إما ترفعاً عنه ، أو كرم أخلاق منه .

ألقاب يوسف

الملحوظة الثالثة – لقبه « بالصديق » لأنه كان جربه في عبارة حلمه وحلم رئيس الخبازين ، فوجده صادقاً وصادقاً ، ولقد حفظ له التاريخ هذا اللقب ، واعتبره منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، فكلمة (صديق) هي الكلمة الوحيدة التي تأتي دائماً بعد كلمة (يوسف) ، عندما يراد ذكره، أو ترجمة حياته الشريفة ، وفي صدد تلقيبه (بالصديق) نرى إخوته لقبوه (بالعزيز) حيث قالوا له ، لما دخلوا عليه في السفرة الثالثة ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر.. الخ﴾ (آية ٨٨) ولا بد أن يكون هذا ، قد صار لقباً رسمياً له من حين أنه جعل في الحكومة المصرية ثاني الملك ، كما كان قبله (فوطيفار) ، ثم هو يجعله على خزائن الأرض طبعاً قد صار (ناظر مالية عاماً) ، ونرى في بعض كتب التاريخ القديم أن ملك مصر وجّه له لقب (صفنات فعنيح) حينما رآه قد أحيا أهل مصر ، وخلصهم من عذاب الجوع ، لأن هاتين الكلمتين مصريتان، معناهما على ما قاله (القانون كوك) : (طعام الحياة) أو (قوت الأحياء) ،وفسرهما آخر (بمخلص العالم) والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الأحياء وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة إلى زمن القحط ، فهذا هو رابع الألقاب ، ونرى ليوسف عليه السلام في القرآن الكريم لقباً خامساً ، وهو

(رسول) ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلقَدْ جاءَكم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبَيِّنات ِ ، فما زِلْتُمْ في شك ٍ ممّا جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ ، قلتُم : لنْ يَبْعثَ اللهُ من بعدِه ِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ومما يستحق الالتفات أن هذه الألقاب الخمسة كانت مؤسسة على أعمال صدرت منه استحقها بحق ، بدون سعي منه ، أو توسط بمن يلزم ، أو دفع رشوة لأولياء الأمر أو ابتياع للأسماء والألقاب والرتب ، كما يفعل كثيرون من المتمجدين من أهل اليوم !!..

إخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف

الملحوظة الرابعة – مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذي رأى هذه الرؤيا ، وتتميماً لهذا التستر ، تجده ذيل استفتاءه بقوله (لعلي أرجع إلى الناس ، لعلهم يعلمون) عبر بهذا بدلاً من أن يقول : (أفتنا في رؤيا رآها الملك وهي كيت وكيت ، ثم يذيل سؤاله بأن يقول : لعلي أرجع إلى الملك لعله يعلم) ، فما هي النكتة يا ترى في ذلك ؟ وعندنا أن الداعي لذلك هو أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحُلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن ووقوفه أمام الملك مشترطاً ذلك توصلاً لخروجه من معتقله فلما ظن ذلك ، وهو حريص على تأويل الحلم ، وحريص أيضاً أن يسمع الملك تأويل حلمه ليس من فم يوسف ، بل من فمه ، لينال حظوة عند الملك بذلك ، فلهذا ستر الحالم ستراً ، ودحر تفصيل الواقعة دحراً .

معنى الافتاء

الملحوظة الخامسة – أفتاه في الأمر : أبانه له ، وأخوات هذه المادة تشير للكشف والظهور ، وذلك مثل : فتّ ، فجّ ، فرّ ، فضّ ، فتق ، فتك ، فتن ، فكل ذلك يرمي لمعنى البيان والوضوح والكشف ، وبعد لم يقل كما قال هـــو

و (الخباز) أولاً (نبئنا) لما عاين من سمو رتبة يوسف ، وجرب من علو فضله سابقاً ، لأن هذه المادة تشعر بذلك ، فإن (الفتى) يطلق على السخي الكريم ، (والفتوة) هي الكرم .

معنى الصديق

الملحوظة السادسة - الصديق من غلب عليه الصدق وعرف به كالسكير لمن غلب عليه السكر ، هذا إذا لوحظ أخذه من الصدق ، كما هنا، وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التصديق ، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكمال الإيمان بهم ، وذلك كما في لقب « الصديق » لأبي بكر رضي الله عنه ، ومن إطلاق « الصديق » بالمعنى الأول ، قوله تعالى: ﴿ واذْكُرْ في الكتاب إبراهيمَ إنه كان صِدّيقاً نَبِياً ﴾ (١٩ : ٤١) ، وقوله تعالى : ﴿ واذكُر في الكتابِ إدريس ، إنَّه كانَ صِدّيقاً نبياً ﴾ (١٩ : ٥٦) ومن قبيل إطلاق الصديق بالمعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وأمُّهُ صِدّيقةٌ ﴾ (٥ :٧٨) بدليل: ﴿وصَدّقتْ بكلمات ربِّها وكُتُبِهِ ﴾(٦٦ : ١٢) .

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسل كما قال تعالى ، ﴿ والذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئك هُمُ الصّدّيقونَ والشهداءُ عند ربِهم ، لهم أجْرُهم ونورُهم ﴾ (٥٧ : ١٩) فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمة «صديق »أطلقت في كتاب الله تعالى على إدريس وإبراهيم ويوسف ، بمعنى، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسل بمعنى آخر .

هذه كلمة ولنا كلمة أخرى ، وهي أن الصديق رتبة من أربع رتب رسمية ، ولقب من ألقاب أربعة سماوية ،وهي نبيٌّ ، صديق ، شهيد ، وصالح وهؤلاء الأربعة هم المنعم عليهم في قوله تعالى : ﴿ صِراطَ الذينَ أنعَمتَ عليهم ﴾ (١ : ٦) والدليل على ذلك كله قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يُطعِ اللهَ ورسُوله فأولئكَ

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ﴾ (٤ : ٦٨) .

وجوب التزام الأدب عند مخاطبة النبي ﷺ

الملحوظة السابعة – قال علماؤنا : يجب الأدب مع النبي ﷺ في حين خطابه ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿ لا تجعلوا دُعاءَ الرسول بينكم كدُعاء بعضكم بعضاً ﴾ (٢٤ : ٦٣) ، فلا يجوز أن يخاطب بيا محمد أو يا أحمد ، ولكن بلقب الرسول والنبي ونحوهما مما فيه احترام له عليه السلام ، ولو قيل : يا محمد خاتم النبيين مثلاً ، جاز ، لأنه وإن يكن نداء باسمه ، لكنه قد أتبع بلقب احترام.

ولقد التزم « الشرابيّ » الآن هذا الأدب مع يوسف عليه السلام حيث أتبع لفظ العلم بلفظ اللقب .

قوله لعلهم يعلمون بدل اشتمال من قوله لعلي أرجع الى الناس

الملحوظة الثامنة – ربما كان قوله ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿ لعلي أرجع إلى الناس ﴾ ، والله أعلم .

الايجاز في القرآن

الملحوظة الثامنة – يوجد بين قوله : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ وقوله : ﴿ يوسف ، أيها الصديق .. الخ ﴾ إيجاز لطيف مقبول معهود ، والمعنى : أنا أنبئكم بتأويله ، فإني أتذكر اليوم أن حضرة الملك لما سخط عليّ وعلى « الخباز » وحبسنا ، رأى كل منا حلماً ، وكان في الحبس غلام عبراني ، عبد « لعزيز مصر » فقصصنا عليه ما رأيناه فعبره لنا ، وكما عبر حدث ، إذ ردني الملك إلى مقامي ، وأما « الخباز » فعُلّق ، فلا أعلم أحداً أصدق منه

عبارة للرائي ، فأرسلوني إليه لأستعبره ، فأرسل إلى يوسف ، فأتاه فقال له : « يوسف أيها الصديق الخ » ، ولهذا نظائر في اللغة العربية وفي القرآن الكريم ، لا تحصى كثرة ، وهي في القرآن نحو الـ ٥٠٠ أو تزيد ، وإليك بعض الأمثلة .

١ – قوله تعالى : ﴿ فسَجدوا إلا إبليسَ أبى واستَكبرَ ، وكان من الكافرينَ وقلنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنةَ ﴾ (٢ : ٣٤ و ٣٥).

٢ – قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومِهِ : يا قوم إنكم ظلمْتُمْ أنفُسَكُم باتخاذِكم العجلَ فتوبوا إلى بارِئكم ، فاقتلوا أنفُسَكُمْ ، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتابَ عليكم ، إنه هو التوابُ الرحيم ﴾ (٢ : ٥٤) ، والمعنى فعلتم ما أمركم به موسى فتابَ عليكم .

٣ – قوله تعالى : ﴿ وإذ استَسقَى موسى لقومِهِ ، فقلنا : اضربْ بعَصاكَ الحَجَرَ .. فانفجرتْ منه اثنتا عَشْرةَ عيناً ﴾ (٢ : ٦٠) والمعنى فضرب فانفجرت .

٤ – قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ ، قد جاءَكم بُرهانٌ مِنْ ربِّكم ، وأنزَلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا باللهِ واعتصموا به ، فسَيُدخلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ، ويهْديهم إليه صِراطاً مُستقيماً ... ﴾ (٤ : ١٧٣و١٧٤) والمعنى وأما الذين كفروا بالله واعتصموا بالطاغوت ، فسيدخلهم في نقمة منه وغضب ، ويسلك بهم الصراط الأعوج .

٥ – قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ الله لكم ... أن تَضِلُّوا ﴾ (٤ : ١٧٥) ومعناه كراهة أن تضلوا .

٦ – قوله تعالى : ﴿ لا يُؤاخِذُكُم اللهُ باللَّغوِ في أيمانِكم ؟ ولكنْ يُؤاخِذُكُم بما عَقَّدتُم الأيْمانَ ... فكَفَّارَتُهُ ... الخ ﴾ (٥ : ٩٢) ، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان إذا حنثتم ، فكفارته ..الخ .

٧ – قوله تعالى : ﴿قُلْ إنِ افتَرَيْتُهُ ، فعليَّ إجرامي... وأنا بَريءٌ

مما تُجرِمُونَ ﴾ (١١ : ٣٥) يعني ولم يثبت ذلك ، وأنا بريء من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ .

٨ – قوله تعالى : ﴿ فلمّا ذهبوا به وأجْمَعُوا أن يَجْعَلوه في غَيابةِ الجُبّ .. ﴾ (آية ١٥) جواب « لمّا » محذوف ، ومعناه فعلوا به ما فعلوا من الأذى .

٩ – قوله تعالى : ﴿ والله المُستَعانُ على ما تَصِفونَ ... وجاءَتْ سيارة الخ ﴾ (آية ١٨ و ١٩) ، فهنا كلام محذوف تقديره ، وبعد أن ذهب آباء الأسباط لأبيهم ، ونعوا له أخاهم ، وقال أبوهم ما قال ، ومضى مدة من الزمن ويوسف في الجب « جاءت سيارة الخ » .

١٠ – قوله تعالى : ﴿ فأرسلوا وارِدَهم ... فأدْلَى دَلْوهُ ... قال يا بُشرى هذا غلام ﴾ (آية ١٩) ، والمعنى أرسلوا واردهم ، فذهب حتى وصل الجب ، فأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالرشاء ، فلما خرج إذا هو بفتى أحسن ما يكون ، فقال يا بشرى الخ .

ويوجد في كتاب الله تعالى الشيء الكثير من هذا القبيل الذي لو تتبعناه لخرجنا عن الصدد وفيما ذكرنا كفاية للمستبصرين .

تأويل يوسف لرؤيا الملك

آية (٤٧) « قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأَباً ، فَما حَصَدْتُم فَذَرُوهُ في سُنبُلِهِ ، إلَّا قليلاً مِمَّا تأكلون » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والأربعون فقام السيد صدر الدين الدمشقي وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الشرابي : أريد أن آتيك بالتعبير على وجهه (تزرعون) أي ازرعوا جميع أراضيكم (سبع سنين دأباً) -بسكون الهمزة وتحريكها ، وهما مصدرا دأب في العمل ، وهو حال من المأمورين، أي دائبين ، إما على تدأبون دأباً ، وإما على إيقاع المصدر حالاً ، بمعنى ذوي دأب - فتأتي بزرع أخصب زرع وبربيع أحسن ربيع ، حتى أن قطعان الغنم تختفي عن الأبصار بين أعشاب الربيع ، وحتى أن الجاموسة بطولها تحتجب في المراعي بين الأعشاب ، ذلك لعظمة قوة الإنبات وجودة التربة وكثرة الإبليز [1] في تلك السنين (فما حصدتم فذروه) اتركوه وأبقوه (في سنبله) لئلا يتسوس (إلا قليلاً مما تأكلون) فهذا لابأس أن تدرسوه وتذروه وتخرجون حبه وتميزوه من تبنه تهيئونه لأجل أكلكم وقوتكم ، وبما أن هذه المسألة مسألة أساسية ، حيوية ، ينبغي لكم أن تعتنوا بها ولا تخالفوا ما قلت لكم .

(قال : تزرعون سبع سنين .. الخ)

-١-

ثم ألقى العلامة الديري[1] البيان التالي :

تعبير يوسف لرؤيا الملك يبسط التدبير اللازم

جاء الشرابي بمن معه من الجند ، وقص على يوسف تلك الرؤيا ، فلما سمع منه يوسف ذلك ، لم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، حتى أمعن في

---

(١) الابليز طين التربة المصرية .

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام « سورية » .

بيانه وجوابه وقال : على الخبير سقطت ، ولا ينبئك مثل خبير ، إن هاتين الرؤيين ستحدثان تبدلات خطيرة في الموقف الحاضر ،إذ السماء نظمت برنامجاً جوياً أرضياً وسوف تطبقه عليكم ولا مفر من ذلك ولا محيص غير أنه يمكن تخفيف وطأة مواد هذا البرنامج السماوي ، فإذا كان قدراً قابلناه بقدر مثله ، وهو العمل على تلطيفه ما أمكن ، ولذلك أقول لكم تأتي على مصر أولاً سبع سنوات هي سنوّ جدب وقحط هي موت زعاف ، تفعل في الناس ولا فعل الحروب والأوبئة إلا إذا تُدُورِكَ هذا الخطب الجلل ، وتُلُطِّفَ هذا البلاء العظيم ، بحسن التدبير والحكمة ، والاقتصاد القويم ، فهذه طريقتي تضمن لكم الفوز ، وتؤمنكم من الخطر الذي يريد أن يحدق بكم فازرعوا كعادتكم سبع سنين دأباً ، عادة مستمرة ، كما كنتم تزرعون سائر السنوات السابقة قبلها ، بدون أن يتخلل تلك السبع سنة واحدة بغير زراعة بأن تتركوا الأرض بوراً مثلاً فما جززتم وقطعتم بالمنجل فذروه في سنبله لئلا يتسوس إلا قليلاً ، أي يسيراً ، فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبله وإخراجه منه لأجل أكله ، الأمر الذي يعوزكم لوجود عامل صاحب همة عالية ، ينشطكم للأعمال الزراعية وتعميمها وتقوية أصحاب الأراضي وتفهيمهم ما يلزم عمله .

سرعة إجابة يوسف بتعبير رؤيى الملك دون قيد ولا شرط

وتابع العلامة الديري قوله : إن لي على ما سبق ذكره ملحوظة واحدة وهي أن يوسف (ع) أجابهم على الفور ، ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك ، لأنه كريم ، وشأن الكريم عدم الإبطاء والإخلاص في الإعطاء . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : (ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه) ، وعن علي كرم الله وجهه : (ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يُعلموا)، وقال المسيح عليه السلام للحواريين :

(مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا) وبعبارة أُخرى : إنما أفتاه يوسف مع أنه كان عهد إليه بتوسطه له عند مليك مصر ولم يفعل ، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي ستحل بالمصريين ، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً ، لأن النصيحة من الإيمان ، وكاتم العلم ملعون ، ولأن الذي سجنه إنما هو واحد فقط وهو « فوطيفار » وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو أيضاً واحد ، وهو « الشرابي » ، فكيف يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير ، بذنب رجل أو رجلين .؟ (مرحى)

(قال تزرعون سبع سنين .. الخ)

– ٢ –

ثم قام المحقق الأنطاكي وقال ليسمح لي السادة الأفاضل بالتحقيقات التالية بشأن سياسة يوسف في مجاعة مصر وفي بعض الألفاظ التي وردت في هذه الآية الكريمة :

تدبير يوسف الاقتصادي لأهل مصر

١ – وضع يوسف هذا التدبير الاقتصادي لأهل مصر ، في ذلك العصر لقلة طرق المواصلات ، وضعف وسائل النقل البرية والبحرية ، إذ لم يكن أمن مستتب بين مملكة وأخرى ، كما لم يكن هناك سفن بخارية في البحر ولا سكك حديدية في البر ، فلذلك كان إذا حصل قحط في جهة من الجهات أثر عليها تأثيراً كبيراً ، أما لو كانت الحال على ما نحن عليه اليوم من اتصال الممالك بعضها ببعض ، وتسهيل طرق التجارة براً وبحراً وجواً وتيسير أسباب النقل بسرعة ، لما كان لذلك القحط تأثير يذكر .

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام « سورية » .

ملكية الحاصلات في مصر

٢ – تنص هذه الآية أن يوسف أمرهم بادخار جميع الحاصلات في سبع سنيّ الخصب في سنابلها ، والظاهر أن هذه الحاصلات هي ملك لأربابها الأهالي وأما الحكومة فلا سيطرة لها عليها إلا بأن أجبرتهم على هذه الطريقة أو شوقتهم إليها وحببتهم فيها ، هذا ما نتعلمه من كلام الله تعالى ، وللمفسرين ههنا نقول في كيفية خزن الحكومة لهذه الحاصلات ، ثم بيعها للاهالي بالفضة حتى نفدت ، ثم بالمواشي والخيل والحمير حتى نفدت ، ثم بيعت لهم بأرضهم وأنفسهم بأن صارت الأرض ملكاً للحكومة ، وصاروا هم عبيداً للحكومة ، فكتاب الله لا يشير لشيء من هذا ، بل ظاهره ينافي ذلك ، وإنما هو شيء نقلوه من (تك ص ٤١ : ٣٤ – ٣٧ و ص ٤٧ : ١٣ – ٢٦) ونحن إذا تعارض كتاب الله مع سواه من التواريخ يجب علينا الرجوع لكتاب الله فقط ، ورفض ما يخالفه ، والله أعلم .

الخبر في معنى الأمر والإنشاء في قوله (تزرعون)

٣ – قوله (تزرعون) خبر في معنى الأمر والإنشاء كقوله : ﴿ تؤمنونَ بالله ِ ورسوله ِ ، وتُجاهِدونَ في سبيل الله ِ بأموالكُمْ وأنفُسِكُم ، ذلِكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمونَ ، يَغفرْ لكم ذُنُوبَكم ، ويُدْخِلْكُم جنات .. الخ الآية ﴾ (٦١ : ١١و١٢) ، فهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بقوله: (يغفر لكم) ، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب ايجاد المأمور به ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : (فذروه في سنبله) .

وهذا أسلوب عربي قد جرى عليه القرآن كثيراً ، لو لاحظه المفسرون لما وقعوا في كثيراً من الآيات في حيص بيص ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ومـا

تُنفِقُون إلا ابتغاءَ وجهِ الله ﴾ (٢:٢٧٢) وقوله تعـالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرون ﴾ (٥٦:٧٩) وقوله تعالى : ﴿ أولئك ما كانَ لهم أن يَدخُلوها إلا خائِفين ﴾ (٢ : ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ وما كانَ لكم أن تُؤذُوا رسولَ الله ﴾ (٣٣ : ٥٣) وقوله تعالى : ﴿ ولَن يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلاً ﴾ (٤ : ١٤٠) وقوله تعالى:﴿ فإن اعْتَزَلوكم فلم يقاتِلوكم ، وألْقَوا إليكم السَّلَمَ ، فما جَعَلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً ﴾ (٤ : ٨٩) وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، هل أدُلكم على تجارةٍ تُنجيكم مِنْ عذابٍ أليمٍ ، تؤمِنونَ بالله ورسولِهِ ، وتُجاهِدونَ في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسِكم ﴾ (٦١ : ١١) وقول النبي ﷺ : (لا يزال هذا الأمر في قريش ، ما بقي من الناس اثنان) .

ادخار الحنطة

٤ً ــ أشار بقوله : (فذروه في سنبله) إلى رأي نافع بحسب طبيعة طعام مصر ونواحيها وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه ، إلا بحيلة إبقائها في السنابل ، فإذا بقيت فيها ، حفظت ويكون قصبه علفاً للدواب .

السنون والأعوام

٥ً ــ أراد (بالسنين) السنين الشمسية ، لأن الموضوع موضوع زراعة ، وهي مركبة على السنة الشمسية ، فالمصريون هم أول من عرف بالسنين الشمسية ، لأنهم أول أمة اهتدت إلى معرفة الزراعة ، فلما مارسوهـا احتاجوا إلى سنة فلكية لا تتغير فيها أوقات الفصول ، فعرفوا السنة الشمسية ، وقد كانت الزراعة ولا تزال هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم ، وكان أهم ما زرعوه الشعير ثم القمح ثم الكتان والذرة ، وبعد ذلك صاروا يعتنون بزراعة القطن .

ثم إن لفظ (السنين) يستعمل لسني الجدب والقحط ، ولفظ الأعوام يستعمل في أعوام الخصب والخير ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً ﴾ (٢٩ : ١٤) وقوله تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثَّمَرات ، لعلهم يَذَّكرون ﴾ (٧ : ١٢٩) ، ومنه الحديث في صحيح مسلم : (إذا سافرتم في الخصب ، فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم في السنة فأسرعوا عليها السير) وإنما لم يعبر يوسف بكلمة « أعوام » ههنا ،بل عبر بكلمة «سنين»ومع أن هذه السنينهي سِنوّ خصب وخير ، لأن هذه القاعدة إنما يجري عليها في غير مقام العدد والإحصاء،أو لأن اللغة العبرانية ، لا تعني بهذا الفرق الدقيق الذي هو من مزايا اللغة العربية ، أو يقال : إن هذه القاعدة غالبة لا مطردة .

أقسام الأحلام الصحيحة

٦ – قد علم من تعبير يوسف لحلمي « الملك » وحلمي «الشرابي»و«الخباز» أن الأحلام الصحيحة على ثلاثة أقسام : منها ما يَسُرُّ حتماً ، نظير حلم رئيس السقاة السابق ، ومنها ما يسوء صاحبه قطعاً، وليس له رد ولا فيه حيلة،ومثاله ما رآه رئيس الخبازين ، ومنها ما يدعو إلى السرور . وربما خيف منه إذا لم تستعمل فيه الحكمة ، ويفعل فيه ما يلطفه ، مثل حلمي « الملك » المذكورين ، فهو كما قلنا لا يدعو إلى الفرح والاطمئنان ، ولا يرتاح له القلب ، لكن إذا وفق فيه الإنسان لاستعمال الحكمة وسلوك سبيل الاقتصاد وتدبير هذا الحادث الهام تلطفت هذه النازلة ، فما رآه « الملك » هو من قبيل القضاء السماوي الذي يمكن تخفيفه بالألطاف الإلهية ، على يد عبيده الحكماء ، أهل البصرة والبصيرة ، على حسب ما أشار إليه يوسف عليه السلام .

معنى الدأب

٧ – أصل الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه واجتهد ، وعليه فمعناه تجدون في هذا الأمر ، وتصرفون فيه عنايتكم ، وتفرغون فيه مجهودكم ، وقد يوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، فيكون بمعنى العادة والديدن، وحينئذ تفيد المادة الدوام والاستمرار ، أي تزرعون سبع سنين ، على حسب عادتكم وشأنكم وسابق عملكم ، قال تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون﴾ (٣:١٣) وقال : ﴿ مِثْلَ دأبِ قومِ نوحٍ ﴾ (٤٠:٣١) أي مثل عادتهم الجارية المستمرة الدائمة ، ويجوز أن يكون لفظ « دأباً » هنا ظرفاً زمانياً ، بمعنى دائماً لأن « الدائب» هو الدائم والمعنى : دائماً في كل مدة السبع سنين ، كما قال: ﴿وسخّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبَين ﴾ (١٤ : ٣٣) أي يدأبان في سيرهما، ويجدان على مدى الأيام .

والحاصل إن لكلمة « دأباً » ثلاثة معان في اللغة : المعنى الأول ، الجد والتعب ، والمعنى الثاني ، الشأن والعادة ؛ وهذا المعنى الثالث ، الشأن والعادة وهذا المعنى الثالث هنا يرجع للمعنيين الأولين ، لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة ، هو الجد والتعب فيها والسوق الشديد .

فالمصريون أول من عُني بالزراعة ، كما ذكره المؤرخون ؛ وبالنتيجة ، فكل واحد من المعاني الثلاثة للكلمة « دأباً » يرمي إلى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع ، وهذا أمر لازم وضروري جداً لأن الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي .

(إذا ذكر المحققون فحيهلا بالفاضل الأنطاكي)

تتمة تعبير يوسف لرؤيا الملك

آ (٤٨) « ثُمَّ يأتي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ ، يأكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلَّا قليلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ »

استمر انعقاد الجلسة وتليت الآية الثامنة والأربعون فقام مولانا ناصر الدين التونسي وقال :

أضاف يوسف إلى قوله السابق قوله : (ثم يأتي من بعد ذلك)سنون (سبع شداد) جمع شديدة (يأكلن) أي يأكل أهلهن – من الإسناد المجازي أي جعل أكل أهلهن مسنداً إليهن – (ما) كنتم (قدمتم) وادخرتم (لهن) وهو الذي تركتموه في سنبله سابقاً (إلا قليلاً مما تحصنون) تحرزون وتخبئون لأجل بذر الأراضي في العام الخامس عشر .

ففي هذه الآية تابع يوسف عليه السلام تعبير رؤيا الملك بقوله تأتي بعد سني الخصب السبع السابقة سنون سبع شداد ما بين حُمر ، وبين بيض ، تجدب فيها الأرض ، ويقل ماؤها ، وتغار عيونها ، ويذوي نبتها ، وييبس شجرها ، فلا وابل ولا طل ، ولا رشّ ولا رذاذ ، سنون سبع شداد تأتي باللازبة ويهم الناسَ فيها المُدْم « سبع شداد حالقة ، حارقة ، تأتي على الزرع والضرع ، ويحتبس فيها القطر ، ويجف النيل ، ويسوء أثرها في الإنسان والحيوان ، أرضٌ جرزٌ وغمام جهام، سبع سنون شداد ، يحر فيها الشجر وتهلك الأموال، وتنقطع السبل ولا يرى في السماء قزعة ، سبع شداد ، يأتين على الأخضر واليابس ، ويهلكن الحرث والنسل ، ويضعضعن الإنسان والحيوان ، حتى كأنه يخيل للإنسان أن مواد الأرض المتبخرة ، اصطدم بعضها ببعض ، فتدافع وفتح فيها فوهات ، فخرج لهبها ونارها ، من هنا وهنا ، فحرق كل ما سيلاقيه من نبات

وشجر وحيوان !. سبع شداد هـي البقرات السبع العجاف والسنابـل السبع اليابسات ، كما أن السنين السابقة ، هي البقرات السبع السمان ، والسنابل السبع الخضرات ، سبع شداد ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ ويذهب أدراج الرياح كأنـه ما كان إلا قليلاً مما تضعون في الحصن الحصين الذي لا يوصل إلى جوفه تحرزون فيه أو تخبئون أو تخزنون أو تدخرون لبذر الزراعة وللإعالة أيام الشتاء .

وبذلك تكونون قد تخلصتم من كابوس الجوع وبراثن الحمام فإن عملتم بمـا أوضحت لـكم ، كفيتم شر هذه السنين الأوازم ، ولا يكون هذا إلا بواسطـة مرشد يهديكم سواء السبيل ، وعبقري يصلح من شؤون حاصلات الأرض .

تكلم يوسف عليه السلام بهذا الكلام والسكوت سائد في تلك الجلسة لا يبدأ أحدهم بكلام ، ولا ينطق ببنت شفة ، ولكنهم كانوا يتطاولون بأعناقهم لاستماع فتوى يوسف وعبارته رؤيا جلالة الملك ، وإرشاده لهم ماذا يعملون ؟ . ولقـد اعتقدوا أن فتواه هذه ليست مستندة لمراجعة أسفار تعبير الأحلام ، ولا لتعليم أحد من الناس ، ولكنها صوت من أصوات السماء ، فتقبلوه بكل إخـلاص ، وعندما أرادوا الذهاب قال له مندوب الملك بورك في بطن حواك ، وثدي سقاك ، وحجر طواك ، لقد أحسنت سابقاً ولاحقاً ، فلك الشكر مرتين ، كا تفضلت اثنتين .

وحاصل القول إن يوسف عليه السلام علمهم أن يقتصدوا من السنين الاولى ويدخروا الحبوب للسنين الجديدة عملاً بقول الناس : « إخبأ درهمك الأبيض ليومك الأسود » ، فيكون يوسف لفت فكرهم للاقتصاد ، وهكذا فنحن نرى أن « للاقتصاد » اليوم شأناً من شؤون بني إسرائيل (أو اليهود) حتى في حال اليسر فضلاً عن العسر .

وبعد فهل كان تدبير يوسف عليه السلام رافعاً للشدة من أصلها ، بحيث لم يلحقهم في هذه السنين جوع أبداً ، أو يا ترى إنما كان تدبيره عليه السلام مصلحاً ومخففاً فقط من شدة وطأة الجوع ؟

لا بد كان الشق الثاني ، بدليل حديث البخاري: (اللهم اشدد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف) .

يوسف يبشر بانتهاء أزمة رؤيا الملك بالبشر والبركة

آ (٤٩) « ثمَّ يأتي مِنْ بعدِ ذلكَ عامٌ ، فيه يُغاثُ النَّاسُ ، وفيه يَعْصِرونَ »

تابع الرئيس انعقاد الجلسة ثم تليت الآية التاسعة والأربعون فنهض الشيخ الأرزنجاني[1] وقال :

قضى يوسف كلامه بقوله : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام ﴾ خصيب مريع ﴿ فيه يغاث الناس﴾ الفلاحون –من الغوث أو من الغيث ،والغيث المطر، وغاث الغيث الأرض أصابها ، وغاث الله البلاد ، وبابها باع وغيث الأرض تغاث غيثاً ، فهي أرض مغيثة ومغيوثة – ، ﴿ وفيه يعصرون ﴾ العنب والزيتون والسمسم ونحو ذلك . بشرهم يوسف بعد فراغه من تأويل حلمي الملك بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي أو من جهة الفهم والذكاء ، إذ من المعلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب (اشتدي أزمة تنفرجي) ، (وإن مع العسر يسراً) ، ومعلوم أن السماء كانت في سني الجدب ضغطت بشدة، على السحاب الذي هو اسفنجة المطر، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار ، علم طبعاً أن السنة الخامسة عشر هي عام خير وخير عام .

(١) نسبة الى مقاطعة ارزنجان الواقعة في شمال غرب ايران .

(ثم يأتي بعد ذلك عام .. الخ)

- ١ -

ثم قام العلامة الدمشقي وقال: عندي على هذه الآية الكريمة عدة مسائل:

عزو إخبار يوسف بحسن عاقبة الأزمة الى ذكائه

المسألة الأولى – لما كانت السنون المجدبة سبعاً ، لكون « العجاف » سبعاً وقطعاً لا تزيد على هذا العدد ، صار من المعلوم بالضرورة أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب ، إذ ما بعد الشدة إلا الفرج ، فلذلك فهم يوسف أن العام الخامس عشر هو عام خير ومَيْر وهصر وعصر . ولكن المفسرين لا يريدون أن يحملوا ذلك من يوسف عليه السلام على مجرد الذكاء ، بل نسبوه إلى الوحي السماوي كأنما الأنبياء الكرام يحتاجون إلى الوحي في أبسط الأشياء التي يفهمها أقل الناس فهماً ، قال الشاعر :

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمرُ
عسى ما ترى أن لا يدوم وأن ترى ... له فرجاً مما ألح به الدهرُ
إذا اشتد عسر فارج يسراً فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسرُ

عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين

المسألة الثانية – كان المصريون القدماء يعنون بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق ، تكثر به الفواكه وتَـفرُه ، وكان العنب والبلح أكرم الثمار التي اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الخالية (عمر الاسكندري) .

وعليه فكانوا يعصرون العنب والبلح ومما يعصر أيضاً الزيتون والسمسم والمشمش والرمان والليمون والورد والزهر والخرنوب والقراصيا والتوت والتفاح وهكذا الضروع تعصر لتحلب .

بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الرؤيا

المسألة الثالثة ـ وجد يوسف هذه النهزة فأحب أن يغتنمها ، وقدم له هذا السؤال ، فأحب أن يستثمر من جوابه ، فلم يقتصر على تأويل رؤيا الملك ، تأويلا بسيطاً حسب عادة العابرين للأحلام ، بل علمهم ، بما سبق من الآيتين ، ماذا يصنعون ، ودبر لهم المخرج مما عساه أن يصيبهم ، وأخيراً ، ههنا ، بشرهم بحسن الخاتمة ، إذ قال لهم : « ثم بعد انتهاء هذه السنين السبع يأتيعام خير وبر فيه يغاث الناس بالأمطار ، كأنما جادت عليهم مياه المحيط ، وفيه يعصرون ما يعصر لاستخراج عصيره ؛ وعند ذلك يتبدل درهمكم ديناراً ، وتنقلب أتراحكم أفراحاً ، وتستحيل أصوات الاضطراب إلى أصوات سرور وطرب ؛ هذا أكبر علمي الذي وهبنيه ربي في هذا الموضوع الذي سألتم عنه ، أو هذا الجواب الذي استنبطه باجتهادي حسب الأسس والقواعد التي علمنيها ربي ، وهذه وصاتي إليكم ، فعليكم أن تأتمروا بها ، وإلا .. فعلى مصر السلام ، فإن هذا أمر قد قدر وفرغ منه ، وصار عند ربكم حتماً مقضياً » .

لطف الله بالمصريين عن يد يوسف

المسألة الرابعة ـ كأني بالمندوب « نبو » لما سمع جواب يوسفعليهالسلام جزّاه خيراً ، وقال له : (سأحمل جوابك هذا إلى جلالة الملك ، وسيكونذلك السبب الوحيد في خروجك من هذا المعتقل) .

نعم إنه سمع جوابه كأنه وحي صادر من أفواه الملائكة ، وبالعمل على ذلك يكون الله قد لطف بالمصريين بلطفه فيما جرت به المقادير ، ولكن عن يد يوسف عليه السلام .

اغفال يوسف تأكيد ذكره عند الملك في هذه المرة

المسألة الخامسة ـ لم يقل يوسف في هذه المرة الثانية « للشرابي » ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ، ربما لكونه تصور أن سيكون حظه هذه المرة أيضاً كحظه في سابقتها أو لعله اكتفى هذه المرة بقول « الشرابي » : ﴿ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ ، فإن هذا القول ما يطمئن يوسف أنه سوف لا ينساه ، ومع ذلك فهو في هذه المرة اعتمد على أنهم بالطبع سيعرفون علمه وفضله ، ويضطرون لإخراجه من معتقله بدون رجاء ولا شفاعة ، للاستفادة من إرشاده ومشورته لهم .

تدبير يوسف أزمة المصريين بنفسه

المسألة السادسة ـ هكذا أرشد يوسف المصريين ، وبين لهم المخرج من المصيبة التي ستحل فوق رؤوسهم ، ودبر لهم طريق النور فيما يعملون ، ونصح لهم بكلامه فيما يجرون ، ثم نصحهم بفعله بأن باشر هو بنفسه تدبير شؤونهم وحمل على عاتقه الأتعاب ، لأجل راحتهم وسلامتهم ؛ قال هذا ثم فعل هو حسبما قال :

مقابلة بين « الملإ » الجهلاء وبين يوسف العالم

المسألة السابعة – ههنا يتجلى الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم – بين العالم الجاهل – بين النور والظلمة ، فأولئك « الملأ » بعدم فهمهم نزلوا للحضيض الأسفل ، وترك ذكرهم كأنهم أموات ، وهذا العبد العبراني بفهمه وعلمه ترقى إلى أعلى الدرجات ، ولا بدع ، فعبارته رؤيا مليك مصر ، أكسبته حبه إياه ، وحسن اعتقاده فيه ، وسرعة الاتصال به ، واستخدامه في البلاط كوزير مالية وكعزيز لمصر ، وكوكيل عن جلالة الملك ، فكان في البلاط ثاني الملك .

أين فوطيفار في هذه الأزمة

المسألة الثامنة ـ يجدر بنا ههنا أن نفتقد « فوطيفار » ونتساءل عنه أين هو ؟ فإن أزمة الملك وحيرته في رؤياه المنامية لم تحلّ إلا على يده عبده العبراني السجين ، وأما ذاته « الشريفة » !! فكأنها في هذه الضيقة لم تكن شيئاً مذكوراً ويميناً إنه لو جرد من لقبه وثروته ووظيفته ، لم يبق في اليد منه شيء ، قال المعري:

لو يعرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبدهِ
لولا سجاياه وأخلاقــــه لـكان كالمعدوم في وجدهِ

الرؤيا على ما عبرت أولاً

المسألة التاسعة ـ نقل الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) عن البلخي أن هذا التأويل الذي وقع من يوسف يدل على بطلان قول الناس : « إن الرؤيا على ما عبرت أولاً » ، قال : لأن الملأ كانوا قالوا : « أضغاث أحلام » ، فلو كل ما قاله هؤلاء الناس صحيحاً ، لـكان يوسف لا يتأولها ، أقول وهو وهم ، لأن قول الملإ « أضغاث أحلام » ليس من قبيل التأويل ، ولكنه من قبيل التنصل من التأويل كما هو ظاهر فافهمه ...

الفصل السابع

القصر يطلب يوسف (ع)

آ(٥٠) « ... وقالَ الملكُ : ائتُوني بِهِ ، فلما جاءَهُ الرسول... قالَ : ارجع إلى ربكَ ، فَاسأَلهُ ما بالُ النِّسوَةِ اللَّاتي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ؟ ، إنَّ رَبِّي بِكَيدِهنَّ عَليمٌ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآيـــة الخمسون ، فقامت السيدة إنصاف الدمشقية وقالت :

كان رئيس السقاة قد رجع أدراجه من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا وهو يطوي الطريق طياً ، حتى حضر بين يدي الملك ، فاقتص الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكاها له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك وأحب يوسف « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة : مرحى ! ، اذهبوا حالاً و (ائتوني به) فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لا سيما في الشئون الاقتصادية . فآض رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك المسمى « نبو » أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأنى يوسف وتثبت في إجابـــة الملك ، (وقال) للمندوب : إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عمـــا نسب إليّ ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (إلى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) يا للعجب !! (ما بال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم ما دعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي) الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضـــع من السنين ،

والذي أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتدّ في نحورهن .

وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قُرف به وسجن به، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما مكث في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسيهما يقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ، فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، ففي الحديث : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم) .

(وقال الملك : ائتوني به ... الخ)

— ١ —

وقال العلامة قمر الدين من علماء بلدة كراتشي في الهند[١] :

الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته

بعدما رجع رئيس السقاة (نبو) من عند يوسف الصديق عليه السلام وقص على مليك مصر تأويل حلمه ، كما كان قص عليه حادث اعتقاله ظلماً ، مع بيان ترجمة حاله ، أكبر (الملك الريان) يوسف وأعجبه منه حسن عبارته الرؤيا ولا سيما بعدما عبرها له ، عرفه ماذا يصنع ، كما أنه أكبر اعتقاله قائلاً : يا للظلم ويا للعار ! رجل كهذا يحبس دون تحقيق أو إقامة دعوى، بل دون إثبات جريمة

(١) وحالياً في جمهورية باكستان .

بل بعد براءته من تهمة الجريمة ، وأخيراً دون أن يكون لي علم بحبسه ، ؟ ! ! يظهر أن في الأمر دسيسة ، انهضوا واذهبوا حالاً دون توقف ، وائتوني به ، فإني أراه حسن الرأي ، يسند اليه في الأمور ، وتلقى إليه مقاليد الأحوال ، ويؤخذ رأيه في الحوادث والنوازل ، ولا غرو .. فالملك لا يستطاع ضبطه إلا بالوزراء والأعوان ، ذوي الرأي الصائب ، والتدبير البالغ ، وإن هذا العبراني خليق أن يكون (المستشار الاقتصادي) في البلاط أو في رجال المعية ، ليرجع إليه في الشؤون وليذاكر في المهام .

فعاد رسول الملك إلى يوسف ، ووجهه يتهلل فرحاً وبشراً ، فبادره يوسف قائلاً : أهلاً بالمندوب الكريم ، أراك أسرعت الرجعة ، قل ما وراءك يا أخا القبط — قال المندوب : أبشر يا أخا العبرانيين فقد آن أوان الفرج ، وآن أوان خروجك من المعتقل ، فإن ربي عاهل الديار المصرية المليك الريان أنفذني إليك لأجل شخوصك إليه ، وإنه يريد أن تكون عنده ، وعند ذلك ثارت في يوسف عزة النفس ، وجرى في عروقه دم الشرف والمحافظة على العرض وحسن السمعة ، وأخذ يراجع المضايقات التي مرت به في بيت (العزيز) ويستعرض تلك التهمة التي أتت عليه ، فكادت تهدم شرفه من الأساس ، واستحضر تلك الدعوى المزورة المشؤومة ، بمقابلة إخلاصه لهم ، وافتكر في اعتقاله ظلماً أمام أمانته ومحافظته على شرف (العزيز) وزوجه ، فرآهم قد قابلوا إحساناً بإساءة ، ومعروفاً بمنكر ، وأمانة بخيانة ، فشعر بدبيب ميله للانتقام للمرة الأولى في حياته ، وقال في نفسه : (إذا كانت الشريعة المصرية ، والقوانين الوضعية ، قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس ، فلينتصف الناس لأنفسهم بأنفسهم) ، فاعتقد أنه لا بد أن يقتص بشخصه من شخصَيْ العزيز وامرأته ، كما اعتقد أنه لا بد من أن يسعى في براءة ذمته ، فلاجل هذين الغرضين لم يشأ أن يخرج من الحبس ، وتوجه بالخطاب إلى المندوب قائلاً له : أيها المندوب :

« أقول لك بكامل الحرية ، قد آن لي أن أعيش أو أن أموت ، فللملك أن يلبس التاج ، ويحمل الصولجان ، له أن يجلس على عرش الملك ويسيطر على جميع البلاد والرعايا ، له أن يوجه الرتب والأوسمة والإنعامات لمن يشاء ، له أن يبتز الأموال ويحكم على الأجسام ، له أن يعزل ويولي ، له أن يقرب ويبعد ، له أن يعتقل المجرمين ، ويجزر الخائنين ، له كل ذلك ، ولكن ليس لعدالته وإنصافه أن يكرهني على خروجي من السجن ، وعلى جبهتي غبرة الإجرام ، بل أرغب إليه وأستميح فضله ، أن يصبر علي قليلا ، حتى تجري التحقيقات اللازمة عما نسب إليّ ، فإن تبين أني مجرم ، مكثت في معتقلي هذا البقية الباقية من عمري ، وإلا .. خرجت برأس عال وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض لم تعلق به ذرة من غبار العار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب الركس ، بحيث لا أهاب ، ولا أغضي لشيء ، ولا أخجل من شيء ، فمع احتفاظي بالمطالبة بالتحقيق عن الأسباب التي دعت لاعتقالي ، سأمتثل أمر الملك ، وأخرج إليه شاكراً حسن رعايته وعنايته ، غير أنني أرجوك أن ترجع إلى ربك ، جلالة الملك الريان ، وقص عليه ما سمعت وما رأيت من حالي ومن أمري واسأله مـــا بال الظعائن رسل الشيطان ، نساء بعض أمراء البلاط ، اللاتي كن منذ بضع سنين جـرّحن أيديهن ، يوم ضيافتهن في قصر « العزيز » فأنا أريد أن أنقل الدعوى من محكمة « العزيز » إلى محكمة « الملك » إذ أن ربي الذي قال سابقاً : (إنه من كيدكن) هو اليوم أيضاً « بكيدهن » المعروفات به « عليم » بل هو أعلم أهـــل الأرض بذلك ، فهو كان عرف كيد امرأته يوم حادثة « قد القميص » وهو إذا أنصف ورجع إلى ما يعلمه حجة لي على سلامـــة شرفي ومكر سواي ، وإنني أطالب بإلحاح الإمعان في البحث عن أسباب ذلك » .

وأقول هنا نعم ما فعل يوسف (ع) ، وقد أصاب فيما أتى ، لأنه يريد أن يخرج من السجن موسوماً بالبراءة ، لابساً تاج الأمانة ، وهذا هو اللائق بالحازم العاقل ، إذ لو خرج في الحال ، ربما بقي في قلب الملك من تلك التهمة أثر .

هذا وأما ما يذكره المفسرون من « حديث » يشم منه الانتقاد على عمل يوسف ، وعدم تحبيذه ، فعلى فرض صحته فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة يوسف عليه السلام ، حتى من الغلط في عـــدم مبادرته للخروج عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن ، وعلى كل حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث الذي يحتوى طعن نبي في نبي إلى الله تعالى .

(وقال الملك ، ائتوني به ... الخ)

– ٢ –

وقال السيد المراكشي ليسمح لي السادة المستمعون بإلقاء التعليقات التالية على هذه الآية الكريمة :

البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً

أولاً – جعل يوسف « براءته » في المقام الأول « وخروجه » من السجن في المقام الثاني ، فلم يكن طلب الملك له والإفراج عنه ليهمه بمقدار ما يهمه براءة ساحته مما ألصق به من العار .

تأدب يوسف بعدم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته

ثانياً – لم يقل يوسف « ما بال امرأة العزيز » بل قال : « ما بال النسوة » تأدباً معها وحفظاً لما رأى منها من معروف وإكرام مثوى ، عندما كان في بيتها وتحت يدها لأنه كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم ، لم يسعه عليه السلام إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمركزها ، قال الشاعر :

ما وهب الله لامرىء هبة أفضل من عقله ومن أدبه
هما كمال الفتى فإن فقــدا ففقده للحياة أحسن بـــه

سؤال يحقق البراءة

ثالثاً – وقال يوسف للمندوب سل الملك : « ما بال النسوة » أي ما حالهن ولم يقل : « سله أن يفتش عن شأنهنّ » لأن السؤال مما يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة ، وأراد قصّ الحديث ، حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل .

هُوية الرسول الذي ذهب إلى يوسف

رابعاً – عندنا أن هذا « الرسول » هو رئيس السقاة الذي كان قال : « فأرسلون » فهذه أول قرينة ، وقرينة أخرى ، وهي قوله : « الصديق » فهو يدل على أنه كان اختبره سابقاً وعرف صدقه في تأويل الأحلام ، و « الرسول » بمعنى المرسَل أو البريد أو السفير أو المحْضر أو المندوب أو المبعوث .

تسمية الملك رباً

خامساً – جرى اصطلاح الشعوب والممالك القديمة ، مثل مملكة مصر ويهوذا وإسرائيل وأشور والكلدان حتى العرب في الجزيرة – على أن يسموا الملك رباً ، وكل من سواه عبداً ، وقد سبق تفصيل ذلك .

العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن العلماء بالملك

سادساً – باحتياج مليك مصر ، وهو على أريكة ملكه ،إلى يوسف وهو في معتقله ظهر جلياً أن العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأغنياء عنهم بملكهم . قال الشاعر :

إن الأكابر يحكمون على الورى   وعلى الاكابر تحكم العلماءُ

حجر أصاب صيدين

سابعاً – رأي يوسف أن زليخا غدرته باتهامها إياه ، وأن « فوطيفار » ظلمه بسجنه طيلة بضع سنين ، رأى ذلك ورأى أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، فلماذا يسكت عن غدره وظلمه ؟...

فلا بد من أن يُسأل عن سبب سجنه ، ويفتح باب البحث عن تلك الحوادث الأولى على مصراعيه ليحيط « البلاط بها علماً ، ويكون بذلك رمى حجراً فأصاب صيدين ، الأول وصوله لظهور براءته مما أُلصق به ،والثاني إظهار أن « عزيز مصر » و « امرأته » كانا قد غدراه وظلماه ، فاهتبل فرصة توجه « الريان » نحوه وحبه إياه فطلب ما طلب وهذا ما أعثرنا عليه الفتاح العليم ، وللمفسرين ههنا كلام أستطيع أن أقول عنه إنه موجب للأسف .

الاجتهاد في نفي التهم واجب

ثامناً – الذي سهل على يوسف عدم المبادرة إلى امتثال أمر الملك بالخروج إليه ، والذهاب عنده أنه تصور في كرم أخلاق الملك أنه سيعذره ويغتفر له ذلك أمام حرصه على براءة عرضه ، وفي سبيل اجتهاده على حسن سمعته .

وقد ذكروا أن الاجتهاد في نفي التهم واجب ، فقد أخرج مسلم من رواية أنس : (أن رسول ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل ، فدعاه وقال : هذه زوجتي) . – (فقال : يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك) – فقال رسول الله : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) وكأنه لهذا كان الزمخشري رحمه الله – وكان ساقط الرجل – قد أثبت عند القضاة أن رجله لم تقطع في جناية ولا في فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار وكان رحمه الله يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء .

ديموقراطية حكم الملك الريان

تاسعاً – إنه لأمر معلوم أن الملك (الريان) أرسل مندوبه ليوسف ليأتيه به ، ولكن يوسف أبى الخروج إلا بعد إجراء التحقيقات عن سبب سجنه ، فنأخذ من هذا أنه كان مطلق فرد من أفراد الناس بمصر ، حتى العبيد الدخلاء – كانوا يعيشون بمصر عيشة حرية شخصية تامة بأجلى معانيها وأبعد مراميها ، حتى مع نفس الملك القابض على مملكة مصر ، سيدة ممالك العالم إذ ذاك ، وإن هذا الملك كان ديموقراطياً بحتاً ، يأمر بشيء في حق عبد دخيل ، فيأبى عليه ذلك العبد امتثال أمره إلا بعد إجراء التحقيق ، مع أنه يمكنه الجمع بين امتثال إرادة الملك وبين إجراء التحقيق ، بأن يبادر يوسف للخروج ثم يطلب من الملك ذلك ، ولو فعل اليوم نظير هذا الأمر مع « مدير شرطة » لأخذته العزة بالاثم ، وقامت قيامة كبريائه ، وعدل عن إخراجه من السجن ولانقلب له عدواً لدوداً فلو قارنت هذا الملك (الريان) بأمير مقاطعة صغيرة ، أو اهبط قليلاً فقل بوزير من وزرائه ، أو اهبط قليلاً فقل بوكيل الوزير ، أو اهبط قليلا فقل بالمحافظ أو المتصرف أو اهبط ثم اهبط ثم اهبط فقل بمأمور الانضباط ... إذا حاولت أن تقارن بين هؤلاء وبين مليك مصر الريان ، وجعلت الكبرياء ومحبة النفوذ وقوة النفس مقياس التمييز بين الفريقين لوجب أن يعتلي هؤلاء عرش مصر ووجب على «الريان» الوديع المنصف أن يحتل كرسي مأمور الانضباط .

سبب نزول الملك الريان على رغبة يوسف بعدم خروجه من السجن قبل اجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه

عاشراً - نرى أن ملك مصر « الريان » منذ ما سمع « بيوسف » وخبره

وعلمه ، بادر توّاً لإطلاقه من معتقله ، واسترسل في ذلك استرسالاً يفوق عوائد الملوك في تؤدتهم وترويهم ، وهو أمر يستوجب دقة النظر ، وما هـــذا الحب والإخلاص الذي أظهره ملك مصر ليوسف قبل أن يراه ؟! فقابل يوسف ذلك بالرفض ، إلا بعد التحقيق عن التهمة التي وُصم بها ؟! فهذا الرفض من يوسف بدلاً من الشكر والامتثال ، كان يجب أن ينجم عنه حقد « الملك » عليه وكدره منه ، ولكن الأمر أتى على عكس ذلك ، إذ أمر بالمساعدة اللازمـــة بإجراء التحقيقات نزولاً على رغبة يوسف !!! فما سبب ذلك يا ترى ؟

وعندنا أن الجواب عن ذلك ، هو أن ملك مصر آسيوي أجنبي عن القبط الأفريقيين ، ويوسف كذلك ، (وكل غريب للغريب نسيب) فلذلك استرسل في إطلاق يوسف من معتقله استرسالاً ، وتساهل معه إذ رفض امتثال أمره بالإتيان إليه إلا بعد التحقيق وآثر التمشي مع العاطفة الوطنية على التمشي مع نزعـــة الصلف والكبرياء ، على أننا نظن قوياً أن هذا الملك (الريان) هو من العقلاء الرصناء الذين ليسوا من ذوي المجرفة فلذلك نزل على إرادة يوسف عليه السلام .

دواعي عدم خروج يوسف من السجن

حادي عشر — إن لعدم خروح يوسف من السجن دواعي عديدة منها : (١) أنه لم يرض المثول بين يدي الملك وأمره بين بين ، وحاله غامض ، وعاقبته مجهولة ، ومجال الغضّ منه واسع فلذا أبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة عنه بالكلية — (٢) إنه بهذا العمل لا يقدر أحد بعد خروجه من السجن أن يلطخه بتلك الرذيلة ، وأن يتوصل بها إلى الطعن فيه ، (٣) إن الإنسان الذي بقي في سجنه بضع سنين ، إذا طلبه الملك وأمر بخروجه ، فالظاهر أن لا بد أن يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج ، عرف منه أنه في نهاية التعقل ، وأعلى درجات الصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يُعْتَقَد فيه بالبراءة عن

جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما كان يقال فيه كذب وبهتان . (٤) أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من أولئك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ، ووثوقه بكسب الدعوى ، وبعبارة أصح : وثوقه بالبراءة ، إذ لو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان يخاف من ذكر ما سبق ، ولا يريد أن يخطر ذلك على بال. (٥) كان يوسف يخشى أن يخرج وينال من الملك حظوة وتقريباً ، ويسكت عن أمر تلويثه ، فيراه الناس بتلك العين ، يقولون « هذا الذي كان راود امرأة العزيز عن نفسها ، انظروا له كيف صار من أهل البلاط ، انظروا له كيف صار مقرباً من حضرة الملك » .

كيف لم يخش يوسف من النسوة أن يكتمن حقيقة أمره

ثاني عشر – لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال : (ما بال النسوة .. الخ) بما لا يحب كا رمته إحداهن من قبل ، لأنه : (١) رأى الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع ، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل (٢) هو قد ظن فيهن خيراً ، واعتمد على شرفهن قائلاً في نفسه : إن لهن ضميراً سوف لا يتصامن عن ندائه و (٣) لأنه كان يعتمد على «الشاهد» من أهل امرأة العزيز و (٤) كان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بآذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، وأشد اعتماده على امرأة رئيس السقاة ، التي كانت مدعوة فيهن ، ولا بد أن تكون أفشت لزوجها اعتراف امرأة العزيز و (٥) كان يعتمد أيضاً على شرف (عزيز مصر) الذي كان قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وحصر التهمة في زوجه ، ولذا قال عنه : ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ ، وإنما كان حبسه يوسف حبساً إدارياً لأجل إبعاده عن زوجته ، و (٦) اعتمد على توجه نظر مليك مصر عليه ، وتمكنه من محبته ، وثقته بعلمه ودرايته ، ويوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس ، وأعظمته الرعية ، وأكبره الموظفون الذين هم تحت ذلك

السلطان القاهر ،فصار بذلك أميناً من مكر هؤلاء السيدات، نساء المستخدمين بمعية الملك .

كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤالهن عن قصة المراودة ولم يقع منهنّ شيء من ذلك

ثالث عشر — إن قال قائل : إن هؤلاء النسوة لم يكنّ من الكيد في عير ولا نفير ، ولم يكنّ من المراودة في ورد ولا صدر ، فكيف ينسب لهنّ يوسف الكيد ، ويطلب سؤالهن ؟.. وكيف يسألهـــن مندوب الملك عن مراودتهن ليوسف ؟ ولم يقع منهن شيء من ذلك ؟..

والجواب عن ذلك يعلم بمراجعة ما قيل في الآية ٢٨ والآية ٣٣ فراجعوه إن شئتم .

لم يقصد يوسف التشهير بامرأة العزيز في طلبه التحقيق بل ظهور براءته

رابع عشر — لا ريب أن يوسف عليه السلام لا يريد لأحد الرجال ،ولا لإحدى النساء ، أن يفتضح وتشيع فعلته ، ولكن لا مندوحة له عن السعي في ظهور براءته مما اتهم به ، وحبس من جرائه ! حتى لا يخرج من السجن ، وهو مخفوض الرأس بين الناس ، فلذلك شرع في طلب التحقيق عن هذه الحادثــة ، تذرعاً للحصول على ملاك شرفه ، وقوام حسن سمعته ، وهو ظهور طهارته من كل دنس ألصق به زوراً . فلذلك رأى أن خروجه من السجن سابق لأوانه ، إنما أوانه بعد ظهور براءته ، وبهذا يسقط ما عساه أن يقال : كيف سعى يوسف في إشاعة الفاحشة ، وأحب تشهير تلك المرأة ؟

فضل يوسف ذلك على خروجه وشيكاً ، ضناً بشرفه ، وحسن سمعته ،

لأنه تصور في نفسه وصممه بإرادة السوء والفحشاء مع أهل« العزيز »وحبسه من جراء ذلك ، لا يزالان عقبة كؤوداً في طريق خلاصه وحسن سمعته ، وأنهما من أعظم الموانع لوصوله لما تطمح إليه همته .

تنازع يوسف عند طلب الملك له عاملان : عامل النزول على إرادة عاهل مصر ، ومحبة النفس لمبارحة الحبس ، وعامل الشهامة والعزة ومحبة ظهور البراءة من كل لون ، ففضل المشي مع العامل الثاني ، فقال للرسول : (ارجع .. الخ)

سعة صدر الملك الريان

خامس عشر — لم يغضب الملك على يوسف ، لأنه رفض نعمته عليه ، ولم يطع إرادته السنية التي صدرت من لدنه ، لإتحاف يوسف بخروجه من معتقله حالاً بل تناسى ذلك لطفاً منه وكرماً ، وليس ذلك فقط ، بل زاد عليه — كما سيلي إنه نزل على إرادته في إجراء التحقيق عما كان وصم به ، واعتقل من جُرائه ، ولعمري إن هذا من الملك لتضحية كبرى لأنفته وكبريائه يستحق ذلك الملك العمليقي من أجلها أعظم الثناء .

قذف البريء يعود عليه بالخير عندما تظهر براءته

سادس عشر - نسمع الملك يقول هنا (ائتوني به) ، وسنسمعه يقول بعدئذ (ائتوني به استخلصه لنفسي) ، فالطلب الثاني أرقى من الطلب الأول وسببه أن الطلب الأول كان مبنياً على علمه بعلم يوسف وفهمه فقط ، وأما الطلب الثاني فكان مبنياً على ذلك وعلى تيقن الملك بسلامة يوسف من الجريرة ، وبعبارة أخرى كان ظهر للملك أولاً تحلية يوسف فحسب ، ولكن بعده ظهر له أيضاً تخليته ، ولا ريب أن التخلية مع التحلية ، أهم من التحلية وحدها ، وهكذا جرت السنة أن فى قذف البريء خيراً يعود عليه عندما تظهر براءته كما

قال تعالى : ﴿ إنّ الذينَ جاؤوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم لا تحْسَبُوه شَراً لكم بل هو خيرٌ لكم ﴾ (٢٤ : ١١) .

على الباغي تدور الدوائر

سابع عشر – لا ريب أن « العزيز » وذويه كانوا أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة « المرأة » بتوجيه التهمة إليه ، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة ، لأن سجنه سبب تعرفه إلى « الساقي » فالتقدم إليه بأن يذكره عند الملك ، ولما رأى الملك رؤياه ، ذكر الساقي يوسف فحمل إليه تلك الرؤيا فأولها يوسف ، فنتج عن ذلك طلب الملك إياه فلم يرد أن يخرج إلا بعد التحقيق ، فكانت النتيجة حصر التهمة في « المرأة » وبراءته مما نمي إليه ، فكان « العزيز » بحبس يوسف كمن رمى الوقود في النار ليخمدها ، أو كمن حول الضرب إلى سقف جاره ، فإذا الضرب في سواء داره ، ولا غرابة في ذلك ، ففي المثل السائر :

« على الباغي تدور الدوائر » .

المراد بالكيد

ثامن عشر – أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبعد غوره ، كما قيل : « وهن شر غالب لمن غلب » ، أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه وأنه بريء مما قُرِفَ به ، أو أراد الوعيد لهن ، أي هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه ، أو أراد بربه « عزيز مصر » كما ذكره احتمالاً كل من ابن جرير والسيد حسن صديق وغيرهما ، على حسب اصطلاح المصريين والعبرانين وغيرهما من تسمية الملك رباً بمعنى السيد ؛ وعندنا أن هذا الاحتمال الثاني أحسن ، فهو يشير بذلك إلى سابق قول العزيز : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » فكأن يوسف يقول : اسألوا سيدي – عزيز مصر – الذي سبق منه أنه حكم على زوجته بالكيد ، ووصفها

به ، فإنني أقبله شاهداً عليّ وأرضى به حَكَماً ، بل واحتج به وبعلمه الحقيقة على كيدهنّ لي » فعلى هذا الاحتمال الثاني يكون قد استشهد على أنهن كواذب « بعزيز مصر » وما يعلمه فيهن ، وهذا ممكن ، وفيه فائدة عاجلة ولقوم بــــه الحجة ، وأما على الأول الذي جرى عليه جمهور المفسرين فيكون قد استشهدبالله وعلمه بكيدهن ، وهذا لا فائدة فيه ليوسف في الدنيا ، ولا يدفع عنه المؤاخذة عند رجال المحكمة وفي نظر الشعب ، ولا يبرىء ساحته من الجزاء الدنيوي بوجه لأنه من يعرف علم الله فيهن ؟ (مرحى مرحى ولا فض فوك)

اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥١) « .. قالَ ما خَطْبُكُنَّ ، إذْ راوَدْتُنَّ يوسُفَ عنْ نفسِهِ ؟ » ـ قُلْنَ : حاشَ لله ، ما عَلِمْنا عليهِ مِنْ سُوء ـ « قالتْ امرأةُ العزيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ ، أنا راوَدْتُهُ عنْ نفسِهِ ، وإنه لَمِن الصادقينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والخمسون فقامت الآ نسة أسماء الغزية وقالت :

كان « نبو » مندوب الملك « الريان » رجع إليه من عنده يوسف » عليه السلام وقص عليه القصة ، فقال له الملك : « أما قلت لك أن في الأمر دسيسة ، فالآن اذهب واعمل كما أحب هذا السجين ، وائتني بنتيجة » فصدع « نبو » بأمر الملك ، وقفل راجعاً ، و (قال) للنسوة : ناشدتكن الله يا سيدات « منفيس » (ما خطبكن)[1] وما شأنكن ، (إذ راودتن يوسف) العبراني السجين (عن

(١) الخطب : الأمر الذي يعظم شأنه فيخاطب الانسان فيه صاحبه .

نفسه) فياد ولة الجنس اللطيف، لله دركن ، هل وجدتن منه ميلاً إليكنّ ،هل رأيتن منه غمزة ، هل سمعتن منه رمزة ، هل ضحك لكن وداعبكن ، حتى أقدمتن على مراودته،وتجرأتن على مطالبته بما لا ينبغي لأمثالكن أيتهاالسيدات؟

وأما السيدات فأجبن و (قلنَ حاش لله) تعجباً من عفته ومن نزاهته عن الريبة — ووالله (ما علمنا عليه) قط ، (من سوءٍ) ، ووالله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، هذا جوابنا عما يتساءل عنه جناب المحقق، وخلاك ذم.

هذا ولما كان العاشق يفادي بنفسه وشرفه عن طيب خاطر مرضاة لمعشوقه (قالت) زليخا (امرأة العزيز) فوطيفار ، معترفة بجلية الواقع ، تذود عن يوسف وتنتصر له على نفسها : أنا أخبرك بواقعة الحال ، وأطلعك على جلية الواقع (الآن حصحص الحق) والحق على مضاضته يقال ، وإني إن شاء الله لا أكذبك شيئاً (أنا راودته عن نفسه) ، وعلى المكشوف ، أنا براقش التي جنت على نفسها ، أنا المذنبة ، وله العتبى (١) ، ووالله اني لم أراود قط أحداً قبله ولا بعده ، ولا يمكنني التنازل لأحد سواه ، وأنا الآن أستغفره على هذا الذنب ، (وإنه لمن الصادقين) في قوله منذ سنتين : (هي راودتني عن نفسي) فهو لم يلوث لسانه بالكذب والفرية قط ، وإنه لمن الصادقين في العمل ، حيث أبى عليّ ، وامتنع عن النزول على إرادتي ، وتمسك بدينه ، وثبت على متانته ومروءته ، وكأنها خافت أن تثبت عليها التهمة ببعض البراهين إذ رأت أن السماء تنذر بتقلب الجو ، فسبقت إلى الاعتراف على حد قول القائل : « بيدي لا بيد عمرو » أو على حد قول الشاعر : « وليس لمخضوب البنان يمين » أو كما يقولون في المرأة :

« إن الأمومة عودتها عادات إنكار النفس والتضحية والرغبة في مصلحة الآخرين ، أكثر من الرجل » .

---

(١) العتبى : الرضاء ،

(قال ما خطبكن إذ راودتن .. الخ)

- ١ -

وقامت السيدة لبنى البغدادية وقالت : يستفاد من هذه الآية الكريمة عدة فوائد سأتلوها على مسامعكم :

استنطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

الفائدة الأولى – تعليقاً على قوله : (ما خطبكنّ) ، نسب «ابن كثير» و « البغوي » هذا القول إلى الملك الريان ، وقالا إنه هو الذي جمع عنده هؤلاء النسوة واستنطقهن ، وقال ما خطبكن ، وهو يريد امرأة العزيز خاصة .

وقال بعضهم : إن القائل هو مندوب الملك ، ذهب إليهن وجمعهن في محل واحد بما فيهن امرأة العزيز ، وسألهن هذا السؤال ؛ ويجوز أن يكون قد سأل كلاً منهن على انفراد في بيتها ، ثم للاختصار حكى الله ما حدث جملة واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرُّسُل كُلوا مِنَ الطيّبات ، واعملوا صالحاً ، إني بما تعملونَ عليمٌ ، وإنّ هذه أمتُكمْ أمةً واحدةً ، وأنا ربكم فاتّقون ﴾ (٢٣ : ٥٢ و ٥٣) فهذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، كيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين ، في أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك ، ووُصّيَ به .

نسبة المراودة إلى جميع النسوة والمراد منه واحدة

الفائدة الثانية – قال : (إذ راودتن) بصيغة الجمع ، والمراد منه واحدة وهي امرأة العزيز ، وقريب منه ما في قوله تعالى :

﴿ الذينَ قالَ لهم الناسُ ، إن الناسَ قد جَمَعوا لكم ﴾ (٣ : ١٧٣) ، فقد قيل لفظ النـــاس الأول عبارة عن شخص واحد ، هو « نعيم بن مسعود الأشجعي »، ولفظ الناس الثاني هو عبارة عن « أبي سفيان » ، « ذلك لأنه من من جنس الناس » كما أن امرأة العزيز هي من جنس المراودات ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وما له إلا فرس واحدة ، وبرد واحد .

شهادة النسوة ليوسف بالعفة والطهارة

الفائدة الثالثة – مع تسبب يوسف تجريح أيدي هؤلاء النسوة ، بتأثـير جماله الباهر ، ومع أنهن لم يرين منه عطفاً نحوهن ، حتى ولا ابتسامة واحدة على الأقل ، دية لتلك الأيدي المجرحة ، وتعويضاً على تلك العقول المذهولة – مـع هذا كله فهؤلاء السيدات لم يشهدن في يوسف إلا بما يجب له من العفة والطهارة ، ذلك لأنهن كن من النساء الداجنات والمسالمات ليوسف، ومن صواحب الوجدان والشرف ولعمري لا مزيد على شهادتهن وشهادة زليخا له بالبراءة والنزاهـة ، واعترافهن بأنه لم يتعلق بشيء يشينه ، مع أنهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن خصيمه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال ، خلافـــاً لحشويي المفسرين ، الذين قالوا : (نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بد لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته) !!..

حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه

الفائدة الرابعة – كأني « بامرأة العزيز » قالت وهي تتلعثم في كلامها، وتضطرب مما لحقها من الخجل والخوف ، وترتجف من حراجة الموقف :

« الآن .. حصـ..حص .. الحـ..ق .. أنا المشدو..هة .. راود .. ته... عن نفـ..ـسه .. واحـ..سرتاه ! وانه .. حر ..سة .. الله ... لمن الصا.. دقين

في .. سابق .. قوله : هي راودتني عن نفسي ، ذلـــك ليه...لم . . أني .. لم أخنه ... بالغيـ..ـب كا خنـ.ـته بالحـ..ـضور .. واويلاه!وان الله .. لا يـ..ـدي كيد .. الخا..ئنين .. وا ندماه !.. وما أبرىء .. نفـ..ـسي إن النفـ..ـس لأمـّ..ـارة .. بالسوء .. واسوأتاه ! إلا .. ما ر َ..حم .. ربي .. إن ربي .. غـ..فو.. ر .. رحيم .. واخجـ..لاه ! » .

وما أكملت هذا النطق إلا وقد زاد صوتها في التقطع ، وصارت رجلاها تصطكان ، فوقفت عند هذا الحد من البيان والاعتراف .

دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها

الفائدة الخامسة ـ عندي لدواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منهـــا ثلاث نظريات :

النظرية الأولى : أن النسوة قد أجبن المستنطق بقولهن (ما علمنا عليه من سوء) وسببه أن امرأة العزيز لما أرسلت إليهن ، وهيأت لهن متكأ ، رأينه في جماله الذاتي والنفسي ، حيث لم ينظر إليهن نظرة سوء ، كأنه ملك كريم ، ثم إن امرأة العزيز اعترفت لهن بأنها كانت راودته ، ولكن هو استعصم ، فـلما رأينه في تلك الجلسة وما سمعنه فيها كان دليلا على براءة يوسف عليه السلام ، فامرأة العزيز ، بما دبرت من دعوة النسوة ، وبما قالت أمامهن كانت كالباحث عن حتفه بظلفه ، خصوصاً لما سمعت قولهن : (ما علمنا عليه من سوء) فـكانت هذه الجملة هي الطعنة النجلاء التي أثبتت مراودة «زليخا» (وقطعت بها جهيزة قول كل خطيب » . فعند ذلك رأت زليخا من الحكمة والتعقل أن تعترف بالواقع ، لأنها إذا بقيت مصممة على إنكارها ، شهد عليها هؤلاء النسوة بأنهـا كانت قالت : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) (آية ٣٢) فهي بذلك اعتقدت أنها ألقيت

في فم المدفع أو قد وُضعت السلسلة في رقبتها وانتهى الأمر ، وأنه لا ندحة لها من الاعتراف ، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار شرعت تكشف السر ، كمن يريد الإقرار أمام المستنطق في محكمة ، أو « الاعتراف » أمام قسيس في بيعته .

فاهت بتلك المقالة العصماء التي في آيات (٥١ و ٥٢ و ٥٣) والسكوت سائد في تلك الجلسة ، جلسة التحقيق السرية ، لا واحدة تتكلم ببنت شفة ، بل كنّ جميعاً مصغيات لمقالتها ، منصتات لخطابها .

النظرية الثانية : هي أنه مهما بلغ الحقد بالقلب الإنساني ، وغلبت الشهوة شعوره ووجدانه ، فلا بد أن تهبّ عليه من حين إلى حين ، نفحة من نفحات الفطرة الإلهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود إلى طهره وصلاحه ، وما انطوى عليه من صدق وأمانة ، فهي في هذه الجلسة ، نسخت ما كانت قالته سابقاً ، والنفس الإنسانية كما يقول « روسو » مرآة ، تتراءى فيها مختلفات الصور والألوان ، ومن خَبَر عقلية المرأة ، لا يستبعد هذا التطور العجيب :

إنما المرأة مرآة بها كل ما تنظره منك ولكْ
فهي شيطان إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهي مَلَكْ

وكأنه قد صار الحال بحيث يخيل إليك أن هناك سيدتين ، واحدة ابتلعتها نار الذنوب والتهتك ، والأخرى ولدتها التوبة والإخلاص ، تلك كانت كاذبةً فاجرة غيّابة ، وهذه صادقة مدافعة متواضعة .

النظرية الثالثة : جلست زليخا في مجلس « الاستنطاق » وجعلت تراجع فهرس حياتها الماضية مع فتاها العبراني ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بدبيب الخطأ الذي كان صدر منها ، فحكمت بنفسها على نفسها ، أنها مجرمة آثمة ، وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى سوء السمعة ، وانحطاط المنزلة ، وأنها لم تسيء الى فتاها بمقدار ما أساءت لنفسها بإحباط شرفها ، وكأن

حياتها الحاضرة – حياة الشيخوخة قد أنستها حياتها الماضية – حياة الشباب – فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة ، كما لا أثر فيه للعشق والغرام، فلذلك قررت أن تعترف بالصحيح فلفظت كلمتها الأخيرة ؛ هذا ما يظهر من حكاية القرآن المجيد توبة زليخا .

وإنما قلنا إن حياتها الحاضرة حياة شيخوخة ، لأننا نظن أنها لما تكلمت بهذا القول ، كانت في سن الأربعين أو تزيد ، ذلك لأن يوسف عليه السلام حينما وقف بين يدي الملك الريان بعد خروجه من السجن ، كان ابن ثلاثين سنة ، ويظن أنها كانت أكبر منه بعشر سنين أو أكثر ، وعليه تكون دخلت في غرة سن الشيخوخة ونسيت الحب وآلامه ، والغرام وأيامه ، ودخلت في سن الوقار والكمال ، سن التوبة والإنابة إلى الله ، فسلسلة هذه الأسباب التي خلقت هذه الأعجوبة ، وأتت بهذه الخارقة ، حتى نفضت زليخا لمندوب الملك جملة حالها ، وصارحته بكشف المعمى .

معنى حصحص

الفائدة السادسة – حصحص ، ظهر ، برز ، ثبت ، استقر ، كلها ألفاظ متقاربة ، وهي من حصحص البعير ، إذا ألقى ثفناته للإناخة؛ وأصل حصحص حصّ ، كما في كفكف ، أصله كفّ ، وكُبْكِبُوا أصله كُبُّوا ، وردد أصله ردّ ، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا في هذه السورة .

الإجماع على سلامة شرف يوسف

الفائدة السابعة – تعلمون أن الذين لهم علاقة بحادثة يوسف ثمانية ، وهم : الله سبحانه وتعالى ، وإبليس ، والعزيز فوطيفار ، وامرأته زليخا ، والشاهد من أهلها ، والنسوة المصريات ، ويوسف نفسه ، وثامنهم الخادمة ، وكلهم متفقون

على سلامة شرف يوسف .

فأما « الله » سبحانه وتعالى فإنه يصف يوسف بأنه لما بلغ أشده آتاه حكم نفسه بنفسه ، وما نشأ عنه من العلم اللدني ، ويقول : إن زليخا هي التي راودته عن نفسه ، وهي التي غلقت الأبواب ، وهي التي قالت : « هيت لك » ويقول : إن يوسف أجابها جواباً سلبياً فقال لها : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » ويقول : « ولقد همت به وهمّ بها . ، أي قتلاً ، وعلى الأقل لكماً وضرباً ، لولا أن رأى برهان ربه العزيز ، وهو أنه أحسن مثواه ، ويقول : « إنه من عبادنا المخلَصين » ، وحسبنا هذا وكفى .

وأما « إبليس » ، فإن الله تعالى حكى عنه أنه قال يوم مؤامرة «سيلان» ﴿ إلا عبادَك منهم المخلَصين ﴾ (١٥ : ٤٠) فأجابه الوكيل المفوض بقوله على حساب الله:﴿ هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ ، إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان﴾ (١٥ : ٤٠ – ٤٢) فحالته مع يوسف كانت سلبية تماماً .

وأما « فوطيفار » عزيز مصر ، فقد كان لما ظهرت له الأمارة: ﴿إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ﴾ ، وخاطب امرأته بقوله : ﴿ استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

وأما « زليخا » امرأة العزيز ، فقد اعترفت أمام النسوة بالحقيقة ، قائلة: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ ، ثم توعدته إن لم ينزل على إرادتها بقولها: ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ ثم أقرت في محكمة التحقيق بجلية الواقع فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

وأما « الشاهد » من أهلها فإنه استبدل بالأمارة قائلاً :﴿إن كان قميصه

قد من قبل ، فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين ﴾ ، وأخيراً رئي قميصه مقدوداً من دبر ، فإذن يوسف في نظره من الصادقين في دعواه أن المراودة إنما كانت منها لا منه .

وأما « النسوة » المصريات ، فإنهن إنما نسبن المراودة والحب والضلال لامرأة العزيز ، إذ قلن : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ ، ثم لما رأين يوسف قلن : ﴿ حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ، ثم اليوم في جلسة التحقيق قلن : ﴿ حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء ﴾ .

وأما « يوسف » نفسه ، فإنه كان واقفاً مع امرأة العزيز موقفاً سلبياً ، إذ قال : ﴿ معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ، حتى أنه في الدرجة الثانية همّ بها قتلاً أو لكماً وضرباً ، وأخيراً في الدرجة الثالثة هرب من أمامها طالباً الباب ، وقال بحضورها وحضور العزيز ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ثم قال يوم الضيافة النسائية : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ، ثم لما جاءه رسول الملك ، وطلب إليه الخروج من المعتقل ، أبى ذلك إلا بعد التحقيق والتمحيص قائلاً : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

وأما « الخادمات » في قصر العزيز ، اللاتي لا بد أن يكنّ قد حضرن ، عندما استبق يوسف وزليخا الباب ، هرباً وطلباً ، ثم سمعن حكم « الشاهد » ثم خطاب « العزيز » لزوجه : ﴿ استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ فإنهن حينما نقلن هذه الحادثة لقصور الأميرات المصريات ، لم يتكلمن إلا بأن « المراودة » وقعت من « امرأة العزيز » بدليل كلام السيدات المصريات ، اللاتي ما علمن بالحادثة ، إلا من أفواه هؤلاء الخادمات ، فلو كان صدر من يوسف شيء ينافي شرفه ، لنقلنه لهؤلاء النسوة .

هذا خلاصة الكلام ، في تحقيق هذا المقام ، ولعله يكفي لرد ما زعمه (غلطاً) بعض المفسرين ، مصرحين بما تتحامى عن سماعه آذان المتأدبين ، مع أنبياء الله المخلصين .

تحقق صرف الكيد عن يوسف

الفائدة الثامنة - نرى « نسوة المدينة » قد ﴿ قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، ونرى « امرأة العزيز » قالت : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه الخ ﴾ وكل هذا كان مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ .

الاعتراف بالخطأ فضيلة

الفائدة التاسعة - لقد رأيتم أيها السادة أن هذه « المرأة » زليخا قد تناست منزلتها وتغافلت عن عظمتها ، ونطقت بكلمة الاعتراف ، والاعتراف بالخطأ فضيلة كما تعلمون ، وهو خير من التمادي فيه ، ونظن أن هذه المرأة لو لم تعترف ، ثم أتت بشهود زور ، ممن لهم علاقة محسوبية (مثلاً) لطالت ذيول « الحادثة » وتشعبت كثيراً ، لاسيما لو ظهر فيما بعد أنها مبطلة في تقديم أولئك الشهود فتكون العاقبة أدهى وأمرّ ، ولكن الله هداها (للاعتراف) فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على ما حكاه القرآن الكريم ، واقتصر في عقاب هذه المرأة وزوجها على مجرد طرد من الوظيفة الرسمية ، وجعلها نسياً منسيا .

(مرحى ، مرحى)

(قال ما خطبكن إذ راودتن .. الخ)

- ٢ -

ثم قام الامام القلقيلي وقال: نشكر أختنا البغدادية على ما أتحفتنا بهمن فوائد قيمة وارجو أن يسمح لي السادة بسرد الفرائد التالية :

انصياع الرسول ليوسف بمراجعة يوسف

الفريدة الأولى : انصاع « نبو » رسول الملك ، لطلب يوسف ورجع بدون اعتراض ولا توقف إلى الملك ، فأمره بإجراء التحقيقات السرية ، لأنها «دعوى» متعلقة « بالعرض » .

عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته

الفريدة الثانية - قال النسوة : « حاش لله .. الخ » وشهدن في يوسف الطهارة والعفة ، مع أنه في تلك الجلسة القديمة لم يعبأ بهن ، ولم يلتفت إليهن ، كما نعلم ذلك من أنهن ﴿ لما رأينه أكبرنه ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ وكذلك كان حال « زليخا » معه ، فمع أنه لم ينزل على إرادتها شهدت فيه شهادة طيبة إذ قالت : ﴿ أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ﴾ .. الخ ، فهذا كله نتيجة أن في المرأة عاطفة ليست في الرجال ، فالنساء أشد تأثراً وأرق شعوراً من الرجل ، لأنهن أطوع للفؤاد منهن للعقل ، ومن كان يتكلم تحت تأثير الدماغ ، كان أقرب للكذب ممن يتكلم تحت تأثير الفؤاد ، لأن عاطفة المرأة تملك عقلها ، بخلاف الرجل ، فإن عقله يملك عاطفته ، فهو إلى الكذب وإخفاء الحقيقة أقرب ، وأما المرأة ، فهي إلى الصدق وإظهار الواقع أقرب .

داعي اندفاع زليخا للاعتراف بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف

الفريدة الثالثة – إن وجه اندفاع « زليخا » لهذا « الاعتراف » الذي أعلنته بكل وضوح وصراحة ، مسبب عن أمور إذا اجتمعت صلحت أن تشكل سبباً قوياً حدا بها أن تعلن اعترافها ، وذلك عدا عما سبق ذكره في الفائـــدة الخامسة من فوائد السيدة لبنى البغدادية وهي :

(١ً) – تعلمون أن المندوب « نبو » كان قال : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ فلا بد أنه إذ ذاك كان بيّن « للملك » الريان، ولأهل« البلاط» ماذا سمع من يوسف من تأويل رؤياه ورؤيا الخباز « ملحب » ومـــاذا رأى من أعماله وذكائه .

(٢ً) – تعلمون أن المندوب « نبو » كان رجـع من عند يوسف بعبارة رؤيا الملك ، التي كان ألقاها على « الملإ » فأظهروا جهلهم بتعبيرها ولكن يوسف عبرها تماماً ، وزاد على ذلك أنه بيّن لهم ماذا يجب أن يعملوه .

و (٣ً) – لا بد أن يكون الشرابي « نبو » أفهم الملك عن يوسف أنه من (العراق) تولداً ، ثم من (فلسطين) منشأً ، فهو (آسيوي) صرف ، يعني من (آسيا) التي منها جلالة الملك ، ومن (العنصر السامي) الذي ينتمي إليه الملك .

و (٤ً) – لا بد أن يكون الملك زادت ثقته بيوسف وحسن اعتقاده فيه جداً حينما أرسل إليه ليخرج من معتقله ويكون عنده فلم يقبل إلا بعد التحقيق عن سبب اعتقاله .

فلهذه الوجوه ، وما إليها ، لا بد أن يكون شاع واشتهر في (البلاط) الملكي أن « يوسف العبراني» المعتقل ، سيصير مقرباً عند الملك ، وسيكون له شأن ذو بال ، وبالطبع لا بد أن يكون عزيز مصر (فوطيفار) قد بلغه كل هذه

الحوادث وأنه حكى ذلك لزوجه (زليخا) وعليه صار لسان حالها يقول :

سَيُرى مالك رقيّ مالكاً رقّ الرقابِ
لم يكن يا أحسن العا لم هـذا في حسابي

فلذلك كله تغيرت حال امرأة العزيز وتبدلت خُطتها، واعتدلت أفكارها عن ذي قبل ، فاعترفت بجلية الواقع ، لا سيما إذا لاحظنا أنها علمت أن هـذه المناظرات والتفحصات ، إنما هي بسببها ، ورأت أن النسوة قد نزّهن يوسف، وأن التهمة انحصرت فيها ، وأنها كانت في ذلك التاريخ قد تقدمت نوعاً في السن ، فتقدمت في العقل والاستقامة ، وأنها قد حيل بينها وبين يوسف بضع سنين ، خمدت فيها ثورة الحب ، وأن طبيعة النساء سرعة التحول والتطور ، فمجموع هذه الأشياء يصلح أن يشكل سبباً كافياً لاندفاع «امرأة العزيز» لهذا «الاعتراف» الصريح ، فمنذ ذلك أخذت كلمات الدفاع عن يوسف تنثال من شفتيها ، انثيال الماء من السماء ، هذا ما أفهمه في (آ ٥١ – ٥٣) وللمفسرين ههنا كلام رجعيّ ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه لا يستحق أن يلتفت إليه طفل صغير .

عجباً لهذه المرأة ! وقفت هنا بروح جديدة ، موقف المدافع عن شرف يوسف ، وأنفقت في هذا النطق كل ما تملك من قوة وبيان ، صار هذا بعد تلك الوقفة الطويلة التي حفظها عليها التاريخ ، وقفة الاتهام المشين، وهي أمام زوجها – يا للفضيحة – وبعد تلك الوقفة التي وقفتها أمام النسوة ، ترعـد وتبرق ، وتوعد فتاها بالعقاب الأليم ، إن لم ينزل على حكمها ، فهذه «الحسنة» التي صدرت منها الآن ، هي في جانب مضايقاتهـا ليوسف سابقاً كالغرة البيضاء في الأديم الأسود ، وهذا « التقريظ » الذي نسمعه منها اليوم ، هو في جانب ما سبق من « الهجاء » كالكهرباء أمام الظلام القاتم .

فياله من تطور مدهش ويا له من تغير غريب !

فهي بمقدار ما اجتهدت أولاً أن تلصق به العيب ؛ فاليوم اجتهدت أن تبرىء ساحته من العيب ، فسبحان من ألهمها فجورها وتقواهـا ، وصدق من قال : « إن للباطل صولة ، ثم يضمحل ، ولريح الضلالة عصفـة ، ثم تخفت » وصدق صاحبنا الأمير شكيب أرسلان إذ قال : « لا تطلب الثبات من ثلاثـة أشياء : البورصة والنفوذ والهواء ، وإن شئت فضم قلوب النساء » .

وإليكم سبباً ثانياً قد ألهمته الآن وأنا ماثل بين أيديكم يبين وجه تغير فكر « زليخا » :

كانت قد بقيت بقية من مرارة الحب في أعماق قلبها حتى بلغها أن حبيب قلبها قد انقلب في السجن من « شاب » إلى « كهل » ومن « فاتن » إلى «مفتي » يُستفتى فيُفتي ، ويسأل فيجيب ، بل إلى « واعظ » يجلس على كرسي الوعظ، يعلم المسجونين ، عقائد الدين ، كما بلغها أنه صار في السجن طويـل « الفرْع » طويل « اللحية » ، والمصريون في ذاك العصر كانوا يعتبرون اللحية علامة«الذل» والدناءه،فقد شوهد على الآثار المصرية ، « الأسرى » والأدنياء مصورين بلحى ٌ.

وأما المصريون فكانوا عموماً يرون وجوب حلق لحاهم ورؤوسهم،فكانت امرأة العزيز كلما يبلغها عنه شيء من هذا القبيل ، تتضاءل شعلة محبتهـــا له ، شيئاً فشيئاً :

ومَنْ يَدْهَ يوماً « عارضٌ » وجناتِه فكبّر عليه أربعاً لوفاتِه

فكان ذلك الزمان آخر عهدها بالحب ، وكأن شبح الغرام هامةُ اليوم أو غد ، فلذلك نسيت أحكام الهيام ، وسبحان من له الدوام .

هذا ما كنا وعدناكم به على لسان السيدة لطيفة المراكشية عند محاضرتها على (آ ٣٢) وهذا كلام « المرأة » التي كانت خصيمة يوسف بالأمس ، وانقلبت اليوم محامية مدافعة عن شرفه ، وإنه كان يجب أن يكون لجماعة المفسرين مغزى

وعبرة من قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ ، فينبغي لنا نحن أن لا نتعدى حدودنا ويقل حياؤنا ، ونقول فيه كما قال فريق منا ، مما يخالف ما شهدت به زليخا ، فلا ينبغي أن تكون هي أهدى منا لمعرفة واجبات ذلك « الصديق الكريم » :

قم فقد قامت الطيور تغني   لا يكون الحمام أطرب منا

(مرحى)

تتمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥٢) ذلكَ لِيعْلَمَ أَني لَمْ أَخنْهُ بالغيْبِ ، وأَنَّ اللهَ لا يَهْدي كَيْد الخائنينَ » .

استمرت الجلسة في محاضراتها وتليت الآية الاثنتان وخمسون فقام العلامة الغزي وقال :

تقول امرأة العزيز إن (ذلك) القول الذي قلته في تنزيه يوسف، والإقرار على نفسي بالمراودة من جانبي الذي ضحيت به شرفي وحسن سمعتي في سبيل شرف يوسف وحسن سمعته ، ليس لراعدة أتخوفها منه ، ولا عائدة أرجو أن يقبسنيها وليس هو دهاناً ولا تملقاً ، لا . . . لا . . . . ولكن (ليعلم)يوسف (أني لم أخنه بالغيب) وإن كنت خنته بحضرته وعند مشاهدته ، ولم أغفل واجبه ، ولم أصمه بدنيئة ولم أعبه بما يشينه ، فلئن كنت منذ بضع سنين قد أحلت الذنب عليه وهو حاضر ، فلا يسعني الآن أن أحيل الذنب عليه حال غيبته ، احتفاظاً بالأمانة وحقوق الغائبين ، أي ليعلم أني لم أكذب عليه في حال الغيبة ، بل جئت بالصحيح والصدق ، فيما سئلت عنه ؛ فعلت ذلك لتطيب نفسه وتقر عينه ،

ويعرف أنه يوجد من يحفظ الود ، ويتمسك بالعهد،ولو على البعد،ولِ (أن الله لا يهدي كيد الخائنين) بل يجعله قبض الريح ، فلا ينفذه ولا يسدده ؛ وأنا الحقيرة كنت من هؤلاء الخائنين مع الأسف ، فإنني أقدمت على الكيد والمكر لا جَرَمَ أنني افتضحت ، وأنه لما كان بريئاً عن الجرم لا جَرَمَ طهره الله تعالى بالثناء عليه.

وبعدما سبق ذكره نذكر الذيول التالية :

توبة زليخـــا

أولاً – نرى الآن « امرأة العزيز » قد أقلعت عن أفكارها الأولى، أفكار العار والدنس والكذب ، إلى أفكار جديدة ، أفكار الشرف والطهارة والصدق، وهذا من نعمة الله عليها ، فتاب الله عليها من أفكار الفحشاء ، كما تاب أخيراً على إخوة يوسف من أفكار العداء (آ ٩١ و ٩٧) .

معنى بالغيب ومحله اللغوي

ثانياً – قوله « بالغيب » محله الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : « وأنا غائبة عنه ، خفية عن عينيه ، لأني ههنا في قصري وهو في سجنـه ، أو وهو غائب عني ، خفي عن عيني » ، ويجوز أن يكون ظرفاً ، « أي بمكان الغيب وهو الخفاء والاستتار في قصرها » .

الكيد المذموم والكيد الممدوح

ثالثاً – خص الخائنين في قوله: ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ تنبيها على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده الخيانة ، فالكيد يكون مذموماً وممدوحا وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، فما هو من قبيل المذموم ، ما في هذه الآية ، وكقوله سابقاً : ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾ (ع ٥) ، ومما هو من قبيل الممدوح

ما في قوله تعالى : ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ (ع٧٦) وقد مر تفصيله في آ ٥و٢٨ .

نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم الخ » إلى زليخا وليس إلى يوسف

رابعاً – قوله : ﴿ ذلك ليعلم أني .. الخ ﴾ ، قال جمع من المفسرين ، ومنهم مع الأسف العلامة الزمخشري ، إن هذا القول من كلام يوسف ، وهو في سجنه وإن الضمير في « ليعلم الخ » راجع للعزيز ، وقولهم هذا لا يصح ، لأن الضمائر التي قبله عائدة إلى يوسف ، فلا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في «ليعلم» على العزيز ، وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بنسبة القول لزليخا ، فلذلك يجب أن تكون المحكيات كلها من كلام تلك المرأة .

فالحاصل إن امرأة العزيز أتت في استجوابها على ثلاث جمل ، أو ثلاث آيات نطقت بها أمام « المستنطق » في قصرها أو في قصر مليك مصر ، في حال وجود يوسف في سجنه ، الذي ربما يكون بعيداً عن قصور الأمراء ، كما يفيده لمتا ﴿ فأرسلون ﴾ و ﴿ لعلّي أرجع إلى الناس ﴾ فنسبة بعض القول ليوسف لهو من أبعد البعيد .

وأما ما نظر به صاحب الكشاف من قوله تعالى : ﴿ قال الملأُ منْ قومْ فرعونَ : إنّ هذا لسَاحرٌ عليم ، يُريدُ أن يُخرجَكم من أرْضِكم بسِحرِه ، فماذا تأمُرون ؟ قالوا : أرْجِهْ وأخاه ، وأرْسِلْ في المدائنِ حاشِرين ، يأتوك بكل ساحرٍ عليمٍ ﴾ (٧ : ١٠٨ – ١١١) ، فقوله إن هذا لساحر .. الخ هو معقول قول الملأ ، وأما قوله ، فماذا تأمرون ، فهو كلام فرعون ، يخاطبهم ويستشيرهم ، كذا قرره صاحب الكشاف ، ورد بأنه إنما يجري الكلام على هذا الوجه ، إذا ألجأ إليه محوج ، كما في الآية المذكورة إذ لا يمكن جعل « فماذا تأمرون » من كلام الملأ ، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون ، وأما في

آيتنا التي في سورة يوسف ، فلا يحوج فيها لمثل ذلك ، كذا قرره صاحب الكشاف ولنا أن نقول : إن جملة « فماذا تأمرون » هي أيضاً من تتمة كلام الملأ ، أي أن فريقاً من الملأ ، قال لفريق آخر منهم ، هذا القول يستطلع رأيهم ، ولما أن سأل هذا الفريق من الملأ ، فريقاً آخر منهم ، أجاب الفريق المسؤول موجهين الخطاب لفرعون ، وقالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل .. الخ ، وقال بعض المعاصرين : إن الملأ من قوم فرعون ، ما قالوا هذا القول ، إلا تبعاً لقول فرعون ، الذي حكي عنه في سورة الشعراء : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ — قالوا : أرجه وأخاه ، وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحّار عليم ﴾ (٢٦ : ٣٤ — ٣٧) ، أي أنهم رددوا كلام فرعون ، وصار يلقيه بعضهم إلى بعض ، كدأب الناس ، في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده ، إظهاراً للموافقة عليه ، وتعميماً لتبليغه ، فهذه ثلاثة وجوه في الآية التي استشهد بها الكشاف ، كل وجه منها يبطل الاستشهاد بها .

(وما أن نزل الخطيب عن المنبر ، حتى وقف السيد رئيس المؤتمر وطلب التكبير إعجاباً بتحقيق الخطيب ، فكبر الحاضرون ثلاثاً)

ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران

آ(٥٣) « وما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارةٌ بالسوءِ ، إلَّا ما رَحِمَ رَبِّي ، إنَّ رَبِّي غفورٌ رحيمٌ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والخمسون فقامت الآنسة خديجة اللدية وقالت :

استمرت « زليخا » في كلامها قائلة : ومع ذلك يا حضرة « المحقق » (وما أبرىء نفسي) من الخيانة ، فإني قد خنت يوسف حين قرفته ، وقلت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ واني انحرفت عن طريق الفضيلة ، ففقدت السعادة والاغتباط في معيشتي .

ثم أرادت الاعتذار عما كان منها بقولها : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف الذي هو نقي الجيب ، صحيح العرض ، (إن ربي غفور رحيم) وعفا الله عما مضى . هذا لفظها الذي دق وشف ، وقد استعجلت في طلب المغفرة والرحمة ، مع أن يوسف لا يزال بساعيها في سجنه ؛ وما أظلم الجنس اللطيف إذا قلت إنه طلب لم يصبر على التريث في الإجابة، حتى عند الطلب من السماء، ـ وجملة الاستغفار والاسترحام جملة خبرية لفظاً ، إنشائية معنى – إذ تقول : (إن ربي غفور رحيم) يتغمد الذنوب ، ويصفح عن العيوب ، وإني ممن يرجو مغفرته ورحمته ، فلست فيما حاولت من الخطيئة بأولى النساء ولا واحدتهن ، وليست رحمة الله إذا شملتني بأول رحمة شملت الخاطئات . قال الشاعر :

يا نفسي لا تقنطي من زلة عظمت ... إن الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربي حين يقسمها ... تأتي على حسب العصيان في القسم

وبعبارة ثانية يمكن أن نقول :

(وما أبرىء نفسي) ولا أكذب الله ، ولا أخلّص نفسي من الخيانة ، عن كل ما فعلت مع يوسف من مراودتي أنا إياه ، ولا من تغليق الأبواب، ولا من قولي « هيت لك » ، ولا همي بالايقاع به ، ولا من لحاقي له حين أراد أن يفر بشرفه ، ولا من تلويثي شرفه بنسبته لإرادة السوء ، ولا من تشويقي لسيدي أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً ، وأخيراً : وما أبرىء نفسي من كيدي له

له مطلقاً ، فالآن أعتذر إلى الله وإليه مما كان ، (إن النفس لأمارة بالسوء) ، بحسب سليقتها وغريزتها ، وبمقتضى دينها وعادتها ، فكل ما عملته ناشىء عن شعور نفساني ، لا عن خواطر عقلية ، لأني أعتقد أن كل ما صدر مني ، هو مما ينهى عنه العقل ، وإن أمرت به النفس فهو خدعة من خدعها ، ونزعة طائشة من نزعات الشباب ، هذه جلية الواقع ، قد كشفت عنها القناع، برأى ومسمع حضرة « المحقق » المحترم ، وحضرات أترابي السيدات ، وسواء عليّ أشُكرت على هذا « الاعتراف » أم انتقدتُ ، فأنا اليوم لا يهمني سوى براءة هـذا العبد الطاهر ، بمقتضى ما أوحاه إلي الضمير الحر ، ولا خير في حياة يحياها المرء بغير ضمير ،ولا خير في ضمير لا يخدم به الإنسان صديقه المظلوم! وهكذا لم تأل زليخة جهداً في تبرئة ساحة يوسف ، ونزاهة جنابه ، عن كل وصمة تعاب بها الشبيبة ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوز والظفر.

(وما أبرىء نفسي ، إن النفس .. الخ)

– ١ –

وقام سيدي جعفر الجيزاوي[١] يلقي خطاب السيدة زينب الجغبوبية[٢] بالنيابة عنها فقال :

ليس من لزوم إلى الاستفاضة في شرح مقررات وتراكيب هـذه الآية الكريمة ، فإن هذا البحث قد قام به من سبقنا أحسن قيام ، وإنما غرضي الآن أن أذكر بعض ملحوظات لها علاقتها بهذه الآية بل والآيتين قبلها وإليك البيان

إطلاق لفظة «ما» على العاقل وغيره إذا أريد بها الصفة

الملحوظة الأولى ـ قول« ما » في قوله « ما رحم » ، ذهاب إلى الصفة ،

---

(١) نسبة الى الجيزة في مصر . (٢) نسبة الى جغبوب من بلاد السودان .

أي « المرحوم » ، ومتى أُريد بها الصفة ، أطلقت على العاقل وغيره ، ومن أمثلته : (لا أعبُدُ ما تعبُدونَ ، ولا أنتم عابِدونَ ، ما أعبُدُ) (١٠٩ ، ٢ و ٣) فلفظ « ما » في هذه الآية ، أريد به الصفة : أي « المعبود » ، أو يقال : إن امرأة العزيز تتكلم في الإناث من العقلاء يجري مجرى غير العقلاء ، ويحتمل الوجهين قوله تعالى : ﴿فانكِحوا ما طاب لكم من النساءِ﴾ (٤ : ٣) وقوله : ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ (٤ : ٣) ، الا ترى أنه قد جاءت «من» عند إرادة الذكور من العقلاء ؟ كقوله : ﴿لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أمر اللهِ إلا مَنْ رحِمَ﴾ (١١ : ٤٣) ، وقوله : ﴿ولا يزالونَ مختلفينَ إلا مَنْ رَحِم ربُّك﴾ (١١ : ١١٩) وقوله : ﴿يومَ لا يُغني مَولىً عن مولى شيئاً ، ولا هم يُنْصَرونَ ، إلا مَنْ رَحِم الله﴾ (٤٤ : ٤١) .

فضائل الرحمة ومزاياها

الملحوظة الثانية – قوله : ﴿إلا ما رحم ربك﴾ ، فرحمة الله ، تبعد النفس عن أمرها بالسوء ، كما أنها تقرب للإنسان العصمة : ﴿لاعاصِمَ اليومَ من أمر الله إلا مَنْ رحمَ﴾ (١١ : ٤٣) ، وتنفي عن الناس الاختلاف : ﴿ولا يزالون مختلفين إلا مَنْ رحمَ ربّك﴾ (١١ : ١١٩) ، وتمنع العذاب يوم القيامة عن الإنسان : ﴿يومَ لا يُغني مولىً عن مولىً شيئاً ، ولا هم ينصرون ، إلا من رحِمَ اللهُ﴾ (٤٤ : ٤١) ، ﴿قل إني أخافُ إنْ عصَيْتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ ، مَنْ يُصْرَفْ عنه يومئذٍ فقد رَحِمَهُ ، وذلك الفوز المبينُ﴾ (٦ : ١٥ و ١٦) ، ﴿ومَنْ تقِ السيئات – أي عقوباتها – يومئذٍ ، فقد رَحِمْتَهُ ، وذلك هو الفوزُ العظيم﴾ (٤٠ : ٩) إلى غير ذلك من فضائل الرحمة ومزاياها .

رحمة الله الخاصة ورحمته العامة

الملحوظة الثالثة – تعليقاً على قوله : ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ فباعتباره « غفوراً » نرجو أن يكون قد غفر الله لامرأة العزيز ، إذ هي اعترفت وندمت، وغالباً عزمت على عدم العود ، وباعتباره « رحيماً » لم يوح ليوسف بقصاصها وعقابها ، هذا من جهة رحمته الخاصة بها ، وأما من جهة رحمته العامة ، فإنه تعالى أنزلها عن سمو درجتها ورفع عن رأسها التاج ، بإنزال سيدها « العزيز » عن منصة الحكم ، هذه هي الرحمة الخليقة بتربية أخلاق الأمة ، وهذا هو الحنوّ الإلهي الذي يخفف من إجرام المجرمين ، وأما الرحمة التي هي مجرد عفو عن الظلمة أو القتلة أو السراق مثلاً ، فما هي إلا تكثير للظلم أو سفك الدماء ، أو السرقة ، لأنها تولد الميل لارتكاب أمثال هذه الجرائم .

إننا وإن كنا نشعر بحزن عميق ، من أجل المجرم الذي يعاقب من جراء جرمه ، إلا أنه يجب علينا أن نعاقبه لنمنع الآخرين ولنمنعه هو أيضاً من العودة وإنه لمن أفظع الأعمال أن ندير له الخد الآخر ، وإن ذلك لمريع جداً لأنه يشجع الشريرين على السير في تيار جرائمهم ، (هكذا رأيته في كلام لحضرة اللورد هدلي المسلم الإنكليزي رحمه الله تعالى) .

أقوال في توبة زليخا

الملحوظة الرابعة - (قيل إن « زليخا » اضطرت للاعتراف اضطراراً ، حيث رأت أن النسوة قد شهدت فيه شهادة طيبة ورأت أن مليك مصر أحبه، وأراد أن يقربه من لدنه فهي ليست مخلصة في هذه التوبة) وفي هذا القول نظر ، فإن العبرة بالظاهر ، وهي ظاهراً قد تابت وحسنت توبتها ، وقد ثبت في الصحيحين عن « أسامة بن زيد » رضي الله عنه أنه قال : (بعثنا رسول ﷺ في

سرية ، فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلاً فعلوته بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فطعنته فقتلته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال : أقتلته بعد ما قال لا إله الله ؟ - قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح قال: أفـــلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً من السلاح أم لا؟ - فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم) .

نهاية سيرة العزيز وامرأته

الملحوظة الخامسة - آخر كلمة تكلم بهـــا « عزيز مصر » هي قوله : ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ (ع ٢٩)،وآخر كلمة تكلمت بها امرأته ، قولها : ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ، فكأنها امتثلت إرشاد سيدها لها بالتوبة والاستغفار ، لكن بعد حين ، وبعد حوادث وعواصف ، وإلى هنـا انتهى تاريخ « العزيز وامرأته » وطُويت صحيفة ذكرهما ، وتداعى مجدهما ، كما يتداعى بيت أقيم من الورق ، أو قصر بني على الرمال ، وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وبسبب هذه الحوادث ، قد خسر « العزيز وامرأته » خسارة عظيمة مادياً وأدبياً ، فأما خسارة العزيز المادية ، فبنزوله عن وظيفته ، وأما خسارته الأدبية فبتساهله بالجمع بين امرأته وفتاه ، ثم تساهله في مجازاة امرأتـــه ، بعد ظهور خيانتها ، وأما خسارة « زليخا » المادية فبنزول تاج وظيفة سيدهـا عن رأسها . وأما خسارتها الأدبية فبما حفظ عليها التاريخ ، من سقوطها في محـاولة الشهوة البدنية ، وهكذا شأن كل ظالم مستبد ، خارج عن قوانين شريعة الأدب فإن الله تعالى يمهل ، ولا يهمل ، وما ربك بظلام للعبيد .

العار دائم والسبة خالدة

الملحوظة السادسة - كانت « امرأة العزيز » بما فعلت سابقاً ، كتبت

لنفسها بيدها صحيفة سوداء ، في تاريخ حياتها، ولكنها اليوم بما أقرت واعترفت وبما ندمت واستغفرت ، قد شذبت من تلك الجريمة شيئاً أو كل الشيء ، ثم هي إذا كانت قد تابت إلى الله توبة خالصة ، فلا ريب أن الله يتوب عليها ويغفر لها فلا يؤاخذها يوم الدين ، ولكن على كل حـــال فالعار دائم والسُّبة خالدة ، فليعتبر بذلك المعتبرون والمعتبرات ، فيأخذوا لأنفسهم كل أنواع الحذر والحيطة .

زليخا تعد مجرمة عزماً وليست مجرمة فعلاً

الملحوظة السابعة ـ لم نر في تاريخ الإناث الشقيات ، أخف شقاء من هذه « المرأة » لأنها اعترفت أخيراً أمام مندوب الملك ، وصرحت بجلية الواقع ، وذادت عن غريمها . وانتصرت له على نفسها ، وأعلنت ندمها وتوبتها، وطمعت في غفران الله ورحمته ،وقليل جداً من الشقيات من يصدر عنهن كل هذا .

ثاب لهذه المرأة رشدها ، وحاولت الرجوع إلى ربها ، والتوبة من ذنبها، ولا ريب أنها كانت مخلصة ـ ولا نخالها إلا كذلك ـ فإن الله يتوب عليهـــا ، ويفتح أمامها أبواب السماء ، كما هي مفتوحة للقاتلين والجاحدين متى تابوا ، لا سيما أنها أرادت السوء فقط ، ولم تساعدها الأحوال على حصولها على ما أرادت ، فهي مجرمة « عزماً » غير مجرمة « فعلاً ومباشرة » فجرمها أخف من جرم من سقطت بالفعل ، كما أن جرم من تسقط فعلاً وهي مستترة ، أهون من جرم من تكون في المواخير ، تقف نفسها في سبيل الفحشاء على وجه القحة والمجاهرة .

هذه « المرأة » لا هي شريفة ، بحيث تعد من السيدات الشريفات ، ولا هي متينة القلب غير حساسة ، حتى تعد من النساء الساقطات ، بل هي في منزلة بين المنزلتين ، لأن كل ما صدر منها إنما هو « المراودة » ثم إنها أخيراً تابت وثابت فوجدت أمامها رباً غفوراً رحيماً .

بهذا الاعتراف المقرون بالتوبة والندم ، نعلم أنه قد وجد في هذه « المرأة »

التي تعد نصف ساقطة ، فضيلة من فضائل النفس ومزاياها ، لا توجد إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل من فضليات النساء ، فقد ضحت بشرفها في سبيل الدفاع عن يوسف • ولعمر الحق إن هذا النوع من التضحية ، لهو نادر الوجود في هذا العالم ، المتمدين الحاضر ، الذي يعد نفسه من عالم النور .

مؤثرات الحب في النفس والأخلاق

الملحوظة الثامنة – الحب يخفف الغضب ، ويذلل الأسود ، ويستأسد الجبابرة ، وهو الذي يبعث إلى الشفقة والحنو ، فإذا رأيت إنساناً في خلقه جفاء وخشونة ، فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد ، نعم إن حب «امرأة العزيز» ليوسف ، لم يكن خالصاً من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير ، لا سيما وأنه لم يفسد بفعل الفاحشة ، فالحب وإن ظهر في النفس مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم ، فسببه واحد وهو الجمال الجاذب، ونتيجته واحدة وهي تلطيف الطبع ورقة القلب ، وهذا ما حمل « زليخا » على أن نسمع منها هذا «الاعتراف» الذيهو من قبيل رد القول،وعلى أنيصدر منها هذا« الندم » الذي هو من قبيل ما يسمى ردّ الفعل ، فحبذا هذه العبقرية التي يسجلها لها « التاريخ » بمداد الإعجاب .

نعم . نعم . قلنا ولا نزال نقول : إن هذا النوع من التعقـــل والخضوع والإنابة الذي صدر من امرأة العزيز ، هو شأن كل من عرف الحب وشعر به ، لأن الحب يدمث الأخلاق ويلطف الطباع ، وله الأثر البليغ في تهذيب العقول وترويض النفوس ، وهو أبو الشفقة وشقيق الحنان ، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً ، لأن الذي لا يُحب لا يرحم ولا يشفق ، ولا يكون فيه شيء من عواطف

المحبين ، فلذلك استقام طبع « زليخا » وتحولت مجاري أفكارها وبدأت تطري يوسف وتقرظه بما هو أهله .

زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها

الملحوظة التاسعةـ إن « زليخا » ههنا باعترافها سهلت على يوسف الخروج من سجنه شريفاً ، ومهدت له الجرأة أن يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، ولولا ذلك لقامت دون خروج يوسف من سجنه الحوائل ، ولتعرقلت مساعيه فيما رغب ، إذ كان يمكنها أن ترفض « العلامة » التي أقامها « الشاهد من أهلها » قرينة على أنها هي المراودة بأن تقول : إنما جذبته من خلفه لأمسكه فأضربه ، لأنه لما راودني غضبت عليه فهرب ، كما يمكنها أن ترد تزكية النسوة له بأنهن كنّ لما رأينه عشقنه حتى غبن عن إحساسهن وقطعن أيديهن ،فتزكيتهن له معلولة ، كما يمكنها أن تقول : « لو شهدن - أي النسوة - عليها بأنها أقرت واعترفت بمراودته وأنه استعصم بطعنها في شهادتهن لأنهن حسدنها عليه » ،فمع إمكان كل ذلك لها لم تفعل ، بل أحجمت عن كل ما ذكر ، بل أقرت واعترفت بأن الجرم إنما كان من جانبها ، وزيادة على ذلك أثنت عليه ثناءً حسناً، فصدق عليها أنها أحيت يوسف مع تمكنها من إماتته إن لم يكن جسمانياً فمعنوياً .

صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الأوساط

الملحوظة العاشرة ـ لا ندحة من أنه كان لجواب هؤلاء النسوة - لاسيما امرأة العزيز ـ صداه العظيم في قصور أميرات مصر ، وفي بلاط الملك ، حتى رنت له صَوْعَنْ ، رنة استغراب واندهاش ، مع الإعجاب الشديد بيوسف وطهارته .

(وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة ...) الخ

-٢-

وقالت السيدة لطيفة الكشميرية[١] :

عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامرأته

إلى هنا انتهت سلسلة ذكريات « امرأة العزيز » و « العزيز » ، وطويت صحيفتها ، وأتى الدهر على جميع ما كان لهما من ترف ونعيم وجاهونفوذ وذكر جميل ، ولم يبق لهما من ذلك كله إلا تلك السيرة التي تتلى في مدارس اليهود والنصارى والمسلمين ، في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، في حلقات الوعظ ، في المحاريب والنوادي والحفلات ، وفي البيوت ، حتى في مراسح التمثيل ودور السينما، فلتعتبر السيدات والآنسات ، وليحافظن على عفتهن ، التي هي كل ما يملكن من شرف وافتخار ، وليعتبر الأمراء والوجهاء وليحتفظوا من الوقوع في مثل هذه الأشراك ، التي تجر عليهم العار والشنار ، فإن هذه السيدة ما سُجلت في بطون الكتب الدينية إلا للعبرة والذكرى .

إلى هنا ينتهي ذكر زليخا وفوطيفار ، ولم يعد لهما ذكر في كتاب الله تعالى ، وأصبح ذكرهما أثراً بعد عين ، أثراً من الآثار الدارسة ، التي يهديها التاريخ الغابر للتاريخ الحاضر ، ولم يبق إلا ذكر يوسف ، فكأن سعادة يوسف وأهله بُنيت على أنقاض شقاء فوطيفار وأهله ، وهكذا شأن الدنيا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إلى هنا يتم القول فيتلك الفتنة التي أضرمت زليخا نارها ، وتم تاريخ عزيز مصر وآذن نجم سعده بالأفول ، ولقد صدق من قال : ما يبنيه الرجل من

---

(١) نسبة الى كشمير من بلاد الهند .

الآمال في سنة ، تهدمه المرأة في يوم واحد ، ولو كان تاريخ النساء مسطراً ، لصح أن يدعى تاريخ العالم بأسره ، لأن النساء أصل كل ثورة في الممالك أو في الأسر ، وقد قيل : « المرأة سر غامض ، منها يولد الرجل ، وبها يحيى ، وبها يموت » .

هذا وإن في كتاب الله تعالى ، في سورة النساء ، اللاتي هذه المرأة « زليخا » منهن ، ثمان آيات ، هي خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، رضي الله عنهما :

الآية الأولى والثانية والثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ يريدُ اللهُ ليُبَيِّنَ لكم ، ويَهْديَكم سُنَنَ الذينَ مِنْ قَبلِكم ، ويتوب عليكم ، واللهُ عليم حكيمٌ ، واللهُ يريدُ أن يتوبَ عليكم ، ويريدُ الذين يَتَّبِعونَ الشَّهواتِ أنْ تميلوا ميلاً عظيماً ، يريدُ اللهُ أنْ يخَفِّفَ عنكم ، وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً ﴾ (٤ : ٢٥ – ٢٧) .

والآية الرابعة – قوله تعالى : ﴿ إنْ تجْتَنِبوا كبائرَ ما تُنْهَونَ عنهُ ، نُكَفِّرْ عنكم سيئاتكم ، ونُدْخِلْكم مُدْخَلاً كريماً ﴾ (٤ : ٣٠) .

والآية الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يظلِمُ مِثقالَ ذرةٍ ، وإنْ تَكُ حسنةً يُضاعِفْها ، ويؤتِ مِن لَدُنه أجراً عظيماً ﴾ (٤ : ٣٩) .

والآية السادسة – قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يعمَلْ سوءاً أو يَظلِمْ نفسَهُ ، ثم يَستغفِرِ اللهَ ، يجِد اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

والآية السابعة – قوله تعالى : ﴿إنَّ اللهَ لا يَغفرُ أنْ يُشركَ به ، ويَغفرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ ﴾ (٤ : ١١٥) .

والآية الثامنة وهي الأخيرة – قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورُسُلِه

ولم يُفرِّقوا بينَ أحَدٍ منهم ، أولئكَ سوفَ يُؤتيهم أجورَهُم ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٥١) .

إلى هنا يتم خطاب الاعتراف ، الذي صدر من زليخا ، وقد قيل إنه كان لتلك المرأة عذر في مراودتها ليوسف، وذلك أن زوجها كان « خصياً » ، ورُدّ بأن هذا القول مأخوذ من تعبير سفر التكوين عنه : « بخَصِيّ فرعون »ولكن هذا الأخذ غلط ، لأن لفظ « خَصِيّ » لا يراد به أصل معناه ، بل يراد به من يكون « ناظراً في الحرم »، لأن الذين كانوا يستخدمون في الحرم ، جرت العادة أن يكونوا خصياناً ، ولهذا ترجمت في بعض الترجمات غير العربية « برئيس الحرم » هكذا قاله بعض شراح سفر التكوين ؛ وقيل إن زوجها فوطيفار كان دميماً ، فلما رأت يوسف ، ظهر لها بالمقابلة قبحه أكثر وأكثر .

إن اعتراف زليخا ، بجلية الواقع ، بعد أن أنكرت قبلاً تمام الإنكار ، وانقلابها الخطير من مهاجمة إلى مدافعة ، ومن ظالمة إلى عادلة ، ومن كاذبة إلى صادقة ، كان كله بحسب النواميس الطبيعية ، وبحسب الظاهر ، وأما العامل الحقيقي في تغيير فكر زليخا وعدم ثباتها على الكيد ليوسف ، هي ورفيقاتها النسوة المصريات ، هو الله تعالى مقلب القلوب ومصرف الأمور ، تحقيقاً لسابق قوله تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ (آ : ٣٤) .

ختمت امرأة العزيز اعترافها بأن ربها غفور رحيم ، إيذاناً بطمعها فيهما قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفُسهِم ، لا تقنطوا من رحمةِ اللهِ ، إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفورُ الرحيم ﴾ (٣٩ : ٦٣) وقوله تعالى : ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ﴾ (٧ : ١٥٥) ، والمغفرة من الغفر وهو الستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه ، لا ينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن

بأن لا يبقى له أثر في النفس ، لا ظاهر ولا خفي ، وبناء على هذا ، فالعفو أبلغ من المغفرة ، وإنما عبرت امرأة العزيز بالمغفرة دون العفو مع أنه أبلغ ، لأنها لم تطمع فيه فقط ، وربما يقال : إن الفرق بينهما لغوي ، وأما النتيجة فهي واحدة .

(مرحى)

وعند هذا الحد يختم الفصل الأخير من رواية هذه المرأة وزوجها فـلا يذكران أبداً ، وكأنهما ما كانا :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

الباب الرابع

الفصل الأول

من ظلمة السجن إلى نور الحرية أو خروج يوسف من السجن بريئاً

آ (٥٤) (وقالَ الملِكُ : « ائتُوني بهِ أَسْتَخلِصْهُ لِنَفْسِي » . فلما كَلَّمَهُ ، قالَ : « إنَّكَ اليومَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمينٌ ») .

افتُتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والخمسون، فقام الجان عبد السلام التتري[1] وقال :

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتنّ إلاّ خالي البالِ
ما بين رمشة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حالِ

لندع أيها السادة امرأة العزيز والنسوة المصريات لغير أجل، فإن قصصهم قد انقضى ، ولنعد ليوسف الصديق وخروجه من السجن ، فالآن ستنتهي سلسلة آلامه ، ويبتدىء أن يدخل في دور جديد .

لقد تقدم أن « الرسول » أجرى التحقيقات اللازمة وما هي إلا جولة في هذا المعترك السري ، حتى عاد من بعدها متأبطاً في حقيبته نتيجة التحقيق ، أو أنه حكى شفاهياً ما رأى وسمع في غرفة « الاستنطاق » من وقت دخوله فيها إلى وقت خروجه منها ، ولا تسل عن سرور الملك ، وشدة محبته ليوسف ، غبّما بُلـّغ نتيجة التحقيق ، (و) لذلك (قال الملك) الريان ، والاهتمام ظاهر

(١) نسبة الى قوم التتر وهم أصول الاتراك القدماء .

في كلامه ، ممزوجاً (بالشوق (ائتوني به) سراعاً،لأنني أتصور أن هذا الشخص هو المرساة المتينة التي تمنع سفينةمصر أن يجرفها تيار الجدب والقحط(أستخلصه لنفسي) وأستخصه وأصطنعه لشخصي ، وأصطفيه ، وأنتخبه لذاتي ، وأزلفه إليّ ، بحيث أرجع إليه في تدبير مملكتي ، وأعمل على إشارته في مهمات أموري ، يكون عندي كمستشار أو ناموس ؛ فذهب الرسول إلى يوسف ، وأنبأه بقوله : « لقد جرت التحقيقات السرية ، حسبما رغبت ، فكانت النتيجة براءة ساحتك من كل وصمة ، فالسيدات نساء الأمراء قد شهدن فيك بالطهارة ، بل إن نفس « امرأة العزيز » قامت كمدافع عنك ، واعترفت بأن المراودة كانت منها فقط ، وإنك صادق ، وهي المبطلة ، ودافعت عنك دفاعاً مجيداً ، ولم تأل جهداً في بيان طهارتك وعفتك،وعليه « فالملك الريان » يكرر طلبك،ويأمر بشخوصك إليه ، فلما سمع يوسف ذلك قال : « الحمد لإيلي ، والشكر لإلوهي،غب الصباح يحمد القوم السُرى » ثم خرج من السجن ، بعدما ودع رفاقه فيه ، ومع أنهم سرّوا بالإفراج عن صديقهم الصديق، فقد أحسوا في أنفسهم بشيءأقلق راحتهم لا يدرون ما هو ؛ وقد فاتهم أنه سهم مفارقة يوسف لهم ، الذي كان في السجن تعزية لهم ، فما هي إلا جولة أو جولتان حتى وصل إلى حيث يجلس الملك فدخل عليه ، وقال له : أبيت اللعن أيها الملك ، (فلما) وقف بين يديه ، رآه فلمس قلبُه قلبَه ، و (كلمه) يوسف ، فعجب الملك من فصاحته وقال : حقاً إن في الزوايا خبايا ، حقاً إن الرجال تحت طيّ لسانهم ، لا تحت طيلسانهم ، حقاً إن الحديث أدل على الرجل من لباسه ، حقاً إن يوسف هذا هو ملء الأذن ، كما هو ملء العين، وعند ذلكقال له الملك بلسان الوعد والتطمين: لله أبوك ! ، (إنك) عندنا يا أخا العبرانيين (مكين) ذو مكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل شيء، أو آمن من كل ما ترهب ما بقيتُ وبقيتَ ، فأنت المضطرب الخائف سابقاً ، والثابت الآمن لاحقاً ، أنت الذليل المتهم بدءاً ، :ذو المكانة والمأمون أخيراً ،

أنت العظم واللحم ، ونحن الجُنة والرداء ، ويحتمل أنّ معناه مكين في ملكي أمين على تدبيره .

(وقال الملك ائتوني به . . الخ)

— ١ —

وقال الأستاذ عبد الغفار الجركسي :

طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المندوب من التحقيق

كان نمي للملك تأويل يوسف لرؤياه ، كما علمت ، فرآه من أهـل الفضل والحنكة والسياسة ، ثم ظهرت له من نتيجة التحقيقات براءته ، ورأى أنه يوجد بينهما صلة وثيقة ، وهي الاتحاد في الوطن الأسيوي ولذلك ، ولكون الملك الريان آسيوياً أولاً ، وملكاً على مصر ثانياً ، قال : إن هذا السجين كريم الشيمة ، مرضي الأخلاق ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وأجعل له في مجلسي المقام الأول فقد يلوح لي أن هذا الفتى فيه روح ، روح الأمانة ، روح الحكمة ، روح الاقتصاد روح الفهم ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وعلى باقي النبلاء السـلام ، أسرعوا بالفيئة إليه ، فلم يبق معي أكثر من صبر ساعة ، وان لهذا اليوم ما بعده — هذا كلام « الريان » وهذه مساعيه الجميلة ليوسف ، فهو مع كونه وثنياً ، أحب يوسف وأخرجه من سجنه ، ولكن اخوته اجتووه ، وفي غيابة الجب قذفوه ، ولقـد صدق من قال : « اذا ضيمك الأقرب ، أُتيح لك الأبعد » .

فـآب إليه « الرسول » وأنبأه بما كان من أمر براءته ووقعه من نفس الملك الموقع الأول ، وحبه له حباً لا ينقصه الا الموت ، ثم أراده عـــلى الخروج من السجن بأمر الملك الريان ، فعندئذ آنس يوسف أنه لا مانع من خروجه ؛ وأنه قد استحصل على البراءة تماماً ؛ وعلى حسن السمعة وطيب السيرة ؛ وأن الملك

قد وثق به وأحبه ؛ فأبرقت أسارير وجهه ؛ فقام وقال للسجناء : أستودعكم الله ، ثم خرج من السجن باسم بريء ، بعد أن كان دخله باسم متهم ، فحضر بين يدي الملك ، وعمل له « الريان » حفلة تكريم ، جمع له فيها الوزراء وجميع كبراء البلاط، وعزاه بما أتى عليه سابقاً ، وطمأنه وهنأه بما سيلاقيه من الحفاوة فشرع يوسف يكلم الملك ، فنال حظوة في عينيه ، وتبادل معه الحديث، وأحبه أكثر من ذي قبل ، واحتفى به بنوع خاص ، واقتص منه تأويل رؤياه ، لكي يسمعه منه بأذنيه ، قائلا له : أعد عليّ تعبير الرؤيا كله . ولا تدع منه حرفاً إلا جئت به ، فجعل يوسف ينثر كلامه والملك مصغ إليه ، ولم يمض فواق ، حتى عرف الملك تأويل حلميه ، فدهش منه أيما اندهاش وأنشد :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه   فلما التقينا صغر الخَبَرَ الخُبْرُ

وقال له عند ذلك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ومن معلقة زهير ابن أبي سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب   زيادته أو نقصه في التكلمِ
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدمِ

(وقال الملك ائتوني به ... الخ)

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الاله اليماني مستأذناً رئيس المؤتمر في بيان ما يراه من فوائد في هذه الآية الكريمة وبعد أن أذن له قال :

عدد جيئات الرسول السجين

(١) — جملة جيئات الرسول « نبو » للسجن أربع مرات ، فالمرة الأولى كان متهماً بجريرة المؤامرة على الملك ، والمرة الثانية لما ذهب إلى يوسف ليستفتيه

عن رؤيا الملك ، والمرتان الأخيرتان لأجل إخراجه من السجن إلى الملك ، فافهم .

دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه إياه لنفسه

(٢) - أصبح يوسف كأنه جبل مغناطيسي ، وأصبح قلب الملك كأنه قطعة حديدية تحاول أن تنفصل من جسم الملك وتترامى لجهة يوسف ، فلما أحس الملك بهذا التداعي المدهش، قال ائتوني به .. الخ وبعبارة أخرى : وقف الملك على صحة براءة يوسف وعفته ، فازداد شعوراً بالانعطاف إليه ، وردد في ذاكرته ما آنسه فيه قبلاً من الذكاء والفهم حين أوّل رؤياه ، فناداه ضميره باستخلاصه لنفسه ، فلبى نداء الضمير ، وقال : السَبْقَ السَبْقَ ؛ والسَرَعَ السَرَعَ ، صيروا إليه وأسرعوا الكرة ، وائتوني به أستخلصه لنفسي . فإني إذا مُنيت به ، قويَ ساعدي ، واشتد عضدي .

ثم تعبير يوسف سابقاً رؤيا الملك ، وتدبيره الذي ذكره للخروج من ذلك المأزق الحرج ، ثم ظهور الظلم الفادح في سجنه ، وأنه بريء مما نسب إليه ، مع ظهور أنه ساميّ فلسطينيّ ، وليس من الأمة المصرية ، كل ذلك ترك أثراً قوياً في نفس الملك ، حببه فيه حباً جماً ، فرغب في استخلاصه لنفسه .

هندام يوسف حينما استعد لمقابلة الملك

(٣) - لما أراد يوسف الخروج من السجن ؛ حلق وأبدل ثيابه (تك ٤١ : ١٤) وإنما حلق لأن المصريين ما كانوا يطلقون فروعهم ولحاهم إلا في أوقات الحزن ، وكان حلق الرأس عادة في كهان الفرس ، خلافاً للفلسطينيين يومئذ ، فقد كانوا يعدون اللحى زينة الرجولية ، وشوهد على الآثار المصرية الأسرى والأدنياء مصورين بلحى[1] ، ولذلك كان يوسف في السجن طويل الفرع

---

(١) كما قاله هيرودتس .

واللحية ، رمزاً لحزنه ، أو تقليداً لأهله ، فلما دعي إلى المثول في حضرة مليك مصر حلقهما ، لأن حزنه زال ، ولأن المصريين يكرهون فرع الرأس واللحية..

إكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريبه منه

(٤) – سمع الملك الريان كلام يوسف فوقع في نفسه وأكبره ، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة ، تختلف صورتها عن صورة الأسمال الحقيرة الـتي عليه ، وأنه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يسجن بضعة أيام ، فضلاً عن بضع سنين..

وقد جرت عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة أنهم يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحلاهم، ثم بأسمائهم وأنسابهم وما يحملون من رتب وأوسمة، فإذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم ، ونرى ملك مصر ههنا إنما قدر يوسف وأجلّه بما رزقه الله من مواهبه السامية ، وأفكاره الثاقبة ، كما قال أفلاطون، لجليس له :

« تكلم لأعرفك » ، فلذلك ولما كلمه يوسف قال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » .

عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك

(٥) – كان يوسف عليه السلام لما وقف بين يدي الملك ابن ثلاثين سنة ، ولكن يوسف لا يعتبر من تلك الأعوام الطوال التي عاشها في ذلك العالم المنكود سوى (١٧) سنة ، وهي السنون التي مضت عليه وهو في حضن والده .

تفاهم يوسف مع الملك في اللغة

(٦) – كلم يوسف الريان ، وكانا يتفاهمان تماماً ، لأن لغة الريان عمليقية

وهي قريبة جداً من العربية ، أو هي عربية ، ومعلوم أن العربية والعبرانية متقاربتان، وكذلك كان يوسف يتفاهم مع القبط المصريين الأصليين ، لأن القبطية قريبة أيضاً للغته ، والحاصل إن اللغة المصرية القبطية واللغة العبرانية واللغة العمليقية واللغة السريانية واللغة المديانية ، قريب بعضها لبعض ، فكأنها من أمهات مختلفة لأب واحد ، ولذلك كان بإمكان الجميع متى اجتمعوا أن يتفاهموا.

دعاء يوسف لأهل السجن الذي كان فيه

(٧ً) ـ قيل إن يوسف دعا لأهل السجن حين خروجه منه ، فقال : (اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ، ولا تعم عنهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالحوادث والواقعات) وقيل كتب على باب السجن : (هذه منازل الابتلاء ، وقبور الأحياء ، وشماتة الأعداء ، وتجربة الأصدقاء) .

العبرة من هذه الآية و ما بعدها

(٨ً) ـ هذه الآية والاثنتان بعدها تعلم الإنسان عدم الحسد، لأنه بقراءتها يعلم أنه يوجد في التاريخ من كان عبداً أشتري بثمن بخس ثم ترقى إلى درجة عالية في دار الحكومة ، حتى صار من الوزراء العظام .

يوسف وزير مالية

آ (٥٥) « قالَ اجعَلْني على خزائِنِ الأرضِ ، إنّي حفيظٌ عليمٌ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والخمسون فقام السيد عبد القهار الألباني[١] وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الملك الريان : يا ذا الجلالة (اجعلني) ولّني (على خزائن الأرض) حاصلات الأرض المصرية عموماً المخزونة في حقول القرى والمدن والحصون (إني حفيظ) أحفظ ما تستحفظنيه (عليم) عالم بوجوه التصرف بها .

ونرى هنا أن يوسف قد وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، فقال له الملك : « أنت لها ، أنت لها ، قد فعلت » فأوقف يوسف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمة مصر والمصريين ، بل ، وما إليها مما جاورها من فلسطين وغيرها .

(اجعلني على خزائن الأرض ... الخ)

- ١ -

وقال السيد الحضرمي[٢] :

مؤهلات يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر

آنس يوسف من نفسه النشاط والذكاء وعلوّ الهمة ما يؤهله لإدارة وزارة مالية مصر ، فاقتحم هذه الطلبة ، ولسان حاله يقول :

ذريني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهلُ في السهل

(١) نسبة الى بلاد الألبان الاسلامية .
(٢) نسبة الى حضرموت احدى مقاطعات جنوب الجزيرة العربية .

تريدين إدراك المعـــالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحــلِ

أو يقول :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها　سبباً إلى آمـــاله ومعلقا

أو يقول :

أين فضلي إذا قنعت من الد　هر بعيش معجـــل التنكيدِ
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم　بين طعن القنـــا وخفق البنود

وهو عليه السلام وإن لم تسبق له خدمة في الحكومة وإدارة شؤون ماليتها إلا أنه كان على مذهب من يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم　وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظم في عين الصغير صغارها　وتصغر في عـين العظيم العظائمُ

على أن الله عز شأنه قال في شأنه: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً﴾ (ع ٢٢) وليس بعد هذا بيان لمستبين .

فلذلك قال للملك الريان : (يا صاحب الجلالة ، عيني عـــلى حاصلات أرضك أرض البلاد المصرية عموماً ، التي تختزن الحاصلات والغلال في حقولهـا ومزارعها وحصونها – وكانت تلك الحاصلات عبارة عن القمح والشعير والذرة الصفراء والبرسيم والكروم والتين والزيتون والجميز والقصب والبلح والتمر وما أشبه ذلك من غلات مصر « كما يعلم ذلك من التواريخ القديمة » – ثم أردف يوسف قائلا: إني خُلقت اقتصادياً وعشت اقتصادياً ، ودم العلم والخبرة جار في عروقي وملكة المعرفة سارية في جوارحي ، حفيظ للأموال ممن لا يستحقها ، حفيظ لها في خزائنها ، خبير بالوجوه التي يمكن تحصيل الدخل والمـــال منها ، خبير

بالجهات التي تصلح لأن يُصرف المال إليها ، عليم بمصالح الناس وبمواقع حاجاتهم ، عليم بوجوه التصرف دخلاً وخرجاً ، وهذا هو سلاحي الذي أتسلح به وهذه هي حليتي التي أتحلى بها ، وهذه هي وسيلتي التي أتوسل بها إلى مليك الديار المصرية ، ليس لي سلاح ولا حيلة ولا وسيلة بعد الله تعالى سوى الخبرة والحفظ والأمانة. هذا ولا نشك بأن الريان قال له : (ذلك الظن بك أيها العبراني الاقتصادي الحيسوب القدير) ، ثم التفت إلى وزرائه وقال لهم : (هل نجد رجلاً ينهض بالعمل في بلاطنا ويستقل به استقلالاً أحسن من هذا الفتى ، هل نرى إنساناً أجرأ للعمل وأمضى من هذا الإنسان ؟ ... كلا ...) ثم أمر فجعله كما طلب في مهرجان عظيم ، وقد هاج المصريون وماجوا من هذا الموكب الذي عُمل لأجله ، وكان هذا الحادث يعد من الحوادث التاريخية الباهرة في تاريخ يوسف ، وبهذه الحادثة يكون انتهاء فصل المأساة التاريخية ، وبدء لعصر جديد . ونتعلم من هذا الذي حكاه الله تعالى عن (الريان) – وهو وثني – أن ننظر عند إسناد الوظائف للكفاءات ، لأنه إذا كانت الحكومة الوثنية – حكومة مصر – قد جرت على هذه الطريقة المثلى ، فأولى أن تجري على ذلك الحكومات ذات الأديان السماوية .

لقد ادّعى يوسف دعواه السالفة الذكر وأتى من العمل بما يصدقها وحفظه له التاريخ ، إذ قام بما أصاره إليه الريان مليك مصر من الأمر ، أحسن قيام وأتى بكل ما عصبه به ، وعول عليه فيه ، فكان هماماً أحوذياً ماهراً ، لا يفوته شيء ، ولا يعجزه أمر ، مشمراً للأعمال يسوقها أحسن مساق ، لا يشذ منها عنه شيء ما .

ونتعلم من كلام وفعل يوسف عليه السلام ، أنه ينبغي للعاقل – إن كان عاقلاً – أن يسعى في طلب الدنيا ، ليعيش بشرف وغنىً عن الناس ، ولا يتكل على ما تأتي به الأيام ، ورحم الله من قال :

لعمرك إن المال قد جعل الفتى نسيباً وإن الفقر بالحر قد يزري

وقال آخر :

ولا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمنَ قل مجده

وفي الحديث الشريف : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل) .

(اجعلني على خزائن الأرض .. الخ)

- ٢ -

وقال الاقتصادي الكبير الأستاذ الدمشقي :

عمل يوسف في سني الخصب والجدب في مصر

لقد طلب يوسف عليه السلام أن يكون جابياً للحاصلات في سني الخصب السبع وخازناً لها ، ثم بائعاً لتلك الحاصلات في سني الجدب السبع الأخيرة .

ويظهر أن هذه الوظيفة التي هي عبارة عن الجباية فالخزن فالبيع وظيفة جديدة لم تكن من قبل ، لأنه لم يكن لها داع ، وقد جاء في سفر التكوين وشرحه أنه يظن أن أهل مصر كانوا يعطون الملك ، عشر الغلال ،ولكن يوسف أشار على الملك أن يأخذ خمس الحاصلات ، وكان إعطاؤهم للملك ضعفي ما كان يأخذه سابقاً ، ليس ثقيلاً عليهم في سني الخصب ، لكثرة غلالها كثرة لم تعهد ، ويرجح أنهم علموا ما كان من حلم الملك ، فكان ذلك مما خفف عليهم دفع الخمس .

وقد جمع يوسف (ع) جميع الفضة التي في أرض مصر ، وفي أرض كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها وأدخلها بيت ملك مصر ، فيوسف لم يكتف بأن تلافى مضار المجاعة بل عني كرجل خبير بالسياسة والاقتصاد ، أن يقوي سلطة مولاه ويزيد غنى دولته ، بإدخال فضة الأهلين خزائن الملك ، ثم بتمليكه ماشيتهم ، إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام ((إذا كانت فضتكم قد نفذت فهاتوا

ماشيتكم ، أبعكم بها ، فجاؤوا يوسف بماشيتهم فأعطاهم طعاماً بالخيل والماشية من الغنم والبقر وبالحمير ، ثم إن المصريين عادوا في السنة الثانية إلى يوسف يشكون إليه سوء مصيرهم ، لأنه لم يبق بين يديه إلا أبدانهم وأراضيهم ، ويسألونه أن يشتريهم وأراضيهم للملك ، فاشترى يوسف جميع أراضي المصريين للملك ، لأنهم باعوا كل واحد حقله ، فصارت الأرض للملك ، إلا أن أرض كهنتهم لم يشترها لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاقاً من قبل الملك يأكلونها، ولذلك لم يبيعوا أراضيهم (كذا في التوراة وشروحها والله أعلم بصحة ذلك) .

(إني حفيظ عليم)

- ٣ -

وقال الأديب العدني [١] :

الشدائد علمت يوسف إدارة شؤون مصر المالية والاقتصادية

كان يوسف ذاق نكبة المنكوبين ، وجرب ذل الأعزاء ، واختبر مهانة الأشراف ، وعالج مرارة العيش، وشاهد بؤس البؤساء—وسمع أنين أهل البلواء.

ذاق نكبة المنكوبين ، حين أُلقي في (غيابة الجب) وجرب ذل الأعزاء حين جلس في « سوق الرقيق » ليباع لمن يرغب فيه ، واختبر بنفسه مهانة الأشراف ، حين كان عبداً في بيت « فوطيفار » ، وعالج مرارة العيش ، حين اعتُقل في « السجن » كمجرم ، وهناك شاهد بؤس البؤساء وسمع أنين أهل البلواء.

كان يوسف (ع) مرّ بجميع الطبقات ، وخالط جميع الناس ، خالط (طبعاً) إخوته ، فرأى حسد القريب للقريب، خالط « السيارة» فعرف كيف يكون تعدي القوي على الضعيف ، خالط الزنوج في سوق الرقيق ، فأدرك شدة

(١) نسبة الى عدن احدى مدن الجنوب العربي .

السادة على العبيد ، خالط « الكبراء » في بيت العزيز ، فجرب ظلم الأميرة والأمير ، خالط « المعتقلين » ، فشاهد كم فيه من مُظلَّمين ، وسمع أنات المتألمين وزفرات المتوجعين .

تصور كل ما جرى عليه فيا مضى ، ثم تصور كل ما سيجري على الناس المصريين ، في سنيّ القحط فيما يأتي ، فخاف أن يغدروا كما غدر ويهانوا كما أهين ، ويصب من فوقهم الظلم كما صب فوقه ، فأحب أن يتولى شؤونهم المستقبلة بنفسه ، وأن يكون هو القائم بخدمتهم ، ليعطي كل ذي حق حقه ، ويقوم بواجب العدل والإنصاف ، ولتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم ، فلذلك اقترح على الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

لله درّ الألم ما أنفعه ! لله درّ البؤس ما أنجعه ! فالألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين المجتمع الإنساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه .

لم يرد يوسف أن يعيش عيشة فردية ، لا يخدم بائساً ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثي لأمة ، ولا يبكي على وطن ، لم يرد يوسف أن يكون كبعض هؤلاء النفر من العلماء الذين لا يشتركون في شأن من الشؤون العامة ، ولا يعنيهم ما داموا راضين عن أنفسهم ، مغتبطين بحظوظهم ، قابضين رواتبهم ، أسَقَطت على الأرض السماء ، أم غرقت الدهماء في الدأماء !!

لم يرد يوسف أن يعيش دنيئاً قميئاً لأن هذا من سفاله الهمة ، بل أراد أن يعيش عظيم الهمة ، وعظم الهمة هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور وطلب المراتب السامية ، كما أراد يوسف عليه السلام .

هذا ما ينبغي أن يكتب في هذا المقام ، وما يليق أن يقوله القائلون، وما

يناسب أن يسمعه السامعون ، وإن لم يقع موقع الاستحسان من أشياخ الكسل، وأساتذة العجز وأئمة التثاؤب والتململ ، الذين يحتقرون نعمة العقل والقوة ، بتعطيلها عن العمل ، وربما كان الواحد منهم في نفسه أطمع من « أشعب » تذهب نفسه حسرات على « الذهب » ، لو استطاع أن يهدم بيتاً ، ليربح حجراً لفعل، يُظهر الزهد ، وهو أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

إن الرجل ذا النبل والمروءة يكون خامل الذكر ، فتأبى نفسه إلا أن تشب وترتفع كالشعلة من النار يضرمها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً ، فلذلك اشرأبت نفس يوسف عليه ، للرفعة ، والجد ، لكي يقوم بخدمة مصلحة عمومية ، وفي ضمنها مصلحته الشخصية ، لأن حب الذات فطرة في الناس ، لا يمكن أن يخلو منها أحد ، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ لم يقل أحد ما أن الأنبياء معصومون من ذلك .

خرج يوسف من سجنه ، فطلب الجلوس على أريكة « وزارة المالية » فاستحق بذلك قول أبي فراس الحمداني :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ

طموح الإنسان إلى الرياسة ، من ملك ووزارة وقيادة جيش ونحوها ، هو لا شك مما يبعث على التنافس ، وبذل المستطاع في سبيل الوصول إليها ، وهو أمر حسن ، قال ﷺ : (لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا ، فإذا تساووا هلكوا) ، معناه أنهم إنما يتساوون إذا رضوا بالنقص ، وتركوا التنافس في طلت الفضائل ودرك المعالي (ابن الأثير في نهايته) .

(قال اجعلني على خزائن الأرض ...) الخ

-٤-

وقال الأستاذ الزبيدي(١) :

عزيز مصر وخديويها

نتعلم من هذا القول أن يوسف عليه السلام كان « وزير مالية » ثم نتعلم من تسمية إخوته له « بالعزيز » إذ قالوا له في سفرتهم الثالثة : ﴿يا أيها العزيز﴾ أنه كان « عزيزاً لمصر » ، وعزيز مصر بحسب اصطلاح المصريين القديم والحديث هو حاكمها الكبير ، والمتصرف العظيم فيها ، بعد مليكها الأكبر ، وفرعونها الأعظم ، فليس فوق « عزيز مصر » سوى الملك فرعون ، ووظيفة عزيز مصر هي النظر في جميع أمورها بلا استثناء ، فهو المرجع في كل حادث مهم لجميع المصريين ، ويكون في حكومة هذا العزيز وزراء ، ورئيس وزارة ويكون كأمير مطلق اليد ضمن الشروط المشروطة له ، وفي دائرة الحدود المحدودة ، ويكون تحت نفوذ مليكها الأعلى ، الذي إذا أراد عزْله عزَله ، وعين له خلفاً ، وعلى هذا الاصطلاح المصري القديم جرى الاصطلاح الجديد ، منذ عهد مؤسس العائلة الخديوية « محمد علي باشا » لأواخر الحرب العالمية ، فقد كانت مصر « أيالة » من أيالات الدولة العثمانية ، وكان ملكها هو الخليفة العثماني ، الذي كان يدعى له على منابرها، وكان « الخديوي فيها يسمى «عزيز مصر» وللخديوي حكومة مؤلفة من وزراء ورئيس وزارة .

إذا تقرر هذا نجم عنه سؤال صورته : كيف يكون يوسف في وقت واحد « وزير مالية » بحكم قول الكتاب العزيز ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ (ع ٥٥) و « عزيزاً لمصر » بحكم قوله أيضاً : أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ﴾

(١) نسبة الى زبيدة بلدة في الحجاز .

(ع ٨٨) ، وجوابنا عنه من وجهين ، الأول يحتمل أنه صار أولاً وزير مالية ثم ترقى فصار عزيزاً لمصر مع احتفاظه بوزارة المال ، كما كان آخر خديوي بمصر وهو « عباس حلمي الثاني» عزيزاً لمصر وناظر أوقافها في آن واحد ويحتمل أنه كان من يحمل على (خزائن الأرض) يكون (بالطبع) هو « عزيز مصر » فتأملوه عسى أن تنفذوا ببصيرتكم لأحسن منه والسلام عليكم .

(اجعلني على خزائن الأرض ...)

—٥—

وقال ميرزا حسين الكاشاني [١] :

نظير حادثة يوسف في التاريخ

تقدم أن يوسف عليه السلام ، استسلم « للسيارة » وسلّم بأن يذهب معهم لمصر ، بدون أدنى مقاومة ، وأن من مهونات هذا الاستسلام ومسهلاته ، بل من دواعيه وبواعثه ، خوف يوسف على نفسه من إخوته « بني العلاّت » لو حاول الرجوع لأبيه ، وبناء عليه فهو قد بقي صابراً يفترص الفرص ، حتى سنحت له ، هذه الحادثة النادرة المثيل ، وهي وقوفه أمام مليك مصر محفوفاً بمحبة منه له هي نادرة المثال ، فتعرض لهذه النفحة . وطلب أن يكون من أهل البلاط ، وما هي إلا لفتة الجيد ، حتى صار وزير مالية مصر العام ، فقام بهذا المنصب أحسن قيام ، وأسس لنفسه ولأهله مجداً بمصر ،له عزه وجلاله .

ولعمري إن هذه الحادثة تشبه من بعض وجوهها حادثة « عبد الرحمن الداخل) الأموي الذي فرّ من وجه بني عمه العباسيين ، إلى الغرب خوفاً من قتلهم إياه ، ولحق بالأندلس ، وأسس ملكاً ودولة مستقلاً بهما عن بني العباس

(١) نسبة الي بلدة كاشان في ايران .

وإذا كان « المنصور » العباسي قد لقب « عبد الرحمن » هذا « بصقر قريش » فما أحق « بيوسف » أن يلقب « بصقر إسرائيل » ؟! وههنـــا (والشيء بالشيء يذكر) تذكرت حكاية رأيتها في بعض التواريخ وهي مشهورة وخلاصتها أن « عبد الرحمن الداخل » هذا دخل ذات يوم وهو صبي على جده « هشام » وعنده أخوه « مَسْلَمَة » ، وكان مسلمة شديد الفِراسة ، بعيد النظر ، فأمر «هشام» أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : (دعه يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بني أمية ، ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيراً) ، قال عبد الرحمن : (فلم أزل أعرف من جدي مزية من ذلك الوقت) فهذه البشارة من مسلمة لعبد الرحمن تشبه بشرى « يعقوب » لولده « يوسف » حينما قال له : ﴿وكذلك يجتبيك ربك ..الخ﴾ سواء أكان كلام يعقوب لابنه من قبيل الفراسة ، أو مبنياً عـلى الوحي السماوي ، فهذا وجه ثان من وجوه المشابهة بين عبد الرحمن الداخـــل ويوسف عليه السلام ، وإليك وجهاً ثالثاً ، وهو أني رأيت في بعض الدفاتر قصيدة تصف عبد الرحمن الداخل فكان منها :

دبَّر ملكاً وشاد عزاً		ومنـــبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى		ومصر المصر حين أخـــلا
ثم دعا أهـــله إليه		حيث انتأوا أن هلم أهـــلا
فجاء هذا طريـد جوع		شديد روع يخـــاف قتلا
فنال أمناً ونال شبعـــاً		ونال مـــالاً ونال أهـــلا

وغني عن البيان أن انطباق هذه الأبيات على يوسف حيث دبر الملك وشاد العز وجند الجند ومصر الأمصار ودعا أهله إليه أجمعين .

(وقال اجعلني على خزائن الأرض ... الخ)

– ٦ –

وقال السيد العماني :

الدين الإسلامي والسعي في الدنيا

السعي في الدنيا وطرق الشرف والمجد ، هو من تعاليم الأديان الحقة ...، المطابقة لروح المدنية الحقيقية ...، وفي مقدمة هذه الأديان « الإسلام » نعم إن دين الإسلام هو دين علم وعمل ، دين جهاد ونشاط ، دين روحي ومادي معاً، وبعبارة أخرى دين إيجابي ، بعكس بعض الأديان الأخرى ، كالدين الهندوسي مثلا ، الذي هو سلبي محض ، يأمر بإنكار الذات التام ، ويحض على الابتعاد عن كل ما في هذه الدنيا من رزق ومتاع وأسباب شرف ومجد ، بحيث أن من أراد العمل بأوامر ذلك الدين – بالحرف الواحد – لزمه ترك الدنيا والتنسك في صومعة ؛ ولكن دين الإسلام يمكننا العمل بأوامره تماماً ، دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم ، وما فيه مباح اللذة والتمتع بكل ما تحت الكلمة من أكل وشرب ولباس وأساس ورياش ومجد وشرف .

وأما تعليم الزهد والرهبانية وترك الدنيا ، فإنما هو من الزوائد التي أدخلها بعض رجال الدين من العجم ، ومن متمشيخة العرب الذين لم يفقهوا حقيقة الدين فأدخلوا عليها ما ليس فيه فمسخوه مسخاً ، وشوهوه تشويهاً ، وأما الطريقة التي كان عليه الفاروق الأكبر ، رضي الله عنه ، فإنما هي حالة نفسية ، رضيها لنفسه بنفسه ، وألزم فيها نفسه ، ولم يلزم بها غيره ، ومع ذلك فهو رضي الله عنه إنما زهد في الملبس والمأكل ، ولكنه فيما يتعلق بالمجد والشرف وبعد الصيت ، فقد وصل لغاية لا غاية بعدها ، بحيث قهر كسرى فارس ، وقيصر الروم . ووضع

رجله فوق رؤوس كل العتاة المتجبرين ، وهو الذي كان إذا رأى رجلا جالساً في المسجد بعد أداء الفريضة يضربه بالدرة ، ليخرج لماطاة أسباب المعاش ، وكان يقول : (إني ليعجبني الرجل ، حتى إذا علمت أنه ليس له عمل سقط من عيني) .

إذا كان الإنسان خُلق قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته ، فإنه عليه أن لا يَنيَ في ذلك ، لأن به ترتبط رفاهيته وراحته ، وإذا كان ينبغي للقادر على الشغل أن يحمل الفأس ويقطع بها الصخور ، أو يقلب بها الأرض - أفلا ينبغي لمن فيه أهلية للوظيفة أن يرشح نفسه لها ، ليقوم بواجبات نفسه وأهل وطنه ؟ وإذا كان الله يقول : ﴿وسَخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ (٤٥ : ١٢) فهل يجوز أن ينكر على يوسف الصديق أن يتطلب بعض منافع ما في الأرض ؟ ... حاشا ...

وهل من العبث تسمية الله تعالى المال خيراً في قوله تعالى :

﴿ إنْ تركَ خيراً الوَصيةُ ﴾ (٢ : ١٨٠) وقوله : ﴿ وإنه لحبّ الخيرِ لشَديدٌ ﴾ (١٠٠ : ٨) ؟..

وأما قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقتُ الجنّ والإنسَ إلا ليَعْبُدون ﴾ (٥١ : ٥٦) فالعبادة هي طاعة الله في كل ما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، والله يقول : ﴿ولا تَنْسَ نصيبَكَ مِنَ الدُّنيا﴾ (٢٨:٧٧) ، ويقول : ﴿ فانتَشِروا في الأرض وابْتَغُوا مِنْ فضلِ الله ﴾ (٦٢ : ٩) ، ويقول : ﴿ هو الذي جعلَ لكم الأرض ذَلولاً ، فامشوا في مناكِبها ، وكلوا مِنْ رِزْقِه وإليه النشُور ﴾ (٦٧: ١٥) والإنسان مكلف أن يعمل بكل أوامر الله تعالى ، سواء كانت أوامر دنيوية ، أو أوامر أخروية ، ذلك لأجل خدمة الجسم والروح ، وكل من اتبع شيقاً من ذلك وترك شقاً ، يكون محشوراً في زمرة الذين يبكّتون بقول الله : ﴿ أتؤْمِنونَ ببَعْضِ الكتابِ وتَكفُرون ببعض ؟ ﴾ (٢ : ٨٥) .

أحسنت

(قال اجعلني على خزائن الأرض ... الخ)

-٧-

وقال العلامة الدمشقي الصالحاني [١] :

دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال

لم يزل بعض علماء الدين يتشددون في الدين ويتنطمون ، ويقتطمون من هضبته الشماء صخوراً صماء ، يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة ، حتى صيروه عبئاً ثقيلا ، على كواهل الناس وعواتقهم ، فملّه الكثير منهم وبرموا به ، ولو أن علماء الدين لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنياهم .

هذا « داود » نبي الله عليه الصلاة السلام ، كان ملكاً ، وامتنّ الله عليه بذلك ، حيث يقول له : ﴿ يا داودُ إنّا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٣٨ : ٢٦) خلفاً عن « شاول » ، فهل يمتن الله عليه بشيء لا قيمة له ، أو شيء يزهد هو فيه ولا يأبه له ؟ .. حاشا ..

وهذا ابنه « سليمان » نبي الله ، عليه الصلاة والسلام ، كان ملكاً ، حتى أنه قال : ﴿ وهَبْ لي مُلكاً ، لا ينبغي لِأحَدٍ مِنْ بعدي ﴾ (٣٨ : ٣٥) أي لا يتطلبه غيري من العائلة المالكه ، ولا ينازعني فيه ، من بعد جلوسي على كرسيه ، كما جربت من أخي « أدونيا » فيما مضى ، فهذا الطلب ، وطلب يوسف ، يخرجان من مشكاة واحدة ، فهل كان سليمان أقلّ تقوى من هؤلاء المتعالمين المداجين ، الذين يقولون للناس في دروسهم ووعظهم ما لا يفعلون فيما

(١) نسبة الى حي الصالحية في دمشق .

بينهم وبين أنفسهم وفي داخل بيوتهم ؟... حاشا ...

وهذا « أبو بكر الصديق » وبعده « عمر الفاروق » تقبّلا الخلافة ، وربما كان لهما في الحصول عليها نصيب من السعي ، فهل كان هؤلاء المتشددون المتنطعون أكثر من الشيخين زهداً وورعاً ؟ ... حاشا ...

وهذا « عثمان ذو النورين » و « علي المرتضى » و « الحسين » و « محمد صاحب النفس الزكية » و « زيد بن علي » رضي الله عنهم أجمعين ، قُتلوا في سبيل المحافظة على الخلافة ، فهل أولئك المعترضون – على طلب يوسف الدجالون أكثر منهم تقوى وإخلاصاً وزهداً ؟.. حاشا ...

أليس أن الدنيا مطية المؤمن ؟.. أليس أن الدنيا مزرعة للآخرة ؟... ألم يقل الكتاب : ﴿ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا ؟ ﴾ (٢٨ : ٧٧) ألم يرد « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ؟.. »

لعمرك إنا لنأسف أنه مع ترقي العقول وتنور الأذهان في هذه العصور المستنيرة ، لم يزل جماعة من المتشددين عَبَدَة الأزياء يُغالون في الدين بدون أن يتفهموه ويحيطوا به علماً ، ويقفوا على حِكَمه ومراميه ، ويأبون على الناس إلا أن يجحدوا معهم حيث جحدوا ، وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويقيمون المناحات السوداء على كل عالم يريد أن يجمع بين أطراف الدين ونصوصه ، في مواضيع المعاش والمعاد ، حتى ملّهم الناس ، وملّوا الدين منهم ، فتمردوا عليهم ، وخلعوا طاعتهم ، وطلبوا ، لأنفسهم الحرية الدينية المطلقة ، فسقطوا في هوة الضلال ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ودينها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق المستنير ، من العلماء الواقفين على حكمة التشريع والفضلاء الذين أدركوا كنه الدين ، وهم ما بين مؤلف يكتب للأمة الرسائل الدينية ، التي توافق روح القرآن والسنة وطريقة السلف ، وما بين خطيب يخطب لهم الخطب المنبرية التي تحثهم على النظر لآخرتهم ، بالعين الواحدة ، ولدنياهم

بالعين الأخرى ، وما بين مدرس يوقفهم في دروسهم على الحقائق الراهنة من الدين وينهض بهمتهم إلى معالي الأمور ، ولولا هؤلاء ، لبقي الدين في أيدي الجاحدين، فمات أو غلب عليه الجهل فاختفى .

يميناً لو نشر اليوم أبو بكر وعمر الفاروق وعلي المرتضى وعمر بن عبدالعزيز وأحمد بن حنبل والحسن ، وأشباههم ، لما كان لهم بد من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ، فترى منهم صاحب المعمل الصناعي ، وصاحب المستودع التجاري ، وصاحب المستعمرة الزراعية ، والأمير السياسي ، والحاكم الشرعي والملك المهيمن ، ووزير المالية ، وناظر العدلية ، وشيخ الإسلام ، ووزير الحربية والبحرية ، وقائد الجيوش ، ووزير المعارف والأوقاف ، كما نرى منهم زعيم قوافل التجارة البرية والبحرية والجوية ، ومدير الشرطة، وآمر الضبط والربط، حتى يستتب الأمن العام في الأمة .

فإن هم لم يريدوا أن يكونوا كذلك ، رأوا أن من الواجب عليهم أن يعودوا الى مراقدهم من حيث جاؤوا .

إن الكثيرين من أسلافنا لم يكونوا بالصورة التي يصورها لنا بعض الواعظين ، بل كانوا في رغد من العيش ، فقد أثبت لنا التاريخ أنه في أيام خلافة عمر بن الخطاب كان يُدفع من الرواتب لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ كل سنة اثنا عشر ألف درهم (فرنك) ، وللعباس رضي الله عنه كذلك، ولكل من الحسن والحسين خمسة آلاف درهم (فرنك) [1] ، فهل كان أصحاب هذه الرواتب أقلّ زهداً من المتشددين من أهل اليوم ؟.. حاشا ..

وجد عند خازن « عثمان » رضي الله عنه لماله الخاص بعد استشهاده دنانير ودراهم تساوي (٥٧٥,٠٠٠) جنيهاً، ووجدت قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما ما يساوي (٥٠٠,٠٠٠) جنيهاً ، وذلك بعد وفاته سنة ٣٥هـ[2].

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي . (٢) تاريخ التمدن الاسلامي .

أنا لا ألوم على الأخذ بطرف من الدين ، وترك الطرف الآخر - الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم ، فأظلمت دروس وعظهم ، وظلمة الدرس أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يعرفوا الديانة الإسلامية ، ولم يمارسوا حِكَمَها ولم يتشبعوا بروح نصوصها ، ولا الوعاظ القاصين الذين لم يقفوا من الدين المحمدي إلا على بعض قشوره القاتلة لروحه ، فهؤلاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم العلماء الحقيقيين ، العارفين ، الذين عرفوا الدين ، واطّلعوا على حِكمه ، وفهموا مرامي نصوصه ، ومغازي شِرعته ، وأنقم منهم عدولهم عن بيان ذلك للناس ، وأنعى عليهم نقص القادرين على التمام .

يجب على العالَم الإسلامي أن لا يألو جهداً في الحصول على أسباب الثروة ، فلا دين إلا بِمُلك ، ولا مُلْك إلا برجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالسعي والجد والنشاط ، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

حكى المؤرخون أن بعض الشعراء مدح « المأمون » فكان من قوله :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدنيا ، والناس بالدنيا مشاغيلُ

فلم يتحرك له ، لأنه ما زاد على أن جعله عجوزاً في محرابها ، في يدها مسبحتها ، ولذلك قالوا ، أحسن منه قول بعضهم :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولا عبرة بتزهد بعض المشايخ الكسالى ، وربما كانوا كاذبين في زهادتهم ، فإن أكثر ما نرى من الزهاد ، إنما يتجلى لنا زهدهم في ألبستهم أو ألسنتهم ، أو الغرف التي يستقبلون فيها زائريهم ، فهذه هي مظاهر زهدهم ، ولو أتيح لنا أن نطلع على داخل بيوتهم ، وما فيها من أثاث ورياش ، أو لو بحث عن حال نسائهم وكم في خزائنهن من أنواع الألبسة المزركشة وكم في صناديقهن من ضروب الحلي والجواهر ، لرأينا أمراً عجباً ، يدهش الأبصار ، ويأخذ القلوب !!!

(وقال اجعلني على خزائن الأرض ... الخ)

- ٨ -

وقال الهمام البحراني(١) :

حكم طلب يوسف في الدين الإسلامي والتصوف في الإسلام

هذا الطلب – طلب يوسف – هو من روح الدين الإسلامي ، يوم كان الدين ديناً والإسلام إسلاماً ، إذ لم يكن فيه شيء مما يسمونه قطع العلائق مع الناس ، وزهداً في الحياة الدنيا ، لأن هذا بعيد عن روح الدين الإسلامي ، إذ الإسلام دين فتح ورفعة ، دين عز وشرف ، دين نشاط وعمل ، دين سعي وجد دين ابتغاء من فضل الله بالتجارة والصناعة والزراعة ونحوها ، وقد قال تعالى : ﴿ وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سوفَ يُرى ، ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الأوفَى ﴾ (٥٣ : ٣٩ – ٤١) وهل هذا لا ينافي ما يسمونه « تصوفاً » إذ التصوف بالمعنى الصحيح ، هو طهارة الباطن وحب الخير ، وبغض الشر وما إلى ذلك ، مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، وهو بهذا المعنى يرجع في جوهره إلى روح الإسلام ، وأما «التصوف» بالمعنى المشهور عند الجمهور فليس هو ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، إنما هو مزيج من عدة مذاهب ، هندية وفارسية ويونانية ويهودية ، قال الدكتور « وليم ادي» الأميركاني في شرحه على الإنجيل : (قد كان في اليهود جماعة « الأسينيين » كانوا بين اليهود بمثابة الباطنيين أو المتصوفين « مارسوا التطهيرات اليهودية ، واعتنقوا الفلسفة اليونانية وكثيراً ما اعتبروا التقشفات الجسدية ، وتجنبوا مخالطة الناس) ، فهذه التعاليم المزيجة ، نُقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها حسابه من القواعد والأصول . وحقيقة الإسلام أنه

(١) نسبة الى قطر البحرين أحد الامارات العربية على الخليج العربي .

يُعِدّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، وأن التصوف بالمعنى المشهور عند الهنود واليونان والفرس – يلبس أصحابه أرواح العبيد ، وإلا فلماذا ساد المسلمون وأفلحوا في الحياة يوم كانت مبادىء الإسلام الخالصة رائدهم ، وتعاليمه البريئة هاديهم ؟ ولماذا فقدوا مكانتهم ، وأضاعوا عزهم ومجدهم وضلوا في الحياة سواء السبيل ، حتى صاروا طعمة سائغة لكل طاعم ، ونهبة هنيئة لكل ناهب ، يوم شابوا تلك المبادىء السامية بشوائب التصوف ، وخلطوها بتعاليم المتصوفين.

دين الإسلام ، الذي هو دين إبراهيم وأولاده إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف - هو دين السعادتين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، دين يقوم في هدايته : ﴿ ولا تَنسَ نصيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ويقول : ﴿ رَبْنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً ﴾ (٧ : ٢٠١) ويقول : ﴿هو الذي جَعلَ لكم الأرضَ ذلولاً ، فامشُوا في مناكبِها ، وكلوا من رزقِهِ ، وإليه النشورُ ﴾ (٦٧ : ١٥) ويقول : ﴿لعلكم تتَفكّرون في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ : ٢١٩) ويقول : ﴿ ليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تبتَغوا فضلاً مِنْ ربكم ﴾ (٢ : ١٩٨) أي في مواسم الحج كما قاله ابن عباس ، ويقول : ﴿ فإذا قَضَيْتم الصلاةَ فانتَشِروا في الأرض ، وابتغوا مِنْ فضلِ الله ﴾ (٦٢ : ١٠) أي بالتجارة والسعي كما رووه عن ابن عباس ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) ويقول ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غني) ويقول ﷺ : (يعمل بيده ، فينفع نفسه ويتصدق) ويقول ﷺ : (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره ، خيراً له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه) ويقول ﷺ : (كان أصحاب رسول الله عُمال أنفسهم) ويقول ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو القائم الليلَ الصائمِ النهارَ) ويقول ﷺ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار

بإصبعيه السبابة والوسطى ، وأخيراً يقول : (في كل ذات كبد رطبة أجر)[١].

وكيف يستطيع الإنسان أن يسعى على الأرملة والمسكين ، ويكفل اليتيم ويتصدق على ذي الكبد الرطبة إذا لم يكن ضارباً في الأرض أو عاملا من عمال الحكومة ،أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً أو محامياً أو طبيباً أو مهندساً أو حائكاً أو نحو ذلك ؟!؟!؟!

دين الإسلام ، الذي هو دين يوسف أيضاً - متصل بشؤون المسلمين الدنيوية ، كما هو متصل بشؤونهم الأخروية .

من هنا كان « الإسلام » دين عقيدة وعبادة وحكم ، دين قضاء وإمامة وجهاد دفاعي ، دين سياسة شرعية ، دين علم وفنون ، دين أعمال أخروية وأعمال دنيوية ، أعمال روحية ، وأعمال جثمانية ، أعمال شخصية ، وأعمال اجتماعية ، دين ضبط وربط ، وأمر ونهي ، وإقامة حدود وتعازير ، دين معاملات مع الخالق ، ومعاملات مع المخلوق ، دين يشمل بتدابيره جميع ما على وجه الأرض ، ويشمل بعقائده ما فوق السموات وتحت الأرضين،دين ينظم شؤون القلوب ،بما فيه من « علم أخلاق »،وينظم شؤون الجوارح،بما فيه من « علم أعمال » ، وينظم الجماعات بما فيه من « علم اجتماع » ، وبالجملة : يعلم الإنسان كل ما يلزم له في دنياه وأخراه ، ويحض على السعادة المالية كما يحض على السعادة المآلية ، و"لأن" يترك الإنسان المال لألد أعدائه بعد مماته ، خير من أن يحتاج لأعز أصدقائه في حياته .

قال الحجاج بن يوسف ، لخزيم الناعم : « ما النعمة ؟ » — قال : « الأمن فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش » - قال له « زدني » — قال « فالصحة ، فإني رأيت المريض لا ينتفع بعيش » - قال له « زدني » — قال : « فالغنى فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش » قال له « زدني » — قال : « فالشباب ، فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش » قال له « زدني » — قال « ما أجد مزيداً ،

(١) هذه الاحاديث الثمانية كلها رواها البخاري في صحيحه .

هذا هو دين الإسلام ، الذي هو دين جميع الأنبياء من لدن آدم إلى فخر الوجود ، عليه وعليهم الصلاة والسلام ، خلافاً لما يوجد عند متصوفة الهندوس، ومتصوفة النصارى ، ومتصوفة الإسلام ، أقول : « متصوفة الإسلام» ولا أعني المتصوفة الحقيقيين لذي ينطبق تصوفهم على الشرع، ولكني أعني جهلتهم فقط.

التزهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية

إن كل من يقرأ في « البشائر الأربع »[1] من التزهيد والبراءة من الدنيا ، ليس هو الشريعة المسيحية ، وإنما هو تتميم لشريعة « الناموس العتيق »[2] وتلطيف لها ، وتشذيب لأطماع اليهود وتكالبهم على الدنيا ، ولذلك روي عن المسيح أنه قال : (إنما جئت لأتمم) ، فالناموس العتيق لم يذكر الآخرة - على ذمة أسفاره المطبوعة - بل اقتصر على ثواب الدنيا ، ولم يذكر ملكوت الأخيار ولا جهنم الأشرار ، بل إنما خوّف الناس ، إذا خالفوا الأوامر بمصائب الدنيا وعاهاتها ، وكذا لم يذكر شيئاً من قواعد الزهد والقناعة والرقائق القلبية ، واللطائف الروحية ، فجاء المسيح ذاكراً لكل ذلك ، ومتمماً لمواضيع التوراة بذكر مقابلها ، وملطفاً لحرص وطمع وشراهة اليهود ، وبذلك كان مجموع « العهدين » - التوراة والإنجيل - كتاباً واحداً ، كما نطق القرآن الكريم (٢ : ١٠٥ و ٤ . ١٣٥ و ٦ : ١٥٦) إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة في القرآن الشريف .

انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية لبس مبنياً على التعاليم الإسلامية

وأخيراً وبالنتيجة ، كل من أبدى ههنا انتقاداً على يوسف الصديق في طلبه وزارة المالية ، فليعلم أن انتقاده ليس مبنياً على التعاليم الإسلامية وسماحتها ،

(١) البشائر الاربع الأناجيل الاربعة متى ولوقا ومرقص ويوحنا .

(٢) الناموس العتيق يعني ناموس الديانة اليهودية .

ولكن على تلك التعاليم المبتدعة ، التي لا يعترف بها القرآن والسنة ولا الإجماع ولا عمل السلف الصالح ، الذين كانوا « عمال أنفسهم » .

كل حرفة مهما كانت منحطة في أعين الناس ، لا يمكن أن تكون أحط من عيشة المتكل على غيره ، فكيف لو كانت خدمة في « البلاط » ؟ ولهذا فإننا نحبذ طلب يوسف من مليك الديار المصرية أن يجعله على خزائن الأرض .

حبذا الطموح الشريف إلى العلا ، حبذا سعي الإنسان في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته العادية ، فيما يعود على هيئة المجتمع بالفائدة .

ليس المانع من اهتمام الشرقي اليوم قناعة في النفس وزهد في الأموال ، ورغبة عن زخارف الدنيا ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لما وجد أحد حاسداً غيره على نعمته ، ولا ناظراً إلى غني نظراً شزراً ، والشرقيون كلهم بين شاك ومشكو من هذه الحال ، فالشرقي إذن طماع كغيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ، ولا ينشط لعمل فيه رزقه ، فهو إذن يحب أن تمطره السماء ذهباً ، وأن تنبت له الأرض فضة ، يحب أن يكون أغنى الناس على شرط أن لا يتعب جسمه ، ولا يجهد فكره .

حب المال ليس مذموماً لذاته ، ولكن لكونه يشغل عن الآخرة ، وكيف يكون مذموماً لذاته ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان ، وهو تعالى ينهى عن الإسراف والتبذير في إنفاقه ، كما ينهى عن البخل به ، وقد امتن على نبيه بأنه وجده عائلا ، أي فقيراً فأغناه ، وجعل المال قوّاماً للأمم ، ومعززاً للدين ، ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه ، ومن أعظم أسباب التقرب إليه تعالى وفي الحديث الشريف : (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي) رواه مسلم في صحيحه ، فليس المال مذموماً لذاته في دين الله ، ولا مبغضاً عنده تعالى على الإطلاق ، كيف وقد شرع لنا الكسب الحلال ، وهدانا إلى حفظ المال

وعدم تضييعه ، وناهيك بآية الدين التي ذكر الله فيها تسع مؤكدات ، وفيها خمسة عشر نهياً وأمراً ، وقد أرشدنا تعالى إلى اختيار الطرق النافعة في إنفاقه ، أن نستعمل عقولنا في تعرفها ، ونوجه إرادتنا إلى العمل بخير ما نعرفه منها ، قال تعالى : ﴿ ولا تُؤتوا السُّفَهاءَ أموالَكُم التي جَعَلَ اللهُ لكم قياماً ﴾ (٤ : ٥) ، أي تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم ، وفي الحديث الشريف : (نِعِمّا المالُ الصالح للمرء الصالح) ، رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح .

فما جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحِكَم ، حتى صرنا أفقر الأمم ؟ وماذا جرى لتلك الأمم التي يقول كتابها الديني : (الحق أقول لكم : إنه يعسر دخول غني إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله) (١٩ : ٢٣ و ٢٤) ويقول : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون) (مت ٦ : ٢٤ و ٢٥) ، ويقول : (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه) (مت ١٠ : ٩ و ١٠) ، ويقول : (تأملوا الغربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يقيتها ، كم أنتم بالحري أفضل من الطيور ؟.. فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا ... بل اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزاد لكم) (لو ١٢ : ٢٢ - ٣١)[١].

فماذا جرى للأمة ذات هذه الأقوال ؟. ماذا جرى لها في دينها ؟ حتى صارت أبرع الخلق في فنون جمع الثروة ، وسادت بالغنى جميع أمم الأرض ؟

---

(١) لو : رمز لانجيل لوقا .

وكيف جاز أن يسمى ما نحن عليه (مدنية إسلامية) مع مخالفتنا للقرآن والحديث في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية ؟ وكيف جاز أن تسمى مدنيتهم (مدنية مسيحية) مع مخالفتها لتعاليم دينها من المبالغة في الزهد وبغض المال ؟

والجواب عن ذلك واضح ، وهو أنهم نبذوا تعاليم كتابهم وأخذاوا بما في كتابنا ، كما أننا بالعكس تركنا تعاليم كتابنا وأخذنا بما في كتابهم ، وقد أثرت علينا تأثيراً سيئاً أقوال الجاهلين ، الذين لبّسوا علينا بلباس الصالحين ، فنفثوا في الأمة سموم المبالغة في التزهيد والاتكال ، والحث على إنفاق كسب الكاسبين عليهم ، وهم كسالى لا يكسبون ؛ لزعمهم أنهم بحب الله مشغولون !!

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما تدر لها ثعل

صار هذا ، حتى صار من المعروف المقرر ، عند جميع شعوب المسلمين ، إدرار المال والرزق على علماء الدين ، وشيوخ الطريق الصالحين، فهم يأكلون مال الأمة بدينهم ، وإن ما ورد في حديث الصحيحين : « اليد العليا خير من اليد السفلى !! » .

هذا ما تيسر لنا في هذه الوقفة والله تعالى أعلم .

(لا فض فوك)

(قال اجعلني على خزائن الأرض ... الخ)

- ٩ -

واختتم البحث في تفسير هذه الآية الشيخ الصنعاني بالتعليقات التالية:

(أولاً ـــ حدود تعاون المسلم مع غير المسلم)

نتعلم من طلب يوسف عليه السلام من الملك الريان الوثني ، أن يجعله على خزائن المملكة المصرية ، ليخدم المصريين ومن جاورهم ، جواز التعاون علىدفع

الشر أو فعل الخير مع غير المسلم ، أي يجوز للمسلم أن يطلب المساعدة من غير المسلم ويجوز للمسلم أن يساعد غير المسلم ، وهل يوجد مجال للخلاف في الاستمانة بالكتابي أو الوثني أو الملحد ، على إنقاذ الغريق وإقامة الحمل في الطريق ؟ كما أنه لا مجال للخلاف في جواز إعانة المسلم لغير المسلم وصلى الله على من قال : (في كل كبد رطبة صدقة) .

(ثانياً ــ خضوع المسلم لغير المسلم)

لا يبيح دين الإسلام للمسلم أن يكون تحت رعاية غير المسلم في غير ضروره، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ والرسولَ وأولي الأمرِ منكم ﴾ (٤ : ٥٨) ، فهذه الآية تفيد أنه لا يجوز لنا الخضوع لغير المسلم ، وقال تعالى: ﴿ ولَنْ يَجْعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً ﴾ (٤ : ١٤٠) ، والمراد كما هو مقتضى الآية وروح سبكها أن الله تعالى لن يجعل من أحكامه الشرعية السماوية ما يبيح للمؤمنين أن يخضعوا لأحكام الكافرين، ويستكينوا لسلطانهم وسيطرتهم فإن تقبلوا أحكامهم ، ورضوا بسلطانهم ، فإنهم إذن هم الذين جعلوا للكافرين سبيلاً على أنفسهم ، خلافاً لشريعة الله تعالى : هـــذا هو الحكم عندنا في دين القرآن وسياسته، ولكنه مقيد بحالة الاختيار، وأما في حالة الاضطرار فهو جائز.

إذا علمت هذا فلعل يوسف الصديق عليه السلام رأى نفسه مضطراً أن يكون تحت سيطرة غير المؤمنين ، لأنه كيفما مكث في مصر ، سواء كواحد من الرعية ، أو على خزائن الأرض ، فهو على كل حال تحت سيطرة مليك مصر الوثني ، ثم لو أراد الرجوع لفلسطين ، فسيكون أيضاً تحت حكومة « أبيمالك» ملك فلسطين الوثني ، وإذا أراد الرحلة لدمشق ، لزم كذلك أن يكون خاضعاً لحاكمها الوثني ، وهكذا الحال في العراق ، بلاد الصابئة ، فيوسف الصديق على كل حال وفي أي بلد لا بد له أن يخضع لحكومة وثنية ، كل الجالسين على كراسيها وثنيون ، لكنه إن تغلب باقتداره أن يكون حائزاً على كرسي فيها يكون قد

خفف شيئاً من وطأة المشركين ، وشغل كرسياً من كراسيها برجل مسلم موحد هذا هو الجواب عن خدمة يوسف عليه السلام لتلك الحكومة الوثنية ، ثم ربما كان هذا جائزاً في شريعة العبرانيين الإبراهيمية ، وكفى بإقدامه على ذلك برهاناً على جوازه ، والله أعلم . (جيد)

(ثالثاً – موالاة المؤمن لغير المؤمن)

لو سأل سائل: كيف يجوز ليوسف المؤمن أن يكون تحت سلطة «الريان» بحيث يكون موالياً له ، وهو وثني ؛ وقد قال تعالى : ﴿ لا يتخذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دونِ المؤمنينَ ، ومَنْ يفعلْ ذلك ، فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ ، إلا أنْ تَتقوا منهم تقاة ﴾ (٣ : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، لا تتخذوا عَدُوّي وعَدُوَّكم أولياء تُلقونَ إليهم بالمودةِ ، وقد كفروا بما جاءَكم مِنَ الحقّ ، يُخرِجون الرسولَ ، وإيّاكم ، أن تُؤمنوا باللهِ ربِّكم ﴾ الخ(٦٠:١) ، فإن هذه الآيات تشترك في النهي عن موالاة الكافرين ، وتدل على أنه لا يجوز للمسلمين أن يتفقوا مع غيرهم ، ولا يوادوهم ولا يوالوهم ، وقال تعالى : ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهم ﴾ (٥٨ : ٢٢) .

فنجيبه عن ذلك : أما عن الآية الأولى ، فإن الاتفاق إذا كان لمصلحة المسلم فهو جائز ؛ فقد كان النبي ﷺ حالف « خزاعة » وهم على شركهم ، كما أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من الطائف لم تمكنه قريش من دخول مكة ، لما علموه من أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ، فأرسل عليه السلام إلى « المطعم بن عدي » يخبره أنه سيدخل مكة في جواره ، فأجابه إلى ذلك ، ودخل مكة في جوار « المطعم » وهو مشرك ، فإذا جاز هذا للنبي ﷺ ، جاز بالأولى ليوسف عليه السلام أن يكون من وزراء « الريان » المشرك ، وعن « قتادة »

هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه ، وإذا علم نبيّ أو عالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ورفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقد صح في الحديث الشريف أن كَعْب بن بُجْرَة (رض) كان يخدم عند يهودي مستقياً كل دلو بتمرة ، وكان ذلك باطلاع النبي ﷺ وإقراره.

وعلى ذلك يكون معنى الآية الأولى . لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء تقدم فيه مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين ، والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين وبعبارة أخرى : هذا (الاتخاذ) لا يحرم إلا إذا كان ضد المؤمنين ، كما قال : (من دون المؤمنين) .

وأما عن الآية الثانية ، فالمحرم إنما هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من حيث هم يهود ونصارى ، أي ولاية دينية ، وأما صحبتهم لأمور دنيوية معاشية ، فلا مانع منها .

وأما عن الآية الثالثة ، فالموادة مشاركة في الأعمال ، فإن كانت في شأن من شؤون الدين ، فيه خذلان له ولأهله ، أو إضاعة لمصالحهم ، فهو حرام ، وليس هذا المعنى موجوداً ههنا ، وأما إن كان في شأن من شؤون التجارة والمناصب وغيرها من المعاملات الدنيوية ، فلا تدخل في ذلك النفي ، لأنها ليست معاملة في محادة الله ورسوله ،وأيضاً فهذه الآية إنما تفيد النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله ، وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفراً حملهم على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم ، لأنهم مؤمنون بالله ، وأما هنا ، فالأمر بالعكس فإن الريان بدلاً من أن يخرج يوسف من مصر ، فقد قربه إليه ، ثم سمح بمجيء أهله جميعاً من فلسطين وسكناهم في مصر في الشرقية .

وحجتنا على صحة هذا التأويل ، ورائدنا في هذا الموضوع ، قوله تعالى .

﴿ عسى اللهُ أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عادَيْتُم منهم مَودّةً ، واللهُ قديرٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ ، لا ينهاكُم اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُم في الدّينِ ، ولم يُخرِجُوكم مِنْ ديارِكم أن تَبرُّوهم وتُقسِطوا إليهم ، إنّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطين ، إنما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتَلوكم في الدين ، وأخرجوكم مِنْ ديارِكم ، وظاهَروا على إخراجِكم أنْ تولَّوْهُم ، ومن يَتَوَلَّهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (٦٠ : ٧ - ٩) فالقرآن الكريم يرجو تجدد المودة بين المؤمنين والمشركين ، ولا ينهى عن البر والقسط إلى المشركين الذين لم يقاتلوا المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ونراه أخيراً يؤكد حصر النهي في الذين حاربوهم حرباً دينية ، وأبعدوهم من ديارهم ، وساعدوا على إبعادهم عنها ، ومع كل ذلك نراه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم ، لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل !! فماذا على يوسف عليه السلام مع اتفاقه مع الريان للمصلحة ؟ وماذا عليه من صحبته له لأمور دنيوية في بره وإقساطه إليه ؟ اللهم إن هذا كله جائز لا حرج فيه .

(رابعاً - ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته)

الفريدة الثانية - إنه لأمر معلوم أن يوسف عليه السلام لم يكن له سابقة خدمة في دار الحكومة ، وإنه لأمر معلوم أن يوسف غريب الدار ليس وطنياً ، وقد كان عبداً مملوكاً عند « فوطيفار » ، وقد اعتقل لاتهامه بجريرة سافلة ، فارتقاؤه لمنصب « وزارة المال » و « عزيزاً » لمصر ، مع هذه الأحوال التي أحاطت به يعد من المدهشات ، وقد يسمون هذا النوع فلتة من فلتات الطبيعة . أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، أو شاذة من شواذ القاعدة ، ولكنا نحن لا نسميه بشيء من هذا القبيل ، بل ندعوه قضاءً وقدراً ، أو نتيجة إرادة سماوية قاهرة ، وقدرة إلهية باهرة ، تغلبان كل الإرادات والقدر ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، إنما أمره لشيء إذا أراده أن يقول له « كن » فيكون ، فالله

الذي أسجد له كواكب السماء ، وأوحى إليه في أحرج الأحوال أنـــه سينبىء اخوته بما فعلوه معه والله الذي سخر له رجال التجارة ليخرجوه من الجب،والله الغالب على أمره ، والله الذي لما بلغ أشده آتاه حكماً وعلماً ، والله الذي خلق له من عدوه « زليخا » وليّاً مزكياً مدافعاً ، والله الذي سخر قلب مليك مصر ، فطلب الإتيان به من سجنه ليستخلصه لنفسه ، هو الذي منّ عليه بهذا المنصب الكبير ، وأقدره أن يديره بأحسن تدبير .

هذا ما ينبغي أن يذكر عند الكلام على هذه الآية ، ويذكر فريق من المفسرين ههنا ما يعد هو وأمثاله من أسباب الجمود في الإسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم الشرقيين .　　(لا فض فوك يا أستاذ)

تمكين يوسف عليه السلام

آ (٥٦) « ... وكذلكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأرض ، يَتَبَوَّأُ منها حَيْثُ يشاءُ ، نُصيبُ بِرَحْمَتِنـــا مَنْ نشاءُ ، ولا نُضيعُ أجرَ المُحْسِنينَ »

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والخمسون فقام الأستاذ السلفي البُريدي[١] وقال :

يقول الله تعالى: في حق يوسف (ع): (وكذلك) أي مثل ذلك التمكين الطاهر (مكنا ليوسف في) جميع (الأرض) التي كانت مستعمره ومملوكة للهكسوس ، من أصل المملكة المصرية ، وذلك هو « الوجه البحري » وجزء

(١) نسبة الى بلدة بريدة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية .

من « الوجه القبلي » إلى منتهى بلاد « الشرقية » ، فيوسف تمكن في هذه الأرض وكان النجاح في أعماله ألصق به من ظله ، وأسرع إليه من الماء إلى منحدره ، وكان هذا التمكين عاماً بحيث (يتبوأ منها) بعد الحبس والضيق والإسار ، أو بعد أن كان لا يتصرف إلا في أرض سيده فوطيفار خاصة (حيث يشاء) ، أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوءاً له لم يمنع منه ، لاستيلائه على جميعها ، ودخولها تحت نفوذه وقهره ، فكان هو الكل في الكل ، وهو الآمر الناهي في كافة مرافق الحياة ، وكان هذا هو عصره الذهبي الذي دام له لآخر حياته ، وعند ذلك نسي فلسطين وإخوته ، (نصيب برحمتنا) بعطائنا في الدنيا من الملك والوزارات والغنى وغير ذلك من النعم (من نشاء) جرياً على سنة تنازع البقاء واختيار الأحسن ، فدائرة رحمتنا مرنة ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، تسع كل خليق بها (ولا نضيع) في الدنيا (أجر المحسنين) كيوسف ، فهو خليق بالأجر العظيم ، فتمكيننا إياه ، وإصابتنا له بهذا النوع من الرحمة الخاصة ، هو بسبب إحسانه السابق ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية ، (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟..) ، فنحن قطعياً لا نضيع أجر أي محسن كان من السابقين الأولين ، واللاحقين الآخرين ، موقفنا واحد ، ووضعيتنا واحدة ، مع يوسف وغيره ، برنامج ثابت لمجازاة كل محسن لا يتبدل ولن يتبدل .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ...)

- ٢ -

وقال الشيخ أحمد من علماء الرياض (١) :

نستخلص من هذه الآية الكريمة الجواهر التالية :

تمكين يوسف الخاص والعام

(١) – كان تمكين يوسف في الأرض ، ينمو شيئاً فشيئاً على حسب

(١) الرياض بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية .

الطبيعة ، فكان أولاً تمكيناً خاصاً ، بزمن محدود وأمكنة محدودة ، وبالوكالة عن « العزيز » وهذا هو المذكور في قوله تعالى سابقاً : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ولكن هذا التمكن عقبه اضطراب وتقلقل عندما حبس يوسف ، فلم يدم ، ثم لم يكن عاماً وواسعاً ، كما أنه لم يكن إلاّ مستعاراً من جاه العزيز ، لان العوام يقولون (نَفَس العبد من نَفَس سيده) وهذا كله بخلاف التمكين الثاني المذكور هنا في هذه الآية ، فإنه تمكين عام مطلق في جميع الازمنة والامكنة وبالاصالة ، فأما عمومه لجميع الامكنة فلقوله تعالى: ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ وأما كونه بالاصالة ، فلأن يوسف صار عزيزاً بمصر ووزير مالية فيها ، عوضاً عن فوطيفار ، وبهذا تعلمون أن لفظ « الارض » مرن كالمطاط يقبل التضييق والتوسعة ، فكلمة « الارض » في سابق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ربما كان معناها أرض عزيز مصر ، وكلمة « الارض » في لاحق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ (ع ٥٦) معناها عموم الارض الداخلة في المملكة الهكسوسية .

تقدير الملوك الأقدمين للناس بحسب مواهبهم

(٣) نتعلم من هذه الآية ، أن الملوك الاقدمين — ومنهم الريان — كانوا يقدرون الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لا بحسب أنسابهم وأموالهم ، وإلا فيوسف عليه السلام لا يزيد في نظرهم أنه عبد لفوطيفار ، اشتراه بدراهم معدودة وأنه فتى غريب غامض النسب ، ليس وطنياً ، وأنه من بلاد تعد في نظرهم بادية ، وأنه ليس له سابقه في خدمة الحكومة ، ولكن رغماً عن ذلك كله ، عين وزير مالية بمصر وعزيزاً لها ووكيلاً عن مليكها .

تزكية انتصار يوسف

(٣) - نحن نعلم أن يوسف عليه السلام بخروجه من السجن كان قد انتصر انتصاراً باهراً ، واليوم جاء جلوسه على كرسي الوزارة تزكية لهذا الانتصار ومتمماً له .

كيف أن أخبار يوسف لم تصل لأبيه

(٤) - إن قال قائل ، أو سأل سائل : لا ريب أن يعقوب عليه السلام كان من الانبياء المشهورين ، وكذلك كان أبوه إسحق ، وجده إبراهيم ، وعم أبيه إسماعيل ، وابن عم جده لوط ، وعليه فيعقوب عليه السلام ، من أصحاب الصور البارزة ، وحائز على الشهرة الشخصية والعائلية ، ولا بد أن هذه الشهرة لما تجلت في « العراق » و « سورية » و « فلسطين » ، كانت أيضاً فيما جاور فلسطين من الديار المصرية ، كما أنه اشتهر في أهل مصر وجميع مملكتها أن « الريان » بن الوليد أسند مأمورية « خزائن الارض » لعبد عبراني فلسطيني من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم المشهورين بمصر كسواها ، وأن ذلك العبد صار « عزيز مصر » و « وكيلا » عن مليكها ، وقد فوض إليه أمور الخاصة والعامة ، فهذه الحقيقة أصبحت أمراً مشهوراً معروفاً عند الخاص والعام ، لا يقبل الخفاء والكتمان ، ولم يعرفه المصريون فقط ، بل والممالك المجاورة والبلاد المحادة لمصر ، لا سيا فلسطين التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وأنساله ، وإذا لم يكن هذا الحادث قد اشتهر وعرف عند أهل فلسطين قبل سني الجوع ، فلا بد أن يكون قد عرف أيام سني الجوع ، بسبب ورود القوافل الممتارة ذهاباً وإياباً ، من فلسطين لمصر ، وأنه كانت التجارة مشهورة ومتبادلة بين البلادين ، فإذا تقرر هذا ، فكيف أن هذه الاخبار الشهيرة لم تصل ليعقوب عليه السلام وهو وعشيرته مشهورون بمصر ، وهم جيران مصر وعلى حدودها ؟!؟!...

قلنا : إن هذا السؤال عظيم ، وله شأنه عند المفكرين المستقلين ، ولكن يوجد قاعدة كونية عجيبة جداً ، ومسلمة عند العموم ، وهي أن الخبر يصل إلى ظاهر أذن صاحبه ويقف ، ولا يدخل فيها ، وهذا مجرب ومعهود ، فكثيراً ما تحدث حوادث تكون معروفة عند الجمهور ، ولكن عند من لهم مساس وعلاقة بها هي غير معروفة ولا مسموعة ، بناء على هذه القاعدة الكونية المذكورة ، التي لم يوقف لليوم على علتها ، ولله تعالى في خلقه شؤون .

الانتصارات التي فاز بها يوسف

(٥ٓ) – كان ما حصل ليوسف عليه السلام من قبيل انتصار العلم على الجهل – لأن يوسف بعلمه رقي للملا، خلافاً « للملأ » الذين بجهلهم سقطوا في هاوية الخذلان ومن قبيل انتصار الحياة على الموت – لأن يوسف كان بذلك هو السبب الوحيد في استخلاص المصريين من الهلاك ، ومن قبيل انتصار التوحيد على الوثن – لأن يوسف بواسطة ذلك حصل على قوة بها بلغ دينه ودين آبائه ، ومن قبيل انتصار العبد على السادة ، وانتصار الذكاء على البلادة ، وأخيراً من قبيل انتصار التدابير السماوية على التدابير الأرضية .

إطلاق يد يوسف في مصر

(٦ٓ) قوله : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ ، حيث فوض الأمر إليه ، وأطلقت يده في مصر ، لأن ملك مصر إذ ذاك – كباقي ملوكها – كان قليل الظهور للعامة ، إلا عند الاقتضاء ، إظهاراً لعظمة الملك ورهبة السلطان ، كما يزعمون أن « هرون الرشيد » كان يجلس في الإيوان ، وفي وسطه ستر من الحرير الصيني معلق عرضاً بين الحائطين ، يحجب الخليفة عمن يجالسه ، على العادة في

مجالسة الملوك يومئذ ، إلا من اختار الملك تقديه ورفع الستار بينه وبينه ، من أهله وخاصته [١] .

تمكين يوسف في مصر سبعين عاماً

(٧) – مكن الله ليوسف في الأرض بغير سلاح ولا كراع ، بحيث صار صاحب الحل والعقد ، والنقض والإبرام ، لأنه أصبح أعلى وزراء الملك رتبة ؛ وآثرهم عنده ، وأنفذهم في البلاط ، وأشدهم سلطة في الديار المصرية ، كان هذا طيلة سبعين عاماً ، عاشها بعد الأربعين سنة التي أتت عليه سابقاً ، واجتاز فيها أزمات ، ومع هذا فقد كانت هذه الأمجاد وتلك الأفراح ممزوجة بما يدعوه للأسف والقلق ، وهو فراقه لأبيه وأخيه ووطنه وذويه ، فكان ذلك يعترض ما به من غبطة وسرور ، فالسعادة في الدنيا لا تتم لأحد ما، ولا سعادة حقيقية تامة إلا في النشأة الآخرة .

مصر في أيام يوسف وبعده

(٨) - هذا التمكن وهذا التبوء العام في أرض مصر ، ودورها وقصورها – كان في ذلك العصر ، مما يليق أن يمتن به ، لا سيما على رجل كان بالأمس في السجن ، وكان قبله من رعاة الغنم ومن سكان البوادي ، ولكن مصر فيما بعد صارت جزءاً من أملاك الخلافة الفاروقية ، ثم صارت جزءاً صغيراً من مملكة الدولة الأموية ثم الدوله العباسية ، وعن « الرشيد » أنه لما قرأ قوله تعالى : ﴿ ونادى فِرعونُ في قومه : قال يا قوم : أليسَ لي مُلْكُ مِصرَ ، وهذه الأنهارُ تجري من تحتي ، أفلا تُبصِرون ؟ ﴾ (٤٣ : ٥١) قال – أي الرشيد – لأُوَلّيَنّها أخسّ عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد

(١) المسعودي ج ٢ .

الله بن طاهر ، أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها وقع عليها بصره ، قال : « أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أليس لي ملك مصر ؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها » ، فثنى عنانه ورجع (كشاف) .

رحمة الله وإحسانه يصيبان جميع من يستحقهما

(٩ ً) – نصيب برحمتنا من نشاء ، ولو كان من الدهريين والماديين ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولو كان من الجاحدين والوثنيين ، لان هذا إنما يكون في الدنيا فكل من أتقن عمله وأحسنه ، أصيب برحمة الله ، من الارباح العظيمة ، وكل من أحسن عمله ، أخذ الاجرة من إقبال الناس على مصنوعاته ، وتوجههم على ما يصدر من معمله ، وكلما زاد إتقاناً وإحساناً ، زادت الناس فيه ثقة ، وزاد ربحه وشاع صيته ، وجَمُل ذكره ؛ وإنا لنأسف إذا غض الجمهور من الشرقيين عن إحسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم ومعاملهم حتى لو شرعوا في إحسان شيء في البدء ، لم يثبتوا على ذلك دواماً ، فتراهم بعد قليل من الزمن يغيرون مصنوعاتهم ويدخلون فيها الغش ، فتتغير قلوب المشترين عنهم وينفرون منهم ويعاملون سواهم ، ومع الأسف إنا نرى الذين فازوا بذلك هم الغربيون ، فوفى الله بعدله للشرقيين حظهم من التأخر ، ووفى الله بفضله للغربيين حظهم من التقدم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم ، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

ملاحظة : هنا قال الرئيس الفلسطيني : « قد سمعتم أيها السادة ما فاه به أخونا الشيخ الرياضي ، وأما الحقير فلست أريد أن أعلق عليه شيئاً ، لأنني لم أكوّن حتى هذه الساعة رأيي الشخصي في هذا الموضوع » .

ثم تابع الشيخ الرياضي كلامه في إتمام الجواهر :

أجر المحسنين في الدنيا

(١٠) – لا نضيع في الدنيا أجر المحسنين ، الذين يقصدون بعملهم وجه الله والذمة والضمير ، لأن الذي يبتغي الآخرة لا يفوته حظ الدنيا ، وأن مثله مثل الزارع الذي يبذر حبه في الأرض ، ويعمرها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر الزرع .

إحسان يوسف الذي استحق عليه التمكين والتبوّ في الأرض

(١١) – إن قال قائل : ما هذا الإحسان الذي عمله يوسف حتى استحق أن يمكن في الأرض بحيث يتبوأ منها حيث يشاء ، قلنا إننا نعلم منه إباءه عن مواتاة تلك المرأة الساقطة ، وحفظه لمعروف سيده معه ، وقيامه بالدعوة إلى التوحيد ، وهو في سجنه ، إلى غير ذلك من أنواع إحساناته التي يعلمها الله تعالى وسيثيبه عليها في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مبدأ تبادل الإحسان

(١٢) – نتعلم من هذه الكلمة الفاذة الجامعة (لا نضيع أجر المحسنين) أن مبدأ التبادل مرعي شرعاً ، فقد أمرنا الله بالصلاة والصوم والزكاة ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة ، وقال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (٥٥ : ٦٠) .

ونتعلم من هذه الآية الشريفة أيضاً أن الله تعالى يثيب العبد على صالح عمله في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأنه تعالى جعل تمكينه ليوسف في الأرض من ثوابه إياه في الدنيا على إحسانه ، ثم الثواب التام يكون في الدار الخالدة كما قال تعالى: ﴿ ولأجر الآخرة خير ... ﴾ (٥٢ : ٥٧).

أجر المحسنين في الآخرة

(١٣) – ولا نضيع أجر المحسنين ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لان كلام الله تعالى ههنا مطلق ، ولكن الاجر في الدنيا مطرد في الامم ، إضافي غير مطرد في الافراد ، وأما في الآخرة فالاجر حقيقي مطرد للجميع ، ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ ، فلا تُظلمُ نفسٌ شيئاً ، وإنْ كانَ مثقالَ حبَّةٍ مِنْ خَردلٍ ، أتينا بها ، وكفى بنا حاسِبين ﴾ (٢١ : ٤٧) و ﴿ فمَنْ يَعْملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شرّاً يَرَهُ ﴾ (٩٩: ٧و٨) وهذا هو الدستور وكل ما أوهم خلافه مؤول .

أجر الدنيا وأجر الآخرة

آ(٥٧) « ولَأجرُ الآخِرَةِ خيرٌ للذين آمَنوا وكانوا يَتَّقُونَ» .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والخمسون فقام الأستاذ السلفي العُنَيْزي وقال : يقول الله تعالى عز وجل :

﴿ ولأجر الآخرة خير ﴾ بكثير جداً جداً جداً ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ كيوسف وأشباهه ، فيوسف مأجور قطعاً في الدنيا والآخرة .والمؤمن يُثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق ، فقوله فيما مر : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ أي في الدنيا – هو حكم عام ، يشمل المؤمن وغيره ، ويعم التقي والشقي ، بدليل التخصيص بقوله : ولأجر الآخرة ..الخ قال تعالى : ﴿ مَنْ كان يُريدالعاجِلةَ

---

(١) نسبة الى عنيزة بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية .

عَجَّلنا له فيها ما نشاءُ لِمَنْ نُريدُ ، ثم جعلنا له جَهنمَ يصْلاها مذموماً مدحوراً ، ومَنْ أرادَ الآخِرةَ وسَعَى لها سَعْيَها — وهو مؤمِنٌ — فأولئكَ كان سَعْيُهم مشكوراً ، كُلّاً نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاء من عَطاءِ ربكَ وما كان عطاءُ ربكَ مَحظوراً ، انظرْ كيفَ فَضّلْنا بَعضَهم على بعضٍ ، وللآخِرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تَفضيلاً ﴾ (١٧ : ١٨–٢١) وقال تعالى: ﴿ومَنْ يُردْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِهِ منها ، ومَنْ يُرد ثواب الآخرةِ نُؤْته منها ، وسَنَجزي الشاكرين ﴾(٣: ١٥٤) أجر الآخرة خير من كل ما في الدنيا ، ولو كانت كنوز « قارون »[١] وصناديق « روكفلر »[٢] وخزائن « روتشيلد »[٣] والآن لنا على هذه الآية التعليقات الآتية :

الآخرة لغة واصطلاحاً

التعليق الأول ـ الآخرة آخرتان ، الآخرة المعروفة المقابلة للدنيا ، وهي المعبر عنها باسم « يوم القيامة » و « يوم الدين » ونحوهما ، والآخرة بمعنى المدة الأخيرة من عمر الإنسان في الدنيا ، وهي التي ربما يعبر عنها بلفظ « العاقبة » ونحوه ، وعلى كل حال فالآخرة بقسميها خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ، ومن المحتمل للمعنيين ما في قوله تعالى : ﴿ أمْ للإنسانِ ما تَمَنّى ؟ فلله الآخِرةُ والأولى ﴾ (٥٣ : ٢٥) وقوله تعالى : ﴿ ولَلآخرةُ خيرٌ لكَ من الأولى ﴾ (٩٣ : ٤) ، قال « علي وفا » : (معناها واللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة) ، وقوله تعالى : ﴿ لهُ الحمدُ في الأولى والآخِرةِ ﴾ (٢٨ : ٧٠) وقوله تعالى : ﴿ فأخَذهُ اللهُ نكالَ الآخِرةِ والاولى ﴾ (٧٩ : ٢٥) ، فهذه أمثلة يحتمل استعمال لفظ « الآخرة » فيها في المعنى اللغوي وفي المعنى الاصطلاحي وأما لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعْدُ الآخرة ﴾ (١٧ : ٧)

(١) هو قورح التوراة (٢) اميركي أغنى أغنياء العالم قاطبة . (٣) من أغنياء اليهود في العالم .

وقوله تعالى : ﴿ ما سمعنا بهذا في المِلّةِ الآخرةِ ﴾ (٣٨ : ٧) فهو مستعمل في المعنى اللغوي قطعاً ، كما أن لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿وبالآخرةِ هم يُوقِنُون ﴾ (٢ : ٣) ، هو مستعمل في المعنى الاصطلاحي قطعاً ، فتدبر ، فإن لكل مقام مقالاً .

ثواب الجنة جسماني وروحاني

التعليق الثاني ـ دار الآخرة هي دار المثوبة والعقوبة ، فدار المثوبة الجنة ودار العقوبة النار ، وقد جُعل في الجنة نوعـان من الثواب ، نوع من اللذائـذ الجسمانية كاقال تعالى : ﴿وبَشّر الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أنّ لهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ، كلما رُزِقوا منها من ثَمَرةٍ رِزْقاً ، قالوا : هـذا الذي رُزِقنا مِنْ قبْلُ ، واوتوا به مُتَشابهاً ، ولهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرةٌ ، وهم فيها خالدون ﴾ (٢ : ٢٥) ونوع روحي ، وهو رضا الله والقرب منه ، قال تعالى: ﴿يا أيتُها النفسُ المُطْمَئِنّةُ ، ارجِعي إلى ربكِ راضيةً مَرْضيةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ لهم دارُ السلام عندَ ربّهم ، وَهوَ وليُّهم بما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ (٦ : ١٢٧) ويجمع النوعين قوله تعالى : ﴿ قل أؤُنَبِّئُكم بخيرٍ من ذلِكُم للذينَ اتّقَوا عندَ ربّهم جناتٌ تجري مِنْ تحتِها الانهارُ خالدينَ فيهـا ، وأزواجٌ مُطهرةٌ ورِضوانٌ من اللهِ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد ﴾ (٣ : ١٥) وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الانهارُ خالدينَ فيها ، ومَساكنَ طيِّبةً في جنات عَدْنٍ ورِضوانٌ مِنَ اللهِ أكبرُ ، ذلكَ هو الفوزُ العظيم ﴾ (٩ : ٧٢) .

حظ المؤمن في الآخرة أرقى منه في الدنيا

التعليق الثالث ــ هذه الآية جارية على قاعدة « تنازع البقاء واختيـار

الاحسن» في الآخرة ، كما في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين﴾فالمؤمن التقي في الآخرة ، هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا ، فمثلاً : يوسف الذي هو موضوع الحديث ، لئن كان قد تبوأ من خريطة مصر حيث شاء ، فلعمري سوف يتبوأ من خريطة الجنة أعظم وأعظم .

أجر الآخرة مادي وروحي

التعليق الرابع ـ تعليقاً على قوله : ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ ، أجر الآخرة قسمان : مادي وروحي ، فأما المادي فهو معلوم وهو للعوام ، وأما الروحي فهو للخواص وسبحان من أشار إليه بقوله : ﴿ وقال لهم خَزَنَتُها : سلامٌ عليكم ، طِبْتُم ، فادخلوها خالدينَ ﴾ (٣٩ : ٧٣) ، فالسلام ، أي الأمن ، هو في نظر كل عاقل ، أقصى أماني المرء ، وأعظم الملاذ قاطبة ، وجل من قال: ﴿ وَنَزَعنا ما في صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ ، إخواناً ، على سُرُرٍ مُتَقابلينَ ﴾ (١٥ : ٤٧) ، وأيُّ رذيلة أخبث من الغل ، مصدر المحن والمصائب ، والنقم والآفات ؟ وأيّ شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟ وأيّ دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ ، من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقدع عن مآربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الأوطار والرغبات ، وسبحان من قال : ﴿ وأما الذين ابيضّت وُجُوهُهم ، ففي رحمةِ اللهِ ، هم فيها خالدون ﴾ (٣ : ١٠٧) .

أجر يوسف في الآخرة أجل مما كان له في الدنيا

التعليق الخامس – يخبر تعالى في هذه الآية : ﴿ ولأجر الآخرة .. ﴾ الخ أن ما ادخره لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة ، أعظم وأكثر وأجل مما

خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، وهذا كقوله تعالى في شأن سليمان : ﴿ هذا عطاؤنا فامنُنْ أو أمسِكْ بغير حساب، وإنّ له عندنا لزلفى وحُسْنُ مآب﴾ (٣٨ : ٣٩ و ٤٠) ، وكقوله تعالى في شأن المهاجرين الذين يصح أن يعد منهم يوسف : ﴿ والذينَ هاجروا في الله مِنْ بَعْدِ مــا ظُلِمُوا ، لَنُبَوّئنّهم في الدنيا حَسَنَةً ، ولأجْرُ الآخرةِ أكبرُ ، لوكانوا يَعلمون ﴾ (١٦ : ٤١) .

الإخلاص يكون بالإيمان والعمل الصالح

التعليق السادس- جمع في هذه الآية بين الإيمان والتقوى ، كما جمع في آيات كثيرة ، بين الإيمان وعمل الصالحات ، إشارة إلى أن الإنسان لا يخلص إلا بالإيمان والتقوى ، وبعبارة أخرى ، بالإيمان والعمل الصالح ، خلافاً لكتب النصارى ، ليس للأعمال فيها قيمة ، ولا أجرة مطلقاً قال بولس في رسالته إلى أهل رومية : (أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة ، بل على سبيل دين، وأما الذي لا يعمل ، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر ، فإيمانه يحسب له براً) (رو ١٤ : ٤ و ٥) ، والله يقول في القرآن المجيد : ﴿ ولكنّ البرّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الاخرِ والملائكةِ والكتابِ والنّبيّينَ ، وآتى المال (على حُبِّهِ) ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيلِ والسائلينَ وفي الرّقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاةَ ، والمُوفونَ بعَهدِهِم إذا عاهَــدوا ، والصّابرين في البأساءِ والضّرّاءِ وحينَ البأسِ ﴾ (٢ : ١٧٧) .

واجتهد بولس في إحباط الأعمال ، حيث ذكر أن أعمال الناموس تحت لعنة ، وأنه لا يتبرر أحد عند الله بالناموس ، وأن الناموس لا لزوم له ، بعد مجيء المسيح (غل ٣ : ١٠ — ١٣) ، مع أن المسيح نفسه يقول : (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل) (مت ٥: ١٧) ولكن المسيحيين عملوا بكلام ، بولس ، فتركوا التوراة وأحكامها بالمرة ،

وقد أباح لهم الرسل جميع المحرمات ، ما عدا أربعة : الزنا والدم المسفوح والمخنوق والمذبوح للأصنام (أ ع ١٥ : ٢٨و٢٩) [١] .

يوسف النبي والرسول

التعليق السابع – كان يوسف بمصر نبياً ورسولاً ، وكان أهل مصر كفاراً وثنيين ، ولكنه لم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين التوحيد ، فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان ، فلم يجيبوه ، قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبَيّنات ، فما زِلْتُمْ في شكٍّ ممّا جاءَكم به حتى إذا هَلَكَ قلتم ، لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤)، فيوسف بلغ الرسالة ، ولكن المصريين لم يؤمنوا به ، بل كانوا في شك مما جاءهم به ، ولكنه هو أدّى الأمانة ، ونصح لله واتقى الله ما استطاع .

الجزاء يكون على الإيمان والعمل معاً

التعليق الثامن – نعلم من قوله : (للذين آمنوا وكانوا يتقون) ومن أمثاله مما لا يحصى قاعدة مهمة في الدين ، وهي أن الجزاء إنما يكون على الإيمان والعمل معاً ، لأن الدّين إيمان وعمل ، ومن الغرور أن يظن المنتمي لدين نبي من الأنبياء أن يكون ناجياً بمجرد الانتماء ، ومما يشهد لذلك ما حكاه الله لنا عن بني إسرائيل من غرورهم بدينهم ، وما ردّ به عليهم ، حتى لا نتبع سنتهم فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : لَنْ تَمَسَّنا النار إلا أياماً معدودةً ، – قُلْ : اتخذتُم عندَ اللهِ عهداً ، فلَنْ يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ ، أم تقولون على اللهِ ما لا تعلمون ؟ بلى مَنْ كسَبَ سيئةً وأحاطتْ به خطيئتُهُ ، فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ، والذينَ آمنُو وَعمِلوا الصالحاتِ أولئك أصحابُ الجنةِ ، هم فيها

(١) غل : رمز لسفر غلاطية ، أ ع: رمز لسفر الأعمال الأول في التوراة .

خالدون ﴾ (٢ : ٨٠ - ٨٢) ، وما حكاه عن اليهود والنصارى جميعاً وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : « لن يَدخُلَ الجنةَ إلاّ مَن كان هوداً أو نصارى » ، - تلك أمانيهُم - قل : « هاتوا بُرهانَكم إن كنتم صادقين » بلى مَن أسلمَ وَجهَهُ لله - وهو مُحسِنٌ - فلهُ أجرُهُ عندَ رَبّهِ ، ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون ﴾ (٢ : ١١١ و ١١٢) من هذه النصوص نعلم أن النجدة في الآخرة والسعادة الأبدية فيها . إنما تكون بالإيمان والتقوى ، لا بالإيمان وحده ، خلافاً « للمُرْجِئة » في قولهم بكفاية الإيمان ، بدون أعمال ، سُمّو بذلك ، لأنهم أرجأوا العمل ، أي أخروه قالوا : لا يضر مع الإيمان معصية ، وخلافاً للنصارى في اكتفائهم بالإيمان بالآب والفداء .

استطراد :

وعقيدة الصلب والفداء وثنية محضة سرت للنصارى من الوثنيين ، كما بينه علماء أوروبا الاحرار ، بل ومؤرخوهم ، بل وعلماء الآثار والعاديات منهم في كتبهم .

قال « دوان » : « إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم » وذكر الشواهد على ذلك ، منها قوله : « يعتقد الهنود أن « كرشنا » المولود البكر الذي هو نفس الإله « فشنو » الذي لا ابتداء له ولا انتهاء - على رأيهم - تحرك حنواً ، كي يخلص الأرض من ثقل حملها ، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه » .

وقال « هوك » : « يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الالهة ، وتقديم نفسه فداء للناس عن الخطيئة » .

وقال القس « جورج كوكس » في سياق الكلام عن الهنود : « ويصفون « كرشنا » بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً ، لأنه قدم شخصه ذبيحة » . وقال

« هيجن » عن أندرا » الذي يعبده سكان النيبال والتيبت : « أنـــه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير ، لكي يخلص البشر من ذنوبهم » ، والبوذيون يقولون في « بوذا » إنه مخلص العالم ، وإنه إنسان كامل وإله كامل ، تجسد بالناسوت، وقدم نفسه ذبيحة ، ليكفر ذنوب البشر ، ويخلصهم من ذنوبهم ، فلا يعاقبوا عليها .

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم « بيل » في كتابــه (تاريخ بوذا) ومنهم « هوك » في رحلته ، ومنهم « بولر » في كتابه (تاريـــخ الآداب السنسكريتية) ، والخلاصة إننا لا نعتقد أن خلاصنا يكون بواسطة إنسان ، ولكن بالإيمان والتقوى .

رد دعوى زواج يوسف بزليخا بعد موت زوجها فوطيفار

التعليق التاسع ـ ذكر فريق حشوي من المفسرين أن « عزيز مصر » فوطيفار مات في تلك الليالي ، وأن ملك مصر «الريان» زوّج «يوسف» « زليخا» امرأة ذلك العزيز فوطيفار ، وشاع عند القصاص أن « زليخا » عادت شابـــة بكراً ، بعد ما كانت ثيباً غير شابة ، وهذا كما قال الآلوسي في تفسيره ممـا لا أصل له ، قال : (وخبر تزوجها أيضاً مما لا يعول عليه عند المحدّثين) ، ونحن نزيد على ذلك أن نسبة يوسف عليه السلام للتزوج بهذه المرأة لا يليق، لأنها وإن تكن تابت وحسنت توبتها ، فقد كانت عزمت على السقوط ، وصممت عليه ، ومعلوم أن زوجة كل رسول هي أم لأفراد أمته ، كما قال تعالى ﴿ وأزواجـــه أمهاتهم ﴾ (٣٣ : ٦) ، ولا يليق أن تكون هذه المرأة نصف الساقطة أمـــاً للمصريين إذ ذاك ، والصحيح أن مليك مصر الريان كان قد زوّج يوسف «أسنات» بنت « فوطي فارع » كاهن « اون » ومعنى « اون » الشمس ، ولذلك سميت البلدة عند العبرانين « بيت شمس » واليونانيون يدعونها « هليو بوليس » ، وأما

« أسنات » فلفظة مصرية معناها محبوبة « نات » ، ونات هذه إلهـة الحكمة عند المصريين .

استطراد :

فإن سأل سائل : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتزوج بامرأة وثنية بنت كاهن وثني ؟ فالجواب أنه يجوز أن تكون صارت من الموحدين إمـا قبل الزواج أو بعده بقليل ، ويكون ذلك جائزاً عندهم ، وذلك كما أن مسلمي الصين اليوم يتزوجن بالصينيات الوثنيات فلا يلبثن أن يسلمن عند أزواجهن ، حتى أن ذلك صار من أسباب انتشار الإسلام في الصين ، وقريب من هذا مـا وقع قديماً أن إبراهيم عليه السلام كان تزوج بساراي وهي ابنة أبيـه « تارح » المسمى في كتابنا الكريم « آزر » ، فهي أخته من أبيه فقط ، وليست أخته من أمـه ، وتارح أو آزر كان وثنياً فلا بد أن تكون بنته كانت في البدء كذلك ، ولكن لما تزوجها إبراهيم صارت من أهل التوحيد كزوجها؛ ولنا أمثلة على ذلك كثيرة منها تزوج « لوط » عليه السلام بامرأة كافرة ، وكذلك قبله نوح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلذينَ كَفَرُوا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ ، كانتا تحتَ عَبْدينِ مِنْ عبادنا صالِحين ، فخانَتاهما فلم يُغنِيا عنهما مِن اللهِ شيئاً ، وقيلَ ادخُلا النارَ مع الداخلين ﴾ (٦٦ : ١٠) ، ومنها تزوج إسحاق عليـه السلام « برفقة » وهي بنت « بتوئيل » الوثني ، وتزوج يعقوب عليه السلام « لينة » و « راحيل » وهما بنتا « لابان » وهو وثني ، وكذا تزوج إسماعيل عليه السلام بامرأة من أرض مصر على ما في التوراة ، أو بامرأة من جرهم على ما في التاريخ العربي ، وعلى كل فهي وثنية ، والأمثلة من هذا القبيل كثيرة ، فمـا جاز لهؤلاء فعله في شريعتهم يجوز ليوسف عليه السلام في شريعته .

وجواباً ثانياً وهو أن المشركات اللاتي حـرم الله نكاحهن في قوله : ﴿ ولا تَنكِحوا المُشْرِكاتِ حتى يُؤمِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢١) ، هـن مشركات

العرب فقط ، وإن المصريين كالصابئين ووثنيي الهندوس والصين وأمثالهم كاليابانيين هم أهل كتب مشتملة على التوحيد ، وأن كتبهم طرأ عليها التحريف كما طرأ على كتب اليهود والنصارى التي هي أحدث عهداً في التاريخ ، وإن قوله تعالى بعد بيان محرمات النكاح ﴿ وأُحِلَّ لكم ما وَراءَ ذَلِكم ﴾ (٤ : ٢٤) يفيد حل نكاح نسائهم ، فليس لأحد أن يحرمه إلا بنص .

الفصل الثاني

سفرة إخوة يوسف الأولى لمصر

آ(٥٨) « ... وجاءَ إخوةُ يُوسفَ ، فَدَخَلُوا عليهِ ، فَعَرَفَهُمْ وهُمْ لهُ مُنْكِرونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والخمسون ، فقام الشيخ الزبيدي الصنعاني وقال :

تحقق تعبير يوسف لرؤيا الملك الريان ، بمجيء السنين السبع الخصبة ، ثم السنين السبع الأخرى المجدبة ، فحصل جوع وقحط لا سيما في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين ، لعدم استعداد أهلها لمثل هذا اليوم ، وقد أصاب يعقوب وأولاده كما أصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود قمح في مصر ، فطلب من أولاده أن يذهبوا إليها للامتيار ، فهيأوا رواحلهم قاصدينها ، (وجاء إخوة يوسف) العشرة إلى مصر ، فرأتهم العيون المرصدة من قبل يوسف بشكل وعدد يلفت النظر ، فأخذوهم إلى يوسف في بلاطه (فدخلوا عليه) وهو جالس على عرشه ، فسلموا عليه ، (فعرفهم) بملامحهم وكلامهم وأزيائهم (و)

أما (هم) فلم يعرفوه إلا أنه « العزيز » ، وأما من هو وما اسمه ومن أي عنصر فبقوا (له منكرون) .

(وجاء إخوة يوسف ... الخ)

— ١ —

وقام الأستاذ بن نصيف أحد علماء بلدة جدة الأفاضل وقال :

مجيء إخوة يوسف لمصر للامتيار

جاءت سنوّ الخصب ، ثم تلتها سنوّ الجوع ، فأصاب أهل مصر وما جاورها من البلاد وخاصة فلسطين شظف وضيق ، وخشونة عيش ، وأتاهم الجدب كوحش هائل فاغر فاه ، يتلقف ما قرب منه وما بعد ، فقال يعقوب لأولاده : « أبقوا على عيالكم وأولادكم ، ولا تحملوهم إلى الفناء ، فإنه ليس من المروءة أن يرمي الإنسان بأهله في مهاوي الجوع ، بل يقيهم بسعيه . ويدفع عنهم بجده ، وأن السعي على العيال واجب ، فقوموا واسعوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور ، قوموا اضربوا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله » .

وما طلب المعيشة بالتمني　　ولكن ألقِ دلوك في الدلاءِ
تجيء بملئها طوراً وطوراً　　تجيء بحمأة وقليل ماءِ
ولا تقعد كذي كسل وجبن　　تحيل على المقدر والقضاءِ
قعود كعن طلاب الرزق عجز　　وعجز المرء أسباب البلاءِ

علم يعقوب عليه السلام أنه يوجد قمح في مصر ، فقال لبنيه : (لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض ؟ إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر ، انزلوا إلى هناك ، واشتروا لنا ، لنحيا ولا نموت ، وإن ما عندنا من بقايا القوت يوشك أن يفنى ونبقى معدمين ، حتى ولو اقتصدنا ، بل ولو قترنا في تناوله ، فإن قلة

الإنفاق ، لا يمنعه من سرعة النفاذ ، فإن الكحل الذي لا يؤخذ منه إلا عيار الميل سريع فناؤه ، فكيف ونحن عشيرة كبيرة ، نحتاج كل يوم نحن ودوابنا إلى قوت ليس بالقليل) .

وقد كان يعقوب عليه السلام ، وأولاده أنفسهم في حاجة إلى الطعام ، في تلك الأيام ، وقد ضعفت مواشيهم من قلة المرعى ، وربما مات كثير منها ،وأخذ الموت يجرف كثيراً من الناس .

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم، فقاموا وشرعوا في الرحلة،ما عدا بنيامين، فقد تخلف عنهم إذ لم يرسله أبوه معهم ، لأنه قال في نفسه : (أخشى أن يصيبه أذى) ثم ساروا ميممين الديار المصرية،وقبيل ما وصلوا لمصر،رأوا فيضواحيها من جهة طريقهم ، مضارب وخياماً منصوبة للممتارين القادرين ، وإبلا وحميراً، ما بين مربوطة وذاهبة لمصر فارغة ، وآيبة منها مثقلة بالميرة ، وصادفوا جلبة وازدحاماً ، ولم يزالوا كذلك حتى دخلوا مصر ، ما بين نهيق الحمير ،وجمير الإبل يتخلل ذلك ضوضاء وصلصله وقعقعة ، إذ كان في مصر اجتماعات مدهشة من صنوف الممتارين ، تعيد للأذهان ذكرى برج بابل ، أو تمثل للإنسان يوم الحشر .

وكان أبناء يعقوب حينما دخلوا مصر مغمورين في جمهور كبير من الممتارين ، لكن العيون المرصدة من قبل يوسف اقتحمت ذلك الجمع وتخطت الجمهور ، ولم تتناول إلا هؤلاء الإخوة ، فأخذوهم إليه في بلاطه ، فدخلوا عليه ، وهو في قصره يناطح السحاب . جالس على عرشه ، وسلموا عليه سلام الأمانة،وتراموا بين قدميه ، وقد استوسق له كل ما أراد من سلطان ومراس ونفوذ كبير ، ومهابة عظيمة ، دخلوا عليه ، وهو في عنفوان دولته وشمخها ، وعزة ملكه وقبسها ، فتفرس فيهم ، فلم يكن إلا كلمح البصر ، حتى بصر بهم ، فعرفهم مع بُعد العهد ، عرفهم بلحاهم وشعور رؤوسهم حسب عوائد الفلسطينيين وخاصة العبرانيين ، عرفهم بملامحهم وتكلمهم بالعبرانية ، عرفهم بلباس من نوع أزياء أهل

فلسطين يمازجه شيء من هندام العراقيين ، عرفهم بحيث يقـــدر أن يناديهم بأسمائهم ، ويخبرهم بأحوالهم ، التي غادرهم عليها منذ صغره ، عرفهم لأن صورهم كانت قد ارتسمت في « فِلْمِ دماغه وهم كبار ، فلم يطرأ عليها تغير كثير ؛ وأما هم ، فلم يعرفوه إلا بأنه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » ، وأما من أي عنصر هو ، ومن أي عشيرة ، فلم ...

(وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه... الخ)

—٢—

وقال العلامة العدني[١] : نستفيد من هذه الآية الكريمة الفوائد التالية :

وصف منظر المتارين من الناس في مصر في زمن يوسف

الفائدة الأولى — جاء إخوة يوسف فإذا الناس من خواص العالم ، ورجالاتهم وعامتهم في هرج ومرج ، يموج بعضهم في بعض كموج البحر ، قد تسربوا أزواجاً وأثلاثاً ، بين راكب وماش ، هذا يكال له ، وهذا يحمل الميرة ، يهرعون نحو الكيالين ، تتزاحم أقدامهم ، وتتراص صفوفهم ، ويندمـج بعضهم في بعض ، الرجل يدفع الرجل ، والمرأة تدفع المرأة ، وهم أنواع شتى ، وأشكال متباينة ، ولغات مختلطة ، وأزياء مختلفة ، كار وفار ، داخل وخارج ، باك وضاحك ، منهم الشيوخ والهرمى ، ومنهم الشببة والفتيان ، وقد علا الضجيج حتى استكّت المسامع ، وتصاعد الغبار ، حتى حجب السماء ، يتواردون كوكبة بعد كوكبة ، وزرافة بعد زرافة ، ولا غرو فمصر بعناية يوسف وتدابـيره ، أصبحت الحرم الوحيد الذى تقصده أهالي البلاد المجاورة لها ، وهي القلب الذي تتدفق منه مادة

---

(١) نسبة الى عدن ، قاعدة شبه جزيرة عدن .

الحياة إلى جميع الأطراف ، وهي الموئل الذي يرجع إليه عند الشدة ، وأما إخوة يوسف ، فدهشوا لهذا المنظر الرهيب ، فوقفوا هنيهة في وسط الساحة ، ريثما يقل المتزاحمون ، وهناك أخذوا فأدخلوا على يوسف ليشرح لهم على وثيقة الامتيار .

ترقب يوسف مجيء إخوته

الفائدة الثانية – لم يعجب يوسف لهذا المجيء ، لأنه كان يعرف أن هذا المجيء سيكون طبعاً، وكان يعد له الأيام عداً، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب ، إذ متى حصل الجدب والقحط في مصر حصل فيما يجاورها من البلاد ، التي منها بالأقرب فلسطين، فتضطر إخوة يوسف للامتيار ، وقد وقع .

يوسف يشرع في تحقيق هدفه

الفائدة الثالثة – جاء إخوة يوسف فانشرح صدره ، وشعر أنه تقدم خطوة نحو الغرض الذي كان يتوخاه ويتوقعه ، وهو مجيء بنيامين لمصر ، وحظوته بلقياه ، وقال في نفسه : « قد دنا وقت العمل » .

فلذلك سيأتي أنه عمل معهم الحيلة الأولى لرجوعهم بأخيه ، قائلاً في ضميره « متى رجعوا به ، أحتال لإبقائه عندي بحيلة أخرى ، أشذب بها شيئاً من كبريائهم ، ثم أسعى في مجيء والدي لمصر » ، وهكذا سيتم له ما أراد .

ابتداء يوم يوسف

الفائدة الرابعة – من ههنا يبتدىء اليوم الذي ليوسف ، وينتهي بنهاية (آ ١٠١) بعدما صبر على اليوم الذي عليه المذكور في (آ ١٥) ، فهو في هذه

الحوادث كثيره ، يوم له ، ويوم عليه ، يوم له كان في بكرته ممزوجاً بشيء من الرحمة (آ ٥٨ – ٦٢) ، وكان وقت الظهيرة شديداً جداً (آ ٧٠ – ٧٩) ثم صار حين الأصيل رحمة مطلقة (آ ٨٩ – ٩٣) ، وأما اليوم الذي عليه فكان لوناً واحداً ، وهو لون القسوة .

حال إخوة يوسف بعدما شردوه

الفائدة الخامسة – كان حصل ما حصل من إخوة يوسف مع يوسف منذ ٢٢ سنة ، فأما هم فبقوا ساكنين بفلسطين عند أبيهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم ، وأما يوسف عليه السلام فأقام بمصر ، في بيت العزيز، ثم في السجن ، ثم في بلاط الملك ، ونامت تلك القضية ، التي كانت بين هؤلاء الإخوة ، نعم نامت ولكن بدون أن تنام تلك الأحقاد، التي نشبت في الصدور بين الظالمين والمظلومين .

مجيء إخوة يوسف لمصر كان من أكبر المساعدات لتحقيق آماله

الفائدة السادسة – مجيء إخوة يوسف لمصر ، ومثولهم بين يديه وتمكنه منهم – يعد من أعظم متممات مجد يوسف وسروره ، ويعد من أكبر المساعدات لآماله ، جاءه هذا الأمر عفواً صفواً ، لم يمد إليه يداً ولا تجشم فيه مشقة ، ولا خاض فيه غمرة .

الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين

الفائدة السابعة – نتعلم من هذه الآية ، ومن سابق قوله : ﴿ وجاءت سيارة ... الخ ﴾ ومن لاحق : ﴿ والعِير التي أقبلنا فيها ﴾ أنه كان يوجد إتصال اقتصادي بين فلسطين ومصر .

أسباب عدم معرفة إخوة يوسف له عندما قابلوه

الفائدة الثامنة – لم يعرفوه لأسباب منها أولاً : بعد الشقة ، وطول مدة الفرقة ، ومما دعا لعدم معرفتهم إياه بنوع خاص وجوده في البلاط ، في دست الوزارة المالية ، وأنه عزيز مصر ، ووكيل مليكها .

ثانياً – الشوار الذي كان على لباسه ، وتكلمه معهم بالقبطية ، لأنها هـي اللغة الرسمية ، وأنه كان حليق الرأس والفرع واللحية ، لأن تلك الهيئة هـي هيئة المصريين ، وهي عندهم هيئة العز والشرف ، وأما الذين يوفرون فروعهم ولحاهم ، فهم في نظر المصريين واصطلاحهم الأدنياء والأذلاء ، كما ثبت ذلك في التاريخ ، وعلم من الرسوم المصرية .

ثالثاً : قد تغير اسمه في دار الحكومة وعند الأهالي بموجب إدارة سنية ، صدرت عن البلاط ، لأن مليك مصر دعا يوسف « صفنات فعنيح » ، وهما كلمتان مصريتان ، قال القانون كوك : معناهما « طعام الحياة » ، أو « قوت الأحياء » ، وفسرهما آخر « بمخلص العالم » ، والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة إلى زمن القحط .

رابعاً : كان قد تغيرت صورته ، لأن سورة الإنسان وهو في سن الأربعين ، تباين صورته تمام المباينة وهو في سن ١٧ سنة ، إذ تكون قد تغيرت تقاطيعه ، واختلفت أوضاعه ، وتبدل فيه كل شيء ، حتى ملامحه وشمائله .

معنى نكر وأنكر

الفائدة التاسعة نَكِرَ بالقلب وأنكَرَ بالعين (أساس) ، فإخوة يوسف لم يخافوا منه بقلوبهم ، ولم ينفروا منه حين رأوه ، ولكنهم لم يروه في

الشكل المعروف لهم، أو رأوا له حالاً وشكلاً خلاف حال السوقة من المصريين، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المُكْرَمينَ ؟ إذْ دخلوا عليه فقالوا: سلاماً – قال سلام، قومٌ منكَرُونَ ﴾ (٥١ : ٢٤ و٢٥) وكما في قوله تعالى: ﴿ فلما جاءَ آلَ لوطٍ المُرسَلونَ، قال: إنكم قومٌ مُنكَرُونَ ﴾ (١٥ : ٦١ و ٦٢)، فمعنى قول إبراهيم وابن أخيه لوط «منكرون» إنهما لم يعرفا الملائكة في أول دخولهم عليهما، فمعنى «منكرون» مجهولون غير معروفين، وأما قوله تعالى ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى، قالوا: سلاماً – قال: سلامٌ، فما لَبِثَ أنْ جاء بعجلٍ حَنيذٍ.. فلما رأى أيدِيَهم لا تصِلُ إليه نَكِرَهُم، وأوجس منهم خيفةً ﴾ (١١ : ٦٩ و ٧٠)، فمعناه أن إبراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لم تأكل من طعامه نفر منهم بقلبه، وخال أنهم يريدون به مكروهاً، لأن عادة الشرقيين هكذا، إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلاّ خافوه، ولذلك حسن التعبير بكلمة «نكر» هذا ما نقرره بناء على ما ذكره الزمخشري في أساسه، من التفرقة بين نكر وأنكر ولكنه في كشافه لم يفرق بينهما، وأنشد قول الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت … من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصلعا

وما قاله في الأساق أدق، وهو اصطلاح القرآن الكريم، الذي أنزله الله حُكْماً عربياً، وحَكَماً لغوياً.

سبب عدم اظهار يوسف نفسه لإخوته

الفائدة العاشرة – لم يظهر يوسف نفسه لإخوته، في هذه المرة من اللقاء، خوفاً من حسدهم وإلحاقهم به الأضرار، وأن ينقلبوا عثرة في سبيل تمكنه من منصبه الذي هو فيه لأنهم إذا كانوا قد حسدوه على مجرد حب أبيه له أكثر منهم، فأخلق بهم أن يحسدوه ويضروه إذا رأوه قد تربع فوق دست وزارة المال بمصر، وأنه قد صار عزيزها ووكيلاً مفوضاً عن مليكها، وبما أنهم إخوته

فهم قديرون على ذلك ، إذ من ذا الذي يظن أن الإخوة العشرة من أبناء نبيّ الله وصفيه يعقوب ، من سلالة إسحق وذرية إبراهيم — يتألبون بالزور والبهتان على أخ منهم وفيهم ؟!؟!؟!... فلعمري إن طعنهم فيه قريب التصديق. فلذلك كان يوسف يخاف منهم ويتقي شرهم ، ويحسب لهم ألف حساب ، وهذا ما دفعه إلى التكتم عنهم ، والعاقل لا يجد له أماناً من حاسديه ، أوثق من الذعر والتحفظ ، واتقاء قربهم ، والتعرف إليهم ، والتحكك بهم ، ويحتمل أنه لذاك العهد كان لا يزال مغتاظاً منهم وحاقداً عليهم .

داعي مجيء إخوة يوسف اليه رأساً

الفائدة الحادية عشرة — لا ريب أن يوسف عليه السلام كان قد أقام أناساً لبيع الحنطة يبيعون كما يأمرهم ، فكيف أتى إخوته رأساً اليه ؟

والجواب : إن علة ذلك كثرتهم ، لأنهم عشرة ، ومعهم عبيد وخدم ، فكانوا ممن ينظر إليهم بريبة ، فلما دخلوا مصر ، رفع أمرهم إلى حاكمها يوسف عليه السلام ، لينظر في أمرهم ، وقد كان المصريون يرتابون من كل جماعة غريبة تدخل أرضهم ، ولا سيما الجماعات التي تدخلها من الحدود العربية .

يوسف يجهز اخوته بالميرة ويطلب منهم الإتيان ببنيامين

آ(٥٩) «... وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ، قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ»

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والخمسون فقام الشيخ الحديدي اليمني وقال :

أعطى إخوة يوسف ما بيدهم من الفضة ، وكال لهم يوسف القمح ، كيلا طافاً زائداً عن الحق الذي لهم ، ثم تجهيزاً لهم في إيابهم أعطوا زاداً للطريق ، وأعطاهم كل ما يصلحهم ، من كل ما يحتاج إليه المسافرون، قائلاً في نفسه :بعلة الزرع يسقى القرع ، (ولما جهزهم بجهازهم) أي هيأ لهم جهازهم ، وهو ما يحتاجون إليه في قطع المسافة ، من دقيق وسويق ، وسقاء وماء،وعلف للدواب وكل ما يلزم لهم في الإياب ، (قال) فجأة وبغتة ، بلا سابق مذاكرة : يا أبناء فلسطين لله أنتم ، إني أقترح عليكم شيئاً واحداً (ائتوني) مرجعكم إليَّ (بأخ لكم من أبيكم) ، سمعتُ به ولم أره معكم في هذه الزيارة– قال ذلك جهراً بحيث يسمعونه ثم قال بينه وبين نفسه : « لأن الشكلى تحب الشكلى » ثم رجع وقال مرغّباً : [(ألا ترون) ناشدتكم الله ، (أني أوفي الكيل) أي أكثره وأزيده بحيث يطف الحب عن المكيال (وأنا خير المنزلين) من الباعة الكيالين، الذين ينزلون المتارين عندهم ، فهم إنما يعطونهم الحق فقط ثم لا يجهزونهم بشيء من لوازم السفر ، ولكني قمت بالفريضة والنافلة ، قمت بالواجب والمستحب ، قمت بما يلزم وما لا يلزم] ، وربما كان معنى (المنزلين) بمعنى المضيفين ، لأنه يقال : أنزله بمعنى أضافه ، والتنزيل الضيف .

(ألا ترون أني أوفي الكيل ... الخ)

-١-

وقال تقي الدين العريشي [١] :

جود يوسف على اخوته وبعض الأمثلة المشابهة في التاريخ

إذا لاحظنا أن الوقت في مصر وما حولها من البلدان كان وقت جدب وغلاء وأن يوسف عليه السلام جهز إخوته بجهازهم جوداً منه وكرماً ، وأوفى لهم الكيل وزاده عن الواجب ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ، فلا ريب أن يكون خير الباعة الذين ينزلون المتارين عندهم ، فيبيعونهم بالثمن ، مقتصرين على حقهم فقط ، لا يزيدونهم عليه شيئاً ، لا سيما إذا لاحظنا أنه عمل هذا العمل مع قوم كرهوه وحسدوه وشردوه ، وإن هذا الجود الذي جاد به يوسف على إخوته ، أقصى ما يمكن أن يجريه «وزير مالية أمين» مع من أراد أن يحابيه من المتارين .

ويجمل بنا بهذه المناسبة أن نسوق للقراء بعض الأمثلة التي وقعت من الأجواد فنقول :

١ - وقع قحط في عهد « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه ، فقيل له : « إن الناس في شدة » - فقال : « إنكم لا تمسون حتى يفرج الله عنكم » فلما كان آخر النهار ، جاءت عير محملة « لعثمان بن عفان » رضي الله عنه ، من الشام فجاءه التجار وقالوا : « إن الناس في شدة قحط ، وقد قَدِم عليك مائة راحلة من البر ، فبعنا إياها » - قال : « كم تربحوني ؟ » قالوا : « تجعل ربح العشرة درهمين » -قال « زادوني أكثر من ذلك» - قالوا : « نربحك أربعة » قال: « زادوني أكثر من ذلك » - قالوا : « نحن تجار المدينة ، فمن زادك؟ » - قال

---

(١) نسبة الي بلدة العريش من فلسطين .

« إن الله زادني بكل درهم عشرة ، قال تعالى: ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ ، فله عَشْرُ أمثالها ﴾ (٦ : ١٦٠) ، أشهدكم أنها صدقة للمسلمين !!! ».

٢ً – في غزوة اليرموك ، عند المزيريب ، في خلافة عمر رضي الله عنه ، قصد بعض الصحابة ابن عم له جريح طريح بشربة ماء ، فلما وصل إليه ، سمع شخصاً جريحاً يشكو عطشاً ، فأشار إليه : أن اسقه ، فجاء فسمع آخر يشكو عطشاً ، فأشار إليه : أن اسقه ، فجاءه فوجده قد مات ، فرجع إلى الثاني فرآه كذلك ثم أتى ابن عمه ، فرآه كذلك قد مات !!!

٣ً – كان « لطلحة الخير » رضي الله عنه مال ، أربعمائة ألف دينار ، فتصدق به على المسلمين .

٤ً – وردت قافلة بتجارة من الشام « لعبد الرحمن بن عوف » رضي الله عنه فحملها وقال : « من كان من أصحاب بدر ، فله عليّ أربعمائة دينار » ، واتفق أن أعتق ثلاثين ألف رقبة ، وأوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائة ألف دينار .

٥ً – أنفق « أبو بكر » رضي الله عنه ، أربعين ألف دينار ، كما رواه ابن عساكر في تاريخه ، وقيل : كانت ثروته أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً ، معونة لرسول الله ﷺ .

٦ً – « زبيدة » امرأة هرون الرشيد ، أنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطر ما لم ينفقه أحد من قبلها ، فمن ذلك ما أنفقت في حفرها للعين المعروفة « بعين زبيدة » بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لها في كل رفع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً ، فأحصي ما أنفقت فيها فوجد ألف ألف وسبعمائة ألف دينار . وفي كتب التاريخ عدا ما ذكرنا أمثلة كثيرة من أخبار أهل الجود .

(ولما جهزهم بجهازهم ، قال ائتوني ... الخ)

-١-

وقال نور الهدى الصيداوي [1] : لنا ههنا تتمات ثلاث لشرح هذه الآية :

معنى الجهاز

١ً- قوله : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم الخ ﴾ ، لا بد له من مقدمة قولية تقديرها : إنه كال لهم فأوفى ، وأنزلهم خير مُنزل ، وجهزهم بكل معدات السفر - وجهاز الميت والعروس والمسافر بالفتح على الأفصح ما يحتاجون إليه ، وقد جهّزه تجهيزاً فتجهّز ، والجمع أجهزة ، وتجهّزت للأمر تهيأت له — قال عمر ابن عبد العزيز :

تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى ، لم تخلقي عبثاً

اشارة رمزية من يوسف لأبيه يعقوب عليهما السلام

٢ً - قوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ هذا النوع من التعبير يفيد أنه لم يسبق « لبنيامين » ذكر بين يوسف وبين إخوته مطلقاً ، وإلاّ لقال : « ائتوني بأخيكم من أبيكم » كما أن جملة: ﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ متى نقلت لأبيهم ، أوقعته في استغراب ، وأذهبت نفسه كل مذهب ممكن ، وجعلته يظن أن لهذا الرجل المصري المجمول على خزائن أرض مصر مغزى في هذا الطلب ، وإلا فمن عرّفه أن لهم أخاً من أبيهم ؟ وما هي علاقته به ؟ وألا يكفي أنه عرف عشرة من أولاد يعقوب ؟ فهل من الضروري أن يتعرف للحادي عشر ؟ وما هي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ، وما هي الأهمية يا ترى؟ وما المناسبة بين « عزيز مصر » وبين « بنيامين » ؟! وما فائدة العزيز من مجيء بنيامين ؟!

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

كل هذه الأسئلة لا بد أن ترد على ذهن يعقوب ، ولا بد أن يستنتج منها احتمال أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، هو على الأقل يعرف يعقوب ، ويعرف أن له ولداً غير هؤلاء العشرة ، وأنه أخوهم من أبيهم . ويستنتج أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، ذو علاقة خصوصية ببنيامين دون سواه ، وعليه فلا بد أن يعقوب يقول في نفسه حينئذ : « إن في الأمر لسراً» وبالنتيجة كأني بيعقوب عليه السلام قد قام عنده احتمال أن هذا المتكلم بهذا الكلام ، الطالب هذا الطلب ، إما أن يكون يوسف ، أو رجلا يعرف يوسف وله به علاقة ، ولذلك سيأتي له أن يقول لأولاده : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ ، فلكأني به أنه ظن أن يوسف بمصر ، وعلى هذا فما كأن هذه الجملة إلا برقية شِفرة من يوسف لأبيه ، أو لغز لا يحله إلا يعقوب ، أو إشارة رمزية وكل لبيب بالإشارة يفهم .

هذا ما يجب أن تحمل عليه الآية الكريمة ، وأما من حملها من المفسرين على غير ما ذكرنا فهو كمن يقول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام ، والأذن للشم ، والعين للسمع .

ويمكننا أن نقول أيضاً أن تجهيز يوسف إخوته بما يلزم لهم في سفرهم ، وطلبه منهم الإتيان بأخ لهم من أبيهم ، هو ليسمع يعقوب بما عمل ابنه يوسف وما قال ، فيتحرك ذهنه ، ويدرك أن في الأمر سراً ، وإلا فما هو السبب الذي يدعو « عزيز مصر » لتجهيزهم بلوازم سفرهم ، وإيفائه لهم الكيل ، أي زيادته ، ولطلب بنيامين ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ؟؟

حقاً إن هذه الأعمال والأقوال لتقتضي الدهشة ، وتوجب التفكر والبحث الذهني العميق ، وتستدعي التدبر في مرمى ذلك ، وما هو المقصود منه؟ لاريب أن يوسف ترجى أن يفهم أبوه أن في الأمر سراً ، فيتحرك ذهنه ، ويشرع في التفكر والبحث عن ذلك السر ، لعله يحوم حول ولده المفقود ، فكأن يوسف

بما عمل وما قال ، اعتبر إخوته كالآلة المسجلة التي تنقل الكلام من غير فهم لسره ومرماه ، ولا ندحة من أنه قد اختلج في صدر أبيه شيء من هذا القبيل ، فنحن نرى أن يعقوب عليه السلام حام حول ما أراد يوسف .

لقد كان يعقوب سابقاً يتحقق أن ابنه حي يرزق ، استناداً على ما رآى ولده يوسف من الرؤيا الجيدة ، إنما أين هو ، فسؤال كان لا يعلم له جواباً ، وأما الآن ، فإنه فهم من هذه الرموز ، أن ابنه يوسف بمصر ، بدليل أنه قال لأولاده عند زيارتهم مصر للمرة الثالثة : ﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ آ (: ٨٧) وإلا لم يكن معنى للتحسس عن يوسف في مصر خاصة ، فما ذاك إلا لكون يعقوب ظن أن يوسف بمصر ، الأمر الذي هو سر تلك الأعمال ، وبهذا يمكننا الاعتذار عن يوسف في أخذه بنيامين واسترقاقه عنده ، حيث ربما يعترض معترض على يوسف بأن هذا العمل يسيء أباه ، فكيف أقدم عليه ؟ فيكون الجواب عن هذا الاعتراض أن يوسف قبلما يأخذ أخاه ، أفهم أباه بلطف بما عمل من تجهيزهم بجهازهم وإنزالهم خير منزل ووضع بضاعتهم في رحالهم ، وما قال من قوله : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » - أفهمه بهذا العمل وهذا القول إنه بمصر ، وكل لبيب بالإشارة يفهم. هذا ما يلوح لي ، تبعاً للأخ الأستاذ الحُديدي حفظه الله ، والله تعالى أعلم .

وجه قبول إخوة يوسف منّة أخيهم

٣ - قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ، إن قال قائل : كيف قبلوا منه هذه المنة وسكتوا عليها ، والشاعر التميمي يقول :

إن الذين يسوغ في أعناقهم　　زاد يمن عليهم للئام

قلنا : إنه لا لوم في قبول الرعايا منة الأمراء والملوك ، كقبولها من نحو الوالدين والمؤدّبين .

وجواباً ثانياً - وهو أن من رضي لنفسه بقطيعة الرحم والكذب والعقوق وإلحاق الضرر بأبيه وأخيه ، هو أقل من أن يربأ بنفسه عن قبول منة الناس ، كيف وهم رضوا لأنفسهم هذه المنزلة إذ قالوا : « وتصدق علينا » كما سيأتي :

سلسلة كرم يوسف مع إخوته

٤ً – يوسف هنا جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وأنزلهم خير منزل ، فهذا من رجل مشرَّد فعله مع مشردين ، مظهر من مظاهر الكرم ، وأكبر منه قوله فيما يأتي : ﴿ وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ (آ : ٩٣) وأكبر من هذا وهذا ، كرمه المعنوي الذي عبر عنه بقوله ، ﴿ لا تَثْريبَ عليكم اليومَ يَغفرُ اللهُ لكم ، وهو أرحمُ الراحمين ﴾ (آ ٩٢). مرحى

دواعي طلب يوسف لبنيامين

٥ً – رآى يوسف إخوته العشرة ، فهاجت فيه ذكرى أخيه بنيامين ، وتنبهت أشجانه وقامت نفسه لرؤيته ، وجهده الشوق إليه ، فلذلك ولأجل أن ينقذه من براثن إخوته الغارزة في جسمه ، رغب إليهم أن يرجعوا به في السفرة الثانية ، من قبيل من رمى حجراً لكي يصيد به صيدين .

كما أنه نظراً لأن يوسف كان يتوسم من وراء مجيء شقيقه نوراً يهتدي به استطلاع أحوال أبيه ، والأسرة اليعقوبية بصورة مفصلة ، تكفل وقوفه على أحوال إخوته ، ماظهر منها وما بطن ، حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ونظراً لأن بنيامين هو أخوه الشقيق الأصغر ، فكان بالأشواق الكلية إليه — نظراً لذلك كله ، حسن في عين يوسف ، أن يطلب منهم « بنيامين » فقال لهم : اسمحوا لي أن أقترح أمراً ، ربما لا يكون فيه صعوبة عليكم ، أمراً تتوخون به مسرتي ، وتتحرون به رضاي ، « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » الخ.

منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين

٦ - قوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ : تعلمون أن يوسف عليه السلام كان يحب « بنيامين » حباً جماً ، ولماذا يا ترى ؟.. لأنهما نشآ في خيمة واحدة كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد ، فهو نام معه وليداً ولعب معه طفلاً وتسار معه فتى ، وذاق معه حلاوة السمر ، وذاق معه مرارة موت الأم وشرب معه كأس كره الإخوة إياهما ، زد على ذلك أن يوسف كان لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، إلا في قلب بنيامين، كما أن بنيامين كان كذلك ، لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، سوى قلب يوسف ، فبنيامين شارك أخاه يوسف ، في كل هذه الأدوار والمعاني ، فهذا — مع كونهما شقيقين - هو منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ، تلك المحبة الفائقة .

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذهاب
لم أبلغ المعشار من حقيهما فقد الشباب ورؤية الأحباب

لماذا لم يذكر أباه بشيء

٧ — لسائل أن يسأل قائلاً : يقول الشاعر جرير في إحدى قصائده التي يمتدح بها بعض الأمويين :

هذي الأرامل التي قد قضيت حاجتها : فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر ؟

ونحن نقول لسيدنا يوسف عليه السلام : قد قضيت حاجة إخوتك بني العلات بإيفائك لهم الكيل ، وإنزالك إياهم منزلاً حسناً ، بل وبجعلك بضاعتهم في رحالهم ، حتى صاروا آخذين القمح مجاناً ، وقضيت حاجة أخيك بنيامين بطلبك إياه للترفيه عنه ولرؤيتك إياه ، ولكن من لحاجة ذاك الأرمل الذكر ، أعني والدك الشيخ الباكي الحزين ، فإننا لم نسمعك ذكرته بكلمة .

ولنا على هذا جوابان :

الجواب الأول أن يوسف يعرف أخاه بنيامين لم يبشر بشيء من الله في مستقبل أخيه يوسف ، فهو لا يعرف عنه من هذا القبيل شيئاً ، وإذاً فليس له فيه رجاء ، فعيشته إذاً هي عيشة نصب وشقاء ، فلذلك أراد يوسف سعادته بإحضاره إليه ؛ وهذا بخلاف أبيه يعقوب عليه السلام، فهو يعرف مستقبل ولده ويتأكد تلك البشائر الربانية عنه، فعيشته إذاً ليست عيشة شقية ، باعتبار ما له من الأمل والرجاء ، وإن الذين يعيشون بالأمل ؛ ويحيون بالرجاء، لهم بعيدون عن الشقاء والنصب .

الجواب الثاني – لا يحكى إلا من فم الأذن .

سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب

٨ٓ يقولون في المثل : « إذا لم تغلب فاخلب » فيوسف عليه السلام لما لم يستحسن قهر إخوته على إتيانهم ببنيامين سلك مسلك المصايدة والزلفى، تذرعاً منه لمجيئهم به في السفرة الثانية .

كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم

٩ٓ - قوله : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ﴾ ، خطب « معاوية » خطبة ، أعجب بها كثيراً ، وفاخر ببلاغتها ، وحسن صياغتها ، فقال : « أيها الناس ، هل ترون في خطابتي من خلل ؟ فأجابه رجل : « نعم خَلَلٌ كخلل المنخل » – فقال معاوية : « وما يكون هذا الخلل ؟ » ، فأجابه الرجل : « ذلك الخلل هو إعجابك بها ومدحك إياها » .

هذا شيء ، وشيء آخر أهم منه وهو قوله تعالى : ﴿ الذينَ يُنفِقونَ أموالهم في سبيل الله ، ثم لا يُتْبِعُونَ ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى ، لهم أجرُهُم عند

ربهم ، ولا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزنون ؛ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ ، خيرٌ من صدقة يتبعها أذىً ، والله غنيٌ حليمٌ ، يا أيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ الخ (٢ : ٢٦٢ – ٢٦٤) وفي حديث علي رضي الله عنه : « آفة السماحة المنّ » ، وعلى ما ذكرنا فلو قال قائل : كيف يعجب يوسف بعمله ، وكيف يمن على نزلائه بما جادت به مروءته عليهم ؟ فإنا نجيب بثلاثة أجوبة :

الجواب الاول – إن يوسف عليه السلام إنما تكلم معهم ، لا باسم أنه يوسف ابن يعقوب ، ولكن باسم « عزيز مصر » وعزيز مصر أجنبي عنهم في المذهب والجنسية ، فهذا القول هو على حساب « عزيز مصر » لا على حساب « يوسف » .

الجواب الثاني – إن هذا من يوسف عليه السلام ، شروع في تشذيب نفوسهم العاتية ، وبدء في تخضيد شوكتهم الصلبة ، وفائدته تعود عليهم بالتهذيب والخضوع .

الجواب الثالث – يوسف لم يقصد الإعجاب ولا المن ، ولكنه قصد بما قال ترغيبهم وتشويقهم للرجوع بأخيهم من أبيهم ، فهذا كل ما أراد من كلامه ، لا أقل ولا أكثر .

محاولة يوسف اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم

١٠ – شوّقهم يوسف بالآية الحاضرة (ألا ترون .. الخ) وهددهم بالآية الآتية (فإن لم تأتوني به .. الخ) (آ ٦٠) فسلك معهم بهذا القول وذاك القول مسلك من يكلّيم بيد ، ويأسو بأخرى ، وبعبارة ثانية - أحاط يوسف هذا الطلب الذي طلبه ، بالورود والرياحين أولاً ، ثم بالقنابل والدبابات ثانياً ، وبعبارة ثالثة – هذه الآية والتي بعدها ، يمثلان لنا بابي « الإغراء والتحذير » الذين يذكران في علم العربية ، ثم إن الغرض الذي أراده يوسف من ذلك ، يمثل لنا

« باب الاختصاص » الذي يذكره النحاة أيضاً ، لأنه أراد بهذا العمل وهـذا التدبير ، أن يستحوذ على « الاختصاص » بشقيقه بنيامين .

محاولة يوسف رجوع إخوته بنيامين عن طريق الترغيب والتحبيب

١١ً – ويفهم من ظاهر قوله « ألا ترون .. الخ » مع الآيات الثلاث التي بعده ، أن يوسف عليه السلام ، إنما حاول رجوعهم ببنيامين عن طريـق الترغيب والتحبيب والإغراء والتحذير ، فلم يهز في وجوههم ولم يتهمهم بجاسوسية ، وقيل إنه حاول الحصول على ذلك عن طريق القوة والإرهاب ، والقهر والإزعاج ، حيث اتهمهم بالتجسس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم وارتهن عنده أخاهم شمعون وقيده لبينما يرجعون ببنيامين، كما حكاه أكثر المفسرين الذين لم يأتوا عليه بسلطان مبين ، وليس له مصدر سوى سفر التكوين (تك ٤٢ : ٩ – ٢٤) ، وهو يخالف ظاهر الآيات الأربعة (آ ٥٩ - ٦٢) ، فحشر ما ذكرته التوراة مع كلام الله تعالى هنا هو من قبيل حشر الأروى مع النعام ، أو الجمع بـين الغواصات والطيارات .

نعم نعم ، إن يوسف إنما جاءهم من باب التشويق والترغيب ، وأرادهم على الإتيان بأخيهم من طريق الإقناع ، دون طريقة القسر ، لأن طريقة الإقناع هي التي تولد الميل في الإنسان ، ليجتهد في تحصيل ما يراد منه ، وأما طريقة الإكراه والإجبار ، فلا تجعل إخوته يميلون لإقناع نفوسهم ، فلا يجتهدون لإقناع والدهم فلا يحصل الغرض المروم ، وأما قوله : (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) فهو غير مجبر لهم الإتيان بأخيهم ، إذ يمكنهم — بكل سهولة —أن يرسلوا عبيدهم وخدمهم بدلاً منهم ، ويوسف عليه السلام يعرف كل هذا الذي ذكرنا ، لأنه حكيم وذو مدارك عالية ، فلا يمكنه أن يزعجهم ، ولا تساعـده

الحكومة المصرية على حبس أو تقييد أخيهم شمعون ، لأنه مهما كان مطلق اليد ، فلا بد أن يكون إطلاقاً نسبياً ، فلا ندحة من أن يكون مقيداً بنظامات الحكومة المصرية وقوانينها ، ولهذا كان مسلكه مع إخوته مسلك حيلة وترغيب كما نتعلمه من (آ ٥٩ - ٦٢) هذا ما أعثرنا الله عليه من الفهم في كتابه ، والله سبحانه أعلم .

معنى الايفاء ووجه امتنان يوسف على اخوته

١٢ - أوفى الشيء كَثُرَ ، وأوفاهُ : كثَّرهُ ، فالمادة في بعض المواضع كما هنا ، تدل على الكثرة والزيادة ، كما يقال : أوفى على المائة : إذا زاد عليها ، ويقولون في المدح : « هو أشعر أهل زمانه ، والموفي على أقرانه » ، وفي سنن ابن ماجه : « جاء اعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضى ديناً له عليه ، فقضى الاعرابي وأطعمه أي أعطاه زائداً عن حقه طُعمة له ، فقال : أوفيتني ، أوفى الله إليك » ، والكثرة في الكيل إنما تتحقق بالزيادة على الحق ، بحيث يصير على الكيل أعلى من حرف الصواع لا سيما وأن هذه المادة أيضاً تدل على العلو ، فإنه يقال : «أوفى عليه : أشرف » ، فالمعنى الذي أراده يوسف ههنا ، أنه كال لهم وزاد عن استحقاقهم في الكيل ، بحيث جعل القمح يعلو طرف الصواع ، هذا ما يظهر لنا ههنا ، وبه يظهر وجه امتنان يوسف عليهم بذلك ، وإلا فالبائع لا يصح له أن يمن على المشتري إذا كان اقتصر على إعطائه حقه فقط ، قلنا - والشيء بالشيء يذكر وبهذا يظهر وجه الذم في قوله تعالى: ﴿وَيلٌ للمُطَفِّفينَ ، الذينَ إذا اكتالوا على الناسِ يَستَوفونَ ، وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسِرون﴾ (٨٣ : ١ - ٣) فهذا الاستيفاء هو زيادة عن الحق ، في الكيل لأنفسهم ، ولذلك قابله بقوله : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون » ، فالاستيفاء والإخسار ضدان ، والوسط هو وصول الحب المكيل إلى طرف الصواع من فوق ، من غير أن يزيد عنه أو ينقص ، وبهذا التحقيق أيضاً يظهر وجه قول إخوة يوسف في السفرة الثالثة : ﴿ يا أيها العزيزُ مسّنا وأهلَنا الضُرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ ، فأوفِ لنا

الكيلَ ، وتصدّق علينا ، إنّ الله يَجزي المتصدقين﴾ (آ : ٨٨) ، قدموا له الرجاء أن يزيدهم وأن يكون بذلك متصدقاً عليهم ، وإلا لما كان وجه لقولهم: (فأوف لنا الكيل) لأن حقهم سيصلهم قطعاً ، كما جربوا ذلك منه في السفرتين الأوليين ، هذا ما فتح الله به ، وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله رب العالمين .

(مرحى)

يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ(٦٠) « فإنْ لم تأْتوني بِهِ ، فلا كَيْل لكُمْ عِندي ، ولا تَقْربونِ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الستون ، فقام الشيخ الرشيدي[١] وقال :

سبق أن يوسف قال لإخوته بلهجة السرور والترغيب ﴿ ألا ترون أني اوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾ ، والآن يقول لهم بلهجة النفور والإرهاب: ﴿فإن لم تأتوني به ﴾ أي ببنيامين وتستقدموه معكم ، (فـ)لاأخفي عليكم أنه (لا كيل لكم عندي) فضلاً عن إيفائه (ولا تقربون) بدخول بـــلادي ، فضلاً عن الإحسان في الإنزال ، فانظروا لأنف مصلحتكم ، فأنتم من أهل الحجى والنهى أقول قولي هذا صدقاً وإعذاراً وإنذاراً ، والله يتولى هداي وهداكم .

فإن تدن مني تدن منك مودتي		وإن تنأ عني تلقني عنك نائيا
كلانا غني عن أخيه حياتـــه		ونحن إذا متنا أشـــد تغانيا

لم يأل يوسف جهداً في تمهيد المقدمات ، وتذليل العقبات التي تقف في طريق حظوته بأخيه بنيامين ، فاستعمل مرة اللين ، ومرة بعض الشدة ، رغماً عن كونه لا

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية .

يريد إزعاجهم بحرف واحد ، ولكن ضرورة الحال أحرجته فأحوجته لما قال:

بين لهم بما سبق من قوله وبهذا القول الحاضر أن إليه الرَّتْق والفَتْق وبيده البسط والقبض ، وانه قدير على النفع والضر ، متمكن من القبول والرد، سياسة حكيمة ، وخطة معتدلة ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، يُطمع ويؤيس ، يوحش ويؤنس ، رسم لهم الطريقين وهداهم النجدين ، ليختاروا لأنفسهم ما يحلو ، وقول يوسف (فإن لم تأتوني به..الخ) هو أول رصاصة رماها في أول هذه المعمعة ، وقوله الآتي لفتيانه: (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ..الخ) هو ثاني رصاصة ، وأما (القنبلة) فهي جعله السقاية في رحل بنيامين كما سيأتي في (آ : ٧٠) .

(فان لم تأتوني به ... الخ)

— ١ —

وقال الامام سعيد المنتفكي[١]:

يوسف ينذر إخوته إذا لم يأتوه ببنيامين

يقول يوسف عليه السلام : إن لم تأتوني بأخيكم فسوف أعرقل مساعيكم ، بأنه لا كيل لكم عندي حين تنقلبون لمصر ثانية ، كما ولا تقربون بلادي ، ما كرّ الجديدان ، وتعاقب الملوان ، فإن لم تفعلوا ما أشير عليكم ، فدون بلوغ مناكم عندي شرخ القتاد ، فعلى إتيانكم ببنيامين يتوقف كيلي لكم ، بل دخولكم بلادي ، وإن حصولكم على الميرة المرة الثانية معقود بمجيء أخيكم معكم ، أفهمتم ؟... لا تنسوا شرطي ، فالشرط أملك ، عليك أم لك ، أنتم مخيرون بين شهد الحياة وصاب الموت ، بجيئكم بأخيكم هو أشبه بورقة الجواز التي يحملها المسافر ، فإن أبرزها حين وصوله للحدود دخل المملكة الأخرى ، وإلا

(١) نسبة الى المنتفك وهو اسم أحد الألوية العراقية الجنوبية .

.. فلا .. وهكذا أنتم إن أتيتم بأخيكم سمح لكم بدخول بلادي، وإلا.. أرجعتم على أعقابكم ، ونفوسكم الملومة ، ها أنا ذا قد أنذرتكم ، قبل أن تقرعوا السن ، ومن أنذر فقد أعذر ، هذه وصاتي إليكم ، فإن عملتم بها ، حمدتم غبّ رأيكم ، وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وإلا فلا آمن عليكم ما أكره وتكرهون ، وبالجملة والاختصار ، إن أتيتموني به أدنيتكم ، وإلا دِنتكم ، ولا يمكني أن أكيل لكم ولا أراكم في بلادي .

هذا مرمى كلام يوسف عليه السلام مع إخوته العشرة . ومن ههنا عول على أن يجمع قواته وينازل بها إخوته في موقعة فاصلة ، هي حرب ولكنها حرب تحت طيّ الخفاء ، حرب تدبير وتفكير .

(والشيء بالشيء يذكر) أتذكر أنه كان دفع رجلان إلى امرأة مائة دينار وديعة ، وقالا لها : « لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه » فلبثا ما شاء الله أن يلبثا ، ثم جاء أحدهما فقال : « إن صاحبي قد مات ، فادفعي إليّ الدنانير » فأبت وقالت : « إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ، فلست بدافعتها إليك » ، فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها إليه ، ثم لبثت ما شاء الله أن تلبث ، فجاء الآخر فقال : « ادفعي إليّ الدنانير » - فقالت : « إن صاحبك جاءني فزعم أنك قد مِتّ ، فدفعتها إليه » - فقال : « إنه لعب عليك وذهب هارباً ، فاختصما إلى القاضي فعرف أنهما قد مكرا بها ، فقال : « أليس قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ؟ » - قال : « بلى » - قال : « إن مالكما موجود عندها ، فاذهب فجيءْ بصاحبك حسب شرطكما ، حتى تدفعه إليكما ، فإن الشرط أملك » ، وهكذا يوسف عليه السلام إذا رجع إخوته إليه بدون بنيامين وأرادوا الميرة يقول لهم : « قد اشترطت عليكم أن تأتوني بأخ لكم من أبيكم ، ولم تفعلوا ، فليس لكم عند ميرة حتى تأتوني به » .　　(مرحى)

وعد الإخوة بإحضار بنيامين لمصر

آ (٦١) « قالوا : ... سَنُراوِدُ عنه أَباهُ ، وإنَّا لَفاعِلون » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والستون ، فقام الشيخ راشد البيساني[1] وقال :

(قالوا) أي إخوة يوسف بلسان الوعد والموافقة ، لبيك ، نحن أطوع لك من ظلك ، وبالله إننا لنبتهج حدّ الابتهاج بما نلناه من التفاتك ، وأنت عزيز مصر — لسوقة غرباء مثلنا ، ونفتخر بما أصبناه من الحظوة في عينيك ، وعليه فسنصدع بأمرك ، رغماً عن أنه لا قبل لنا بهذا المطلوب ، ولا يدان لنا بحصوله ، لأن أمر أخينا من أبينا ليس بيدنا ، بل (سنراود عنه أباه) ولسوف لا نألو جهداً في إقناعه (وإنا لفاعلون) معه جهد الاستطاعة أن يرسله معنا ، متى رجعنا المرة الثانية .

(قالوا : سنراود عنه أباه ... الخ)

– ١ –

وقال شمس الدين الدمياطي [2] :

وعد الإخوة بإحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة أبيهم

حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة ، وهي ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر المرة الثانية ، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به ،

---

(١) نسبة الى بيسان من فلسطين .

(٢) نسبة الى بلدة دمياط من البلاد المصرية .

خاطبوه قائلين له باعتباره انه عزيز مصر : أيها العزيز – لقد رغبت في أمر كؤود المطلب وعر الملتمس ، فإن أخانا هذا الذي ترغب في مجيئه ، أصغر أولاد أبينا الشيخ وابن شيخوخته ، وقد اتخذه أكبر مُعزّ له بعد أخ له مفقود ، فالإتيان به إن لم يكن متعذراً ، فهو متعسر ، فلو قلنا لك : لسنا هناك ، لأن الأمر ليس بيدنا ، بل بيد أبيه الشيخ كنا صادقين ، وإن قلنا لك : « إذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع » وإن هذا الأمر ليس إلينا كنا معذورين ، ومع ذلك فقد أذنا لك وسمعنا وأطعنا .

تأكد أيها العزيز أنه لقد مضى علينا مدة تنيف عن العشرين سنة ، ونحن في أمر أخينا من أبينا هذا على « الحياد الدقيق » لا نكلف أباه شيئاً مما يتعلق به ، وذلك من جراء حادثة لشقيق له كان خرج معنا فهلك ، فلذلك من الصعب أن نكلم فيه أباه بشيء ، ولا نستطيع أن نغتصب منه اختياره أو نصادر حريته الشخصية ولكننا سنتلطف معه برقيق العبارة ، ورشيق الحيلة ، فلعله ينزل على رغبتنا ، رغماً عن أنه سيكون في هذه المرة صعب المراس جداً .

أيها العزيز – إن المراودة هي في ذاتها هينة ، أهون علينا من قطع الخيط ، ولكن الصعوبة والإشكال ، في قبول أبيه مشورتنا فإن نجحنا فذاك ، وإلا فمعذرة منا إليك سلفاً ، وما تلك المعذرة سوى كلمة واحدة هي « العجز » فإنا لا ندري ماذا سيكون جواب أبيه ، أيرسله معنا أم لا ؟ فقد نُصدّقُ إن قلنا لا ، وقد نُصدّقُ إن قلنا : نعم ، فنحن سنبدأ والتمام على الله .

وكأني بيوسف قد ثنى على كلامهم بقوله : ها أنا أنتظر رجعكم ، وأتنجز وعدكم ، فلنفترق على هذا الاتفاق ، أودعتكم الله ، سافروا بسلام .

يوسف يأمر بإعادة ثمن الميرة لإخوته لضمان مجيء بنيامين

آ (٦٢) « وقالَ لِفِتْيانِهِ : اجْعَلوا بضاعَتهم في رِحالِهم لعلهم يَعرِفونَها إذا انقلَبُوا إلى أَهْلِهِم ، لعلهم يَرجِعون ... »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والستون فقام العلامة التدمري[1] وقال:

أشفق يوسف أن لا ترجع إخوته ، فانتدب بعضاً من غلمانه الكيالين ، أحضرهم (وقال لفتيانه) هؤلاء ، وَيْهَ أيها الغلمان أغفلوا هؤلاء القوم الكنعانيين ، و (اجعلوا) ضعوا (بضاعتهم) فضتهم (في رحالهم) عدالهم بحيث تخفونها عن عيونهم ، (لعلهم يعرفونها) يطلعون عليها (إذا انقلبوا) منصرفين (إلى أهلهم) في فلسطين متى فرغوا ظروفهم ، (لعلهم يرجعون) إلينا ثانية .

ففعل غلمانه ما أمرهم به ، إذ كانوا أطوع إليه من ظله ، وكأني بيوسف قد أخذ يردد في نفسه قول القائل : « ليس من رسول كالدرهم » :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على غيره يُستغن عنه ويذمم

ثم قال : لعلهم يرجعون إلينا ببنيامين لأنه حجر الزاوية ، وهو المقصود من هذه الأعمال ، ولعلنا بذلك نفتح باب الحركة وندير المعركة في فلسطين ، ونحن جالسون ههنا في « صوعن » فنخضد شوكتهم ، وينزلون شيئاً من شكيمتهم ونزقهم لعلهم يرجعون فإنهم بواسطة ذلك يحبوننا ويثنون علينا عند أبيهم فنصل إلى غرضنا :

والناس أكبر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

(١) تدمر احدى المدن السورية .

نعم لعلهم يرجعون — فسيكون لي ولهم شأن ، فإن هذا حادث له ما بعده وإن مع اليوم غداً ، فإن لم يرجعوا فعلى بضاعتهم السلام .

ثم صار يوسف ينتظرهم بكل فروغ صبر ، ويردد في نفسه معنى قول الشاعر :

عسى الملك المجيب لمن دعاه　　يساعدني ويعلم كيف شكري ؟
فأجزي بالكرامة أهل ودي　　وأجزي بالعداوة أهل وتري

وههنا لا بد من التنبيه على المسائل التالية :

سعي يوسف بمجيء بنيامين بالقول والفعل

١ً – ترى من هذا أن أمر رجوع إخوة يوسف ببنيامين قد أصبح شغله الشاغل ، حتى أنه لم يكتف بما فاه به أمامهم من الوعد والوعيد ، بل أتبعه بالعمل الجدي ، والفعل الفوري ، الذي يرجو أن يكون الدافع الوحيد لرجوعهم ببنيامين ، والكفيل لنجاح مساعيه ، وان هذه المنفعة المادية ، ستكون كجاذب مغناطيسي لهؤلاء القوم « أبناء العم المحترمين !! تقودهم إلى الرجوع فوراً ، بلا أدنى تردد ، لا سيما في أيام كهذه ، فإن « أبناء العم » هم الأمة الوحيدة ، في محبة المنافع المادية !! كما هو معروف ومشاهد لهذا العهد !!

المراد من كلمة « الفتيان »

٢ً - الفتيان هنا بحسب اصطلاح المصريين ، الخول والخدم والجند والتبعة والمستخدمون والكيالون .

ماذا أراد يوسف برد بضاعة إخوته إليهم

٣ً – أراد يوسف عليه السلام بهذا العمل أن يحمل إخوته متى رجعوا إلى فلسطين وعرفوا ما فعل ببضاعتهم — على حسن الظن به ، وانه قد بلغ من

الكرم والسماحة والجود حداً لم يبال معه أن يعطيهم ما طلبوا من الميرة بلاعوض ولا ثمن فيوسف أتى ذلك العمل ليجرىءإخوته على الرجوع وليعرفوا أنه محسن لا عدو وأنه يتوقع منه ما لا يعلمون من الخير .

كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية

٤ – سألني سائل قائلاً : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتصرف بأموال الخزينة المصرية مع أنه لم يكن سوى موظف يجب عليه أن يشتغل في مأموريته بأمانة .

فأجبته بقولي أولاً - لناظر بيت المال أن يصرف شيئاً من الخراج في سبيل المصالح العامة التي منها مساعدة الغرباء المحتاجين ، ولعل إخوة يوسف منهم .

وثانياً – كانت المساعدات التي أداها يوسف لمصر ، والخدمات التي خدم بها أهلها ، بمثابة خميرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد ، فإنه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات سني الخصب .

ثالثاً – يقول الله تعالى : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين ، والعاملينَ عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقابِ والغارمينَ ،وفي سبيلِ اللهِ وابن السبيل﴾ (٩ : ١٦) وربما كان إخوة يوسف فقراء أو مساكين ، ولا ينافيه أنهم أتوا للميرة على دواب لهم ، لأنهم كانوا يحتاجون للدواب للركوب عليها في روحاتهم وجيئاتهم ، لأنهم من الرحل ساكني الخيام ، فهي نظير آلة الجهاد للمجاهد ، وكتب العلم للعالم ، وآلة الصناعة للصانع ، ودواب السفر لمن يعيش بالمكاراة ، والضرب في الأرض ، وكالسفينة للملاح ، قال تعالى على لسان العبد الصالح : ﴿ أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملون في البحرِ ﴾ (١٨ : ٨٠) فهذه السفينة كانت ملكاً لهم ، وملكهم لها لم يخرجهم عن المسكنة ، لما عرفت من

أن الآلات التي تقوم بها المعيشة مستثناة ، وربما يكون يوسف عليه السلام ، قد أعطاهم فضتهم وميرتهم لأنه اعتبرهم من « المؤلفة قلوبهم » أعني بذلك تأليف قلوبهم للرجوع بأخيه بنيامين ، كما قال ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ هذا مذهب له واجتهاد منه ، لا يجوز لنا أن نعترض عليه فيه لا سيما وأن له شرعة ومنهاجاً غير شرعتنا ومنهاجنا ، والله أعلم . وههنا شيء دقيق وهو أنه يظهر من قرائن الأحوال أن يوسف عليه السلام كان متمتعاً بما يشبه الاستقلال الإداري ، فكان يتصرف فيما عهد به إليه تصرفاً مطلقاً ، زيادة عن بقية مأموري الدولة ، فكان يوسف متفوقاً على باقي وكلاء الملك ، لأنه كان هو « العزيز » القابض على ناصية المال ، وهو الوكيل الأعظم والصدر الأعلى .

وأما ما أجاب به فريق من المفسرين بما مرماه : (أن يوسف عليه السلام موحد يشتغل في أموال قوم وثنيين ، فيجوز له أن يأخذ منها ما وصلت إليه يده) فهو جواب غير صحيح ، لأنه إنما يجوز أكل مال الحربي في داره فالعقود الفاسدة التي لا تحل في دار الإسلام ، كالربا والبيع الفاسد ، والحادثة التي ههنا لم تتوفر فيها هذه القيود ، أولاً - لأن « الريان » ليس حربياً ليوسف . ثانياً - ليس من عقد فاسد جرى بين يوسف والريان ، ثالثاً - إن يوسف عليه السلام ، وكيل عن الملك الريان « والوكيل مؤتمن » لا سيما وقد وضع فيه الريان ثقته وقال له : (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فيجب أن يكون الريان أميناً لدى يوسف كما كان يوسف أميناً لديه ، كما هو مقتضى الشهامة والمروءة ، فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين ..

معنى الرحال

٥ - كلمة « رحال » هنا هي التي سميت « متاعاً » في قوله تعالى : ﴿ ولما فتحوا متاعَهم ﴾ (آ ١٥) و « أوعية » في قوله بعد ﴿ فبدأ بأوعِيَتِهم ﴾

(آ ٧٦) فالجميع بمعنى لفظ « العِدال » الذي عبرت به التوراة ، ويقال أيضاً « غرارة » و « جوالق » و « كيس » جمعه « أكياس» وهو ما عبرت به التوراة أيضاً في موضع آخر .

مقصد يوسف مما قاله لاخوته ومما فعله معهم

٦ – قال يوسف ما قال (آ ٥٩و٦٠) وفعل ما فعل (آ ٦٢) لكي يستعين بإرادة إخوته على إرادة أبيه ، لأنه يعلم أنه يصعب على أبيه السماح لأخيه « بنيامين » السفر لمصر ، ويوسف عليه السلام كان بإكرامه لهم ، وجعله بضاعتهم في رحالهم كصائد رآى طيوراً لا يريد اصطيادها ، لأنه لا يهواها ، ولكنه رمى لها الحب على أمل أنها بعدما تأكله تطير وترجع بطير يريد ذلك الصائد اصطياده لأنه يهواه ، وما قال رأيه فيما فعل ، فإنهم لما وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، أكدوا على أبيهم بأخذ أخيهم ، فرضي بعدما كان قد امتنع ، ورجعوا لمصر بذلك العصفور الجميل ؛

إن العظيم عظيم في كل شيء ، حتى في حيلته التي يجريها توصلاً لمرامه ، فيوسف أراد أن يحضر إليه أخوه بنيامين ، فتذرع بكل ما يقدر عليه من الذرائع ، فذكـّر ، وبشـّر ، وأنذر ، وحذر ، ومؤخراً أرجع إليهم بضاعتهم ، تشويقاً لهم في رجوعهم به إليه .

لماذا لم يخبر يوسف إخوته بجلية الواقع في سفرتهم الأولى

٧ – سألني سائل : لماذا لم يخبر يوسف عليه السلام إخوته بجلية الواقع ويرغب إليهم أن يذهبوا بقميصه في هذه السفرة الأولى ، ليلقوه على وجه أبيه تعجيلاً لارتداده بصيراً ؟ ولم أخر يوسف عليه السلام هذا التوضيح والبيان للسفرة الثالثة بعد اللتيّا والتي ، وبعد ما بلغت الروح التراق ، وقيل من راق ؟

وغما بلغت القلوب الحناجر ، وبلغ السيل الزبى ؟ وهل يجوز للطبيب أن يؤخر عن المريض علاجه النافع ، لمدة يعاني فيها المريض أشد المشقة ، خصوصاً وهو يعلم أن هذا العلاج طب ساعة ، وهو الترياق المفيد تواً ؟

فأجبته بقولي : لعله خاف لو أخبر إخوته منذ الآن ، ولم تكن قد تشذبت أخلاقهم ، ولم تخضد شوكتهم بعد ، أن يعملوا مكيدة يكيدون له بها ، فيحدق به الخطر ، ويتزعزع مركزه بمصر ، خصوصاً وهو كان متهماً بتلك الجريرة السيئة ، فلذلك أخَّر إظهار نفسه للسفرة الثالثة ، حتى تكون قد سكنت ثورتهم ، وهيض جناحهم ، وتشذبت أخلاقهم .

ثم قلت للسائل : وعندي جواب آخر ، وهو أن صاع قصاص ... لم يمتلىء بعد ، لأن العشرين .. في مقابلة العشرين ... الأولى ، لم تكمل بعد ، فيوسف عليه السلام ، لما افتكر أن يخبرهم بجلية الواقع ، ويكشف نفسه لهم ، ويريد أن .. كان يسمع صوتاً من السماء يقول له : « لم يحن الوقت بعد يا يوسف » ، فيسكت ففي الحقيقة نحن نرى يوسف بعمله هذا مسخراً للقدر العدل ، وآلةً تديرها يد القدرة السماوية ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

هذا ما ألهمنيه الله وفتح به علي ، فتدبره فلعلك أصفى ذهناً ، وأخلص قلباً ، وأنور معرفة ، ﴿ سبحانَكَ لا علمَ لنا إلا ما علَّمتنا ، إنكَ أنتَ العليمُ الحكيم ﴾ (٢ : ٣٢) .

كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم

٨ – قوله (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) ، اختلف المفسرون في كنه هذه البضاعة ، وسنسلط « الأشعة » على هذه البضاعة ، بحيث يستطيع القارىء أن يكشف حقيقتها : يظهر من كلمة « بضاعة » أن الذي كان معهم هو من غير النقود المضروبة — ويدخل فيه الفضة غير المضروبة — لأن النقد المضروب لا

يعبر عنه « ببضاعة » بل يعبر عنه بدينار أو بدرهم ، كما سبق في قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ والغالب على البلاد غير المتمدينة ، أن تكون المقايضة فيها بغير الدراهم المضروبة ، كبلاد فلسطين ، ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ (آ ١٠٠) ، كما أن البلاد المتمدينة أن تكون المعاوضة فيها بالدراهم أو الدنانير المضروبة ، كما في البلاد المصرية ، ولذلك اشتُري يوسف في مصر بدراهم وإما إخوته ، فلكونهم من فلسطين غير المتمدينة ، فقد جاؤوا لمصر يمترون ، لا بدراهم مضروبة ولكن بنوع من البضاعة ، ربما كان فضة غير مسكوكة أو نحوها مما قد يخفى وقد يظهر ، كما يشير إليه قول يوسف عليه السلام (لعلهم يعرفونها) ، فإن هذا التعبير ينم عن أن هذه البضاعة ليست من قبيل النعال والأدم ، كما ظنه أكثر المفسرين ، لأن هذا مما يعرف قطعاً ، فإن هذه البضاعة هي مما قد لا يعرف إذا وضع في الرحال ، فلذلك قلنا إن هذه « البضاعة كانت من قبيل الفضة غير المضروبة ، والله تعالى أعلم .

٩ - يجوز أن يكون قوله (لعلهم يرجعون) بدل اشتمال من قوله : (لعلهم يعرفونها) ، كما سبق لمولاي عبد الحفيظ التونسي في قول المندوب ليوسف (لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) (آ ٤٦) والله تعالى أعلم .

(مرحى)

الإخوة يطلبون بنيامين من أبيه

آ (٦٣) « ... فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أبيهم ، قالوا : يا أبانا ، مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ ... فأرْسِلْ مَعَنا أخانا ، نَكْتَلْ ، وإنَّا لهُ لَحافِظون . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والستون فقام الشيخ غانم

الاربدي[١] **وقال :**

قام إخوة يوسف ، من مصر ، وركبوا رحالهم يطوون البيداء، إلى كنعان بلادهم ، (فلما رجعوا) آيبين من وجه الغرب إلى وجه الشرق ثم إلى وجه الشمال أعني من « صوعن » عاصمة المملكة المصرية الهكسوسية ، إلى « سيلون » قافلين (إلى أبيهم) الشيخ الجليل وكان في انتظارهم على مثل الجمر ، فتحفز لملاقاتهم فترجلوا ومشوا إليه ، وسلموا عليه فباركهم وسر بقدومهم غير أنه تأملهم فرآهم على غير حالة سرور ، قال : ما لكم ومالي أراكم مضطربين قلقين ؟ - (قالوا) وعليهم أمارات الحيرة والضيق : « (يا أبانا) لا نكذب الله ، لقد رأينا في عزيز مصر رجلاً شهماً كريماً ، أنزلنا خير منزل ، وأوفى لنا الكيل ، وجهزنا خير جهاز ، فصرنا بفضله مجهزين بالدقيق والسويق ، وبالسقاء والماء ، وبعلف الدواب ، وبكل ما يلزم لنا في الإياب ، وما رأينا منه إلا كل ما نحب وتحب ، غير أنه قال لنا : (ائتوني بأخ لكم من أبيكم) فكما دهشنا من إكرامه لنا على غير معرفة ، فقد دهشنا بنوع خاص حينما كلفنا بذلك واشترط في امتيارنا من مصر للمرة الثانية مجيئه معنا وتوعدنا إن لم نحضره معنا ، بعدم الكيل ، بل بعدم رؤية وجهه ، وأنذرنا بالمقاطعة التامة ، الأمر المدهش الغريب الذي لم نقف له على سبب ولذلك وبناء على إنذاره ، ربما رجعنا إليك في المرة الثانية وقد (مُنع منا الكيل) لأن هـذا الرجل يقول ويفعل ، ذا إرادة سنية ، ونفوذ لا يعارض ، ولا نظن أن الرجل ينزع عن مقالته (فـ) نتقدم إليك بهذا الرجاء الحار (أرسل معنا) في المرة الثانية (أخانا) المحبوب « بنيامين » حسب اقتراحه ، فإنك إن أرسلته (نكتل) من القمح كما في الأول ، وإن لم ترسله خشينا أن تلفظنا مصر ، وخشينا من هذا الرجل أن يصدق القول بالفعل ، فإنه ذو سطوة ومراس ، ولا مندوحة لنا عما يدعونا إليه من طاعته ، والإذعان لدولته ، وأنت في هذه المرة لا تخف على

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

بنيامين ، فإنا عليه ساهرون (وإنا له لحافظون) من كل ما يضيمه ، من أن يُستطار ، أو يُغتال ، أو يفترس أو يتيه ، إلى غير ذلك ، والوعد على الحرّ دين — هكذا نفضوا لأبيهم جملة ما وقع لهم بمصر وجملة ما في ذهنهم . ويمكننا أن نستنتج من ذلك النتائج التالية :

إخوة يوسف بين مطرقتين

١— أصبح إخوة يوسف كآلةبين مطرقتين ، لا يدرون يقومون بعهدهم « لعزيز مصر » ويطلبون بنيامين من أبيه ، أم يسكتون عن طلب بنيامين لئلا يتكدر والدهم من طلبه ولئلا يتذكر يوسف فيتجدد همه عليه بعد أن كان خامداً؟ ثم إنهم رجحوا الشق الأول ، وهو طلب بنيامين أن يسافر معهم ، لأنهم لا يستغنون عن الرجوع لمصر ليمتاروا لأهلهم ، فلذلك قالوا : يا أبانا الخ ...

فكرة سفر بنيامين

٢ من هنا ابتدأت فكرة سفر بنيامين تتمشى خطوة خطوة إلى أن استقر الأمر على سفره فسافر ، وهذا ينتهي بانتهاء (آ ٦٨) والذي وضع أساس هذه الفكرة هو يوسف عليه السلام بما عمله وبما قاله لإخوته (آ ٥٩ — ٦٢) .

يعقوب يفكر فيما عمله « العزيز » مع أولاده

٣ لا بد أن يعقوب عليه السلام ابتدأ يفكر فيما عمل « عزيز مصر » مع أولاده من تجهيزهم بجهازهم ، ومن إيفائه لهم الكيل ، ومن إنزالهم خير منزل ثم صار يفتكر في هذا الطلب على غير معرفة ، وبدون سابقة داعية إليه ولا مناسبة ، فأوغل في تفكره ، وقال في نفسه : « لأمر ما جدع قصير أنفه » والمستقبل كشاف .

الشك يخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) « قالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عليه إلا كما أَمِنْتُكُمْ على أَخيهِ من قَبْلُ ؟!؟!؟! فاللهُ خَيرٌ حافظاً وهو أَرحَمُ الراحِمينَ » .

تليت الآية الرابعة والستون فقام الشيخ الكرملي وقال :

سمع يعقوب كلام أولاده فخامره فيه الشك ، ووقعت في نفسه من ذلك الطلب رهبة ، فأطرق برهة ، ثم رفع رأسه و (قال) مستهزءاً : مثلكم من يوثق بوعده !!! (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) إذ كنتم منذ ٢٢ سنة قلتم في يوسف (وإنا له لحافظون) كما تقولونه الآن في بنيامين ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني اليوم من مثل ذلك ؟.. وبعبارة أخرى لا آمنكم على بنيامين في الذهاب إلا كأمني إياكم على يوسف الذي ضمنتم لي حفظه ثم ضيعتموه ، وهكذا حالكم اليوم ، تضمنون لي حفظ بنيامين ثم تضيعونه ، والزامر يموت وأصابعه تلعب ، وللعادة حكم لا يقوى المرء على مغالبته ، « فالله يرضى عليكم خيطوا بغير هذه المسلّة » فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ومن جرب المجرب حلت به الندامة ، وقد قيل : ويل أهون من ويلين ، وقالوا : ما وعظ امرءاً كتجاربه ، وقالوا : ومن نهشته الحية خاف من الرش ، حقاً اني أخاف أن تعيدوا الكرة؛ أخاف أن يكون ذئب أخيه موجوداً بعد ، فترسلوه له أيضاً لياً كله ، وما أسرع مجيئكم لي عندئذ على قميص بنيامين بدم كذب ، وأظنها تكون القاضية عليّ . فبالله عليكم دعونا من هذه الوعود التي جربناها ، وخبرنا نوعها ودرجتها وعرفنا نصيبها من الصحة . وبالله عليكم دعونا من ترداد

جملة (وإنـا له لحافظون) . فإن هذه الجملة لا تزال ترن في أذني يوم نطقتم بها يوم أخذكم يوسف ، ومـا رأيت من حفظكم شيئاً . فإن كنت أريد إرساله معكم (فالله خير حافظاً) (وهو أرحم الراحمين) وكفى ، فأرجوا أن لا يجمع عليّ مصيبتين ، ولكني لا أريد ذلك أبداً . هـذا مرمى الجواب السلبي الذي وجهه يعقوب لأولاده . وما أتم هذا الجواب إلا وقد شرق بالدموع السخينة .

وجملة (فالله خير حافظاً) تميز كقولك هو خيرهم رجلا . ولله درّه فارساً.

(قال هل آمنكم عليه)

— ٢ —

وقال شيخنا الكركي (١) :

جواب يعقوب لأولاده جواباً سلبياً منددا بهم وبوعودهم

سمع يعقوب اقتراح أولاده، وقد تذكر حادثتهم مع يوسف التي تركت أثراً سيئاً في نفسه ، فتمعر وجهه واقشعر بدنه ، وخفق قلبه ، ونآى بجانبه ، ونظر إليهم شزراً ، وابتدرهم بالدهشة والاستغراب ، وجاوبهم جواباً سلبياً قائلا : لا يكون ذلك ، ولن يكون ، هل تريدون مني أن آمنكم على بنيامين إلا مثل ما أمنتكم على أخيه يوسف سابقاً وكانت النتيجة التي تعرفونها ، ألا يحق لي أن أحسب لإرساله معكم ألف حساب وحساب ، فهـا أنا ذا شيخ ، قد حنكتني التجارب ، وعركني الدهر وعركته، فعرفت أن ليس لوعودكم قيمة ، ولا أراكم إلا جماعة متألبين عليّ لتفقدوني بنيامين ، كما أفقدتموني قبله يوسف ، أنتم الآن تعدوني وتطمئنوني ، ولكن حقاً إن صوت أعمالكم سابقاً ، يصم أذني عن سماع أقوالكم وتصديق وعودكم ، ومن جرب المجرب حلت به الندامـة ، يا أولادي

(١) نسبة الى الكرك من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

كذبتكم نفوسكم ، إن تاريخكم الماضي محفوظ عندي ، لم أنسه ، ولا أريد أن أنساه ، بل ولا أقدر على تناسيه ، راجعوا جريدة أعمالكم وانظروا ماذا كنتم عملتم في يوسف ؟... فهل تريدون اليوم أن تضيفوا الى تاريخ أعمالكم الماضية صفحة أخرى ، من صفحات الأعمال المحزنة ؟... أما أنا فذلك ما لا أريد أن يكون ، كفى ما كان حصل سابقاً ، يا أولادي ، إن الثقة لا تتولد في النفس لمجرد صدور الوعد ، لا سيما وإن التجربة الماضية التي جرت في حادثة يوسف ، لم تترك في نفسي أثراً من الثقة والاعتقاد ، لذلك ليس من الأمر الهين في هذه المرة قناعة نفسي بصدق وعدكم ، وطمأنة قلبي بإرسال بنيامين لمصر معكم ، أنتم أخذتم يوسف قبلاً ، لمرعى غنمنا ، وفي بلد قريب منا ، ضمن بلاد فلسطين ، التي أنا ساكن فيها ، فلم يرجع إليّ ، فكيف اليوم أرضى بأخذكم أخاه لمصر ، لمملكة أخرى ، بيننا وبينها مراحل ؟... تقولون لي (وإنا له لحافظون) ؟... قسم ضائع لا قيمة له ، ووعد مكذوب ، فقد كنتم «وقعتم المعاهدة » على حفظ أخيه وسجلتم الخسار على أنفسكم إن لم تسهروا على صيانته ، ولكنكم هتكتم حرمة تلك المعاهدة ، ورجعتم عليها بالنقض ، فإذا هي لم تخرج عن حدود الكلام !!! أوّاه ! لشدّ ما ينقبض لذلك صدري ، ويلتاع له فؤادي ، فما هذه الخطة العسراء التي تريدون أن تحملوني عليها ؟..

تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟

تقولون لي (إنا له لحافظون) ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد رأيت جعجعة ، ولم أر طحناً ؛ بالله عليكم ، عرفوني ، هل أكون هذه المرة أسعد حظاً ، وأرقى حالاً ، وأهنأ بالاً ، وأحمد عاقبة ؟ دعونا بالله من هذا الاقتراح ، المزهق للأرواح ؛

هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، دعونا من هذا الطلب الخطر ، فإن شراً واحداً أهون من شرين ، حقاً إن وعدكم بحفظ بنيامين هو كوعدكم سابقاً بحفظ يوسف ، وعدان

خلابان يخرجان من مصدر واحد ، هو المكر ، ومن ينبوع واحد هو الختل ؛

هذا ما يظن يعقوب عليـــه السلام أجاب به أولاده جهراً ، ثم لكأني به جعل يقول بينه وبين نفسه :

لئن أرسلته معهم لا يكونن رجل في فلسطين أعظم مني لوعـــة ، أنا كلما ذكرت يوسف وجدت في وجه أخيه العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنهما إن فقد وجهيهما معاً؟... بنيامين هو صورة يوسف الباقية عندي ، هو رسمه التذكاري ، هو رائحة تلك الوردة الذابـلة ، هو الممثل الوحيدلذلك الولد الفقيد ، هو البقية الباقية من آثار « راحيل » ، هو المعزي عن أمـــه وأخيه ، فمن لي بمعز سواه إن فقدته ؟..

قال هل آمنكم عليه

— ٣ —

وقال الشيخ الطفيلي[١] : لي ههنا ذيول :

موقف يعقوب مع أبنائه في طلبهم بنيـامين

الذيل الأول : هذا الموقف الذي وقفه يعقوب ههنا مع أولاده موقف سلبي خلافاً للزمخشري ومن تبعه من المفسرين، فهو بقي مقيماً على المخالفة ، مصراًعلى الإباء،غير واقف معهم موقفـاً إيجـابياً ، إلا بعد ما ذكروا عدة محسنات، وبعد ما أتوه موثقاً (آ ٦٥ و ٦٦) ، وأما قول يعقوب (فالله خير حافظاً .. الخ .) فمعناه إن أردت أن أرسله معكم ، فلا أعتمد على حفظكم له ، فالله خـــير حافظاً الخ ، ولكني لا أريد .

---

(١) نسبة الى الطفيلة من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

عمر بنيامين عندما طلبه إخوته من أبيهم

الذيل الثاني : ربما يتوهم بعض القارئين من قول إخوة يوسف (وإنا له لحافظون) وقول أبيهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم ... الخ) ثم قولهم : (ونحفظ أخانا) وقول أبيهم (لن أرسله معكم حتى .. الخ) - ربما يتوهم متوهم من مجموع هذه الأقوال المتبادلة أن بنيامين كان صغير السن ، بحيث يخاف عليه إذا سافر ، وليس هذا التوهم في محله ، والآيات الكريمة لا توهم شيئاً من ذلك ، كيف وقد كان عمر بنيامين حينما فارقه يوسف سبع سنين ، ثم مضى على يوسف بمصر ٢٣ سنة ، ثم افتكر يوسف في طلبه عنده ، وعند ذلك دارت هذه المحاورات والمقاولات بين يعقوب وأبنائه .

نعلم من التاريخ أن بنيامين كان وقتما ذهب لمصر ابن نحو ثلاثين سنة ، « كما في السنن القويم » وقد ورد أنه كان له حينما دخل مصر خمسة بنين صلبية ، على رواية سفر العدد (عد ٢٦ : ٣٨ - ٤٠) ، أو كان إذ ذاك عشرة بنين على رواية سفر التكوين (تك ٤٦ : ٢١) ، وعليه فلم يكن « بنيامين » حين هبوطه لمصر صغيراً وبالتالي لم يكن خوف أبيه عليه لذلك ، وإنما أبوه كان يخاف عليه من مجموع إخوته العشرة أن يتواطأوا عليه ، كما سبق أنهم تواطأوا على أخيه ، فالخوف عليه ليس من واحد أو اثنين مثلاً ، وليس من ذئب أو نحوه ، حتى يصح هذا التوهم ، ولكن الخوف من رجال عشرة يعدون « عصابة » ورهطاً ، قد عهد منهم سابقاً ما يحمل على الخوف الآن ، وإن السبب الذي دفعهم للإيقاع بيوسف - وهو زيادة حب والده له أكثر من حبه لهم - متحقق في بنيامين ، كما قالوا منذ ٢٣ سنة : (ليوسف وأخوه ، أحب الى أبينا منا) ، لا سيما وقد داروا بعملهم السابق من أهل الضراوة ، والعادة تثبت بمرة ، ولكل امرىء من دهره ما تعود . ومما ربما يجرئهم (بنوع خاص) أن أباهم لم يعاقبهم ، ولم يجازهم على إيقاعهم بيوسف شيئاً ما فلهذا أوجس منهم خيفة وأجابهم بذاك الجواب السلبي .

هذا ما تيسر لنا الآن تحقيقه . قد ألقيناه عفواً بين يديك فاحفظه وإلا فالسلام عليك .

الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب وأولاده

الذيل الثالث : قص الله علينا ما دار هنا من المقاولات بين يعقوب عليه السلام وأولاده ، لكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل ، كيف لم يأتمنهم أبوهم على أخيهم الأصغر. حيث سبق أنهم خانوا الأمانة لما ذهبوا بأخيهم الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربما تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلاً. وقص الله علينا ذلك ، لنقيس نحن حاضر أحوال سلائلهم (أبناء العم المكرمين !!)[١] على ماضيه ، ولنكون على حذر تام من يهود اليوم ، وإذا كان النبي ﷺ قال : « احترسوا من الناس بسوء الظن » كما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي والعسكري من حديث أنس ، فينبغي أن تكون اليهود من أول هؤلاء الناس ، خصوصاً الصهيونيين منهم ، عافانا الله تعالى من شرورهم .

أولى الأمور بالنجاح التكرار والإلحاح أو اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم إليهم حجة الإلحاح في طلب أخيهم بنيامين

آ (٦٥) « ... ولمَّا فَتَحوا مَتَاعَهُمْ . وَجَدُوا بِضاعَتَهُم رُدَّتْ إليهم ، قالوا : يا أبانا ، ما نَبْغي ؟! هذه بِضَاعَتُنا رُدَّتْ إلينا .. وَنَميرُ أهلَنا ، وَنحفَظُ أخـانا ، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسيرٌ . »

(١) يراد من ذلك التهكم والسخرية .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والستون فقام الشيخ العقباني[1] وقال:

كان يعقوب عليه السلام أجاب أولاده بجوابه السلبي السابق، فاتخذوه تعنيفاً لهم، ومن قبيل التكذيب لإخبارهم، وعلموا أن أباهم لا يزال مقيماً على المخالفة، مصراً على الإباء، فانتشر عليهم رأيهم، ولما لم يعرفوا ماذا يجيبون وضاقت عليهم أرض فلسطين بما رحبت، وما هي إلا غمضة وانتباهة، أن قاموا لفتح جوالتهم (ولما فتحوا متاعهم) عِدالهم (وجدوا بضاعتهم) وهي الفضة غير المسكوكة (ردت إليهم) فما وقفوا على تلك البضاعة حتى فرحوا بها، واعتنقوها باليمين والشمال، لأنهم وجدوها تساعدهم على مطلوبهم، وتصدق كلامهم، فتقووا وتشجعوا في طلب أخيهم كرة أخرى، وظنوا أنهم بهذا السبب يستطيعون أن يتسلطوا على أفكار أبيهم ويقنعوه (قالوا) بنغمة المحتج الظافر بما يبرهن صحة كلامه: (يا أبانا) المعظم لسنا اليوم كما تظن فينا، لقد رأينا ما يُصدّق قولنا، فنحن (ما نبغي) أي لسنا نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان «العزيز» ولا نكذب فيما حكيناه من إكرامه لنا، فإنا نحمل شهادة الصدق فيما نخبر، نحن قلنا لك الصدق فلا تستغشنا، ها أن الغامض قد انكشف وأبدّت الرغوة عن الصريح (هذه بضاعتنا ردت إلينا) كما ترى بعينك، الأمر الذي لم تتحرك به خواطرنا، ولا علق بأوهامنا، وهذا مصداق ما قلنا: إننا رأينا في «عزيز مصر» شهماً هماماً جواداً رحب الصدر عالي الجناب، والآن برد تلك البضاعة إلينا، يصير لنا دالة عظيمة على هذا الرجل، فهذه فرصة يجب أن تفترص، ونفحة من النفحات ينبغي أن نتعرض لها، فلا يجوز لنا أن أن نضيع الفرصة عبثاً، ونحن علينا الحركة، وعلى الله البركة، ولا نظن الرجل ردها في عدالنا إلا قصداً، بداعي الكرم والجود الذي طبع عليه، فكأنه لم يبعنا الميرة بيعاً، بل وهبنا إياها هبة، أحسن الله إليه، كما أحسن إلينا، فلا

(١) نسبة الى العقبة من بلاد الشام (شرقي الأردن).

ريب أن هذا العزيز فياض معطاء ، رحب الذراع ، واسع الفناء ، فنستظهر بها عند رجوعنا إليه ، (نمير أهلنا) الذين هم في لولاءَ ولأواءَ ، وأزمة وبأساء ، أي نجلب لهم الميرة والطعام ، لأن امتيارنا بدون وجود بنيامين معنا ، سيكون أعقد من ذنب الضب (ونحفظ أخانا) بنيامين ، ومن آذاه منا يكون دمه على رأسه ، نحفظه من كل يد تتقدم إليه ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، وأما حـــادثة يوسف « المرحوم » فهي « بيضة الديك » أي من الشواذ والنوادر ، فلا يقاس عليها غيرها (ونزداد كيل بعير) أي جمل لأن الرجل لا يعطى أكثر من حمل جمل للتقسيط ، فإرسال أخينا معنا أربح لنا وأجـــدى علينا ، ولسنا في غنية عن السعي في هذه الزيادة ، ولماذا يقعد أخونا عن السعي ، وقد أمر الله به؟ وإن كل فم واحد يخلق في هذا العالم ، يخلق معه يدان اثنتان ، فإن لم ينتج الإنسان بيديه الإثنتين ضعف ما يستهلكه فمه ، فعلى الأقل أن ينتج مقدار ما يأكله ، لا سيما وأخونا ذو أهل وأولاد (ذلك كيل يسير) أي أن ما يكال لنا قليل لا يقوم بأودنا ، فنريد أن نضم إليه مـــا يكال لأخينا ، والتمرة الى التمرة تمر ، ومع ذلك فالأمر راجع إليك ، فأنت مخـــير ، فإذا وافقتنا شكرناك ، وإذا خالفتنا أطعناك وعذرناك ، هذا هو الرأي الحازم الذي نراه الآن ، فمـــا قولك ؟.. قالوا ذلك وهم يتضرعون الى الله أن يغير قلب أبيهم ، ويلهمه السماح لهم بطلبتهم ، وهكذا لم يزالوا يجادلون أباهم جدال طلب وهو يجادلهم جدال امتناع ، ولكنهم أظهروا من ضعفهم مع أبيهم قوة ، أثروا عليه بها ، وأولى الأمور بالنجاح التكرار والإلحـــاح ، كما كانوا أثروا عليه حينما أرادوا أخـــذ يوسف منذ ٢٣ سنة ، لكن نيتهم في هذه المرة كانت صالحة ، وبالنتيجة وأخيراً : اجتهد إخوة بنيامين حتى أحرجوا أباهم وأعـــارهم أذناً صاغيـــة ، واستنام لكلامهم ، وركن إليهم ، وغلب على أمره ، وسمح بإنفاذ بنيامين معهم ، لكن بشروط سلك فيها معهم سبيل الاحتياط .

(ولما فتحوا متاعهم . الخ)

— ١

وقال الأديب الزحلي[١] :

« ما » استفهامية في قوله ما نبغي

إني أضم صوتي لصوت أخي الشيخ العقباني وأصادق على كل ما قال ، إلا أني أخالفه في كون « ما » في قوله (ما نبغي) نافية ، بل أقول إنها استفهامية ، بمعنى أي شيء نطلب وراء هـذا الإحسان ؟ أي ماذا نطلب ونروم ؟ وما هو الأمر الذي نحاوله ونتوخاه فوق ذلك ؟ . . . وإنما رجحنا أنهـا للاستفهام لقراءة ابن مسعود : ما تبغي ؟ بالتاء على مخاطبة يعقوب عليه السلام ، بمعنى أي شيء تطلب وتريد فوق هذا الجود والعطف .

وبعد ، فعندي عدا عما ذكرت عدة فوائد على هذه الآية الكريمة :

إغراء الإخوة لأبيهم بأربعة أشياء

الفائدة الأولى – يريدون بقولهم لأبيهم : (هذه بضاعتنا .. الخ) إن هذه أمور أربعة استفدناها ونستفيدها بعودتنا الى مصر مع أخينا بنيامين وهي : رد العزيز بضاعتنا إلينا في المرة السابقة وربما ردها في المرة اللاحقة والامتيار ثانية وحفظ أخينا إذا أخذناه ثم أخذ ميرة بعير باسمه ، وكلها ذات بال ، تهون عليك النزول على مـا نرجوه منك ، ونعرضه عليك من إرسال أخينا معنا ، فأخبرنا بالذي اجتمع عليه رأيك .

---

(١) نسبة الى بلدة زحلة في لبنان .

نجاح حيلة يوسف في طلبه بنيامين

الفائدة الثانية – قولهم : (هذه بضاعتنا .. الخ) وبذلك تمت حيلة يوسف على إخوته ، بل وعلى أبيه ، فقد كان لهم فيما أتاه معهم من الجميل والمكرمة حجة بالغة على أبيهم حينما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم في سبيل الميرة بعد تلك الكرة .

معنى الميرة

الفائدة الثالثة – يقال : مار يمير من الميرة ، وهي الطعام ، وفي معناه ماد يميد ومنه المائدة ، أي المطعمة ، وكما يقال لها « ميرة » يقال لها « غيرة » كما في القاموس ..

معنى البعير

الفائدة الرابعة - كما يطلق « البعير » على الجمل وهو المشهور ، يطلق أيضاً على الحمار ، وقد نقل ابن جرير عن مجاهد أن البعير هنا هو الحمار ، وسيأتي لهذا البحث تتمة عند تفسير (آ ٧٠) .

معنى المتاع

الفائدة الخامسة – « المتاع » الأوعية بما فيها الميرة والطعام ، ومطلق إناء يقال له « متاع » قال تعالى : ﴿ وما يوقِدون عليهِ في النارِ ، ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَاع ﴾ (١٣ : ١٩) ، والمتاع ما يتمتع به ،أي ينتفع به زمناً ممتداً في الجملة ، لأنه من « المتوع » وهو الامتداد ، يقال : مَتَع النهار ، ومتع النبات ، إذا ارتفع وامتد ﴿ وما الحياةُ الدُنيا إلا مَتَاعُ الغُرور ﴾ (٣ : ١٨٥) .

قلب المؤمن دليله أو
اشتراط يعقوب على أولاده لإرسال بنيامين معهم أن يعاهدوه على إرجاعه

آ (٦٦) « ... قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتَّى تُؤْتونِ مَوْثقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَنِّي بِهِ ، إلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. ، فلَمَّا آتوهُ مَوْثِقَهُمْ ، قَالَ : اللهُ على مَا نَقُولُ وكيلٌ . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والستون فقام جمال العكاري وقال[1] :

أيها السادة تلك المقاولة التي دارت بين يعقوب عليه السلام وأولاده العشرة ، بين جزر ومد ، ورغبة ورهبة ، وطلب وإباء ، وأخيراً : كأني بيعقوب قال لهم : « لا تطلبوا مني بنيامين ، فما أنا بشقي ما رأيت ولدي بجانبي ، وما أنتم بأشقياء ما قنعتم بما يحمله كل واحد منكم من « الغيرة » « لا نريد زيادة على ما تمتارون بحسب عددكم » سمعوا منه ذلكم ، وكأني بهم قالوا : « لم نسألك إرسال أخينا معنا ، إلا ونحن نتوقع أن نسمع منك عين هذا الجواب السلبي ، ولكنا لا نرى ندحة عن إرسال بنيامين إذا كان لك ولنا فكر في الرجوع » .

وبما ذكر من المقاولات والمحاورات قدروا على أن يقنعوا والدهم بلزوم أو باستحسان إرسال بنيامين معهم ، ولا ريب أن الإقناع يولد الميل في نفس السامع ولهذا تطور فكر أبيهم تطوراً جديداً ، وافتكر بإرساله بشرط ؛

نعم نعم ، إن يعقوب عليه السلام رأى المناقشة حامية ، ودرجة حرارة الجدال مرتفعة ، فمشى مع ذلك محتفظاً باشتراطه عليهم أن يحلفوا له ويعاهدوه بإرجاعه له سالماً ففعلوا .

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان) .

هذا ما نذكره دخولاً على قوله تعالى (قال) لهم أبوهم: قد أوليتكم ما توليتم لكنني أنا اليوم قد صرت ممن يطلبون إيضاح الخطه قبل الدخول في المعركة ، فقد كنت تساهلت نوعاً عند إرسال يوسف معكم ، منذ ٢٣ سنة ، والآن لا أريد أن أعيد كرة هذا التساهل ، ولذلك ولكوني أرى الخطر يتهددني (لن أرسله معكم) ولا فواقاً (حتى) تضعوا أيديكم في يدي (تؤتون موثقاً) أي تعطوني ميثاقاً [١] أتوثق به (من) جهة (الله) عز وجل ، وهو الحلف به بأن تتحملوا مسؤوليته : لتَحمُنّه ولتَدفَعُنّ عنه و (لتأتنني به) فإن رجعتم بأخيكم سالماً ، كنت راضياً عنكم ، وإن كانت الأخرى — لا سمح الله - سخطت عليكم ، وقوله « لتأتنني » جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به ، أي لا تمتنعون عن الإتيان به في حال من الأحوال العارضة ولعلة من العلل - (إلا) لعلة واحدة ، وهي (أن يحاط بكم) أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، أو إلا أن تهلكوا ، فهل تفوا لي هذه المرة بما تقولون ، ولي عليكم بذلك العهد والميثاق ، ماذا ترون ؟ - فقالوا له : تأمر وتطاع ، حسناً ليكن كما تريد، فلك علينا العهد والميثاق أن نَفي لك ، وأن نرد إليك ابنك ، فوالذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لنأتينك به، إلا أن يمنعنا قدر واقع ، ماله من دافع ، وإنا نموت بموته ونحيا بحياته ، لك ذمة الألُوه يَهْوَهْ ، وذمة أبراهام وإسحاق وذمتنا على ما أحببت ،نحلف باهْ، لا يعترض أحد بيننا وبين احتفاظنا بأخينا بنيامين إلا أهرقنا دمه ، ومشينا على جثته ، ما كان لنا به قوة ، ولن يصل إليه أحد، إلا بعد أن نكون جثثاً باردة هامدة بين يديه ، ولسوف نرجع به إليك ، وهو على أحسن ما يكون من العافية ، اللهم إلا إذا قاومنا مـا يجعل قوتنا ضعفاً وقدرتنا عجزاً ، فمعذرة عندئذ منا إلى الله وإليك .

---

(١) أصل الميثاق في اللغة عقد يتأكد بيمين .

وهكذا أقسموا لأبيهم بالله جهدَ أيمانهم ، وحلفوا له بكل مُحَرِّجَةٍ [1] من الإيمان أن يرجعوه له ، وأن يحتفظوا به كما يحتفظون بأنفسهم ، ويذبوا عنه كما يذبون عن حياتهم ، وأعدوا لذلك الموثق عُدته من شجاعة النفس ، وقوة العزيمة والإخلاص القلبي ، وهكذا أرهقهم أبوهم صعوداً بما حملهم من الشرط الثقيل ، والميثاق الشديد (فلما آتوه موثقهم) ، وآنس منهم صدقاً لم يعهده من منهم (قال الله) وأشار بإصبعه ونظره إلى السماء (على ما نقول) من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي هذا الذي طلبتُ (وكيل) مطلع رقيب ، لا تخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده ، وفجر في الحلف به ، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا ، فيسجل التاريخ عليكم ذلك ، وتحفظه عليكم الملائكة وستكون هذه المعاهدة والمواثقة تحت مراقبة الإله الحق ، سبحانه وتعالى .

وبهذا الذي حصل ، حصل السماح من يعقوب عليه السلام بسفر ولده بنيامين فكأنما هذا « الموثق » هو « جواز سفرهم » لمصر بأخيهم بنيامين والله تعالى أعلم.

(قال : لن ارسله معكم ... الخ)

– ١ –

وقال السيد أحمد الصفدي [2] : يمكننا أيها المستمعون الكرام أن نعاق على هذه الآية بالتعليقات الاتية :

الاحتياط والتحفظ لازمان بجانب المقدر

١ ـ كان يعقوب عليه السلام ، استرسل استرسالاً في شأن يوسف وإنفاده معهم سابقاً ، وسمح بذهابه للمرعى دون شرط ولا قيد ، فرأى سوء مغبة ذلك

(١) الايمان المحرجة : التي تضيق مجال الحلف وهي بتشديد الراء من حرج وبدو . تشديد من أحرج .

(٢) نسبة الى صفد من بلاد فلسطين .

ولذا فهاهنا لما شعر بذلك التساهل احتاط في أمر بنيامين، ومع ذلكم ما أغنى عنه ذلك شيئاً فنتعلم من هذا أن المقدر كائن لا محالة ، كما نتعلم أنه على كل حال ينبغي لنا الاحتياط والتحفظ ، أخذاً بأسباب السلامة ما أمكن .

وجوه سماح يعقوب بإنفاذ بنيامين مع إخوته

٢ – سمح يعقوب بإنفاذ بنيامين معهم وقد شاهد ما شاهد ، وجرب ما جرب لوجوه : أولها استيثاقه باليمين المحرجة التي حلفوها له ، وعلى الأخص لما شخص ببصره نحوهم وجعل ينظر إلى سحنهم ويتأمل في أقوالهم ويتفرس في حركاتهم وسكناتهم ، فرأى الإخلاص ظاهراً متجلياً في كل كلمة من كلامهم ، ورآهم يومئذ للصدق أقرب، فجنح لموافقتهم إنما بتعديل. ثانيها إنهم كانوا تقدموا في السن ، وذهب عنهم نزق الشباب ، ثالثها أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والعداء مثل ما كان بينهم وبين يوسف .

رابعها ضرورة القحط أحوجته وسهلت عليه ذلك .

الحالف بالله حالف على حساب الله

٣ – قوله : ﴿ موثقاً من الله ﴾ جعله منه تعالى لأن من حلف بالله ، كأنه قد كفل الله على نفسه ، كما قال جل من قائل : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ (١٦ : ٩١) » ولما كان الكفيل كالأصيل ، صار المتعهد كأنه هو الله ، فالحالف بالله هو حالف على حساب الله ، ومتعهد باسم الله ، فكأن الحالف يقول : « إني أتعهد ليس باسمي، بل باسم إلهي وعلى الأول كأنه يقول : « إني أتعهد وأجعل الله كفيلا لي على هذا التعهد » ، والدليل على ذلك أنني أتقدم وأحلف باسمه تعالى » ، هذا هو وجه قول يعقوب عليه السلام ، إن الموثق الذي تترابط عليه الناس هو عند الحالف باسم الله — من الله ، هذا ما ألهمنيه المولى الكريم ، فتح الله على من تلقاه بقلب سليم .

حس يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه

٤ – يقول يعقوب عليه السلام « إلا أن يحاط بكم » ، فسبحان الملهم ،وجل المنطق ، كان يعقوب يرى ويحدثه قلبه بشيء سيلاقونه ، ويحيق بهم ، ولكنه بمجمل عنده لم يتعين في نظره ، فكان يتخوف منه كثيراً ، وكأني به أنه كان يتخيل كرباً شديداً يحيق بأولاده ،وربما يكون ذلك جيشاً يحيط بهم في سفرتهم هذه ، يرون منه يوماً عصيباً ومن الغريب أن هذا الخيال ، قد فسره الحادث الذي وقع فقد أحاط بهم عزيز مصر وفتيانه الذين عملوا عليهم الحيلة ، وأرهقوهم بها ، وبواسطتها كان إمساك بنيامين بمصر ،وقلما نرى حادثاً مهماً لم تتقدمه الهواجس.

وجوب التعلم من دروس الماضي

٥ – للماضي دروس تعلم الإنسان أموراً لم يكن في البال أن يتمسك بها ، هو بهذه الدروس يدرس ما في جعبة الدهر من خفايا وأسرار ، فيحرص على اجتناب كل مضر منها ، وتقديم كل نافع مفيد ، وترانا لا نذهب بعيداً للاستدلال على صحة ما نقول ، فهذا صفي الله إسرائيل [١] هو اليوم غيره ، قبل ٢٢ سنة ، ومن ينكر أن هذا الصفي الكريم كان قبل ٢٢ سنة ، قد استرسل مع أولاده ، لحسن ظنه فيهم ، حتى جاؤوه وأثروا عليه ذلك التأثير المغناطيسي ، وسحبوا ولده المحبوب - يوسف – من حضنه ، وأسلموه لحضن الجب ؟.. لا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، كان أبوهم أمس هكذا ، ولكنه اليوم يخافهم كما يخاف الثعالب والثعالي ، فهو بين أمس واليوم قد تغير فكره في أولاده ، وشرع يسلك معهم سبيل الحيطة ،فلذلك لم يرد أن يلبي طلبتهم ، بأخذهم بنيامين لمصر ، إلا بعد اللتيا والتي وبعد استيثاقه منهم بالأيمان المحرجة ، فهكذا ينبغي

(١) كناية عن سيدنا يعقوب عليه السلام .

لنا نحن أن نكون مع الناس المشتبه فيهم ، لا سيما سلائل هؤلاء الآباء، أعني يهود اليوم « أبناء العم المحترمين » !!..

معنى الإحاطة بالشيء

٦ - قوله ﴿ إلا أن يحاط بكم .. ﴾ يحتمل أن معناه إلا أن يحاط بكم من أولي الصهيل والصليل ، وتلتف حولكم أهل السلاح والكراع ، وتلتقي حلقتا البطان ، فتغلبكم أعداؤكم ، ولا تقدرون على الدفاع عنه ، فيصادر منكم مصادرة فلا تقدرون على الإتيان به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّا اعْتَدْنا للظالمين ناراً أحاطَ بهمْ سُرادِقها ﴾ (١٨ : ٢٩) وقوله تعالى : ﴿وأخرى لم تَقْدِروا عليها قد أحاطَ اللهُ بها ﴾ (٤٨ : ٢١) ، ويحتمل أن معنى « إلا أن يحاط بكم ..» إلا أن تهلكوا في سبيل الدفاع عنه، وتنشب بكم أظفار العدو ، وتعلق بكم مخالبه ، وتقتلون في الذب عن حياته ، وترتطموا في مهاوي المتالف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ ، وظنُّوا أنهم أحيطَ بهم ﴾ (١٠ : ٢٢) أي أهلِكوا ، جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك، وكذا قوله تعالى : ﴿ وأحيطَ بثمرِهِ فأصبحَ يُقلِّبُ كفَّيْهِ على ما أنفقَ فيها وهيَ خاويةٌ على عرُوشِها ﴾ (١٨ : ٤٣) فالإحاطة هنا عبارة عن الإهلاك، وقوله تعالى : ﴿ وإذْ قلنا لكَ إنَّ ربَّكَ أحاطَ بالناسِ ﴾ (١٧ : ٦٠) أي أهلكهم وهم المشركون من قريش في غزوة بدر ، كان أخبره بذلك سلفاً قبل وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ بلى من كسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئتُهُ ، فأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ﴾ (٢ : ٨١) أي أهلكته .

وعد رأوبين ويهوذا لأبيهما بإعادة بنيامين إليه

٧ - ورد في سفر التكوين ، أن « رأوبين » كلم أباه وقال له : « اقتل ابنيّ إنْ لم أجيء به إليك ، سلمه ليدي وأنا أرده ليدك » (تك ٤٢ : ٣٧) ولم

يكن « رأوبين » يعتقد أن يعقوب يقتل حفيديه حاشا ، بل قال ذلك توكيداً له إنه لا يكون على بنيامين أدنى خطر ، وأن « يهوذا » قال لأبيه « أرسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعاً ، أنا أضمنه ، من يدي تطلبه ، أنا إن لم أجيء به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً إليك كل الأيام (تك ٤٣ : ٨و٩) .

نصح يعقوب لأولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ (٦٧) « ... وقالَ يا بَنِيَّ ، لا تَدْخلوا مِنْ بابٍ واحدٍ ، وادْخلوا من أبوابٍ مُتفَرِّقَةٍ . ومَا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ ، إنِ الحُكمُ إلا للهِ ، عليهِ تَوَكَّلْتُ ، وعليهِ فلْيتَوكَّلِ المتوكّلونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والستون فقام الشيخ اسماعيل الصيداوي[1] وقال :

أعد أبناء يعقوب بما فيهم بنيامين معدات السفر وتجهزوا للرحيل فأخذ أبوهم في نصحهم (وقال) لهم بلهجة المشفق : (يا بَنيَّ) الأحد عشر ، لا تنسوا أن « العين حق » وإني أخاف عليكم عين الحاسد ، إذا عمل بمقتضى حسده ، وعين الظالم ، متى جرى على طبيعة ظلمه ، وعين السارق والمفسد والواشي ، ولا تغفلوا عن « أن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » ، ولا أظنكم نسيتم ما جرى لكم عند دخولكم مصر في سفرتكم الأولى ، من لفت نظر الناس ورجال

(١) نسبة الى صيدا من البلاد الشامية (لبنان) .

العزيز عليكم لدخولكم مجتمعين، لذا حينما تصلون في هذه السفرة إلى مصر أوصيكم أن (لا تدخلوا) كوكبة واحدة (من باب واحد) من أبوابها الأربع ، لئلا تكونوا موضع التفات الناس ، كما كنتم في السفرة الأولى، مظنة لطموح الأبصار إليكم من بين الوفود (و) لكن (ادخلوا) « الفَرَما » التي هي أول حصن في طريقكم لمصر (من أبواب) « كانت لها أربعة أو أكثر » (متفرقة) ومتباعدة عن بعضها البعض ، فذلك أحوط لكم ، تحاشياً من ضرر شرطة مصر ، وتفادياً من أعين كل أهل السوء (و) مع ذلك ، فأنا (ما) لست (أغني) أدفع (عنكم من) أمر (الله) تعالى (من شيء) .. حاشا .. فإنه تعالى يجري الأمور بنظام ، تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب ، (إن) ليس (الحكم) والقضاء الفعلي (إلا لله) الذي بيده المستقبل (عليه توكلت) بعد مراعاتي سننه (وعليه فليتوكل المتوكلون) وليس أحد في سعة عن الاتكال عليه ، وخاصة أنتم فإنكم غرباء ، والغريب أعمى ، ولو كان بصيراً .

ملحوظة - لا بد أنكم أيها السادة تنبهتم لتفسير الآثار الواردة في « العَيْن» وضررها ، الذي حشوته في كلامي حشو اللوز في الفالوذج ، وقريب من هذا تأويل فريق من العلماء لقول : « إن يكن الشؤم ففي ثلاث : في المرأة والدار والفرس » وبعضهم يزيد : « والخادم » فقد أولوا ذلك بأن شؤم المرأة سلاطة لسانها وتعرضها للريب ونشوزها وعقمها وتبرجها ، وشؤم الدار ضيقها وعدم جريان الهواء فيها ، ورطوبتها ، وشؤم الفرس حرانها وغلاء ثمنها ، وشؤم الخادم سوء خلقه وخيانته وكسله وقلة تعهده لما فوض إليه وجهله بما يشتريه وجهله بتدبير المنزل .

(وقال : يا بني لا تدخلوا .. الخ)

- ١ -

وقالت الشيخة فاطمة الصيداوية :

استعداد أبناء يعقوب الأحد عشر للسفر ونصح أبيهم لهم

لما سمح يعقوب عليه السلام بإنفاذ بنيامين مع إخوته إلى مصر فرحوا فرحاً شديداً وأخذوا يعدون العدة للسفر وقبل الرحيل بقليل قصدوا خيمة أبيهم لوداعه ، فلما مثلوا بين يديه وقف بينهم مرشداً وناصحاً إذ قال لهم يا بني إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منكم ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل وعليه فأوصيكم متى تجاوزتم « العريش » ووصلتم « الفَرَما » قرب قطية وهي أول حصن لمصر في طريقكم فإياكم أن تدخلوا إليها من باب واحد من أبوابها ، ولا تضعوا أمركم في موضع الفَرَر ، ولا تخاطروا بأنفسكم ، فإني لا آمن من أن تلتفت إليكم رجال الدولة المصرية، كالشرطة والعيون الراصدة والعسس ، وإني أخاف عليكم من العين ، عين الشرطي وعين « الجاسوس » وعين الحسدة والمكرة فيكون في ذلك ما أكره وتكرهون ، لا سيما أنكم ذوو بهاء وشارة حسنة ، وأنكم من أهل فلسطين أعداء مصر والمصريين، ولذا تلافياً لكل محذور ادخلوا من أبواب لها متفرقة لتتعدد متوجهاتكم ولتتفرق مداخلكم لأنكم إذا تفرقتم كنتم مغمورين مجهولين بين الناس ، فلا تلتفت الأفكار نحوكم ، فليس التجمع مفيداً في كل شيء ، بل قد يكون مضراً في بعض الحالات ، فحصنوا عورتكم واحترسوا من غفلتكم ، ولا تلقوا بأيديكم إلى ما عسى أن يكون فيه تهلكة . هذا هو الرأي الصليب الذي أراه الآن ، وعلى كل حال فليس باستطاعتي أن أدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق ، بل هو مصيبكم لا محالة ، بالرغم عن السدود التي أقمتها في سبيل ما أخشى أن يصيب أخاكم ويصيبكم ، لأني لا

أعلم شيئاً من الغير التي ستكون ولا أعلم ما يأتي من الغد في طياته من الحوادث لست أدري ولا المنجم يدري :

قال الشاعر :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعلُ

وقال آخر :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

هذا هو « القـَدَر » الذي لا محيص عنه ، فهل أنا أقدر أن أمنعه عنكم بوصايتي إليكم ؟ أستغفر الله فها أنا أنتظر ما سيجيء به الغد، وإني عالم بأنه إذا كان الداء من السماء بطل الدواء ، كما أعلم أن يد الله فوق كل الأيدي ، وأنه المسيطر الوحيد الفعال لما يريد، ولكن اليقين بالقدر لا يمنع الحازم من توقي المهالك وليس على أحد النظر في القدر المغيب ، ولكن عليه العمل بالحزم ، ونحن نجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالحزم ، وأخيراً فليس الحكم والقضاء الفعلي على سبيل الحقيقة إلا لله غصباً عن الفلك ، فإذا أسند الحكم والقضاء لغيره فهو على سبيل الصورة والإضافة المؤقتة (انظر تفسير آ ٤٠) نعم نعم ، ليس الحكم إلا لله وحده ، رغماً عن معاطسنا ، فهو الإله الذي تتبخر أمامه أحكام جميع الخلق فتصبح دخاناً منثوراً ، ومع كل هذا فإني أريد أن أبذل كل ما أستطيع من أخذ الحياطة ، لئلا أكون أسير الحسرة والندامة إذ ـ لا سمح الله ـ صار ما أكره ، عليه توكلت لا على سواه ، وعليه لا على أنفسهم ولا على قوتهم وعددهم ولا على أولادهم فليتوكل المتوكلون .

ولما سمع أولاد يعقوب تحذير أبيهم وتعليمه ونصحه قالوا له : لبيك ليكن كما تريد ، ثم تقدموا منه وودعوه وركبوا وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، فرحاً بقدومهم على « عزيز مصر » ، الذي لم يجربوا منه بعد سوى

الإكرام!!!...وكأني بيعقوب عليه السلام حين ودعه أولاده قال لهم بلسان حاله إلى الملتقى يا أبنائي ، على الطائر الميمون يا أولادي ، ثم لكأنه حين وداعه « لبنيامين » قال بينه وبين نفسه : في عهد الله أيها الابن المثكول ، وفي حراسة الله يا ولداه ، في ذمة الله وكنفه ، أنت سلوى أبيك الشيخ ،أنت التعزية الوحيدة عن أخيك الفقيد ، أنت الأثر الباقي بعد « راحيل » خار الله لك في سفرتك ، إلى الملتقى ، الوداع الوداع إلى يوم الاجتماع :

خف إذا أصبحت ترجو وارج إن أصبحت خائفْ
رب مكروه مخوف فيه لله لطائفْ

(مرحى مرحى)

(وقال : يا بني ، لا تدخلوا ...)

—٢—

وقال السيد الاسكندري : عندي على هذه الآية المسائل التالية :

سر التوكيل

١ – إن سر التوكيل وحقيقته ، هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلايضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفع الإنسان قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره ، وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء ، فقول العبد : « توكلت على الله » مع اعتماد قلبه على غيره ، هو مثل قوله : « تبت إلى الله » وهو مصر على معصيته مرتكب لها ، كذلك توكل العبد على الله مع عدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلا .

وجوب الأخذ بأسباب التحرز والحيطة مع التوكل

٢ - نعلم من قوله : لا تدخلوا .. وادخلوا .. عليه توكلت ... أن يعقوب عليه السلام فضل التحرز والحيطة ، ومع ذلك فقد ألقى حبل اتكاله على الله فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، وكلام يعقوب يشير إلى أنه لا منافاة بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، لأن التوكل ليس هو إلا الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه والاعتقاد أن الأمر منه وإليه ، ولو مع الأخذ بالأسباب ، وما قاله يعقوب عليه السلام هو على حد قول فخر الكائنات : (اعقلها وتوكل) ، أشار إلى أن عقل الناقة لا ينافي التوكل ، وقوله عليه الصلاة والسلام روحي له الفداء : (لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً) ، فأثبت للطير توكلا مع ذكره أنها تغدو وتروح .

الأخذ بأسباب الحيطة والسلامة فرض ديني

وبعد فترانا في هذا المقام ، لا نقف عند هذا الكلام ، فنقول : غني عن البيان أن يعقوب عليه السلام هو نبي كريم ، وطبعاً يعلم كما يعلم كل مؤمن أن لا شيء يجري في هذه الحياة بدون قضاء الله وسماحه ، ولكنه يدرك مع ذلك أن سعيه في أسباب الحيطة والسلامة من الوقوع فيما يكره ، هو فرض من فروض الدين ، فنفسية يعقوب أرقى من نفسية كل من يستسلم للقضاء والقدر ، ولا يأخذ في أسباب السلامة على قدر الإمكان ، وماذا عسى أن يكون مبلغ علم الناس ، عند علم يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ إيمان الناس عند إيمان يعقوب وماذا عسى أن يكون مبلغ ثقة الناس بالله ، عند ثقة يعقوب ؟ ولكنه هو الأخذ بالأسباب المفروض على كل مسلم ومسلمة .

أسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل منهم من القضاء والقدر

إن الغربيين هم أتباع ديانات ، يعلم فيها بالقضاء والقدر ، كما يعرف ذلك تماماً من توراتهم وزبورهم وإنجيلهم ، وسائر أسفار الأنبياء التي بأيديهم ، ولكنهم مع ذلك يدركون أن نشاطهم وابتعادهم عن طرق الشر ، وتعاونهم ومثابرتهم كل ذلك عندهم فرض من فروض النجاح ، حتى ولو كان الأمر الذي يزاولونه بسيطاً لا يحتاج لتحفظات جدّية ، ولا إلى أيدٍ كثيرة .

قد يجوز أن يكون هذا الموقف المختلف ، الذي يقفه كل فريق منا ومنهم بإزاء ما ندعوه « قضاء وقدراً » هو من أسباب نجاح الغرب ، وتأخرنا نحن أهل الشرق ، وقد يجوز أيضاً أن يكون سبب خِذلان مشروعاتنا الاقتصادية ، وشركاتنا التجارية ، وفقدان المؤسسات النافعة ، من بين ظهرانينا هو نتيجة هذا الاتكال على « القضاء والقدر » ، ليقدم لنا ما نطلب ، ويتحفنا بما نحتاج إليه ، والأمر لو وقف عند هذا الحد ، لهان الخطر ، وقلنا : إن الشرقيين شعب له ثقة بالله ، واتكال على قضائه وقدره ، والله سبحانه وتعالى لا يخيب من يقصده ، ولا من يتكل عليه ، ولكن المصيبة في أن هذا الشيء تأصل في عقولنا ، وتوسعت فيه نفوسنا ، وتشبعت منه أفكارنا ، فتيبسنا وجمدنا ، وضرب علينا الكسل قبابه ، ونصب علينا الفشل خيامه ، حتى أن الإكثار من ذكر « القضاء والقدر » أصبح عادة متمكنة من نفوسنا ، وغدا ذلك شعاراً لنا عند كل عمل أردنا مزاولته ، فصار لنا ذلك بمثابة طابع لنا نحن الشرقيين ، نطبع به كل عمل من صنع أيدينا ، أو هو العلامة المسجلة لكل عمل أردنا أن نعمله ، أو هو العقبة الكؤود التي إن لم تمنعنا من الإقدام على جلائل الأعمال ، منعتنا من المثابرة والإتمام .

أنواع الناس بالنسبة الى عقيدة القضاء والقدر

٣ – أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر ، ثم أشار إلى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة ، ولا مغنية عن حكم الله شيئاً .. والناس في هذا الباب ثلاثة أنواع :

النوع الأول : متسبب صرف ، قد قصر نظره على السبب وقوّته وضعفه ، وهؤلاء هم المنكرون لوجود الصانع المختار ، من قبيل الماديين والطبيعيين والدهريين ، وظاهر أنهم من أهل الإلحاد ، الذي ليس وراءه إلحاد .

النوع الثاني - اتكالي صرف معرض عن الأسباب والوسائط ، والآلات والأعمال ، لا يريد أن يفتكر ولا يتحرك ، ولا يعمل عملاً ما ، اتكالاً منه على القضاء والقدر ، واعتماداً على ما سبق في العلم أزلاً ، وإن شيئاً منهذا لا يتحول ولا يتحور ، ولا يزيد ولا ينقص ،وإن العمل وعدمه سيان ، والحركة والسكون أخَوان ، وظاهر أن هؤلاء أهل جمود وكسل وجهالة ، غالطون في تصوراتهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون ، وهم بهذا مخالفون لشرائع الله وأوامره جميعاً ، يُحتجّ عليهم ويثربون ، ويحكم عليهم بأنهم عصاة ضالون ، وهم للجنون أقرب منهم للعقل ، ولو كان الناس كلهم على شاكلتهم ، لما أتى قرن واحد ، وعلى وجه الأرض إنسان ، وأشرف منهم الطير والحيوان .

النوع الثالث – من يثق بالله تعالى ، ويعتمد عليه ، ويعتمد أن الأمر منه وإليه ، مع أخذ بالأسباب ، ودأبه على العمل بجد ونشاط ؛ وظاهر أن هؤلاء أتقياء أهل الإيمان ، وهم أهل التوكل المشروع ، وهذا ما جرى عليه يعقوب عليه السلام في وصيته لأولاده كما ترى .

التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي والأخروي

٤ – لينظر القارىء اللبيب قول هذا النبي الكريم : (لا تدخلوا .. الخ) ، مع قوله : (عليه توكلت) ، مع مدح الله له بقوله : (وإنه لذو علم لما علمناه) يجد أن الاحتراس من الأمور الضارة يمدح الله عليه من فعله ، ويسلم له دعواه التوكل ، فليسمع هذا جهلة المتصوفين ، الذين لا يفهمون التوكل إلا بأنه معاداة الأسباب وإهمالها ، وليعلموا أن الله ورسله يكذبونهم ، وأكبر رد على من يستهين بالأسباب قوله تعالى : ﴿ بَلى مَنْ أسْلَمَ وجهَهُ لله وهو مُحسِنٌ ، فله أجرُهُ عندَ ربِّهِ ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزَنون ﴾ (٢ : ١١٢) ، فإن الله تعالى لم يقل ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ إلا بعد قوله ﴿ وهو محسن ﴾ منضماً إلى إسلام الوجه لله ، وكذا قوله تعالى : ﴿ فامشُوا في مناكِبِها وكُلوا مِنْ رزْقِه ﴾ (٦٧ : ١٥) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكم ﴾ (٤ : ٧٠) وقال تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استَطعتُم مِن قوةٍ ومنْ رِباطِ الخيل ﴾ (٨ : ٦١) وقال تعالى : ﴿ وتزوَّدُوا فإن خَيرَ الزاد التقوى ﴾ (٢ : ١٩٧) وقال تعالى خطاباً لنبيه لوط عليه السلام : ﴿ فأسْرِ بأهلكَ بقِطعٍ مِنَ الليل ﴾ (١١ : ٨١) وقال تعالى خطاباً لنبيه موسى عليه السلام : ﴿ فأسر بعبادي ليلا ﴾ (٤٤ : ٢٣) وقال تعالى : ﴿ فإذا قُضيَتِ الصلاةُ فانتشِروا في الأرضِ وابتَغوا من فضلِ اللهِ ﴾ (٢ : ١٠) وقال تعالى : ﴿ ليسَ عليكم جُناحٌ أن تَبْتَغوا فضلا مِنْ رَبِّكمُ ﴾(٢ : ١٩٨) ، وقال تعالى : ﴿ وقل اعمَلوا فَسَيرى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه والمؤمنون ، وستُرَدُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ ، فيُنبِّئكُم بما كنتم تعملونَ ﴾ (٩ : ١٠٦) ، إلى غير ذلك من الآيات التي تحض على مطلق عمل دنيوي وأخروي .

التوكل محله القلب ، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح ، والإنسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وكل من خالف ذلك فهو

فاسد الفطرة مبدل لخلق الله .

إذا الإنسان توكل فقط ، ولم يستعد للأمر ، ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه ، فيكون ملوماً شرعاً ، وعقلاً ، كما قال تعالى في الإسراف في المال : ﴿ولا تجعلْ يَدَكَ مَغْلولةً إلى عُنُقِكَ ، ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ ، فتَقْعُدَ مَلوماً محسُوراً﴾ (١٧ : ٢٩) وقال تعالى خطاباً لفخر الوجود ﴿ ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ، ودَعْ أذاهُم وتوكلْ على اللهِ ، وكَفى باللهِ وكيلاً ﴾ (٣٣:٤٨) قرن أمره بالتوكل بنهيه عن إطاعة من لا يوثق بقوله ، لأنه يغش ولا ينصح ، وقال تعالى : ﴿ وشاوِرْهُم في الأمرِ ، فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ على اللهِ ، إن اللهَ يحبُّ المتوكلين ﴾ (٣ : ١٥٩) ، قرن الأمر بالتوكل بالمشاورة ، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلباً وإيجاباً .

وبالجملة ، ضل اثنان خير منهما ثالثهما ، الأول لا يريد أن يعرف النواميس ، والثاني يريد أن لا يعرف سواها ، فيا قاتل الله الإفراط والتفريط .

العين الشريرة وعادات الأمم في دفع أذاها

٥ – قوله : (لا تدخلوا .. الخ) : يعتقد فريق من الناس خصوصاً النساء أن العين الشريرة (كما يدعونها) تأثيراً على الأشخاص والإجرام والأشجار التي تنظر إليها هذه العين نظرة استحسان وإعجاب ، ولما كانت كل امرأة تنظر إلى طفلها مثل هذه النظرة ، فهي تعتقد أن هذه « العين الشريرة » واقعة عليه لا محالة ، ولذلك قد جرت العادة أن تسلح النساء أطفالهن بسلاح يرد هذا الضرر .

فالمرأة السورية لترد العين عن طفلها تلبسه خرزة من الخرز الأزرق.

والمرأة الفلسطينية ، تضع ضمن قلادة خرزة بيضاء وخرزة زرقاء ، وصورة شخص من ذهب ، تسميه « مُشَخَّص » .

والمرأة الإرلندية ، تمنطقه بخصلة شعر من امرأة عجوز ؛

والمرأة الرومانية ، تربط كاحليه بشريطة حمراء ؛

والمرأة الإسوجية ، تضع في مهده كتاباً من كتب الطب ؛

والمرأة البلجيكية ، تعلق على صدره قطعة من النقود ؛

والمرأة الاسبانيولية ، تعلق على قبعته غصن صنوبر ؛

والمرأة الانكليزية ، تعلق فوق باب غرفته نعل حصان ، وفي عنقه زهرة من نبات يدعى « ميسيلتو » ، يوجد في غابات إنكلترة ؛

والمرأة الفرنسية ، تعلق فوق مهده غصناً من أغصان شجرة « الدرويد » المقدسة في نظرهم .

وبعد كل هذا فيعقوب عليه السلام إنما أراد لأولاده التحفظ من عيون الناس الأشقياء أهل الفساد ، ومن عيون مستخدمي الحكومة .

أبواب الدخول إلى مصر

(٦آ) - ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ قيل هي أبواب « الفَرَمَـــا » وكان لها أربعة أبواب ، قيل : هي في محـــل « بور سعيد » اليوم ، أو هي في محل البحر جهة « بور سعيد » ، وقال بعضهم : « الفَرَما » بالتحريك والقصر مدينـــة على الساحل من ناحية مصر ، وبعبارة أخرى : حصن على ضفة البحر ، وهي بعد « العريش » ، وقيل إنها مدينة قديمـــة بين « العريش » و « الفُسطاط » قرب « قطية » وشرقي « تَـنّيس » على ساحل البحر ، على يمـــين القاصد لمصر ، بينها وبين بحر القلزم ، ، وكان « احمد بن المدبر » قد أراد هدم أبواب الفرما، وكانت من حجارة شرقي حصن الفرما ، فخرج أهل الفرمـــا ومنعوه من ذلك ، وقالوا إن هذه الأبواب هي التي ذكرت في كتاب الله،حين قال يعقوب لبنيه : ﴿يابَني لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ فتركها ، قالوا :وكان

« عمرو بن العاص » فتحها عنوة سنة ١٨ هـ في خلافة عمر رضي الله عنه[1] إذ سار عمرو بن العاص بالمسلمين لفتح مصر ، فوصل « رفح » ثم « العريش » ثم «الفرما».

الحذر لا يغني من القدر

(٧ ّ) – تعليقاً على قوله ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ .

أولاً – نتذكر ههنا نادرة، هي أنه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دار خربة فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، فأصبح الجميع في عافية ، وحمّلوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، إذ دخل الرجل الى الدار لحاجة ، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً – يحكى أن عضد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدوله وابن ركنها   ملك الأملاك غلاب القدَر

ثم أصيب بعد بشيء من الخبل والوسواس وفساد المزاج ، فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ ما أغنى عني ماليَهْ ، هلكَ عني سُلطانيهْ ﴾ (٦٩ : ٢٨ و ٢٩) .

هل للعبد إرادة واختيار

(٨ ّ) – وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لأنه سبحانه وتعالى الفعال

---

(١) معجم البلدان .

لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحك ، وما أراده تعالى كائن لا محالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه للعبد كسب واختيار - كلا - لأن هذا المعنى مناف للعدل الإلهي ، ومناقض لحكمة التشريع السماوي ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولكنه إنما يختار لنفسه ما وافق استعداده ، وجرّته إليه ملّته وارادته وتربيته ومزاجه ووراثته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيدة والعادة والحكم والأسرة والمدرسة والمجتمع والمناخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة أو الشقاء .

وأما قضاء الله وقدره فينا ، فهما خفيان عنا معشر البشر ، وإنما يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سننه الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بثها في هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، وهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها إلى أبصارنا ما في اللوح السماوي من حكم الله وإرادته ومشيئته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدر بقدر ، حسبما هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة ، وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يعتقد أنه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاه الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت إلى هنا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلهي للقضاء والقدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنكم مِنَ الله مِنْ شيءٍ ... ﴾ فتأمله ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . (مرحى)

قول الخوارج لا حكم إلا لله

٩ – سألني طالب علم صغير: إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكمُ الا لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه، فكيف كانوا على باطل، وهذه الجملة شعارهم ؟... فتبسمت لسؤاله وشكرته عليه لحداثة سنه، وقلت له : يا ولدي، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل، أريد بها الخروج على عليّ كرّم الله وجهه، حيث حَكّم وهو على حق، فكان الخوارج يقولون « لا حكم إلا لله ».

نظام الطبيعة وأحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر

١٠ – إن ما قيل في آية (وما أغني عنكم من الله من شيء) فيه كفاية للمستبصرين، ولكن تذييلاً للمقام أقول :

إن للطبيعة نظاماً، وإن لله في سيرها أحكاماً، فينبغي لنا أن نخضع لأحكام الله ولا نخل النظام، قال تعالى ﴿ وخلقَ كلّ شيءٍ فَقَدّره تقديراً ﴾ (٢:٢٥) وقال تعالى : ﴿ إنّا كلّ شيءٍ خلقناهُ بقَدَرٍ ﴾ (٥٤ : ٤٩)، وعندي أن في هاتين الآيتين ونحوهما ما يوقظ الأفكار لحل مشكلة القدر، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث

سفرة إخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) « . . ولمَّا دَخلوا مِنْ حيثُ أمَرَهُمْ أبوهم ، ما كانَ يُغنِي عَنهمْ مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ ، إلَّا حاجةً في نَفسِ يعقوبَ قضاها ، وإنَّه لذو عِلمٍ لِمَا علَّمناهُ ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الاية الثامنة والستون، فقام الشيخ آدم الرمتي[1] وقال :

قام أبناء يعقوب وأبوهم واضع يده على قلبه ، وركبوا دوابهم ورحلوا من « سيلون » الى « غزة » إلى « رفح » إلى « العريش » إلى « الفرَما » وهي أول حصن حصين من بلاد مصر (و) لا أخفي عن القارئين والسامعين أنهم (لما دخلوا) الفرَما (من حيث أمرهم أبوهم) وكما رسم لهم ، وعلى حسب الخطة التي اختطها لهم ، متفرقين لأبوابها الأربعة ـ لما دخلوا هكذا ما عتموا أن وقعوا فيما قدر عليهم وخاصة على أخيهم بنيامين ، و (ما كان) ذلك الرأي ودخولهم متفرقين (يغني) يدفع (عنهم من) قدر (الله من شيء)، لأن الإنسان وديعة غيب ، لا يعلم ما يطرأ عليه ، بل ذهب ذلك التحفظ أدراج الرياح ، وغلب التقدير التدبير ، حيث أصابهم ما ساءهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم ،

---

(١) نسبة الى الرمتا من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

ولكن عدم إغنائه من الله من شيء ، لا يقلل شيئاً من قيمة الأخذ في الأسباب وسلوك سبيل الاحتياط والتحفظ ، (إلا ً حاجة) غايـة (في نفس يعقوب قضاها) وهي على ما فهمه العلامة الزمخشري شفقته عليهم وإظهارهم بما قاله لهم ووصاهم به ؛ أو هي على ما يفهمه هذا الحقير أن لا تبقى في نفسه حسرة ، إذا حدث لولده « بنيامين » ممايخشاه ، كما بقيت في نفسه حسرة في حادثة يوسف ، حينما وحيثما استرسل مع أولاده استرسالاً ، وسلمه دون قيد ولا شرط ، دون عهد وميثاق ، دون وصية وإرشاد ؛

فهو كان رأى نفسه في حادثة تسليم ولده يوسف أنه استسلم لأولاده عـلى العمياء دون كفالة ولا توثق ، حال كونه كان يخاف منهم عليه ،لأنهم يكرهونه وهم له حسدة ، وأبوهم يعرف ذلك كله ، حتى أنه قال له : «لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين » (آ ٥) ، فمع كل ذلك قد زج بـه إلى إخوتـه ، وتعذيبهم إياه ، حتى صـار فريسة الإثم وطعمة الغرور ، وألعوبة في يد المكرة ، وقد قيل : « من استرعى الذئب ندم » ، ويعقوب استرعى الذئب على ولده بدون أن يكون معه حراس، كان كل هذا في حادثة يوسف ، وأما اليوم في حادثة بنيامين ، فلم يرد أن يترك أخـذ العهد المغلظ عليهم ، ولم يشأ أن يغفل إرشادهم ووصيته إليهم ، لئلا يتوهم أنه ضيع ولده بيده ، وأنه سلمه إلى المهالك باختياره ، فيحزن عليه حزن النادم المتفجع ، الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى ، ويتحسر أنه ترك نوعاً مما عليه من أنواع التحفظ ، بل يريد هنا أن يتحفظ لبنيامين ما وجـد لذلك سبيلا ، وأن يأخذ حذره ما أمكن فيعقوب عليه السلام بما أجراه هذه المرة مع أولاده في شأن بنيامين لا يتحسر كثيراً ، ولا يتأسف أسفاً جليلا ، لو طرأ على ولده صدمـة من صدمات القدر ، أو نزل عليه نازلة من نوازل القضاء ، لأنه حينئذ لا قصور منه ولا تقصير ابتداء ، ولا حول ولا حيلة انتهاء ، فهو إذ عمل

بالواجب قد يهون عليه الأمر ويسهل في نظره المصاب ، فلا يصدر منه كبير أسف ، ولا كثير تحسر ، ولا يقدر أحد أن ينسب إليه الاسترسال مع الأولاد، أو الاهمال لشيء من الحذر ؛ هذا ما أفهمه فيما هي هذه « الحاجة » ولا أعلم هل أنا مصيب أو مخطىء ولكن أعلم انني كتبت ما اعتقد .

(وإنه لذو علم) اي فهم ومعرفة (لما علمناه) اي يفهم الذي علمناه إياه ، ومنه أمره لأولاده بالحذر وأن لا يدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لا يدفع القدر ، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظ من التأثير ، فنعمّا ذلك الصفي الكريم . أو معنى قوله (ذو علم) ذو عمل ، لأن العلم التصديقيّ الإذعانيّ المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل ونقَلَ البخاري عن قتادة أن العلم هنا العمل ، ولذلك فسره بقوله « عامل بما علم » ، ووجهه أن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أُشْرِبَتْهُ روحُه ، وخالط لحمه ودمه : ووصل من قلبه إلى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بداً من العمل به ، رضي أم أبى ، فإذاً أصبح العلم هو العمل لأن أثره اللازم له لزوم الظل للشاخص أو لزوم حركة الخاتم لحركة الإصبع ، ولذلك قالوا : آية فهم المعلوم تأثر العالِم به وظهوره في حركاته وسكناته وترقرقه في شمائله ، ترقرق اللبن السائغ في جسم الرضيع .

العلم علمان : نظريات وعمليات، والعلم لا يتحقق أو لا يتأكد إلا بالعمليات فلا يقال : فلان نجار ، إلا بعد أن يكون – عقب النظريات – قد عمل صندوقاً أو خزانة مثلاً، وكذا لا يقال : فلان حداد ، إلا بعد أن يكون قد عمل مفتاحاً أو سكيناً مثلاً ، وهكذا لا يقال : فلان طبيب ، بمجرد نواله الشهادة ، ما لم يكن قد ابتدأ في تطبيب المرضى بالفعل ؛ وعندنا أن جملة (لذو علمٍ لما علمناه) تحتمل تخريجاً ثالثاً ، وهو أن اللام في قوله « لما » للتعليل و « ما » موصول حرفي

والمعنى لأجل تعليمنا إياه ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ما علمه يعقوب من الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، فالقِبْضُ منهم في غفلة عن ذلك ، وجمهورُ الناس هم من ذوي الغَبْنِ والنوك .

اجتماع شمل الشقيقين

آ (٦٩) « ولمّا دَخلوا على يوسفَ ، آوَى إليه أخاهُ ، قالَ : إنّي أنا أخوكَ ، فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يَعْمَلونَ » .

تليت الاية التاسعة والستون في نفس الجلسة فقام الحافظ الترمانيني[١] وقال :

(ولما وصلوا صوعن « صان الحجر » عاصمة المملكة الهكسوسية ،و (دخلوا على) عزيز مصر (يوسف) ووقفوا وِجاهَه، شعر بتعزية داخلية بمجيئهم عنده، و (آوى أخاه إليه)بنيامين ، وأدناه منه ، وأنزله تحت ظله ، وجمعه إليه ،ورق له وعطف عليه ، و (قال) له (إني أنا أخوك) – قال بنيامين : (أخي في الحب والصداقة أم ماذا ؟ » – قال : « أخوك المفقود يوسف بن إسرائيل ، من زوجه راحيل ، أنا أخوك وأنت أخي ، أنت لي وأنا لك ، وكلانا على الدهر (فلا تبتئس) لا تحزن ولا تتذمر (بما كانوا يعملون) ويمرمرون به معيشتنا ، فإنه لا يقلل من قيمتنا التاريخية شيئاً ، هكذا قدر عليهم أن يعملوا ما عملوه ، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم ، واجعل قرة عينك اليوم برؤية أخيك ، ناسخة لأحزان الثلاث والعشرين سنة الماضية : افرح وتهلل اعتباراً من هذه الساعة .

---

(١) نسبة الى ترمانين من بلاد الشام (سورية) .

(ولما دخلوا على يوسف ... الخ)

— ٢ —

وقال السيد الكِلسّي[١]:

إخوة يوسف الأحد عشر بين يدي يوسف

ولما وصل إخوة يوسف مصر ساروا تواً إلى حيث يقيم العزيز « يوسف » ومعهم بنيامين الذي طلبه منهم ، وعند دخولهم عليه سُرّي عنه بذلك كل هم وغم إذ كان ينتظرهم بفارغ الصبر ، وهو على أحر من الجمر ، ووقفوا أمامه وسلموا عليه تسليم الإمارة وركعوا وكفّروا مترامين بين قدميه ، فلما رأى يوسف بنيامين معهم ، قال لهم : (أنجز حرّ ما وعد) ثم قال للذي على بيته : (أدخِل الرجال إلى البيت واذبح ذبيحة وهيىء ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون معي عند الظهر) ففعل الرجل كما قال له يوسف ، وأدخَل الرجال إلى بيت يوسف ، وأعطاهم ماء ليغسلوا أرجلهم ، وأعطى عليقاً لدوابهم ، فلما جاء يوسف إلى البيت سجدوا له إلى الأرض ، فسأل عن سلامتهم ، وقال : (أسالم أبوكم الشيخ الذي قلتم عنه ، أحيٌّ هو بعد) فقالوا : عبدك أبونا سالم ، وهو حيٌّ وخروا وسجدوا ، وكان هذا السجود تمام الحلم الأول ، وهو أن حزمهم الإحدى عشرة سجدت لحزمته ، وكانت الحزم في الحلم مناسبة لطلبهم القمح منه ، فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه ، وقال : (أهذا أخوكم الصغير الذي سمعت به وطلبته منكم ؟) وهذا الاستفهام للتكتم أو للتعجب ، لأنه رآه ابن نحو ثلاثين سنة ، وكان يوم بيع يوسف ابن نحو ثماني سنين ، ثم خاطبه يوسف بقوله (الله ينعم عليك يا ابني) واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه ، وطلب مكاناً ليبكي ، فدخل المخدع وبكى هناك ، ثم غسل وجهه ليزيل آثار الدموع وخرج

(١) نسبة الى كلس من بلاد الشام .

وتجلد ، وقال للخدامين : قدموا الطعام ، فقدموه له وحده ، ولهـم وحدهم ، وللمصريين الآكلين وحدهم ، لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مـع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين ، وهذا التمييز بين الآكلين كان عامـاً في الأزمنة القديمة ، ولا يزال في الهند ، ولكنه عند المصريين كان بمقتضى أمر ديني ، أن لا يأكلوا مع الغرباء ، ففي تاريخ هيرودوتس أن المصريين كانوا يأبون الأكل مع اليونانيين وأن مس الطعام بسكين يونانية ينجسه .

ورفع يوسف حِصَصاً من قدامه إليهم ، ولكن كانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم ، وهذه العادة كانت تعد من الرئيس في بلاد الشرق إكراماً عظيماً ، فأكلوا وشربوا ورووا ، وكانوا آمنين مبتهجين ، وأما يوسف فكان يفعل ذلك معهم وهو يقول في نفسه : اليوم تمر وغداً أمر ، ثم بعد انتهاء حفـلة الطعام ضم يوسف إليه بنيامين في عزلة مع باقي إخوته ، وهش له وبش ، وقد ترقرقت الدموع في عينيه ، ثم قال له أتعرفني وتعرف اسمي ومن أنا ؟ — قال : ما أنكرك لسوء قال يا ابن راحيل انظر إليّ جيداً وتفرس فيّ ملياً إني ابن أمك وأبيك ، أنا أخوك يوسف — وأما بنيامين فسمع ما لم تضطرب به حاسته ، ولا هجس في الضمائر ، فقال : ما تقول يا حضرة « صفنات فعنيح المحترم » — قال هذا هـو الواقع ، أنا يوسف ابن أمك راحيل ، من رجلها يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، أنا أصح نسبة ليعقوب من المطر إلى السحاب ، وأصح نسبة لراحيل من النور إلى الشمس — فظن بنيامين نفسه في منام ، لأنه فارقه منذ ٢٣ سنة ، فلم يعرفه ، ولكن يوسف ذكر له من السيما ما تأكد به أنه أخوه الفقيد ، وعند ذلك برح الخفاء وتقشعت الغمامة ، وظهـر البدر التمام ، وأما بنيامين فطار فرحاً ، وقام إليه وتحاضنا ، وسلم عليه بالقبلة الأخوية ، وجاوبه أخوه بقبلة حارة ، وأمسك كلّ بيد الآخر إمساكاً شديداً ، ثم قال له يوسف والآن يا أخي ، لا تحزن ولا تتذمر بما يفعله إخوتنـــا ، ممـــا سجله عليهم التاريخ ، بمداد من نار ، إن الله قـد

أحسن إلينا وجمعنا على خير ما نرجوا ، وقد أبدلك مرارة صابهم ، وغضاضة علقمهم بحلاوة اللقاء ، وجمع شمل الأحباء ، ومع ذلك فإن مع اليوم غداً .

(مرحى)

(ولما دخلوا على يوسف ... الخ)

— ٣ —

وقال حمدي باشا الانطاكي[1] :

يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه إليه

لما دخل إخوة يوسف على يوسف ، حيوه تحية الأمراء ، وقالوا له : (ها نحن أولاء قد سعينا السعي الحثيث مع أبينا حتى أتينا بأخينا بنيامين حسب رغبتك) وأما يوسف فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين ، فقد فرح بمجيء إخوته بني العلات ، فرح المنتصر الظافر ، وفرح بمجيء شقيقه ، فرح الحبيب بالحبيب ، ولما رفع نظره لبنيامين لمس القلب ، لا سيا وقد لاحت له في صورته صورة المرحومة أمه «راحيل» فعطف عليه وآواه إليه ، وكأنه سبحانه وتعالى ، يشير بهذه الكلمة إلى إنقاذه من ظلم إخوته إياه ،واستبدادهم به ،فقد تكاد هذه الكلمة أن لاتستعمل إلا في مقام النصر والإنقاذ من الذل والتهلكة ونحو ذلك ومن قوله تعالى : ﴿ وآوَيْناهما إلى ربوةٍ ﴾ (٢٣ : ٥١) وقوله تعالى : ﴿ وفصيلته التي تُؤْويه ﴾ (٧٠ : ١٣) وقوله تعالى في النبي ﷺ :﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ (٩٣ : ٦) وقول لوط عليه السلام : ﴿ أو آوِي إلى ركنٍ شديدٍ ﴾ (١١ : ٨٠) وقول ابن نوح ﴿ سآوِي إلى جبلٍ يَعْصِمُني من الماءِ ﴾ (١١ : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ (آ ٩٩) ، ويدلنا على أن

---

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام .

بنيامين كان محوطاً بظلم إخوته واستبدادهم ، قول يوسف له : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ الذي يرمي إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه ، ثم هو لما رأى بنيامين وضمه إليه تتخيل أنه قال في نفسه :

كأنك لم توتر من الدهر مرة إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

وقال لبنيامين مقدماً نفسه إليه معرفه بشخصه الكريم ، إني أنا أخوك يوسف ، فكن مطمئن البال ، حيث ظفرت بأعز ما ترجو ، وعلى الدنيا السلام فلا تحزن ولا تتذمر بما كانوا يعملون معنا ، فقد أصبح منذ اليوم خبراً ليس له أثر ، أصبح ليس له وجود إلا في بطون الدفاتر ، وأنا لا أريد أن أثير المعركة عليهم من جديد سامحهم الله ، فلنتناس ما فات ، وننظر فيما هو آت ، وإن لم شملك بأخيك اليوم يشفع في كل ما أصابك من الأسواء ، ويجب أن ينسيك كل بلواء.

بدء المعركة بين يوسف وإخوته ـ التسريق

آ (٧٠) « ... فلما جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ ، جَعَلَ السِّقايَةَ في رَحْلِ أَخيهِ ... ثم أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : أَيَّتُهـا العِيرُ ، إنكم لسَارِقونَ. »

افتتحت الجلسة وتليت الاية السبعون فقام السيد مطيع الادلبي[1] وقال:

كان يوسف عليه السلام عقد النية بالاتفاق مع « بنيامين » على عمل الحيلة بنسبة السرقة إليه ، توصلا لبقائه عنده قهراً كرقيق لمدة سنة أو أكثر ، فأمر خادمه الخصوصي الذي على بيته قائلا : « املأ عدال الرجال طعاماً حسبما يطيقون حمله ، وضع فضة كل واحد في فم عدله ، وطاسي طاس الفضة تضعه في

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام .

فم عدل الصغير مع ثمن قمحه » (فلما جهزهم بجهازهم) من قمح وزاد للطريق من خبز ودقيق وسويق وعليق ، وسائر لوازم السفر ومعداته (جعل) وضع (السقاية) أي طاس الفضة (في رحل) في عدل (أخيه) بنيامين ، بيد خادمه الخاص الذي على بيته ، فلما أضاء الصبح انصرف إخوته هم ودوابهم ، وعندما قاربوا الخروج من المدينة « صوعن » ولم يبتعدوا ، قال يوسف لخادمه الخاص «قم واسع وراء الرجال ، ومتى أدركتهم فقل لهم : لماذا جازيتم شراً عوضاً عن خير ؟ أليس هذا هو الذي يشرب سيدي منه ؟ أليس هذا هو الذي يكيل أيضاً به ؟ » فقام الخادم يسعى وراءهم (ثم أذن مؤذن) أي نادى مناد: (أيتها العير) القافلة الفلسطينيون رويداً ، على رسلكم ، إن «العزيز»أرسلني، والرسول غير ملوم فيما يبلغ ، وإن أغلظ في القول ، – قالوا : « فما الرسالة » ؟ – قال : (إنكم لسارقون) وسيكون لنا معكم شأن من الشؤون ، فأنتم لستم قافلة تجارة ، ولا رواد ميرة ، بل عصابة لصوص ، أو حملة عدائية نحو « العزيز » فما هذا الشرك الذي نصبتموه لنا ، ذريعة للاختلاس ؟ وما هذا المركب الخشن الذي ركبتموه ؟..

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية ... الخ)

– ١ –

قال السيد عبد الكريم العجلوني(١) :

المحادثة التي يظن أنها جرت بين يوسف وأخيه بنيامين قبل تسريقه

لو كنت من المحدثين في هذه الأمة المحمدية لقلت إني حُدِّثتُ بما يلي :

(١) نسبة الى عجلون من أعمال بلاد الشام (شرقي الأردن) .

قال يوسف لأخيه « بنيامين » : « يا ابن الأعيان ، لي معك كلمة ، أصغ إليها ، فإن احتويتها فاضرب بها عرض الحائط ، وإن وقعت عندك الموقع الحسن ، فتنازل بمساعدتي على ما أريد ، أنا أريد الآن بقاءك عندي ، لتؤنس من وحشتي ، وتخفف من آلامي وفرقتي ، وتعينني على احتمال أعباء الحياة وهمومها ، وها أنا ذا هنا أقلب طرفي حولي ، فلا أرى أخي الذي أحبه وأوثره ، وأرى فيه شخص يعقوب وصورة راحيل ، إنني ههنا لا أرى إلا أناساً آخرين أجانب ، لا شأن لي معهم ، ولا صلة بيني وبينهم ، فلذلك يخيل إليّ ، وأنا مجتمع بالجمهور من المصريين المحكومين ومحفوف بالجمهرة من العمالقة الحاكمين ، كأنني خال بنفسي ، منقطع عن العالم وما فيه ، ولقد كنت سعيت في أسباب حضورك ، وكنت أترقب ذلك ترقب المقرور أشعة الشمس ، وكنت أنتظرك انتظار الظامىء ديمة القطر ، فالآن أريد أن تبقى عندي لا سواك ، تبقى عندي مدة طويلة لا قصيرة ، لأننا مشتاقان كلّ إلى أخيه ، كما أريد ذلك لأبينا الشيخ الجليل ، ولكن الأمر بالنسبة لأبينا صعب الآن جداً ، لأن الظروف والأحوال لا تمكننا اليوم من الحصول على لذة الاجتماع به ، لأن هذا لا يمكن إلا إذا أظهرت نفسي له ولإخوتي ، وبان لجميعهم من أنا ، وهذا لم يحن حينه بعد ، وأما تمتعي بحصولك عندي فممكن ، بشرط أن تضحي شيئاً من شرفك مؤقتاً ولأجل محدود ، وبحيث يكون ذلك ضمن دائرة الخفاء إلا عن إخوتك ، تضحي ذلك من أجلك وأجل تمتعك برؤيتي ، بل وأيضاً من أجلي وأجل تمتعي برؤيتك » - فأجاب بنيامين قائلا : « وما الذي اجتمع عليه رأيك حتى نتوصل لذلك ؟ » – قال : « أنسب إليك أنك أخذت صواعي ، وجعلته في رحلك ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه من عار السرقة أمام إخوتك أنك ستكون عندي مدة طويلة ، نتبادل فيها الأحاديث والسرور ، ويتمتع بعضنا بمشاهدة بعض ، كما أنه ليكن عزاء أبينا الشيخ عما سيلاقيه من الحزن والكمد بتسريقك وبعدك عنه – أنه سيمكن له ولنا بعمل هذه الطريقة ، مجيئه لمصر ، ويتمتع كل برؤية الآخر ، ذلك لأنني أريد فيما بعد إظهار نفسي

لإخوتي ، توسلا لذلك ، ولكن بعد تنزيل شيء من كبريائهم وتمردهم ، فإني لا أنسى أنهم كادوا لي كيداً ، وأنا اليوم أيضاً أخوف ما أخاف منهم : لو خبرتهم الجوزاء خبري ، لما طلعت أن تكادا ، على أني أعتقد أن والدي سيتخذ حبسك عندي إشارة رمزية يفهم منها أن لا بد للأمر من سر ، ويشم رائحة يوسف من ناحية مصر ، نعم ، إنه من الشديد عليّ أن أسرقك أيها الأخ ، ولكن أشد منه عليّ مفارقتك إياي ، فتحمل أنت هذه الحملة اليوم ، لما قلت لك ، والنتيجة تبرر الواسطة ، نعم إن الحادثة التي ستستقبلها شديدة ، شديدة عليك وعلى أبينا الشيخ ، ولكن أبونا سيتحملها بما لديه من صبر وسكون ، وعلمه بتأويل ما يكون وفهمه تلك الرموز والإشارات ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، هذا ما أراه في هذا الموضوع ، والله أعلم بإخلاصي فيما انتويت أن أجريه ، وهو سبحانه وتعالى من وراء القصد ، وأنا والله إنما أريد هذا لأسرك لا لأضرك ، فهل تطيعني يا بنيامين في ذلك ؟.. » — فقال بنيامين : « ما عصيت لك أمراً قبل اليوم ، ولكن هبك فعلت كل هذا ، وتوفقت له ، فأنى لقوانين مصر أن تحكم ببقائي عندك سنة ، وهي إنما تغرم السارق بمثلي ما أخذ ، دون أن يستعبد ؟ » — قال يوسف : « سوف نستفتيهم ونطلب منهم الفتيا ، وهم طبعاً إنما يفتونا بشريعة جدنا إبراهيم ، وهي استعباد السارق سنة عند المسروق منه » — فقال بنيامين : « افعل ما بدا لك ، مرني بما تريد ، فأنا في كل حين أطوع لك من بنانك » — قال يوسف : « اسكت عليها ، لا تعرّض ذكرها بين شفة ولسان » وبناء عليه فلما جهزهم بجهازهم ، بيده اليمنى ، جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين بيده اليسرى ، قائلا في نفسه « شأن عساه أن يجر شؤوناً » ولم يأخذه مصادرة ، لئلا يقيموا عليه بذلك دعوى ويشتكوه للملك الريان ، فيكون قد غرّر بنفسه ، وكان هذا بمعرفة ورضى من بنيامين ، نزولاً على إرادة يوسف ، وهذا الأمر يعد أكبر تضحية من بنيامين ، وإنما ارتأى يوسف هذا الرأي وأقدم عليه ليرد شأوهم ، ويثني من عنانهم ، ويقلم أظفارهم ، ويكف من عُرامهم ، ويحسم من شِرّتهم :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمَنسِمِ

قال قيس بن زهير :

إذا أنت أقررت الظلامة لامرىءٍ ... رماك بأخرى خطبها متفاقمُ
فلا تبد للأعداء إلا خشونــــة ... فما لك منهم إن تمكن راحمُ

فكانت هذه « السقاية » كفخ نصبه يوسف ليصطاد به أخاه ليكون عنده فلما أضاء الصبح ، ثاروا إلى أحمالهم ووضعوها على ظهور الأبعرة ، وانصرفوا ومشوا أدراجهم ، في غمار المتارين ، الآيبين إلى بلادهم ، يطوون الأرض طياً من فرحهم بميرتهم ، وإيابهم بسلامتهم وسلامة أخيهم ، ثم لما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبعدوا ، أذن مؤذن ، أي صرخ صارخ أو نادى مناد ، أو صاح صائح أو أعلمَ مُعلم ، وهو الخادم الخاص ليوسف ، بملء صوته والاهـــتمام ظاهر على وجهه ، حيث خف وراءهم في كوكبة من رجاله ، وشخصوا خلفهم وصمدوهم وصرخوا عليهم : أنتم أيتها العير ، أصلحكم الله ، أنتم تحت الطلب ، فعلى رسلكم ،وقفوا مكانكم ، لأنه ظهر أنكم سارقون ، — وفيه تعريض باختلاس يوسف من أبيه ، أو بسرقة المسرة والحبور الذي كان في قلب يعقوب ويوسف وبنيامين ، وما كانوا يشعرون به من الغبطة في نفوسهم بلمّ شملهـــم ، وأنس بعضهم ببعض ، والسرقة كما تكون في الماديات تكون في المعنويات ، كما يسرق الشاعر معنى لشاعر قبله ، وكما يسرق الفرح أو الحزن النوم من الأجفان ، وكما يسرق فتقبض النفس بانقباضه ، صفاءَ جليسه وانشراحه ، ويحتمل أن المراد بقوله « لسارقون » أن حالهم تشبه حال السرقة ، بما أن الصواع مخبوء في رحالهم — .

(فلما جهزهم بجهازهم ... الخ)

- ٢ -

وقال الأستاذ المقدسي : لي على هذه الآية الملحوظات التالية :

هل كانت العير حميراً أم إبلاً

الملحوظة الأولى – العير : جماعة الإبل التي عليها الأحمال ، والمراد بها في الآية أصحابها ، ونحوه « يا خيل الله اركبي » ، ويقال لها « عيس » وإذا كانت خراسانية قيل لها « بُخت » ، وتطلق كلمة العير على القافلة أو الإبل تحمل الميرة أو كل ما امتير عليه ، إبلا كانت أو حميراً أو بغالاً ، وقال بعضهم ، العير هي القافلة إذا كانت فيها جمال : قد تخللتها حمير تحمل الميرة ، وقد نقل ابن جرير في تفسيره عن مجاهد أن العير هنا كانت حميراً ، وأما كلمة بعير المتقدمة في قولهم (ونزداد كيل بعير) ففيها خلاف أيضاً عند اللغويين ففي القاموس: « البعير وقد تكسر الباء الجمل البازل أو الجَذَع ، وقد يكون للأنثى ، وهو أيضاً الحمار وكل ما يحمل ، قاله ابن خالوَيه » وقال في تاج العروس : قال ابن بريّ : « وفي البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان ، وكان السائل ابن خالويه ، والمسؤول المتنبي ، بين يدي سيف الدولة ، وكانت فيه خنزوانة وعنجهية ، فاضطرب ، فقلت المراد بالبعير في قوله : (ولمن جاء به حمل بعير) الحمار، وذلك أن يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف ، كانوا بأرض كنعان ، وليس هناك إبل، وإنما كانوا يمتارون على الحمير ، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره » اه .

ويقول الحقير إن القول بأن دوابهم كانت حميراً ، مأخوذ من التوراة ،وأما قوله إنه لم يكن إذ ذاك بأرض كنعان إبل ، فهو وَهم مخالف للواقع وللتاريخ، بل وللتوراة التي هي المستند في أن دوابهم كانت حميراً ، فقد ذكر في التوراة : أن « رفقة » لما جاءت من العراق لكنعان كانت راكبة على جمل (تك٢٤: ٦٤)

وذكر فيها أن راحيل وقت براحها العراق لكنعان أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل (تك ٣١ : ٣٤) وفيها أنه صار لإبراهيم لما كان بمصر غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تك١٢ : ١٦) ، فهذان نصّان تاريخيان منهما نعلم أنه كان يوجد بشرقي كنعان (أي العراق) جمال ، وكان يوجد بغربي كنعان (أي مصر) جمال ، فلماذا حينئذ لا توجد الجمال في نفس كنعان المتوسطة بينهما ؟ على أنه ورد في التوراة أن اليعازر الدمشقي ، عبد إبراهيم ، أخذ عشرة جمال من جمال مولاه ومضى إلى العراق (تك ٢٤ : ١٠) فهذا النص التاريخي يفيد أن الإبل كانت موجودة في نفس كنعان من أيام إبراهيم ، وفيها أن الجمل لا يؤكل (لا ١١ : ٤) فهذا النص الثاني يفيد أن الجمل كان موجوداً أيضاً في كنعان التي هي أرض إسرائيل لأيام موسى عليه السلام ، فالقول بأن الجمل لم يكن موجوداً في كنعان أيام يعقوب وأولاده غلط تاريخي .

المراد بالمؤذن

الملحوظة الثانيه – كلمة « أذن » في قوله « أذن مؤذن » بالتشديد تفيد كثرة الإعلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه ، وأما « آذنَ » بالتخفيف فإنما تفيد الإعلام ولو مرة واحدة .

بدء المعركة بين يوسف وإخوته بايقاعهم في مأزق حرج مع إبيهم

الملحوظة الثالثة – من ههنا ، أي من قوله : (فلما جهزهم) تبتدىء المعركة بين يوسف وإخوته وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله : ﴿ فلما استيأسوا منه .. الخ ﴾ (آ ٨٠) ، فلكأني به قد سمع من شقيقه بنيامين تلك التعهدات القوية التي صدرت من رأوبين ويهوذا لأبيهما ، فلذلك ولكون يوسف يعتب عليهما أكثر من باقي إخوته ، لأنه كان يركن إليهما أكثر من غيرهما ، فقد

عوّل على أن يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع أبيهم ، وأن يعمل معهم عملا يقابل عملهم ، بحيث يدخل على جميعهم الكرب والهم ، لأنهم كانوا أنزلوه في جب الماء ، فأراد أن ينزلهم في أتون من نار الهم والغم ، وهم كانوا قالوا حينما ألقوه في الجب : « خذ يا صاحب الأحلام » فقال لهم الآن : «خذوا أيها الظلام» كانوا عملوا معه عملا يريدون به أن يخلو وجه أبيهم لهم ، فأراد أن يعمل معهم عملا ، يلفت عنهم وجه أبيهم جزاءً وفاقاً ، فذر الرماد في العيون ، وهيأ لهم ضربه أليمة ، كما كانوا ذروا الرماد في عيون أبيهم وآلموا يوسف ، جزاءً وفاقاً فكأن يوسف يقول : احصدوا أشواك أعمالكم السابقة .

ويقول الشاعر :

إذا قيل رفقاً قلت للحلم موضع		وحلم الفتى في غير موضعه جهلُ

أو يقول :

وقد تصبرت حتى لات مصطبر		فالآن أقْحَمُ حتى لاتَ مُقتَحمُ

هو عمل معهم هذه الحيلة المسيئة لهم التي سيضيقون منها ذرعاً ، لأنهم سبق أنهم عملوا عليه تلك الحيلة المسيئة أيضاً ، وهي أخذه من أبيه بحجة أنه «يرتع ويلعب » فما كان منهم إلا أنهم أنزلوه في غيابة الجب وقد قيل : « الهزيمة تعلم الظفر » .

اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه

الملحوظة الرابعة ـ إن قال قائل ما الدليل على أن يوسف اتفق مع أخيه بنيامين على تسريقه ليقيم عنده ، فهل ورد بذلك حديث عن المعصوم ، أو هل يوجد في القرآن ما يشير لذلك ؟ قلت لا هذا ولا هذا ، إنما دليلنا على ذلك كون يوسف شقيقاً ومحباً ومخلصاً لبنيامين ، وبنيامين كان عنده كضيف نزيل كريم ،

وهذه الضيافة كانت بدعوة سابقة من يوسف ، فمع هذه الأحوال لا نقدر أن نتصور أن يوسف دبر هذه المكيدة لبنيامين بدون أن يشعره ويتفق معه عليها ، وإلا كان ذلك قطعاً للرحم ، وأذىً كبيراً للضيف الكريم البريء ، وقد قال تعالى : ﴿ والذين يُؤذُون المؤمنينَ والمؤمناتِ بغير ما اكتَسَبُوا ، فقد احتملوا بُهتاناً وإثماً مُبيناً ﴾ (٣٣ : ٥٨) .

مبررات قبول بنيامين التسريق

الملحوظة الخامسة – إن قال قائل : « كيف رضي بنيامين بهذه الإهانة ووافق عليها ووقف بإزاء أخيه موقف السامع المطيع ، موقفاً إيجابياً محضاً ، مع أنه يوجد له ثلاثة موانع ، تمنعه من موافقة أخيه : أولها المحافظة على شرفه ومروءته أمام المصريين والحكومة وخوفه من الوقوع في الخجالة معهم ، وثانيها تسبب بنيامين بقبوله هذا الأمر في إدخال الكدر على إخوته الذين جاؤوا به من عند أبيه بعد اللتيّا والتي ، وبعد ما أعطوه الأيمان المحرجة ، والعهود الوثيقة ، وثالثها : إدخال زيادة الهم والغم على قلب أبيه يعقوب ؟ » .

فإنا نجيب عن الأول بأن المتهمين له خادم بيت يوسف الخاص وأتباعه الخصوصيين ، وهم في الباطن يعرفون أنه غير سارق ، لأنهم على قول ، هم الذين جعلوا السقاية في رحله بيدهم ، فالمسألة كانت ضمن دائرة الخفاء بين يوسف وخدمة بيته لا غير ، وهم لما رجعوا لبيت يوسف ، لا لدار الحكومة في البلاط ، وهو ما نعلمه من التاريخ ، ويعلم أيضاً من التوراة (تك ٤٤ : ١ – ١٤) ونجيب عن الثاني بأن بنيامين عمل ذلك لأن إخوته كانوا أوغروا صدره عليهم بما سبق أنهم عملوه مع شقيقه يوسف ، وبما كانوا يعملون معه نفسه ، حسبما يفهم من قوله : (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) ثم قوله لهم (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) ونجيب عن الثالث بأنه كما لا يمكننا إنكار احتمال أن هذا العمل يدخل على أبيه غماً وكيداً ؛ فلا يمكننا إنكار احتمال أن هذا العمل يدخل على أبيه

ارتياحاً وسروراً ، فإنا نعتقد أن يعقوب اتخذ من هذا العمل بشرى عن ولده يوسف بأنه – في الجملة – في مصر ، لا سيما إذا انضم إليه في السفرة الأولى من أنه جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وكان لهم خير المنزلين ، وجعل بضاعتهم في رحالهم ، وكان قال لهم بغتة : (ائتوني بأخ لكم من أبيكم) ثم أنه في السفرة الثانية أنزلهم ضيوفاً في بيته ، وجهزهم بجهازهم ، وأرجع لهم فضتهم أيضاً وأخذ بنيامين عنده بحجة عمل لم يمهد عليه قبله أنه عمله – فكل هذه الإشارات والرموز هي برقيات لاسلكية . وأحاجي لا يفهمها ولا يحلها إلا ذو فهم دقيق ، وشعور رقيق كيعقوب عليه السلام ، ولذلك نراه بعد ذلك قال :

(عسى أن يأتيني بهم جميعاً) ثم قال : (إني أعلم من الله ما لا تعلمون) ،ثم قال : (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) وكل هذا إنما بناه يعقوب على تلك الإشارات التي دارت بينه وبين ولده يوسف ، وإلا إذا كان يعقوب يعرف أن ولده يوسف حيّ ، فمن أين عرف أنه بمصر ، حتى قال لهم(اذهبوا فتحسسوا منيوسفوأخيه)، لولا تلك الإشارات الخفية ، التي كان يرسلها يوسفلأبيه مع إخوته ، دون أن يحوموا حول فهمها خوفاً من إيذائهم وإضرارهم إياه ،فيوسف كان ساكتاً ، ولكن أفعاله تتكلم ، وإخوته تحمل هذا الكلام الرمزي ، دون أن يفهموه ، إلى من يفهمه وهو أبوهم عليه السلام ، كساعي البريد يحمل الأخبار السرية والرسائل ،ون أن يطلع عليها ؛

الرد على من قال إن يوسف قال لبنيامين أنا أخوك أخوة صداقة وحب

وإن قال قائل : نقل المفسرون عن وهب بن منبه أنه قال : « إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود أي أنا صديق لك ومحب لك ، وعاضدك عوضاًعن أخيك الفقيد يوسف ، فهي أخوة صداقة وحب ومساعدة ، لا أخوة نسب ،

وعليه فبنيامين لم يفهم قط أن المتكلم معه هو يوسف أخوه النسبي ، ولم يصر بينه وبينه اتفاق على تسريقه ، بـــل بنيامين سُرّق دون أن يكون له شعور بذلك » قلنا في جوابه إن وهباً استند في هذا على ما في توراة اليوم ، فإنها تفيد أن بنيامين لم يكن له شعور بذلك (تك ٤٤) ويَرُدُّه أنه خلاف الظاهر من قوله : ﴿ أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ وإلا فالذي مضى مضى ، فلا يمكن تداركه وتلطيفه ، لأن أخوة « فوطيفار » التي هي أخوة صداقة ومساعدة لا تنفع بنيامين فيما مضى من الأيام ، بل فيما يأتي فقط ، وإنما يصح تفسير وهب لو قال : « أنا أخوك ، فلا تبتئس بما سيعملون » .

كيف جوز يوسف لنفسه أن يعمل على إخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها

الملحوظة السادسة - إن سأل سائل : كيف جوز يوسف عليه السلام لنفسه أن يعمل على إخوتـــه العشرة هذه الحيلة المسيئة التي أزعجتهم أيمـــا إزعاج ؟ فالجواب أنه أراد أن يعرفهم أنه كما هو قوي بسلطانه وشوكته وجنده، فكذلك هو غير غبيّ عن طرق الحيل التي هم يتقنونها ، ويرتكزون عليها ، قائلين : «رب حيلة أنفـــع من قبيلة » فكما جربوا وعملوا عليه الحيلة حتى أخذوه من أبيه وأوقعوه في الجب وغربوه ، وكما عملوا الحيلة ثانياً على أبيه حينما جاؤوا بدموعهم ودم معزاهم ، فكذلك هـــو قدير على هذا النوع من الحيل ، وبعبارة أخرى : أراد أن يعرفهم من هو ؟ حتى في ضروب الحيلة التي يعرفونها فكما أنه لا يعرف الشجاع إلا الشجاع ، فكذا لا يعرف المحتال سوى المحتالين .

وإليك جواباً ثانياً ، وهو أن يوسف عليه السلام كان يعرف أنهم أصحاب عَرامة ، وذوو شراسة ، فأراد أن يخضد شوكتهم ويفتّ في عضدهم ، تنزيلا لنفوسهم المتكبرة وإضعافـــاً لقوتهم المتحكمة ، فأتى هذه الحيلة المزعزعة

لأفكارهم ؛ وبعبارة أخرى : يوسف كان لا يزال في تخوف من شر إخوته وحماسهم ونزقهم ، فرأى أن يعمل معهم عملاً يخفف جانباً من قوتهم ، ويشذب بعضاً من حماسهم ونزقهم ، ويُطامن من نخوتهم ، ويكسر من زهوهم ، ويقمع من طغيانهم ، تأديباً وترويضاً، وعليه ولأنه من جهة ثانية يريد بقاء شقيقه عنده دونهم ، رأى أنه قد يسوغ له - خصوصاً في شرعه - أن يجري هذه الحيلة ليصيد بها صيدين : الأول أن يبقي بنيامين عنده والثاني أن يؤدبهم ويهذبهم ويكسر من حدتهم وكبريائهم وشكيمتهم ، فعل ذلك اضطراراً ، لا تشهياً ولا اختياراً ، وكأنه في ذلك كالعبد في اصطلاح الجبرية، مجبور باطناً، مختار ظاهراً فإن كان يوجد عبيدٌ هم كذلك ، فمنهم بل أمثلهم في هذا المقام خاصة يوسف ، أمّا أنه مجبور باطناً فلأنه أراد تشذيب شرهم ليسلم منهم وأما أنه مختار ظاهراً، فلأن خادمه الذي فعل ذلك بأمره يرى أن يوسف اختار ذلك من تلقاء نفسه بطواعيته ، وبحسب تشهّيه ، دون أن يكون له دافع مجبر ؛

وجواباً ثالثاً ، وهو لعل يوسف أراد أن يكون رسول « الإرادة الإلهية » فجازى مكراً بمكر ، فهو إذ مكروا عليه وعلى والده ، وأخذوه منه بالختل والدهاء ، أراد أن يظهر بمظهر آلة قصاص لهم ، وأن يجازي مكراً بمكر ،فكان في ذلك العمل مظهراً من مظاهر اسمه تعالى « المنتقم » قصاصاً من المعتدين فنصب هذه الأحبولة ، وأما ما لحق أباه من جراء هذا العمل ، فهو أمر طبيعي عَرَضاً وبالتبع ، ولم يكن مقصوداً ، لأن شأن البلاء أن يعم ، أو هو من طبائع حوادث القصاص في الكون ، قال تعالى : ﴿ واتّقوا فتنةً لا تُصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصةً ﴾ (٨ : ٢٥) ، ومن حديث ابن عمر : « إذا أراد الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم » ، يوسف أراد أن يرميهم بحجر نظير حجرهم الذي كانوا رموه به سابقاً، أراد أن يربطهم

بوتر نظير وتَرهم الذي كانوا ربطوه به قديماً ، أراد أن يكيد لهم كما كادوا له قال تعالى : ﴿ الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ ، والحُرُماتُ قِصاصٌ ، فمَنْ اعتَدَى عليكم فاعتَدُوا عليه بمثلِ ما اعتَدَى عليكم ﴾ (٢:١٩٤) فكل ما يجب احترامه ،يجوز انتهاك حرمته قصاصاً فكما جاز للمسلمين مقاتلة مناوئيهم في الشهر الحرام من أشهر الحج ، لأنهم كانوا قاتلوا المسلمين عام الحديبية رمياً بالسهام والحجارة ، وصدوهم عن دخول مكة ، وكان ذلك في ذي القعدة من الأشهر الحرم ، فكذا جوز يوسف لنفسه إجراء هذه الحيلة ، وإن كانت تحزنهم ، لأنهم كانوا أحزنوه سابقاً بالحيلة التي أجروها عليه ، وقال تعالى : ﴿ والذين إذا أصابَهم البَغيُ هم يَنتَصرون ﴾ (٤٢ : ٣٩) ، فالشهم يكره أن يذلّ لئلا يجترأ عليه ثانياً ، والمنتصر لنفسه محمود على انتصاره ، إذ لا حرج على الانسان أن يأخذ حقه قصاصاً غير متعد حد الله تعالى ، وإن كان العفو أفضل ، والعافي ممدوحاً أكثر ، كا قال تعالى : « ﴿ وأنْ تعفُوا أقربُ للتقوى﴾ (٢ : ٢٣٧) ، ﴿ ولَئنْ صَبرتم لَهوَ خيرٌ للصابرين ﴾ (١٦:١٢٦) ، ﴿ ولمنْ صَبرَ وغَفرَ إن ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ (٤٢ : ٤٣) ونظيره ما روي أن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لحسّان بن ثابت أن يهجو قريشاً بعدما طفقوا يهجون مقامه الشريف، لكي يجازي هجواً بهجو: ﴿ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها ﴾ (٤٢ : ٤٠) ، ﴿ وإنْ عاقبتُم فعاقبُوا بمثلِ ما عوقبتُم به ﴾ (١٦ : ١٢٦)، ﴿ ولمنْ انتَصَرَ بعدَ ظُلمِهِ فاؤلئكَ ما عليهم مِنْ سَبيلٍ ﴾ (٤٢ : ٤١) ، ﴿ ولولا دَفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ ، لفَسَدَتِ الأرضُ ، ولكنّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين ﴾ (٢ : ٢٥١) ، قال الشاعر :

لست ذا ذلة إذا عضني الدهر ولا شامخاً إذا واتاني

أنا نار في قلب من يظلموني أنا ماء جار مع الخلانِ

وقال مُريط العَنبري :

لو كنت من «مازن» لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة مِنْ ذُهل بن شيْبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة إنْ ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

فيوسف كان في مقاصته لإخوته على مذهب « المازنيين » لا على مذهب « العنبريين » ، وكان على المذهب الذي تمذهب به أبو الطيب حيث يقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرَت بي ساعةٌ لا تُعِزّني ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

أو على مذهب « الفِندْ الزِّماني » في قوله :

وبعض الحِلم عند الجهل للذّلة إذعان ... وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسانُ

وجواباً رابعاً – «قد لا يقاوم الشر إلا بالشر ، وقد لا يدفع الظلم إلا بالظلم ، وقد لا يبرأ العليل إلا بتجريعه الدواء المر ، وقد لا يشفى الجريح إلا بقطع شيء من جسمه ، وحامل السيف لا يغمده في غمده ، إلاّ أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، المحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد[1]»

كان المعهود من طبع إخوة يوسف أنهم يكدرون صفو الحياة ، فخشي أن يمسكوه اليوم كما أمسكوه سابقاً – من موضع الضعف منه ، وما هذا الموضع إلا أنهم يعلمون أنه لا يعرف شيئاً من الحيل ، التي يعرفونها ، ولذلك رآى أن لا بد أن يعمل معهم عملاً يوقعهم في حيص بيص ، يلبسه على خشونته ، ويسيغه على

(١) النظرات : للمنفلوطي

كدورته، ليعرفوه من هو ، وليعلموا أنه يعرف ما يعرفون ، فمثله كمثل السائر، يعترضه الجبل ، فلا يجد بدأ من اجتيازه ، نعم لا ريب أن الطريق بغير الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه صادف أنــــه كان في طريقه ولا بــــد من اختراقه ..

وجواباً خامساً ، ثبت في الصحيح أنه إذا عبر أهل الجنة الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذبوا ونـُقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، فلا يدخلون الجنة إلا بعد التهذيب والتنقية ، كما قال تعالى: ﴿ طبتـْم فادْخلوها خالدين ﴾ (٣٩:٧٣) وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة مــن في قلبه مثقال ذرة مــــن كبر » ، وبناء عليه فكأن يوسف عليه السلام ، اعتبر أن مصر جنة وأن فلسطين بالنسبة اليها كأنها نار ، وأن إخوته قد وصلوا للصراط الذي بين الجنة والنار ،فأراد أن يقتص منهم وهم على الصراط ،حتى إذا ما هـُذبوا ونـُقوا، قال لهم : « طبتم فادخلوها خالدين » .

هذا ما ظهر للعبد الحقير والله تعالى أعلم .

شبه حادثة يوسف هذه بحادثتي العبد الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام

الملحوظة السابعة – حادثة يوسف هـــذه تشبه حادثتي العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً،إذ خرق السفينة ، ثم قتل الغلام ، فما كان جواباً عنهما ، فهو الجواب عن حادثة يوسف عليه السلام .

استفهام إخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم

آ (٧١) « قالوا : ـــ وأقبلوا عليهم ـــ ماذا تفقدون ؟! »

افتتحت الجلسة وتليت الآيـــة الاحدى والسبعون فقام برهان الدين الدرعاوي[١] وقال :

سمع إخوة يوسف صرخة الصارخين وراءهم ، فأجفلوا ، و (قالوا) بلهفة وأمارات البغتة تبدو من أسارير وجوههم ، (و) قد (أقبلوا عليهم) أي على المؤذن ومن معه ، محولين عنان دوابهم اليهم ، (مـــاذا تفقدون ؟!) بلهجة الذي يمازجه استغراب ، وفيه شيء من استهجان نسبتهم للسرقة .

الصواع المفقود

آ (٧٢) « قالوا : نَفقِدُ صُواعَ المَلِكِ ، ولِمَن جاءَ بِهِ حِمْلُ بعيرٍ ، وأنا بِهِ زَعيمٌ . »

ثم تليت الآية الاثنتان وسبعون فقام تاج الدين العكي وقال :

(قالوا) أي المؤذن ومن معه من الصارخين (نفقد صواع الملك) الريان ، ــ وكل ما يشرب به فهو صواع ، ويقال له أيضاً صاع ، وقيل هو إناء الشرب كان من فضة أو ذهب ، وأما « القدح » فهو ما كان من زجاج ، و « العُسّ » من الخشب ، و « العلبة » من الأدَم ، و « الطـَرْجهارة » من الصفر ، « والمِرْكن »

---

(١) نسبة الى درعا من بلاد الشام (حوران)

من الخزف [١] ، ولم ترد كلمة صواع في القرآن الا في هـذا المحل ، وكان هذا الصواع من فضة ، وتقدم تسميته بالسقاية وسماه في التوراة «طـاساً» - وهو ليوسف عليه السلام ، وانما نسبه هنا للملك ، لأن كل ما كان ليوسف وغيره من المأمورين فهو من الملك وللملك ، أو يقال أراد « بالملك » من له شيء من الملك، كما سيأتي ليوسف أن يقول : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ فالملك إذن يوسف نفسه وآثروا التعبير به تهويلا على السامعين ، (ولمن جاء به حمل بعير) لا أقل ، من خالص الحب وجيده ، يمتامُه من القمح الصافي ، فإن جاء به من رحله ، أخذ حمل البعير تقدمة أو هدية ، بعد العفو عنه ، لأن الاعتراف يهدم الاقتراف، وإن جاء به من رحل غيره أخذه على أنه جُعالة أو عمالة [٢] أو أجر أوحلوان، مع شكره ، فنحن مستعدون أن نجمع له بين الماديات والمعنويات ، وهو في أي قالب وضع ذلك فهو حر ، على كل حـــال نحن مستعدون لمجازاته بالحسنى ، فأرشدونـا لذلك أرشدكم الله تعالى ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون والبعير بمنزلة الانسان ، والجمل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة (سيرافي) - كان حمل البعير في ذلك الحين العصيب ، حين الأزمة وساعـــة العُسرة يساوي مبلغاً لا يستهان به ، مبلغاً له قيمته ، فالوعد به إذ ذاك كالوعد بسعادة مستقبلة ، أو بضمانة الحياة ، ومـــن هنا اقتضى الحال ضرورة وجود كفيل ، يتعهد بتحقق هذا الوعد الهام ولهذا قال : ﴿ وأنا بـه زعيم ﴾ والزعيم غـــارم ، وأنـــا له ضمين ، والضمين مسئول ، وأنا به كفيل ، والكفيل كالأصيل ، وأنا له حميل ، والحميل مطالب ، وسأكون أول مصفق له ولمروءته إن أراحنا من عناء التفتيش،وقد جاءت هذه اللفظة في قوله تعالى : ﴿ سَلْهُمْ

---

(١) فقه اللغة ، ومنه يعلم ان كلمة صواع لم تحدث لهذا الاناء جديداً حينما صار يكال به، بل هي اسم له عتيق قبل ان يكال به .

(٢) الجعالة ما يجعل للانسان من الرشا والمصانعات والعمالة ما يسمى للعامل لقاء عمله .

أيُّهُمْ بذلكَ زعيمٌ﴾ (٦٨ : ٤٠) ولم يقع هذا اللفظ في كتاب الله في غير هذين الموضعين، وهما بمعنى واحد وهو الضامن للشيء المتكفل به، هذا هو معناه عند العرب، وأما أهل اليوم فيكثر استعمالهم له في الذي يتكلم عن القوم ويحتج لهم ويحامي عن حقوقهم ومصالحهم، ضامناً لهم النجح والغلبة، فهو بحسب استعمالهم هذا يفيد معنى الضمان والرئاسة .

إخوة يوسف يردون التهمة

آ (٧٣) « قالوا : تاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ ، وَما كُنَّا سارِقِينَ » .

ثم تليت الآية الثالثة والسبعون فقام الشهاب الحيفاوي [١] وقال :

سبق أن مندوبي (العزيز) سألوا إخوة يوسف عن الصواع ، وقالوا لهم ، ها نحن أولاء سألناكم ، فما رأيكم وما علمكم ؟ ها قد سمعتم صوتنا ، فأسمعونا صوتكم وأطلعونا على جلية الأمر ، وأما إخوة يوسف فلما سمعوا كلام المؤذن ورفقائه ، تعجبوا جداً وأحفظهم هذا السؤال ، وأغضبهم وغاظهم ، وتقززت منه نفوسهم ، لأول وهلة و (قالوا) لسنا هناكم ، ما أبعد وهمكم !! هي والله الفحشاء واللؤم (تالله لقد علمتم) أنـّا (ما جئنا) مصر (لنفسد في الارض) ونعيث في مملكتكم . تعجب إخوة يوسف من نسبة السرقة اليهم ، ونفهم هذا من التاء ، لأنها وإن تكن حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كما ذكره الزمخشري في تفسير سورة الأنبياء .

---

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين .

وإنما قالوا (لقد علمتم) فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتي مجيئهم ، وورد أنهم قالوا لهم : هذه الفضة التي وجدنـاه في أفواه عدالنا رددناها إليكم من أرض كنعان،فكيف نسرق اليوم الصواع؟!..

والفساد ضد الصلاح ، فكل ما يخرج عن وصفه الذي يكون بـــه صالحاً ونافعاً يقال فيه أنـــه فسد ، ومن عمل عملا كان سبباً لفساد شيء من الأشياء يقال إنه أفسده ، فازالة الأمن عن الأنفس أو الأموال أو الأعراض إفساد في الإرض وإخلال لنظام الاجتماع وأسباب المعاش ، (وما كنا) قط (سارقين) أي نوصف بالسرقة .

سمعوا هذه التهمة التي ألصقت بهم ، فأكبروها وأعظموها ، وظهرت الأنفة على وجوههم ، ممزوجـــة بشيء من اضطرابٍ ورعـــدةٍ في الحواس، وملامح الغضب تلوح على جباههم وصاروا ينظرون إلى مندوبي العزيز شزراً ، وقالوا بنغمة جافة وقد عقدوا بين حواجبهم : تباً علينا ما هذه الظنون التي تظنونها فينا ؟ بعد ما عرفتمونا وجربتمونا ، فلقد عرفتم تاريخ حياتنا وسوابق أعمالنا، وتبينتم حقيقتنا ، وأن انطباق هذه على هذه لهو أيسر من إثبات السرقة علينا ، « وأين الرقمتان مـــن وادي العضا » هل نحن متلصصون ؟ .. هـــل نحن متشردون ؟ .. لا بد أن يكون ذهنكم عالقاً حتى الآن بما كنا فعلنا مـــن إرجاع بضاعتكم اليكم،فكيف نقدم على هذه العظيمة التي هي زيادة عن كونها سرقه ، ففيها جرأة على « العزيز » وحكومته ، ونكران لجميله الذي أجراه معنا ، فهل نحن مائتو الضمير لهذه الدركة ؟ أفٍ وتفٍ من هذه النسبة التي لطختمونا بها !! ..

استدراج الإخوة للحكم على نفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع

آ (٧٤) « قالوا فما جَزَاؤُهُ إن كنتم كاذِبينَ ؟ »

ثم تليت الآية الرابعة وسبعون فتابع الشهاب الحيفاوي كلامه قائلا :

قال مندوبو « العزيز » إلى إخوة يوسف ، وقد نظروا اليهم شزراً : لا أف ولا تف ، أتظنون أننا نلقي القول جزافاً ، ولا نفكر فيما يثبته ويحققه ؟ طاش سهمكم ، إن البحث هو الذي يظهر صدقكم من كذبكم ، (فما جزاؤه)— الضمير للصواع – أي فما جزاء سرقته ، (إن كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه ؟ هذا سؤال نقدمه لكم ، أفتونا مأجورين أو مشكورين ، وأفيدونا بالحكم القضائي في هذه الحادثة ، وخلاكم ذم ، فأجيبوا فأنتم أعلى برأيكم عيناً.

ويمكن أن نقول بعبارة أخرى :

قال رجال العزيز لإخوة يوسف : إخفضوا أصواتكم ، واعرفوا مع من تتكلمون ، ومن هم الذين تخاطبون ، إنكم لستم تخاطبون جماعة من السوقة ولكنكم تخاطبون جمعاً من خدمة الحكومة المكسوسية ، وليست المسألة مسألة إيمان ، ولا اعتماد على وجدان ، بالله عليكم دعونا من الدعاوى العريضة ، فنحن لا نعتبر الأقوال ، لكن الأعمال ، وإن أحسن حكم بيننا وبينكم هو القرائن الراهنة ، والدلائل الساطعة ، ولا نعلم هذا إلا من نتيجة التفتيش، وعند الامتحان ، يكرم المرء أو يهان ، ونحن نريد أن نتحاكم معكم إليكم ، وننزل على حكمكم ، فمع أننا قد اعتبرناكم خصوماً ، نقبل أن تكونوا علينا قضاة ، فاحكموا بيننا بالقسط والنصفة .

ما قولكم دام فضلكم ، فيما لوتبين كذبكم ؟ وأنه كذب حِبْرِيت [١] وأن الصواع معكم ،فما تقولون حينئذ وبأي حكم تحكمون ؟ نرجوكم الجواب، ولكم من الله الثواب .

وقبل الختام نقول : تبارك الله القدير ! ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم؟! يعقوب جاء اليه أولاده ، ينعون له يوسف وينبئونه بافتراس الذئب إياه ، فلم يصرح لهم بأنهم كاذبون ، مع أنهم كانوا كذلك ، وهو يعتقد كذلك ، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة « كاذبين » وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفوهم وواجهوهم بكلمة « كاذبين » مع أنهم ما كانوا كاذبين ، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين ، فما أكبر الفرق ؟..

الجزاء من جنس العمل

آ (٧٥) « قالوا : جَزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه ، فهو جزاؤُه ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ... »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة وسبعون فقام الشيخ الجولاني[٢] وقال:

(قالوا) أي اخوة يوسف ، والشر باد في عيونهم (جزاؤه) أي جزاء سرقته في شريعتنا نحن آل يعقوب أن يؤخذ (من وجد في رحله) وليكن من كان (فهو جزاؤه) ولا كرامة ،وهذه الجملة تقرير للحكم – أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير كقولك : « حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فهو حقه » لتقرر ما ذكرته من استحقاقه (كذلك) بدون أسف طبعاً (نجزي

(١) كذب حبريت : خالص مجرد لا يستره شيء
(٢) نسبة الى الجولان من بلاد الشام

الظالمين) فموقفنا واحد ، مع القريب والغريب ، برنامج ثابت لمجازاة كل ظالم ، لن تجد له تبديلاً ولا تحويلاً ، وإن سكوتنا عن هذا الظالم السارق يعد جريمة ومشاركة له في ظلمه وسرقته، فلا بد لنا من مجازاته ، إحقاقاً للحق ، وانتصاراً للشريعة العبرانية ، وتأييداً للقوانين السماوية العادلة .

(قالوا : جزاؤه من وجد .. الخ)

- ٢ -

وقال العلامة الشويكي (١) :

جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه كعبد

سمع إخوة يوسف كلام مندوبي « عزيز مصر » فاشتموا منه جفاء ، واستروحوا منه شدة ، فكادوا يتميزون من الغيظ ، وصار الشرر يتطاير من عيونهم وتملكهم التهيج العصبي ، ولكن الأمر كما يقال : « العين بصيرة واليد قصيرة » فهؤلاء المتكلمون هم أصحاب البلاد المسيطرون، وإخوة يوسف ضيوف غرباء ، لذا قالوا بصوت يرتعش ، نحن لا نعبأ بهذا التهديد ، بل نقول لكم إن جزاء سارق الصواع هو أخذ صاحب الرحل الذي تجدونه في رحله ، لأن كل غادر مأخوذ ، وإننا نجزي الظالمين في شريعتنا بهذا الجزاء ، ولا نجزيهم بسوى ذلك ، بحيث لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها فدية ، ولا تنفعها عندنا شفاعة ، ولا أحد يقوم بنصر هؤلاء الظالمين ، هذي هي فتوانا ، والبحث والتحري هو الحكم بيننا وبينكم فعليكم بالتفتيش .

هذا وقد حمي وطيس الشجار ، واشتدت بينهم نار الحوار ، الى أن كانت النتيجة أن مندوبي « العزيز » سمعوا الفتوى هذه من إخوة يوسف فاطمأنت

---

(١) نسبة الى الشويكة احد احياء دمشق .

قلوبهم عندما تلقفوا هـــذا الجواب المنتظر ، واعتقدوا أنهم وصلوا لمطلوبهم لأنهم لم يسألوا إخوة يوسف السؤال السابق إلا وهم يرجون أن يسمعوا منهم هذا الحكم العبراني .

واخيرا أختم كلامي بالملحوظات الاتية :

إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله جزاؤه

أولاً - كلمة « جزاؤه » في الآية مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها إقامة المضمر ، والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضع هـو ، كما تقول لصاحبك : « مَنْ أخو زيد ؟ » فيقول لك : « أخوه من يقعد الى جنبه فهو أخوه » أي فهو هو ، ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر .

جزاء السارق في شتى الشرائع

ثانياً- إن ما ذكر في الآية الكريمة من الحكم هو حكم السارق في الشريعة العبرانية الإبراهيمية ، الذي خلاصته أن جزاء الشيء المسروق هـــو نفس السارق ، فيؤخذ كعبد ، ولا أعلم مقدار مدة عبوديته في الشريعة الإبراهيمية ، غير ما قاله المفسرون (والعهدة عليهم) ، أنها سنة ، وأما جزاؤه في الشريعة الموسوية ، فهو إنه إن كان عنده مال أخذ منه بقدر ما سَرّق مضاعفاً ، وإلّا أخذ عبداً ست سنوات ، قال في التوراة في السارق : (إنــه يُعوّض ، فإن لم يكن له ، يُبَع بسرقته) (خر ٢٢ : ٣) قال في السنن القويم : « ذهب أكثر المفسرين للتوراة إلى أن مقدار العِوض مضاعف قيمة الخسارة ، وفسروا بيعه بسرقته ، أنه يكون عبداً لرب البيت ست سنوات ، فيكون قـــد أوفى بذلك ما عليه » .

وأما شريعة المصريين ، فهي انه يجب على السارق ان يـدفع ضعفي قيمة المسروق لا غير ، وليس فيها استرقاق .

وأما حكمه في شريعتنا المحمدية فهو كما قال الله تعالى : ﴿السارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما،جزاءً بما كسبا نكالاً مِنَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيم﴾(٥:٤١) وقد اختلف علماء الإسلام في القدر الذي يوجب الحد من السرقة ، فذهب جمهور السلف والخلف، ومنهم الخلفاء الأربعة إلى أن القطع لا يكون إلا في سرقة ربع دينار ، أي ربع مثقال من الذهب أو ثلاثة دراهم من الفضة ، وعلى هذا الأئمة الثلاثة ، وأما مذهب الحنفية فهو أن النصاب الموجب للقطع عشرة دراهم فأكثر، ولا قطع في أقل منها .

الاسترقاق في شتى الشرائع

ثالثاً – نتعلم من هذه الآية أن الاسترقاق كان موجوداً في الشريعة الإبراهيمية ثم نتعلم من التوراة أنه كان موجوداً في الشريعة الموسوية ، والواقع أن الرق كان فاشياً قبل البعثة المحمدية في العرب واليهود واليونان والرومان . على أبشع صورة وأنكرها ، وهنا يجب أن لاتنسى استرقاق يوسف بيد « السيارة » التي نشلته من الجب وباعته بمصر ، فلما جاء الإسلام ضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب ، وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرتهم ، فقال ﷺ : (إخوانكم خوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون) الى غير ذلك من الأحاديث .

كيف جوز يوسف لنفسه أن يجازي إخوته بشريعتهم

رابعاً – نعلم إذا عمل إنسان جريمة في مملكة غير مملكته ، وجب استفتاء

قانون تلك المملكة التي وقع فيها الجرم ، وذلك احتفاظاً بشرف وسلطان تلك المملكة ولا يجوز الرجوع في الاستفتاء والحكم لقانون مملكة الجرم، اللهم إلا ما استثني من هذه القاعدة القضائية ، وذلك مثل « الملك » إذا وجد في غير مملكته ، وعمل هناك جريمة ، فإنه إنما يعامل بقانون مملكته احتراماً لمقامه ، ومثل«سفراء الدول»في الممالك الأخرى فانهم إنما يعاملون بقانون دولهم ، وذلك لأجل حريتهم تماماً ، وتوسيع نطاق عملهم في البلاد الأخرى ، وأخوة يوسف هنا ليسوا بملوك ولا سفراء ملوك ، حتى يعاملوا بأحكام مملكتهم ، فما الذي جوز ليوسف عليه السلام أن يوصي عبيده أن يستفتوا إخوته توصلاً للحكم عليهم بشريعتهم في مملكتهم ، دون الحكم عليهم بشريعة المملكة المصرية ، وأليس في هذا تحقير لمملكة مصر وقوانينها ؟ .. ثم أليس في هذا ظلم لإخوته ، لأن في حكمهم في هذه الحادثة صرامة وأشد وأغلظ من حكم المصريين ؟ .

وجوابنا عن هذا: لعل يوسف عليه‌السلام اعتبر «الجاني» من إخوته « كملك » عمل جناية في غير مملكته ، فانه لا يعامل إلا بقانون مملكته ، أو كان يوسف اعتبر إخوته كأجانب أصحاب امتيازات فلذلك أراد أن يحاكمهم بقوانينهم ، وعلى كل حال ، فكأن يوسف من جهة عمل لهم شيئاً من الاحترام ، ومن جهة أراد أن يستعبد أخاه ليحظى ببقائه عنده ، فيكون كمن رمى حجراً ليصيد صيدين ، ويحتمل أن هذه التدقيقات لم يكن معمولاً بها في تلك العصور بمصر بل كان يجوز أن يعامل الغريب الأجنبي بقوانينه في بلاده ، ولو وقعت منه الجريمة في مملكة أخرى لها قوانين أخرى .

ويحضرني الآن جواب ثالث ، وهو أن القوانين المصرية كانت في ذلك العصر وضعية ، أي من وضع البشر ، ولكن قانون العبرانيين كان شريعة من وضع السماء، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون، هذا ما تيسر لنا من الجواب ، والله تعالى أعلم .

الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة

آ (٧٦) « ... فَبَدأ بأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أخيهِ ، ثم اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أخيهِ ، ــ كذلكَ كِدْنَا لِيوسُفَ ، ما كانَ لِيَأْخذَ أخاهُ في دِينِ الملكِ ، إلا أنْ يَشاءَ اللهُ ، نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نشاءُ ، وفوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عليم ــ »

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة وسبعون فقام الاستاذ الحلبوني[١] وقال:

قال لأبناء يعقوب الأحد عشر من وُكِّلَ بهم من المؤذن وجماعته : نريد أن نفتش أوعيتكم ، ما من ذلك بد (فبدأ بأوعيتهم) أي بدأ بتفتيش رحالهم (قبل وعاء) رحل (أخيه) بنيامين ، لنفي التهمة ، على حد قول الشاعر :

وطرفك إمـــا جئتنا فاحبسنه　　كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

(ثم) لما وصل المفتش إلى رحل بنيامين، أصاب السقاية فيه و (استخرجها من وعاء) من رحل (أخيه) أخي يوسف (كذلك) أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) بأن ألهمناه أن يوصي معتمده باستفتائه من إخوته عن حكم السارق ، ثم وفقنا إخوته أن يوقعوا الجواب على السؤال حسبما ظن وأراد (ما كان) يوسف (ليأخذ أخاه) بنيامين (في دين الملك) في جزاء ملك الديار المصرية ، أي في المحكمة الجزائية بالديار المصرية ــ وهو تفسير للكيد وبيان له ــ لأن الذي كان يحكم به في دين ملك مصر أن يغرم السارق مثلي مـــا سرق ، لا أن يستعبد ، فالدين ، هنا بالمعنى اللغوي هـــواء الجزاء ، كما في

(١) نسبة الى حلبون من قرى دمشق (سورية) .

« مالِك يومِ الدّينِ » (١ : ٣) و ﴿ أإذا مِتْنا وكنا تُراباً وعِظاماً أإنّا لَمَدِينون ؟ ﴾ (٣٧ : ٣٥) و ﴿ يومئذٍ يُوفّيهم اللهُ دينهم الحق ﴾ (٢٤ : ٢٥) ﴿وإنّ الدينَ لَوَاقعٌ ﴾(٥١ : ٦) و ﴿ له الدينُ واصباً ﴾ (١٦:٥٢) قال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دِنـاهم كما دانوا

وورد « كما تدين تدان » كما تكافأ وتجازى ، ويحتمل ان يكون المراد بالدين الشريعة ، أي شريعة الجنايات والقصاص والعقوبات ، فيكون لفظ الدين محمولاً على المعنى الشرعي أو العرفي (إلا أن يشاء الله) أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله ، بأن يجعل له عذراً فيما فعل ، وقد شاء الله ذلك نرفع درجاتٍ من نشاء) في العلم ، كما رفعنا درجة يوسف فيه سابقاً ولاحقاً (وفوق كل ذي علم عليم) أي فوق كل صاحب علم أو كل ذي معرفـــة عليم عارف ، بحيث يكون فوقه بطبقات ، إلى أن ينتهي الإنسان الى درجة في العلم ليس بعدها أوسع منها إلا علم الله تعالى ، وعندها يقف علم ذلك الإنسان .

(فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه .. الخ)

- ٢ -

وقال مولانا عمر البيلاني :

كيد يوسف لإخوته كان بوحي من الله عقاباً لهم في الدنيا

بدأ المفتش يفتش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين فتطاولت أعناقهم ليروا مـا يبرر كلامهم أمام من اتهمهم ، ثم مشى مشياً متثاقلا نحو رحـل بنيامين ، وما كاد يفتحه حتى استخرج الصواع منه ، وعندئذ قطعت جهيزة قول كل خطيب ، فاقشعرت أبدانهم ووقفت شعور رؤوسهم ، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير ؛

رأوا ذلك فأجفلوا وبهتوا جميعاً لما نظروه مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين ؛ أما بنيامين فقد انصب عليه سوط لوم وطعن من إخوته ، فتظاهر بالخجل وتصنع بالاضطراب تصنعاً لم يغير شيئاً من مظاهر عزته وأنفته ، وكأنه لم يعمل شيئاً يذكر ؛ صبر ولم يرد أن يكاشفهم بالحقيقة ، خوفاً من ظهور الأمر قبل أوانه ، فتبطل الحيلة التي دبرها شقيقه يوسف ، فأبقى الأمر مكتوماً إلى حينه ، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به ، لاعتقاده أنه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين ، وأنه بذلك رفع من حضيض الأسر ، إلى أوج النسر وهكذا تمت الحيلة ليوسف ، ورب حيلة أنفع من قبيلة ، وبسعيه هذا فاز بطريدته وأخذ أخاه بنيامين .

وأما إخوته فأحسوا بنيران هبت في أبدانهم ، وودوا لو تسوى بهم الأرض ولا كانوا يشهدون هذا المشهد المخجل أمام « عزيز مصر » وعبيده .

كذلك الكيد العجيب كاد الله أن دبر وأراد وصنع ويسر ليوسف المكائد لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها ، يكيد بها من سبق أنهم كادوه ، ويصيد بها من كانوا صادوه « جزاء ووفاقاً » ، « وواحدة بواحدة جزاء » ، « بالصاع الذي تكيل يكال لك » .

روى البخاري في تاريخه من حديث أبي بكرة (إثنان يعجلهما الله في الدنيا البغي وعقوق الوالدين) ، فلعل الله تعالى أراد تعجيل عقاب أولاد يعقوب في الدنيا لبغيهم على أخيهم ، وعقوقهم لأبيهم ، بأن ألهم يوسف عليه السلام أن يدبر هذه المكيدة ، ليذوقوا وبال أمرهم . وفي الحقيقة إن هذا كله يرجع لقدرة الله تعالى التي لا تقاوم وإرادته التي لا تغالب ، فلهذا ولما كان الله هو المرجع لكل حادث ، والمعول عليه في كل الأمور ، نسب هذا الكيد له سبحانه وتعالى .

أو يقال : لما كان هذا الكيد محموداً ومأذوناً فيه شرعاً ، لما فيه

من فائدة يوسف وأخيه ، نسب لله ، فقال : (كذلك كدنا ليوسف) ، بخلاف كيد الإخوة ، فإنه شر ليوسف ، فلهذا نسب لهم وللشيطان في قول أبيه له : ﴿ فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ فيوسف ما قصد إلا خير أخيه ، والإخوة لم يقصدوا إلا شر أخيهم ، قال الشاعر :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذا كا

كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر

ويجوز أن يكون كيد يوسف لإخوته كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر أي راجعاً للظروف التي احتاطت بيوسف ، فإن هذه هي مظهر القضاء والقدر ، وتوضيحه أن يقال : إن الظروف والأحوال التي كانت أحاطت بيوسف أخيراً سهلت له أن يكيد لإخوته ، تلك الأحوال هي كونه قد صار من رجال البلاط المتسلطين ، وربما كان قد تعلمه من تأويل الأحاديث ، ومصائر الكلام ، وبما عرف من شريعتي إسرائيل ثم القبط ، حتى صار فيه أهلية للتصرف في الحوادث وكيفية الخروج منها والدخول فيها ، ومقدرة تامة على عمل ما يريد .

كيد يوسف لإخوته كان حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم أو حيث اختاره لنفسه

ويمكن أن يقال : إنه كان ليوسف عليه السلام وصفان : وصف كونه نبياً ورسولاً ، ووصف كونه وزير مالية وعزيزاً لمصر في البلاط الملوكي ، وسياسياً محنكاً ، فهو باعتبار حالته الأولى ، كان له مساع وأعمال روحية يوفقه الله لها ويساعده عليها ، وباعتبار حالته الثانية ، كان له مساع وأعمال زمنية ، يوفق لها ويساعد عليها من الله ، الذي هو خالق كل شيء ، ولا نشاء إلا ما يشاؤه ، قال تعالى : ﴿ ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤتِه منها ، ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة ، نؤتِه منها ، وسنجزي الشاكرينَ ﴾ (٣ : ١٤٥) ، فيوسف نبي ، ولكن

لم يكن على منهج منهج إدريس وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ونحوهم ممن كان نبياً محضاً ، بل كان على منهج إبراهيم وموسى وداود وسليمان ونحوهم . ممن هو نبيّ وأمير وملك ذو سلطة وبأس ، ومعلوم أن الحالة التي كانت بين يوسف وبين إخوته ، كانت حالة حرب ، لا حالة سلم و « الحرب خدعة » كما في الحديث الشريف ، وقد كان له على إخوته تِرَةٌ ، فأراد أن يثأر لنفسه منهم ، لأنه كره أن يذل نفسه ، فيجترأ عليه ، فاختار الاقتصاص لنفسه ، ردعاً للتعدي ثانياً وهذه طريقة محمودة لمن أرادها ، قال تعالى : ﴿ والذينَ إذا أصابَهم البَغْيُ ، هم يَنْتَصِرونَ ﴾ (٤٢ : ٣٩) وإن كانت طريقة الغفران أفضل ، كما قال تعالى في نفس هذه الآية : ﴿ فمَنْ عفا وأصلَحَ فأجرُهُ على اللهِ ﴾ ، لكن الغفران له أهله ، كما أن القصاص له أهله ، فتبين من هذا أن كيد الله ليوسف من مناوئيه ـ حيث اختاره لنفسه أو حيث اقتضاه الحال ـ نعمة يمتن بها عليه ، فلهذا قال : (كذلك كدنا ليوسف) .

لِمَ لَمْ يُسَرِّق يوسف أحد إخوته غير بنيامين

فإن قال قائل : كان الأصرح في الكيد أن يسرّق يوسف أحد إخوته العشرة بني العلاّت خصوصاً « شمعون » فهو أفعل من تسريق شقيقه بنيامين ، وأشد بأساً وأشد تنكيلاً ، فلمَ عدل عن ذلك وسرّق شقيقه المخلص له في الحب ؟ قلنا ليس مقصد يوسف مما عمل إذلال إخوته والكيد لهم ، بل كان هذا حاصلاً ثانياً وبالعرض ، إنما كان مقصوده أولاً بالذات أخذ شقيقه عنده ، فإن قال آخر : لماذا كان تسريق بنيامين كيداً ليوسف وانتصاراً على إخوته ؟ فالجواب هو لأنهم كانوا في البدء سعوا بكل جهدهم في سفر بنيامين معهم ، ولما امتنع أبوهم شوّقوه ورغّبوه ، ولكنه لم ينزل على مرغوبهم إلا بعد أن أخذ عليهم الأيمان المحرجة والعهود المغلظة ، فلهذا كان أخذ بنيامين منهم فشلاً عظيماً لهم وخيبة مخجلة أمام أبيهم ، فهذا وجه اعتبار ذلك انتصاراً لأخيهم يوسف عليهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... الخ)

-٣-

وقال السيد رشيد الرصافي[١] لي على هذه الآية الملحوظات والتعليقات التالية :

يوسف يحتال على إخوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم

الملحوظة الأولى - تعلمون أيها السادة الأفاضل أن يوسف عليه السلام وإن كان صار « عزيزاً » بمصر ، وصار « وزير ماليتها » ووكيلا عن مليكها الريان فهو رغماً عن ذلك كله ، كان لا يزال ضعيفاً أمام إخوته العشرة ، يخاف شرهم ويخشى بأسهم ، لأنه مقروض بمخالبهم سابقاً ، ومعضوض بأنيابهم ، فهو كما تقول العامة من الناس « مضبوع » ولذلك احتاج في وصوله لغرضه أن يحتال عليهم بالحسنى ، فقدّر الشقاء عليهم وهم لا يعلمون ، وأرصد لهم الانتقام من حيث لا يشعرون ، أظهر لهم الرفق واللين ، وهو ينصب لهم مصائد الخدعة حيث يقعوا فيها ، حيث هو لا يقدر على التظاهر بالبطش، ولا المصارحة بالانتقام ذلك لكثرتهم وقوتهم وجرأتهم وسرعة تصديق الناس لهم بطعنهم فيه لو أرادوا لأنهم إخوته وأقرب الناس إليه وأعرفهم فيه ؛ هذا منخول ما سمعته من بعض معاصريّ والعهدة عليه .

أين جرى تفتيش الأوعية

الملحوظة الثانية - لو قال قائل : هل كان تفتيش الأوعية خارج المدينة في المكان الذي وصل المفتشون إلى إخوة يوسف فيه ، أو أن المفتشين انصرفوا بهم إلى يوسف وهناك صار تفتيشهم ؟ قلنا إن المفسرين (ومنهم العلامة الزمخشري

(١) نسبة الى الرصافة احدى المدن العراقية .

مع الأسف) على الرأي الثاني . ولكن الحقيقة أن التفتيش حصل خارج المدينة في المكان الذي وصلوا إليهم فيه والدليل على ذلك : ١ً – قوله : « فبدأ » عبر بالفاء ليفيد ما قلنا . ٢ً – العقل والعادة ، إذ المعقول والمعتاد أنه إذا اتهم جماعة بالسرقة فأدركوا خارج البلد أن لا يكلفوا بالرجوع للبلد لأنهم ينكرون تلك التهمة ويقولون : ها نحن أولاء وهذه رحالنا فتشونا ، فإن رأيتم معنا المسروق مضى علينا الحكم الشرعي ، ورجعنا معكم للحاكم ليفعل ما يريد، وإلا سرنا لحال سبيلنا مع جماعة الممتارين من كنعان .

هذا هو المعقول المعتاد ، وأما الجند قالوا لهم : « لا نفتشكم في هذه الطريق ولكن ارجعوا للحاكم معنا قضّكم بقضيضكم حتى نصل إلى المدينة وهناك عند الحاكم يصير تفتيشكم » فهذا مخالف للعقل والعادة . ٣ً – الواقع ، فإن التاريخ ينص بصراحة أن التفتيش حصل خارج البلدة . ٤ً – قولهم فيما سيأتي (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) (آ : ٨٢) ، فهذه « العير » التي استشهدوا بها كانت معهم في الطريق وهم مقبلون من الديار المصرية الى الديار الشامية آيبين إلى أبيهم ، وهذه العير هي التي وقفت على هذه الحادثة ورأتها رأي العين ، ويجوز لنا ان نقول أيضاً إن هذه « القرية » كانت دسكرة في الطريق ، وهي التي وقع فيها التفتيش ، وليست هي العاصمة التي كان فيها يوسف فقد جرت سنة القرآن الحكيم في هذه السورة الكريمة ، أن لا يعبر عن المحل الذي فيه يوسف « بالقرية » بل تارة « بمصر » كما في سابق قوله تعالى : (وقال الذي اشتراه من مصر) (آ : ٢١) ولاحق قوله تعالى : (وقال ادخلوا مصر (آ : ٩٩) ، وتارة بالمدينة كما مر في قوله تعالى : (وقال نسوة في المدينة) (آ ٣٠) ، وكلمة « قرية » لم تطلق في القرآن على مصر المعروفة ولا في موضع واحد ، فنأخذ من مجموع هذا الذي ذكرناه أن هذه القرية كانت دسكرة في الطريق خارج العاصمة التي فيها يوسف ، فإذا صح ما قلنا يكون معنا أربعة

أدلة تؤيد أن التفتيش وقع في دسكرة في الطريق وليس بالعاصمة التي فيها يوسف خلافاً للمفسرين .

تذكير ضمير الصواع وتأنيثه

الملحوظة الثالثة ـ ذكر ضمير الصواع مرات باعتبار اسم الصواع ثم أنثه باعتبار أنه يسمى سقاية ، وهكذا في كل شيء له اسمان مذكر ومؤنث ، مثل : خوان ومائدة ، قتال وحرب ، رمح وقناة ، سنان الرمح وعاليته ، والخ .

كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة على إخوته

الملحوظة الرابعة – إن قال قائل : كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة ، وهي كذب حَنْبَريتٌ ، وفيها إهانة لإخوته ، وكسر خاطر لهم ، وإلحاق عار ، بدون تسبب منهم ؟ وكيف قبل بنيامين هذه الإهانة ، وقبل أن يظهر بمظهر سارق في نظر إخوته ونظر عبيد يوسف ، ثم في نظر أبيه وأولاده وأولاد إخوته متى بلغهم الخبر ؟ وبالتالي كيف جاز ليوسف أن يدخل على أبيه هذا الحزن والقلق بسبب هذا الحادث المصنوع ؟!؟!..

فجوابنا عن هذه الأسئلة أن يوسف عليه السلام فعل ذلك بحسب الرأي وما تقتضيه المصلحة ، وتوضيح ذلك يحتاج إلى بسط في الكلام وإليكم البيان:

الرأي واتباع المصلحة مصدر من مصادر الشريعة

تعلمون أن مصدر كل شريعة الكتاب وأقوال الرسل وفتاواهم ، وهناك أصل ثالث وهو الرأي واتباع المصلحة ، وهو كما فسره « ابن القيم » ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أظهر الصحابة في هذا النوع وهو استعمال الرأي فقد روي عنه الشي الكثير ،

فكان يجتهد في تعريف المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه ، وهو أقرب شيء إلى ما يعبر عنه اليوم بروح القانون لا بحرفيته ونذكر من هذا القبيل أمثلة منها ؛ قال الله تعالى : ﴿ إنّما الصدقات للفقراءِ والمساكينَ والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهم .. الخ الآية ﴾ (٩ : ١٦) فالآية جعلت المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعطي بعض الناس يتألف قلوبهم للإسلام ، كما أعطى جماعة منهم « عُيينة ابن حصن » و « الأقرع بن حابس » ، ثم في زمن أبي بكر رضي الله عنه جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب وقال: (إن الله أعز الإسلام ، وأغنى عنكم ، فإن ثبتم عليه ، وإلاّ فبيننا وبينكم السيف ؟!) فترى من هذا أن عمر علل الدفع إلى المؤلفة قلوبهم بعلة هي المصلحة فلما ارتفعت هذه العلة بعزة الإسلام وعدم حاجته إلى من تأتلف قلوبهم ، لم يستمر في إجراء الحكم . كذلك روي أن عمر رضي الله عنه لم يقطع يد السارق في عام المجاعة ، ويوجد من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، وأشهر من سار على طريقة عمر تلميذه عبد الله بن مسعود في العراق . وعلم أهل العراق ابتدىء بابن مسعود وختم بأبي حنيفة ثم بأبي يوسف ، ولذلك اشتهرت العراق « بالرأي » حتى صار إذا قيل « عراقي » فمعناه صاحب « رأي » كما بمقابلته إذا قيل « حجازي » فمعناه تابع « نصوص » .

وأما التعليقات التي لنا على هذه الآية فهي :

علم الله فوق كل علم في الكيف والكم

التعليق الأول – على قوله (وفوق كل ذي علمٍ عليمٍ) أي فوق كيف ما يعلمه ، وفوقه في كمّ ما يعلمه ، فكل ذي علم ، لو علم الشيء علماً مبهماً مجملا ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلمه موضحاً مفصلا ، وكل ذي علم ، لو علم بشيء دون

شيء ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلم كل شيء ، وهذا هو الفرق بين علم المخلوقين وعلم الخالق ، فمثلاً : الإنسان يعلم أنه يوجد غداً شمس ، ولكنه لا يعلم درجة حرارتها وإضاءتها ، والإنسان يعلم أشياء كثيرة ، ولكنه مثلا لايعلم في أي وقت تقوم القيامة ، حتى ولو كان نبياً مرسلاً ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعةِ أيَّانَ مُرْسَاها ؟ فيمَ أنتَ مِنْ ذِكراها ؟ إلى ربِّكَ مُنْتَهاها ، إنما أنت مُنْذرُ مَنْ يخشاها ﴾ (٧٩ : ٤٢ – ٤٥) ، وكما نقل عن السيد المسيح عليه السلام : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب) (مر ١٣ : ٣٢)[١] .

علم الله فوق كل علم توصل ويتوصل إليه الإنسان

التعليق الثاني - يقول تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ولا يزال العلم آخذاً في الترقي ولا يزال الإنسان آخذاً في التقدم ، ولا سيما في هذه الأيام ، فالإنسان اليوم بلغ الثريا بمعارفه ، واكتشف الكواكب بعقله وعلمه ، وقاس الأرض شبراً شبراً بحسابه ، وغاص البحار وطار في الهواء ، وابتنى القصور فوق الماء ، واكتشف الكهرباء واستخدم البخار ، واخترع البرق والهاتف وأتى بالمعجزات العلمية كالحاكي والسماعة ، والراديو والنظارات المكبرة وموازين الارتفاع والانخفاض والحرارة والبرودة ، وأشعة رونكن ، وقدر الإنسان أن يعرف بعلمه وذكائه أسرار الطبيعة وقوانينها ونواميسها وتحويلاتها واختلاف عناصرها ثم عرف مصدر الأرض وتركيبها وما تحتويه ، وعرف مصدر الماء وتركيبه ، ومصدر الهواء وتركيبه ، وعرف أن الغمام هو مصدر الأمطار ، وأن احتكاك الغيوم ببعضها هو مصدر الرعد والبرق ، وأن الشمس هي مبعث الحياة للأرض وسكانها ، وقدر البعد الشاسع الذي بينها وبين الكواكب والأرض ، وفهم أن

---

(١) مر : رمز لانجيل مرقص .

هذا الكون سائر بدقة ونظام تام ، وفهم أن مبدع هذه الأشياء هو خالق عظيم ، ورب قدير ، هذا بعض ما أدركه الإنسان بعقله وعلمه ، وما هو يا ترى هذا الإنسان! هو ذرة صغيرة في هذا العالم الواسع ، هو جرثوم ضئيل بين مخلوقات الله العظيمة ، هو لا شيء وكل شيء في آن واحد ، هو جزء من جزء وفي ذات الوقت هو الكل في الكل ، فسبحان المبدع القدير ، والخلاق العظيم .

كيف رضي بنيامين بتطبيق حيلة أخيه يوسف عليه

التعليق الثالث – هذه الحيلة التي أجراها يوسف ، وإن كان يقصد منها أولاً وبالذات أخذ بنيامين ، ويقصد منها ثانياً وبالعرض إيقاع إخوته في مشكل لكننا لا نقدر أن نجهل أن بنيامين كان من جملة ضحايا هذه الحيلة ، بل هي ما صبت إلا فوق رأسه بالأكثر ، ولكن لما كان ذلك كله بحسب الظاهر ، ولما كان سيظهر للناس أن بنيامين بريء ، ولما كانت العبرة بالعواقب ، ولما كانت النتيجة تبرر الواسطة رضي بها بنيامين كفدائي ، حتى يرضى أخوه .

ماهية الكيد في هذه الحادثة وأنواعه

التعليق الرابع – على قوله : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ ، ففي مقابلة كيدهم ليوسف ، كادهم الله تعالى له ، والله يكيد من يكيده ، ويكيد من يكيد مظاهر أمره ، ومن أنبيائه ورسله ، ومصدر الكيد الرباني في هذه الحادثة هو نفس المكيد له وهو يوسف ، والكيد من الخلق الحيلة ، ومن الخالق التدبير بالحق .

فقوله كدنا ليوسف هو على حد ﴿ ومَكَروا ومَكَرَ اللهُ ، والله خير الماكرين ﴾ (٣ : ٥٤) ﴿ ومَكَروا مَكْراً ومَكَرْنا مَكْراً وهم لا يشعرون ﴾ (٢٧ : ٥٠) ومعلوم أن الأنبياء هم مظاهر أمر الله ، والأمراء هم مظاهر انتقام الله ، ولما كان يوسف مع نبوته معدوداً من الأمراء ، ظهر لإخوته

بمظهر اسم«المنتقم»فكادوهم كما كادوه،وجزاء المعصية قد يتجزأ فيكون بعضه معجلا في الدنيا ، وبعضه مؤجلا للآخرة ، فما كان مؤجلا للآخرة فهو موكول إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقب عليه ، وأما ما كان معجلا في الدنيا فهو مرتب على المعصية ، ترتب المسبب على السبب ، أو المعلول على العلة،ترتباً طبيعياً لا يمكن أن يتأخر عنه ، فضلا عن أنه يمكن عدمه ، وأقل ذلك الجزاء الدنيوي ما يحصل لفاعل الجرم من توبيخ الضمير ، وتأنيب النفس اللوامة ، وما يدخل عليه من الحزن وانكسار النفس ، وما يحوم حول ذلك من سوء السمعة وسقوط المجرم من أعين الناس ، وهوانه عليهم .

وقد وقع الكيد في هذه السورة اليوسفية ١ً – منسوباً لإخوة يوسف ، بناء عن وسوسة شيطانية ﴿ فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ (آ : ٥) ، وعليه فهذا الكيد في الحقيقة من الشيطان ، ونظيره في نسبة الكيد للشيطان ما في قوله تعالى : ﴿ فقاتِلوا أولياءَ الشيطان ، إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً ﴾ (٤ : ٧٥) ، ٢ً – منسوباً للنسوة اللاتي تقع من بعضهن الحيل الشائنة ، وذلك في مثل قوله : ﴿ إنه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم ﴾ (آ ٢٨) ٣ً– منسوباً للخائنين ، وذلك كما في : ﴿ وإنّ اللهَ لا يَهدِي كيدَ الخائنين ﴾ (آ ٥٢) ، والكيد في هذه المواضع الثلاث مذموم ٤ً – منسوباً لله تعالى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (آ ٧٦)، وهذا الكيد ممدوح لأنه بسبب تعديهم القديم على أخيهم ، فهو من قبيل اقتصاص ومجازاة من الله على مافرط منهم سابقاً ، ومما نسب فيه الكيد لله ، قوله تعالى:﴿ إنهم يَكيدون كيداً وأكيدُ كيداً ﴾ (٨٦ : ١٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وأمْلي لهم إنّ كيدي متينٌ ﴾(٧ : ١٨٢) وهذا الكيد أيضاً ممدوح ، لأنه واقع من الله على الكافرين بسبب كفرهم .

معاني الدين

التعليق الخامس – على قوله تعالى : ﴿ دين الملك ﴾ : يطلق الدين على معان ، منها :

أولاً – بمعنى الأحكام القضائية أو الجزائية ، كهذه الآية .

ثانياً – الدين بمعنى الشريعة الفروعية ، ومن هذا القبيل كلمة الدين الثانية في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدّمُ ولحمُ الخنزير ، وما أكلَ السَّبُعُ إلاّ ما ذكّيتُم ، وما ذبحَ على النصبِ ، وأن تستقسموا بالأزلامِ ذلكم فسْق ، اليوم يئسَ الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشَوْهم واخشَوْنِ ، اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نِعمتي ، ورَضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ، فمنْ اضطُرَّ في مَخمصةٍ ، غيرَ مُتجانفٍ لإثمٍ ، فإنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٥ : ٤) ، وقوله تعالى : ﴿ أمْ لهم شُركاءُ ، شَرَعوا لهم مِنَ الدّينِ ما لم يأذَنْ به الله ؟ ﴾ (٤٢ : ٢١) .

ثالثاً – الدين بمعنى ما يشمل العقيدة والشريعة ، فمن ذلك ما في قوله تعالى : ﴿ ورَضيتُ لكم الإسلامَ دِيناً ﴾ (٥ : ٤) وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الدينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ (٣ : ١٩) وقوله تعالى : ﴿ ديناً قيّماً مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾ (٦ : ١٦٢) . وقوله تعالى : ﴿ وما جعلَ عليكم في الدينِ من حرجٍ ، ملّةَ أبيكم إبراهيمَ ﴾ (٢٢ : ٧٨) .

وبهذا علم أن الدين قد يطلق على العقائد وأحكام الشريعة ، من معاملات وعقوبات وغيرها ، وأما تخصيص « الدين » بالعقيدة ، وتخصيص الشريعة بالأحكام القضائية والجزائية ، فهو اصطلاح مستحدث ، جرى عليه علماء أوربا ، وشايعه عليه كثير من علماء أهل اليوم في الشرق .

رابعاً – الدين بمعنى الأصول العبادية أو حصر العبادة في الله ، فمن ذلك قوله

تعالى : ﴿ إنِ الحكمُ إلا للهِ ، أمرَ أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدينُ القيمُ ﴾ (١٢ : ٤٠) وقوله تعالى : ﴿ وما أُمِروا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصينَ له الدينَ حُنفاءَ ، ويُقيموا الصلاةَ ، ويؤتوا الزكاةَ ، وذلك دينُ القيّمة ﴾ (٩٨ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا وجوهَكم عند كلّ مسجدٍ ، وادعُوه مخلصينَ له الدينَ ﴾ (٧ : ٢٨) .

خامساً ـ الدين بمعنى العقائد فقط ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون يُقاتِلونكم حتى يَردوكم عن دينكم ، إنِ استطاعوا ، ومن يرتَدِدْ منكم عن دينهِ فيمُتْ وهوَ كافرٌ ، فأولئكَ حبطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرةِ ، وأولئك أصحابُ النارِ ، هم فيها خالدونَ ﴾ (٢ : ٢١٧) وقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتابِ ، لا تغلوا في دينكمْ ، ولا تقولوا على اللهِ إلا الحقّ ، إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ ، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه فآمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ ، ولا تقولوا « ثلاثةٌ » انتهوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ ﴾ (٤ : ١٧٠) ، وقوله تعالى : ﴿ قلْ أتُعَلّمونَ اللهَ بدينكم ؟ واللهُ يعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، واللهُ بكل شيءٍ عليم ﴾ (٤٩ : ١٦) .

جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة إبراهيم

التعليق السادس ـ كان الملك « الريان » في زمن يوسف وثنياً ، وكانت شريعته أرضية لا سماوية ، وأما يوسف عليه السلام ، فهو وإن كان وزير مالية وعزيزاً بمصر ، فلم يكن له دخل في محاكم مصر الجزائية ولا المحاكم القضائية ، وهو في غير حادثة إخوته ، لم نعلم له مداخلة في حكم جزائي ولا قضائي ، ومع ذلك فهو لما تداخل في هذه الحادثة ، اجتهد أن يكون الحكم بحسب شريعة جده إبراهيم عليه السلام .

الدرجات وأنواعها وإطلاقها

التعليق السابع – على قوله ﴿ نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ ﴾ فالدرجات في الأصل هي مراقي السلم، ثم توسع فيها فصارت تطلق على المراتب المنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق ، فالعلم بشريعة إبراهيم درجة ، والعلم بشريعة المصريين درجة ، والعلم بالرأي والمصلحة درجة ، وسياسة القوم حتى يصل من يسوسهم إلى مطلوبه منهم درجة والسيادة والحكم بالحق درجة ، والنبوة درجة ، وإيتاء الإنسان شيئاً من الملك درجة ، وتعليمه تأويل الأحاديث درجة ، إلى غير ذلك مما أنعم الله به على يوسف ، « والدرجات » المقصودة هنا هي في العلم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ، نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ ، إنّ ربّكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾ (٦ : ٨٣) وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكم : « تفسّحوا في المجالس » فافسَحُوا ، يفسحِ اللهُ لكم ، وإذا قيلَ « انشزُوا » فانشزُوا ، يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ ﴾ (٥٨ : ١١) .

وقد تكون « الدرجات » في الولاية العامة والخاصة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولهُنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروفِ ، وللرجالِ عليهنّ درجة ﴾ (٢ : ٢٢٨)

وقد تكون « الدرجات » في الثواب والمنازل بحسب درجات الأعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدونَ من المؤمنينَ – غيرُ أولي الضررِ – والمجاهدون في سبيل اللهِ بأموالهمْ وأنفسهمْ ، فضلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وأنفسهمْ على القاعدينَ درجةً ، وكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسنى وفضّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدينَ أجراً عظيماً ، درَجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً ، وكان اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ٩٤ و ٩٥) ، وقد تكون « الدرجات » في الدنيا ، كما في قوله

تعالى : ﴿ وهو الذي جَعَلَكُمْ خلائفَ في الأرضِ ورَفَعَ بعضَكُمْ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، ليَبْلوَكُمْ فيما آتاكُمْ ﴾ (٦ : ١٦٧) .

وقد تكون « الدرجات » في الدنيا والآخرة معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كيفَ فَضّلنا بعضَهم على بعضٍ ، وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ ، وأكبرُ تفضيلاً ﴾ (١٧ : ٢١) .

ويقال في الصعود « درجات » ، وفي النزول « دركات » ، لا فرق في ذلك بين الصعود والنزول الحسيين والمنويين ، قال تعالى : ﴿ رفيع الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) وقال : ﴿ وَرَفَعَ بعضَهمْ درجاتٍ ﴾ (٢ : ٢٥٣) وقال تعالى : ﴿إنّ المنافقينَ في الدّرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ﴾ (٤ : ٤٥) .

وقد تكون « الدرجات » متفاوتة جد المفاوتة ، كدرجات الحرارة في مقياسها ، إذ ما كل درجة فيه يغلي بها الماء ، ولا كل درجة فيه يتبخر فيصعد بخاراً ؛ وكدرجات الامتحان في المدارس أو الأعمال في الحكومة ، لا ينال الفوز فيها إلا بالدرجات العليا ، المحدد أدناها وأعلاها بالحكمة .

ومقابل رفع الدرجات نزولها،فهو قد يتفاوت تفاوتاً كبيراً،كنزول درجات الرطوبة في مقياسها ، ونزول حرارة الجو ، ونزول حرارة الماء ، إذ ما كل درجة في نزول حرارة الجو يسبب نزول المطر ، ولا كل نزول درجة حرارة الماء يكون بها جليداً .

رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم من الاختيار والاستقلال

وبناء على ما تقدم فقوله تعالى : ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء ﴾ أي نرفع من

شئنا من عبادنا درجات ، وهـــذا لا ينافي ما وهبه الله للإنسان من الاختيار والاستقلال ، فإن الله خلق الإنسان وأعطاه نوعاً من الإستقــلال في أعماله الاختيارية على حسب علمه ووجدانه ، وما تكون التربية والعادة في نفسه من الصفات ، وبذلك يكون مصدراً لسعادتها أو لشقائها بعمله ، وهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء بإعداده وبتوفيقه من يشاء للكسبي منها ، واختصاصه من يشاء بالوهبي منها ، ثم هو يرفع درجات من يؤتيهم ذلك ، بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما ترتقي به درجته ، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه ، وبإيتاء ذي الدرجة الوهبية كالنبوة ما لم يؤت غيره من أهلها من المناقب والآيات :

— وجملة « نرفع » استئنافية مبينة أن ما آتى الله يوسف من أخذه أخاه ، كان باختصاصه أعلى درجات معرفة الشرائع وإتقانه حسن التوصل للمطلوب.

وأخيراً أختتم كلامي بكلمتين :

الكلمة الأولى - سوغ يوسف لنفسه أن يعمل هذا العمل مع إخوته العشرة وأخيه بنيامين توصلاً لسهولة مجيء أبيه والعائلة جميعاً لمصر ، فالعمل الذي كان أجراه مع إخوته في سفرتهم الأولى كان هو « النواة » ثم هذا العمل الحـــاضر الذي أجراه معهم ومع أخيه كان هو « شجرة » ، ثم مجيء أبيه والأهل أجمعين لمصر كان هو « الثمرة » .

الكلمة الثانية ـ بعد ختام هذا العمل واحتظاء يوسف ببنيامين ، لكأني به التفت إلى أخيه وقال :

يا أخي الحامل ضيمي	دون إخواني وقومي
إن يكن ساءك أمسي	فلقد سرك يومـــي
فاغتفر ذاك لهـــذا	واطرح شكري ولومي

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه .. الخ)

—٤—

ثم قام السيد الهمام الغزي وقال :

جواز كون ما عمله يوسف عقاباً لإخوته في الدنيا كان موحى به من الله تعالى

أيها السادة :

كنت تأملت برهة في هذا العمل الذي دبره سيدنا يوسف لإخوته، ولم ألبث أن رأيت مقالة منقولة عن الجاحظ ، فبها شفي غليلي ، ومنها تعلمت الجواب عن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، قال تحت عنوان « سياسة الحزم » :

« من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء - خالف الرب في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ، وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌ منه كان شره صرفاً ، ولكن أخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ،والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك ، دخل علية بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب

فدليل على أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر — عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً — وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع ، وفيما هو أدوم ، ومن الانقطاع أبعد » آه ،

هذا هو كلام الجاحظ ، ومنه نتعلم الجواب عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، ومنه نعلم أن قوله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ أن هذا الكيد الذي نسبه المولى لنفسه ، قد يكون جرى بوحي الطبيعة ، لأن الله تعالى كتب ما يلزم عمله من الأدبيات على ضمائر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقد يكون جرى عليه يوسف بوحي الشريعة ، فيكون ما أجراه يوسف عقاباً لإخوته في الدنيا موحى به من الله تعالى وحي شريعة ، فلهذا نسب تعالى ذلك « الكيد » لذاته جل جلاله .

أحسنت

الطعن بيوسف وشقيقه

آ (٧٧) « ... قالوا « إنْ يَسرِقْ ... فقد سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ » فأسَرَّها يُوسفُ في نفسِهِ ، ولمْ يُبْدِها لَهُمْ ، قالَ : « أنتمْ شرٌ مكاناً ، واللهُ أعلَمُ بِما تَصِفونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة وسبعون فقام السيد العاملي وقال :

لما رجع إخوة يوسف ، وصاروا بين يديه في بيته ، (قالوا) متملصين من بنيامين ﴿ إنْ يسرقْ ﴾ هذا الفتى الغِرّ ، فلا عجب ، ﴿ فقد سَرَقَ ﴾ سابقاً ﴿ أخ له من قبل ﴾ ويعنون به يوسف ، وقد اختلف فيما أضافوا له من السرقة ،

فقيل (كان أخذ في صباه صنماً لجده أبي أمه فكسره) وقيل : (أخـذ تمثالاً صغيراً من ذهب فدفنه) ، وكل ذلك لم يكن – (فـ) لمّا سمع يوسف هـذه التهمة تأثر كثيراً ، وجرى الدم اليعقوبي في عروقه ، ووقف شعر رأسه، ولكنه كظم غيظه ، وصبر، وقال كلمة لم تتجاوز شفتيه بحيث (أسرها يوسف في نفسه) شفى بها بعض غليله ﴿ولم يبدها لهم﴾ ، بل جعلها بينه وبين ضميره ، – وهذا إضمار على شريطة التفسير ، وتفسيره قوله : ﴿ أنتم شرّ مكاناً﴾ وقد جاء التعبير في قوله « أسرّها » وفي قوله « لم يبدها » ، بصيغة المؤنث لأن قوله (أنـتم شر مكاناً) هي جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنـه قيـل : فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أنتم شر مكاناً) والمعنى قال في نفسه : أنتم شر مكاناً ، وهذه الجملة بدل من أسرها ، فمع أنهم وقعوا فيه، ونالوا منه ونطقوا بهذه الجملة القاسية ، لم يصارحهم ولم يبد لهم كلمة ما في مقابلتها ، بل طوى غيظه عنهم ، وأكنّ الحزازة الحاصلة مما قالوا ، ولكنه لشفاء غليله نوعاً ، (قال) في ضميره (أنتم شر مكاناً) أي أنتم أضر منزلة في السّرق ، أو أنتم الذين خلقتم هذا الضيق وهذا الموقف الحرج ، من نفسكم لنفسكم (والله) عز وجل ﴿ أعلم بمـا تصفون ﴾ من تسريق أخي وتسريقي ، كذباً وزوراً . (قالون)

(قالوا : إن يسرق ، فقد سرق ... الخ)

– ٢ –

وقال وليّ الدين الشهرستاني (١):

اتهام يوسف بالسرقة وحقيقة هذه السرقة

رأى إخوة يوسف أنه قد وضعت السلسلة في رقابهم وانتهى الأمر ، وكان ذلك بسبب « بنيامين » فلجؤوا إلى شفاء بعض غليلهم بالطعن فيه وفي شقيقـه

(١) نسبة الى شهرستان في البلاد الايرانية .

يوسف ، فقالوا : (إن بنيامين يتلو تلو شقيقه ، ويَستَسِنُّ بسنته ، فهو أشبه بأخيه ، من الغراب بالغراب ، فهما قد من أديم واحد ، وشقا من نبعة واحدة ، هو قد أخذ هذا الدرس من أخيه قبلا ، فأراد اليوم أن يجرب هل يلحق شأو أخيه ؟ فيابئس الخلف ، لبئس السلف ، وإنّا براء منهما ومن عملهما) .

واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة ، والصيح عندي أنها أيقونة ذهبية من أيقونات الترافيم[1] وذلك أن يعقوب لما قام من وجه حميه وخاله « لابان » الذي كان ساكناً فيما بين النهرين ، وأخذ معه زوجتيه ليئة وراحيل ، كانت راحيل أخذت معها تمثالاً صغيراً من ذهب هو خاص بأبيها « لابان » ، فافتقده أبوها لابان ، وفتش فلم يجده معها ولا مع غيرها ، لأنها كانت خبأته في كور الجمل الذي كانت راكبة عليه (تك ٣١ : ٣٥) ، ثم لما وصل يعقوب بأهله إلى فلسطين ، كانت تلك الأيقونة أي الصورة الصغيرة في يد يوسف يلعب بها ، لأنها تشبه ما يسمى « بلعبة الصبيان » فقيل إنه سرقها من بيت جده لأمه ، فهم تذكروا هذه الحادثة ، وذكريات الصبا عميقة الأثر في النفوس ، فلذلك ذكروا ما ذكروا ، ولكن الحقيقة والحال ، أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، على أن سن يوسف في ذلك الوقت كان نحو عشر سنين ، ولكن سن بنيامين حين وقوع هذه الحادثة الحاضرة كان نحو ثلاثين سنة ، فأيّ شاهد قدموا؟ وعلى أي قياس قاسوا؟

رأى إخوة يوسف ما حدث ، فانتشر عليهم رأيهم ، وضاع صوابهم ولم يعرفوا ماذا يقولون ؟ ولا ماذا يهون عليهم هذا المصاب ، ولا ما هو الشيء الذي يضعف الصلة – نوعاً ما – بينهم وبين بنيامين ، فتصوروا أنه من غير أمهم ، فنفضوا منه أيديهم ، نفض المودع يده من تراب الميت ، فقالوا : إن يسرق بنيامين فلا غرابة ، فقد سرق أخوه يوسف الفقيد من قبله، فهما شقيقان، ورضيما

(١) أيقونات الترافيم هي تماثيل أو صور صغيرة لبعض الأصنام .

لبان ، فالدم واحد ، والعواطف واحدة ، وقد نتقتها أم واحدة ، والنفس التي كانت بين جنبي يوسف ، هي اليوم بين جنبَي بنيامين ، وإن اختلفت المظاهر .

وأما يوسف فلما سمع قالتهم لم يطلق لنفسه العنان في الرد عليهم علناً ، بل أغض على القذى وتجرع كأس الضيم ، وكظم الغيظ ، وأبدى من الحلم ما يصغر عنده حلم « معن » بن زائدة ، و « قيس » بن عاصم ، و « الوليد » بن عتبة ، و « معاوية » بن أبي سفيان ، غايته أنه أضمر في نفسه كلمة واحدة ، هي قوله: (أنتم شر مكاناً) قالها بينه وبين ضميره ، ولم يبدها لهم بحيث يسمعونها ، وإنما لم يقل (فقال أو قال) لأنه جواب لسؤال اقتضاه الحال ، كأنه قيل : ما الكلمة التي أسرها في نفسه ؟ فقيل : قال : أنتم شر مكاناً .. الخ أو لأن هذه الجملة تفسير للضمير في قوله « أسرّها » ، ووقوع الجملة تفسيراً ، كثير في كتاب الله تعالى فمن ذلك :

١ ـ ما في ﴿ قالَ إنهُ يقولُ : إنها بقرةٌ لا ذلولٌ (تُثير الأرضَ) ، ولا تَسقي الحَرْثَ ، مُسَلَّمةٌ (لا شِيَةَ فيها) ﴾ (٢ : ٧١) فقوله (تُثير الأرضَ) تفسير لقوله (ذلول) ، وقوله (لاشية فيها) تفسير لقوله (مسلمة) ولهذا فُصِل ولم يُعطف .

٢ ـ ما في ﴿ وقال نبيُّهم إنّ آيةَ مُلكِهِ أن يأتيكم التابوتُ ،فيه سكينةٌ من ربّكم ، وبقيةٌ مما تركَ آلُ موسى وآل هرون (تحملهُ الملائكة) ﴾ (٢: ٢٤٨) ، فقوله (تحمله الملائكة) تفسير لقوله (أن يأتيكم التابوت) .

٣ ـ ما في ﴿ كدأبِ آلِ فرعونَ والذين من قبلهم (كذّبوا بآياتنا) ، فأخذَهم اللهُ بذنوبهم ، واللهُ شديدُ العِقاب ﴾ (٣ : ١١) فقوله (كذبوا بآياتنا) تفسير لقوله (دأب) ، ولذلك لم يعطفه .

٤ ـ ما في ﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أُخرِجَت للناسِ ، تأمرونَ بالمعروف

وتنهَوْن عن المُنكرِ ، وتـؤْمنونَ بالله) ﴾ (٣ : ١١٠) فقوله (تأمرون.. الخ) تفسير لقوله (خير) .

٦ – ما في ﴿ يُخفُون في أنفُسِهم ما لا يُبدونَ لك ، يقولون : لو كان لنا مِنَ الأمرِ شيءٌ ما قُتِلنا ههنا) ﴾ (٣ : ١٥٤) ، فقوله (يقولون..الخ) تفسير لقوله (يخفون .. الخ) ولهذا فصله ولم يعطفه ، إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله تعالى .

وكلمة « شَرّ » أفعل تفضيل ، وليس هو هنا على بابه ، نظير ﴿ قال ياقوم هؤلاءِ بناتي ، هُنّ أطهرُ لـكم ﴾ (١١ : ٧٨) ، فإنه لا طهـارةَ في الملوط بهم البتة .

ثم لكأنك بيوسف قد قال في نفسه : « والله إنكم : تقولوا صدقاً ، ولا ذكرتم أمراً واقعاً ، والله إني أقدر الآن أن أكذبكم وأفقأ في عيونكم الحصرم ، فإنكم تلصقون بي ما لا علم لي به ، ولا وثيقة بيدكم تبرهنه ، ولكن ليس هذا وقت الجدل ، ولا هو وقت إظهار نفسي لكم » .

والآن ننهي قولنا بالتعليقات الآتية :

إعراض يوسف عن اللغو

١ - تعليقاً على قوله (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) لأن يوسف عليه السلام كان ممن إذا مروا باللغو مروا كراماً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ؛

شتم « هشام » بن عبد الملك رجلا من أشراف الناس ، فقال له : « أمـا تستحي تسبني وأنت خليفة ؟ » – فقال هشام : « اقتص مني » – قال : « لا أريد أن أكون سفيهاً » ـ قال : « تعوض مني بمـال » - قال : « ما كنت

لأبيع شرفي بالدرهم والدينار » — قال : « اجعلها لله » — قال : « هي لله ولك » فخجل هشام ونكّس رأسه ، وعاهد الله على أنه لا يشتم أحداً بعدها أبداً[١]

تذكر الإخوة ليوسف بالسوء

٢ — تعليقاً على قولهم (فقد سرق أخ له من قبل) لم يكتفوا بما كانوا صبوه من المصائب على رأس أخيهم المظلوم يوسف ، حتى وثبوا عليه الآن ، ووصموه في هذه المرة بجريرة السرقة ؛

وا أسفاه ! تذكروه في غيابه بالسوء ، بدلاً من أن يتذكروه بالشوق لمرآه ، والحزن على بعد عهدهم به ، والندم على ما فرط منهم في شأنه ، ولعمرُ الحق إن هذا الشيء لا يكون إلا ممن جفت طباعهم ، وسقمت ضمائرهم ، والأمر لله ؛ وهذه المسبة هـــي الحلقة الأخيرة من سلسلة إغاظاتهم ليوسف ، وأما الحلقة الأولى فهي صدهم إياه وهو في حضن أبيه في فلسطين ، وأما واسطة عقد هذه السلسلة ، فهي إلقاؤهم له في غيابة الجب .

ظن الإخوة بأن بنيامين بريء من السرقة

٣ ــ تعليقاً على قولهم (إن يسرق) إنما عبروا « بإن » التي تقتضي مرجوحية مدخولها ، لأنهم كانوا يغلب على ظنهم أنّ « بنيامين » كان بريئاً من أخذ الطاس لأنهم رأوا أن الحاكم قد أكرمه كثيراً ، وكان قبله طلبه ، فلا بد من أنهم استنتجوا من ذلك أن الحـــاكم أتى ذلك رغبة في إبقاء بنيامين في خدمته لأمر لم يعلموه[٢] .

ثبات الإخوة على كره يوسف

٤ -- تعليقاً على قولهم (أخ له) هذه الكلمة تشف عن ثباتهم على كره

(١) محاضرات عصرينا الاستاذ الخضري .

(٢) السنن القويم في تفسير اسفار الكليم .

يوسف ، حتى يوم ما فاهوا بذلك ، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم ، والحفيظة ملأت صدورهم !!! والعجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف ، وبما عملوه معه ، حتى أردفوا عملهم السيء بالقول السيء مخالفين قول بعض الحكماء : « لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه ، فتسد عليه طريق عفوه عنك » وأما هو عليه السلام فلم يحفل بطعنهم ، بل هضمه ، قائلاً : « إنه كلام لا يسر ولا يضر ، فلنمر عليه مر الكرام » .

ويمكن أن نقول إنهم أرادوا بقولهم (أخ له) أخاه الذي يمت اليه من طرفين طرف الأبوة وطرف الأمومة ، وأما نحن فلا نمت إلا من جانب الأبوة فقط ، فاتصالنا به ضعيف ، ومشابهتنا له قليلة ، بخلافه هو ، فهو المشارك له في أخلاقه وأعماله ، فهو على وتيرته وشاكلته ، خِرّيجُه ، الذي أخذ عنه هذه الثقافة .

اختصار الإخوة الطعن بيوسف

٥ - تعليقاً على قولهم (فقد سرق أخٌ له من قبل) ، اختصروا القول في الطعن بيوسف اختصاراً ما كان مأمولاً فيهم ولا مرجواً منهم ، وإلا فبغضهم الشديد ليوسف كان يقتضي الإسهاب والبسط في النيل منه ، وكأن السبب في ذلك أمور : ١ً - إن المقام ليس مقام الطعن في يوسف ، ولكنه ذكر على وجه الاستطراد ، ٢ً - إن يوسف قد غاب عنهم مدة طويلة هي نحو ٢٢ سنة ، فربما كانوا متصورين موته فلذلك خفت وطأة حقدهم عليه . ٣ً - المقام مقام « سرقة » لا غير ، فلذلك إنما ذكروا من طعونهم بيوسف « السرقة » فقط ، ٤ً - إنهم لم يجدوا في «عزيز مصر» - الذي هو بالحقيقة يوسف - ميلا لما يقولون ولا ارتياحاً لما يفترون ، فلما أحسوا بذلك لم يسترسلوا في الذم ، ٥ً - هم إنما تكلموا فيما بينهم بلغتهم العبرانية ، ففاه بعضهم ببعض بهذه الكلمة ، من قبيل نفثة مصدور يريد أن يروّح نفسه ، وهم لا يعلمون أن « عزيز مصر » (يوسف)

يفهم كلامهم ، ولو كان مرادهم الاعتذار عند عزيز مصر ، لتوسموا في القول بعض التوسع ، من قبيل التنصل من هذا « الإنسان وأخيه » ، وأن تربيتهما وأخلاقهما ليستا كتربيتنا وأخلاقنا ، لأنهماولدا الزوجةالمحبوبة وفلذلكترك أبوهما حبلهما على غاربهما » .

أوجه احتمال قوله فأسرها .. الخ

٦ً – تعليقاً على قوله (فأسرها .. الخ) عندنا أن هـذا القول يحتمل وجوهاً ثلاثة :

الوجه الأول – أنه أجال ذلك في ضميره فقط ، فهذا القول قول نفساني ليس إلا :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

أي أنه تحدث بكلمة لم تتعد النفس والضمير ،ولم تتعرفعليها الشفة والسمير ، وهذا هو الغاية القصوى في الحشمة والأدب ، وفي المثل : « الشاتم من أسمع والضارب من أوجع » .

الوجه الثاني – أنه رطن لهم باللغة المصرية التي تفهمها إخوته .

الوجه الثالث – أنه حرك بها شفتيه فقط انتهاجاً لطريقة الخرس ، بحيث لا يفهم كلامه إلا من يعرف طريقة المكالمة بحركات الشفاه .

مثال لحلم يوسف

٧ً – وكما أن يوسف عليه السلام قد حلم على إخوته ، فقد وجد في هـذه الأمة المحمدية كثير من الحلماء ، وإليك مثال من كثير من الأمثلة منهذا القبيل في حِلم « معن » بن زائدة :

قدم أعرابي ذات يوم على « معن » بن زائدة يمتحن حِلمه ، فلما وقف ببابه

قال :

أتذكُر إذ لحافُك جلدُ شاةٍ		وإذ نعلاك من جـلد البعيرِ ؟

– فقال « معن » (أذكر ذلك ولا أنساه) – فقال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً		وعلمك الجلوس عـلى السرير

– قال « معن » (سبحانه وتعالى) – فقال الأعرابي :

فلستُ مُسَلِّماً ما عشت يوماً		على « معن » بتسليم الأمـيرِ

قال « معن » : (يا أخا العرب ، السلام سنة ، وشأنك في الأمير) .

– فقال الأعرابي :

سأرحل عن بلاد أنت فيهـا		ولو جار الزمان على الفقيرِ

– قال « معن » : (يا أخا العرب ، إذا جاورت فمرحباً بك ، وان رحلت فمصحوب بالسلامة » – فقال الأعرابي :

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء		فإني قـد عزمت على المسيرِ

– قال « معن » : (أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره) ،فأخذهاوقال:

قليل ما أتيت به وإني		لأطمع منك بالمال الكثيرِ

– قال « معن » : (أعطوه ألفاً آخر) ، فأخذها وقال :

سألت الله أن يبقيك ذخراً		فمالك في البرية من نظـيرِ

فقال « معن » (أعطوه ألفاً آخر) فقال الأعرابي : « يا أمير المؤمنين ، ما جئت إلا مختبراً حلمك ، لما بلغني عنه ، فقد جمع الله فيك من الحلم ، ما لو قسم على أهل الأرض لكفاهم) – فقال « معن » :(يا غلام ، كم أعطيته على نظمه ؟ » – قال : (ثلاثة آلاف دينار) – فقال « معن » : (أعطه نثره مثلها) فأخذها ومضى في طريقه شاكراً .

استعطاف الإخوة

آ (٧٨) « ... قالوا : يا أَيُّها العَزيزُ ، إنَّ له أَباً شيخاً كبيراً فَخُذْ أَحدَنا مَكانَهُ ، إنَّا نَراكَ من المحسِنينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة وسبعون فقام الشيخ خالد البيتلحمي وقال :

سكت عن إخوة يوسف الغضب نوعاً ما ورأوا أنفسهم أنهم صاروا في موقف حرج ، لا بد لهم فيه من الحكمة والتدبير ، والعمل على الخروج منه بلباقة ، فخاطبوا العزيز بنغمة المتوسل المستعطف و (قالوا) بصوت حزين (يا أيها العزيز) ملكت فاسْجِح [١] ، قدرت علينا فارفق بنا ، وتساهل معنا ، ولا تأخذنا بالشدة (إن له) أي لهذا السارق (أباً شيخاً كبيراً) طاعناً في السن ، وقد علمت أنه هو أصغر أولاده ، كما أنك تعلم أن الأب الكبير مهما كان له أولاد فإن نفسه تكون متعلقة بأصغرهم ، فهو طبعاً يحبه أكثر من غيره ، لأنه ابن شيخوخته (فخذ) أي إنا نتقدم إليك أن تأخذ (أحدنا) أيّ واحد منا أردت مستعبداً (مكانه) وكل منا راض بذلك ، (إنا نراك من المحسنين) إلينا ، فأتمم إحسانك ، أو من عادتك الإحسان ، فاجر على عادتك .

---

(١) جرى مجرى المثل ، يضرب لمن قدر على خصمه ، فأراد المبالغة في قهره ، والسجاحة : السهولة ، ومنه كلمة « سجاح » .

(قالو : يا أيها العزيز ... الخ)

- ١ -

وقال السيد سعد الدين اليبرودي[١] :

استعطاف الإخوة ليوسف بإطلاق سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه

تذاكر أولاد يعقوب فيما بينهم ، فرأوا أن الأوفق الخضوع لأمر الحكومة والنزول على إرادتها ، قائلين في أنفسهم : ومـــاذا عسى نعمل مع حكومة مصر الجبارة :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنــه　　　يطيع العوالي ركبت كل لهذَم

ثم علموا بسبب ما صار عليهم أنهم قد استهدفوا اللّوم الشديـد من أبيهم ، وأنه سيظن بهم الظنون ، فوطنوا أنفسهم على إبقاء أحدهم بدلاً من بنيامين بدلاً شخصياً فمثلوا بين يدي يوسف ، وهم يتعثرون من الخجالة والهوان وقالوا له : يا عزيز مصر المحترم ، مكرمة أتيناك لها ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها[٢] نحن لا نريد عدالة فقط بل رحمة ، والرحمة فوق العدالة وفوق القانون ، ومــا ذاك إلا أن لأخينا هذا أباً كبيراً في المقام وفي السن ، قد ظهرت عليه علامات الشيخوخة فإن عمره الآن ١٣٠ سنة ، وقد ذوى عوده ، وخوى عموده ، وضعف نظره ، وتحجرت منه الغضارف ، وضعفت عضلاته ، وبرّى عظمه ،وقد كان له ابن يحبه ففقده ، وهذا الابن المحبوب المفقود كان من أبيه بمنزلة الشعار ، وقد اتخذ هذا الولد الحاضر من نفسه بمنزلة الدثار ، فاليوم كيف تكون حالة الشيخ الكبير إذا فقد شعاره ودثاره كليهما معاً ؟!؟! فإن رأيت أن تهبه الشيخ فأنت لذلك أهل لأبيه

---

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية) .

(٢) أي حزتها وصنعتها .

ومع ذلك فليس مجاناً ، ولكنها هبة بثواب ، فخذ أيّ واحد منا مكانه ، وخله يظعن لوالده الشيخ الهرم ، لا سيا وأن أباه أبى أن يرسله معنا ، حتى نؤتيه موثقاً من الله لنأتينه به ، وقد تعهدنا له بذلك ، وأقسمنا بالأيمان المحرّجَة ، وأعطيناه الميثاق الأكيد وانا نقرأ آية الإحسان على وجهك ، نراك كريم الطبائع كثير الصنائع ، أحسنت إلينا أولاً وآخراً ، سالفاً وحادثاً، فافعل معنا ماتبنيه على قديم أياديك ، وسوابق إحساناتك ، أحسن إلينا ، أحسن الله إليك،أسعدنا أسعدك الله ، واتخذها عندنا يداً ، لا ننساها لك مدى الدهر ، وأنت إذا كنت لا تريد أن ترحم دموعنا السخيفة فارحم ذلك الشيخ الهرم ، ذا المقام العالي في فلسطين وكنعان والعراق ، المشار إليه بالبنان من عموم السكان والقطان فيا بين البحر الأبيض المتوسط إلى نهر الفرات .

وههنا تعليقات :

أي الاخوة قام بالاستعطاف

١ – يقال إن الذي ناب عن إخوته في الكلام مع العزيز هو « يهوذا » وقد عرض نفسه للعبودية مكان أخيه بنيامين .

طلب الاخوة ترك الجاني وأخذ البريء

٢ – من العجيب أن تخرج كلمة (خذ أحدنا مكانه) من فم هؤلاء الإخوة بعد صدور الفتوى الشرعية منهم ، بأن جزاء من سرق الصواع هو من وجد في رحله ، ولم يصدروا الفتوى بأن جزاءه أخذ أخ له لا علم له بالسرقة ، ولا يد له فيها .

ومن العجيب أيضاً أنهم تذرعوا لترك الجاني وأخذ البريء ، بقولهم (إنا

نراك من المحسنين) ، كأن من إحسان المحسن أن يفك الآثم ويسترق العفيف الشريف !!!...

ألقاب يوسف

٣ ــ لقد أطلق على يوسف في هذه السورة عدة ألقاب منها : لقب (غلام) في قوله : (هذا غلام) وهو أول لقب لُقّب به يوسف في بدء غربته وهو في « دوثان » ، وقد لقبه به الذي أدلى دلوه في الجب مالك بن ذعر الخزاعي .

وقد لقب بعده بألقاب أخرى منها لقب (مُخْلَص) لقبه به المولى عز وجل وهو في مصر إذ قال : ﴿ إنه من عبادنا المُخْلَصين) ، ومنها لقب (فتىً) لقبه به النسوة المصريات إذ قلن ﴿ تراود فتاها عن نفسه) وذلك قبل أن يَرَيْنَهُ ، ومنها لقب (ملك كريم) لقبه به أيضاً نسوة المدينة بعدما رأينه ، ومنها لقب (الصديق) لقبه به رئيس السقاة وهو في سجنه ، ومنها لقبا (مكين ، أمين) لقبه بهما مليق مصر الريان بن الوليد بعد براحه من السجن ومنها لقبا (حفيظ ، عليم) لقب هو نفسه بهما ترجمة حال نفسه عند الحكومة المصرية ، ومنها لقب (العزيز) لقبه به إخوته تبعاً للحكومة المصرية التي ــ طبعاً ــ لا بد أن تكون قد وجهت عليه هذا اللقب فكان (عزيز مصر) تحت سلطة مليكها الريان .

فيكون أول لقب وجه على يوسف في بدء محنته « غلام » ، وآخر لقب وجه عليه في بدء إشراق سعده « عزيز مصر » .

يوسف يرد استعطاف إخوته ويصر على أخذ سارق الصواع

آ (٧٩) « قالَ : مَعاذَ اللهِ أَنْ نأخذَ إلا مَنْ وَجدْنا متاعَنا عِندَه ، إنَّا إذاً لَظالِمونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة وسبعون فقام الشيخ الجيرودي[١] وقال :

ما كاد يوسف يسمع كلام إخوته إلا وقد سفهَ فكرة الاستبدال ، وفيّل رأيهم تفييلاً[٢] ، و (قال) بنفس عزيزة وصوت جهوري ، مجيباً لهم جواباً سلبياً ، ما هذا الإبرام ؟!.. وما هذه الشفاعة الملتوية (معاذ الله أن) أي نعوذ بالله معاذاً من أن (نأخذ) نستبدل واحداً بريئاً بواحد آثم ، وقد أضيف المصدر إلى المفعول به وحذف لفظ « منْ » (إلا من وجدنا متاعنا) سلعتنا ، (عنده) في رحله ، ولم يقل « من سرق » تفادياً من تلويث لسانه بالكذب ، ولبيان مستند الجريمة ، فهو ليس بتصريح بالسرقة ، ولكنه تعريض بها ، وإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، (إنا إذاً لظالمون) للشريعة ولأنفسنا ولهذا البدل الشخصي عن بنيامين .

---

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية) .
(٢) فيل الرأي بمعنى خطأه وقبحه .

هذا هو موجز تفسير مفردات هذه الآية أيها السادة وأما تفسير الآية المفصل فكما يلي :

(قال : معاذ الله ... الخ)

-١-

رفض يوسف ترك بنيامين أو أخذ غيره من الاخوة

كان إخوة يوسف قد عرضوا عليه رجاءهم، وهم في شيء من القلق ، وضعف الأمل ، كأن قلوبهم حدثتهم بما سيلاقونه من الفشل عند « عزيز مصر » لأنهم كانوا يحسون بضعف مستندهم في طلبهم ، أمام قوة الحكم الصارم ، الذي صدر من ألسنتهم ، فلذلك لما سمع طلبهم زمهر في وجوههم ، وكشر لهم عن مثل ناب الليث ، ونأى بجانبه ، وقال قول مصرّ على مخالفتهم ، مقيم على محاربتهم ، ما هذا الذي تقولون ؟.. ما هذا المركب الخشن الذي تريدون أن تحملونا عليه ؟.. هل يجوز لنا أن نكرم أهل الشقاوة ، ونهين أهل السعادة ؟.. إيها[1] يا قوم ، هل يجوز أن نأخذ البريء ونطلق المجرم ؟.. لعمري دون ما تطلبون شرخ القتاد ، حاشا لي من أن أقبل هذا الظلم الغير جائز ، لا سيما أني أمثل الوطن والتاج ، فاعذروني إذا لم أقبل توسلاتكم ، أنتم أنفسكم قد حكمتم بأفواهكم ، إذ قلتم : (جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه) «كذلك نجزي الظالمين» فهل قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فأخوه جزاؤه ، كذلك نجزي إخوة الظالمين»؟. كلا .. كلا لم تنطقوا بذلك ، ولا يكاد أن ينطق به عاقل ، وإن هذه الشفاعة منكم ، هي من قبيل : ﴿ ومنْ يشْفَعْ شفاعَة سيئة ً يكُنْ له كفْلٌ منها﴾ (٤ : ٨٤) ، وإن الشفاعة لا تجوز في الحدود، وإن هذا الاقتراح لا يقبله منكم

---

(١) كلمة استكفاف أي كفواً يراد بها التبعيد والاستغراب .

أحد من المتشرعين ، إلا من بلغ الغفلة والبسلة مبلغاً لا يبلغه الأطفال ، ولا سكان المارستانات ، ولعمري لولا إنكم غرباء نزلاء علينا ، لقرعت لكم العصا وعاملتكم بما تستحقون ، فلا تحرجونا باسترحاماتكم ، فتخرجونا عن شريعة آبائكم ، فظلم الظالم يكون عليه والنفس التي تخطىء موتاً تموت ، وكما بالراعي تملك الرعية ، فبالعدل تملك البرية ؟ « وأما ما كان من جهة أبيكم ، فعزيز علي والله أن أشق عليه ، ولكن الضرورة لها أحكام ، والشيء قد وقع ، ولا خيرة في الواقع ، ولكن إذا أتيتموه فاقرئوه السلام ، وقولوا له : «إن عزيز مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ابنك يوسف ، وحتى تعلم أن في أرض مصر صدّيقين مثله ، هكذا بلغوه عني ، وخلاكم ذم » [١].

وهنا نرى أن موقف يوسف في حالتي استرحامهم وعدمه واحد ، برنامج ثابت وضعه لأخذ شقيقه ، لن يتغير أو يتبدل ، ولا بد أن يكون جوابه السلبي وقع عليهم كالصاعقة ، فبلبل لأول وهلة خواطرهم ، وجالت في ذهنهم بل جرت كمجرى البرق ، صور كلها سوداء تنذر بالبلاء ، والعياذ بالله . (قالون)

وأخيراً أنهي كلامي بالمواد التالية :

يوسف بين عاملي فرح وكدر

مادة ١ – كأني بيوسف عليه السلام صار يتردد بين عاملين ، عامل الفرح بحصوله على أخيه وأخذه عنده ، وعامل كدر أبيه متى بلغه ذلك الحادث ، لكنه آثر الجري مع العامل الأول ، توصلاً لتشذيب شكيمة إخوته ، وتخضيد شوكتهم ، وقد دلت التجارب على أن إظهار شيء من قوة الحاكم أو الآمر كفيل بتقويم شيء من الإعوجاج ، فيوسف أراد بهذه الشدة أن يعمل على تحسين حال إخوته

(١) جامع البيان .

ثم إن تصوره قرب انكشاف الواقع ودنو مجيء أبيه وأهله جميعاً اليه ، خفف تأثير العامل الثاني عليه

لا محاباة في احكام الشرع

مادة ٢ ـ يريد بقوله (معاذ الله .. الخ) إن الحكم الشرعي الذي لفظتموه عام ، فهو لا ينظر في كون المجرم له أب شيخ كبير أم لا ،ولا فرق فيه بين ولد وولد ، ولا يحتمل شيئاً من المحاباة ومراعاة الوجوه ·

لا تجزي نفس عن نفس شيئاً

مادة ٣ ـ تعليقاً على قوله : (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون) ، فكما أنه في الآخرة ﴿ لا تَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخذُ منها عدلٌ ، ولا هم يُنصرون ﴾ (٢ : ٤٨) فكذا في الدنيا ، لا نسيغ البدل الشخصي ، ولا نقبل الشفاعة ، التي تعود على العدالة بالنقص والبطلان ، ولا نأخذ فدية من المحكوم عليه ، وليس أحد من عشيرته وذويه ، يقدر أن يخلصه منا قهراً ، لأن فتح هذا الباب يزيد الناس ميلا الى الشر ، وضراوة بالإثم ، وأن تعطيل العدل ، والوقوف في وجه الشرائع والقوانين أن تأخذ مأخذها ، وتنفذ نفاذها ـ ضار بالأمم ، مفسد للعُمران ، ولذلك فحكمتنا في مصر ، لا ترضاه ، بل هي تباهي بأنها لا تروج لديها « المحسوبيات » ، ولا تميل الى « المحاباة » وليس فيها متسع « للمداخلات » ، حقاً إن شيئاً من هذا القبيل لهو مما يضر بالأمم ويفسد حالهم ، ويؤخر عمرانهم ، ويوهن عزائمهم عن الوقوف عند حدود الشرائع والقوانين .

يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به إخوته

مادة ٤ ـ ربما أن يوسف لما سمع تعطفهم إياه ، واستنزالهم رحمته وإحسانه ،

وذكرهم شيخوخة أبيه وطعنه في السن ، وأنه يحبه لكونه أصغر أولاده – ربما انه لما سمع ذلك حدثته نفسه بإطلاق بنيامين ، وفصم عُرَى التدابير التي كان رتبها ، ولكنه رآى وجوب إمضاء العزيمة ، لأن نقضها ضعف النفس ، وزلزال في الإخلاق ، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل ، فإذا كان ناقض العزيمة عامل حكومة أو قائد جيش ، كان ظهور نقض العزيمة منـــه ناقضاً للثقة بحكومته وبجيشه ، ولا سيما إذا كان بعد الشروع في العمل ، وبعـــد الفكر والروية ، ولذلك لم يصغ النبي ﷺ الى قول الذين أشاروا عليه بالرجوع من غزوة أحُد ، بعدما كانوا أشاروا عليه بالخروج إليها ، وبعدما كان قـــد افتكر فيها ملياً ، وعزم عليهـــا ، ولبس لامته وخرج ، فإنه بذلك صدق عليه أنه شرع في العمل بعـــد الروية ، ويمكن إرجاع ذلك الى قاعدة « ارتكاب أخف الضررين » وأيّ ضرر أشد على الحاكم من فسخ عزيمته ، ومـــا فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة .

تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن

مادة ٥ – كلمة (معاذ الله) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين ، حكاية عن فم يوسف عليه السلام ، فالمرة الاولى تقدمت عندمـــا قالت له امرأة العزيز ، (هيت لك) فأجابها بقوله (معاذ الله) ، والمرة الثانية هنـــا ، حينما قال له إخوته : (خذ أحدنا مكانه) ، فيوسف أظهر لامرأة العزيز أن هذا الامر وهو الفحشاء منكر يستعاذ بالله من الوقوع فيه ، كما أنـــه أظهر لإخوته أن استبدال بنيامين بغيره منكر أيضاً ، لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم .

ظاهر قوله « إنا اذاً لظالمون » وباطنه

مادة ٦ – تعليقاً على قوله (إنا إذاً لظالمون) لأن الجـــاني هو بنيامين ، فكيف نجازي غيره بجنايته ، قال تعالى : ﴿ لهـــا ما كسَبَتْ ، وعليها ما اكْتَسَبَتْ ﴾ (٢ : ٢٨٦) ، ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل

نفس مـــا كسبت وهم لا يُظلَمون ﴾ (٢ : ٢٨١) ، ﴿ ألاّ تَزرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ، وأن ليس للانسانِ إلاّ ما سعى (٥٣ : ٣٨) ، ولا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلاّ عليهـــا ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فالقاعدة أن عمل كل إنسان له أو عليه ، لا يجزى به سواه ، فطلبكم استبدال المجرم بالبريء لا أقبله ولن أقبله،ولا يستطيع أحد من علماء الشريعة أو الحقوق، بل ولا من أحط الجهلة إدراكاً، وأسخفهم ذهناً، وأبعدهم عن الحق ، أن يفتكر هذا الفكر .

هذا بالنظر لظاهر اللفظ ، وأما بالنظر لباطنه فكأني بـه يقول : (أعوذ بالله أن آخذ إلا شقيقي المحبوب ، الذي كنت بالأشواق الكلية لرؤيته ، والذي عملت هذا الكيد المتسلسل حتى توصلت للحصول عليه ، وإني لو أخذت أحـد إخوتي الكبار الذين كادوا لي كيداً ، وعملوا على إيذائي وإبعادي ، في حين أني غير مشتاق لواحد منهم – لكنت ظالماً بتركي شقيقي المحبوب ، واستبدالي به مكروهاً من أولاد العلات ، ولحقّ عليّ أن أنشد قول الشاعر :

لك الحمد، أمّا ما نحب فلا نرى　　ونبصر ما لا نشتهي فلك الحمد

التورية في قوله « متاعنا »

مادة ٧ . تعليقاً على قوله : (متاعنا) فالمتاع كما يطلق اسماً للسلعة كالطاس هنا فانه يطلق مصدراً بمعنى المنفعة واللذة ، فهذه الكلمة هنا من قبيل ما يدعى « تورية » أو تعريضاً » (وفي السنة كثير من المعاريض ، التي هي جائزة ، إذا لم تبطل حقاً ، ولا تحق باطلا ، كقوله ﷺ لمن سأله « ممن أنتم ؟ » قال : « نحن من ماء » ، وكان إذا أراد غزوة ورّى بغيرهـا ، وكان الصديق رضي الله عنه يقول في سفرة الهجرة لمن يسأله عن النبي ﷺ:(من هذا الذي بين يديك ؟فيقول: هادٍ ، يدلني على الطريق) [١] .

(١) الطرق الحكمية

برقيتا شفرة من يوسف لأبيه

مادة ٨ - أراد يوسف عليه السلام بتلك الأعمال والأقوال ، التي عملها وقالها بشأن بنيامين ، أن تبلغ لأبيه ، فيعي منها حل اللغز ، وفك الطلسم ، وإن لم تفهم إخوته منه شيئاً ، فرب مبلّغ أوعى من سامع ، وطبعاً إن المرسل اليه الرسالة تفهم منها ما لم يفهمه ساعي البريد ،كما قيل : «فنحن سكوت والهوى يتكلم » ، ونحن نرى أنه أرسل لأبيه برقيتي « شفرة » الأولى تفهم من (ع ٦٩ - ع ٧٩) وقرأ الأب هاتين البرقيتين وفهم رموزهما ، وبناء عليه قال كما سيأتي : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. ﴾ (آ ٨٧) .

وههنا تنتهي « المعركة » بين يوسف وإخوته

(أحسنت ولا فض فوك)

اليأس والمفاوضة والمناجاة

آ (٨٠) « فلما ٱسْتَيْأَسُوا منهُ خلَصُوا نَجِيًّا ... قال كبيرُهم : أَلَمْ تَعْلموا أَنَّ أباكُمْ قد أَخَذَ عليكمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ ومِنْ قَبلُ ما فَرَّطْتُم في يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ حتَّى يأذَنَ لي أَبي ، أو يَحْكُمَ اللهُ لي ، وهوَ خيرُ الحاكمِين .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثمانون فقام السيد الحلبي [1] وقال :

سمع الإخوة العشرة جواب « عزيز » مصر السلبي ، وردهم بلا جدوى ،

(١) نسبة الى بلدة حلب بسورية

وتغليطهم في طلبهم ورأوه أنه غير مهتم بما قالوا ويقولون ، يئسوا وكانت إحدى الحسرات ، وتقهقروا من أمامه منكسي الرؤوس (فلما استيأسوا) وظنوا أنهم قد وقعوا في مخالب الشقاء ، كالقابض على الماء ، وعقدوا فيما بينهم مجلس مؤامرة و (خلصوا) أي اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجياً) ذوي نجوى – وهو مصدر بمعنى التناجي - أو فوجاً نجياً أي مناجياً ، لمناجاة بعضهم بعضاً ، كالعشير والسمير ، بمعنى المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقرّبناه نجياً ﴾ (١٩ : ٥٢) ، وأحسن منه ما يمكن أن يقال: إنهم تمخضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، فعلوا ذلك لكي يتفاوضوا في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ، كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، وصاروا ينظرون إلى أفق المستقبل بمنظار حالك ، لا يعلمون ما دبرّ لهم القدر ، من رحمة أو من نقمة ، فاحتاجوا الى التشاور المطلوب شرعاً وعقلاً ، ثم (قال كبيرهم) في السن وهو راوبين ، وقد استشاط غيظه ، وتلظّى تلظياً ، وتضرّم تضرماً ولاحت لهصورة ذلك التشديدوالاحتياط الذي عمله أبوهم معهم ، كما لاحت له صورة يوسف «المظلوم» : إن الأمر لجلل ، وهو أعظم مماتتصورون ، (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) وعاهدتموه وواعدتموه ، والوعد على الحر دين – فقالوا اللهم نعم – قال (ومن قبل ما فرطتم) أي تفريطكم (في) شأن (يوسف ؟) وتهاونتم في أمره ، وقصرتم في الاحتفاظ به ، ولم يَرم واحد منكم من ورائه ، ويناضل كما يجب ، ومما يؤلمني أنه قد شملني عقاب عملكم ، لأنه قد يؤخذ الجار بظلم الجار ، ولعمري لقد تفاقم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع ، وبلغ السيل الزبى ، وان ما سوف يكون أشد هولاً مما كان ، وان في طيات المستقبل ما تتضاءل أمامه حوادث الماضي ، وان الغد سيجيئنا

بأروع مما جاءنا به منذ ٢٢ سنة – قالوا : وما الذي نصنع ؟ وشمعون هو الذي اضطرنا لأخذ يوسف من حضن أبيه، ويهوذا هو الذي حسن لنا إلقاءه في غيابة الجب ، ثم أنت بالأشد ، ويهوذا بالأكثر ، بطلا رواية أخذنا بنيامين من أبيه ، لا زلتما تلحان عليه ولا برحتما تتعهدان له حتى واتاكما ، فيصح أن نقول لك كما ليهوذا : « يداك أوكتا وفوك نفخ » – قال : وما علمي بما سيكون ؟ لعمري لقد سبق السيف العذل – قالوا : وماذا تريد الآن ؟ – قال : أما أنا ، فوالذي بإذنه تقوم الخضراء والغبراء(لن أبرح) لن أفارق (الأرض) الداخلة في مملكة الرعاة ولا فواقاً (حتى يأذن لي أبي) بالبراح ، أو الانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من يميني ، الذي أقسمت له، ويتنازل عن الوعد الذي وعدته إياه – وذلك راوبين كان قال لأبيه : « اقتل ابنيّ إن لم أجيء بـــه اليك ، سلمه بيدي وأنا أرده اليك » (تك ٤٢ : ٣٧) ، (أو يحكم الله لي) بمفارقتها والخروج منها ، أو بتتمة مدة أسر أخي أو بخلاصه من يده بسبب مـــن الأسباب ، أو بموتي في مصر ، فلئن مت غريبــاً في هذه الديار بلا خجالة ولا ذل، خير لي من أن أرجع لفلسطين بالخجل والهوان، (وهو) سبحانه وتعالى (خير الحاكمين) لانه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق ، هذا كل ما أملكه اليوم في مصر ، وكل ما أستطيـع أن أقدمـــه ، أملا في تخفيف ويلات والدي وتخفيف هذا المصاب الذي لي منـه حظ وافر ، سمع إخوته هذا الخطاب فأظلمت الدنيا في عيونهم ، وخيل اليهم كأن المحيط الذي يحيط بهم ، قد صبغ بصبغة الظلام الدامس ، ووقعوا في حيص بيص ، ووقعوا في قريب مما كان وقـع فيه يوسف أيام الجب ، منذ ٢٢ سنة ، وكما تدين تدان :

تحكموا ما استطاعوا في تحكمهم عما قليل كأن الحكم لم يكنِ
لوأنصفوا أنصِفوا، لكن بغوا فبغى عليهم الدهر بالأحزان والمحنِ
فاصبحوا ولسان الحال ينشدهم هذا بذاك ولا عتب على الزمنِ

(فلما استيأسوا منه : خلصوا نجياً ... الخ)

— ٢ —

وقال سيدي علي المسمي[١] :

يأس الإخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم وأقوال أخيهم الأكبر

فرغنا مما كان من أمر الجدل بين يوسف وإخوته ، وتوسلهم اليه ، وعدم إجابته إياهم ، فلنترك ذلك كله ، ولنترك يوسف وهو محظيّ بأخيه في فرح وجذل ، ولنذهب بالقارىء إلى هؤلاء الإخوة العشرة ، وحيرتهم ووقوعهم في الضيق ، الى أن التجأوا الى المفاوضة .

رأوا انه قد حمي الوطيس من جانب « عزيز مصر » فرجعوا الى افاحيصهم متسللين متلاوذين، ومارجعوا الا بخفّي حنين، فتلبدت عليهم غيوم الحادثة، وضاق صدرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ووقعوا في أزمة شديدة ، ورأوا أن هذا الحاكم لا يراغم ، وعلموا أن بقاء أخيهم أمر حتم ، لا بد منه طوعاً أو كرهاً ، فمثلت لهم حراجة الموقف بأجلى مظاهرها ، ورأوا أنهم وقعوا في حيرة ، تتقاذفهم العوامل ، بين رجوعهم لفلسطين بدون بنيامين ، وبين بقائهم بمصر حياء من أبيهم ، وكلا الأمرين شاق ، وصاروا كلما تصوروا مسيرهم لفلسطين هالهم موقفهم أمام أبيهم ، وعظم عليهم الاعتذار ، ولم يكن ذلك الحادث ليهولهم أو يكبر عليهم ، لولا ما سبق من حادثة يوسف ، فبها قد أصبحوا متهمين في نظر أبيهم ، فهذه المسألة هي بمكان من الدقة والخطر ، فلذلك رأوا أنفسهم في حاجة الى التفكير والمفاوضة ، لعلهم يصلون الى رأي أو مشورة ، يكون فيها حل لهذا المشكل ، ومخرج لهم جميعاً ، وتخفيفاً على أبيهم

(١) نسبة الى المسمية من قرى قضاء غزة (فلسطين)

الذي هـــو الآن في قلق واضطراب ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه بنيامين ، وعودتهم جميعاً سالمين ممتارين ، فلذلك انتبذوا جميعاً في ناحية بعيدة عن مجتمع الدهماء وضوضائهم ، متناجين ، وأعملوا فكرتهم ، وفزعوا الى المؤامرة ، فقال أخوهم الأكبر راوبين كما رُوي عن قتادة وهو في الواقع ونفس الأمر كبيرهم على الإطلاق ، لأنه بكر إسرائيل ، وهو ذو البلاء الحسن واليد المشكورة (نوعاً) في آرائـــه في يوسف ، فقد كان له معه ضلع لا ينكر ، وإن كانت المقادير لم تساعده - قال وقد شعر بعظم التبعة التي تحملوها بالأقسام التي أقسموها لأبيهم: « يا إخوتي ، ألم تعلموا أن أباكم إسرائيل قد كان تخوف منكم على ولده بنيامين حتى أخذ عليكم موثقاً من الله في شأنه ،وشأن محافظته ، والرجوع به سالماً؟.. فقد أصبحتم مقيدين بهـــذا الموثق ، وصرتم مرتبطين بذلك ، والشرط أملك عليك أم لك ، ومن قبل ما فرطتم في أمر المحافظة على « يوسف رحمه الله منذ ٢٢ سنة ؟ .. أنا لا أريد أن أزيدكم علماً بذلك ، لأنكم تعرفونه تماماً ، أليس هكذا ؟ » - قالوا : « اللهم نعم ، ولكن إن لم يكن لنا في الواقع اعتذار من حادث يوسف ، فانا نعتذر عن حادث بنيامين بأن أبانا قال : « إلا أن يُحاط بكم » وقد أُحيط بنا ، إذ لا يَدَ لنا مع الحكومة المصرية ، ذات الحول والطول ، ولا طاقة العشرة أنفار أن يعصوا دولة ، ويخرجوا عليهـــا ، خصوصاً ونحن غرباء وفي داخل حدود مملكتهم ، لا سيا وقد أخذوه بوجـــه مشروع ، بعد استفتائهم منا ، وأنت تعلم أننا جميعاً لم نأل جهداً في استبداله بواحد منا ، وأن « عزيز مصر » لم يقبل رجاءنا من هذا القبيل ، وكيف يقال إننا قصرنا ، وكل واحد منا فادى بنفسه ، وقبل التضحية بذاته ، ولكن مساعينا لم تكن الا قبض الريح » فقال راوبين : « أنتم وذاكم ، وأمـــا أنا فقد وطنت نفسي على أن لا أزال مرابطاً في مصر ، بدون أن أتبرم أو أتذمر ، ولن أفارق هذه الأرض ولو جَلَّبَتْ عليّ الحكومة بخيلها ورجلها ، وسأبذل كل مرتخص وغـــال ،

وأجود بالنفس والنفيس ، وأنسى أهلي وأولادي ، في سبيل إقامتي في «صوعن» وعدم رجوعي لكنعان ، حياءً من أبي ، ولأجل مشارفة أخي بنيامين وملاحظته ، وأملاً أن يجد في شأنه ما فيه بارقة أمل ، حتى يأذن لي بالانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من اليمين التي كنت أقسمت له بها عندما أخذنا بنيامين منه بأن أرده له بيدي وأن يتنازل عن الوعد الذي كنت وعدته وإياه بأن يقتل إن لم أجيء ببنيامين اليه ، أو يحكم الله لي بما لا يعلمه سواه ، لأن المستقبل بيده سبحانه وتعالى .

(جيد)

فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً .. الخ

– ٣ –

وقال تقي الدين الدهشوري [١] .

نشكر المحاضر الكريم الأخ المسميّ تفسيره على هذه الآية الكريمة وأرجو أن تعيروني سمعكم للتعليقات التالية عليها :

معنى النجيّ

١ً النجي والنجوى والتناجي مصادر بمعنى المسارّة بالحديث وأصله من النجوى ، وهي المكان المرتفع عما حوله ، بحيث ينفرد من فيه عمن حوله ، أو من النجاة كأنه نجا بسره ممن يحذر اطلاعهم عليهم .

والغالب في التناجي أن يكون خيراً للمتناجين، وشراً لغيرهم، أو مؤذياًلهم ولو من بعض الوجوه ، كأسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بها أهلها نفع أنفسهم ، وضرر غيرهم ، فيكتمون أخبارها ، ويجعلونها نجياً بينهم ، لئلا تصل الى خصومهم ، وعدوهم الذي يضره ما ينفعهم، وينفعه ما يحبط عملهم ، ويبطل

---

(١) نسبة الى دهشور من بلاد السودان .

كيدهم ويشبه ذلك مـا يكون بين التجار وغيرهم من طلاب الكسب ، من التناجي فيما يخافون أن يطلع عليهم غيرهم ، فيسبقهم اليه أو يشاركهم فيه ؛

فالنجوى تكون في الخـير كما علم ، ولكن الأكثر ان تكون في الشر ، أو أنها فيما يعود بالشر على غير المتناجين ، ولذلك كانت النجوى مظنة الإثم والشر، والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر ، هـي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب إظهار الخير والتحدث به في الملأ ، وأن الشر والإثم هو الذي يخفى ، ويذكر في السر والنجوى ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لا َخيرَ في كثيرٍ مِنْ َنجْواهم ، إلا ّمَنْ أمرَ ِبصَدقةٍ ، أو معروفٍ ، أو إصلاحٍ بينَ الناسِ ﴾ (٤ : ١١٣) ، والنجوى ههنا هي من قبيل هذا النوع الثالث ، وهو الاصلاح ، لأنهم يتناجون لما فيه صالح أخيهم بنيامين ، أو لصالحهم جميعـاً فيما بينهم وبين « عزيز مصر » ، أو فيما بينهم وبين أبيهم إذا رجعوا اليه ماذا يقولون له في شأن أخيهم .

مجلس شورى الإخوة

٢ً – لما وقعوا في الأزمة الشديدة عقدوا « مجلس شورى » وقـد أصابوا لأن « يد الله مع الجماعة » و « المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه » و « مـا خاب من استخار ولا ندم من استشار » وقد أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بالشورى، فقال : ﴿ وشاوِرْهم في الأمـر ﴾ (٣ : ١٥٩) ومـدح الصحابة بقوله : ﴿ وأمرُهُم شُورى بينهم ﴾ (٢ : ٣٨) ، وقال بشار بن برد :

إذا بلـغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو مشورة حـازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي رافـداتُ القوادمِ
وما خير كفٍ أمسك الغِلُ أختها ومـا خير سيف لم يؤيد بقائمِ ؟

تعريض راوبين بإخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف سابقاً

٣ - نفهم من قول روابين : (ومن قبل ما فرطتم في يوسف) شيئاً مهماً ، وهو أن راوبين لم يقع منه تفريط في الاحتفاظ بيوسف ، وهو حقيقة راهنة ، أيدها النقل الصريح ، فقد روى لنا التاريخ أن « راوبين » لما سمع كلام إخوته ومؤامرتهم الاولى في شأن يوسف ، منذ ٢٢ سنة . قال « لا نقتله ، لا تسفكوا دماً ، لا تمدوا اليه يداً » وصادف أنهم بعد أن القوه في الجب أن راوبين غاب عن الجب وعن إخوته في بعض شؤونه ، ثم رجع إلى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه فمزق ثيابه ، لأنه لم يكن يعلم أن « السيارة » جاءت فسحبته ، وأصعدته من الجب وسافرت به لمصر ، وكان بعد إلقائه في الجب عازماً على إخراجه منه بحيلة ، ليرده إلى أبيه ، فرجع الى إخوته وقال : « الولد ليس موجوداً في الجب ، وأنا الى أين أذهب ؟ » « فراوبين » كان يعمل في الخفاء ويريد أن يرد يوسف لأبيه فيما بعد ، - هذا ما ذكره التاريخ ، وهو يؤيد ما فهمناه من الكتاب الكريم من أن « راوبين » لم يكن مفرطاً بالاحتفاظ على يوسف ، وإلا لجاز أن يقول له كل واحد من إخوته ، ما قاله « أبو العيناء » لصاحبه ، حينما سأله عن سبب بكوره ، فقال : « أراك تشاركني في الفعل ، وتضروني بالعجب » أو كما قال بعضهم لآخر : « ما جاء بك في هذا المحل المريب » فأجابه : « الذي جاء بك » .

إقرار الإخوة على التفريط بيوسف سابقاً

٤ – وأخيراً فقد لاحظت هنا ملاحظة ، ولا أعلم إذا كان أتيح لغيري أنه لاحظها أم لا ، وهي أن قول روابين : (ومن قبل ما فرطتم في يوسف) هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحد منهم وسكت عليه الباقون ، فيكون الكل قد اعترف صراحة بأنهم أفرطوا في يوسف ، وكان هذا نتيجة

شيء من الخلاف بين الإخوة ، وبعبارة أصح بين راوبين وسواه ، وبذلك صدق قول بعض الحكماء : إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق »

(مرحى)

نتيجة المفاوضة

(٨١) « ارجعُوا الى أَبيكم ، فقولوا : يا أَبانــــا ، إن ابنك سَرَقَ ، ومَا شَهِدْنا الاَّ بِما عَلِمنْا ، ومَا كُنّا للغَيْبِ حافِظِينَ » .

افتتحت الجلست وتليت الآية الحــــادية والثمانون فقام المـــلا محمود السليماني [١] وقال :

يقول « راوبين » هذا ماصحت عزيمتي عليه بالنسبة اليّ ، وأما بالنسبة اليكم يا إخوتي ، فلست أرى إلا عودتكم ، فذلكم أخلص وأوفق لكم (ارجعوا) سراعاً ، واستحثوا عيركم جهد طاقتكم (الى أبيكم) وَيْهــاً ، سيروا لفلسطين وإن يكن هذا الرجوع رجوعا بشرٍ وعَرٍّ [٢] ، رجوعاً بصفة المغبون ، ولكن ما العمل ؟ ارجعوا اليه (فقولوا : يا أبانا ، ان ابنك بنيامين أصلحه الله (سرق) سقاية الملك ، التي يكيل بها الممتارين ، وجدت في عدله فأخذ عبداً ، حسب شريعتنا، وها هو الآن عند « عزيز مصر » (وما شهدنا) عليه أمامك بالسرقة (إلاّ بما علمنا) ظننا بمقتضى ظاهر الحال ، وبمقتضى شريعتنا أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق ظناً (وما كنا للغيب

(١) نسبة الى السليمانية بلدة في العراق .

(٢) المكروه

حافظين) أي وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثوق ، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ؛

نحن اليوم وقعنا في مشكلة لم تكن في حسباننا ، ومـــا كنا لنعلم مـــا يأتي به الغد .

وأعلم علم اليوم والأمس قبله　　ولكنني عن علم ما في غد عمي

ما كنا نعلم أن حادثاً كهذا ينزل فوق رؤوسنا ، وبنوع أخص فوق رأس أخينا بنيامين ، أنت قلت ، وكأنك حفظت لنا خط الرجعة : (إلا أن يحاط بكم ، وقد أحيط بنا ، فلقد غلبنا على أمرنا ؛ ولسنا أكفاء لحكومة مصر أن نقاومها ، وما عسى أن نصنع مع حكومة قاهرة غنية ؟ وقد قيل « إذا تكلم الجاه سقط الصواب ، وإذا نطق المال خرس الحق » على أننا نعترف بأنا رأينا الصواع في عـــدل أخينا رأي العين ، ونحـــن لو كنا نعلم الغيب لاستكثرنا من الخير ، وما مسنا السوء ، سبحانك لا علم لنا إلا مـــا علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

جهل البشر وفهم الأنبياء بالغيب ـــ إقامة الحجة على النصارى بعدم ألوهية المسيح

ملاحظة ـ لقد صدقوا قولهم : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ، لأنهم بشر مخلوقون ، وليس هم فقط ، بل كل بشر مخلوق لا يعلم الغيب ، حتى ولو كان نبياً مرسلاً ، قـــال نوح عليه السلام : ﴿ ولا أعلمُ الغَيْبَ ﴾ (١١ : ٣١) وكذلك قال خاتم الأنبياء : ﴿ ولا أعلمُ الغيب ﴾ (٦ : ٥٠) وقـــال أيضاً ﴿ ولو كنتُ أعلمُ الغَيبَ ، لاستكثرتُ مِنَ الخيرِ ، وما مَسَّني السوءُ ﴾ (٧ : ١٨٧) وقال المسيح عيسى : ﴿ تَعلمُ ما في نفسي ، ولا أعلمُ مـــا في نفسِكَ ﴾ (٥ ، ١١٩) وقال في الإنجيل ﴿ وأما ذلكَ اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بهما أحـــد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن إلا الآب ﴾ (مر

١٣ : ٣٢) وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر ، نقول إذا كان المسيح بمقتضى هذه العبارة لا يعلم متى تقوم الساعة - سواء أكانت الصغرى أم الكبرى - باعترافه هذا ، فكيف يكون هو ديان الخلائق يوم القيامة ؟ وقوله فيها : إن الابن لا يعلمها ، نص على أنه ليس بإله ، فإن قيل لعله يريد « الإنسان يسوع » - قلت : وَلِمَ لمْ يعبر بذلك ، ليكون قوله خالياً من اللبس والتضليل ؟ ، وإذا كان اقنوم الابن متحداً بناسوته كما يقولون . فكيف لم يعلم الناسوت ما يعلم اللاهوت ، وإلاّ فما معنى هذا الاتحاد ؟؟ وجاء أيضاً في إنجيل يوحنا ، أن المسيح عيسى لما أشار عليه إخوته بالذهاب إلى أورشليم ، لأجل العيد ، قال لهم (أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد) (يو ٧ : ٨) ولكن لما مضى إخوته الى العيد ، مضى هو أيضاً بعدهم متخفياً (يو ٧ : ١٠) فعبارته هذه إما انها كذب وغش ، ولذلك ذهب بعدها متخفياً ، وإما أنه ما كان يعلم أنه سيذهب الى العيد (أي جهل وتردد) ، وكلاهما مما يجب أن ينزه الله تعالى عنه ، وإن كان قالها باعتبار الناسوت - وهو الجواب الذي صدّعوا آذننا به - قلت وكيف لم يهده اللاهوت المتحد بـه ، الى البت في عمل صغير كهذا ، وتركه يبدي كل تردد وجهل ؟ وما فائدة اللاهوت إذاً ؟ وفي أي شيء أفاده ؟ ولمَ اتحد به الله ، وهو لم يصلب معه ؟ بل تركه ، ولذلك قال : « إلهي إلهي ، لماذا تركتني ؟ » وَلِمَ يعبد النصارى هذا الناسوت العاجز الجاهل مع اللاهوت ولم يفرقوا بينهما ؟؟!!

شهود الحال على جريمة التسريق

آ (٨٢) « واسْألِ القَرْيَةَ التي كُنّا فيها ، والعِيرَ التي أقْبلنا فيها ، وإنّا لَصَادِقونَ »

تابع الخطيب السابق كلامه على الآية الثانية والثمانين قائلاً :

استمر « راوبين » في مخاطبة إخوته مبيناً لهم مـــا يجدر بهم أن يقولوه لأبيهم (و) إذا أردت يا أبانا أن تتبين حقيقة ما نقول ، وتعلم صحة ما نُقل ، (اسأل بنفسك أو بواسطة أحد عبيدك سكان القرية التي كنا فيها) حيث جرى حديث التسريق والتفتيش – وهي الدسكرة التي لحقهم فيهـــا فتيان العزيز وجرت فيهـــا تلك المحاورة – (و) أيضاً اسأل (العير) أي أصحاب العير والعير هي القافلة من الإبل – (التي أقبلنا) التي رافقناه وكنا مقبلين (فيها) لجهة كنعان ، فذلك يوم مجموع به الناس ، وذلك يوم مشهود ، وهذه « القرية » لقربها لا تحتاج لقطع اعناق الإبل ، إنه ليس بينك وبينها سوى ثلاث مراحل وهذه « العير » من فلسطين من جيرانك ليسوا بعيدين عنك ، وهم كثر ، لا يأخذهم عدّ ولا يتهم واحد منهم بأنه يشهد عن عاطفة أو محاباة لنا ، بل كلهم شهود عـدول ، وبراهين ساطعة ، وعند السؤال يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتظهر لك صحة ما ندعي ، فان هذه الحـــادثة أصبحت من الأخبار المستفيضة المستطيرة المعلومـــة عند هؤلاء الناس أجمعين ، (و) والله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض (إنا لصادقون) وإلاّ فكل واحد منا نَفِيٌ من أرومة إسرائيل ، وقد قيل : « لسان أخرس خير مـــن لسان ناطق بالكذب » فهذه شهادتنا بأنفسنا ، وهذا استشهادنا بالناس المرافقين لنا ، وهذه

أيماننا،وذلك الآن هو كل ما نملك من الدلائل التي نقدر أن نقدمها أمامك ، وما بعدها زيادة لمستزيد .

وأختم كلامي بالمواد التالية :

التحقق من القرية والعير

مادة ١ – طلبوا الى أبيهم إنْ أحبّ أن يسأل القرية والعير ، والغالب أن تلك القرية كهؤلاء العير ليسوا من المؤمنين ، ومع ذلك فإخبارهُم مقبول ، لأنه من قبيل البينة ، لا من قبيل الشهادة ، وقد قال العلماء : « البينة في الشرع أعم من الشهادة » فكل ما يتبين به الحق بينة ، وذلك كالقرائن القطعية ،وعليه فشهادة غير المسلم تدخل في البينة بهذا المعنى ، إذا تبين للإنسان بها الحق ،ومع ذلك فهم يقولون لأبيهم إن هذا الحادث مستفيض ، وعند الاستفاضة لا فرق بين المسلم وغيره وربما كانت أخبار غير المسلم مقبولة والله أعلم .

المراد من القرية اهلها

مادة ٢ – المراد من « القرية » أهلهـــا كما ذكرنا ، فان العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه ومثاله : « والى مدْيَنَ أخاهم شُعيْباً » (٧ : ٨٤)،أي الى أهل مدين ، وكما قال حميد بن ثور :

قصائد تستحلي الرواة نشيدها ويلهو بها من لاعب الحي سامرُ
يَعَضّ عليها الشيخ إبهام كفه وتجري بهـــا أحياؤكم والمقابرُ

أي أهل المقابر ، والعرب تقول : « أكلت قدراً طيبة » أي أكلت ما فيها، وكذلك قول الخاصة : « شربت كأساً »[١] .

(١) فقه اللغة .

حال يعقوب وأسرته آنئذ

مادة ٣ – قضوا في هذه المؤامرة ساعة وبعض الساعة ، وأخيراً وعلى حسب ما قال « كبيرهم » قام الإخوة التسعة ، وأعدوا معـــدات السفر ، ورحلوا قافلين لفسطين .

فوا أسفاه لهذه الحال المحزنة التي صارت اليها أسرة يعقوب عليه السلام : بلاء اكتنفهم ، وشرور تظاهرت عليهم ، ومحن قد أحاطت بهم ، وتفرق بعد اجتماع ، وانتشار بعد انتظام ، فأبوهم هو وأحفاده في فلسطين ، ويوسف في رأيهم – مفقود ، وبنيامين مستعبد عند « عزيز مصر » ، وراوبين بقي في مصر في إحدى فنادقها ، غريباً وحيداً ينتظر الفرج من الله ، واما التسعة الباقون فهم سائرون الآن في الطريق إلى أبيهم ، بين مصر وفلسطين ، في تلك الصحراء القاحلة ، وكلهم في فكرة وقلق .

سبحان الله ! قضى يعقوب عليه السلام زمناً غير قليل من حياته بفلسطين تـعِباً مـن أخيه « عيسو » الجبار ، ثم خوفـاً منه أن يقتله قام للعراق وقضى فيها عشرين سنة وهو يرعى غنم خاله « لابان » ثم قضى برهة من أيام حياتـه مسروراً مغتبطاً بابن هو الزهرة اليانعة في روض أبنائه ، ثم نكبه الدهر فيه نكبة عظمى ، فحزن عليه حزناً شديداً ثم جعل حزنه يخف تدريجياً ، كما تخف احزان جميع الناس بطول المدة ، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنه بنيـــامين أصغر أبنائـــه ليتولى تربيته وإسعاده ، وأصبح بنيامين تعزيته الكبرى بعد شقيقه المفقود ، وهو كذلك ، فما شعر إلا وقد فقده اليوم أيضاً ، وصار عبداً لحـــاكم مصر :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي وسروره يأتيك كالأعيـــاد

تكذيب فصبر فترجي

آ(٨٣) « .... قال : بل سَوَّلتْ لكم أنفسكم أمراً ، فصبرٌ جميلٌ ، عسى اللهُ أَنْ يأْتِيَني بهم جميعاً ، إنّه هو العليمُ الحكيمُ . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثمانون فقام الشيخ خليل من علماء الطائف[1] وقال :

رجع إخوة يوسف إلى أبيهم فقالوا له ما قاله أخوهم « راوبين » فلما سمعه أبوهم ألمّ به من الحزن ما كادت تنقد منه أضالعه ، فقال لهم : « ثم ماذا ؟ أتموا حديثكم - قالوا : هذا كل حديثنا ، وليس عندنا حديث غيره » فما عدا أن يسمع هذا الكلام حتى (قال) « لم أصدق ، ولا أريد أن أصدق» (بل سولت) زينت وسهلت (لكم أنفسكم أمراً) أردتموه ودبرتموه ، وإلاّ فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم له بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوكم » قالو : « ما أخبرناك إلا بالحق » - قال قلت لكم : « إن ابني لا يسرق ، ولن يسرق ، وان حاكم مصر لا يعرف هذا الحكم العبراني الا من فمكم ، ولأمر ما دُبِّر من قبلكم وقبل حاكم مصر أن يحكم على رجل عمل جناية في بلاده بغير شريعة مملكته ، والا فشرف مصر يتطلب الحكم على الجاني فيها بقوانينها لا غير ، (فصبر جميل) على هذا النأي المقدور ، فإن الصابر كالرجل القوي ، لا ينوء به الحمل الثقيل .

– وهنا نرى أن يعقوب عليه السلام نَزَع الى الصبر ريثما يتكرم عليه ربه بلقيا أولاده الثلاثة ، فيفرح فرحاً مثلثاً :

(١) الطائف من مدن الحجاز

كن حليما إذا بليت بغيظ   وصبوراً إذا أتتك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى   كل يوم يلدن فيه عجيبة

(عسى الله أن يأتيني بهم) بالثلاثة (جميعاً) عاجلاً أو آجلا ، فاني أرى ذلك بعين القلب ، ولا أزال أسمع صوت الوعد السماوي يرنّ في أذني ، (إنه هو العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلني بذلك الا لحكمة ومصلحة .

(قال : بل سولت لكم أنفسكم .. الخ)

— ٢

وقال الشيخ الأسيوطي (١) :

حال يعقوب عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين

انصاع أولاد يعقوب لرأي أخيهم الأكبر راوبين ورجعوا أدراجهم الى أبيهم ، وقصوا عليه القصة ، وقد كان ينتظر عودة بنيه بكل فروغ صبر ، مع علمه بطول المسافة التي بين « سيلون » محل إقامته في فلسطين و « صوعن » محل إقامة العزيز بمصر ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وإن قصرت ، وكان بمدة الانتظار مملوءاً من الرجاء والأمل ، وهو كذلك إذ جاءه أبناؤه يحملون له نبأ تلصص بنيامين واستعباده ، فتمعّر وجهه ، وقال في نفسه : كنت في مصيبة فصرت في اثنتين ، ويحكم ! إنه لحوب كبير ، ما هذا الذي تقولون ؟ ...لا.لا.. لم يكن شيء من هذا القبيل ، أنا اليوم مثلي بالأمس وبالغد ، أرتاب في صحة كلامكم ، ولا أصدق ما تخبرون به ، لا أحيد عن ذلك قيد شبر ، بل سولت وزينت لكم أنفسكم أمراً ذا بال ، أمراً ضل عني فهمه ، وعمت علي حقيقته واغمي عليّ واستبهم ، وإن سابق عملكم مع يوسف الفقيد ، يجعلني أقف تجاه أخباركم هذه موقف المرتاب ، أنا لست الآن في معرض التحقيق والبحث ، ولا أتفرغ

(١) نسبة الى بلدة أسيوط بمصر

له ، إنما لا أظن أن « بنيامين » يجرأ على هذا ، إذ يحتمل أنكم أنتم الذين جعلتم « السقاية » في رحله ، كما يحتمل أن حكومة مصر لها في ذلك الحادث شأن من الشؤون ، لا يعلمه الا الله تعالى ، فواحزناه ... يا بنياميناه ... آهِ من أهل الظلم ! أواهِ من الحكام الظلمة ، هل أنت لص خائن يا بنيامين ؟!؟!.. هل أنت متسول ؟!؟!.. حاشا .. ولكن هي أغراض الظالمين ، تسلك الأبرياء في سلك المجرمين ، فصبر جميل على هذا الحادث الذي يفتت له الصخر ، صبر جميل وإن أكن قد ذقت العذاب الوانا ، صبر جميل وإن يكن عنائي وهمي بفراق ثلاثة أولاد سيكون أضعاف عنائي وهمي بفراق ولد واحد :

نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيالِ
رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصالِ
وهان فما أبالي بالرزايا ... لأني ما انتفعت بأن أبالي

آهِ ... أرسلت ابني بنيامين لأزداد حمل بعير ، فنقصت ولداً بل ولدين ، أرسلت ابني بنيامين لكي أخفف ويلي التي أصابتني بالقحط والأزمة مع من أصابت ، فكانت النتيجة أنه استرق ، فكنت بحسب العاقبة كناقش الشوكة بالشوكة ، أو كغاسل الدم بالدم ، أو كمقرور هرب من الديمة ، فصار تحت الميزاب ، أو هرب من الرمضا فتدهور في النار ، ولكن :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني ... صبرت على شيءأمر من الصبرِ
فما مثل مر الصبر صبري وإنما ... صبرت على شيء أحر من الجمرِ
فما أحسن (الصبر الجميل) مع الرضا ... وما قدر المولى على عبده يجري

وإن بطل الدهر هو من كافح المصائب بشجاعة ، وتغلب عليها بالثبات ، والحازم من صبر على مضض الحياة :

كم ساعة أزعجني وقعهـا   وآلمتني يدهـا القاسية
فتشت فيها جاهداً لم أجـد   هنيهة واحدة صـافية
وكم سقتني المر أخت لهـا   فرحت أشكوها الى التالية
فأسلمتني هـذه عنـوة   لساعة اخرى وبي مـا بيه
يا صاحب الساعات أنصت عسى   تنجيك منها الساعة القاضية

ولكن عسى الله أن يأتيني بأولادي الثلاثة ، فان في ذلك لي رجـاء قوياً واملاً كبيراً :

ولربما نثر الجمـان تعمـداً   ليعاد أحسن في النظام واكملا

وإن الشمس تغرب ، فلا تلبث أن تطلع من شرقها ؛ ونرى تراكم السحاب فوقها ، فلا تلبث أن تنفرج عنها ، حينما تهب عليها الرياح الباردة، وإن الأشجار تعرى ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة حينما تهب عليها نسمات الربيـع ، وإن الأحياء ينامون في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري بقرنـه ، قاموا من مراقـدهم ، وهكذا أولادي ، سيؤبون – إن شاء الله – الى وطنهم وحضن أبيهم ، وما ذلك على الله بعزيز . (مرحى)

(قال بل سولت لكم أنفسكم .. الخ)

– ٣ –

وقال العلامة القزويني [١] لي على هذه الآية الكريمة التذييلات التالية :

هاتف من يعقوب

١ – رأيتني في مسقط رأسي « قزوين » في ذلك الحين ، حـين أن سمع

(١) نسبة الى قزوين بلد على بحر قزوين شمال ايران .

يعقوب من أولاده نبأ بنيامين ، وكان لدي « الهاتف اللاسلكي » فأدرت لولب أمواجه الى «سيلون » ثم أصغيت في صوانه ، فسمعت يعقوب عليه السلام يقول:

« ما هذه الكرب التي لا تزال تتعهدني ، كما تتعهد المحموم نوباته ، حيناً بعد حين ؟!.. موت راحيل ، ففقدان يوسف ، فموت إسحاق ، فاسترقاق أصغر الأولاد ، فاحتباس كبيرهم ، فما لحوادث الأيام قد التفت حولي، التفاف المقْطرة بالمقطور ؟!.. وما لعاديات الدهر قد أحاطت بي ، إحاطة الجامعة باليد ، والقيد بالرجل ؟؟..

خليلي لا والله ما الدهر منصفٌ وليس له يوماً علي جميلُ
يقرب مني كل شخص يسوءُني ويبعد عني من اليه أميلُ

« آه .. أواه .. وا أسفاه .. »

سمعت من فم هذا الصفي الكريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف بـه من الملأ الأعلى﴿ ولَنَبْلُونَّكُم حتى نَعْلَمَ المجاهدينَ منكم والصابرينَ، ونَبْلُوَ أخبارَكم ﴾ (٤٧ : ٣١) ، صار كل هذا ، فعجبت في نفسي كيف تسنى لي أن أسمع كلام يعقوب عليه السلام ، وبيني وبينه نحو (٣٧٠٠) سنة شمسية ؟ ثم استغربت من وجود اللاسلكي في ذلك الزمن ، وفيما أنا كذلك تململت وفتحت عينيّ فاذا أنا في حلم ، فذهب عني كل ما كان عندي من تعجب واستغراب .

الإيجاد والحذف في القرآن

٢ - تقدمت الإشارة الى أن في صدر الكلام حذفاً ، تقديره : فرجعوا الى أبيهم فقالوا له ما قاله كبيرهم ، ولهذا نظائر في القرآن كثيرة منها قوله تعالى : (يوسف ، أيّها الصديق) الخ ففيه إيجاز ، والمعنى فأرسلوه الى يوسف ، فأتاه ، فقال يوسف الخ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فأتيا فرعونَ فَقُولا : إنّا رسولُ

ربُّ العالمينَ ، أن أرسلْ معنا بني إسرائيل ، قال : ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦ – ١٨) معناه فأتاه فقال لهما أمره الله، فقال فرعون : ألم نربك الخ ،

استغشاش يعقوب لأولاده في نبأ بنيامين

٣ – لم يصدقهم أبوهم هذه المرة ، مع أنهم – فيما يعتقدون – صادقون فيها ، لأن من عهد عليه الكذب ، لا يصدق ولو تكلم بالصدق، كما أن من عرف بالصدق يصدق في كل شيء ولو كان كاذباً ، فأبوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم ، ولم يكن في هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشاً لهم في المرة الأولى.

كانوا استشهدوا بسؤال القرية والعير ، فلم يأبه لاستشهادهم ، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك لأنه تعود منهم الغدر والكذب واليمين الغموس ، فما صدقهم في هذه مع أنهم كانوا – في تصورهم – صادقين. فما مثلهم الا كمثل حكاية الذئب وراعي الغنم المشهورة .

يعقوب بين الابتسام والانسجام

٤ – لو رأيت يعقوب عليه السلام حينما سمع هذا الخبر المقعد المقيم ، لرأيت منظراً عجيباً ، وخلقاً غريباً ، نعم لو رأيته ، لرأيت في وجه واحد ، ثغراً يبتسم ودمعاً ينسجم، أما الانسجام فلأجل مصيبة ولده بنيامين ، وأما الابتسام فلأنه علم أن الله قد آذن بالفرج ، فإن الكرب إذا اشتد هان .

تشكك يعقوب في حادثتي يوسف وبنيامين

٥ – تقدم أنه نطق بعين الجملة الشريفة (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) حينما أخبر بأن « الذئب » أكل يوسف ، فهو وإن يكن قد ذهبت به الظنون

في شأن ولديه كل مذهب ، إلا أنه كان لا يعتقد أكل الذئب ليوسف، ولا يصدق بسرقة بنيامين على الحقيقة .

صبر يعقوب

٦ – صبر يعقوب عليه السلام في هذه المرة الثانية ، مع أنها مصيبة ملوثة بالعار والدناءة ، فلا تقل عن المصيبة الاولى ، بل ربما كانت أعظم ، وعلى كل فإن أسباب الكرب والكدر فيها ترمي الصبر بالمنجنيق–صبر لأنه من أصحاب المبادىء الثابتة ، ومن ذوي الأخلاق المتينة ، هذا عدا أنه من الأنبياء المرسلين الذين هم سادة المتأدبين ، بما أدبهم به رب العالمين .

موقف يعقوب واحد في حالتي كذب وصدق أولاده

٧ – نرى أن موقف يعقوب مع إخبارات أولاده واحد ، في حالتي كذبهم (آ ١٧) وصدقهم (آ ٨٣) برنامج ثابت ، وضعه لعدم ثقته بهم ، لن تجد له تحويلا ، ولن تجد له تبديلا .

خوف يعقوب من أولاده

٨ – نقرأ في كتاب الله آية ، فنجدها كأنها فصلت ثوباً سابغاً ليعقوب عليه السلام ، وتلك الآية هي قوله تعالى : ﴿ ولنَبْلونكمْ بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ مِنَ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ ، وبَشرِ الصابرين ﴾ (٢ : ١٥٥)، فإنه عليه السلام كان في شيء من الخوف من أولاده بدليل أنه – لا سيما في المرة الاولى – لم يعاقبهم ولم يشدد عليهم ، ولم يجل طويلا في البحث معهم عن يوسف ، وقد كان قبل هذا النوع من الخوف خاف خوفاً شديداً من شقيقه « عيسو » حتى أنه خاف أن يقتله ، وهذا ما كان دعاه للهجرة من الشام للعراق

عند خاله « لابان » ثم قد وقع هو وأسرته في شيء من الجوع ونقص الأموال والثمرات في سني الجدب ، ونقص من أولاده يوسف وبنيامين وراوبين ، ومع ذلك كله فقد صبر صبراً جميلاً .

دمعة على يوسف

آ (٨٤) « وَتَوَلَّىٰ عنهم ، وقالَ : يا أسفَا على يُوسفَ ، وابيضّتْ عيناهُ مِنَ الْحزْنِ ، فَهو كَظِيمٌ »

افتتحت الجلسة وتليت الآيـــة الرابعة والثمانون فقام حيدر افندي الازميري[1] وقال :

كره يعقوب ما جاء به أولاده ، فأعرض (وتولى عنهم) وهو يتعثر في أذياله من شدة الهم ، وقد احتدم احتداماً ، وصفّق كفاً بكف ، وقـــد تفتحت جروحه (وقال) بصوت شجيّ مؤثر (يا أسفا على يوسف) - والأسف أشد الحزن والحسرة ، يقال أَسِفَ كتعب : حزن وتلهف ، فهو أسِفٌ مثل تعبٍ ، والألف بدل من ياء الإضافة ، ـ وانما أسف هنا على يوسف ، مع أن المقام مقام أسف على بنيامين وراوبين ، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً ، لأن أسفه على يوسف كان متمادياً لم ينقطع قط ، فكأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً طرياً ، ولأنه لم يقع حادث عنده موقعه ، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به (و) لازال يبكي حتى (ابيضت عيناه) أي مقلتا عينيه (من) كثرة البكاء الناجم عن (الحزن) ، لأن الاستعبار إذا كثر محقت العبرة سواد العين وقلبته

(١) نسبة الى ازمير من بلاد الاتراك .

الى بياض كدر ، ولا بد أنه عليه السلام كان يدرك رؤيــة الأشياء إدراكاً ضعيفاً ، لأن العمى لا يجوز على أنبياء الله ، لأنه من الداآت المنفرة للطبيعة ؛ وجاز له أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الانسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره (فهو كظيم مملوء من الغيظ لأجل أولاده ، ولا يظهر ما يسؤهم)ـ وفعيل بمعنى مفعول بدليل قوله ﴿ وهو كظيم﴾ من كظم السقاءَ : إذا شده على ملئه ، والكظَم (بفتح الظاء) مخرج النفس ، يقال : أخذ بأكظامه .

(وتولى عنهم ، وقال يا أسفا .. الخ)

- ٢ -

ثم تابع المحاضر قائلا :

تجدد حزن يعقوب

كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته ، ومرجع آماله ، وزهرة أعماله وتعزيته في شيخوخته ، ووارث علمه ، ومجدد مجده ، وأنه هو الذي تمثلت فيه ملامحه ، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه ، ولذلك لم ينسه ولن ينساه فعندما سمــع نبأ بنيامين ، تذكر ولده يوسف فتولى عن أولاده وخلا بنفسه ، فصارت الهواجس تتقاذفه ، والأفكار تخنقه وقد جرت عادته أن يتعزى عـــن يوسف ببنيامين ، ولكن اليوم لم يجد ما يتعزى بــه عنه ، فاندفع الى ذكراه ، وقال : « يا أسفا على يوسف ! فقد كان تعزيتي عن كل شيء ، وكان زينة أولادي،وبيت قصيدهم » فصعد الزفرات ، وأسال العبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق العينين فانسكب دمعها قطرات يسابق بعضها بعضاً، وبالنتيجة ابيضت عيناهمن الحزن الصامت ، ولكن بدون أن يجني ذلك البياض على نظره ، وأشد الحزن

ما يبكي الرجال ، وكان حينا يبكي لا يدري ، أيبكي يوسف . أم يبكي بنيامين ، أم يبكي راوبين .. أم يبكي شخصه الذي أصيب بهـذه المصائب .. أم يبكي تشويش حال أسرته وتشتتها .. أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر .. الى آخر الأحوال المحزنة الأليمة التي صبت فوق رأسه ، عليه الصلاة والسلام ؟!!

وههنا رب سائل يسأل ويقول: كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبراً جميلاً ؟ .. والذي يفهم من كلام بعض الشعراء أن البكاء ينافي الصبر الجميل ، قال البحتري :

إن الفراق كما علمت فخلني　　ومدامعاً تَسَع الفراق وتفضُلُ
إن لا يكن صبر جميل فالهوى　　نشوان يحمل فيه مالا يحملُ

وقال كثير :

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا　　فقلت : البـكا أشفى إذاً لغليلي

وقال أبو الفراس الحمداني :

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا　　أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر

وقال المتنبي :

يأبى الشجاع وصبره متواتر　:　يبكي ومن شر السلاح الأدمع
وإذا حصلت من السلاح على البكا　:　فحشاك رعت به وخدع تقرع

قلت في جوابه : ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيات الصبر الجميل ، كما تشير اليه هذه الأشعار ، ولكن الذي نص عليه علماء التفسير ، وفي مقدمتهم ابن جرير أن الصبر الجميل هو الذي ليس فيه جزع ولا شكوى ، ومعناه لا شكوى ، أو كما جاء في الحديث المرفوع هو الذي لا شكوى فيه ، ومعناه لا شكوى فيه الى الخلق ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني الى الله ﴾ ، وعلى كل فهذا المعنى يصدق بما إذا كان فيه بكاء ولو كثيراً ، ومجرد البكاء ولو كثيراً ، لا يسمى جزعاً ،

إنما الجزع ما يقع من الصياح والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ، فهذا النبي ﷺ ، كان سيد الصابرين الصبر الجميل ، مع أنه بكى يوم وفاة ولده إبراهيم وقال : (إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ، وإنا بفراقك لمحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا) وعنه ﷺ : (أنه بكي على ولد بعض بنيه وهو يجود بنفسه ، فقيل يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ، فقال: ما نهيتكم عن البكاء ، وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين ، صوت عند الفرح وصوت عند الترح) ، وعن الحسن : (انه بكى على ولده أو غيره ، فقيل له في ذلك ، فقال ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب) قال الشاعر :

إن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

وأما ما يفهمه شعر هؤلاء الأدباء من المنافاة بين الصبر ومطلق البكاء ، فهو من باب المبالغات الشعرية ، وأيضاً فليس كلام الادباء بحجة في اللغة ، وإنما الحجة الحديث الشريف الذي فسر الصبر الجميل بأنه الذي لا شكوى فيه الى الخلق (فهو كظيم) حيث صار ذا حرقة كامنة تعتلج في صدره، ولا تجد لها متنفساً، وقد احتفظ بسكوته وهدوئه، فلزم خيمته يقاسي من داء قلبه وداء عينيه مالا يطيق مثله الا مثله ، وفي الختام نعلم من هذه السورة الشريفة أن حياة يعقوب عليه السلام كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة المثال في التاريخ .

(جيد جيد)

وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف .. الخ

- ٣ -

وقال الطبيب هبة الله الدمشقي :

أخلاق يعقوب والنبين عليهم السلام

كره يعقوب ما جاء به أولاده ، فبرم بهم وتركهم ، أو أنه تغفلهم فأعرض

عنهم وابتعد منهم ، لأنه يريد أن يطلق عنانه في التأسف والتحسر ،ويوغل في البكاء بحرارة،لأنه جرب فرآى أنهإذا أراد أنيذكر يوسف أمامهم،فسرعان ما يسمع منهم الانتقاد ، أو لأنه أحب أن يخفي عنهم ألمه ، الذي عجزت مُنّته عن احتماله ، وأن يحمل ثقل ذلك على عاتقه دون أن يكدر صفاء من حوله،ولو أنهم هم لا يهمهم أن يكدروه ، فلم يظهر لهم شيئاً من ذلك، ولم يظهر مايسوؤهم، رغماً عن أنهم أساؤوه ، شأن كل كريم ، لا سيما النبيين ، لا يظهرون انقباض نفوسهم ، ولا يحملون الناس شيئاً من اكتئآبهم ، ولا يفرقون على الناس همومهم لئلا يحزنوا بذلك قلوبهم ، لأنهم همالذين يأمرون الناس بأن يقدموا للناس ما فيه مسرات الحياة ، وترويح النفوس ، وينهونهم عن انقباض النفس وابتسار (١) الوجه أمام غيرهم ، لئلا يكدروا صفاءهم ، لأنه أما يكفي أن لا يستطيع الإنسان أن يسعدأخاه ، فاذا لم يفعل ، فعلى الأقل يجب أن لا يشقيه ، وهذا خلق عظيم من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي لنا التخلق بها، فحبذا لو كان كل منا يحافظ على أن لا يقطع على أخيه مسرته ، بل يزيد سعادته وغبطته ، ولا يظهر عبوسه وبسوره (٢) بل بشره وفرحه ، وذلك إنما يكون إذا تلقى محن الدهر بصدر واسع ، وخلق وادع ، وصبر جميل ، كما هو حال يعقوب عليه السلام .

لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن

بحادثة بنيامين ذكر يوسف الفقيد التائه عنه ، فحن اليه ، حنين الناقة الى فصيلها ، واحزنه أنه لما يسمع له بخبر ، ولم يقف على أثر ، منذ سنة ، فلم يجد له بداً - إذ هاجه الوجد - أن يلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد ، الذي يفزع اليه جميع البائسين والمحزونين ، وهو الأسف والشكوى الى الله بالجنان ، ولكن في خلوته بعيداً عن كل إنسان ، واختص يوسف بالأسف ، لأنه تصور في نفسه

(١) الابتسار العبوس. (٢) البسور الكلوح .

أن « راوبين » حين حبس نفسه في مصر كان عمره نحو ٦٠ سنة تقريباً ، وهما على كل حال كبيران في السن ، ومكان وجودهما معلوم متعين بخلاف يوسف في ذلك كله ، فإنه كان حين فقد صغيراً ابن ١٧ سنة ، ولا يعلم أين مأواه ، فهو الحقيق بالأسف .

وأخيراً نقول : ماذا تظن يعقوب عليه السلام في ذلك اليوم العصيب ، يوم ما سمع بأن ولده « بنيامين » سَرَقَ واستُرِقّ عبداً في بلاد غريبة ، وعند ذلك تذكر ابنه يوسف ، وزاد على هذا وهذا انحباس ابنه « راوبين » ؟ .. هل تظن أنه كان ساكن القلب مطمئن البال ؟ .. وهل ذاق جفناه الكرى بعد هذه الحوادث الأليمة ؟ .. كلا .. لا نخاله قضى يومه ذلك ، وليلته تلك ، الا مضطرباً قد هاجه الأسف ، وأطلق لنفسه عنان البكاء .. وذرف الدموع السخية لهول ما عراه ، ليس من مصاب واحد ، بل من تلك المصائب الثلاث . قال أبو العلاء المعري :

قضى الله أن الآدمي معذب الى أن يقول العالمون به قضى
فهنىء ولاةَ الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى
أصبت

وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف .. الخ

— ٤ —

وقال الفضيل الشبراوي [1] :

أعلق على هذه الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

تكرار أسف يعقوب على ابنه يوسف

١ً — كأني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، عندما ثارت عواطف نفسه ثورة

(١) نسبة الى شبرا بمصر

عظيمة ، وتولى عن بنيه وهو خاثر النفس ، وقد تزاحمت الهموم في مخيلته ، وأكثرها بروزاً غياب يوسف - كأني به قال : « يا أسفا على ذاك الشباب الغض ، على غصنه الباسق النضير ، وا أسفا على تلك النبتة الرقيقة التي كانت تعيش بجانب دوحتها ، يفيء عليها ظلها ، ويفيض عليها نسيمها ، فهصرت وقطعت ، فاذا النبتة ذابلة ، وإذا الدوحة ثكلى حزينة !

أواه .. هاه هاه ..

يا من يعز علينا أن نفارقهم　　وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

لقد انحطت عليّ المصائب ، تعمل مطارقها على رأسي ، وسهامها في قلبي ، فلي الله ، من آسف حزين ، لي الله ، من فاقد فلذة كبده ، لي الله ، من فاقد أولاده الثلاثة ، أكبرهم وأصغرهم وأحبهم :

متى يستريح القلب والقلب متعب　　ببينٍ على بينٍ وهجر على هجرٍ ؟

وهكذا تكدر وتمرمر في داخله ، حتى قهره الأسف ، وأنهكه البؤس ، وانقلب شوقه حزناً (وابيضت عيناه من الحزن) .

الحاجة التي في نفس يعقوب

٢ـ سمعت من عالم من علماء « دمنهور » عاصمة البحيرة في الديار المصرية أنه رآى مناماً سمع فيه يعقوب يقول : « يا أسفا على يوسف ، وكيف لا أتأسف عليه وقد خرج من عندي بارادتي لا قهراً ، وأسلمته لأعدائه برضاً مني لا جبراً ، وقد كان بوسعي ملافاة ذلك الأمر قبل وقوعه ، بمنع إرساله مع إخوته ، أني كنت أحذره منهم ، فكان يجب أن أحذر نفسي أيضاً ، وعلى الأقل كان يجب أخذ الحيطة باتخاذ العهود والمواثيق على إخوته ، حتى إذا غدروا به ، لم أحسب نفسي قد قصرت في أسباب سلامته » - قال : فقلت له : يا سيدي هل هذا هو

« الحاجة » التي كنت قضيتها لبنيامين دون يوسف ؟ » – فأشار برأيه : « أي نعم » فأدركت عندئذ الحاجة الواردة في قوله : (الاحاجة في نفس يعقوب قضاها) .

إنما الصبر عند الصدمة الأولى

٣ً – إذا قلتَ لم ذكرت يوسف في مقام ذكر بنيامين قلتُ : جرت العادة أن المصيبة تظهر عند وقوعها عظيمة في عيني صاحبها ، وعلى ذلك جاء الحديث الشريف ، (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) ، فاذا طال صبره عليها وطال أمدها تصاغرت ، حتى ربما تكاد تزول ، ولكن متى تجدد له مصيبة أخرى ، تجددت ذكرى المصيبة الأولى ، وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام ، فإنه كان استعظم أشجانه بالنسبة ليوسف ، ثم سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم لما نزلت به المصيبة الجديدة ، تجددت ذكرى مصيبته فهاجت بلابله ، وتولى عنهم ، لكي يخلو بنفسه ، ويطلق لها العنان ، في البكاء والتصورات ، ولأنه رآهم كالحشوية يقولون مالا يعقل وينقلون ما لا يصح أن ينقل .

وكأني به عندما انعزل عنهم جانباً لاحت له صورة يوسف حبيبه الأول ، فأخذ منه الذهول كل مأخذه ، وارتفعت حرارة شوقه الى درجة عظيمة فقال : يا أسفا على يوسف . . .

جرح على جرح

٤ً – أخذه المقيم المقعد عندما أخبروه بنبأ سرقة ولده الأصغر « بنيامين » واسترقاقه ، واحتباس ابنه الكبير « راوبين » بمصر فتولى عنهم ، وكأني به قال « زعموا منذ ٢١ سنة أن يوسف أكله الذئب ، واليوم يقولون : « إن ابنك سرق » وهذاهو الجرح الثاني ، مع ان الاول لم يندمل بعد ، وكما ليس للأيام بدل ، فليس

للنفس خلف ، ولا للدين عوض ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ومع هذا فإن لي أملاً بحياة الأول ، ورجاء بقوة دين الثاني وكل ما قالوه لي سابقاً ولاحقاً لم يكن».

وجوه أسف وحزن يعقوب على يوسف

٥ – قال : (يا أسفا على يوسف) مع أنه كان يثق بحياته ، وأنه سيكون له شأن ذو بال ، ولكنه أسف وحزن عليه لوجوه أولها : لأنه خرج من عنده بإرادته ولم يأخذ الحيطة باتخاذ المواثيق والعهود على إخوته لحفظه ، حتى إذا ما أخلفوا لم يجد نفسه قد قصر في أسباب سلامته .. وثانيها: لفرقته له وطول العهد به ،وثالثها: لأنه تذكره بسبب حادثة أخيه ، والأسى يبعث الأسى ، رابعها لما كان سمعه قديماً عنه من أولاده أن الذئب افترسه ، لأنه وإن كان لم يصدق ولن يصدق بصحة هذا الخبر ، لكن جرت العادة أن أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك لها أثراً في النفس ، حتى ولو كانت كاذبة ، بل ولو كان السامع لا يعتقد صحتها .

المراد من العين في قوله « « وابيضّت عيناه »

٦ – تعليقاً على قوله : (وابيضت عيناه) نعلم من فن الطب أن القسم الظاهر من مقلة العين مؤلف من الأمام والمركز ، من طبقة شفافة تسمى « القرنية » وفي وسطها دائرة مفرغة تسمى « الحدقة » ومن وراء الطبقة القرنية والحدقة ، طبقة أخرى تحيط بالحدقة ذات لون أسمر أو بني أو رمادي أو أزرق أو عسلي أو أخضر ، تسمى « بالقزحية » وهي التي تعطي العين الصفة المميزة لها ، ومن حول القرنية يأتي بياض العين الذي يؤلف القسم الأكبر من مقلة العين في قوله (وابيضت عيناه)

هو القسم المركزي الملون من العين ، أي أنه عبر بلفظ الكل وأراد بـــه الجزء وأمثال هذا التعبير كثير في اللغة .

معنى الكظيم

٧ – تعليقاً على قوله : (فهو كظيم) يقال : كظمه الغيظ والغم : أخـــذ بنَفَسه ، فهو مكظوم وكظيم ، ومنه ﴿ إذ نادى رَبّه وهو مكظوم ﴾ (٦٨ : أي مملوء غيظاً ، ومن كظم السقاء إذا ملأه ، و ﴿ ظلّ وجهُهُ مُسْوداً وهـــو كظيم ﴾ (١٦ : ٥٨) أي مملوء حنقاً على المرأة ، والكظيم المكروب ، والكظيمة المزادة أي الراوية ؛ فالمكظوم والكظيم : المملوء من الأحزان الساكت عليهـا لا يظهرها لأحد ، كالإناء المملوء ماء الذي لا مُتَنَفّس له ، ويقال كظمت الغيظ وعلى الغيظ فأنا كاظم إذا أمسكت على ما في نفسك على صفح أو غيظ ، ومنه : ﴿ والكاظِمينَ الغَيظَ ﴾ (٣ : ١٣٤) ، وكظم القربة إذا ملأها وشد فاها ، وكظم البعيرُ إذا لم يجتر . ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً . وكَظَم الباب : سده ، وعلى هذا فيجوز تفسير « كظيم » بكاظم ، مثل « حصير » في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا جهنمَ للكافرين حصيراً ﴾ (١٧ : ٨) أي حاصرة لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ (٢٥ : ٥٥) أي مظاهراً ، وكظام القربة هو الخيط الذي يشد به فمها ، والغيظ يحمل الإنسان على أفعال وأقوال لا تليق به ، فشبه مانع نفسه منهـــا بمن كظم القربة أي منعها أن يخرج منها الماء ، وفي الحديث : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً » وعن عائشة أن خادماً لها غاظها ، فقالت : « لله در التقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاء » .

مقابلة بين حزن يعقوب وحزن إرميا

٨ – هذه هي الكلمـة الفذة (يا أسفا) التي نَفّس بها يعقوب عن نفسه ،

ولم ينطق قط بسواها ، ولعمري لو كان « إرميا » النبي صاحب المراثي الشجية محل يعقوب ، لملأ الأرض صراخاً وعويلاً ، ونثر من الأشعار ما يفتت الأكباد، ولكن سبحان من رفع بعض النبيين على بعض درجات ، وجعل لكل واحد منهم مزية امتاز بها دون عداه ، ومع ذلك فربما يقال إن يعقوب كان يندب شخصاً واحداً ويبكي خيمة واحدة خلت من صاحبها ، ولكن « إرميا » كان يندب شعباً ، ويبكي إقليماً خلا من ساكنيه .

سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف

٩ - أسف يعقوب على يوسف ، لأن كل إنسان يحب أن يحيا حياة طويلة طيبة ، ولا يتسنى له ذلك إلا بواسطة أولاده وأحفاده الطيبين وأن الخوف من الموت غريزة كل منا ، وذلك الخوف ليس هو من الموت الطبيعي بقدر الخوف من انطفاء الذكر بعد الموت ، فالرجل الذي لا يكون له أولاد ، فحياته تنتهي بانطفاء شعلته ، أما صاحب الأولاد فإنه يعيش عيشة ثانية بأولاده ، ثم بأولاد أولاده ، وهكذا يظل مشعاله موقداً ، ينتقل من جيل إلى جيل ؛

والرجل الصالح « كيعقوب » يجب أن يكون ذكره بعد موت شخصه حسناً ويجب أن يحيا في نسله حياة حسنة ، وهذا لا يكون إلا بواسطة نسل صالح ، وذلك الصلاح مأمول له أن يكون في يوسف ، كما كان قال له :(وكذلك يجتبيك ربك ..) الخ فلذلك نادى بأسفه على موضع آماله ومرمى رجائه .

الرسل بشر يعتريهم ما يعتري البشر

١٠ - نتعلم مما حدث ليعقوب بسبب حادثتي ولديه ، أن الرسل بشر ، يعتريهم ما يعتري سواهم من الناس ، وليس لهم من تدبير الكون شيء ، وإنما هم مُعَلِّمون ، وأسوة حسنة فيما يُعَلِّمون ، قال تعالى خطاباً لنبيه الأعظم :

﴿ ليسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ ﴾ (٣ : ١٢٨) وقال تعالى: ﴿ قُلْ إنَّ الأمرَ كُلَّه لله ﴾ (٣ : ١٥٤) فهذا يعقوب أصيب في ولديه بما نعلم ، وهذا النبي ﷺ كُسِرت رَباعيته في غزوة أُحُد ، وشج وجهه في الحفرة ، حتى وقعت الهزيمة على أتباعه المسلمين ، وفي هذه الغزوة ، وهو قائدها ، فأي نصيب من الدين الإسلامي للذين يجعلون أمر العباد وتدبير شؤون الكون لطائفة من أصحاب القبور أو الأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء ، فيزعمون أن بيدهم النصر والخذلان ، والإسعاد والإشقاء ، والغنى والفقر ، وأنهم يفعلون كما يشاؤون ؟؟ فهل يعد هؤلاء من أهل السنة والجماعة : هل يعدون من أتباع طريقة القرآن ، حقاً إن تلك المزاعم هي من النزعات الوثنية ؛ نجانا الله وإياكم منها.

لفظة (يا أسفا) مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن

١١ كلمة (يا أسفا) لم تنزل في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع ، فكأن الله تعالى جعل هذه اللفظة في كتابه مسجلة على اسم يعقوب ، وأنه لولا يعقوب وأسفه ، لم تنزل هذه الكلمة من السماء في كتاب الله تعالى .

التجانس بين لفظتي الأسف ويوسف

١٢ – التجانس بين لفظتي « الأسف » و « يوسف » مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيه فيملح ويبدع ، ونحوه : ﴿ إثّاقلتُم إلى الأرض ، أرَضِيتُم ﴾ . (٩ : ٣٩) ﴿ وهم يَنْهَوْن عنه ويَنْأَوْنَ ﴾ (٦ : ٢٦) ، ﴿ يحْسَبُون أنّهم يُحْسِنون ﴾ (١٨ : ١٠٥) ، ﴿ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ (٢٧ : ٢٢) ، (كشاف) .

الرد على من يقول إن حب يعقوب لابنه يوسف لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله

١٣ - ههنا يتساءل بعض المغفلين المتفلسفين ويقول : إن عناية يعقوب بيوسف ، وحبه إياه لهذه الدرجة ، لا يليق الا بمن كان غافلاً عن الله ، وحبه لمولاه ، الذي يملأ القلب ، فلا يكون فيه متسع لسواه ، فإن من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لشيء عداه » ؟

وعندنا إن هذا الكلام مدخول ، مزين الظاهر ، فاسد الباطن ، غير منطبق على عقل أو شريعة ، وهو مخالف لروح الاجتماع وطبيعة الكون ؛ كيف لا .. وقد أرشد الله عباده المؤمنين إلى العناية بكل شيء ، حتى بالدريهمات ، فأنزل بها في آية الدين نحو مائتي كلمة (٢ : ٢٨٢ - ٢٨٣) وإنا نجد في الكتاب الكريم أن الله تعالى عُنِيَ بكل شيء ، حتى بالزيتون ، فامتنّ به في كتابه ثلاث مرات وبالرّمان ، فامتنّ به ثلاثاً أيضاً ، وبالنخيل ، فذكره في كتابه ممتناً به على عباده اثنتي عشرة مرة ، وبالعنب ، فذكره في كتابه عشر مرات ، وبالخل ، فامتن به على عباده حيث قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ منه سَكَراً ﴾ (١٦ : ٦٧) على أنا نجد في كتاب الله الكريم عناية الله وامتنانه على عباده بالحمير (١٦ : ٨) وبالقَضْب ، وهو الكلا اليابس (٨٠ : ٢٨) ، وبالأبّ ، وهو الكلأ الأخضر ، (٨٠ : ٣١) وقد أقسم الله تعالى بجميع ما في هذا الكون من مخلوقاته ، أي بجميع مواليد العالم كله ، فقال : ﴿ ووالدٍ وما ولَدَ ﴾ (٩٠ . ٢) فإذا كان الله العظيم ، وهو الله العظيم ، يُعنى بهذه الأشياء ، ويهتم لها ، ويمتن على عباده بها . أفلا يحق ليعقوب عليه السلام ، أن يُعنى بفلذة كبده ، ويهتم لمحط آماله ، ويحب ولده يوسف حباً جماً ؟...

(مرحى)

(وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف .. الخ)

-٥-

وقال ابن الدقيق الهندي :

ابيضاض العين امتلاؤهما بالدمع من أثر الحزن

السلام عليكم أيها السادة :

ما ترك إخواني الأربعة الأوائل ، كلمة لهذا الحقير القائل :

جزى الله خيراً قومنا وجدودنا ... فقد مهدوا سبلاً لنا ومسالكا
سلكنا بها عفواً بدون مشقة ... ولولاهم الساري لأصبح هالكا

غير أني أستميحكم أن أتكلم على قوله تعالى : ﴿ وابيضت عيناه من الحزن﴾ فبعد إذنكم أقول :

يخيل لي أن معنى « ابيضت عيناه من الحزن » : امتلأت عيناه من أثر الحزن وهو الدمع ، أو امتلأت عيناه دمعاً من أجل الحزن ،

وبيان ذلك أن الابيضاض يطلق على الامتلاء والتفريغ ، ضِـدّ ، قال في الأساس : « وبيّض الإناء : ملاه وفرّغه ، وعن بعض العرب : ما بقي لهم صَمِيل إلا بُيِّض : أي سقاء يابس إلا مُلِىء » ، وقال في القاموس : « بيّضه : ملاه وفرّغه ، ضد » ، والأبيض الماء ، وعليه فعندنا أن المعنى ههنا : إن عينيه امتلأتا من أثر الحزن ، حيث فاض حزنه من قلبه لعينيه ، أو إن عينيه صارتا تمتلآن من أجل الحزن دموعاً وترسلانها على خديه ، فعبارة الأساس تصحح المعنى الذي قلناه ، فما بقي علينا إلا أن نستدل على أنه المراد دون غيره مما قالوه ، ولنا على ذلك دليلان : نقلي ، وعملي فأما النقلي : فيعقوب نبيّ ورسول ، والأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة للطبيعة ، ولا ريب أن العمى نوع من

تلك الأنواع المنفرة ، وأيضاً فحمله على العمى أو على مرض بياض العين ،لنا فيه قول أولاده له : (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً) أي مريضاً أو فاسد الجسم ، فظاهره أنه وقت ما كلموه بهذا القول ، لم يكن فيه نوع من أنواع المرض ، وليس فيه شيء من الفساد ، في بدنه أو عينيه ، فكلمة أولاده هذه تؤيد المعنى الذي حملنا عليه الابيضاض ، وتدفع المعنى الذي قاله المفسرون.

وأما الدليل العلمي : فإن الفن يمنع أن يكون الحزن أو البكاء، سبباً في بياض العين ، بالمعنى المشهور الذي مشى عليه الجمهور .

وبهذه المناسبة - والحديث ذو شجون- أتذكر حادثتين حدثتا لي مع بعض الطلبة : الأولى : قال لي بعض طلاب العلم : لماذا لا نقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأشْرِبوا في قُلوبهم العجْلَ ﴾ (٢ : ٩٣) ، أن المعنى : أنهم أشربوا نفْسَ العجل ، الذي حرّقه موسى وذراه ونسفه في اليم ، وهو النيل ، وهم كانوا يشربون من النيل ، فصدق عليهم أنهم أشربوه ؟ فقلت له : وماذا تفعل في كلمة (قلوبهم) فإن الشرب يكون في البطون دون القلوب !!

الثانية – وهي أكثر مناسبة لموضوعنا ، أنني سمعت من بعض الطلبة ينقل عن المفسرين أن يعقوب عمي أو حصل له مرض في عينيه ، يسمى «بياض العين» فقلت له : وماذا نصنع في كلمة « من الحزن » فإنه لا شيء من العمى ومن بياض العين ينشأ عن الحزن ، فما وسعه إلا السكوت .

فابيضاض العين يا سادة هنا ، هو من قبيل ما يسميه علماء البلاغة « التورية» وهي أن يطلق لفظ له معنيان ، قريب وبعيد ، ويراد البعيد لقرينة ، والقرينة ههنا على إرادة المعنى البعيد ، كونه فيما سبق قد أخذ على عاتقه « الصبر الجميل» الذي لا ينافي امتلاء العين بالدمع ، فإنه سبحانه وتعالى (أضحك وأبكى) ، (٤٣:٥٣) فالعبرة لا يملكها ابن آدم ، ولا تَسَبُّبَ له فيها ، فلا يؤاخذ عليها،

فلا تنافي « الصبر الجميل ، ولكن ينافيه البكاء الكثير جــداً ، بحيث ينشأ عنه العمى .

تفسير ابيضاض العينين بمعناه المجازى

وأخيراً يا سادتي يمكن أن يقال إن ابيضاض العينين ههنا ليس بالمعنى الحقيقي بل بمعناه المجازى ، وهذا نظير ابيضاض الوجوه واسودادها ، المذكور في نحو قوله تعالى ﴿ يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ ﴾ (٣ : ١٠٦) وقوله : ﴿ ويومَ القيامةِ ترى الذين كذَبوا على اللهِ وُجوههم مُسْوَدَّةٌ ﴾ (٣٩ : ٦٠) وعلى هذا النحو ما روي (إن المؤمنين يحشرون غراً محجلين، من آثار الوضوء) فهل تحمل هذه الأقوال على المعنى الحقيقي ، بحيث يكون المؤمنون يوم القيمة في وجوههم بياض ، وفي سوقهم بياض، مخالفاً لباقي أجسامهم!..كلا . فإنهم يكونون هزواً وضحكة للعالمين ، وهل يكون أهل النار ، بيض الأجسام ماعدا وجوههم ، فإنها ستكون سوداء ؟ ... كلا .. ولكن البيــاض والسواد ، في أمثال هذه النقول ، من باب الكناية عن المسرة والغم ؛ حتى قال العرب لمن لم يتدنس بمعاب : « هو أبيض الوجه » وقال شاعرهم : فتعجبوا لسواد وجــه الكاذب ، والعرب اليوم يقولون : « بيض الله وجه فلان، وسود الله وجه فلان» وبالله عليكم ، ماذا يقول هؤلاء الناس الجامدون ، في قوله تعالى : ﴿ وإذا بُشّرَ أحدُهم بالأنثى ظل وجهُهُ مُسودّاً ﴾ (١٦ : ٥٨) ، فهل يحملونه على الحقيقة ويقولون : إن الرجل العربي ، كان إذا بشر بولادة امرأته بنتاً ، ينصبغ وجهه بلون السواد ، كأنما انقلب زنجياً بعد ما كان أبيض ؟.. حاشا أن أحداً يفهم هذا المعنى ،فاحمل اللفظ في كل موضع على المعنى المناسب،ولا تكن من الجامدين.

كاتب سر المؤتمر : نشرنا هذه الكلمة التي ألقاها الأستاذ ابن الدقيق الهندي على مسؤولية قائلها وحده .

إشفاق ونصح

آ(٨٥) « قالوا : تاللهِ تَفتَأُ تذكُرُ يُوسُفَ ، حتى تكونَ حِرَضاً أوْ تكونَ مِنَ الهالِكينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والثمانون ، فقام سعد الدين البرقاوي[1] وقال :

سبق أن يعقوب عليه السلام كان انسحب من ميدان المناقشة مع أولاده ، وتركهم وانحاز وحده وما أن انقضت مدة إلا وقد رجعوا لمناقشته والملاحظة عليه ، (قالوا) مؤنبين له : قد مات الميت فليحي الحي ، ونحن لم يبق لنا صبر على السكوت عن هذا البكاء وهذه التأسفات ، قد أصبح يوسف شغلك الشاغل (وتالله) رب إبراهيم وإسحق - وهذه التاء في تالله حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قوله : «ياأسفا على يوسف» - (لا تفتأ) لا تزال - وحذف حرف النفي ، لأنه لا يلتبس بالإثبات ، لأنه لو كان إثباتا ، لم يكن خالياً من اللام والنون ، ونحوه : « فقلت يمين الله أبرح قاعداً » - (تذكر يوسف) بياض نهارك وسواد ليلك ، في اضطراب وهياج وحزن وبكاء ، ولا تبرح تضرب على هذا الوتر المحزن (حتى تكون حَرَضاً) مشفياً على الهلاك مرضاً ، - وأحرضه المرض ، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه مصدر ، والصفة حِرِضٌ « بكسر الراء » ، ونحوهما دَنَف ودَنِفٌ ، وجاءت القراءة بهما جميعاً ، قال في فقه اللغة : « الحِرض بالكسر هو الذي لا حيٌ فيرجى ولا ميت فينسى » - (أو) أي بل وأكثر

(١) نسبة الى برقة من بلاد المغرب العربي .

من الحَـرَض بأن (تكون من الهالكين) فإن ذلك عاقبة الأحزان ، والحال الذي أنت عليه يذيب الشحم ، ويَعرُق العظم فإلى متى تذكر من مات، ومات حظه من الدنيا ، هذا كلامهم لأبيهم ، وهو نصيحة منهم له وإشفاق عليه ، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف . (أصبت)

(قالو : تالله تفتأ تذكر يوسف ... الخ)

— ١ —

وقال السيد عبد العظيم الأشموني[1] :

ابناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على ابيهم وتسرية همومه وأحزانه مع شيء من الهم

أراد أبناء يعقوب تهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، فدلفوا إليه وحلقوا فيه وقالوا له وقد رأوه انتقع لونه ، وتولاه الهزال : اضبط زمام نفسك ، واملك تذكاراتك لولدك ، إن في الموجود عزاء عن المفقود ، وإن في الحاضر خلفاً من الغائب ، إن لك في أولادك وأحفادك لشغلاً شاغلاً ، ولك في النظر لصحتك وعافيتك ما ينسيك كل شيء ، إنك تخدع نفسك بهذه الأفكار ، وتسوقها إلى المرض فالهلاك ، عن رضا وطواعية : فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجعنا فيك ، فإنه يعز علينا جداً أن نراك بعد قليل في يد البثور ، مرتحلاً من بين أيدينا إلى أعماق القبور ، وتالله لا تفتأ تذكر يوسف بهذا الإمعان والتعمق والإطناب مرة بالثكل واللوعة ، وحيناً بالهتف والضراعة ، وطوراً بالأسف والحزن ، وتارة بالأنين والتباكي ، وآونة بالثناء ، وأوقاتاً بالدعاء ، نعم لا تزال تذكر يوسف الذي أصبح من روايات التاريخ ، والذي هو في عالم الأموات منذ

(١) نسبة الى اشمون من البلاد المصرية .

زمن بعيد ، حتى تكون حرَضاً ، فليس لطبيب ، ولا لجمع من الأطباء مقدرة باستئصال هذا المرض من جسمك ، ولا يرون لك فيه إبلالاً ، بل وأكثر من ذلك تكون من الهالكين ، لذوبان قلبك ، وطيرانه شعاعاً على هـــذا الفقيد ، فهل سمعت بأن ميتاً رجع في هذه الدنيا إلى الحياة الجديدة ؟ أو هل تظن أن يوم البعث هو بعد يوم أو يومين؟.. والله ما ندري ما نقول لك ، أنعظك وأنت واعظنا في جميع الأوقات ، ونجم هدانا الذي نستنير به في وسط الظلمات ، أم نرشدك إلى ما ينبغي أن تلاحظه في نفسك ، ولا نعرف شيئاً أنت تجهله ، إن هذه الحياة التي تحياها إنما يلجأ إليها من يريد أن يمشي في طريق القبر ، إن من رآك رأى هِمّاً أوفى على المئة والستين ، مع أنك لم تسلخ المئة والثلاثة والأربعين، استرخى حاجباك ، ثقلت أجفانك ، جمدت نظراتك ، تهدّل عارضاك ، تجمد جبينك ، انهض عاتقاك ، هوى بينهما رأسك ، فلعمرنا لقد تغير فيك كل شيء ، ولم يثبت فيك إلا تلك الذكرى المؤلمة ، فخفّض عليك قليلاً ، ورفّه بنسيان الماضي ، بأسرع مما تمشي إليه ، اصبر فإن هذه الذكرى سبب الهـــلاك ، فلا تهلك نفسك بيدك ، ولا تستسلم لهذا التذكار .

وكأني بسيدنا يعقوب قد قال لهم وهو يشرق بدموعـــه : «أفبهذا الكلام تعزونني يا أولادي ؟.. دعوني أذكر ابناً سليم القلب ؛ ذا مستقبل باهر ، ولا أدري أين هو اليوم ، ولا ما هو حاله ، وإذا كنتم تشفقون عــليّ فابكوا معــي وشاطروني في أحزاني » .   (أحسنت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف ... الخ)

— ٢ —

وقال لسان الحق الأمبابي [١] :

« تالله » كلمة صحيحة أريد بها باطل

قولهم (تالله ... الخ) كلمة صحيحة ، أريد بها باطل ، لأنهم قصدوا أن أباهم ينبغي أن ينسى أو يتناسى يوسف . نفاسةً منهم عليه وحسداً له .

الحرض ومرادفاته

وقولهم « حرضاً » من فعل حَرِضَ وبابه تَعِبَ أشرف على الهلاك ، فهو حَرَضٌ ، وتسميته بالمصدر مبالغة ، أو يقال الحرض والمرض والعلة والسقم والوجع والوعك والوَصَب والضنى والنَّهَك والدَّنف والداء تقريباً واحد ، أي ذا حرض .

استعمال كلمة « الهلاك » للمسلم والكافر سواء

وأما كلمة « الهالكين » فيتصور الجمهور من الناس اليوم أنها لا تستعمل إلا في الكافر عند موته ، فيقال هلك « ماير » اليهودي ، ولا يقال هلك « محمود » المسلم إذا مات ، بل توفي مثلاً ، وهو وهمٌ مبني على العرف الحاضر ، لا على اللغة العربية ، ولذلك نرى أولاد يعقوب ههنا ، لقد لفظوا بهذه الكلمة ، أو ما يرادفها في لغتهم العبرية ، موجهين الخطاب بها لأبيهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم

(١) نسبة الى امبابة من البلاد المصرية .

يوسف من قَبْلُ بالبينات ، فما زلتُم في شكٍ مما جاءكم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتم : لَن يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعدِهِ رَسُولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) (مرحى)

أين الشجيُّ من الخليّ

آ (٨٦) « قال : إنَّما أشكُو بَثِّي وحُزْني إلى اللهِ ، وأعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمُونَ ... »

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثمانون فقام المدقق الحموي [1] وقال :

دهور يعقوب دموعه في أشداقه و(قال) لأولاده متأففاً : ما لكم تتذمرون عليّ ؟.. لا بد للمصدور أن ينفث ، فلا تحرجوني ، ومع ذلك فما أنتم وهذا الانتقاد ؟ فهل إليكم أقدم شكواي ، أو لغيركم من الخلق ؟.. حاشا لي من ذلكم كله ، أنا لم أشْكُ لأحد ، ولا أريد أن أشكو إليكم أو لغيركم (إنما أشكو بثي) همي العظيم – والبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه للناس ، أي ينشره ، ومنه باثه أمره ، وأبثه إياه – (وحزني) همي (إلى الله) وكفى وأما هؤلاء الناس فلست بشاكٍ إليهم شيئاً ، بل ولا أسألهم ديناً ، ولا أستفتيهم عن دين ، بل إليه تعالى أ كل أمري (وأعلم من) أسرار غيب (الله ما لا تعلمون) إذ أعلم بمستقبل يوسف ، ولكأني أراه رأي العين ، إنما أنا أحزن وأبكي وأتأسف لكوني أرى أن شقة البعد طالت ، ونور اللقاء يسير ببطء ، فهذا الذي قضى بحزني وبكائي وتأسفي ، بحكم الطبع البشري .

(١) نسبة الى بلدة حماة من سورية .

قال إنما أشكو بثي وحزني ... الخ)

— ١ —

وقال الشهاب الخليجي[1] :

يعقوب يرد لأبنائه نصحهم له ولومهم إياه على حزنه على يوسف

كأني بيعقوب عليه السلام حدّق في وجوه أولاده تحديقاً شديداً والدمع يترقرق في عينيه ، ثم قال :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ، رويداً رويداً أيها اللائمون ، فشديد جداً على والد شيخ مثلي أن لا يذكر ولداً له ، فارقه إلى ما لا يعلم ، لا سيا وقد امتدت شقة الفراق ، بحيث صار بيني وبينه هوّة سحيقة ، لا قرار لها ، فهل من العجب مع هذا أن يطير قلبي خوفاً وهَلَعاً ، أو شوقاً وتوقاً ؟.. على أن غرضي من ذلكم أن أرفّه عن نفسي همومها وآلامها ، بالمناجاة والشكوى إلى عالم السر والنجوى ؛ كما يرفه المريض عن نفسه أسقامه وأوجاعه ، بترديد الأنات، وتصعيد الزفرات ، ولا عليّ إن أبثثتُ همي لربي ، ورفعت عقيرتي لخالقي :

تموت النفوس بأوصابها ... ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي ... أذاة إلى غير أحبابها

وإن الشكوى إلى الله لهي من ثمار الإيمان ، وليس أفضل منها وسيلة لتعزية الإنسان :

لا تسألنّ بنيّ آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تُحجبُ
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُني آدم حين يُسأل يغضبُ

سامحكم الله يا أولادي ، ما هذه الظنون التي تظنون ؟.. وما هذا التثريب

(١) نسبة الى بلدان الخليج العربي .

الذي تضايقوني به ؟... وكيف تحولون بيني وبين البكاء على أولادي الثلاثة ، ولا سيا « العزيز » يوسف ؟...

وقـــع الشوائب شيّبْ — والدهر بالنـــاس قُلّبْ
إن دان يوماً لشخصٍ — ففـــي غـــد يتقلبْ
فـلا تثق بوميض — من برقـه فهو خُلّبْ
واصبر إذا هـــو أضرى — بـــك الخطوب وألّبْ
فما على التبر عـــارٌ — في النار حـــين يقلّبْ

سامحكم الله يا أولادي ، أراكم كلما زادت كروبي زدتم في التأنيث ، على حد ما يقول القائل :

كلما أنبت الزمانُ قناةً — ركب المرء في القناة سِنانا

أنا لي رجاء في يوسف ، وأنتم تقولون ، إنه صار من صيد أمس .

وما صبابة مشتاق على أمل — من اللقاء كمشتاق بلا أملِ

يا أولادي : الدمع دمعي والعيون عيوني ، فدعوني أبكي ، والقلب قلـــبي والفؤاد فؤادي ، فدعوني أحزن ، واللسان لساني والأسف أسفي، فدعوني أرفع عقيرتي إلى ربي بالأسف ، دعوني فإنكم لم تصابوا بمصيبتي ، ومصيبتي هذه إنما هي فوق رأسي ، سبحان الله ! أنا على أحر من الجمر . وقلوبكم أبرد من الثلـــج ، أنا أتأسف وأنتم تصفقون ، أنتم تشتغلون بمجادلتي :

القلب أعلم يا عذول بدائه — وأحق منك بجفنه وبمائـهِ
فو ّمن أحب لأعصينك في الهوى — قسماً به وبحسنه وبهائـهِ
أأحبه وأحب فيه ملامة ؟ — إن الملامة فيه من أعدائهِ
لا تَعذُلِ المشتاق في أشواقه — حتى يكون حشاك من أحشائهِ
إن القتيل مضرجاً بدموعه — مثل القتيل مضرجاً بدمائهِ

يا أبنائي – إنما أشكو همي العظيم وغمي على ما مضى إلى الله عز وجل ، وهذا أمر أحلته لي الشريعة ، ودعتني إليه الطبيعة ، وأعلم من أسرار غيب الله ما لا تعلمون ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟.. والأيام بيننا والمستقبل كشاف .

يا أبنائي : أنا لست أحب يوسف لسواد عينيه ، وليس حالي معه كمحب لشخص ، ومغرم بذات ، بل أنا محب لآمالي فيه ، محب لرجائي في مستقبله ، فلست أذكر اسمه إلا مشفوعاً بتلك الآمال ، وذلك الرجاء ، ولذلك فأنا حتى اليوم وغدٍ أقول : آه ، يا ترى ، يوسف الذي ستسجد له الكواكب أين هو ؟. أواه .. يا عجباً ، يوسف الذي سيجتبيه ربه أين « راح » ؟.. واحسرتاه .. يوسف الذي سيعلمه ربه من تأويل الأحاديث أين ذهب ؟.. يوسف الذي سيتم ربه نعمته عليه ، ماذا حل به ؟..

لذلك أنا لا أضن ببكائي وأسفي على يوسف ، بل ولا بصحتي ، بل ولا بحياتي ، فكيف أنتم تضنون بشيء لا يضن به صاحبه ؟ الدموع دموعي ، والزفرات زفراتي ، والصحة صحتي ، والحياة حياتي ، فدعوني أجود بذلك كله في سبيل محبة يوسف ، مهما كلفني الأمر .

فصلاحي الذي زعمتم فسادي   وفسادي الذي زعمتم صلاحي

وبعد ذلك أقول لكم : أما كان يجمل بكم أن تشاطروني أحزاني ، وتخففوا عني وطأة همومي ، عوضاً عن هذا التعنيف ، وبدلاً من هذا التأنيب؟.. سبحان الله ! لو تُرك القطا لنام ، يا أيها الناس ، من لم يستطع البكاء فليرحم الباكين ، ومن لم يُحِس بالألم ، فليشفق على المتألمين .

يا أولادي ، إني أعلم من غيب الله ما لا تعلمون ، أعلم سلامة يوسف وحياته وذلك مما أوحِيَ إليّ في شأنه ، أن ربه سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث

ويتم نعمته عليه ، فمن هذه الأمور التي لم تجيء بعد ، ومن الرؤيا التي رآهـا ، ولم يأت تأويلها ، أعلم أن يوسف حي يرزق ، وأنه يعيش إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، وأننا سوف نجتمع به ونراه على أحسن حال ، كما يحب ونحب ، وعندئذ يقع تأويل رؤياه . يا بني – أنا أعلم أكثر مما تعلمون ، بل أعلم مـا لا تعلمون ، فكأنما في فؤادي الأشعة المجهولة التي تكشف عما وراء الحجب والموانع ، وعـلى عيني منظار الرصد المقرب المجسم أيضاً ، ولذلك فأنا لا آخذ عليكم .

يا أولادي ، قد سمعت مقالتكم ، وتبين لي نصيحتكم ، والإشفاق عليّ من جهتكم ، غير أني – يرحمكم الله – لا أجهل أمراً تعلمونه ، وأما أنتم فإنكم تجهلون أموراً كثيرة أعلمها ، إن الذي يرى ببصيرته ، غير الذين يرون بأبصارهم أنا أطالع صحيفة من صحائف الغيب ، لم يقرأ واحد منكم منها حرفاً واحداً بناء عليه اتركوني وشأني .

هذا آخر جواب يعقوب عليه السلام لأولاده وترى أنهـم سكتوا ، ولم يعودوا يحاورون أباهم ، ولا نعلم هل كان سكوتهم عن احترام ، أو عن اقتناع؟.

(جيد)

تذييلات :

جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا
وصاحب الباطل بالنعم والعطايا

١ – نقرأ في هذه السورة مصيبة يعقوب بأخذ ابنه منه ، بحيلة أجراها عليه أبناؤه الصلبيون ، لا أناس بعداء عنه ، فهي مصيبة ذات وجهين ، ثم إنه يا ليته شدد في الاحتياط ، إذ كان يعلم حسدهم وكرههم لأخيهم (آ:٥) ، بل استرسل معهم استرسالاً ، كأنه لا يعرف شيئاً من مكائدهم ومصائدهم ، ثم بعد (٢٠) سنة

أخذوا من عنده ولده الأصغر بنيامين وأخيراً جاؤوه بالخبر السيىء ، خبر انه سرق ثم استرق في مقابلة ذلك ، الأمر بل الأمور التي أزعجته ، وأقلقت راحته والحكمة في ذلك الإشارة إلى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق ، فإن من الجائز عقلا والواقع فعلا ، أن يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا ، وأن يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا ، كما أن عكس ذلك جائز وواقع ، قال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفُسِكم ﴾ (٣ : ١٨٦) وقال تعالى : ﴿ وإذ ابْتَلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ ﴾ (٢ : ١٢٤) وقال تعالى : ﴿ فلما أسْلَما وتلَّهُ للجَبينِ ، ونادَيناهُ أنْ يا إبراهيم ، قد صَدَّقْتَ الرؤيا . إنا كذلكَ نَجزِي المُحْسنين ، إن هذا لَهُوَ البلاءُ المُبينُ ﴾ (٣٧ : ١٠٣ - ١٠٦) وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ، ويَمْحَقَ الكافرينَ ، أمْ حَسِبْتُم أنْ تدخلوا الجنةَ ؟ ولمّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا منكم ويَعْلَمَ الصابرينَ ﴾ (٣ : ١٤١ و ١٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلي اللهُ ما في صُدورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ ما في قلوبكم ، واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدور ﴾ (٣ : ١٥٤) وقال تعالى : ﴿ أمْ حَسِبْتُم أن تَدْخُلوا الجنةَ ؟ ولمّا يأتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكم : مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضراءُ وزُلْزِلوا ، حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا مَعَهُ متى نَصْرُ اللهِ ؟!!! ألا إنَّ نصْرَ اللهِ قريبٌ ﴾ (٢ : ٢١٤) نزلت في غزوة أحُد حين غَلَبَ المشركون المؤمنينَ وشجوا رأس النبي ﷺ ، وكسروا رباعيته ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ لِيَبْلُوَني أأشكرُ أم أكْفُرُ ﴾ (٢٧ : ٤٠) .

الحكمة من منع علمه الغيب عن الناس وإطلاع الأنبياء على شيء منه

٢ - تعليقاً على قول يعقوب (وأعلم من الله ما لا تعلمون) : غني عن البيان أن الله جلّ جلاله حجب علم الغيب عن الناس ، ذلك لأجل رحمتهم وإسعادهم ،

إذ لو علم الناس الغيب لنزلوا إلى الحضيض ، ولكانوا أخس المخلوقين ، وأتعس الخلق أجمعين، ذلك أن المرء لو اطّلع على الغيب بعد عشر سنين مثلاً سيكون رئيس حكومة أو مثرياً أو طبيباً أو أستاذاً جليلاً في العلم – لو صار هذا لم يفكر يوماً ما في علم السياسة ، ولا في جلب المال ، ولا في قراءة الكتب ، ولا في تحصيل العلم ولا في دخول المدارس العالية ، وإذن تضيع الحكمة وتذهب الحياة سدى وتكدر معيشة كل إنسان ؛ أما جهل الناس بالمستقبل ، فهو الذي يكفل سعادة الناس وصفاء عيشهم ، لأنهم يجدّون ويدأبون على السعي ، وذلك داع حثيث إلى إتقان العمل .

علم الناس بالغيب قد يسبب أضراراً كثيرة ، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على ما في قلوب الآخرين ، من حسد وبغض وكراهة ، فكيف يعيش الناس في صفاء ، وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء ؟، لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع الغيب عن الناس .

ولكن نظراً لأن سد باب الغيب مرة واحده وبصورة مطردة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ، ويوقع في النفوس أنه لا روح خالدة ولا حياة بعد هذه الحياة ، ولا ملائكة ولا وحي ، ونظراً لأنه يلزم أن يكون لله تعالى وسطاء بينه وبين عامة عباده ، وهؤلاء الوسطاء هم الأنبياء، سمح بإطلاع أنبيائه على شيء من علم الغيب ، من طريق الوحي والإلهام ، في اليقظة أو في المنام .

ومن أدلة حصر علم الغيب في الله تعالى على الوجه الذي قلناه ، قوله تعالى : ﴿ عالِمُ الغَيْبِ ، فلا يُظهِرُ على غَيْبِهِ أحَداً ، إلا مَنْ ارتَضَى مِنْ رسول ؛ فإنَّه يَسلُكُ مِنْ بَيْنِ يدَيهِ ومِنْ خَلفِهِ رَصَداً ؛ لِيَعلَمَ أنْ قد أبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهم ﴾ (٧٢ : ٢٦ و ٢٧) ، وقال تعالى حكايةً عن نوح (ع) : ﴿ ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللهِ ، ولا أعلَمُ الغَيْبَ ، ولا

أقولُ إني مَلَكٌ ﴾ (١١ : ٣١) وقال تعالى خطاباً لخاتم رسله ، أمره أن يبلغه خالقه : ﴿ قُلْ لا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللهِ ، ولا أعلم الغيبَ ، ولا أقول لكم إني مَلَكٌ ، إن أتبعُ إلاّ ما يُوحى إليّ ، قُلْ هل يَستوي الأعمى والبصيرُ ؟ أفلا تتفكرون ؟ ﴾ (٦ : ٥٠) .

وقد أمر الله نبيه أن يستدل على عدم معرفته الغيب بقوله : ﴿ ولَوْ كنتُ أعلمُ الغَيبَ لاستَكثَرتُ مِنَ الخيرِ ، وما مَسَّني السوءُ ، إن أنا إلاّ نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٧) وقال تعالى : ﴿ وما كان اللهُ ليُطلِعَكم على الغَيبِ ، ولكنّ الله يَجتَبي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ ﴾ ، (٣ : ١٦٩) ، وقال تعالى : ﴿ وعِندَه مَفاتِحُ الغيبِ لا يَعلَمُها إلاّ هُوَ ﴾ (٦ : ٥٩) .

وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب

ومما تقدم يعلم أن الله يظهر من ارتضى من رسله على الغيب ، الذي يتعلق به تبليغ الرسالة ، وذلك مشروح في القرآن ، ومنه الملائكة والجنة والنار والحساب وغير ذلك ، والواجب في هذا المقام الوقوف عند النص ، لا نتعداه بزيادة ولا نقصان ، لأنه ليس للعقل مجال في عالم الغيب ، فيقيسَ ويستنبطَ ، فما كان من النصوص قطعياً ، كالآيات الكريمة المصرحة بالإخبار عن الأنبياء السابقين وأممهم وعن الآخرة وما فيها ، وعن الملائكة والجن ، وعما وعد الله به هذه الأمة من الاستخلاف في الأرض ، فإننا نؤمن به ونقول بكفر من أنكره ، وما كان منها مروياً في أخبار الآحاد ، فلا يكلف كل مؤمن بعلمه والإيمان بــه ، وأحاديث الآحاد الواردة بإخبار النبي ﷺ بالغيب كثيرة ، وقد ظهر تأويل المشهور منها ، كالإخبار بأن الله يفتح على المسلمين مصر والشام وغيرهما من الأقطار ، والإخبار بأن « عماراً » تقتله الفئة الباغية ، وأن « الحسن » يصلح الله به بين فئتين من المسلمين ، وأن « فاطمة » رضي الله عنها أول أهله لحاقاً به بعد موته .

وأما ما ورد من أن الجنة والنار مُثّلتا له في عرض الحائط أو قبلة الجدار ، ومن أنه زويت له الأرض ، فرأى ما يصل إليه مُلْك أمته منها فلا يدل على أن الله تعالى أطلعه على ما كان وما يكون ، مما ليس في استعداد البشر الاطلاع عليه ، إذ لا نهاية له ، ولا هو مما يتعلق به تبليغ الرسالة وهداية الخلق ، وأيضاً فالنصوص تنافيه ، والنبي يقول : ﴿ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٧) فهو ينفي أن يكون له خصوصية غير التبليغ بالإنذار والتبشير ، كأنه يقول : إن الله تعالى أمرني أن أبلغكم بأنني لا أمتاز عليكم بصفات الألوهية ، كالقدرة على النفع والضر وعلم الغيب ، و ﴿ إنما أنا بَشَرٌ مثلكم يُوحَى إليّ ﴾ (١٨ : ١١١) .

طرق نقل العلم

٣ - كان طريق علم يعقوب هو الوحي السماوي ، ويوجد اليوم طرق أخرى لعلم الأنباء البعيدة كالبرق والبريد والهاتف والراديو واللاسلكي والطائرة والمنطاد ثم قراءة الأفكار والتنويم المغناطيسي وغير ذلك من المخترعات العصرية ، ولكن هذه الطرق مرتكزة على أسباب علمية ، وأما الوحي فليس مرتكزاً على شيء ، سوى نزول الملك والإلهام .

العودة إلى مصر للتحسس

آ (٨٧)« يا بَنيّْ ، اذهبوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يوسف وأخيه ، ولا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، إنهُ لا يَيأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلّا القومُ الكافرون » .

افتتحت الجلسةوتليت الآية السابعةوالثمانون، فقام ولي الدين البهنسي[١] وقال :

سبق أن يعقوب قال لأولاده : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، فهو لما قال لهم هذه الجملة ، وأفاض في شرحها ومراميها، اتخذ ذلك فرصة لتصريحه باعتقاده بحياة يوسف ، وبراءة بنيامين من السرقة ،فلذلك ولكون الحب مبنياً على الرجاء قال : (يا بَنيّْ) دعونا من المزاعم والأوهام ، والأخبار الموضوعة ، والادعاء الباطل ، فلا أخفي عنكم أنني لليوم وللغد أتوقع خلاف ما تظنون في أخويكما لذا (اذهبوا) لمصر للمرة الثالثة (فتحسسوا) فيها (من يوسف وأخيه)بنيامين وتعرفوا منهما ، وتطلّبوا خبرهما (ولا تيأسوا) ولا تقنطوا (من روح الله) من فرجه وتنفيسه ، ولا تنفضوا أيديكم منهما ، بالرغم من قدم العهد بيوسف ، وعن أن خصيمكم في بنيامين هو الحكومة المصرية ، فلا تجعلوا اليأس سبيلاً إلى قلوبكم ، (إنه لا ييأس من رَوح الله إلا القومالكافرون) ولذلك فإني لا أيأس من حياة يوسف وبراءة بنيامين وإطلاق سراحه ، ولن أيأس من ذلك ما تردد نَفَس على وجه الأرض، وإن طول شقة فراق يوسفوكل ما جرى على بنيامين لم يقللا شيئاً من أملي من هذا القبيل .

(١) نسبة الى بلدة بهنس في القطر المصري .

(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. الخ)

— ٢ —

وقال جمال الدين الأنطاكي [١]:

يعقوب يطلب من أولاده العودة لمصر للامتيار ظاهراً والتحسس من يوسف وأخيه باطناً

ما زالت حال يعقوب عليه السلام تضطرب بين فرح وهم، وسرور وغم، وما برحت آماله تتراوح بين مد وجزر، وبسط وقبض، يذكر حلمي يوسف وما أوحى الله إليه في شأنه، فيشرق له في خلال ذكراه وجه الحياة الناضر، ويلوح له جمال العيش الساطع، ثم يذكر غيبة يوسف، وانقطاع أخباره، وطول المدة وما طرأ بعد ذلك من حادثة بنيامين، واحتباس راوبين بمصر، وما أعدت له الأيام في طياتها، فيلمس صدره بيده، ليعلم أين مكان قلبه من أضالعه فلا تراه إلا متأسفاً قائلا: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل، ولذلك قال لهم ما مرماه:

يا أبنائي – ان للأمور ظواهر وبواطن، فلا تقفوا عند ظواهرها، دون البحث والتنقيب عن بواطنها، فربما لا يكون الذئب قد افترس يوسف افتراساً، ولكنه حاول افتراسه، فتجاذبا، فأمسك الذئب بقميصه وجرحه فقط، وأما يوسف فتملص من القميص ونجا بأعجوبة سالماً فائزاً بحياته، فلقيه أشقياء من كنعان أو الكلدان أو الإفريقيين، فاسترقوه، حسب العوائد الشائعة بين أولئك الأقوام، وكذلك ربما لا يكون أخوه « بنيامين » سارقاً، بل دبرت له مكيدة من عدو له، أو من بعض عمال الحكومة لأمر أرادوه، أووضع الصواع

(١) نسبة الى بلدة انطاكية في سورية .

في رحله سهواً ثم نسي فيه ، فعسى أن تقفوا على شيء من هذا القبيل ، فيخلص أخوكم من هذه الأحبولة ، لأن الحق فوق القوة ، لذا فهيا واذهبوا إلى مصر ، واستقصوا خبرهما واسألوا عنهما ، لعلكم تهتدون على ضالتكم .

يا أولادي : ها هو صوت يرن في أذني ، ثم يخترق في أعماق قلبي ، يقول لي « يوسف حي » و « بنيامين أمين » فقوموا اذهبوا وكونوا كلكم آذاناً حتى تسمعوا عنهما خبراً ، كونوا كلكم عيوناً تتطلع إلى روايتهما ، كونوا كلكم ألسنة تسأل عنهما أهل الآفاق ، كونوا كلكم أنوفاً تستنشق أريجهما ، كونوا كلكم أدمغة تفكر في أسباب لقياهما ، وبالجملة كونوا كلكم أرواحاً تحلق في الأجواء حتى تقع عليهما وعلى حقيقة أمرهما .

يا بنيّ – إن الإنسان إذا افتقد شاة رصد عليها العيون والأرصاد ، ونشر السعاة والرواة ، ولا يهدأ له بال حتى ترجع إليه تلك الشاة ، فكيف والمفقود منا إنسان بل إنسانان ؟... فاذهبوا وتخبروا من يوسف وأخيه ، وابذلوا في ذلكم وسعكم وطاقتكم ، ولا تَنُوا ، اذهبوا وتبينوا حقيقة الحال ، فأنتم عيوني وأرصادي لهذا الأمر كما لغيره فلا تألوا جهداً في اكتناه جلية الواقع ، ولا أظنكم إلا عائدين لي مزودين بالخبر اليقين ، حاملين إليّ البشارة السارة عنهما.

يا بَنيّ - افتكروا في طريقة مثلى تقفون بها عليهما، عساكم تجدونهما سالمين، فما على الله أمر عسير وإن عزائم الرجال تذلل الصعاب ، وقد تكون أرهف حداً من الصوارم إذا اقترنت بالإخلاص ومساعدة الباري جل جلاله ، فعسى أن نصير على بينة من أمرهما ، فلا بد أن يكون في الأمر سر عميق ، أنتم رسلي فمتى وقفتم لهما على خبر فأنفذوه إليّ تواً ، أمعنوا في الفحص ، ونقروا عليهما تنقيراً ، ولا تقنطوا من فرج الله ، ولا تقطعوا من نفوسكم حبل الرجاء ، ولا تبكتوا خيوط الأمل ، إنه لا ييأس من فرج الله إلا كل كافر بنعمة الرجاء والأمل ، هذه كلمتي ، وأقول لكم كلمة جدي إبراهيم الخليل : ﴿ ومَنْ يقنط

مِنْ رحمةِ ربه إلا الضالون ﴾ (١٥ : ٥٦) فلا يتولاكم اليأس ، ولا يستحوذ عليكم القنوط . (جيد)

(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ... الخ)

- ٢ -

وقال ضياء الدين المرعشي[١] : أعلق على الآية الكريمة بالمواد التالية :

يعقوب يطلب من أولاده التحسس من يوسف وبنيامين

ثم جلب الميرة

١ - تعليقاً على قوله (اذهبوا فتحسسوا) : الحقيقة أن أباهم دفعهم لمصر لأمرين : الأول التحسس من يوسف وأخيه ، والثاني جلب الميرة ، وإنما لم يذكر هذا الثاني ، لأنه طبيعي ومعلوم ، ولأن الأمر الأول هو الأقوى والأهم في نظره فكأنه قال : اذهبوا ليس لأجل قوت الأجسام فقط ، بل أيضاً لأجل قوت الأرواح .

معنى التحسس

٢ التحسس طلب الشيء بالحاسة ، وهو قريب من التجسس ، وهو تعرف الشيء بواسطة الجس ، أو التحسس في الخير ، ومنه الحاسوس ، والتجسس في الشر ، ومنه الجاسوس ، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس ، وكذلك الجوْس . وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف ، ومنه : ﴿ فجاسُوا خِلالَ الديار ﴾ (١٧ : ٥) ويقال : التحسس ، الاستماع لحديث القوم ، والتجسس التفتيش عن بواطن الأمور ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والناموس صاحب سر الخير ، وأحس يستعمل في إدراك الحسي والمعنوي ، يقال أحسست

---

(١) مرعش في بلاد الترك .

بالحرارة والبرودة مثلاً ، وأحسست منـــه مكراً ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسسنا منه خبراً ، وهل تحس من فلان بخير .

روح الله وأن اليأس منها كفر

٣ – « روح الله » هو فرجه وتنفيسه ، أو هو فضيلة الرجاء ونعمة الأمل وأنه لا ييأس من تلك الفضيلة إلا الكافرون بها ، نعم إن اليأس كفر بتلك النعمة اليأس يقتل فضيلة كبيرة هي حياة الإنسان في هذه الدنيا ، هي تعزيته وملجأه الحريز ، ألا وهي فضيلة الرجاء ، فضيلة الأمل ، فضيلة الأمنية ، إذ لولا بارقــة الأمل ، لعاش الإنسان في حياة مظلمة ظلاماً دامساً ، فكان كافراً بنور الحياة الذي هو الرجاء والأمل ، كل العالم إنما يعيش بالأمل ، لأن طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، فالأمل فضيلة ، لا حياة للإنسان بدونها ، فهي نعمة من الله تعالى ، لولاها لمتنا ، فمن يئس من هذه الفضيلة فقد كفر بها ، وصار في حياته من ذوي الأتعاب .

وقول يعقوب لأولاده : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أذقنا الإنسان مِنـَّا رحمةً ثم نزَعناها منهُ إنه لَيَئُوسٌ كفورٌ ﴾ (١١ : ٩) ؛ فيعقوب يقول لأبنائه : إن الله كان أذاقنـا رحمة وجود يوسف بيننا ، ثم نزعها منا على يد بعض خلقه ، ولكن لا يجوز أن نيأس من عودة هذه الرحمة ، لأن اليأس من رحمة الله كفر بها .

معنى الكفر والكافرين وإطلاقه غمط النعمة

٤ – تعليقاً على قوله (الكافرون) : معنى الكفر في أصل اللغــة ، الستر والتغطية ، وكانوا يسمون الليل « كافراً » لأنه يغطي بظلامه الأشياء ، وأطلقوا لفظ « الكافر » على طلع النخل ، وأكام النـَّوْر (الزهر) لما ذكر ، وعـــلى

البحر لأن الشمس تغيب فيه - بحسب الظاهر - وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق، يقولون له كافر الدروع ، وقوله تعالى : ﴿ وأعْجَبَ الكفارَ نباتُهُ ﴾ (٥٧ : ٢٠) هم الزراع ، وأمثال هذا كثير في اللغة .

ويظهر من ذلك أن حقيقة « الكفر » تغطية المحسوس بالمحسوس ، ثم أطلق على من يذعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزاً ، فإذا تقرر هذا فلعل الكفر ههنا بالمعنى اللغوي ، الذي هو الستر ، لأن اليأس من رحمة الله ، ستر لفضله وحسن الظن به سبحانه وتعالى ، وقد أطلق لفظ الكفر في بعض أحاديث مسلم على ترك الصلاة ، ولهذا شواهد كثيرة ، فمن إطلاق الكفر على غمط النعم قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أحياكم ، ثم يُميتكم ثم يُحييكم، إنّ الإنسانَ لكَفورٌ ﴾ (٢٢ : ٦٦) أي جحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ، وقوله تعالى : ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسانَ مِنّا رحمة ، فرحَ بها ، وإن تُصِبْهم سَيئة بما قدّمت أيْديهم ، فإنّ الإنسانَ كفورٌ ﴾ (٤٢ : ٤٨) أي أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها ، وقوله تعالى:﴿وإن تعُدّوا نعْمةَ اللهِ لا تحصُوها ، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّارٌ ﴾ (١٤ : ٣٤) أي شديد الكفران للنعمة ، ومنه حديث البخاري : (اطلعت على النار فوجدت أكثر أهلها النساء يكفرن – قيل : وما يكفرن ؟ - قال العشير) ، والكفر بهذا المعنى مقابل للشكر ، قال سليمان (ع) : ﴿ ليَبْلوَني أأشكُرُ أم أكفرُ ، ومَنْ شكَرَ فإنما يشكرُ لنفسه. ومن كفَرَ فإنّ ربي غني كريمٌ ﴾ (٢٧ : ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٢ : ١٥٢) ويقول « منفتاح » فرعون مصر : ﴿ وفعَلْتَ فَعْلتكَ التي فعلْتَ وأنتَ منَ الكافرين ﴾ (٢٦ : ١٩) أي تحريت كفران نعمي بقتلك خبازي ، وعلى الأقل بقتلك رجلاً هو من شيعتي الأقباط ، وقال تعالى . ﴿ وإذْ تأذّنَ ربّكم : لَئِن شكَرتم لأزيدَنكم ، ولئنْ كفَرتم إن

عذابي لشَديد ﴾ (١٤ : ٧) فالكفر هنا مقابل الشكر ، بأن استعملنا نعمه فيما يغضبه ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أنفِقوا مما رزقْناكم مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يوم لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة ، والكافرونَ هم الظالمون ﴾ (٢ : ٢٥٤) فالمراد « بالكافرين » ههنا من يكفرون النعم بقرينة السياق وهم الذين لا ينفقون في سبيل البر والخير ، ولا يراد به ههنا منكرو الألوهية أو النبوة أو الجاحدون لشيء مما جاء به الأنبياء وعُلم علماً ضرورياً ، لأن هذا اصطلاح لم يلتزمه القرآن الكريم.

إطلاق الكفر على المعصية الكبيرة

وقد يطلق الكفر على المعصية الكبيرة ومنه فيما أرى قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمانُ ، ولكنّ الشياطين كفروا ، يُعلمونَ الناسَ السِحرَ ، وما أنزلَ على الملكين ببابلَ ، هاروتَ ، وماروتَ ، وما يُعلمانِ مِنْ أحدٍ حتى يقولا: إنما نحنُ فِتنة فلا تكْفرْ ، فيتعلمونَ منهما ما يُفرّقون به بينَ المرء وزَوْجِه ﴾ (٢ : ١٠٢) فقد تعلمون أن سليمان نبي ، والأنبياء معصومون من الكفر - المقابل للإيمان - إجماعاً ما من ذلك بد وعليه فينبغي حمل الكفر المنفي عنه على الكفر بمعنى فعل معصية للسحر ، وقوله : « ولكن الشياطين » يراد بهم شياطين الإنس كما في : ﴿ وإذا خَلَوا إلى شياطينهم قالوا إنا مَعكمْ ﴾ (٢ : ١٤) وقوله : ﴿ يُعَلّمونَ الناسَ السحْرَ ﴾ تفسير لكفر هؤلاء الشياطين ، وقوله : (فلا تكفر) أي بتعلم صنعة السحر .

ومن أمثلة هذا النوع ما في حديث البخاري (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، وقوله تعالى : ﴿ وبِكُفْرِهم وقولهم على مريمَ بُهتاناً عظيماً ﴾ (٤ : ١٥٥) ، فكفرهم ههنا هو عند قولهم على مريم للبهتان العظيم ، فالعطف للتفسير ، وأما الكفر المعلوم فقد ذكره في الآية مرتين حيث قال : ﴿ فبما نقْضِهِم ميثاقَهم وكفرهم بآياتِ اللهِ وقتلِهِم الأنبياءَ بغيرِ حقٍ ، وقولِهِم ، قلوبُنا

غُلْفٌ ، بـل طَبعَ اللهُ عليها بكفرِهم ، فلا يُؤمِنونَ إلا قليلا ﴾ (١٥٤:٤) وفي الحديث : « كفر بامرىءٍ إدعاء نسب لا يعرفه » رواه ابن ماجه في سننه ، وفي أحاديث الجامع الصغير : « أخذ الأمـــير الهدية سحت وقبول القاضي الرشوة كفر » .

إطلاق الكفر على الضلال

وفي صحيح البخاري « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وفي رواية « ضُلالاً » فالضلال في هذه الرواية تفسير للكفر في الرواية الأولى ، كما أن الضلال في آية الحجر وهي قول إبراهيم : ﴿ ومنْ يَقنطُ منْ رحمةِ ربـه إلا الضالون ﴾ (١٥ : ٥٦) تفسير للكفر في آية يوسف ، وهي قول يعقوب : ﴿ إنه لا ييأسُ منْ رَوْحِ الله إلا القـومُ الـكافرون ﴾ (آ ٨٧) كما أن « روح الله » هي « رحمة الله » واليأس هو القنوط ، وفي صحيح مسلم : « اثنتان في الناس هما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » وفيه : « أيما عبدٍ أبقَ من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم » وفي سنن ابن ماجه : « من أتى حائضـاً أو امرأة من دبرها أو كاهناً فصدّقه بما يقول - فقد كفر بما نزل على محمد » ، وفي البخاري : « ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه ألا كفر » وفيه : « لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر » جعل التحاق الإنسان بنسب غير نسبه كفراً وكل هذا وغيره مبني على التغليظ والتشديد .

إطلاق الكفر على ترك بعض أركان الإسلام

وقد أطلق لفظ الكافر على مانع الزكاة كما في سابق قوله تعالى : ﴿ يا أيهـا الذينَ آمنوا ، أنفقوا مما رزقْـناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والـكافرون هم الظالمون ﴾ (٢ : ٢٥٤) ، أي والمانعـــون للزكاة أو النفقة في سبيل البر هم الظالمون ، فوضع « الـكافرون » موضعه تغليظاً وتهديداً

وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله : ﴿ ووَيْل للمُشركينَ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ (٤١ : ٦) ، وكما قال تعالى : ﴿ ولله على الناسِ حِجُّ البيت مَنْ استطاعَ إليه سبيلا ، ومَن كفَرَ فإنَّ اللهَ غني عن العالمينَ ﴾ (٣ : ٩٧) فقال « ومن كفر » مكان « ومن لم يحج » تغليظاً وإيذاناً بأن ترك الحج من سمات الكافرين ، وقال تعالى : ﴿ فأما الذين اسودّتْ وجوههم ، أكفرتُم بعدَ إيمانكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرُون ﴾ (٣ : ١٠٦) ، جعل تفرقهم واختلافهم كفراً ، تغليظاً ، لأن هذا العمل لا يصدر إلا من الكافرين ، كما قال : ﴿ إنْ الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لستَ منهم في شيء ﴾ (٦ : ٥٩) وقال تعالى : ﴿ ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزل اللهُ ، فأولئك هم الكافرون ﴾ (٥ : ٤٧) قال ابن عباس في هذه الآية : « كفر دونَ كفرٍ » ولذلك قال بعده : ﴿ ومنْ لم يَحكمْ بما أنزَلَ اللهُ — فأولئك هم الظالمون ﴾ (٥: ٤٨) ثم قال : ﴿ ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزل اللهُ — فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٥ : ٥٠) ، فهذا الكفر هو الظلم والفسق المذكوران بعده .

وكما يطلق الكفر على ترك بعض أركان الإسلام ، فبالمقابلة قد يطلق الإيمان على فعل بعض أركان الإسلام ، ونجدذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليُضيعَ إيمانكم ﴾ (٢ : ١٤٣) أي صلاتكم ، وقد عقد البخاري باباً عنوانه « وكفر دون كفر » .

الكفر في عرف القرآن الكريم

فمن الشواهد السابقة وما إليها مما لم نذكره نعلم أن القرآن الكريم قد يطلق لفظ « الكفر » على غير المعنى الاصطلاحي للمتكلمين والفقهاء لأن القرآن هو فوق كل الاصطلاحات الجديدة ، وإن هذا النوع من « الكفر » مما يتهاون فيه المسلمون في هذه الأزمنة وفي أزمنة قبلها ، لظنهم أن كل كلمة « كافرين » في

القرآن إنما يراد بها الكافرون بالمعنى الخاص في اصطلاح المتكلمين والفقهاء ، وهذه الشواهد ونحوها تبطل ظنهم .

فالكفر في عرف القرآن الكريم ليس خاصاً بما يعده الفقهاء والمتكلمون كفراً ، فمن عرفه أن المتفرقين في الدين يعدون من الكفار ، وأن اتحاد الكلمة والاعتصام بالوحدة إيمان ، والخروج عن ذلك كفر ، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، ولعمل شعباً كثيرة من أعظمها الاتحاد وعدم التفرقة والاختلاف، كما ان للاعتقاد شعب كثيرة من أعظمها الثقة بالله والرجاء في تفريج الكرب ، فاليأس إذن كفر ، هذا تحقيق المقام في معنى كلمة « الكافرون » هذا ولم أجد أحداً من المفسرين تكلم عليها ببنت شفة والله تعالى يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .　(مرحى)

الفصل الرابع

سفرة إخوة يوسف الثالثة لمصر

آ (٨٨) « ... فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز ، مَسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ ، وجِئْنا بِبِضاعةٍ مُزْجاةٍ ، فأوْفِ لنا الكَيْلَ ، وتَصَدَّقْ علينا ، إنَّ اللهَ يَجْزي المُتَصَدِّقينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثمانون فقام شوكة أفندي الجركسي وقال :

سمع أبناء يعقوب العشرة كلام أبيهم فآنسوا منه قوة عقيدة بحياة يوسف ،

وسلامة بنيامين من التسول ، وتصميمه على رجوعهم ثالثة لمصر ، للتنقيب عنهما فواصلوا سيرهم حتى أتوا مصر ، وعرجوا على البلاط الذي فيه عزيز مصر الجديد (فلما دخلوا عليه) أي على العزيز (قالوا : يا أيها العزيز) عزيز مصر المحترم (مسنا وأهلنا الضر) الجوع والهزال وسوء الحال (وجئنا) إليك مع الخجل (ببضاعة مزجاة) رديئة ، من متاع الأعراب ، صوف وسمن ، أو عِلك وإقط أو نحو ذلك (فأوف لنا الكيل) أي أعطنا شيئاً فوق حقنا بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا (وتصدق علينا) بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة (إن الله) له المجد (يجزي المتصدقين) في الدين وكذا في الآخرة فيما نعتقد نحن وفيما تعتقدون أنتم ، إذ لا فرق في ذلك بين دين إبراهيم ودين المصريين والعمالقة.

(فلما دخلوا عليه قالوا .. الخ)

— ١ —

وتابع شوكة أفندي الجركسي كلامه قائلا : لقد بينت لكم أيها السادة مجمل تفسير الآية وها أنا ذا أبين لكم مفصلها :

دخول أبناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة الثالثة وتذللهم له في طلب الميرة

ضاق أبناء يعقوب من بكاء أبيهم وتأسفاته ، وأشفقوا على دمعه الصبيب فسمعوا لما طلبه منهم وقاموا ليفتشوا عن يوسف وبنيامين ، فتأهبوا للرحيل وأعدوا معدات السفر وركبوا ، وفصلوا عن «سيلون» وحولوا عنان دوابهم شطر الديار المصرية وهمزوها . وأما أبوهم فكان يشيعهم بالنظر ، ولما بعدوا عنه صار يشيعهم بالقلب ، وأخذوا يطوون الأرض طياً في غمار المسافرين من التجار والممتارين ، حتى وصلوا « صوعن » حاضرة مملكة الهكسوس بمصر ، فنفضوا عن وجوههم وثيابهم غبار السفر ويمموا شطر بلاط العزيز ، ثم دخلوا على العزيز « يوسف » وهو لابس قميص

البوص الملكي ، وقالوا له بصوت مختنق : يا أيها العزيز في هـذه الديار المصرية الهكسوسية ، نحن مدينون لك سابقاً بما أوفيت لنا الكيل ، وكنت لنا خير المنزلين ، ورددت لنا بضاعتنا في رحالنا ، فكأنك كلت لنا الميرة مجاناً ، فنحن لا يسعنا إلا شكرك والثناء عليك ، وإن هذه المعاملة الجميلة لتحملنا على التجاسر والطمع وعرض حالتنا الحزنة على مسامعك الشريفة ، يا أيهـا العزيز المحترم ، اجتزنا التخوم ، وتخطينا البلدان ، وطوينا الغبراء ، لاغبين مـن الضرب في الأرض ، وجوب الصحراء، يقودنا الأمل ويسوقنا الرجاء ، تارة نمشي في حَمارَّة القيظ وحيناً نسير في زُلف من الليل ، أيها العزيز الكريم ، الرحمة الرحمة ، لقد مسنا وأهلنا الضر ، مسنا الأين والبين ومس أهلنا الجوع والهزال سوء الحال ، فوقعوا في شبكة السغب،وحاط بهم جيش الهزال من كل جانب – مسنا وأهلنا الضر – كلمة تترجم في بيان الواقع ، وبيـان التذلل للمخاطب – وصَفِرت بيوتنا من الحَب ، فأملَقْنا وَترِبْنا ، ولحقنا النّصَب واللُّغُوب ، وجئنا اليك بعد اللتي واللتيا ومع الخجل ، ببضاعة مزجاة ، رديئة يدفعها من تعطى له، وقد صفرت أيدينا ممـا سواها ، وهي ليست من عقيلة المال ، ولا حر المتاع ، وحبذا لو كانت عندنا دنانير صفراء ، لكنا قدمناهـا ، أو لو كان معنا دراهم بيضاء لكانت نفعتنا في هذه الأيام السود ، فارحمنا وتعطف علينا ، وأوف لنا الكيل ، بحيث يكون طافاً زائد عن الحق الذي لنا ، كما هي عادتك الحميدة ، منذ القدْمة الأولى ، وتصدق علينا بغض النظر عن رداءة بضاعتنا ، وأنهـا مدفوعة مردودة ، فإن للصدقة مراتب هذا منها ، وقد قيل :

عدِّيا في زمـانِنا　　عن حديث المكارمِ
من كفى الناس شره　　عُدّ في جود حاتمِ

أو أنهم تمسكنوا له وطلبوا اليه أن يتصدق عليهم بأن يعطيهم ما تسمح به يده بلا مقابل منهم ، وهذا هو ظاهر اللفظ الذي نطقوا به .

فلما دخلوا عليه قالوا .. الخ

- ٣ -

ثم قال أبو الوفاء الكركوكي [١] وقال :

لي ههنا الملاحظات التالية :

مراحل الخطاب او « الاستدعاء »

١ً - تأنقوا في خطابهم مـــا شاءوا وشاء لهم انكسار قلوبهم ، فافتتحوه باحترام مخاطبهم ، وتلوه بشكاية الحـال اليه ، فالاستجداء ثم ختموه بالترغيب فيه إن قلنا إن الجملة الأخيرة خبرية محضة ، أو ختموه بالدعاء إن قلنا إنهـا جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى ، فهذه الآية التي نطقوا بها ، هي من قبيل ما يسمى اليوم « استدعاء » يصدر بترويسة تحتوي على اللقب الرسمي للمعروض اليه ، ثم على بث الشكوى ،ثم الطلب ، ثم الترغيب في فعل الخير أو الدعاء للمعروض اليه ،

مقايسة بين العبرانيين والعرب في الهمة

٢ً - كلامهم هذا هو « عرض حال » شخصي ، أعني لأجل شخصية واحدة ، لا لأجل عموم أهل بلد مثلاً ، ولكن تحضرنا الآن حكاية ذكرها صاحب الأغاني وقعت من بعض العرب ، ننقلها ليعمل القارىء مقايسة بين همـة هؤلاء الناس العبرانيين ، وبين همة ذلك العربي الصميم ، واليكم تلك الحادثة المدهشة :

دخل أعرابي على « هشام بن عبد الملك » فقال : يا أمير المؤمنين ، أتت علينا

(١) نسبة الى بلدة كركوك في العراق .

ثلاثة أعوام ، فعام أذاب الشحم ، وعام أكل اللحم ، وعام أنقى العظم ، وعندكم أموال ، فان تكن لله ، فبثوها في عباد الله ، وان تكن للناس ، فلم تحجب عنهم؟ وإن تكن لكم فتصدقوا ، إن الله يجزي المتصدقين » — قال هشام : « هل من حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ » — قال : ما ضربت اليك أكباد الإبل ، أدّرع الهجير ، وأخوض الدجى لخاص دون عام !!! » ، فأمر هشام بأموال فرقت في الناس ، وأمر للأعرابي بمال فرّقه في قومه ! . هذا هو طلب الأعرابي ، ولكن هؤلاء الإخوة جاءوا يطلبون لأنفسهم دون أنفس سواهم ، وعلى الأقل ، ما سمعنا عنهم أنهم أوصوا بسواهم من أهل فلسطين وجارتها آرام ، فلم يتشفعوا لأحد ما قط ، بل قصروا همتهم على أشخاصهم ، تأمل يارعاك الله المرمى الذي رمى اليه ذلك العربي الصميم ، والمرمى الذي رمى اليه هؤلاء الإخوة ؟ تأمل كم يوجد بين العرب واليهود فرق في الشمم ، وعلوا الجناب وبعد الهمة ؟ وماذا بين العرب واليهود من البعد الشاسع في الشفاعات الذاتيه الشخصية ، كما هي حالة اليهود ، والشفاعات العمومية ، كما هي حالة العرب ؟

ولا ريب ان هذه الشيمة في هؤلاء وهؤلاء موروثة لسلائلهم ، فعرب فلسطين اليوم إذا طلبوا أمراً ، طلبوه لعامتهم ، ولكن الصهيونيين إذا سعوا في تحصيل شيء فانما سعيهم لأنفسهم ، ولا فائدة منهم لسواهم .

البضاعة وطرق المبادلة بها

٣ـ تعليقاً على قولهم : (وجئنا ببضاعة) البضاعة لغة القطعة من المبيعات التي يتجر فيها ، كأنهم أرادوا أن يجروا مع « عزيز مصر » صورة مبادلة ، وصور المبادلة تختلف ، فبعضها يحصل على سبيل مبادلة الشيء بالشيء ، ويسمى المقايضة ، والمقايضة بالنقد هو النوع المتبع في البلاد المتمدنة كمصر ، ولذلك كانوا (شروه بثمن بخس دراهم معدودة) (آ ٢٠) ، ومقايضة عروض بعروض هو

النوع المتبع في البلاد غير المتمدينة ، كفلسطين في ذلك العصر ،لأنها كانت بدواً، كما سيأتي ليوسف أن يقول : « وجاءَ بكم مِنَ البَدْوِ » (آ ١٠٠) ، وقد كانت المبادلة والمقايضة شائعة منذ القديم ، من أول أيام خلقة البشر ، وإن المزايا التي منحها الله للبلاد والممالك المختلفة ، وان المواهب التي اختص الله بهـا أناساً دون آخرين - جعلت المبادلة أمراً اضطرارياً ، فهذه أراضي السودان أكثرها خالية من الملح الذي هو أهم حاجات البشر ، ولذلك يضطر السودانيون لاستجلاب الملح من الممالك الكائنة خارج بلادهم ، يستبدلون به الحبوب والحيوان وإن أصحاب المواشي كيعقوب وأولاده لا يشتغلون بالزراعة ولا بالبضاعة ، وإنما يكون عندهم الجلود والنعال والإقط والجبجب والسمن والزبدة ، ونحو ذلك مما كان يسهل وجوده بطبيعة الحال عند أولاد يعقوب ،عليه السلام ،فلذلك ،ولكونهم كانوا من أهل فلسطين المتبدية غير المتمدنية ، فنحن نرى على أغلب الفكر أن هذه « البضاعة » التي جاءوا بها هي من هذا القبيل مما يسهل نقله من فلسطين لمصر ، وإنما قالوا « مزجاة » لأنهم ربما كانوا قد جربوا عرضها على التجار عندهم في فلسطين فلم يقبلوها ، وربما أرادوا إنها مزجاة اليوم في مصر ، لرداءتهـا أو لكونها غير لازمة لأسواق مصر ، لأن العروض قـد تكون مقبولة في بلد دون بلد ، وفي وقت دون وقت ، بخلاف النقود فانها مقبولة في كل مكان وزمان ، فمما ذكرنا من حال فلسطين وحال أولاد يعقوب الذي كانوا عليه ، وبيان معنى البضاعة لغة ، يترجح عندنا ان تفسير هـذه « البضاعة » بالنقود ضعيف جداً ، فافهموا .

٤ً - ربما كانت عبارة (فأوف لنا الكيل) راجعة لقولهم (مسنا وأهلنا الضر) وعبارة (وتصدق علينا) مرتبطة بقولهم : (وجئنا ببضاعة مزجاة) ففيه لف ونشر مرتب .

إخوة يوسف يثبتون له جزاء على صدقته

٥َ - قالوا : (وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) وهم في ظنهم إنما

يخاطبون رجلاً وثنياً من وثني المماليق الهكسوس ، أو من وثني المصريين، ومع ذلك فقد أثبتوا ليوسف ، جزاءً على صدقته ، وهذا منهم صحيح ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة، : ﴿ فَمَنْ يعملْ مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧) ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ ، فلا تُظْلَمُ نَفسٌ شيئاً ، وان كان مثقالَ حبةٍ مِنْ خَرْدلٍ أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢١ : ٤٧) ﴿ نُصيبُ برحمَتِنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المُحسنينَ ﴾ (آ ٥٦)، وأما ما يوهم خلاف ذلك فمؤول ،

ولو كان هذا موضع العتب لا شتفى　　فؤادي ولكن للعتاب مواضعُ

جزاء المتصدقين في الدنيا والآخرة

٦ - تعليقاً أيضاً على قولهم (إنَّ الله يجزي المتصدقين) أي يجزيهم في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ ويجزيهم في الدنيا بالصحة والعافية ورفع درجات الاحترام والثناء عليهم من الناس .

كل الأمور تزول عنك وتنقضي　　إلا الثناء فانه لك باقي

قال عليّ بن الجهم :

هي النفس ما حملتها تتحمل　　وللدهر أيام تجور وتعدلُ
وعاقبة الصبر الجميل جميلة　　وأكمل أخلاق الرجال التفضلُ
وما المال إلا حسرة إن تركته　　وغنم إذا قدمته متعجلُ

وقال غيره :

قدم لنفسك زاداً　　وأنت مالك مالكْ
من قبل أن تتفانى　　ولون حالك حالكْ
ولست تعلم يوماً　　أيَّ المسالك سالك
إمَّا لجنة عدن　　أو في المهالك هالكْ

وقال آخر :

يا غافلاً عن حركات الفلكْ نبهك الله فما أغفلكْ
لغيرك مـا أنت ورثته وما أنت أنفقته فهو لكْ

ذلة الإخوة مع الأجنبي « العزيز » وعظمتهم مع أبيهم وأخيهم

٧ – تعليقاً على قـولهم : (مسنا واهلنا الضر) و (تصدق علينا) كلام يشف عن الذلة والمسكنة للاجنبي ، وأين هذا الصغار والتنازل مع الاجنبي من تلك الدبدبة والعظمة مـع أبيهم وأخيهم ، حينما كانوا قالوا : (إن أبانا لفي ضلال مبين) ، (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً)(إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)،(تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين)، حتى أن أولادهم ساروا سيرة آبائهـم ، وعلى العروق ينبت الشجر فقالوا : (تالله إنك لفي ضلالك القديم)لعمري إن الذي حملهم على ما هو المذكور هنا من عبارات الاستكانة والخضوع إنما هو الاحتياج وحب المنفعة ، قيل إن « كُثَيِّر عزّة » و « الكميت » كانا شيعيين ، غاليين في التشيع ، وكانت مدائحهم في« بني أمية » أشرف وأجود منها في « بني هاشم » ، ومـا لذلك علة سوى الحـاجة والانتفاع ، وان هؤلاء الأشبال !! ، أصول اليهود ، قد ورّثوا هذه الطبيعة التي عاشوا عليها - سلائلهم يهود اليوم لا سيما الصهيونيين منهم ، فتراهم عند الطلب من « الانكليز » أو غيرهم من الأجنبي عنهم ، في غاية الذلة والضراعة ، لكنك تراهم في معاملة أبناء عمهم « العرب» ! في نهاية الخشونة والبربرية !! . شنشنة أعرفها من أخزم .

خضوع البشر لحكم الغريب

٨ - توسلوا اليه بصوت مازجه السؤال ومسكنة التشكي ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه أنه أخوهم ، ولو كانوا يعرفونه أنه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم أن

يخضعوا له هذا الخضوع وذلك لما في فطرة البشر من قلة الاحترام بين الأقرباء فالإنسان إذا تُرك لفطرته، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه أو لأحدالغرباء فضّل الخضوع للغريب ، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء ـ أسهل قياداً ، وأقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم اناس من أبناء جلدتهم ، وبهذه القاعدة يستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها كأصل الفراعنة الأولين مثلاً ،فالمؤرخون مختلفون في هل هم مصريون أو خلاء؟ ونظراً لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجع أنهم غرباء فاتحون للسبب الذي تقدم . (قالون)

عتاب وتذكير

آ (٨٩) .. « قالَ هلْ علمتم مـــا فَعلتم بيُوسفَ وأخيهِ إذْ أنتم جاهِلونَ ؟ »

افتتحت الجلسة وتليت الآيـــة التاسعة والثمانون فقام حيدر افندي المرعشي [١] وقال : إن التفسير المجمل لهذه الآية هو كما يلي :

تقدم أن إخوة يوسف وقفوا بين يدي يوسف « العزيز » وقالوا له ما قالوا الآية الكريمة السابقة ، وأما هو ، فلما سمع تذللهم وضراعتهم ، (قال) لهم ، بلهجة المذكر المعاتب : (هل علمتم) أي هل تتذكرون وتعرفون قبح (ما) كنتم (فعلتم) منذ ثلاث وعشرين سنة (بيوسف وأخيه) ابن أمه وأبيه بنيامين ، (إذ أنتم جاهلون) من أهل الجهالة والسفه ، أو جاهلون سوء مغبة عملكم .

(١) نسبة الى مرعش احدى المدن التركية .

قال هل علمتم .. الخ

— ١ —

ثم تابع حيدر افندي المرعشي كلامه قائلاً: وأماتفسير الآية المفصل فهو :

عتاب يوسف لإخوته وتذكيرهم بالتوبة

رأى يوسف أن إخوته قد اشتكوا اليه شكاة تنم عن رقة الحال ، وشظف العيش ، ولحوق المخمصة رآهم قد ودعوا جميع أقوال الشدة ، وأعمال النزق وخواطر ثورة الشباب ، وأنه قد استحالت نفوسهم الصلبة الى نفوس أخرى غيرها ، لا صلة لها بها ، نفوس مطمئنة وديعة رقيقة ، رآهم قد غلبت فيهم نزعة الخير على نزعة الشر ، سمع منهم كلمة ملؤها الوداعة والذل ، فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفسه ، وحزن لأجلهم ، وتأثر من بؤسهم ، واعتزم على إظهار نفسه لهم ، حتى يضمهم وأهليهم بمعيته ، ليعيشوا عيشة الرغد والسعة ، سمع يوسف تذللهم ، فأطرق بنفسه هنيهة ثم قال لهم : أيها الذّالون [١] المُسْتَمْدُون [٢] ، يا أبناء « لينة » و « بلهة » و « زلفة » أتذكرون ما حفظه التاريخ بين طياته؟ فما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وأخيه؟ وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ فهل تدرون ذلك وتعرفونه وتتذكرونه وأنتم في حالة التمرين في أعمال الجهالة [٣] ؛ إذ جهلتم عليهما بل وعلى أبيكم، بل وعلى الأخلاق الفاضلة والطريقة المثلى ، بل وعلى أنفسكم لأن من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

أنا الآن لا أريد استعراض تلك الحوادث الممضة ، التي أدمت القلوب وفجعت المنكوبين ،أنا الآن لا أريد أن أحاسبكم حساب الملائكة للميت في قبره ،ولكنني أعتب على الإخوة ، أعتب على ذوي الرحم أن يفعلوا ما يدنس سمعتهم .

(١) ذل : خضع (٢) استمداه : استغاثه (٣) اي السفه .

هل علمتم أنكم كدتم لهما ردحاً من الزمن ؟ هل علمتم أنكم شراً حصدتم لهما ؟

لا إخالكم إلا تعلمون ذلك وتذكرونه ، ولا أظن أنكم تجهلونه ولا أنه عزب عن أفكاركم ، راجعوا تاريخكم العتيق تجدونه قد طوى بين صفحاته الكثير المدهش من أعمال القساوة راجعوا أعمال ما قبل ٢٣ سنة تقفوا على تفاصيل ما أشير اليه .

هل تذكرون أنكم شردتم يوسف عن أبيه وأخيه ومواطنيه ، وأنكم قد ناوأتموه ، ولم تهادنوه ، ولم تؤاتوه ، ولم تهدأوا عن الكيد له ، وألقيتموه في دامس الجب ، وأما أخوه بنيامين ، فقد أحزنتم قلبه ، أفقدتموه شقيقه ، أعدمتموه لذة الحياة ، حتى صار شريكه في هذا المصاب ، بل وشريك أبيه في أحزانه ، فتجرع من الحزن كأسين ، كأس حزنه على شقيقه ، وكأس حزنه على أبيه يعقوب .

إنكم بعملكم ذلك أصبح يوسف بتشريدكم إياه عبداً مملوكاً يباع في سوق الرقيق ، ثم خادماً في بيوت الأمراء ، ثم ملوثاً بالجريمة زوراً ، ثم سجيناً مع الأئمة !! ..

وأما بنيامين فأصبح بفضل إجراءاتكم غريباً منفرداً ، لا يجد بين القلوب الخافقة حوله قلباً يحزن لحزنه ، ولا بين العيون الناظرة اليه - عيناً تبكي لبكائه ، وإنه ليخيل إليّ أنكم كنتم تهينونه ، لأنكم ترون فيه ذنب الأفعى .

سبحان الله ، شرارة واحدة حرقت الأخضر واليابس ، فعلتم ما فعلتم ، وكأنه لا شيء في أعينكم ، : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ (٢٤ : ١٥) أنا لا أريد بكلامي هذا أن أقوم بتنظيم خطط الهجوم ، ولا أكلفكم في مقابلة ذلك نصب آلات الدفاع ، ولا أريد أن أصفي حسابي معكم ، لا . لا . لا .. ولكنها زفرة نفس ، وحسرة قلب ، ونفثة مصدور ، أعالج بها بعض كلوم الفؤاد ، وذكرى وكلمة مختصرة للسامع ، عساه أن يفيق بعدها من جهالته .

قال هل علمتم .. الخ

- ٢ -

وقام الشيخ الكواكبي [١] وقال :

يوسف يشفق على إخوته ويتنصح لهم

سمع يوسف كلامهم المتواضع ، ونظر في سحنهم ، فرأى في لحن كلامهم وملامحهم ما يدل على ذلهم وخضوعهم ، وأنهم قد ذهبت منه الجرأة؟ وانفثأت تلك الحمية الأولى ، فشعر للحال برحمة في قلبه ، وعطف جديد نحو إخوته ، فلم يتمالك عن إظهار نفسه لهم ، ومما استدعى حنانه عليهم بنوع خاص قولهم : (مسنا وأهلنا الضر) ، إذ تصور أن والده من أهلهم ، وكذا قولهم (وتصدق علينا فانه لما سمعه حرّق أسنانه ، فاذا دمعة رقراقة تترجح في عينيه ، وقد خامره حنو وانعطاف نحوهم ، ففضّل أن ينفض لهم جملة حاله ، ويعرفهم بنفسه ، فأتاهم من جهة الدين ، وكان حليماً موفقاً ، وقال لهم هل أتى حِينٌ علمتم فيه قبح ما كنتم فعلتم بيوسف وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ؟ أنا أتأكد أنكم كنتم لا تعلمون قبحه تمام العلم ، ولا ماذا سينجم عنه من المفاسد ، فلذلك كنتم منذ ٢٣ سنة أقدمتم عليه ، ولكن اليوم هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه ؟ أرجو من الله أن تكونوا كذلك ، فاني على استعداد لمد يد المصافحة والمحبة ونسيان الماضي المؤلم .

العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجر الى التوبة

استفهم يوسف عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، لأن علم القبح يدعو الى الاستقباح ، والاستقباح يجر الى التوبة ، فهذا من قبيل

(١) نسبة الى آل الكواكبي في مدينة حلب (سورية)

سياسة « جس النبض » عن توبتهم . لعله يجدهم قد تابوا ، فيجد منفذاً للعيشة معهم بسلام ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي ينفث فيه المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك فيه الموتور ثأره ، وينفس فيه المكروب عن كربه ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها[1] ؟ ولله حصا[2] عقولهم ما أرزنها وأرجحها؟

(قال هل علمتم ..)

- ٣ -

وقام الشيخ عبد الحميد الدوماني[3] وقال :

لي على هذه الآية الكريمة المواد التالية :

درجات المعاتبة وموقع كلام يوسف منها

المادة ١ - قيل إن كلام يوسف مع إخوته كان من قبيل المعاتبة التي هي أقل من « التثريب » بدرجات ؛ فهي المعاتبة ، ثم اللوم ، ثم التقريع ، ثم التوبيخ، ثم التأنيب ، ثم التثريب ،

قال بعض العلماء : المعاتبة احتكاك بين القلوب ، تزيدها حرارة وتجاذباً ، والعتاب فاتحة حديث المحبين ، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد وأكثر الناس لؤماً ، أقلهم لوماً ، قال الناظم :

لعل عتبك محمود عواقبُه ... فربما صحت الأجسام بالعللِ

صَدَقَ الخَبَر الخُبْر

المادة ٢ - هذا القول الذي صدر من يوسف لإخوته هو مصداق قوله تعالى:

---

(١) سجح الخد كفرح : سهل . (٢) الحصا المعقول والحصاة العقل . (٣) نسبة الى دوما من ضواحي دمشق (سورية)

﴿ وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ (آ ١٥)

أدب الإخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم حقده عليهم

المادة ٣ – كان يوسف سمع كلام إخوته ،فرآى عليه صبغة الأدب والخنوع، فرق لهم وابتدأ يكشف لهم عن حاله ، ويبين شخصه من هو . توصلاً لمنفعتهم وجلبهم وأهليهم عنده ، ولم يكن ليحقد عليهم لما فعلوه معه من قبل .

وقد جُرِّب وروى لنا التاريخ أن أدب الطالب ، قد يحمل الإنسان على الجود ومكارم الأخلاق ، كما قيل إنه وفد رجل من بني ضبة ، على عبد الملك ابن مروان ، فقال :

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلبٌ اليك – من الذي نتطلبُ ؟
فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسبُ
فاصبر لعادتنا التي عودتنا أو ، لا ، فأرشدنا الى من نذهبُ ؟

فقال عبد الملك : « اليّ اليّ » وأمر له بألف دينار .

ويحكى انه جيء الى « الرشيد » « بعبد الملك بن صالح » في قيوده ، فقال له « يحيى بن خالد » البرمكي وأراد أن يبكته : « إنك حقود » – فقال : « إنما صدري خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شر » – فقال الرشيد : « والله ما رأيت أحداً احتج بمثل ما احتج به عبد الملك » ،

قال بعض العلماء : إن عبد الملك بهذا الاحتجاج فتح الباب « لابن الرومي » حيث قال :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعضِ
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة فثم ترى شكراً على حسَنِ العوْضِ

هذا ولكن الطريقة المحمدية تعلمنا تناسي الحقد وأسبابه بتة ، ولذلك لم يرد أن النبي ﷺ عاتب أحداً بما سبق أن صنعه معه ، فكان يعفو ويغفر من الابتداء، وقد ورد أنه قال يوم فتح مكة : « ما ترون أني فاعل بكم؟ » قالوا: « أخ كريم وابن أخ كريم » — فقال : (أقول كما قال أخي يوسف) : « لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين»، «اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء».

أسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام

المادة ٤ - قال (بيوسف وأخيه) ولم يذكر أباه ، مع أن المصيبة كانت وقعت على رؤوس الثلاثة ، بل ربما يظن الظان أن حصة أبيه من هذه المصيبة هي أكثر من حصتيهما ، وجوابنا عن ذلك من وجوه :

أ — إن يوسف يعلم أن أباه مزوّد بالبشائر الإلهية في شان ابنه الحبيب ، وأنه على مثل اليقين من حياة ابنه ، وانه سيجتمع به ، وانه سيقع كل ما بُشِر به ولده في المنام ، وكل ما أوحي به اليه في شأن ولده ، فيعقوب في الواقع مطمئن الخاطر من هذا القبيل ، بخلاف بنيامين الذي كان لا يعلم من مستقبل أخيه يوسف شيئاً ، فلا ريب أن كربه يكون شديداً .

ب — إن يوسف يعلم أن أباه نبي من أنبياء الله ، ورسول من الرسل الكرام والأنبياء والرسل أهل صبر وتحمل : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبَرَ أولوا العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ ﴾ (٤٦ : ٣٥) فلا تؤثر عليهم النوازل تأثيراً كثيراً ، ولذلك نرى ان سيدنا يعقوب حينما أخبر بأن ذئباً افترس ولده يوسف قال : (فصبر جميل) ، ثم لما أنبىء بأن ابنه بنيامين سرق ، قال أيضاً (فصبر جميل) ، وأما ما نزل عليه من الحزن الذي نتج عنه ابيضاض عينيه ، فهو أمر وجداني يطرأ على الانسان بغير اختياره ، كما يطرأ عليه الجوع والعطش والسرور — الى غير ذلك من الوجدانيات .

ج ـ إن الانسان مهما عمر في هذه الدنيا ، فانما عمره اللذيذ هو أيام شبابه وكهولته ، أعني العقود الثلاث ، التي هي الثاني والثالث والرابع ، أي من العام الحادي عشر ، الى عام الأربعين ، فهذه الأعوام هي ربيع العمر الحاوية لمبتدأ الشبيبة ونهايتها ، حين تكون القوتان البدنية والنفسية قد ابتدأتا ، ثم كملتا،حين تكون الصدور مشروحة ، والقلوب مفتوحة ، لمسرات الحياة،وملذات العيش، فهذه المدة هي زهرة عمر الانسان وتاج حياته ، وإكليل وجوده ، فيها تكون الروح فرحة مغتبطة ، والنفس صافية مسرورة، وأما ما قبل ذلك ، وهو العقد الأول فهو حلم من الأحلام ، كما ان مـــا بعد الأربعين ، وهو العقد الخامس فما بعده ، فهو عيشة الوقار والتقيد ، فتلك العقود الثلاث هي « الثروة » التي إن ذهبت لن تعود ، وهي أيام« الصفا » التي بتكديرها يضيع العمر كله ، فالمقصود بالذات من العمر ـ بالنسبة للملذات الدنيوية ـ هو هذه العقود الثلاثة ، وأما ما قبلها من العقد الأول ، فهو كالتقدمة لها، كما ان ما بعدها من العقو . هو كالتتمات والخواتيم ، وما أصدق قول من قال : العقد الأول من العمر هو حلم محض ، لا هو للدنيا ولا هو للآخرة . . .

إذا كنت قد فهمت ما قلناه حق فهمه ، وكنت قد علمت أن « يوسف » قد آسفه إخوته وأحزنوه في أيام شرخ شبابه ، وعنفوان قدرته ومبدأ زهرة عمره إذ فرقوا بينه وبين شقيقه وأبيه ووطنه ، من حين أن كان عمره ١٧ سنة ، الى أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، وأن « بنيامين » قد آسفه إخوته وأحزنوه ، في مثل تلك الأيام الزاهرة ، أيام الملذات والمسرات ، إذ فرقوا بينه وبين شقيقه من حين أن كان عمره نحو ٧ سنين ، الى ان بلغ من العمر نحو ٣٠ سنة .

إذا أحطت علماً بمجموع ذلك كله ، تعلم علة كون يوسف جعل ما فعله به إخوته مصيبة نازلة عليه وعلى أخيه،دون أبيهما فهذه المصيبة نزلت بيوسف وأخيه

في أيام الشباب، ومقتبل العمر، أيام الملذات والمسرات والأفراح، التي إن ذهبت لا يمكن أن تعوض، فهما بدلاً من أن يجدا في زهرة عمرهما الفرح والغبطة والملذة، فقد وجدا الحزن والألم والمصائب؛

وأما أبوهما سيدنا يعقوب عليه السلام، فهو إنما أصيب بفراق يوسف حينما كان عمره ١١٠ سنوات، فمصيبته بابنه وإن تكن في ذاتها عظيمة، لكنها صادفت أيام شيخوخته وكبره، بعدما كان أخذ سهمه من الغبطة أيام شبابه، فكم وكم مضت له إبان شبابه أيام صفاء وسرور، وليالي أنس وحبور، حينما كان في حضن أبيه « إسحاق » وأمه « رفقة » بفلسطين، الى أن صار له من العمر نحو ٥٢ سنة، ثم بعدما هاجر الى « العراق » عند خاله « لابان » مكث هناك عشرين سنة، قضاها مسروراً بزوجتيه « ليئة » و « راحيل » وسُريتيه « بلهة » و « زلفة »، ثم كان أولاده الأحد عشر وبناته حواليه، لا يكدر صفاء عيشه بشيء؛

فهل حصل ليوسف وبنيامين، أيام شبابهما من الصفاء والغبطة عشر معاشر ما حصل لأبيهما أيام شبابه وكهولته؟ .. كلا .. بل بالعكس قضى يوسف أيام شبابه في غيابة الجب، الى كونه سلعة تباع وتشترى، الى سوق الرقيق بمصر، الى العبودية والخدمة، الى تلك الفتنة المدهشة، الى اعماق السجون المظلمة، .. وكل هذه الكوارث كانت موزعة على بساط مدة، هي من سن ١٧ حتى ٣١، وتلك هي زهرة الشبيبة، ولب العمر، وكذا قضى بنيامين لب شبيبته من وقت أن كان عمره سبع سنين، الى أن صار ابن ٣٠، وهو أشد الألم والذل، بفقدان أخيه، فقداناً لم يكن فيه مُعزٍ ولا مخفف، بخلاف أبيه يعقوب، فكان له مما أوحاه الله ليوسف في المنام، وله في اليقظة — بشأن ولده — أعظم تعزية وأكبر سلوان.

د — كان بنيامين ويوسف من أم واحدة، هي « راحيل »، وقد ماتت،

ويوسف ابن عشر سنين ، وبنيامين ابن سبعة أيام ، فنقلا من خيمة أمهما الخيمة جاريتها « بلهة » ، فكانا يأنس كلاهما بالآخر ، فلما غيب يوسف ، استوحش وحده في خيمة الجارية ، لا سيما وأن ولديها ، « دان » و « نفتالي » قد كانا اشتركا مع سائر الإخوة في المؤامرة على يوسف ، فلا ندحة أنه كان حصل وحشة بين بنيامين من جهة وبين بلهة مع ولديها من جهة أخرى ، وفي ذلك من ألم النفس ما لا يخفى ، هذا ما حصل لبنيامين ، وظاهر أنه لم يحصل لسيدنا يعقوب شيء من هذا القبيل .

هـ - سعادة الانسان في هذه الحياة الدنيا تقوم بوجوده مع أمه وأبيه وشقيقه وقد كان لبنيامين سعادة وحياة كاملة ، لو عاشت له أمه بعد ولادته ، ولكنها - وا أسفاه - ماتت نفساء قبل أن يشعر بها ، فمات بموتها ثلث سعادته وهنائه ، ثم ما عتّم أن أفقدوه أخاه وهو طفل ابن سبع سنين فلم يبق له من السعادة والهناء إلا الثلث ، ولم تكن صحيفة هذا الثلث بيضاء نقية ، بل كانت تعتورها عبرة الهم والذل ، بمبيته في خيمة الجارية بلهة ، بين ولديها ، اللذين كان لهما ضِلعٌ في المؤامرة على يوسف .

فبدلاً من أنه كان يجب أن ينشد أنشودة السعادة والهناء ، أصبح - وهو طفل وديع - ينشِد أنشودة الحزن والهم ، حزنه وهمه على إفقادهم إياه أخاه يوسف ، الذي كان يعده كل دنياه ، ويعتبره تعزيته الكبرى بعد أمه ، ويحسبه ذراعه اليمنى ، فهم كسروا ذراعه وأعدموه تعزيته ، وخسّروه كل دنياه ، في ساعة واحدة .

وغني عن البيان أن هذا المعنى لم يحصل لسيدنا يعقوب عليه السلام .

توجيه السؤال من يوسف لإخوته كان بمثابة دعوتهم للاعتراف والتوبة

المادة ٥ - يشبه أن يكون السؤال الذي سأله يوسف في الآية هو من قبيل

السؤال في قوله تعالى: ﴿ يا عيسى بنَ مريمَ ، أأنتَ قلت للناس : اتخذُوني وأمي إلهيْن مِنْ دونِ الله ﴾ (٥ : ١١٩) فتوجيه الله السؤال الى عيسى ليس معناه أنه لا يعلم بالجواب ، ولكن ليعترف عيسى بأنه مربوب ، وأنه من جملة عبيد الله الذين يعبدونه ، ليكون ذلك منه هو نفسه أصرح رد على الذين ظلموه وأعطوه فوق مرتبته ، وهكذا يوسف وجه سؤاله لإخوته ليعترفوا ويتوبوا ، وقد كان، فقد اعترفوا بالخطأ إذ قالوا : (وإن كنا لخاطئين) ، ومن أقر بذنبه غفر الله له، فكأن ما صدر من يوسف عتاب على جهة الموعظة ، كما قال العتّابي من قصيدة:

وجعلتُ عتبك عتب موعظةٍ ورجاء عفوك منتهى أمــــلي

تضمين يوسف عتابه لإخوته الاعتذار عنهم تمحلة لهم

المادة ٦ — كأن أخاهم ضمّن العتاب الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم لطفاً منه وأدباً ، كما قال بعض الشعراء :

إذا شئت أن تدعى كريماً مهذباً سنياً سريــــاً ماجداً فطناً حرا
إذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتـــالاً لزلته عذرا

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ،ثم تابَ مِنْ بعدِهِ وأصْلَحَ ، فأنــــه غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٦ : ٥٤) ، وقال تعالى ﴿ إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعمَلونَ السوءَ بجهَالةٍ ، ثم يتوبونَ مِنْ قريبٍ ، فأولئك يتوبُ اللهُ عليهم ، وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾ (٤ : ١٦) .

سلوك يوسف مسلكاً وسطاً في أعماله وأقواله

المادة ٧ — نقرأ في هذه السورة الشريفة ، فنجد يوسف عليه السلام قــد

سلك في أعماله وأقواله مسلكاً وسطاً ، سلك ، ذلك مع إخوته ومع سواهم وخير الأمور الوسط ، وهذا يظهر لنا في مواضع عدة منها :

١ً ـ إنه لما راودته زليخا لم يخضع لها ، ولم يغلظ لها القول ، بل أجابها بالمعقول والأدب ، متمنعاً عن مؤاتاتها (آ ٢٣) .

٢ً ـ إنها همت به ضرباً أو قتلاً ، وهو بالمقابلة هم بها كذلك ضرباً أو قتلاً ولكنه رأى برهان الله القائم عليه وعلى سائر المكلفين،(ادفع بالتي هي أحسن) فرجع لحالة المتوسط وسطاً ولجأ الى الفرار من بين يديها ، وبذلك صدق عليه أنه سلك مسلكاً وسطاً ، لا هو واتاها ، ولا هو تعدى عليها (آ ٢٤ و ٢٥) .

٣ً ـ لما بهتته واختانته صريحاً لم يسكت ولم يرد عليها رداً عنيفاً،بل اقتصر على أقل عبارة يدافع بها عن شرفه وتؤدي مطلوبه (آ ٢٥ و ٢٦) .

٤ً ـ لما رغبت اليه زليخا أن يخرج على النسوة المصريات اضيافها، لم يمتنع ، ولكنه لم يوافقهن على رغبتهن منه ،بل سلك فيذلك مسلكاً وسطاً (آ ٣١ : ٣٣).

٥ً ـ لما استفتاه الفتيان اللذان سجنا معه ، لم يطلب منهما أجرة على الفتوى ولم يرد أن يفتيهما مجاناً ، بلا مقابل معنوي ، بل توسط واستقضى منهما أجرة أدبية ، وهي إصغاؤهما لإرشاده الديني وتبشيره بالتوحيد (آ ٣٦ : ٤٠) .

٦ً ـ لما أراد « الساقي » أن يخرج من سجنه ، لم يهمل يوسف تعاطي الأسباب بتة ، ولم يتهافت على ذلك«الساقي» بالرجاء والاسترحام ، بل سلك معه مسلكاً وسطاً،مقتصراً على أقل عبارة تؤدي المقصود وتكفل له الشرف(آ ٤٢).

٧ً ـ لما رجع « الساقي » ليوسف في سجنه ، ليستفتيه في حلمي الملك ، فمن جهة لم يعاتبه على نسيانه وصيته سابقاً، ومن جهة أخرى لم يصد عنه ويتجاهل، كما صنع« الملأ » مع الملك ، بل سلك مسلكاً وسطاً باقتصاره على إعطاء الجواب، بدون رجائه ثانية (آ ٤٦ : ٤٩) .

٨ً ـ لما جاءه « الساقي » في سجنه ثانياً ليخرج منه بأمر الملك ، لم يرد أن يسكت بتة عن زليخا التي بهتته وظلمته ، ولم يرد أن يصرح باسمها ، ولكنه أشار اليها بسؤال النسوة اللاتي قطعن أيديهن (آ ٥٠) .

٩ً ـ لما جاءه إخوته لأول سفرة ، لم يطردهم ، ولم يكرمهم إكراماً هائلاً ، من قبيل ما نسمع بأمثلته مما وقع على يد جماعة كثيرين من الأجواد « كحاتم الطائي » و « عبدالله بن جدعان » و « معن بن زائدة » و « آل برمك » في عهد الرشيد ، وغيرهم ممن كانوا يجودون بإسراف لا يوافق روح الشريعة ، بل توسط معهم ، فقبلهم وكال لهم كيلاً وافياً ، وأنزلهم منزلاً كريماً ، ولم يأخذ منهم ثمن الحب الذي كال لهم ، ولا أعطاهم هدية أو نحوها (آ ٥٩ : ٦٢) .

١٠ً ـ لما بهته إخوته بالسرقة ، لم يسكت ولم يصدع بالرد ، بل توسط ، وزفر سراً زفرة المصدور ، قائلاً في نفسه : ﴿ أنتم شرٌّ مكاناً ﴾ ، حتى يرتاح نوعاً من ألم ما سمع (آ ٧٧) .

١١ً ـ لما طلب إخوته اليه أن يستبدل « بنيامين » بأحدهم ، فمع أنه لم يقبل منهم نراه لم يؤنبهم بأن هـذا خلاف فتواكم السابقة ، وكيف تخالفون شريعة الله ؛ وكيف تقولون مالا تفعلون ؟ وعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر :

وعـالم بعلمه لم يعملـن معذب من قبل عباد الوثن

فهو لم يأت شيئاً من ذلك ، بل اعتدل وردهم رداً لطيفاً (آ ٧٨و٧٩) .

١٢ً ـ لما جاءوا اليه في السفرة الثالثة وشكوا اليه حالهم ، وأراد أن يظهر لهم نفسه ، لم يوبخهم ويحقرهم ، ولم يترك عتابهم ، بـل توسط وعاتبهم عتاباً لطيفاً (آ ٨٩) .

١٣ً ـ لما سألوه : أإنك لأنت يوسف ، أجابهم بجواب معتدل ، فلم يتقرب اليهم بأن يقول : « أنا أخوكم يوسف » ولم يتجافهم بأن يقول : « أنا المحسود،

أنا المشرد المطرود، أنا موضوع المؤامرة الشريرة، أنا الملقى في البئر بلا هوادة» بل اعتدل وقال: «أنا يوسف وهذا أخي» (آ ٩٠).

١٤ً ـ اعتدل في ذيل جوابه لهم فلم يقل: «أنا أهل التقوى وأهل الصبر والإحسان، وأنتم أهل العداء والحرب والانتقام» بل إنما قال: (إنه من يتق ويصبر، فان الله لا يُضيع أجر المحسنين) (آ ٩٠).

١٥ً ـ تسمعه يقول: (لا تثريب عليكم اليوم)، «أي أنا اليوم لا أريد أن أثربكم، وأنتم ماثلون بين يديّ؛ مثول المماليك، بين يدي الملك، والأذلاء، أمام العزيز» ففي هذا القول، مع قوله (يغفر الله لكم) توسط واعتدال بين التعنيف والتكريم.

عمل الإخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف

المادة ٨ ـ هم لم يعملوا بأخيه بنيامين عملاً مباشراً، إلا أنه نظراً لقوة الاتحاد بين هذين الأخوين الشقيقين ـ كانت فعلتهم بيوسف كسراً لذراع بنيامين، فالجناية على يوسف، هي جناية على بنيامين بصورة خاصة، كما أن جناية الانسان على غيره تعد جناية على البشر، كلهم بصورة عامة، قال تعالى: ﴿من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ (٥ : ٣٥)

معنى الجهل والجاهلين

المادة ٩ ـ لجهل الإخوة معنيان، أحدهما، أنهم فاعلون فعل الجهالة المرادف للسفه، وهو ضد «الحلم» لأن من عمل ما يؤدي الى الضرر في العاقبة، وهو عالم بذلك أو ظان، فهو من أهل الجهل، لا من أهل الحكمة، والجهل بهذا المعنى يذم به الانسان مطلقاً.

وثانيهما أنهم جاهلون، أي غير عالمين، بما يتعلق بعملهم من المكروه والمضرة

فتارة يذم به الانسان، اذا جهل ما يجب عليه أو ما ينبغي له ويعد كالاً في حقه، وتارة لا يذم به اذا جهل ما لم يقدر على فهمه الا بالوحي مثلاً .

وقد قال : (إذ انتم جاهلون) لأنه لا يقدم على طلب ما يضر بالناس وما يسوؤهم إلا أهل الجهالة والسفه، سيئو النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة، قليلو العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة ، وبما يلزمهم من تبعة ما اجترحوا من العداء والجفاء ، قال أبو العلاء المعري :

والجهل داء قد تقادم عهده　　في العالمين ولا يزال عضالا
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم　　إلاّ خلائق إخوة أمثالا

والعلم لا يتم الا بالعمل ، وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، فان لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً ، ولو أن رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به ، سمي جاهلاً والله تعالى اعلم .　　(لا يفضض الله فاك)

إظهار يوسف نفسه لإخوته

آ (٩٠) « ـ قالوا : أإنّكَ لأَنتَ يُوسفُ ؟ ـ قالَ أَنا يُوسفُ ، وهذا أَخي ، قَدْ مَنَّ اللهُ علينا ، أنّه مَن يَتّقِ ويَصْبِر فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحْسِنين »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التسعون فقام الشيخ سعد الدين اليبرودي[1] وقال :

سمع إخوة يوسف كلام أخيهم يوسف ، فأنعموا فكرهم في مغزى سؤاله ،

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية)

ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته ، وتأملوا في عينيه — والعينان أظهر ملامح الوجه ، وأدل على صاحبها من سائر الأعضاء — فانتقلوا من دور « الإنكار » أي إنكارهم له وعدم معرفتهم به ، الى دور « الشك » أي شكهم في أن الذي يكلمهم هـو يا ترى يوسف أم لا ؟ فـ (قالوا) وهم مضطربوا الحواس (أئنك لأنت يوسف ؟) — بن يعقوب - (قال) بصوت يرن رنين النحاس، ما أبعدتم في التفرس ، ولا تجاوزتم الواقع ، لا أخفي عليكم أني (أنا يوسف) بن « يعقوب » من زوجه «راحيل» بنت « لابان » ، (و)لا أزيدكم علماً بان (هذا) الشخص الذي ترونه بجانبي ، هـــو (أخي) بنيامين ، الذي هو وأنا ، من دم واحد ، وبطن واحد ، (قد منّ الله علينا) بما نحب وكما نحب ، بالخلاص ممـا أبتلينا به ، بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعز بعد الذل ، وبالأنس بعد الوحشة (إنه من يتق) يخف الله وعقابه (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات . يجن ثمار تقواه وصبره ، (فإن الله) من فضله وعدله (لا يضيع أجر المحسنين) ومـــا ترونه هو ثمرة التقوى ، ونتيجة الصبر ، وعاقبة الإحسان ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية .

قالوا : أئنك لانت يوسف .. الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الغني الجيرودي[١] وقال :

استعراف يوسف لإخوته بنفسه وبأخيه وتعريضه بهم

فكروا فيما سمعوا ، ثم فكروا ، ثم قالوا بصوت يرتجف ويتقطع ، ولسان يتلعثم : أئنك لأنت يوسف ؟ !!! — قال بلسان فصيح ملؤه البلاغة والبيان : قد رأيتموه وسمع كلامكم ، وبعبارة صريحة : يسرني أن أقدم نفسي اليكم ، أنا

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية)

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهذا الشخص الكريم الذي ترونه كنفي وجواري ، هو أخي بكل معنى الكلمة :

أخي – الذي قام بواجبات الإخوة ، منذ دب الى أن شب .

أخي – الذي لم يقطع صلة الإخوة بيني وبينه ، ولن يقطعها الى آخر نسمة من حياته .

أخي – الذي لم يُمتّ اليّ بالإخوة الصادقة المخلصة التي لم تشب بشيء من كدر الحياة .

أخي – الذي كان – على البعد – شاطرني في حزني وضيقي فهو اليوم – على القرب – يجني ثمار ذلك ، ويشاركني في صفائي وبسطتي :

اولى البرية طراً أن تراعيه عند السرور الذي راعاك في الحزنِ
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى قد منّ ويمن وسيمن علينا بلم الشمل، وبهذا الرقي العظيم ، فان هذا المعنى أمر مشترك بيني وبينه ، كما أن من الأمور المقررة أن من يتق ظلم إخوته وأقاربه، ويتق التعدي على الأعراض ، ويتق كل ما يضر الإنسان في نفسه وفي جنسه القريب والبعيد ، ويتق جميع الذنوب والمعاصي ، وأن من يصبر على أذى الناس ، ويصبر على غيابة الجب ، ويصبر على الخدمة بأمانة ، ويصبر عن الفحشاء والمنكر ، ويصبر على أعماق السجون ظلماً ، ويصبر على كل مرّ وضرّ ، فلا ريب أنه لا يخشى دركاً ، ولو قامت عليه الأرض ، بالطول والعرض ، ومتى كان الله مع العبد ، نجا من كل سوء ، وترك الناس تضرب في حديد بارد ، ذلك أن الله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا العبد الضعيف منهم ولا فخر ، فمن زرع التقوى والصبر ، حصد الأجر كما أن - بالمقابلة من زرع الريح ، حصد الزوابع .

وأما إخوته ، فانهم لما سمعوا هذا الجواب، دخل بعضهم في بعض ، وسُقط

في أيديهم ، واضطربت فرائصهم ، ورَهبَت نفوسهم ، وغشيهم من الفَرَق ما غشيهم ، وعلا وجوههم الاصفرار ، وصاروا بحالة أحبوا معها الموت ، لا سيما وقد فهموا أن في قوله (إن من يتق ويصبر ،فان الله لا يضيع أجر المحسنين) ، تعريضاً بهم أنهم ليسوا من هذا النوع .

التعريض في الكلام

والتعريض هو الإشارة الى معنى ، لم توضع له الجملة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، كقوله ﷺ في مزاحه مع إحدى عماته : « إن الجنة لا تدخلها عجوز » ، فلما جزعت ، قال لها : « إن الله تعالى يخلقهن يوم القيامة ، شوابّ أبكاراً » ، وقال لامرأة : « ما فعل زوجك الذي في عينيه بياض ؟ » ،

ومن ذلك أن بعض العرب أدخِل على « الواثق » ، وكان الواثق يقول بخلق القرآن ، ويعاقب من خالفه ، فقال له : « ما تقول في القرآن ؟ » ، فتصامم عليه ، فأعاد السؤال ، فقا : « من تعني يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « إياك أعني » فقال : « مخلوق » يعني نفسه ، وتخلص منه بذلك . وقال لآخر : « ما تقول في القرآن ؟ » فأخرج يده وجعل يعد أصابعه ويقول : « التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، هذه الأربعة مخلوقة . » وعني بذلك أصابعه ، وتخلص منه .

التعريض في سورة يوسف

هذا ومما لا بد أن ننبه اليه ، أن التعريض في هذه السورة ، ليس مختصاً بهذا الموضع فقط ، بل أرى أنه وقع منها في عدة مواضع ، فمن ذلك :

أولاً – ما في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (آ ٣) فـــان فيه تعريضاً بقصص التوراة ، التي حوت أقبح القصص .

ثانياً ــ قول يوسف (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) (آ ٣٨) ، فيه تعريض بالفتيين الساقي والخباز ، أنهما ليسا من أهل الشكر .

ثالثاً ــ وكذا قوله : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (آ ٤٠) ، فان فيه أيضاً تعريضاً بهما .

رابعاً ــ قوله تعالى : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (آ ٥٦ و ٥٧) فيه تعريض بأن يوسف من المرحومين المحسنين المتقين

خامساً ــ قول المؤذن : (ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم) (آ ٧٢) فيه تعريض بأنهم هم الذين سرقوه .

سادساً ــ وأخيراً قول يوسف (هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً) (آ ١٠٠) ، فيه تعريض بما كان إخوته يقولونه له على سبيل الإنكار والتهكم : « هذا صاحب الأحلام ، هذا الذي يحلم أننا سنسجد له » .

ولنا هنا الملحوظات الآتية :

المحسن

الملحوظة الاولى ــ كلمة (المحسنين) تشمل كل محسن ، ممن كان ويكون ، من أي نحلة ومن أي ملة ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ خيراً يَرَهُ ، وَمَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧ : ٨) ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القِيمَةِ ، فلا تظلَمْ نَفْسٌ شيئاً ، وإنْ كان مِثقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ ، أتَينَا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢١ : ٤٧) .

إحسان يوسف

الملحوظة الثانية ــ كان يوسف عليه السلام أحسن طريقته مع الله ومع

والديه ،أحسن الخدمة في بيت سيده « فوطيفار » بكل أمانة وإخلاص ، أحسن للعزيز وامرأة العزيز بحفظ عرضهما وشرفهما ، أحسن للفتيين بوعظهما وإرشادهما وتأويل رؤييهما ، أحسن للمصريين بالعطف عليهم ، وتنظيم ثروتهم ، وترتيب ثمرات نيلهم ، أحسن لإخوته يوم وفدوا عليه لأول مرة ، وبالجملة فالفتيان اللذان كانا معه في السجن ، هـما أعرف منا بتفاصيل إحسانه ، حينما قالا له : (إنّا نراك من المحسنين) ، وإخوتـه حينما صار بينه وبينهم تماس ، هم أعرف بوجوه إحسانه ، حينما قالوا له : (إنا نراك من المحسنين) وهو نفسه أعرف بطرق إحسانه حينما قال : (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) بل الله تعالى هو أعلم من الجميع بمرامي إحسان يوسف عليه السلام وقد قال في تقريظه : (ولما بلغ اشده آتينا حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين) ، ثم قال : (نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين) .

نتيجة كيد إخوة يوسف له

الملحوظة الثالثة ـ سمع الإخوة ما سمعوا الآن ، وكانوا رأوا مـا رأوا سابقاً ، فظهر لهم أن ذلك « الكيد » الذي كانوا دبروه ليوسف منذ ٢٢ سنة ، كان له نتيجة ذات وجهين، فهي بالنسبة لهم من أسوإ النتائج،وبالنسبة ليوسف عليه السلام هي من أحسن النتائج وبيان ذلك أنهم هم لم يخل لهم وجه أبيهم،لأنه كان شغل بحب بنيامين الحاضر ، وبذكرى يوسف الغائب ، ولم يكونوا قوماً قد صلحت لهم أمور معيشتهم ، بل بالعكس كانوا منفورين من أبيهم ، ،اليوم صاروا تحت رحمة يوسف الطريد المشرد،وأنه مهما أراد أن يجري عليهم أمكنه، حتى أنه ليمكنه أن ينقص بهم عدد الأحياء ويزيد بهم عدد الأموات .

وأما يوسف عليه السلام فقد صار من رجال « البلاط » في الدولة المصرية ، ثرياً ، سرياً ، يأمر فيطاع ، عزيزاً في مصر ، وكيلاً عن مليكها .. فالهوة التي

بينه وبينهم عميقة جداً وهم بعيدون عنه وهو بعيداً عنهم بعد الثريا عن الثرى ، وبعد الإبريز الوهاج عن البرا [1] .

سارت مشرقة وسرت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغربِ

سبب ذكر يوسف أخاه بنيامين مقروناً باسمه دون سؤال منهم

الملحوظة الرابعة — أجابهم عن نفسه وعن أخيه ، مع أنهم لم يسألوه عنه ، لأنه كان معلوماً لهم ،لأن في ذكر أخيه بياناًلما سألوه عنه ، أو يقال : أتى بذلك لأن بنيامين كان — طبعاً — مخلصاً في حبه له ، كما أنشد إسحاق الموصلي :

وليس أخي الا الصحيح وداده ... ومن هو في وصلي وقربي راغبُ
تقرّب مني في ميولي ومذهبي ... وإن باعدتنا في الولاء المناسبُ

وكما قال أبو تمام :

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة ... وإخوة أسوة عنـــدي وخلاني
عصابة جاورت آدابهم أدبي ... فهم وإن فرِقوا في الأرض جيراني
أرواحنا في مكان واحدٍ وغدت ... أجسامنا في عراق أو خراسان

وكما قال أبو تمام أيضاً :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم ... وبلوت ما وصفوا من الأسبابِ
فاذا القرابة لا تقرب قاطعــاً ... واذا المودة أقرب الأنسابِ

الملحوظة الخامسة ـ إن الذي جرّ ذكر « بنيامين » ما في اسم يوسف من الإشارة للزيادة ، وهو رمز لتحقيق أمل والدته المرحومة الذي صدقه الواقع ، فيكون قريباً مما يسميه علماء البلاغة « استطراداً » ، وهو ذكر الشيء في غير محله لمناسبة .

(١) البرا التراب .

العبر المستنبطة من هذه الآية

الملحوظة السادسة ـ نتعلم من هذه الآية الفاذة الجامعة ـ أن التقوى هي البقوى ، وهي السبب الأقوى ، وأن الصبر عواقبة الجبر والنبر، ونتعلم منهـا أيضاً أن الانسان يجازى على تقواه في الدنيا والآخرة، حيث جعل منّة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر .

يوسف نال الحظوة بأخيه بحواسه الخمس

الملحوظة السابعة ـ لعل يوسف قال : (وهذا أخي) ليلتذ سمعه ولسانه برنين لفظة « أخي » التي مضى عليها نحو ٢٢ سنة ، وهو لم يلتذ بها ، وعلى ذلك فقـد كملت ليوسف الحظوة بأخيه بحواسه الخمس ، إذ رأى شخصه بعينيه وشم ريحه بأنفه ، وذكر اسمه بلسانه ، ولمس جسمه بيده وسمع صوته بأذنه .

ويمكن أن نقول أن يوسف ذكر اسم أخيه بنيامين وإن لم يدخل في سؤالهم مع أنه معلوم لهم ومفهوم ـ لأجل أن يرتب على ذكر الإثنين التي تعمهما، وهي: (قد منّ الله علينا) معاً ، بالجمع بعد الفرقـة ، والفرح بعد الحزن ، والعز بعد الذل ، والرقي بعد السقوط، لأن كل ما حصل لأحدنا فهو للآخر، فنحن متكافلان متضامنان في كل ما يعرض لنا .

(قالوا : أئنك لأنت يوسف .. الخ)

- ٣ -

وصعد المنبر الشيخ اليرموكي وقال .

التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي»

لقد تكلم السادة الإخوان على الآية بما لم يدعوا فيه مقالاً لقائل : فأنا الفقير

الآن لا أريد أن أتكلم إلا على التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » إضافة لما ذكروه من النكت :

أولاً ـ الاشارة به الى قولهم (لَيوسف وأخوه أحبُّ الى أبينا منا ونحنْ عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين) ، ثم قولهم (إنْ يسرقْ فقد سَرقَ أخٌ له من قَبْلُ) فيشبه أن يكون قوله : (أنا يوسف وهذا أخي) مـــن نوع التلميح لشيء آخر ، تذكيراً لإخوته بما كان سمع منهم ، كأنه يقول : (وهذا أخي) الذي كنتم قلتم عنه : (كيت كيت)، ولم تتذكروه وتذكروه بعنوان إخوتي له إلا في موضعي الحسد والانتقاد ، ولكن في مقابلة ذلك ، هـا أنا ذا أذكره باسم الإخوة في موضع الافتخار به والمباهاة ، فأنا أباهي وأفاخر به ، صارخاً بين الملأ : « هذا أخي » .

ثانياً ـ لما لم يقولوا له : (أئنك لأنت أخونا يوسف) ، بل تعارفوا عليه باسم فقط ، غير مقرون بالنسبة الأخوية المشتركة بين الطرفين ـ أجابهم بجواب من نوعه ، أي أنه لم يقل : (نعم ، أنا أخوكم يوسف) ، بل قال ما معناه : أنا يوسف الذي تسمونه بهذا الاسم كأنه أجنبي عنكم ، وهذا أخي الذي انتسب اليه حيث هو لم يصدر منه ما يشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للآخر فحيث أنتم لم تذكروني باسم الأخوة ، فلا أعدم من أن أذكره بهذا الاسم .

ثالثاً ـ لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) الإشارة إلى أنه إذا كان يوجد لي أخ حقيقي ، فهذا هو الأخ الحقيقي، الذي يقوم بحقوق الاخوة ، ولم يمسني بأذى مطلقاً ، هذا هو أخي الذي شاركني في سرائي وضرائي ، هذا هو أخي الذي اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها ، كما اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من الغبطة والسرور :

إن أخاك الحق من كان معك		ومن يضر نفسه لينفعكْ

ومن إذا ريب الزمان صدعكْ شتت فيك شمله ليجمعكْ

بخلافكم في كل ذلك ، فأخوتكم لي ، أخوة إسمية فقط ، لا فائدة منها ، بل هي مصدر ضرري ومبعث إيذائي .

وما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليلُ

رابعاً ـ لعله أراد بقوله: (وهذا أخي) إنه الأخ الذي حرصتم على التفريق بيني وبينه ، وعملتم على بعدي عنه ، ها هو جالس بجانبي ، ها هو لصيقي ، ها هو لا يفصل بيني وبينه إلاّ مرّ النسيم ، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفتي ، ها هو ذا يشار اليه بإشارة القريب ، هـا هو بين بصري وسمعي ، ضد ما كنتم سعيتم سابقاً من التفريق والتبعيد ، وهذا على حد ما قيل :

« أزجر المسيء بثواب المحسن » . (جيد)

(قالو : أئنك لأنت يوسف .. الخ)

- ٤ -

ثم قام تقي الدين الدهشوري وصعد المنبر ثم قال :

الجزاء يكون في الدنيا والآخرة

لي ههنا كلمة فذة : يقول يوسف عليه السلام : (**فان الله لا يضيع أجـر** المحسنين) وهو يريد بذلك أنه تعالى لا يضيع أجرهم لافي الدنيا ولافي الآخرة، فنتعلم منه أن الإنسان يجازى على أعماله في الدنيا كما في الآخرة ، وهذا يظهر لنا من آيات كثيرة في كتاب الله تعالى :

١ ـ قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً ﴾ أي من أعمـال الدنيا والآخرة ﴿ مِنْ ذكرٍ وأنثى ـ وهو مؤمنٌ ـ فلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ﴾وعلى الأقل بالرضى بما قسمنا له جزاء على عمله الصالح الدنيوي ﴿ ولَنَجزِيَنَّهم أجْرَهُم﴾

في الآخرة بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ من أعمالها (١٦ : ٩٧) .

٢ـ وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً ﴾ من أعمال الدنيا والآخرة ، ﴿ فلِنفسِه ، ومَن أساءَ ﴾ أعماله الدنيوية والأخروية (فعليها) وهذا الجزاء الذي لنفسه وعلى نفسه هو في الدنيا ، وأما جزاؤه عليهما في الآخرة فهو المرموز في قوله ﴿ ثم الى ربكم تُرجَعون ﴾ (٤٥ : ٤٤) ، أي فيجازيكم هنا على الخير وعلى الشر بمثله .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿ أمّا من ظلَمَ فسوف نُعذّبهُ ، ثم يُرَدُّ الى ربّه فيُعذّبهُ عذاباً نُكراً ، وأمّا مَن آمن وعَمِل صالحاً ، فلهُ جزاءً الحُسنى ، وسنقول له مِنْ أمرنا يُسرا ﴾ (١٨ : ٨٨ و ٨٩) أي فمن ظلم بتركه الواجبات الدنيوية والاخروية ، فسوف يعذبه ذو القرنين في الدنيا على تركه واجباته الدنيوية ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً على تركه واجباته الأخروية ، وأما من آمن وعمل صالحاًمن أعمال الدارين فله جزاءً الجنة على أعماله الأخروية ، وسنقول له في الدنيا من أمرنا يسراً على عمله الصالح الدنيوي .

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ فأمّا الذين كفَروا ، فأعذّبهم عذاباً شديداً ، في الدنيا والآخرة ، وما لَهُم مِنْ ناصرين ، وأما الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ فيُوفيهمْ أجورَهم ﴾ (٣ : ٥٦ و ٥٧) ، فقوله : وعملوا الصالحاتِ ، أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله : فيوفيهم أجورهم ، أي في الدنيا بالنسبة للأعمال الصالحة ،الدنيوية ،وفي الآخرة بالنسبة للأعمال الصالحة ،الأخروية والدليل على هذا المعنى ، قوله في الفريق الأول : (فأعذبهُ عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة) فانه بحسب المقابلة يدل على أن معنى قوله في الفريق الثاني (فيوفيهم أجورهم) أي في الدنيا والآخرة .

٥ ـ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوّامين للهِ ، شُهداءَ بالقِسط ،

ولا يجرِمَنَّكم شنآن قوم على أن لا تعدِلوا، إعدِلوا، هو أقربُ للتقوى واتقوا اللهَ، إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملونَ، وعدَ اللهُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم ﴾ (٥ : ٩ و ١٠) ، فقوله (وعملوا الصالحات) ، أي مثل القيام لله ، والشهادة بالقسط ، والعدل في الحكم، ولو مع شنآن المحكوم له أو عليه، فالصالحات تشمل صالحات الدنيا وصالحات الآخرة، وقوله (أجرعظيم) أي في الدنيا على أعمالها ، وفي الآخرة على أعمالها .

٦ – وقال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ وُداً ﴾ (١٩ : ٩٧) ، فالصالحات هي دنيوية وأخروية ، والوُدّ هو في الدنيا والآخرة ، فيحدث لهم في الدنيا مودة في القلوب يزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ، ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ، ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة ، أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه تعالى ابتداءً، اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة، وكذلك يجعلهم مودودين في الآخرة ، يحببهم الى خلقه ، بما يعرض من حسناتهم ، وينشر من ديوان أعمالهم ﴿ ونزَعنا ما في صُدورهم من غِلٍ ، إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلين ﴾(١٥: ٤٧) والسين في « سيجعل » بالنسبة للدنيا ، لأن السورة مكية ، وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة ، فوعدهم الله تعالى ذلك « الود » متى انتشر الإسلام وقوي ، وأما بالنسبة للآخرة ، فلأن كل آت قريب عند الله .

٧ – وقوله تعالى : ﴿ قال : لقد ظلَمَكَ بسؤال نعجتِكَ الى نِعاجِهِ ، وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليَبغي بعضُهم على بعضٍ إلاّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هم ﴾ (٣٨ : ٢٤) فقوله : (وعملوا الصالحات) أي التي هي من قبيل الأعمال الدنيوية ، أعني عدم الظلم والتعدي ، والتباعد عن البغي والغصب ، فهي أعمال سلبية ، وهؤلاء هم الذين يُستثنون من الخلطاء الذين يبغي

بعضهم على بعض، وهم أيضاً الذين يوصفون بالقلة ، وأما من يعملون الصالحات من صلاة وصوم واعتكاف وتسبيح وتهليل وإقامة أذكار وقراءة أوراد ، مع الظلم والتعدي والغصب ونحوه ، فلا تراهم مُستَثنَين من هؤلاء الخلطاء الذين يبغي بعضهم على بعض ، ولا نقول في شأنهم : إنهم قليلون ، بل هم كثيرون « أكثر « من الهم على القلب ! » .

٨ – وقال تعالى : ﴿ أمْ نجعلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ كالمفسِدين في الأرضِ ، أم نجعلُ المتقين كالفُجّار ﴾ (٣٨ : ٢٨) ، فقوله : (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا ، بدليل مقابلته بقوله : (أم نجعل المتقين كالفجار)

٩ – وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ – وهو الحقُّ من ربّهم – كفّرَ عنهم سيئاتهم وأصلَحَ بالهم ﴾ (٤٧ : ٢) فقوله (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) هو جزاء صالحات الآخرة ، وقوله (وأصلح بالهم) هو جزاء صالحات الدنيا في الدنيا ، لأن إصلاح الحال إنما يحتاج إليه في الدنيا ولا حاجة له في الجنة .

١٠ – وقال تعالى : ﴿ إنّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ ، إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ ﴾ (١٠٣ : ٢ و ٣) فهذا « الخسر » هو الخسران في الماديات والروحيات وهذه « الأعمال الصالحة » هي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة .

١١ – قال تعالى : ﴿ وَعدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليَستَخلِفَنّهم في الأرضِ كما استَخلفَ الذينَ من قبلِهم ، ولَيُمَكِّنَنّ لهم دِينهم الذي ارتَضى لهم ، وليُبَدّلَنّهم مِنْ بَعدِ خوفِهم أمْناً ﴾ (٢٤ : ٥٥) فقوله (وعملوا الصالحات) هي الأعمال الروحية والمادية، ومنها إعداد ما استطعنا

من قوة ومن رباط الخيل ، ومنها عدم التنازع المؤدي للفشل ، وذهاب الريح ، ومنها أن ترى المؤمنين بالله يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، إلى غير ذلك مما أمر الله به المسلمين ، ومما يقتضيه فن الحرب ، بحيث نُعِدُّ في كل عصر ما يناسبه ، فإذا قاموا بذلك وما إليه ، صدق عليهم أنهم قد عملوا الصالحات ، التي يترتب عليها ، ترتب المعلول على العلة – استخلافهم في الأرض ، وتمكين دينهم لهم ، وإبدالهم من بعد خوفهم أمناً .

وأما الصلاة والصوم والتهجد والتهليل والتسبيح وإقامة الأذكار وقراءة الأوراد مع ترك ما تقدم من مأمورات الله تعالى ، فلا ينجم عنه شيء من هذا الذي وعدنا الله به في هذه الآية الكريمة .

١٢ – وقال تعالى : ﴿ اعمَلوا آلَ داود شُكراً ، وقليلٌ مِنْ عبادِيَ الشَّكُور ﴾ (٣٤ : ١٣) ، قاله جل شأنه عقب ذكر الأعمال المادية الدنيوية ، كما يظهر بمراجعة سابقة .

١٣ – وقال تعالى : ﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لِنَبْلُوَهُم أيهم أحسنُ عمَلا ﴾ (١٨ : ٧) فالعمل هنا مادي وروحي .

سألني سائل : ما هي الأعمال الصالحة الدنيوية التي تدخل في هذه الآيات ؟ – فقلت له : هي كثيرة جداً : الفنون ، العلوم ، الصنائع ، معامل الدباغة ، معامل الصابون ، معامل الحرير ، معامل الأجواخ ، تشييد المدارس ، تأليف الجمعيات ، السياحة ، الهجرة في طلب العلم ، إقامة الربط في الثغور ، صنع الأساطيل الحربية ، الطيارات ، المدافع ، الدبابات ، الغواصات ، تنظيم وتعليم الجيوش ، العناية بالزراعة والغرس والتجارة ، طرق المواصلات ، إيجاد فرق استخبارات في بلاد الأجانب ، إيفاد البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون ... الخ الخ

نقرأ القرآن الكريم فنسمع الله تعالى يقول في أهل الكتاب موعظة لنا :

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل، وما أُنزِلَ إليهم مِنْ رَبِّهم ، لأكلوا مِنْ فوقِهم ومِنْ تحت أرجُلِهِم ﴾ (٥ : ٦٦) ، فما هذه الإقامة للتوراة والإنجيل ؟ هل هي مجرد الركوع والسجود والتسبيح والتهليل ، وما إلى ذلك؟ كلا .. فإن هذه الأمور بمجردها لا يترتب عليها كثرة الزروع ونمو الأشجار والثمار ، وانصباب الخيرات والأرزاق ، ولكن المقصود بهذه الإقامة مع ذكر الاشتغال بالأعمال المادية التي تعود على أمتهم بالنفع المادي الدنيوي .

نقرأ القرآن الكريم ، فنسمع الله تعالى يقول تعليماً لنا : ﴿ ولقد كتَبْنا في الزَّبور مِنْ بعدِ الذكْرِ — أنّ الأرض يَرِثُها عِبادِيَ الصالحون﴾(١٠٥:١١) فهل هذا « الصلاح » هو مجرد العبادات الروحية ؟.. كلا.. ولكنه مع ما ذكر التأهل لملك الأرض ، وعمارتها ، وخدمتها ، واستغلالها ، واستخراج كنوزها، ومعادنها وثمراتها ، وخيراتها ، وأخيراً القيام على حراستها وحمايتها والدفاع عنها هذا ما حضرني من الجواب ، والله تعالى هو العليم بالصواب .

(مرحبى)

اعتراف الإخوة بالخطيئة

آ (٩١) « قالوا : تاللهِ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا ، وإنْ كنا لَخاطِئينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الاية الاحدى وتسعون ، فقام جلال الدين المصري واعتلى منصة المنبر ، ونحن ننشر نص خطابه القيم الذي القاه على مجمل تفسير هذه الاية ؛ قال :

أيها السادة :

سبق أن دار الحديث بين يوسف وإخوته ، فعرفوه — في هذه السفرة الثالثة

كما هو قد عرفهم في السفرة الأولى ـ فبغتوا وأجفلوا وأرتج عليهم وأرادوا أن ينتحلوا عذراً يتخلصون به من عقاب أخيهم ، وعلى الأقل من تثريبه عليهم ، فلم يجدوا ما يعتذرون به ، ولا ما يبررون به عملهم ، فلم يسعهم إلا الاعتراف الصحيح والإقرار الصريح ، فتقدموا إليه والخجل ظاهر على وجوههم ، يمازجه الذل والإنكسار ، و (قالوا) بلسان واحد ، يا للخجالة .. (تالله لقد آثرك) فضّلك (الله علينا) بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ، فأنت أثير الله وصاحب السعادة لديه من دوننا ، (وإن كنا لخاطئين) فشأننا وحالنا انا كنا معتمدين للإثم ، لم نتق ولم نصبر - أو يقال وإن كنا لخاطئين فى تصوراتنا وأفكارنا ، خاطئين في أقوالنا ومفاوضاتنا ، خاطئين في أعمالنا ومشاريعنا ، خاطئين في تهوراتنا ونزقنا .

(قالوا : تالله لقد آثرك ... الخ)

— ٢ —

ثم قام مولانا عبد الحي الدمياطي[١] وقال :

اعتراف إخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم

ما كاد يوسف يتم كلامه ، حتى تحققوه أنه أخوهم ، وحتى تذكروا سوء فعلتهم التي فعلوا ، وحتى وقفوا على ما فرط منهم ، ولعنوا تلك الفكرة التي كانوا افتكروها ، والحيلة التي كانوا احتالوها ، ثم تبين لهم أن الذي أمامهم ليس هو « فوطيفار » عزيز مصر الخليع ، ولكنه أخوهم « يوسف » بن راحيل ، فسقط في أيديهم واستولى عليهم السكوت ، فصعرت نفوسهم ، وتزاحمت على وجوههم صفرة الوجل وحمرة الخجل فما وسعهم إلا أن يتقهقروا من أمامه قليلا قليلا ، وقد نكسوا رؤوسهم ، ثم استنصروا جلدهم وقوتهم ، بعدما خارت

(١) دمياط من البلاد المصرية .

قواهم وقالوا مقرظين له : بخ بخ ، تالله لقد قدّمك الله علينا نحن العصبة ،فصار المأموم إماماً ، والتابع متبوعاً ، والمأمور آمراً ، والأول أخيراً ، والأخير أولاً ، والسيد مسوداً ، والمسود سيداً ، اجتباك الله علينا بتعليم الأحاديث ، بإتمام النعمة ، بتمكينك في الأرض ، تتبوأ منها حيث تشاء بإصابة الله إياك برحمته بإتيانك منه علماً وحكماً ، بجعله إياك من عباده المخلصين ، بإسناده وزارة المالية المصرية لعهدتك ، بجعله إياك عزيز الديار المصرية ، بالتقوى والصبر ، بسجود الكواكب ، وأخيراً بالنبوة والرسالة . وأما نحن ، وإن كنا الخاطئين ، فمثلنا من يهفو ، ومثلك من يعفو ، ها نحن أولاً قد أقررنا بذنبنا ، وشفيع المذنب إقراره ، ونحن لا بد لنا من نعترف لك بالخطأ حتى لا نكون قد خطئنا إليك خطأ آخر ، نحن غلاظ أكباد ، قساة قلوب ، فمعذرة إلى الله وإليك ، وإن لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، فأغض عن خطئنا ، وأذَنْ لحلمك أن يسع جهلنا :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له　　إذا لم يكن في فعله والخلائق

ولعمرنا إن نهايتنا لمحزنة أليمة ، إلا إن وجدنا لنا في بعض زوايا قلبك مكاناً للرحمة بنا ، والإشفاق علينا ، ملكت فأسْجِح ، قدرت علينا فارفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدة ، وإن الذي جرأنا على ما صنعنا ، هو الذي أخرج أبوينا من الجنة ، وأنساهما العهد ، وهذا مقام العائذين بك ، أيها الأخ ، فاغسل عنا الحوبة [1] بالتوبة ، واغفر ما فرط منا في تلك النوبة :

وهبنا أسأنا نحو شخصك عامداً　　فعفواً جميلا كي يكون لك الفضل
فإن لم تكن للعفو عندك بالذي　　أتينا به – أهلا ، فأنت له أهلُ

هذا مرمى كلامهم ، وأما نحن فنقول : « صح النوم يا أسيادي ! . . »وصدق من قال : « أول الغضب جنون ، وآخره ندامة » ولكن «بعد خراب البصرة»

(١) الحوبة الاثم .

ولو تراهم إذ تمثلوا بين يدي أخيهم .. ولو تراهم إذ خفضوا رؤوسهم خائفين . ولو تراهم إذ تصببوا عرقاً .. ولو تراهم إذ غشيت وجوههم غمامة من الاستكانة . ولو تراهم واقفين على مثل نار الغضا .. ولو تراهم تنتابهم الأفكار المتضاربة .. وتتقاذفهم الهواجس المتناقضة .. يتراوحون بين خوف ورجاء .. ويترجحون بين معاقبة وغفران – نعم لو تراهم بهذه الأحوال ، لترى مشهداً رهيباً ، وأمراً عصيباً ، كيف لا .. وإن ذلك اليوم الذي دخلوا على « يوسف » يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، يتمجد اسم الله !!! يتبارك اسم الله !!! ، كانوا ائتمروا على قتل أخيهم ، فصاروا اليوم بين يديه ، ﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ : ٢١) .

(جيد)

(قالوا : تالله لقد آثرك .. الخ)

- ٢ -

وقال نجم الدين الشرقاوي[١] :

عندي على هذه الآية المواد التالية :

وجوب الاعتراف بالإساءة ثم طلب الغفران

المادة ١ ـ نتعلم من هذه الآية إنه ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته ، ويطلب المغفرة ممن أساءه ، ولو أصغر منه سناً ، كما وقع من إخوة يوسف عليه السلام ، وحينئذ ينبغي للمساء إليه أن يغفر للمسيء ، كما وقع من يوسف معهم ، حسبما نتعلمه من (آ : ٩٢) .

المادة ٢ ـ اقروا بذنوبهم ، ورجعوا إلى صوابهم ، واستقبحوا عملهم ، وسخطوا على أنفسهم ، وأعلنوا فظاعة ما أجروه ، ونحن لا نرتاب في أن يوسف

(١) نسبة الى منطقة الشرقية بمصر .

عليه السلام قبل منهم هذا كله ، لأن العبد إنما يحاسب الناس بحسب ظواهرهم ، ولكن هل يعتبر هذا القول منهم توبة نصوحاً بالنسبة لله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، بحيث ينالون بها من الله الغفران ؟..

ورب قائل يقول : (إنهم أرادوا بذلك التوصل إلى استنزال عفو أخيهم عنهم ، والتعرض لغفرته لهم) .

وربما يقول آخر : (إن القوم ندموا وأسفوا على ما فرط منهم ظاهراً وباطناً وأخلصوا لله التوبة) وهذا هو الأقرب ، بدليل تسميتهم « كواكب » ، لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بعد هذه التوبة والأوبة ، ففي أي وقت يكونون كذلك نعم نعم ، إنهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة ، وصار كل واحد منهم كُسَعِياً يصرخ :

ندمت ندامة لو أن نفسي　　تطاوعني إذاً لقطعت خَمسي
تبين لي سَفاه الرأي مني　　لعمر أبيك حين كسرت قوسي

مقابلة بين خاتمة إخوة يوسف وبين ما ذكره الانجيل من خاتمة بطرس تلميذ المسيح

المادة ٣ ـ قولهم : (تالله لقد آثرك .. الخ) ، من هذا ومن دعاء أخيهم يوسف لهم بقوله : ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ومن قولهم لأبيهم . (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) ، وقول أبيهم لهم : «سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم » ـ من مجموع هذه المكالمات المتبادلة ، بين يوسف وإخوته وبينهم وبين أبيهم ، نعلم أن خاتمة أمرهم كانت حسنة ، لأن هذه المخاطبات جاءت أخيراً ، ومتأخرة عن أعمال إخوته الفاسدة وأقوالهم الكاذبة ومواعيدهم المخلفة ، فكل هذه نسخت بتوبتهم الأخيرة ، وحسن حالهم مع الله وأبيهم وأخيهم ولا شك أن المدار على الخواتيم ،

وهذا (والشيء بالشيء يذكر) ضد ما حصل لبطرس الذي طرده المسيح (ع) وسماه شيطاناً ، ثم بطرس أنكر المسيح ثلاث مرات ، وهذا هو كذب صريح وبمثابة ردة ، وكان كل هذا في آخر أمره ، بعدما كان معتمده ورأس تلاميذه ، ففي الإنجيل أنه قال له : (وأنا أقول لك أيضاً ، أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة إبنِ كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الارض ، يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض ، يكون محلولاً في السموات) (مت١٦: ١٨) قال متى : (حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح ، من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتأكد كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ، وفي اليوم الثالث يقوم ،فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلاً : (حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا) — فالتفت وقال لبطرس : (اذهب عني يا شيطان ، أنت معثرة لي ، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس) (مت ١٦ : ٢٠ - ٢٣) ، ثم قال « متى »: (أما بطرس فكان جالساً خارجاً في الدار ، فجاءت إليه جارية قائلة : « وأنت كنت مع يسوع الجليلي » - فأنكر قدام الجميع ، قائلاً : « لست أدري ما تقولين » ، ثم إذ خرج إلى الدهليز ، رأته أخرى فقالت للذين هناك : « وهذا كان مع يسوع الناصري »— فأنكر أيضاً بقسم « إني لست أعرف الرجل » ، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس : « حقاً أنت منهم فإن لغتك تظهرك » — فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف الرجل) (مت ٢٦ : ٦٩ — ٧٤) فهذا اللقب الذي لقب به المسيح بطرس ، وهذه الشهادة بأنه معثرة وأنه لا يهتم بما لله ، لكن بما للناس ، وهذا الكذب والإنكار الذي صدر من بطرس لإلهه المسيح ، مع اللعن — كل هذه الأمور كانت على رواية « متى » بعد تلك المنحة والخصوصية التي خصه بها ، هو ما صار لبطرس في آخرة أمره ، فحاله مخالفة لحال إخوة يوسف ،

والعبرة بالخواتيم ، هذا على رواية « متّى » ولكن نحن نجل حواري المسيح عن ذلك وعن أقل منه ، ولا نؤمن بهذه الرواية التي تحط من قدر بطرس القديس .

الفرق بين لفظتي الخاطىء والمخطىء وإخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين

المادة ٤ ـ من الناس من يقدم على الفعلة السيئة ، تارة « باجتهاد » وتأويل ، بحيث يكون غير خاش بما عمل عقاباً من الله ولا توبيخاً من الضمير ، وتارة « بالغلط » وعدم معرفة أن هذا الفعل حرام ، فصاحب هذا العمل ـ في الحالين ـ لا يعاقب ، وعلامة هذا النوع ، أنه يفعل الفعل ، وهو راض عن نفسه ، مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « مخطىء » ، ومن الناس من يعمل عمل السوء ، وهو عالم أنه سوء ، وإن الإقدام عليه غير جائز ، لا في حكم الله ، ولا في حكم الضمير ، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ما عمل ، ما من ذلك بد ، إن لم يعقبه بتوبة ، وعلامة هذا النوع أنه يعمل العمل ، وهو غير راض عن نفسه ، ولا مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « خاطىء » .

فإذا تقرر هذا فأولاد يعقوب عليه السلام كانوا من قبيل هذا النوع ، ولذلك تراهم أقروا واعترفوا أمام أخيهم ، ثم أمام أبيهم بأنهم كانوا « خاطئين » وهذا يدلنا على أن العلة التي كانوا توسلوا بها لقتل يوسف أو طرحه أرضاً ، أو إلقائه في غيابة الجب ، وهي كونه أحب لأبيهم منهم ـ كانت علة غير حقيقية ، حتى في نظرهم ، وأنهم كانوا غير مقتنعين بها ، لأنها صورية فقط ، إذ العلة الحقيقية هي الحسد والغيرة والغيظ والأثَرَة .

المادة ٥ ـ قال عبد الله بن مسعود : في كتاب الله آيتان ، ما أصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له :

الاولى ـ قوله : ﴿ والذينَ إذا فعلوا فاحِشَةً أو ظلمــوا أنفُسَهُم ، ذكَروا اللهَ ، فاستَغفَروا لذُنوبِهم ـ ومَنْ يَغفِرُ الذنوبَ إلا الله ـ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا ، وهم يَعلَمون ﴾ (٣ : ١٣٥) .

والثانية ـ قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يَعملْ سُوءاً أو يَظلِمْ نَفسَهُ ، ثمّ يَستَغفِرِ اللهَ ، يَجِد اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

عدم تمادي الاخوة في إنكار المحسوس

المادة ٦ ـ لم يتمادوا في إنكار المحسوس ، ولم يثابروا على رد الحقــائق ، ولم يحوجوا من يخاطبهم بهذا الخطاب أن يثبت أنه « يوسف » !!! ، وأنه حتى اليوم « حيّ يرزق » لم يأكله الذئب ، ولم يفترسه الوحش !!!.

فنحن في مقابلة تساهلهم هذا ، لا يسعنا إلاّ تقديم واجبات الشكر لماأبدوه من هذا اللطف مع أخيهم ، والتسامح والتساهل ، وإلاّ كان لهم أن ينكروا على هذا الذي يخاطبهم دعواه أنه « يوسف » ويكلفوه أن يثبت تلك الدعوى في محكمة مصر العليا !!!.. إذ يمكنهم أن يقولوا له: نحن أثبتنا موت «يوسف» بن يعقوب قديماً من ٢١ سنة ، فإن بعضنا ادعى ذلك ، والبعض الآخر شهد عليه ، بلهَ شهادة « القميص » ، ونحن والقميص أصدق منك أيها المتكلم المدعي النسب فينا ، فإن كنت تريد إثبات أنك يوسف بن يعقوب ، فعليك بنقض الحكم الصادر عليك بالموت ، وإثبات أنك حتى اليوم « حيّ ترزق » !!..

الحــــي الميت

الشيء بالشيء يذكر – قرأت في بعض الصحف أنه مازال يوجد « قانون » قديم في ألمانيا ، يقضي بأن الشخص إذا اعتبر خطأ ميتاً في ورقة رسمية ، وهو

لا يزال على قيد الحياة ، فعليه أن يراجع السلطات ، في مدة ستة أسابيع ، من وقوع ذلك الخطأ ، فإذا انقضت المدة ولم يفعل ، يبقى في نظر « القانون » ميتاً إلى الأبد ؛

وقد حدث أن بحّاراً ألمانيا يسمى (فوتكا) اعتبرته السلطة ميتاً وهو ما يزال حيّاً ، ولكنه لم يطلب تصحيح هذا الخطأ في المهلة المعينة ، ومن أجل ذلك ما يزال حتى اليوم يطالب بتركته التي وزعت على ورثته ، وقد بذل بعد انتهاء « الحرب العالمية » جهداً عظيماً ، لكي يعود إلى الحياة في نظر القانون ، ولكنه لم ينجح ، قال بعض الظرفاء : إن « فوتكا » لم تبق أمامه وسيلة لإثبات حياته سوى أن يقتل إنساناً آخر ، ومن الطبيعي أن الميت لا يقتل حياً ، غير أنه يخشى في هذه الحالة أن لا يتمتع طويلاً بحياته الجديدة .

هذا ولكن « يوسف » الصديق رأى أمامه وسيلة لإثبات حياته في نظر إخوته ، وأنه هو يوسف العبراني بن يعقوب - هي الإتيان بهم وأهلهم أجمعين ، ليعيشوا عنده بمصر ، فبدلاً من أن يقتل واحداً منهم ، أراد أن يحييهم جميعاً .

توبة إخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز

المادة ٧ - نعلم من هذه السورة أنه كان ليوسف « أعداء » في فلسطين هم « إخوته » كانوا أذنبوا إليه ، وتعدوا عليه ، ثم تابوا بين يديه ، ولكن بعد خراب البصرة ، أو كما قال الشاعر :

« ولكن جئت في الزمن الأخير »

كما نعلم أيضاً مما سبق أنه كان ليوسف « عدوة » لدودة « بمصر » هي « زليخا » كانت اتهمته وتعدت عليه ، وأرادت تدنيسه ، ثم بعده تابت ، ولكن في آخر نفس من أنفاسها ، فتوبة هؤلاء وتوبة هذه ، إن كانت معتبرة ، لكنها منحطة ، وفي آخر درجات التوبة ، كيف لا .. وإنما كانت توبة زليخا بعد ما تملص يوسف منها وخرج من قصرها ، وتخلص من نفوذها ، وأصبح في بلاط الحكومة ، وهي قد كبرت ،

وهو قارب سن الشيخوخة ، وذبل ورد جنته ، وجف ماء شبابه ، وكذلك إخوة يوسف إنما كانت توبتهم بعد أن رأوا أنفسهم عبيداً بين يدي أخيهم واقفين ناكسي رؤوسهم ، وهو صاحب الحول والطول ، وذو العمل والصول ، وهم عزل من أقل من ذلك .

مقابلة بين أقوال إخوة يوسف السابقة وأقوالهم الحالية

المادة ٨ ـ هم أولاً قالوا : (تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين) ، وهذا حقيقة راهنة ، فإنني لم أسمع لهؤلاء الإخوة « قولاً » لا أقدر أن أنتقده سوى هذا القول ، إنهم أولاً كانوا قالوا : (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين) (آ : ٨) وللسامع أن ينتقد فكرهم هذا من وجوه ، منها أن « يوسف » كان عمره في ذلك الوقت (على أطول الروايات) ١٧ سنة ، وكان عمر « بنيامين » إذ ذاك ٧ سنين ، وأما هؤلاء الإخوة فكان أكبرهم وهو « راوبين » لا يقل في ذاك التاريخ عن ٣٠ سنة ، وكان أصغرهم وهو « زبولون » لا يقل في ذاك التاريخ عن ١٨ سنة ، ولعمري إن حسد الكبير للصغير وغيرته منه لهما من الغرابة بمكان .

وإنهم ثانياً ــ قالوا : (ونحن عصبة) أصلحهم الله ، أما كان الأولى بهم أن يعللوا بأنهم أطوع لأبيهم أو أنهم أحسن حالاً من أخيهم ؟

وإنهم ثالثاً ــ كانوا قالوا : (إن أبانا لفي ضلال مبين) ، ونحن نقول : إن من يضللون أباهم هم لا غيرهم في الضلال المبين .

وإنهم رابعاً ــ كانوا قالوا : (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ، يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين) (آ ٩) ، أصلحهم الله ! كان الخروج من هذا الكرب والمأزق الحرج الذي تصوروه ليس منه مناص بسوى « القتل » ؟!

سبحان الله ! أما كان يكفي أن يتكلموا في هذا الشأن مع والدهم بلطف ، ويتفاهموا معه بالحسنى ؟ وأيضاً أما كان الأحرى بهم أن يحسنوا حالهم في أنفسهم ومع أبيهم ، حتى يصير محباً لهم كأخيهم ؟ ثم كيف ساغ لهم أن يتصوروا أن « قتل يوسف » ينشأ عن خلو وجه أبيهم لهم ، مع أن العقل يقتضي ضد ذلك ؟ ثم ما هذا الصلاح الذين سيصيرون إليه ؟ مع أن كل إنسان ذي إحساس ، متى تذكر أنه فعل فعلاً سيئاً مع أخيه ، لا سيما بدون ذنب منه ، فلا ريب أن عيشته تكون غير صالحة ، لأن ضميره دائماً يوبخه على ما فعل .

وخامساً – سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ؟ ﴾ (آ ١١) ولعمري إن هذا القول لمما يوجب الخوف ، ويوقظ الغافل عن كراهتهم لأخيهم .

وسادساً – سمعناهم يقولون : ﴿ لئن أكله الذئب ، ونحن عصبة ، إنا إذاً لخاسرون ﴾ (آ ١٤) سبحان الله ! أما كان الأولى بهم أن يضعوا ثقتهم بالله ، ويحصروا اتكالهم على الله ، ويعتصموا بحمايته تعالى !؟..

وسابعاً – سمعناهم يقولون : ﴿ إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ (آ ١٧) سبحان الله ! أرادوا أن يعتذروا فصرحوا بقصورهم في حفظهم لأخيهم ، لأنهم لم يأخذوه ليكون حارساً لأمتعتهم ، ولكن ليكون معهم حين الاستباق ، وبذلك يتوجه عليهم اللوم ، وتقوم عليهم الحجة .

وثامناً – رأيناهم جاؤوا بقميصه ملوثاً بالدم ، ما شاء الله ، ما أعمق هذه الاستدلالات القيمة ؟! كأن « الدم » في هذا الكون لا يكون إلا من جسد يوسف عليه السلام ؟!؟..

تاسعاً – سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ (آ ٦٣) براعة استهلال لطيفه ابتدؤوها بلفظ « المنع » ، مع أن المقام مقام طلب ، أما كان يجدر

بهم أن يستهلوا كلامهم مع أبيهم ببشراه بملاطفة « عزيز مصر » لهم ، ثم يذكرون له حرص « العزيز » على رؤية أخيهم وإلا فلا كيل لهم ؟!

وعاشراً – سمعناهم يقولون : ﴿ جزاؤه من وجد في رَحْلِهِ فهو جزاؤه ﴾ (آ ٧٥) ، وكان الأوفق بحال أخيهم بنيامين أن يحيلوا الحكم فيه للقانون المصري لأنه أخف عليه ، ولأنه كان يمكن لهم أن يقولوا : إن الجريمة وقعت في المملكة المصرية فلنرجع للقانون المصري ، محافظة على شرف وسلطان مصر .

والحادي عشر – سمعناهم يقولون : ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ (آ ٧٨) وفي هذا رجوع منهم عن الشريعتين ، الشريعة الإبراهيمية ، والشريعة المصرية ، فلم يحترموا الأولى لأنها شريعة جدهم ، ولم يحترموا شريعة مصر ، مع أن الجريمة وقعت فيها !

والثاني عشر – سمعناهم يقولون : ﴿ وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ (آ ٨٨) والاستجداء لا يليق بأولاد الأنبياء ، لا سيما إذا كانوا فتياناً وكهولاً ، زعماء ثورات ورجال حركات .

مقابلة بين تفكير الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن

المادة ٩ – رأوا أنفسهم اليوم في ضيق من « يوسف » أعظم من ضيقهم منه منذ ٢٢ سنة ، فقد كانوا حسدوه رغماً عن أنه كان غلاماً ، ولكن لماذا يا ترى حسدوه ؟ حسدوه لعلة صبيانية ، هي زيادة محبة أبيه له ، حسدوه فأرادوا إزالته من الطريق ، ليخلو لهم وجه أبيهم ، هذه حادثتهم قبل ٢٢ سنة ، ولكن اليوم ما عساهم أن يصنعوا ياترى؟ وقد توفرت أسباب الحسد الجوهرية ، توفرت دواعي الحسد الذي عهد أن يكون بين الرجال على أمور ذات شأن ، فما هي المكيدة التي عساهم اليوم أن يكيدوا بها كيداً .. هل في وسعهم هذه المرة ، أن يزيلوا

« يوسف » من الطريق ليخلو لهم وجه مليك مصر « الريان » ؟... هذا أمر يعسر عليهم اليوم ، لأن مليك مصر لا يعرفهم ، ولأن يوسف اليوم ليس غلاماً ابن ١٧ سنة ، حتى يستولوا ، بل هو اليوم رجل ابن ٣٩ سنة ، ومن أين لهم اليوم « مرتع وملعب وميدان استباق ؟ ومن أين لهم وحش وقميص ملوّن ، ودم تيس من المعزى ؟ ومن أين لهم جب ؟ حتى يقدروا أن يمدوا شبكة حيلهم كما مدوها بالأمس ، فاليوم غير الأمس ، و« العزيز » غير الذليل ، ووزير المالية غير السوقه وابن الشارع ، فمن هذا كله نرى أنهم وقعوا في « حيص بيص » ، وأنهم قد أخذوا بخلاقيمهم ، ولم يجدوا أمامهم سوى تغيير أفكارهم العتيقة بالمرة ، والاعتراف بخطئهم ، والاستسلام لأخيهم ، والالتجاء لرحمته ، فلذلك طرأ لهم هذا « التغيير الفجائي » ، وسبحان من يغير ولا يتغير !..

كان لهم في حياة يوسف الجديدة ، موت جديد ، وفي عزه ذلهم ، وفي ارتقائه سقوطهم !!! ﴿ قُلْ اللهُمَّ مالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ وتَنْزِعُ الملكَ ممَّنْ تشاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ ، وتُذِلُّ مَنْ تشاءُ ، بيدِكَ الخيرُ إنكَ على كل شيءٍ قديرٍ ﴾ (٣ : ٢٦) .

شفيع المذنب إقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) « قالَ لا تَثريبَ عليكم اليومَ ، يغفِرُ اللهُ لكم ، وهو أرْحَمُ الراحمين » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والتسعون فقام نور الدين الأنبابي[1] واعتلى منصة المنبر وقال محاضرته القيمة التي ننقلها اليكم بقسميها المجمل والمفصل:

(قال) يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم) ولا تأنيب ولا عتب ، بل

(١) نسبة الى انبابة من البلاد المصرية .

أطلب لـكم المغفرة صارخاً إلى السماء (يغفر الله لكم) ما فرط منكم ويحتمـل أن قوله (يغفر الله لـكم) دعاء ، « رب أشعث أغبر لو أقسم عـلى الله لأبره » (وهو) سبحانه وتعالى (أرحم الراحمين) ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم، فإنها وسعت كل شيء .

(قال لا تثريب عليكم اليوم ... الخ)

— ٢ —

وتابع السيد نور الدين الأنبابي كلامه قائلا :

يوسف يعفو عن إخوته ويطلب لهم المغفرة

إن يوسف عليه السلام تأمل في الحالة السابقة بينه وبـــين إخوته فقال في نفسه :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذبُ ؟

ففضل العفو عنهم ، وقال لهم : لا مَوْجِـــدَةَ منذ اليوم في قلبي نحوكم ولا تِرةَ بيني وبينكم ، ومن حق الصديق والقريب أن يتحملا ثلاثاً ، ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وأنتم ما خرجتم عن أنكم سكان بيوت من طين، تماسكت أجزاؤها بالماء ولعل الله قد أتى بي ههنا لأجل أن تحيوا ، وتحيا عائـلة إسرائيل وأنتم إن كنتم أخطأتم فما أخطأ القدر :

والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدارِ

وحيث حملتم شهادة التوبة بيدكم ، وبما أن شفيع المذنب إقراره فلا تثريب عليكم اليوم ، فالإنسان يصيب ويخطىء، ويسرع ويبطىء ، والإنسان من ماء وطين وليس من الملائكة العِليين ، وإن لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة ، والكمال لله والعصمة لأنبيائه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم،

لا تثريب عليكم اليوم ، فبعد اعترافكم بالخطأ ، وإنابتكم إلى الله ، لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم ، وعواطف مائتة .

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترفْ　　ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترفْ
أبشر بقول الله في آياته　　« إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلفْ »

لا تثريب عليكم اليوم ، إني قد وهبتكم لأبيكم وعيالكم ، وإني مستعد لمسامحتكم ألف مرة لو قدر أن يجنى عليّ ألف جناية .

لا تثريب عليكم اليوم ، فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها ، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرها ، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال ، ونتحامى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم .

لا تثريب عليكم اليوم ، فأنا لست عدو إخوتي ، ولكني عدو تقطيع الأرحام ، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطأ ، أرى من واجبي عدم لومكم وتأنيبكم ، فلا تفتكروا فيما كان بيني وبينكم من الإحَن ، فقد جعلتها دَبْر أذني وتحت أقدامي ، فلا آخذ بها عليكم اليوم ، لأن خطيئتكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم .

لا تثريب عليكم ، لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التي ساعدت على ارتقائي لهذا المنصب العالي وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة ، لكن حركتكم معي أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري ، حادثة ارتقائي على عرش الملك .

لا تثريب عليكم اليوم ، بل عفوت عنكم عفواً لا يخلطه تثريب ، ولا يكدر صفوه تأنيب ، لي ولكم رب اسمه « الغفار » واسمه « الرحمن الرحيم » .

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فإنها وسعت كل شيء ، غفرت لكم قولكم : (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً) غفرت لكم قولكم : (ألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة) غفرت لكم قولكم : (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ، غفرت لكم كل ما لقيته بسبب كيدكم لي ..

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فالعفو من شيم الكرام ، بل هو من أصول الدين الأساسية ، ومن الأخلاق الفاضلة ، وإني لحري بالتمشي عليه مع كل الناس ، لا سيما معكم أنتم أيها الإخوة :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الأوزار في أصغر عفو الله أصغر[1]

أما الإخوة فلما سمعوا ذلك ، لا حطك الله محلهم ، فإنهم خجلوا خجلاً عظيماً ولا بدع فإن يوم العدل على الظالم شر من يوم الجور على المظلوم ، ولكنهم فيما بعد استنارت ظلمة قلوبهم ، وأنست وحشة نفوسهم ، وسكتوا كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يبدوا حراكاً ، ولعمري إن يوسف لم يبعد في الإحسان ، ولا تجاوز مزاياه الحميدة ، فهو منبع الكرم ، ومصدر معاني الشيم .

(قال : لا تثريب عليكم اليوم .. الخ)

- ٣ -

وقال شمس الدين الجيزاوي :

عندي على هذه الآية المواد الآتية :

معنى التثريب

المادة ١ - معنى (لا تثريب عليكم) لا تأنيب ولا عتب عليكم ، وأصل

(١) من نظم أبي نواس .

التثريب من الثرب ، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد ، والتأثيم إزالة الإثم . سمع من بعضهم : « اللهم أثمني » أي أبعد عني الإثم ، فالتشديد للسلب « فإذا ذهب الثرب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده ، ويقال للتثريب تقريع ، وأصله إزالة القرع من الرأس باستعمال دواء له ، فضرب مثلاً للتقريع أي التثريب والتأنيب الذي يمزق الأعراض ، ويذهب بماء الوجوه ، والتعيير والتعنيف درجات ، أقواها التثريب فالتأنيب فالتوبيخ فالتقريع فاللوم فالمعاتبة [1].

وثرَبَ وثَرد قريبان ، لأن أصل التثريب إضعاف الشيء ، أي جعله ضعيفاً وتثريد الخبز : تكسيره ، وفي صحيح البخاري : (إذا زَنَتْ الأمة فتبين زناها فليَجلِدها ولا يُثرب) وفسره الشراح بالتعبير والاستقصاء في اللوم .

متعلق كلمة « اليوم »

المادة ٢ ـ كلمة « اليوم » متعلقة بالتثريب أو بالمقدر في (عليكم) من معنى الاستقرار ، أو متعلقة « بيغفر » ، والمعنى على الأول : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ثم ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم ، يقال : غفر الله لك ويغفر الله لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً ، ومنه قول المشمت : « يرحمكم الله » وقول العاطس : « يصلح الله بالكم » .

والمعنى على الثاني : أن (يغفر الله لكم) بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم ، وعلى هذا الثاني فمعنى قول يوسف (يغفر الله لكم) مغفرة ما يرجع إلى حقه وحق ربه دون حق أبيه ، إذ الإثم

(١) راجع الألفاظ الكتابية .

كان مشتركاً بين الثلاثة ، ومعنى قولهم فيما يأتي : (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) مغفرة ما يتعلق بحقه وحق ربه دون حق ولده ، لأنه تنازل عنه سابقاً ، أو مقصودهم تكرار طلب المغفرة من الله بلسان أبيهم ، كما حصل بلسان أخيهم .

المشابهون ليوسف في عمله الأخير مع إخوته

المادة ٣ ـ كما عامل يوسف إخوته ، عامل النبي ﷺ قريشاً وأهل مكة ، فإنه يوم أن فتحها وقف على باب الكعبة ، والناس وقوف صامتون ، كأن على رؤوسهم الطير ، فخطب فيهم خطبة طويلة ، ثم قال : « ماذا تقولون ، وماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ » - قالوا : « خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت » فقال : أقول كما قال أخي يوسف : (لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين) ، اذهبوا فأنتم الطلقاء. وقد مشى كل من هذين النبيين الكريمين على قاعدة « قد ملكت فاسْجِحْ »

وثبت في التاريخ أن « الخليفة المأمون » قال هذه الكلمة اليوسفية «لإبراهيم ابن المهدي » فإن ابراهيم بن المهدي كان خرج على المأمون طالباً للخلافة ، فطلبه المأمون وأحضر بين يديه ، فقال له إبراهيم : « يا أمير المؤمنين ، العفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك » ـ قال : « بل أعفو يا إبراهيم ، وأقول ما قال يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

قال المقَنّع الكندي ، وكأنما نظمها تصويراً لحال يوسف مع إخوته :

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً
أراهم إلى نصري بطاءً ، وإن هُمُ ... دعوني إلى نصر ، أتيتُهُم شدّاً
وإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيّي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحس يمرّ بي زجرت لهم طيراً يمرّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جُل مالي إن تتابع لي غنى وإن قلّ مالي لم أكلفهمُ رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : « إن رجلاً قال يا رسول الله، إن لي قرابة أصِلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون لي ، وأحلمُ عليهم ويجهلون عليّ ، – فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفهم المَلّ[1] ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » ، وعن أنس بن مالك ، « أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها فجيء بها ، فقيل : ألا نقتلها ؟ » – قال : « لا ! » رواه البخاري في صحيحه .

« وحكي أنه بينما قيس بن عاصم ذات يوم في داره ، إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار ، ففرغت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها ، فوقع على ابن له فقتله ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روع عليكِ ، أنت حرة لوجه الله ! » .

الحكمة في مبادرة الاستغفار لاخوته بخلاف أبيهم

المادة ٤ ـ تعليقاً على قوله (يغفر الله لكم) : هم لم يقولوا لأخيهم : استغفر لنا ذنوبنا ، كما سيأتي أن يقولوا لأبيهم ، ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله قبل أن يطلبوا منه ذلك ، وأما أبوهم فمع كونهم ابتدؤوا وطلبوا منه استغفاره لهم ذنوبهم ، فلم يبادر بطلبتهم ، وإنما وعدهم بها وعداً مؤجلا فما الحكمة يا ترى في ذلك ؟

(١) أي كأنما تطعمهم الرماد الحار .

والجواب عليه من وجوه :

الوجه الأول - معلوم عند العموم أن قلب الوالد سريع الانعطاف ، وأنه محب لخير بنيه بالطبع ، لأنهم مهما كانوا فهم أفلاذ كبده ، فلذلك لم يحتج أن يبرهن على ذلك بنحو مبادرته بالاستغفار لهم ، بل أخَّر ذلك لأمر ما ، ربما يكون فيه خير لأولاده ، بخلاف يوسف ، فهو أخ ، لا أب ، فلذلك احتاج أن يبرهن لهم على حنانه وعطفه عليهم بسرعة استغفاره لهم ، حتى بدون طلب منهم ، فأبوهم لم يكن أقل مغفرة لهم وعطفاً من أخيهم عليهم ، بل هو أكثر مغفرة ورحمة ولكن اختلف الحال ، لما بيناه في جواب السؤال .

الوجه الثاني - وهو أنه أمسك عن تثريبهم ، وغفر لهم ، وأراد أن يجازي سيئتهم بالحسنة ، فرغب إليهم أن يأتوا بأهلهم ليعولهم ، وأعطاهم من نفسه هذا الكرم . لأنه يرى نفسه حاكماً ، وهم محكومون ، وأميراً ، وهم مأمورون ، وعزيزاً بمصر ، وهم أذلاء ، ومن رجال البلاط ، وهم سوقة ، ووزير مالية ، وهم فقراء يائسون ، وهو قوياً ، وهم ضعفاء ، فكان يراهم أصغر في عينيه من أن يأخذهم بذنب ، أو يعتد عليهم بسيئة ، وإن هذه النظرية العذبة ، التي أصبح ينظر بها إليهم ، إنما هي نظرة الرفع ، التي يلقيها على البائس الضعيف ، الذي يستحق العطف والرحمة ، شأن أصحاب المراتب العالية ، من أرباب الحكومة ، مع أفراد الرعايا ، وقد قيل : «إن الحكم والعفو في الحكام ، من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم » فهذا ما حدا بيوسف عليه السلام أن يبادرهم برفع التثريب عنهم ، والاستغفار لهم ، وهذا بخلاف أبيهم عليه السلام ، فإنه ليس من أصحاب المناصب الدنيوية ، بل هو لا يزال من الناس المحكومين ، الذين لا يرون لأنفسهم على غيرهم ما يراه أهل الدنيا من الرفعة والعظمة .

الوجه الثالث - وهو أن يوسف رغماً عن أنه وزير مالية وعزيز مصر ووكيل

مليكها ، فهو لا يزال يتحسس الخوف من إخوته ، ومن إفسادهم عليه حاله ، والمقروض يخاف من جرة الحبل ،لا سيا وهم إخوته ، فطعنهم فيه أقرب للتصديق من طعن الأجانب فلذلك بادر بطمأنتهم بعدم تثريبهم ، وبالدعاء لهم بالمغفرة ، وبالرغبة إليهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، يستصلح بذلك قلوبهم ، ويجعل به بينهم وبين ضررهم إياه سداً منيعاً ، ولما كان هذا المعنى غير موجود في أبيهم ، لم يحتج إلى شيء من هذا القبيل ، بل رغماً عن كونهم تقدموا إليه في استغفار ذنوبهم ، فقد رأيناه أخَّر الاستغفار لهم ، إلى وقت أو مكان أو حال ربما يكون الدعاء فيه أقرب للإجابة .

الوجه الرابع ـ افتكر يوسف عليه السلام في نفسه أنه ليس بين المتشفي المصر على النقمة ، وبين المظلوم الجبار المستبد ، إلا ستر رقيق وحجاب ضئيل ، ففضل أن يعفو عن إخوته ، ولا يثربهم ، بل فضل أن يغفر لهم ، لا سيما وإن التجاوز عن أمثالهم من أهل العناصر الطيبة يفيد في حسن حالهم ، كما إن المغفرة لذوي الخسة والدناءة تزيدهم تعدياً وطغياناً ، فقد قيل : « إن العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح الكريم » وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك ، فلم تغفر له ، فلك الذنبُ

قيل : لما أُتيَ بإبراهيم بن المهدي إلى المأمون شاور وزيره في قتله ، فقال له وزيره : « إن قتلته ، فلك نظراء ، وإن عفوت عنه ، كنت الرجل الوحيد » فعفى عنه .

العفو أشد أنواع الانتقام

الوجه الخامس ـ وهو أن العفو أشد أنواع الانتقام ، وهو مرارة ساعة ،

ثم السعادة إلى الأبد، والانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن إخوته، ويصفح الصفح الجميل، فقال بشفته وقلبه: (لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين)، وهو حقيق بذلك كله، لأن المقدرة تذهب الحفيظة، ولعمري لقد جاء عفوه عنهم تزكية لانتصاره عليهم.

أرحم الراحمين

المادة ٥ ـ تعليقاً على قوله: (وهو أرحم الراحمين) قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح، وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر، وقال ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور، رحمه الله يوم القيامة» رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني عن أبي إمامة، وأشار السيوطي في الجامع الصغير إلى صحته.

العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة

المادة ٦ ـ في العدول عن الانتقام إلى الغفران فضيلة عالية، والعفو عن الناس هو من أسمى العواطف البشرية، لأن الدين – الذي هو دين الفطرة – يخير المظلوم بين الانتقام، قصاصاً وتأديباً، وبين الغفران كرماً وتكريماً، ولكنه يفضل الثانية على الأولى، فالدين يقول في مقام المدح: ﴿ والذينَ يَجْتَنِبُونَ كبائِرَ الإثْمِ والفواحِشَ، وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرون ﴾ – ثم يقول: – ﴿ والذينَ إذا أصابَهم البَغْيُ هم يَنْتَصِرُون، وجزاءُ سَيئَةٍ سَيئَةٌ مِثلُها فمَنْ عَفا وأصْلَحَ فأجرُهُ على اللهِ، إنه لا يحبُّ الظالمين، ولَمَنْ انتَصَرَ بعد ظُلْمِهِ فاولئكَ ما عليهم مِنْ سَبيلٍ، إنما السَّبيلُ على الذينَ يَظْلِمُونَ

الناسَ ، ويَبْغُونَ في الأرض بغيْرِ الحقِّ ، أولئكَ لهم عَذابٌ أليمٌ ، ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ ﴾ (٤٢ : ٣٧ - ٤٣) ، ويقول : ﴿ ولْيَعْفُو ولْيَصْفَحوا ، ألا تُحِبُّون أنْ يَغفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، ويقول : ﴿ وأنْ تَعفُو أقربُ للتقوى، ولا تَنْسوا الفَضْلَ بينَكم ﴾ (٢ : ٢٣٧) ، ويقول : ﴿ وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِروا ، فإنْ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٦٤ : ١٤) ، ويقول : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبّكم ، وجَنّةٍ عَرْضُها السّموات والأرضُ ، أعِدّتْ للمُتّقينَ ، الذينَ يُنْفِقونَ في السّراءِ والضّراءِ ، والكاظِمِينَ الغيظَ ، والعافينَ عَنِ النّاسِ ، واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ ﴾ (٣ : ١٣٣)، قال «سليمان» عليه السلام : « إن مَنْ يقدر أن يملك عنان نفسه ، لهو عندي أفضل من الذي يفتتح المدن والأمصار » ، وقال « جوبير » « خير للإنسان أن يكون حاكم قلبه من أن يحكم الشعوب » .

غفران الاساءة واجب

المادة ٧ ـ تعليقاً على قوله : (يغفر الله لكم) بما أن اللهتعالى يغفر لنا الإساءة العظيمة يجب علينا أن نغفر لإخواننا إساءتهم إلينا ، وإن لم نسامح إخواننا في زلاتهم معنا ، يغضب الله علينا ، ولا يسامحنا بل يعاقبنا ، فقد قيل : « إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر الله لكم زلاتكم » قال تعالى : ﴿ ولْيَعْفُوا ولْيَصفَحوا ، ألا تُحِبون أنْ يغفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ قل للذينَ آمَنُوا يَغفِروا للذينَ لا يَرْجُونَ أيامَ اللهِ ، ليَجزيَ قوماً بما كانوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤٥ : ١٣) ، فالله تعالى مع كثرة رحمته شديد العقاب ، فالإيمان الذي لا يكون مصحوباً بالمحبة والمسامحة ليس بإيمان كامل ، ليس هو إيمان أهل البر ، ليس هو إيمان أهل الخير والتقى، فأبواب السماء

مغلقة في وجه القساة ، مغلقة في وجه الذين يحبون الانتقام لأنفسهم ، من حيث أنه انتقام فقط ، لا لعلة أخرى ، مغلقة في وجه أهل الحقد والتشديد ، مغلقة في وجه من يطلب من الله المسامحة وهو لا يسامح إخوته .

من تاب غفر الله له

المادة ٨ ـ تعليقاً أيضاً على قوله : (يغفر الله لكم) : حصول المغفرة لهم أمر طبيعي ، لأنهم تابوا وأنابوا واعترفوا بما اقترفوا ، وإذا كان الله تعالى يغفر للكافرين إذا تابوا كما قال تعالى : ﴿ قل لِلذينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهوا يُغفَرْ لهم ما قد سَلَفَ ﴾ (٨ : ٣٩) فالمؤمن أولى بالمغفرةِ متى انتهى ، وقال تعالى : ﴿ ولو أنَّهم إذ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جاؤوكَ فاستَغفَروا اللهَ ، واستَغفَرَ لهم الرسولُ لوَجَدُوا اللهَ تواباً رحيماً ﴾ (٤ : ٦٣) ، وقال تعالى : ﴿ ومنْ يعملْ سوءاً أو يظلمْ نفسَهُ ، ثم يَستَغفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ (٤ : ١٠٩) فهذه الآيات الكريمة ، وما إليها مما هو كثير ، تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى بمجرد توبة إخوة يوسف قد غفر لهم حقه تعالى ، ومعلوم أن يوسف ـ وفي ضمنه بنيامين ـ قد غفر لهم أيضاً حقه ، فما بقي إلا حق أبيهم ، وسيأتي له أن يسامحهم .

ما هو الجزاء الذي وقع على إخوة يوسف حتى غفر الله لهم

وههنا أتذكر أنني كنت سئلت سؤالا صورته :

إن الجزاء أثر طبيعي للعمل ، إنْ خيراً فثواب ، وإن شراً فعقاب ، وإن الله بعيداً عن المحاباة : ﴿ فمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ خيراً يرَهُ ، ومنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ شَراً يرَهُ ﴾ ، (٩٩ : ٧و٨) فهل يا ترى وقع الجزاء لإخوة يوسف حتى نالوا هذه المغفرة عند اعترافهم بالخطأ ، مع أن الأعمال التي خطئوا بها إلى

الله وإلى أبيهم وأخوَيهم رهيبة ورهيبة جداً ؟ هذا ما سألني عنه نبيل وذكي من الطلبة ، فأجبته بما صورته :

إنهم بتكذيب أبيهم لهم ، إذ قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ ، وبما ضيق عليهم يوسف في سفرتهم الأولى إذ قال لهم : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ، وبما ثرّبهم أبوهم إذ قال : ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ ﴾ ، وبما شدّد النطاق عليهم إذ قال : ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ وبما سُرّقوا حين قيل لهم ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ، وبما كذبوا حين قيل لهم : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ﴾ وبما سُقط في أيديهم ، وكأنما صب من فوق رؤوسهم الحميم ، وخجلوا أمام الممتارين ، وأمام المصريين وأهل البلاط ، إذا استخرجت السقاية من وعاء أحدهم ، بعدما كانوا يقاومون هذه التهمة ، أشد المقاومة ، وبما أنهم رُدوا وخُيبوا ، ولم تنجح مساعيهم ولم تقبل شفاعتهم ، حين قال لهم أخوهم يوسف : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ، وبما أنهم وقعوا بذلك في اليأس والحرج ، وهم غرباء والوقت وقت جوع ، وعيالهم في انتظارهم على أحر من الجمر ، وبما أن « راوبين » أنبهم ، وذكرهم بما يحرجهم مع أبيهم ، وذكرهم بسابق عملهم مع أخيهم ، فقال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ؟ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ ﴾ وبما أن أباهم قد عاد فكذبهم في أن بنيامين سرق ، ونسب إليهم في ذلك دسيسة ومكراً ، فقال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ مع أنهم لم يكن لهم هذه المرة دسيسة ولا مكر وبما أنهم وقفوا بين يدي أخيهم ، ضارعين مستكينين و ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدّق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ وبما أنهم عوتبوا ووصفوا بالجهالة ، ولم يسعهم إلا

السكوت ساعة أن قال لهم أخوهم : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ وبما لمحوا من طرف خفي الإشارة من أخيهم إلى براءته منهم وانتسابه لبنيامين فقط ، إذ قال لهم : ﴿ أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وبما أنهم سمعوا التعريض بهم، أنهم لم يكونوا من أهل التقوى والصبر ، إذ يقول أخوهم أمامهم : ﴿ إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾،وبما رأوا من حرج الموقف الذي اضطرهم أن يعلنوا اختيار الله لأخيهم دونهم ، وأنهم أثِمَة خَطَأة ، إذ قالوا : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ ، ونضم لذلك ما كانوا يَرزَؤون به في مدة ٢١ سنة ، من عدم توجه أبيهم إليهم وحنقه عليهم ، وأضف لذلك جميعه ما كان يعتريهم كل حين من توبيخ ضمائرهم لهم ، ولوم أنفسهم ، إياهم ، وتمرمر معيشتهم ، فبحلول هذه النوازل عليهم ، وصبها فوق رؤوسهم ، علم أخوهم يوسف عليه السلام أنهم قد استوفوا جزاءهم جزاء وفاقاً ، وأنهم لم يبق عليهم ما يؤخذون به ، سوى الاعتراف، فلما اعترفوا قال لهم : ﴿ اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ هذا هو الجواب ، والله الملهم للصواب ، فإن أصاب الحز ، فمن نعمة الله الوهاب ، وإلا فما أنا أول واهم من بني آدم .

المغفرة والعفو والفرق بينهما

المادة ٩ ـ تعليقاً ثالثاً على قوله : ﴿ يغفر الله لكم ﴾ : المغفرة من الغفر ، وهو لغة الستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه - لا ينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر بالمرة ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن ، لا يبقى له أثر في النفس ، لا ظاهر ولا خفي . وبناء على هذا فالعفو لغة أبلغ من المغفرة ، وإنما عبر يوسف بالمغفرة دون العفو مع أنه أبلغ ، لأن إخوته لا يطمعون في أكثر من أن يستر الله ذنوبهم في الآخرة بعدم الحساب والعقاب ،ومع كل هذا فالفرق بين اللفظين لغوي فقط ، وأما النتيجة فهي واحدة تقريباً .

المغفرة في التلمود والانجيل

المادة ١٠ ـ جاء في « التلمود » أن شريعة بني إسرائيل توجب على المُساء إليه أن يغفر للمسيء لحد ثلاث مرات ، لأن الإنسان عرضة للخطأ ، وأوسع منه ما جاء في « الإنجيل » هكذا : ﴿ وإن أخطأ إليك أخوك ، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما ، فإن سمع منك ، فقد ربحت أخاك ﴾ (مت ١٨ : ١٥) ، وفيه أنه سئل المسيح : ﴿ كم مرة يخطىء إليّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل إلى سبع مرات ؟ ـ فقال المسيح : لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات ﴾ (مت ١٨ : ٢١ و ٢٢) .

فينبغي للبريء الملوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمه ، وتبيينه له خطأه ، بدل أن يشكو إلى الغير ، أو ينتقم منه ، أو يحقد عليه ، فيبقي العداوة له في قلبه ، وينبغي أن تكون المعاتبة سراً ، لأنه إذا عاتبه أمام الناس اغتاظ منه ، أو استحى بأن يقر أمامهم بأنه أخطأ ، فيجتهد في تبرير نفسه ويقسو بذلك قلبه ، مع أنه إذا انفرد به سهل عليه أن يقنعه بالحق، وينبغي أن يكون العتاب بلطف وحكمة ، وبروح الوداعة ، وإلا اتسع الخرق على الراقع ، وعمّق الجرح بدل أن يبرأ ، وصُب الزيت على النار ، بدلاً من أن يصب عليها الماء .

العبرة بالخواتيم

المادة ١١ ـ إذا تأمل الإنسان في حوادث الدهر ، وجدها سلسلة متصلة الحلقات ، كل حادثة منها وُلدت من أخرى ، لولاها لم تولد ، وبدونها لم توجد، ورأى الخير آتياً من صلب الشر ، والشر نازلاً من صلب الخير ، حتى ينتهي الأمر بأنه يُحكم بعدم وجود خير محض ، ولا شر محض ، وبأنها أمور نسبية ، وينبغي أن يضع نصب عينيه ، أن ما يراه اليوم مصيبة ، قد يضمن في الغد

سعادته ، وأن ما يراه سعادة، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته، فالأمور بخواتيمها والحوادث يحكم عليها لا بصدورها ، بل بأعجازها .

فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف

المادة ١٢ ـ تتألف حوادث الحياة من ثلاثة فصول : فصل الأمل ، وفصل الجهاد ، وفصل الفوز ، فرؤيا يوسف وأحلامه وبشرى أبيه له يمثل الفصل الأول ، وصبره في غيابة الجب وعلى استرقاقه وعبوديته وعن شهوته البدنية وفي سجنه ، يمثل الفصل الثاني ، وفوزه برقيه على أريكة الوزارة بمصر وبانتصاره على زليخا والنسوة المصريات وعلى إخوته ، وبإتيان أبيه وأخيه وسائر أهله يمثل الفصل الثالث .

الطريقة المثلى في المسامحة

المادة ١٣ ـ هذه الطريقة التي جرى عليها يوسف في مسامحة إخوته هي الطريقة المثلى التي مشى عليها وأوصى بها العقلاء من الناس .

قال الشاعر [١]:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه ؟
ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقال غيره :

تريد مهذباً لا عيب فيه ... وهل عود يفوح بلا دخان ؟

(١) هو بشار بن برد .

وقال غيره :

لا بـــد للكامـــل من زلة تخبره أن ليس بالكامل

وقال غيره :

فقلت لهـــا يا عزّ مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وقال غيره :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

وقال غيره :

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرىء لا يقبل العذر مذنبُ

وقال غيره :

اخمد بحلمك ما يذكيه ذو غلط من نار غيظك واصفح إن جني جاني
فالحلم أفضل ما ازدان اللبيب به والأخذ بالعفو أحلى ما جنى جاني

إسباغ النعمة على إخوة يوسف

المادة ١٤ — رأى يوسف أن هذا اليوم هو يوم أسبغت عليه فيه النعمة ممن فوقه ، فناسب أن ينعم هو على من هو دونه ، وأيضاً إن الخصام مع الناس ، لاسيما الأقارب ، لاينبغي أن يتمادى ويطول ، بل يجب البت فيه ولو بخسارة ، فان الهم الذي يقلق كثيراً إنما هو الهم الحاضر الراهن ، اما الماضي فان الظروف الجديدة تعفيه ، والنجاح الجديد يزيل اثره ، فلذلك رأى يوسف عليه السلام ان يسدل الستار على ميدان المعركة الحزبية ، ولم يرد أن يبعث من القبر جثة عفنة دفنت من زمن بعيد ، ولم يقض لها بالبعث والنشور ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوز والظفر . (مرحى)

قميص البشارة

آ (٩٣) « إذهبوا بقَميصي هذا ، فألقوهُ على وجهِ أبي يأتِ بصيراً ، وائتوني بأهلِكُم اجمعين ! »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والتسعون ، فقام السيد الغمراوي [١] وقال :

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ١ —

تحقيق عما هو هذا (القميص) وعن كلمة (بصير)

أنا ههنا لا أحب أن أعود إلى أقوال مفسري هذه الآية الكريمة ، ولكني أحب أن أجتهد في أن أصل إلى تفسير جديد ، أحب أن أحدث السامعين الكرام بصراحة وأمانة وصدق ، أحب أن أكشف لهم عما يختلج في ضميري منذ القديم في التحقيق عن هذا « القميص » وعن كلمة « بصير » .

« القميص » هو كسوة رسمية

هذا القميص هو « ثوب بوص » أي كتان ، ذو شارات مخصوصة وهو كسوة رسمية ، لا يقدر أن يلبسها كل شخص ، وهذا القميص كان مليك مصر « الريان » ألبسه يوسف يوم أقامه وكيلاً عنه ، وبيان ذلك : أن يوسف لما خرج من السجن وقف بين يدي الملك الريان وكلمه يوسف بكلام يشف عن قوة عقل وغزارة علم ،

(١) نسبة الى بلدة ميت غمر في القطر المصري .

فقال الريان له : (إنك اليوم لدينا مكين أمين) – فقال يوسف عليه السلام : (اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم) – فقال الملك لشوراه: «هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله) »أي رحمته وإلهامه وقوته ، ثم قال الملك ليوسف: « بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون رئيساً في البلاط ، تكون ثانياً في المملكة ، بمنزلة ملك ثان ، فيطيعك شعبي حتى يعمل بكل حكمة تفوه بها بأوامرك ، انظر قد جعلتك على كل أرض مصر وخزائنها وغلاتها » ، ثم خلع الملك خاتمه من يده ، وجعله في يد يوسف عليه السلام، وكان هذا الخاتم تختم به الأوامر ، فكان يوسف بذلك كالملك ، ثم ألبسه « الريان » قميص بوص ووضع طوق ذهب في عنقه ،ومعنى«بوص» كتـَّان نقي أبيض ، وكان هذا ملبوساً رسمياً، امتاز به الملوك ، وأكابر البلاط والكهنة، ثم أركبه مركبته الثانية ، ونادوا أمامه : « اركعوا » « ابركوا » ، وأتى الملك هذا الاحتفال ، ليبين لقومه أن يوسف عليه السلام صار حاكمهم في الدرجة الثانية ، لأن الملك الريان كان في مركبة تجري به ، وتجري وراءها مركبة أخرى بيوسف ، فهذا « القميص » متى وصل لسيدنا يعقوب ، عليه السلام ، علم أن ابنه زيادة عن أنه حي ، قد صار من رجال البلاط بمصر ، ومتى وقف على هذا الرمز ، عرف ما هي درجة ابنه ومنزلته في البلاط الملوكي ، وبَصُر بحاله ومآله ، إذ لا بد أن يعقوب عليه السلام يعرف أن هذا النوع الرسمي من الأقمصة خصيص بأعاظم رجال الحكومة والكهنة ؛

وما أشبه هذه الحادثة بحادثة صبيّ بدوي فارق أهله منذ سن الحداثة بلباس البداوة ، وانقطعت عنهم أخباره ، لا يعلمون أحيّ هو أو ميت ، ولا يعلمون عنه شيئاً لم ولكنهم كانوا يترجون حياته ، ثم بعد عشرات من السنين ، أرسل

ساعياً لأهله يطمئنهم بحياته وسلامته، ويذكر لهم رتبته في الحكومة ودرجته في البلاط الملكي، وعلامة لذلك،ولزيادة البشارة قوة واعتباراً، أرسل معهم لباساً من ألبسة الحكومة الرسمية، التي يدل طرازها، ويشير شكلها الى أن صاحبها ترقى الى درجة كذا من درجات رجال العسكرية أو المدنية، أو الدرجات الدينية، هذا هو المعنى المألوف قديماً وحديثاً، المتبادر عرفاً، الذي يساعده نقل المؤرخين، (انظر تك ٤١ : ٤٢) مع شرحه « السنن القويم » هذا هو القميص الذي تَبَصَّر به سيدنا يعقوب حياة ولده، وعلم به حاله ودرجته في الحكومة.

« البصير » هو العالم علماً قلبياً

إن ما سبق هو تحقيق معنى « القميص »، وأما تحقيق معنى « بصير » فقد قال في المصباح : (أبْصَرْتُهُ برؤية العين إبصاراً، وبَصُرْتُ بالشيء بَصَراً : عَلِمْتُ فأنا بصير به، وهو ذو بَصَر وبصيرة أي علم وخبرة)، وقال في الأساس : (بَصُر بعمله : صار عالماً به، وهو بصير به وذو بَصر وبَصَارة، وهو من البُصَراء بالتجارة، وبصَّرْتُه كذا وبَصَّرتُه به، علمته إياه ورتبتُ في بستاني مُبَصِّراً : أي ناظراً، وهو الحافظ)، وقال في المختار : (أبْصَرَه: رآه، وبَصُرَ به : عَلِمَ، وبابه ظَرُفَ فهو بصير)، وفي القاموس : (البَصَر محركة: حس العين،والجمع أبصار،ومن القلب نظره وخاطره،ومن معاني البصير العالم) وفي لسان العرب:(البصير العالم، قال معاوية : البصير خير من الأعمى).

فنعلم من مجموع هذه النقول ونحوها من أمهات كتب اللغة الموثوقة أنه يقال: (أبْصَرَ يُبْصرُ إبصاراً فهو مُبْصِرٌ، وهذا فيما كان برؤية العين : ويقال : بَصُر يَبْصُرُ بَصَراً فهو بصير، مثل كرم يكرم كرماً فهو كريم، وهذا فيما كان برؤية القلب، وبعبارة أخرى:هو بمعنى العلم، وجمع مُبْصِرٍ مُبصرون:

أي بالعين ، وجمع بَصير بُصراء : أي بالقلب ، وتأنيث مُبصر (بالعين) مُبصِرة كما أن تأنيث بصير (بالقلب) بصيرة ، وأما البَصَر محركة فجمعه أبْصَار ، سواء أكان حس العين أو بالقلب ، وكما يجمع على بُصَراء يجمع على بصيرين ، وهو ما كان من قبيل العلم والمعرفة بالقلب ، وأما مُبصر فجمعه مُبْصرون وهو ما كان بالعين . وأنتم تعلمون أن « بصيراً » صفة مشبهة ، والصفة المشبهة لا تصاغ قياساً إلا من فعل ثلاثي لازم « وشذ نذير من أنذر » (فبصيراً) هو مشتق من بَصُر ، أي بالقلب ، لا من أبْصَر : أي بالعين ، ما من ذلك بد ، وأما قول بعض اللغويين (والبصير ضد الضرير) ففيه تساهل وبعد عن التحقيق ، وأظن أن الذي دفعهم لهذا التعبير إرادة السجع .

ولم يرد في كتاب الله تعالى استعمال لفظ (مُبصِر) إلا وهو من معنى الرؤية بالعين ، كما لم يرد فيه استعمال لفظ (بصير) إلا وهو لدى التدقيق بمعنى العلم بالقلب ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى ، وقد كنت بصيراً ﴾ (٢٠ : ١٢٥) فأعمى أي عن حجته ، وقد كان في الدنيا بصيراً بحجته فيما يزعم إذ كان عنده شبه حجة بحسب تصوره ، فأعمى ههنا بمعنى جاهل ، وبصير بمعنى عالم وكذا لم يرد في القرآن الكريم استعمال لفظ (أبصر) إلا بمعنى رآى بعينيه ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرون بأيِّكم المَفْتُون ﴾ (٦٨ : ٥ و ٦) فمعناه : فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب بأيكم المفتون ؟ قاله البغوي في تفسيره ، أي سترى ويرون الأسباب المشاهدة التي يتبين منها من هو المفتون ، أو يقال عبر بالإبصار مبالغة ، إشارة إلى أن هذا الشيء الذي سيعلمونه واضح جلي جداً ، كأنه محسوس بالنظر .

وكذا لم يرد في كلامهم استعمال (بَصُرَ به) إلا بمعنى العلم بالقلب ، ومنه ما حكي عن السامري : ﴿ بَصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به ﴾ (٢٠ : ٩٦) أي

علمت ما لم يعلموا وأدركت ما لم يدركوا ، هذا هو المعنى الصحيح على التحقيق الذي ذهب اليه أبو مسلم الأصفهاني في معنى الآية . وأما قوله تعالى: ﴿فبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ (٢٨ : ١١) فلما كان الابصار فيه بالعين من طريق المخاتلة والتجانف والازورار كان كأنه ليس نظراً بالعين ، بل علماً بالقلب ، فلذلك عبر فيه بالفعل الثلاثي ، على أن (بَصُرْتُ بما لم يُبْصروا به) و (بَصُرَتْ) به عَنْ جُنُبٍ) ليسا فعلين لازمين ، « بل هما متعديان بمعنى الإبصار ، ففي اللهفان : (بَصُرَ به وأبْصَرَه ، يُعدى بالباء تارة ، وبالهمز أخرى) .

إذا علمت كل هذا علمت أن لفظ (بصير) في قوله تعالى (يأت بصيراً) يَصِرْ بَصيراً بحال ولده يوسف ، كقولك يجيء البناء محكماً ، بمعنى يصير ، ويشهد له (فارتد بصيراً) أي صار بصيراً ، ولا يجوز لغة تفسير لفظ (بصير) بمبصر ، لاختلافها في المعنى اختلافاً واضحاً ، لأن (بصيراً) كما قلنا صفة مشبهة من بَصُر بمعنى علم ، وهو ثلاثي لازم ، وبابه كظَرُفَ ، وأما (مُبْصر) فهو اسم فاعل من أبْصَر : بمعنى رآى بعينه ، وهو رباعي متعد وبابه كأكرم ، فبينهما في اللغة فروق متعددة ، وكما لا يجوز تفسير (بصير) بِمُبْصر من حيث اللغة ، فلا يجوز أيضاً تفسيره به من حيث الشريعة ، لأن العمى لا يجوز على أنبياء الله ومظاهر أمره لأنه من الداآت المنفرة لطبائع الجمهور ، والأنبياء منزهون عن كل منفر للطبيعة ، هذا ما أراه في تفسير كلمتي « القميص » و « بصير » ولست أبالي أن أجهر برأيي ما دمت أعتقد أني على حق ، وأما من يكلفني أن أمشي على فكر غيري ، فاني آسف على عدم استطاعتي امتثال أمره ، أسفي على إهماله مداواة نفسه .

يعقوب يصير عالماً علماً قلبياً بحال ابنه يوسف

إذا تقرر هذا يكون معنى الآية الكريمة هكذا : قال يوسف لإخوته :

« الوَحَى الوَحَى ، والنجاءَ النجاء » ، قوموا يمموا شطر فلسطين ، أوغلوا في السير ، انتجعوا « قرية أريح » أو « سيلون » (إذهبوا بقميصي هـذا) الذي يمثل الوظيفة والزلفى من التاج ،وهو القميص الرسمي الحكومي ، قميص «البوص» ذو الشارات المخصوصة ، الذي لا يلبسه الا كبراء رجال البلاط والكهنة ، ولا يقدر أحد أن يلبسه سواهم ، القميص الذي ألبسني إياه مليك مصر « الريان » يوم ما ولاني « الصدارة » العظمى والوكالة العامة عنه ، وجعلني على خزائن أرض المملكة الهكسوسية ، و « عزيزاً » بالديار المصرية — فما هو الا أن أمر يوسف بعض فتيانه أن يذهب لقصره ،ويأتي له من مشجبه بقميص اعتيادي غير رسمي ، ثم نضا عنه قميصه الرسمي ، ولبس ما أتي به اليه وسلمه يوسف لإخوته مؤقتاً ، ليراه أبوه ثم يرجعوه معهم — ثم قال لهم :

(فألقوه) أي أطرفوه وعرضوه (على وجه أبي) المتضمن ذلك إلقاء على عينيه ، حتى يراه ،فمتى رآه وعرف حقيقة حالي ومركزي (يأت) أي يَصِرْ (بصيراً) عالماً وعارفاً بما أنا عليه في دار الحكومـة المصرية ، فاهماً كل شيء بوضوح وجلاء ، واقفاً على مـــا كان قد خفي عليه ، مكتشفاً لما انطوى عن إدراكه — وبصيراً ههنا مقابل جاهلاً — ثم قال يوسف لإخوتـــه : وأسرعوا الكرة (وائتوني بأهلكم) زوجاتكم وأولادكم وإمائكم (أجمعين) لكي تظفروا بنعمة العيش في ظلال حكومة مصر ، وتساووا أهلها في مظاهر الحياة .

وأما إخوته فسمعوا هذه المقالة منه ، فحلت على نفوسهم المعذبة بما كان من تقاطع وتباغض برداً وسلاماً ، والتفت حولها قلوبهم ، وأكبروا صدورها عمن كانوا آذوه وشردوه ، وأخيراً سعو اليه حين احتاجوه .

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

- ٢ -

وقام الطبيب بن الحارث وقال :

تفسير (يأت بصيراً) بيجيء مبصراً بعينيه

أرى أيها السادة الأكارم أنه يحسن بنا أن نفسر جملة (يأت بصيراً) «بيجيء مبصراً بعينيه » ، لأن الحوادث الجسام التي مرت بسيدنا يعقوب عليه السلام ، والمؤثرات النفسانية والانفعالات الروحية المفاجئة التي أصابته أدت الى فقد حس الرؤية عنده ، كما ستؤدي إلى عودة هذا الحس له عند مفاجأته بالقاء القميص الرسمي لولده يوسف على وجهه .

والطب الحديث يؤيد هذا الرأي ، إذ يوجد فيه حالة مرضية تدعى « العمى الروحي أو النفسي » تحدث بتعرض الأشخاص إلى صدمـــة تأثرية — فرح أو حزن — مفاجئة ، وتؤدي إلى فقدان الذاكرة البصرية عندهم ، كما تعود لهم هذه الذاكرة بصدمة تأثرية مفاجئة أخرى — فرح أو حزن — .

وهذا ما حصل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، إذ أنه فقد ذاكرته البصرية بسبب صدمة الحزن التي فوجيء بها حينما بلغه أولاده نبأ افتراس الذئب لولده يوسف ، ثم عادت له هذه الذاكرة بسبب صدمة الفرح التي فوجيء بها حينما أتى أولاده بقميص يوسف الرسمي وألقوه على وجهه .

وعلى ذلك يمكن أن نشرح جمـــلة « يأت بصيراً » بيجيء إليّ وهو مبصر بعينيه ، سليم من كل مرض فيهما ، بريء مما كان اعتراهما من ابيضاض أو من فقد الذاكرة البصرية فقداً روحياً نفسياً بمجرد إلقاء «قميصي» على وجهه ، بسبب فرحه وسروره بوقوفه على حياتي وعلى مركزي ، إذ أنه بملامسة قميصي كأنما

لامس شخصي ـ ولا بدع في كون المحب يبرأ من مرضه بملامسة اثر محبوبة ـ وعليه فكلمة « بصير » تكون مقابلة لكلمة « أعمى » .

هذا مـا فتح به الرحمن علي ألقيته على مسامعكم الشريفة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وهنا قال رئيس المؤتمر سنترك الآن كلام خطيبنا السيد الغمراوي والطبيب بن الحارث على علاته ، ومن غير تحليل أو إبداء رأي فيه كما يتطلبه الحياد التام منا ، ونترك حق الحكم فيه لمن يسمع ومن يقرأ فقط .

(قالون)

(اذهبوا بقميصي هذا . . .)

— ٣ —

وقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال :

تأويل « القميص » بالرتبة العالية

سادتي : قبل كل شيء إني أحبذ ما فهمه السيد الغمراوي في كلمتي (قميص) و (بصير) ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أفهم في لفظ « القميص » وحده فهما ثانياً على وجه الاحتمال ، وتقريره هكذا :

يقولون : « من قمصك هذا القميص؟ أي من جملك في هذه الدرجة والرتبة العالية ؟ وفي الحديث الصحيح خطاباً «لعثمان» رضي الله عنه « إن الله سيقمصك قميصاً » أي سيلبسك لباس الخلافة ، كما في القاموس وشراح الصحيح ، وقد روي في سنن ابن ماجه : « يا عثمان إن ولاّك الله هذا الأمر ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » ، وفسر شراحه هـــذا القميص بالخلافة ، وفي نهج البلاغة : لقد تقمصها ابن أبي قحافة ، وهو يعلم أن محلّي منها ،

محلّ القطب من الرحى » واستشهادنا بهذا القول ، لا يعني أننا نعتقد أنه صح عن علي كرم الله وجهه ، ولكننا نريد منه أن هذا النوع من الاستعمال وارد في اللغة العربية وإذا قلنا إن علياً (رض) قاله ، قلنا إنه قاله على وجه الاجتهاد يحتمل الإصابة وغيرها ؛

وللمنصور من خطبة بالمدائن بعد قتل أبي مسلم « إن من نازعنا عروة هذا القميص ، أجزرناه خبيئة هذا الغمد » .

وقد كان رجل اسمه « شبْنا » وكيلاً على قصر الملك « حزقيا » في مملكة بني إسرائيل الجنوبية ، وقد كان أنذره الله تعالى بقوله بلسان النبي « أشعياء » : « أطردك من منصبك ، وأدعو عبدي « الياقيم » وأُلبِسُه « ثوبك » وأجعل سلطانك في يده (اش ٢٢ : ١٩ — ٢١) ، ومعنى « ألبسه ثوبك » اقيمه على قصر الملك « حزقيا » عوضاً عنك ، فيكون لابساً ثوب السلطة على قصر الملك.

فنتعلم من مجموع هذه النقول أن إطلاق« القميص » أو « الثوب» على المنصب الجليل اصطلاح معروف في اللغة العربية كما فيما قبلها من اللغة العبرية ؛

إذ تقرر هذا « فالقميص » ههنا هو أمر معنوي ، وهو « وزارة المالية » ، في مملكة مصر ، أو هو « الوكالة المطلقة » عن مليكها ، أو هو كونه « عزيزاً بمصر » فان يوسف عليه السلام كان حائزاً على هذه المناصب كلها ؛

إنتقاد تأويل « القميص » بالرتبة العالية والرد عليه

وأذكر أن طالباً من بلدي « دمياط » كان سافر للأزهر الأنور بمصر لتكميل تحصيله ، فنقل عني لبعض علماء الأزهر ، أني أذهب الى هذا الفهم الاحتمالي في كلمة « قميص » ههنا ، فأنكر هذا العالم هذا الاحتمال ، وأرسل اليّ رقيماً في البريد يحتج عليّ فيه بتفسير المتقدمين ، وليس هذا الإنكار لشيء سوى أنني

خالفت فيه كلام المفسرين الذين قالوا ، في تفسير هذا « القميص » « إنه القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله الى والده فان فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي » ويؤسفني أنه فات هذا الفاضل أن التفسير ليس وقفاً على ناس دون آخرين ؛ وليس هو سلعة تباع وتشترى ، أو أن هذه السلعة ملك لقوم دون سواهم ، فلا يجوز أن تعرض في حانوت غير حانوتهم ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وان القميص الذي انزله المفسرون من الجنة ، لم يسندوه الى حديث أو روايـــة صحيحة عن صحابي أو نحوه من التابعين ممن يوثق بنقله ، ولعمري إن هذا « القميص» بالصورة التي ذكرها المفسرون لهو من أبعد البعيد، ولا يصدقه الا من يصدق تمثال « الزرزور » الذي في « رومة » . هذا وأرجو أن يحمل كلامي على حسن النية ، وحب الحقيقة ومع ذلك فلست أقول إن تفسيري « القميص » بما ذكرته هـــو الصحيح وما ذكره المفسرون هو باطل — حاشا — فاني إنما ذكرت ما ذكرته على وجه الاحتمال مع إمكان صحة مـا سواه ولو بعيداً ، وإني لا أبتغي هدم القول القديم ، قبل تأسيس الجديد وقبوله عند اولي النظر ،نعم إنني لا أهدم بيتي العتيق إلا إذا وجدت لي مسكناً جديداً صالحاً للسكنى فيه ، وعلى كل حال ،فأرجو من هذا العالم الفاضل أن لا يؤآخذني إذا رآني قد خالفت ساداتنا المفسرين في رأي رأوه ، فان الذهاب الى الحق هو فوق الأدب معهم ، وإن « بروتوس » كان يقول : « إني أحب قيصر ، ولكن رومية أحب إلي » ، وإن مذهبي في تفسير القميص يعبر عن رأي خاص يتحمل كاتبه وناشره مسؤليته ، وأما قارؤه وسامعوه فلا يتحملون منه شيئاً ؛

وقبل الفراغ من هذا البحث أرجوكم أن تذكروا مـا قاله أحد الأئمة وهو الإمام أحمد بن حنبل (رض): (ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي) ولا يخفى عليكم قدر أحمد في العلم .

تفسير (القميص والإلقاء والوجه) بأمر معنوي من باب الاستعارة وترشيحاتها

ثم أذكر أن جمعاً من طلبة الأزهر المجيد أرسلوا أيضاً الي كتاباً في البريد يقولون فيه إن تفسيري « للقميص » بالمنصب ، وهو أمر معنوي لا يتلائم مع قوله فيما بعد (فألقوه على وجه أبي) فلذلك كنت أرسلت لهم جواباً بأن هذا « القميص » في عبارة سيدنا يوسف ، استعارة مصرحة أصلية جارية في الأسماء، وقوله (اذهبوا بقميصي هـذا فألقوه على وجه أبي) ترشيحات لهذه الاستعارة، كما في : « بصق في وجهه » بمعنى استخف به ، كما قال صاحب الأساس ، فليس هناك بصق حقيقي ، ولا وجه مبصوق فيه ، وإنما المراد الاستخفاف فحسب ، وكذلك يقال فيما نحن فيه : « ليس هناك قميص حقيقي ، ولا وجه ملقى عليه ذلك القميص وإنما المراد بجملة (فألقوه على وجه أبي) ، أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي ، وأحيطوه علماً بما أنا عليه » .

وحيث أن هؤلاء الطلبة السائلين أو المستشكلين كانوا أربعة عشر شخصاً ، أتيت بأربعة عشر شاهداً ، هي نظائر لهذه الآية الكريمة لتكون هذه الشواهد على عدد السائلين واليك بيانها :

١ً - قول زهير الشهير :

لدى أسد شاكي السلاح مُقَذّفٍ له لبـد ، أظفاره لم تقـلمِ

فقوله « مقذف » أي مرميّ باللحم ، و « له لبـد » و « أظفاره لم تقلم » ترشيحات ثلاث لهذه الاستعارة ، ومعلوم أن مبني الاستعارة على طيّ ذكر المستعار له ، ومن ثم نرى البلغاء المفلقين ، أمراء الفصاحة النابغين ، يتناسون في الاستعارة التشبيه ، ويضربون عن توهمه صفحاً ، وكأنهم يريدون بالمستعار معناه الحقيقي ، فلذلك أثبت الشاعر للرجل الشجاع التقذيف، واللبد والأظفار التي لم تقلم ، وهي أمور لا تناسب الا المعنى الحقيقي ، وانما أثبتها للمعنى المجازي

مبالغة وتقوية للتشبيه كما أنه في آيتنا لمعنى « القميص» المجازي الاشارة الحسية ، والذهاب به ، والإلقاء به على الوجه ، وهي ترشيحات للتشبيه وتقوية للمعنى المجازي ، كأنه هو المعنى الحقيقي ، التي لا تستند هذه الأمور الثلاثة الا له .

فكما من الغلط الفاضح أن يقول قائـل : لا يصح أن يكون « زهير » أراد من « الأسد » المعنى المجازي وهو الرجل الشجاع بدليل قوله : « مقذف ، له لبد، أظفاره لم تقلم » ، فكذلك مـن الغلط الفاضح أن يقول قائل : « لا يصح أن يكون يوسف أراد بالقميص المعنى المجـازي وهو المنصب في البلاط الملوكي ، بدليل قوله : (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي) فافهم هذا التحقيق ، فانه بالفهم حقيق ؛

٢ً ـ قول أبي تمّام :

فما زال يصعد طرق العلا الى النجم مرتدياً بالسّناء[1]
ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حـاجة في السماء

فحقيقة « يصعد » العلو الحسي في المكان العالي ، ولكنه استعار الصعود للعلو في المرتبة ، وبنى عليه أنه صار مع النجم مرتدياً بالرفعة وأن الجهول اذا رآه هكذا ظن أن له حاجة في السماء ، وكل هذا ترشيحات للتشبيه لا تناسب الا المعنى الحقيقي ، وإنما ذكرت مع المعنى المجازي وهو الرقي المعنوي الرتبي ، تقوية للاستعارة ، و كذلك الأمر ههنا في آيتنا ؛ ذكر الإشارة الحسية والذهاب بالمشار اليه وإلقائـه على وجه أبيه ترشيحاً للاستعارة كأن هذا « القميص » المجازي هو قميص حقيقي .

٣ً - قول القائل :

هي الشمس مسكنها في السماء فعَزّ الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا

---

(١) الرفعة .

لمـــا أخبر عن محبوبته بأنها الشمس ، جعلها كأنها عينها ، وبني على ذلك سكناها في السماء. وأنه لا يستطاع الصعود اليها، وهي لا تستطيع النزول،فهذه كلها ترشيحات للتشبيه ، إنما تناسب المشبه به ، فكذلك في آيتنا الكريمة .

٤ً — قول العرب في البليد : (رأيت حماراً له أذنان خطلا وان) استعاروا الحمار للبليد ، وأثبتوا له أذنين خطلاوين ، أي مسترخيتين طويلتين ، ترشيحاً لتلك الاستعارة لأن الأذن الخطلاء من لوازم الحمار الحقيقي .

٥ً — قول الشاعر :

ولما رأيتُ « النّسرَ » عَزّ « ابن داية »

و « عشّشَ » في وَكْرَيْهِ » جاش له صدري

يعني لما رأيت شعر الشيب الأبيض غلب شعر الشباب الأسود ، حل ونزل في الرأس واللحية ، ارتاع واضطرب منه قلبي ، فالشاعر استعار لفظ « النسر » للشيب ، ولفظ « ابن داية » وهو الغراب ، للشعر الفاحم ، ورشح الاستعارة بذكر « التمشيش » وهو عمل العش وأخذه ، ثم بـذكر « الوكر » وهو موضع الطائر ، الذي يأخذه ويعمله التفريخ .

وأعلم أن الترشيح قد يكون باقياً على حقيقته ، تابعاً للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها ، وقد يكون مستعاراً من ملائم المستعار منه ، لملائم المستعار له، كما في هــذا البيت ، فانه استعير لفظ « الوكرين » من معناه الحقيقي ، للرأس واللحية ، أو الفودين ، أعني جانبي الرأس، واستعير لفظ « التمشيش » للحلول والنزول فيهما ، وكذلك الأمر في الآية الكريمة ، فانه استعير فيها لفظ « الإلقاء على الوجه » للانباء وإحاطة علم يعقوب عليه السلام بمنصب ولده يوسف .

٦ً - قول بعض العرب ، يبين حاله مع أمه :

إذا الشيطانُ قصّعَ في قَفاها تَنَفّقْنَاهُ بـــالحبلِ التّؤام

يقال (قصّع فلان اليربوع) : إذا أخرجه من قاصعائه ، أي من جحره ، ودخل هو فيه ، « وقصّع الشيطان في قفا فلان » إذا ساء خُلُقه وغضب، كأن الشيطان دخل في قفاه وصار يُبرز منه الغضب وسوءَ الخلق ، ويقال : (تنفـّق اليربوع) أي خرج من نافقائه ، و « تنفّقتُه » أي استخرجته منها ، والحبل التؤام : المثني المجدول على طاقين .

استعار « التقصيع » أولاً، لغضب أمه وإثارة خلقها ، ثم ضم اليه «التنفّق» مستعاراً للاجتهاد في إزالة غضبها، وإماطة ما يسوء من خلقها ، ثم جعل «الحبل التؤام » مستعاراً لسبب قوي ، يتوصل به لتلك الإزالة ، « فالحبل » هو بمعنى السبب ، وهاتان الاستعارتان تابعتان للاستعارة الاولى ، ومرشحتان لها باعتبار لفظها ، وعليه فمعنى البيت :

إذا دخل الشيطان في قفاها ، ليُبرز منها الغضب ، استخرجناه من نافقائه بالحبل المثني المحكم، يريد إذا غضبت وساء خلقها اجتهدنا في إزالة غضبها، وإماطة ما يسوءُ من خلقها، فهو لما استعار أولاً « التقصيع » أتبعه بما يشاكله ويؤاخيه، وهو « التنفق » و « الحبل التؤام » ، فهذان اللفظان ترشيحان للاستعارة يقصد منها تقويتها ، فلا يقول « إن التنفق والحبل التؤام لا يناسبان لمعنى المجازي، فلا يجوز المصير اليه » — الا كل جاهل باساليب اللغة العربية وطرق البلغاء المفلقين، كما أن (اذهبوا بقميصي هـذا ، فألقوه على وجه أبي) ترشيحات للاستعارة ، يقصد منها تقويتها ، فلا يقول أيضاً « إن الذهاب بالقميص والإشارة الحسية اليه وإلقائه على الوجه ، أمور لا تناسب المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير اليه » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية ، وطرق البلغاء المفلقين .

٧ – قولهم (من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً)، « فالجب » استعارة مرشحة ، والحفر والوقوع والانكباب على الرأس ، ترشيحات لهذه الاستعارة.

٨ً – قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتَرَوا الضَّلالةَ بالهُدى ، فما ربحَتْ تِجارَتُهم وما كانوا مُهتَدين ﴾(٢:١٦) فمعنى اشتراء الضلالة بالهدى، اختيارها عليه واستبدالها به ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ولما استعار الاشتراء للاستبدال ، ذكر الربح والتجارة على وجه الترشيح ، كأن ثمّ مبايعة على الحقيقة .

٩ً – جاء في القرآن:﴿ قال بَصُرتُ بما لم يَبصُروُا به، فقَبَضتُ قبضَةً مِنْ أثرِ الرسولِ ، فنَبَذتُها ﴾ (٢٠ : ٩٦) ، فهذا « السامريّ » علم من معجزات الرسول موسى ، وفطن بما لم يفطنوا له ، من علائم صدقه ، فآمن به وأخذ جانباً من شريعته ، وشيئاً من طريقته ، ولكنه لم يلبث أن رفض تلك الطريقة ، بحسب تسويل نفسه الأمارة بالسوء ، « فالقبض » استعارة مصرحة تبعية والقبضة والأثر والنبذ ، ترشيحات لها ، لأنها من مناسبات المشبه به .

١٠ً – قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخذَت الأرضُ زُخرُفَها ، وازّيَنَت ، وظَنّ أهلها أنهم قادِرون عليها، أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها حَصيداً، كأنْ لم تغْنَ بالأمس ﴾ (١٠ : ٢٤) ، شبه الأرض بالعِرْس ، واستعار لفظ العِرس وحذفه ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الزخرف والزينة ، وإتيان الأمر اليها، فأخذ الزخرف والتزين وإتيان الأمر اليها ترشيحات لهذه الاستعارة المكنية .

١١ً – قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شَفا حُفرةٍ منَ النار ، فأنقَذَكم منها ﴾ (٣ : ١٠٣) ، شبههم وهم كافرون بمن جلسوا على حرف حفرة من حفر النار ، وشبه نفسه تعالى بتوفيقه إياهم للاسلام وتخليصهم من الكفران بمنقذ أنقذ الجالسين على حرف الحفرة ، أو استعار شفا حفرة النار – للباطل ورشحه بالإنقاذ ، فكما أن الإنقاذ ، لا يناسب إلا المعنى الحقيقي ، ولكن جيء به

تقوية للاستعارة ، فكذلك الذهاب بالشيء والإشارة الحسية والإلقاء على الوجه في الآية الكريمة ، هي نعم أمور لا تناسب الا القميص الحقيقي ، ولكن جيء بها تقوية للاستعارة .

١٢ - قوله تعالى : ﴿ أفَمَنْ أسَّسَ بُنيانه على تَقْوى منَ اللهِ ورِضوانٍ خَيْرٌ ، أم منْ أسَّسَ بُنيانه على شفا جُرُف هار ، فانهارَ به في نارِ جهنم؟﴾ (٩ : ١١٠) ، « شفا الجرف » مجاز عما ينافي التقوى من الباطل والنفاق ، والعلاقة قلة الثبات والاستمساكِ ، جعل « الجرف الهائر » مجازاً عن الباطل فرشحه بلفظ « الانهيار » الذي هو للجرف ، ليصور أن المبطل كأنه أسّس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، أو يقال شبه بناء مسجد الضرار في كونه سبباً ملقياً في النار ببناء بني على حرف جرف من رمل لا يثبت حتى يسقط في الجرف الهار .

١٣ - قوله تعالى : ﴿ قد مَكرَ الذينَ منْ قبلِهم ، فأتى اللهُ بُنيانهم مِن القواعدِ ، فخَرَّ عليهم السَّقفُ منْ فوقِهم ، وأتاهم العذابُ منْ حيث لا يَشعُرون ﴾ (١٦ : ٢٦) شبه المكر بصرح ، وحذفه ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو البناء على سبيل الاستعارة المكنية ، وذكر القواعد والخرور والسقف والفوقية - ترشيحات لهذه الاستعارة .

١٤ - سمعت بعض العرب يقولون عن رجل رشى الحاكم بعشرة دنانير ذهبية : (سقاه عشرة أقداح من الخمرة شربها ، فغاب عن صوابه فحكم له بما أراد) ، فالأقداح استعارة تصريحية وهي مجاز عن الدنانير ، والسقي والشرب والغيبوبة ترشحات لهذه الاستعارة لأنها تناسب المعنى الحقيقي .

تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله : إذهبوا بقميصي هذا ... الخ

إذا تقرر هذا نقول ههنا في آيتنا الكريمة التي نحن بصدد شرحها : استعار

« للقميص » للمنصب الذي ُقمّصه ُ، وتناسى التشبيه، وجعل « القميص » كأنه مستعمل في معناه الحقيقي، وبنى عليه ما يبنى على القميص الحقيقي، وهو الثوب المحسوس الذي يذهب به ويشار اليه ويلقى على الوجه ، وبعبارة أخرى : لما استعار « القميص » للمنصب والوزارة التي له ، أتبعه بما يشاكله ويؤاخيه، وما يكمل بانضمامه اليه ، تقوية للاستعارة، وليصور للسامع أن المنصب كأنه قميص حقيقي، مبالغة في التشبيه ، وهذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز، ثم تُقفّى بأشكال لها وأخوات ، اذا تلاحقن ، لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر رونقاً ، وهو المجاز المرشح بصفة أو تفريع كلام يلائم المعنى الحقيقي ، فالتعبير بالإلقاء على الوجه ، لاينافي أن « القميص » مجاز عن المأمورية، لأنه ترشيح ، بل ليست اللغة العربية وحدها هي المصطلحة على مثل هذه العباراة المجازية المرشحة بما يناسب المعنى الحقيقي، بل جرى على ذلك كل لغات العالم، والناس يفهمون هذه العبارات على ما وضعت لتأديته ، لا على لفظها، فمثلاً لو قال رجل عن آخر: «إنه يعبد الورد» فلا يحق لنا أن نقول: إن هذا الرجل مشرك قد عبد « الورد » مع الواحد الأحد ، الذي لا يعبد سواه، وكذلك لو قال رجل : « دخلت الحمام فاذا في الخلوة عند جرن الماء أسد ذو لبد وأظفار لم تقلم، وهو يزمجر بصوت كالرعد يرعب السامعين » فلا يحق لنا أن نقول : إنه حقيقة هو الوحش المفترس الضاري ، اغتراراً بما اكتنف هذه الاستعارة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي ، وهكذا في الآية الكريمة لا يحق لنا أن نقول : إن هذا « القميص » حقيقة هو الثوب الذي يلبس على الجسم ، اغتراراً بما اكتنف هذه الكلمة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي .

وتتمة القول: إذا جاز في المثال الأول ترشيح« الأسد » المجازي بأنه مُقَذف وله لبد ، وله أظفار لم تقلم، الأمور التي لا تناسب « الأسد » المجازي ، وإنما تناسب الأسد الحقيقي .

وإذا جاز كما في المثال الثاني ترشيح الصعود المعنوي يظن المجهول أن للممدوح حاجة في السماء ، الأمر الذي لا يلائم إلا الصعود الحسي في المكان .

وإذا ... وإذا ... الخ .. الخ فلِمَ لا يجوز أن يقال : إن هذا «القميص» مجازي ، وقد رشح بما هو من خصائص القميص الحقيقي مبالغة في التشبيه ؟

وما الفرق بين الكلمة التي هي موضوع حديثنا وبين هذه الأمثلة الأربعة عشر التي ذكرناها ؟.

اللهم لا فرق ، ولا صعوبة في قبول هذا المعنى الجديد،لولا الجمود على المعنى الذي نحا إليه المفسرون .

إذا تقرر هذا فيكون المعنى :

تفسير الآية ينطبق بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها

(اذهبوا) سراعاً (بـ) خبر (قميصي هذا) وهو المنصب الكبير الذي علمتموه وتحققتموه ، حتى صار عندكم كالمحسوس الذي يشار إليه ، (فألقوه على وجه أبي) أي فأحيطوه علماً به - لأن هذه الكلمة كما حققناهاترشيح للاستعارة والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يجري فيه التجوز أيضاً فيستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، لمعنى يلائم المشبه ، على ما ذكره علماء البيان - وقولوا له : قد عثرنا علىعكاز شيخوختك ، ومستودع أسرارك وقبلة آمالك ، وطبيب أحزانك ، ومداوي بثك وهمك، ومضمد جراحك ، قد عثرنا عليه عزيزاً بمصر ووزير مالية بها ، ووكيلاً عن مليكها الريان في البلاط فإن أوقفتموه على جلية الواقع (يأت بصيراً) عالماً وعارفاً ، لأن خبر هذا القميص يشف له عن الواقع ، فتظهر له الحقيقة بيضاء

ناصعة ، لا غبار عليها ، ويكشف له عن سريرة ولده يوسف بالتفصيل ، بعدما كان عاجزاً عن رؤيتها وعلمها إلا إجمالاً - ومعنى جملة (يأت بصير) أنه يأتي ذا بصارة ومعرفة بحالي التي أنا عليها اليوم في البلاط ، أو تقول معنى (يأت بصيراً) يأت مبصراً ، بذهاب ما كان على عينيه من بياض – فإن هذا القميص، متى بلغه خبره ، سيكون أكفأ في شفائه من كل الكحالين الحاذقين ، وأنفذ من عملية جراحية يجريها لعينيه طبيب حاذق فإنه حالاً أو بالتدريج يَنْقَه، ويُبل ّ وينتعش ، وإن إتيانه إليّ ، واجتماعي به لهو العزاء الباقي لي عن جميع ما أتى عليّ من كل الحوادث المؤلمة والضيقات الفاجعة (وائتوني) على جناح السرعة (بأهلكم أجمعين) لنعيش جميعاً في هذه البلاد تحت رضا أبينا الشيخ الجليل ، وتحت رعاية « الريان » المليك المعظم ، فها أنا أنتظركم انتظار الظمآن لورود الماء ، وها هي ذي أبواب مصر مفتوحة أمامكم على المصراعين ، فادخلوا إن شئتم من باب واحد ، أو ادخلوا من أبواب متفرقة ، لا فرق في ذلكم ، فأنتم على كل حال آمنون من كل شيء ، فالبدار البدار ، فإنه لا يحول بيننا وبينكم رِتاج ، وليس هناك من جبال ولا أمواج .

قوموا ائتوني بأهلكم أجمعين ، فإني أريد ذلك لخيركم فقط لا لخيري ، وإلا فأنا مستغن عنكم بالله تعالى ، لا أسألكم دنيا ، ولا أستفتيكم عن دين ،

قلت لكم ائتوني بأهلكم أجمعين ، من كل ما خولكم الله ، من عقيلات ، من بنين وبنات ، من عبدان وخادمات، لا تتركوا وراءظهوركم شيئاً منوطاً بكم ارجعوا لمصر ، وقولوا : « على فلسطين السلام » وأنا لا أقول لكم : بيت الضيق يسع ألف صديق ، لا .. بل أقول : إنكم ستجدون عندي مراغماً كثيراً وسعة أنتم ليس لكم في فلسطين مَبْرك ناقة ، ولا مَفْحص قطاة ، سوى ما لأبي في شكيم من قطعة الحقل ، (انظر تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٤ : ٣٢) وإنني أخشى أن ينشب الجوع أظفاره بكم ،

وإذا رأيت الأمن عزّ ببلدة   وخشيت منها أن يضيق المطلبُ
فارحل فأرض الله واسعة الفلا   طولاً وعرضاً شرقهـــا والمغربُ

قلت : أسرعوا الكرة وائتوني بأهلكم أجمعين ، فلنا ولهم رب اسمه الكريم والصلة التي بيني وبينكم – والحمد لله لا تزال وثيقة ، لا ينال منها الدهر ، ولا تأخذ منها عاديات الأيام ، ولا يؤثر عليها شيء من تلكم الحوادث الغابرة ، أليس أنكم إخوتي ؟... وهل يوجد قوة في الأرض تستطيـع أن تقطع هذه الصلة ؟.. كلا .. لأن لحمي من لحمكم ، ودمي من دمكم ، يسوؤني ما يسوؤكم ، ويسرني ما يسركم ، أنا لكم ، وأنتم لي والله للجميـع ؛

ائتوني بأبي ، وائتوني بأهلكم أجمعين ، فقد قيل : « اتـّخِـذْ الناس أباً وأخاً وابناً ، ثم بِرّ أباك ، وصِلْ أخاك ، وارحم ابنك » فلذلك بالأولى أريد أن أبرّ أبي ، لأنه والدي على الحقيقة ، وأريد أن أصلكم ، لأنكم إخوتي على الحقيقة ، وأريد أن أرحم أبناءكم ، لأنهم كابنيّ منسى وأفرايم » .

إلى هنا ينتهي مرمى كلام يوسف عليه السلام .

وفي الختام أيها السادة إياكم أن تظنوا أنني بهذه الكلمات التي سطرتهـا يدي الحقيرة ، سأغتر وأقول :

وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعـه الأوائل

حاشا لي من هذا ، ومن أقل من هذا ، فأنا الفقير تراب حقـــير ، أصيب وأخطىء وأسرع وأبطىء ، ولكني أقول :

هذا ما وصل إليه فهمي القاصر ، فإن حاز قبولاً عند أهل العلم والنظر ، فهو من فضل الله عليّ ، إذ أصبت المحزّ ، بل ومن فضل الله عليهم ، إذ لم يغمطوا الحق ، وإن لم يرق في أعينهم ، فليضربوا به عرض الحائط وليرجعوا إلى ما قاله سادتنا المفسرون .

(مرحى)

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ٤ —

ثم نهض السيد عبد الحق الطمومي[١] وقال :

تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الاضافية

سمعت في هذه الجلسة من بعض الإخوان الحاضرين انتقاداً سرياً على السيد الغمراوي في ذهابه إلى أن « القميص » هو الكسوة الرسمية المعمولة من الكتان التي قدمت ليوسف من مليك مصر ، وهي الألبسة الرسمية التي لا يلبسها إلا الملوك وكبار أهل البلاط والكهنة ، ثم انتقد كذلك على مولانا عبد الحي الدمياطي في قوله إن هذا « القميص » هو قميص معنوي رُتَبيّ هو عبارة عن «وزارة المالية» في البلاط ، أو عبارة عن أنه« عزيز مصر» أو وكيل مطلق عن مليكها ، وقال هذا المنتقد ، كيف يجوز لنا أن نخالف ما فهمه المفسرون من قبلنا ؟

هذا انتقاد الأخ المحترم وإنني الآن ، أريد أن أضم صوتي إلى صوت السيد الغمراوي ومولانا الدمياطي في تفسيرهما القميص ، ومجيباً عن انتقاد من انتقد عليهما فأقول :

غير خافٍ أن دلالة النصوص الإضافية تختلف باختلاف درجات فهم السامعين وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو ، أحفظ الصحابة للحديث ، وأكثرهم رواية له ، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت أفقه ، بل عبد الله ابن عباس أيضاً هو أفقه منهما ومن عبد الله بن عمرو .

وإن لنا على تفاوت فهم العلماء لما يسمعونه من الكلام شواهد :

منها : ١ – قد أنكر النبي ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام ، عام

(١) نسبة الى الطموم من البلاد المصرية .

الحديبية من إطلاق قوله له : (إنك ستأتيه وتطوف به) ، فإنه لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه .

ومنها ٢ً – أنكر ﷺ على من فهم من قوله (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر) – شمول لفظه لحُسن الثوب وحُسن النعل ، وأخبرهم أن الكبر بطر الحق وغمط الناس .

ومنها ٣ً – أنكر ﷺ على من فهم من قوله : (من أحبّ لقاء الله، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه) أنه كراهة الموت ، وأخبرهم أن الكراهة للكافر ، إذا احتضر وبشر بالعذاب فإنه حينئذ يكره لقاء الله ، والله يكره لقاء ، وإن المحبة للمؤمن إذا احتضر وبشر بكرامة الله ، أحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه .

ومنها ٤ً – أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجزَ به ﴾ (٤ : ١٢٢) إن هذا الجزاء إنما هو في الآخرة ، وبين أن هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن والمرض والنصب وغير ذلك من مصائبها وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة ..

ومنها٥ً – أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُوا ولم يَلبِسوا إيمانَهم بظُلمٍ ، أولئك لهم الأمنُ وهم مُهتدُون ﴾ (٦ : ٨٢) – إنه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين أنه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه ﴿ إنّ الشِركَ لظُلمٌ عظيم ﴾ (٣١ : ١٣) مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك ، فإن الله سبحانه لم يقل : ولم يظلموا أنفسهم، بل قال: ﴿ ولمْ يلبسوا إيمانهم بظلمٍ ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته ولا يُغطي الإيمانَ ويحيط به ويلبسه إلا الكفر .

ومنها ٦ً –فهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ وحَمْلُهُ وفِصالهُ ثلاثون شهراً ﴾ (٤٦ : ١٥)مع قوله تعالى :﴿والوالداتُ يُرضِعْن أولادهنّ حولَين كاملين﴾

(٢ : ٢٢٣) - أن المرأة قد تلد لستة أشهر - ، ولم يفهمه (عثمان» فهمّ برجم امرأة ولدت بعد ستة أشهر من زواجها ، حتى ذكره ابن عباس فأقر به .

ومنها ٧ - لم يفهم « عمر » من قوله ﷺ : (أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : « لا إله إلا الله » فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها » - لم يفهم من هذا قتال مانعي الزكاة ، حتى بين له الصديق ذلك ، فأقرّ به . .

ومنها ٨ - ما روي أن « عمر » استعمل « قدامة » بن مظعون على «البحرين» فقدم « الجارود » على عمر فقال : « إن قدامة شرب فسكر » فقال عمر : « من يشهد على ما تقول ؟ » - قال الجارود : « أبو هريرة يشهد على ما أقول » - فقال عمر : « يا قدامة إني جالدك » - فقال : « والله شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني » قال عمر : « ولمْ ؟ » قال : لأن الله يقول : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِمُوا ، إذا ما اتقوا وآمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ ثم اتقوا وآمَنُوا ، ثم اتقوا وأحسنُوا ﴾ (٥ : ٥٦) فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله ﷺ « بدراً » و « أُحُداً » و « الخندق » و « المشاهد » - فقال عمر : « ألا تردون عليه قوله ؟ » فقال ابن عباس : « إن هذه الآيات أُنزِلْنَ عذراً للماضين ، وإلا فالخمر محرمة على الباقين ، لأن الله يقول : ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا إنما الخمرُ والمَيسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ فاجتنبوه ﴾ (٥ : ٩٣) - قال عمر : « صدقت » ، وتوضيحه إن هذه الآية التي تمسك بها الجارود ، إنما وردت جواباً لسؤال بعض الصحابة الذين استشكلوا عند نزول هذا الحظر في الخمر والميسر - حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، ولا سيما من حضر منهم غزوتي « بدر » و « أحُد) وكان أمر الخمر

عندهم أم ، ومنهم من كلم النبي ﷺ في ذلك ، وفي رواية إنهم سألوا عمن ماتوا، وعن الغائبين الذين لم تبلغهم آية القطع بالتحريم ، فنزلت هذه الآية جواباً لهم ، وقيل إن الآية نزلت فيمن كانوا يشددون على أنفسهم في الطيبات من الطعام والشراب ، لا في الخمر ، ولو يتأمل الإنسان سياق الآية لفهم المراد منها على نحو ما نقول ، فإنه إنما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه، وذلك إنما يكون باجتناب ما حرمه من المطاعم ، فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما .

ومنها ٩ – إنه فهم من فهم من قوله تعالى : ﴿ ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التهلُكة ﴾ (٢ : ١٩٥) حرمة انغماس الرجل في العدو ، حتى بين له « أبو أيوب » الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة ، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وإن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد ، والإقبال على الدنيا وعمارتها .

ومنها ١٠ – قال « الصديق » رضي الله عنه : أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها ، ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا ، عليكم أنفُسكمُ لا يضُرُكم مَنْ ضلّ إذا اهتدَيتُم ﴾ (٥ : ١٠٨) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) ، فأخبرهم أنهم يضعونها في غير موضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها كيف وهم لا يهتدون إلا إذا غيروا المنكر [١] .

ومنها ١١ – أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه إليك ، وهو يقوم بطاعة الله عز وجل » ـ فقال لها : جزاك الله خيراً من مثنية على زوجها » ـ فجعلت تكرر عليه القول ، وهو يكرر عليها الجواب

(١) الطرق الحكمية .

وكان ، « كعب بن سوْر » حاضراً ، فقال له : « اقض يا أمير المؤمنين بينهما وبين زوجها » فقال : « وهل فيما ذَكَرْتَ قضاء ؟ » ـ قال : « إنهما تشكو مباعدة زوجها لها عن فراشها ، وتطلب حقها في ذلك » ـ فقال له عمر : «أما إذْ فهمتَ ذلك فاقض بينهما » ـ فقال كعب : « عليّ بزوجها » فأحضر ، فقال : « إن امرأتك هذه تشكوك » ـ قال : « أقصرت في شيء من نفقتها؟ » ـ قال : « لا » ـ فقالت المرأة شعراً :

يا أيها القاضي الحكيم رشدهْ ألهى خليلي عن فراشي مسجدهْ
نهاره وليله ما يرقدهْ فلست في أمر النساء أحمدهْ
زهده في مضجعي تعبدهْ فاقض القضا يا كعب لا تردده

ـ قال : فقال زوجها :

زهدني في فرشها وفي الحُلل إني امرؤ أذهلني ما قد نزلْ
في سورة وفي السبع الطولْ وفي كتاب الله تخويفٌ جللْ

ـ فقال (كعب) :

وإن خير القاضيين من عدلْ ومن قضى بالحق جهراً وفصلْ
إن لها عليك حقاً يا رجلْ تصيبها في أربع لمن عقلْ
قضية من ربنا عز وجلْ فأعطها ذاك ودع عنك العللْ

ثم قال : (إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً ، فلك ثلاث أيام ولياليهن ، تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة) ـ فقال عمر : (والله ما أدري من أي أمريك أعجب ، أفمن فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما ؟ . اذهب فقد وليتك قضاء البصرة) ذكر هذه الحكاية التيجاني في (تحفة العروس) نقلاً عن صاحب (الموفقيات) عن ابراهيم بن المنذر ، عن محمد بن معن ، ثم قال : وذكر (الرشاطي) هذا الحديث في كتابه المسمى (باقتباس الأنوار) وزاد بعد قوله

(يوم وليلة) (فلا تصل في ليلتها إلا الفريضة)، وحكى أن (كعب بن سؤر) هذا ، شهد يوم الجمل ، فلما اصطفت الناس للقتال ، أخذ مصحفاً في يده وخرج يناشد الناس في دمائهم ، فقتل على تلك الحالة .

ومنها ١٢ – ما روي عن عمر ، أنه كان على المنبر فقرأ : ﴿ أويأخُذَهم على تَخوُّفٍ ﴾ (١٦ : ٤٧) ، ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل (التخوف عندنا : التنقص) ثم أنشده :

تخوَّفَ الرحْلُ منها تامِكاً قَرِداً　　كما تخوَّفَ عودَ النبْعةِ السَّفنُ

(التامك) العظيم السنام ، و (القرِد) الكثير القردان ، و (عود النبعة) شجر للقسي والسهام ، و (السَّفن) الحديدة التي يبرد بها خشب القوس ، وعلى ذلك فهو يقول : إن الرحلَ تنقص سنامَ الناقة ، كما تأكل الحديدةُ خشب القِسّي .

ومنها ١٣ ـ أنه جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : تركت في المسجد رجلاً يفسر هذه الآية : ﴿ يومَ تأتي السماءُ بدخان مُبين ﴾ (٤٤ : ١٠) ، قال (يأتي الناسَ يوم القيامة دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام) ـفقال ابن مسعود : (من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل الله أعلم) ، إنما كان هذا ، لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسنّي يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

ومنها ١٤ ـ أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكته من اليهود ، التي لم ترتكب ما نهيت عنه ، عُذّبوا أو نجوا ؟حتى بيّن له مولاه (عكرمة)دخولهم في الناجين ، دون المعذبين ، وهذا هو الحق ، لأنه سبحانه وتعالى ، قال عن الساكتين : ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو مُعَذّبهم

عذاباً شديداً ؟ ﴾ (٧ : ١٦٣) فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي ، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، فلما قام به اولئك ، سقط عن الباقين ، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم ، وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى إنما عذب الذين نسوا ما ذُكّروا به ، وعتوا عما نهوا عنه ، وهذا لا يتناول الساكتين قطعاً ، فلما بيّن (عكرمة) لسيده ابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين ، كساه برده ، وفرح به [١] .

ثم تابع الخطيب « عبد الحق الطمومي » كلامه قائلا :

وإذا وصلنا إلى ههنا ، فاعتبرونا ـ يا رعاكم الله ـ بمنزلة عكرمة ، واعتبروا أنفسكم بمنزلة ابن عباس ، فكما قبل ابن عباس تفسير عكرمة، وفرح به وكساه برده ، فأقبلوا تفسيرنا وافرحوا به ، ولا نريد منكم أن تكسونا برودكم ، بل إن شاء الله تسلم برودنا منكم . وعرضنا وديعة عندكم . (قالون)

(اذهبوا بقميصي هذا ... الخ)

— ٥ —

وقال الفاضل السيد يوسف الجدلي :[٢]

رد تفسير كلمة « بصير » « ضد الأعمى » بمبصر

إني أوافق السيد الغمراوي ومولانا عبد الحي الدمياطي على تفسيرهما « القميص » بالرتبة العالية ، و (بصير) بعالم ، ومنع أن يكون (بصير) بمعنى مُبصر بعينيه ، وأزيد ههنا كلمة وجيزة ، وهي أنه من عرّف سيدنا يوسف أن أباه صار أعمى حتى يقول (بصيراً) ويريد مبصراً ، وأما قول بعض المفسرين

(١) الطرق الحكمية .

(٢) نسبة الى بلدة المجدل قرب غزة (فلسطين) .

كالبغوي وأمثاله : (لما عرفهم يوسف نفسه ، سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا: ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه ، وقال: إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، أي يَعُد مبصراً) فيحتاج إلى برهان يثبته ، لأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، ولا يجوز التهجم على الغيب إلا ببرهان ، قال تعالى ﴿ عالِمُ الغيبِ فلا يظهِرُ على غيبِهِ أحداً إلا مَنْ ارتضى مِنْ رسولٍ ﴾ (٧٢ : ٢٦ و ٢٧) والبغوي وأمثاله من المفسرين ، ليسوا رسلا ، حتى يظهرهم الله على غيبه ، فيقولوا إن يوسف سألهم عن أبيه . الخ

هذه كلمتي الوجيزة على معنى الآية الكريمة ، واسمحوا لي أن ألحقها بالمواد التالية :

عظمة يوسف بتوخي المنفعة لأهله ولو بعد ما أهانوه

المادة ١ ـ تعليقاً على قوله : ﴿ وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ : علم يوسف عليه السلام أن الرجل العظيم هو من يتوخى للناس المنفعة ، ويوطىء لهم أسباب السرور ، ولو كانوا قد أهانوه ، فلذلك طلب إلى إخوته الإتيان بأهلهم وكان هذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها وعند وقتها ، لأنهم كانوا في فلسطين في ضيق عظيم ، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف وحنّنه عليهم ، حتى لو لم يعثروا على يوسف أخيهم ، لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه ، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم ، ويأمرهم بالإتيان بأهلهم أجمعين ، ولا يخفى ما في هذا العمل الذي تكرم به يوسف ، من نسيان أو تناسي ما كانوا عملوا معه من تخلهم عليه بوجود شخصه بينهم ، فهل آن لنا أن نقتدي بهذا القدوة الطيبة ، ونتناسى أعمال أعدائنا معنا ، لا سيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا !.

وربما يكون سمح عن إخوته ورغب إليهم في رجوعهم لمصر . لكي يعيشوا عنده عيشة طيبة ، مراعاة لوالده الشيخ الجليل ، ولأهل اخوته وسلائلهم ، كما قيل : (بعلة الزرع يسقى الضرع) وقيل : (لأجل الورد يشرب العليق) ، وأيضاً فقد رأى يوسف أنه لا يحسن انفراده بالعيشة بمصر ، متمتعاً بالنعيم الرغد ، دون اخوته وسلائلهم ، وهذا هو مذهب العرب حيث يقول قائلهم[1]:

ولو أني حُبيت الخلد فرداً لمـا أحببت بالخلد انفراداً
فهلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البـلادا

وهذا هو تعليم الدين الإسلامي ، كما في الحديث الصحيح : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، وهو أيضاً التعليم المسيحي ، كما نقل عن السيد المسيح أنه قال : (كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا هكذا أنتم أيضاً) (مت ٧ : ١٢) .

لزوم استخدام المال والمنصب و الجاه في منفعة ذوي الرحم

المادة ٢ ـ تعليقاً ثانياً على قوله : (وائتوني بأهلكم أجمعين) : المال والمنصب والجاه هو لصلاح المعاش والدنيا ، وشرف المنزلة في أعين الناس ، فيجب استخدام ذلك كله للأقارب والإخوان ، فمن كان له مال أو منصب ولا ينفع بهما ذوي رحمه كان كالذي يعد فقيراً ، وان كان موسراً ، ويحسب سُوقَة ، وان كان ذا ولاية ، وان أولى ما يكون في المال والجاه استخدامهما في سبيل صلة الرحم ، واستثمارهما لمنفعة الأقارب ، فلذلك أراد يوسف أن تشاطره اخوته وأهله جميعاً في ثمار هذا المركز ، الذي أعطاه الله اياه .

---

(١) هو أبو العلاء المعري .

أوصاف المؤمنين الأربعة تمت ليوسف

المادة ٣ – بما جرى ليوسف وما أتاه هنا ، تمت فيه والأصاف الأربعة المذكورة في ضمن قوله تعالى : ﴿ والذينَ آمَنُوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ ، والذين آوَوْا ونَصَروا ، أولئكَ هم المؤمنون حقاً، لهم مَغْفِرَةٌ ورزْقٌ كريمٌ ﴾ (٨ : ٧٤) ، فيوسف هاجر من فلسطين بلاد الخوف ، لمصر بلادالأمن وجاهد نفسه بترفعه عن النزول على إرادة سيدته ، وآوى إخوته وأهليهم ، ونصرهم على شيطانهم ، لأنه غفر لهم وصفح عنهم .

وما أنسب ما وقع من يوسف بالمراتب الثلاث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ والكاظِمينَ الغَيْظَ ، والعافِينَ عَنِ الناسِ ، واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ ﴾ (٣ : ١٣٤) فهو عليه السلام كظم غيظه بقوله : (لا تثريب عليكم اليوم) ، ثم عفا عنهم بقوله : (يغفر الله لكم) ، ثم أحسن إليهم بقوله: (وائتوني بأهلكم أجمعين) ونظير هذا ما وقع « للمأمون » حينما كان خادم وضوئه يصب عليه ، فسقط الإناء ، فغضب المأمون ، فقال له الخادم : (والكاظمين الغيظ) ـ فقال : (كظمت غيظي) – قال : (والعافين عن الناس) – فقال : (عفوت عنك) – قال : (والله يحب المحسنين) – فقال : (اذهب فأنت حر) .

وكان « المنصور أبو عامر » – وهو أحد ملوك إسبانية ، وإن شئتم قلتم : الأندلس ـ أمر بسجن فتى ، لأن عليه ثلاثة آلاف دينار للخزينة ، ثم عفا عن سجنه ، فقال الفتى :

أما ترى عفو أبي عامرٍ　　لا بد أن تتبعه مِنّهْ
كذلك الله إذا ما عفا　　عن عبده أدخله الجنهْ

فسامحه « المنصور » في ذلك المال .

حال إخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب أهليهم لمصر

المادة ٤ – كأني بإخوة يوسف العشرة ، بعد هذه المبادلات في الحديث ، وبعدما فارقوه ، عتب بعضهم على بعض ، وتبرأ قسم منهم من القسم الآخر ، ولا بد أن يكون « راوبين ويهوذا » من اللائمين ، كما أنه لا ريب أن « شمعون » كان من الملومين ، أو رئيس الملومين ، أو هو الملوم وحده ، ولا نشك في أن « دان ونفتالي » كان لحقهما وهما أمام يوسف خجل عظيم ما من ذلك بد ، وسببه أنهما ابنا (بلهة) جارية أم يوسف ، وهي التي انتقل يوسف هو وشقيقه (بنيامين) لخيمتها بعد موت أمهما (راحيل) ، فتربيا عندها مع ولديها المذكورين ، ثم هل هذه الحادثة على هذا الوجه ، توقظ العاقل ، فيشح بنفسه ، ولا يطوح بها في المشي وراء الغايات النفسية .

نتيجة رحلة بني اسرائيل لمصر

المادة ٥ ـ كانت النتيجة من رحلة بني إسرائيل لمصر ، أنهم بعد موت يوسف عليه السلام استعبدوا في مصر ، أيام فرعونها (آحمس الأول) مؤسس الدولة الثامنة عشر ، إلى أيام (سيتي الأول) منشيء عظمة الدولة التاسعة عشرة ، إلى أيام ابنه (رعمسيس الثاني) أعظم ملوك هذه الدولة المذكورة ، ثم أخيراً توثنوا كالمصريين ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو حركة (شمعون) الثورية التي كانت حين كان يوسف ابن ١٧ سنة يوم عدائه الشديد ليوسف عليه السلام ، يوم مفاوضته لإخوته في قتله أو طرحه أرضاً ، يوم ما قرروا أخيراً بإجماع الكلمة إلقاءه في جب (دوثان) فلعنة الله على تلك الساعة المشؤومة ، تلك الساعة الشيطانية ، ساعة النحاسة ، التي لا يمثلها اليوم سوى ما حدث في (الحرب العالمية الأولى) مع النظر لسببها الأساسي ، وهو إطلاق (برنزيب) الصربي رصاصة على (الأرشيدوق فرنز) ولي عهد النمسا عام ١٩١٤ م .

الإرهاص والمعجزة

المادة ٦ ـ إن حملنا قوله (يأت بصيراً) على معنى (يصير بصيراً) تكون الحادثة من قبيل خوارق العادة ، فإن كان هذا قبل نبوة يوسف ، كان من قبيل الإرهاص ، وإن كان بعدها كان من قبيل المعجزة .

عطايا يوسف لإخوته عند ذهابهم لجلب أهليهم

المادة ٧ - (أعطاهم يوسف عليه السلام عجلات ، أي مركبات تجرهـا الحيوانات ، لأجل أبيه وأولادهم ونسائهم ، وأعطاهم زاداً للطريق ، وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب ، وأما بنيامين فأعطاه ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب ، وكانت هبة الثياب تعد في الشرق إكراماً ممتازاً ، وأرسل لأبيه عشرة حمير حاملة من خيرات مصر ، وعشر أُتن حاملة حنطة وطعاماً لأبيه لأجل الطريق ، أي طريق المجيء إلى مصر) (تك ٤٥ : ٢١ – ٢٣) .

ثم قام الشيخ القلقيلي وقال :

(وائتوني بأهلكم أجمعين ...)

- ١ -

حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه

الذي يظهر لنا أن يوسف (ع) كان حريصاً جد الحرص على انتهاز الفرص متى سنحت له ولنا على ذلك الشواهد الآتية :

الشاهد الأول ـ حينما أخرج من الجب وأخذ كأسير لم يأت من المقاومـة شيئاً بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألبين عليه ، وفضل الجلاء

عن فلسطين بلاد البداوة والتوحش إلى بلاد الحرية والتمدن والأمن ، فاستخذأ (للسيارة) ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء (آ : ١٩) .

الشاهد الثاني ـ لمـّا سأله الفتيان عن رؤييهما وقبل أن يعبر لهما ، انتهز الفرصة وشرع يدعوهما للتوحيد ويعظهما في الدين (آ : ٣٧ ـ ٤٠) .

الشاهد الثالث ـ بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة ، بما فيه سلامة وقوة عينه ، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله ، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك الريان ، وفعلاً إن رئيس السقاة نفعه وخدمه ، ولكن بعد حين (آ : ٤٢ ـ ٤٥)

الشاهد الرابع ـ لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك وأدّى واجبه بالجواب عن الرؤيا ، افترص الفرصة فأتى بما لم يُسأل عنه ، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة الهكسوسية ، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد (آ : ٤٧ ـ ٤٩) وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى مليك مصر ورجال بلاطه ، وقد كان .

الشاهد الخامس – لما جاءه سفير الملك آمراً إياه بالخروج من معتقله وأحس بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ووثق بـه ، افتكر أن توجه الملك عليه لا بد أن يكون قد حكي في قصور أمراء مصر ، وأن كل من كان كذلك كان حقيقاً بأن يكون مهيب الجناب ، بحيث لا يتكلم فيه بسوى الحقائق ، فنظراً لهذا كله – انتهز الفرصة فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق وبعد سؤال السيدات المصريات ، لأنه يتوجه نظر الحكومة عليه ، يكون قـد أمن غائلة هـؤلاء النسوة ، فلا يتكلمن فيه إلا بالحق ، فيخرج مـن المعتقل ناصع الجبين (آ : ٥٠) .

الشاهد السادس – حينما مثل بين يدي الملك : ورمى الملك له تلك الإشارة

ورمز له بذلك الرمز الذي يشير إلى أن الملك أزمع على إسناد منصب ما له في البلاط، اكتسب الفرصة وتقدم توا إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب (آ: ٥٤ و ٥٥)

الشاهد السابع – لما جاء إخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التي تقتضي رجوعهم لمصر بأخيهم بنيامين (آ : ٥٨ و ٦٢) الأمر الذى هو كل ما يتمناه، لا أقل ولا أكثر .

الشاهد الثامن – لما رجع إخوته بأخيهم بنيامين اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضي بقاء بنيامين عنده (آ : ٧٠ – ٧٢) .

الشاهد التاسع – طلب إتيان إبيه وإخوته وأهليهم أجمعين لمصر منتهزاً الفرصة بذلك لكي يكونوا تحت نظره، ويعيشوا تحت رعايته، بعكس ما فعل إخوته معه سابقاً منذ ٢٣ سنة، وليس يوجد ألذّ للنفس وأشهى للقلب من ذلك العمل، وأيضاً لكي يظهر لهم من مَكارم أخلاقه مقدار ما أظهروه هم له من سوء أخلاقهم، ثم احتساباً لوجه الله وصلة للرحم، ومقابلة للسيئة بالحسنة، « وبضدها تتميز الأشياء » .

وعلى الجملة فيوسف أجرى ما أجرى من هذه الأمور التسعة، إما مماشاة للطبيعة الإسرائيلية، لأن الإسرائيليين عموماً منذ القدم إلى اليوم، هم حريصون على انتهاز الفرص .

قال الشاعر :

وانتهز الفرصة إنّ الفرصةْ　تصير إنْ لم تنتهزها غصةْ

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة، وبالإجمال إن يوسف كان قوي الإرادة في كل شيء أراده، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه وكان يوسف بعدما خرج من سجنه، وجلس على أريكة وزارة المال بمصر صار السعد خادماً له، فكان يملي إرادته على الزمان، والزمان يؤاتيه ويفعل ما يمليه عليه .

عودة القافلة بالبشارة

آ (٩٤) « ... ولّما فَصَلَتِ العِيرُ ، قالَ أبوهم : إني لأَجِـــدُ رِيحَ يوسفَ !! لولا أَنْ تُفَنِّدونِ ... »

افتتحت الجلسة وتليت الآيـــة الرابعة والتسعون فقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال :

صدع إخوة يوسف بأمر أخيهم ، وانصاعوا لإشارته ، وركبوا دوابهم ، ونشطوا في العَدْوِ ، وساروا سيراً حثيثاً لا يلوون على شيء ، حتى جاوزوا الحدود المصرية ،(ولما فصلت) أي انفصلت (العير) الإبل ، وتعدّت «الفرما» وهي آخر حدود المملكة المصرية ، وهم يحملون بشرى إسناد « وزارة المالية » لمهـــدة أخيهم يوسف ، ونبأ ذلك « القميص » الكريم الذي قمصه الله إياه ، (قال أبوهم) يعقوب عليه السلام ،حسبما ألهمه الله تعالى ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده (إني لأجد) — من الوجدان الذي كما يطلق على الحسى ، يطلق على المعنوي — أي أجد بقلبي وأدرك بإلهامي ، (ريح) عكم (يوسف) — والريح هنا بمعنى القوة والمنصب والشوكة والدولة والغلبة والنصرة ، فإنها تأتي بكل هذه المعاني كما في معاجم اللغة ، قال تعالى : ﴿ ولا تَنَازَعوا فتفشلوا وَتذْهبَ رِيحُكُم ﴾ (٨ : ٤٧) أي قوتكم أو شوكتكم أو دولتكم الخ .. ، ويقولون : « هبت ريح فلان » إذا واتاه الدهر وساعدته المقادير وتحسن حاله عن ذي قبل ، وانتصر على أعدائه وتغلب وقوي وأعطي مراده — (لولا أن تفندون) أي تُعجّزون وتُكذبون وتُسفـّهون وتجهلون وتضعفون وتُهرمون ، — والتفنيد النسبة الى الفند ، وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم ، — أي لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني .

هذا ما أقوله أيها السادة تكميلاً وتعضيداً لما ذهبت اليه سابقاً من أن هذا «القميص» هو أمر معنوي عبارة عن رتبة الوزارة والله تعالى أعلم .

(ولما فصلت العير .. الخ)

— ٢ —

وقام الشيخ نور الدين المدرس في جامعة عليكره في الهند وقال :

تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم

كان يوسف عليه السلام تكلم مع إخوته بكلامه الآنف الذكر ، فسمعوا ما لم يجر في ظنهم ، ولا سنح على فكرهم ، سمعوه فأميتَت خيفتُهم ، وانتعشت أرواحهم فقالوا : « نفعل مأمورين طائعين » ، ثم ركبوا دوابهم ووخزوها وأطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً ويطوون البيداء طياً ، ساروا ووجهتهم فلسطين ، يقطعون السهل والوعر ، وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، وصاروا يفتكرون في أمر يوسف ، ويعجبون من هذا الحال الذي وصل اليه أخوهم ، ويُردّدون بينهم وبين أنفسهم معنى قول الشاعر :

الجدّ يدني كل أمر شاسعٍ　　والجدّ يفتح كل باب مُغلقِ
فإذا سمعت بأن مجدودا حوى　　عوداً ، فأثمر في يديه فحقّقِ
واذا سمعت بأن محروماً أتى　　ماء ليشربه ، فغاض ، فصدّقِ

مشت دوابهم في تلك الصحراء الرملية ، منحدرة تارة ، ومرتفعة أخرى ، وهي تمخر عباب السراب مخراً ، حتى قاربوا آخر حدود مصر ، ولما انفصلت دوابهم من « العريش » آخر حدود المملكة المصرية ، وجاوزت حيطانه ، قال يعقوب بلسان الدهشة ، وبصوت مختنق ، ونفس أسيفة ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده : « يا حفدتي ، يا للعجب ! لعمري إنه يلوح لي أن الزمان

المنتظر قد اقترب ، إني لأجـــد ريح عمكم يوسف العاطر ، وإن « نسيم الصبا جنـــاءت بريّا القرنفل » قد حمله النسيم الى قلبي فأنعشه ، وإلى أنفي فملأه عرفاً شذياً » – هذا ما قاله يعقوب أيها السادة ، شأن كل عاشق إذا سرت « نسمة عطرة » وَجد ريح معشوقه فيها ، وإذا ومض « البرق » ظن أنه وميض ثغره ، واذا سمع « تغريد الأطيار » تخيل أنه صوت حبيبه ، واذا لمس « ثوب قطيفة » ، تصور أنه لمس جسمه ، وإذا رآى « غصناً معتدلاً » خال انه قوامه ، وهكذا . وهذا التنوع من التطورات لا يدركه إلا أهل الحب كما قال :

لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده ولا الصبابـــة إلاّ من يعانيهـا

وبعبارة أخرى : كان يخيل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، أن يوسف ملأ قلبه ، ثم فاض عنه الى جميع الكائنات التي بين يديه ، فكان يرى في « صفحة السماء » صورة يوسف ، ويسمع في « تغريد البلابل والشحارير » صوت يوسف ، ويستشرق من « لألأ الشمس » نور يوسف ، ويتراءى له من « باقة الورد والياسمين والفل » لون يوسف ، ويستروح في « النسيم العطير » رائحة يوسف ، ويرى في « بريق السماء » ثغر يوسف ، وفي « الماء الرقراق » رقة عواطف يوسف ،

لقد فصلت « العير » وحمل الصبا رائحة ابنه ، فهاج وجده وحنينه وأخذ يعانق الهواء ، ويضمه اليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين يديه .

وأختم كلامي هذا بتوجيهات عديدة ربما نقدر أن نفهم بها كلام سيدنا يعقوب عليه السلام ، ونوردها فيما يلي :

تنسم يعقوب ريح يوسف عابقة من قميصه الكتان

التوجيه الأول – لقد أثبت الشعراء أن للحب خصائص ، منهـا « تواصل الأرواح » لا سيما عند القرب ، ومنها « خفق القلوب » عند مرور الأحبة ، ومنها « تخيل صورة » المحبوب ، ومنهـا « تنسم ريحه » ، كلما هبت الصبا ؛ والمحب

يتحسس بما لايتحسس به سواه ، وعليه فلا غرابة في أن سيدنا يعقوب تنسم ريح ولده عابقة من القميص – على القول بأن القميص لباس – فللحب سيال يخترق الصرة التي فيها القميص ، كما تخترق الكهرباء والحرارة الأجسام .

وعلى هذا المذهب الذي نحا اليه الشعراء وردت عنهم منظومات كثيرة منها قول بعضهم :

أيا جبلي « نعمان » بالله خليّا نسيم الصبا يخلص اليّ نسيمها
فان الصبا ريح متى ما تنسمت على نفس مهموم أزالت همومها

ولمعاصرنا الأديب السيد أحمد عبيد الدمشقي :

وزهرة راق منها منظر عجب إذا نقطت بندىً كالدر منتثرِ
قد فاتها الأرج الزاكي ولو علقت بمن أحب لفازت بالشذا العطرِ

ولجميل بثينة :

أيا ريح الشمال أمـا ترَيني أهيم وإنني بادي النحولِ
هبي لي نسمة من ريح « بثْن » ومنّي بالهبوب الى « جميـلِ »

ولعلية ابنة المهدي العباسية أخت هرون الرشيد :

ومُغتربٍ « بالمرج » يبكي بشجوه وقدغاب عنه المُسعدون على الحبِ
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشّق يستشفي برائحة الركبِ

وقال بعضهم :

واني لأستشفي بكل غمامـة يهب بهـا من نحو أرضك ريحُ

وقال آخر :

ألا يا نسيم الصبح مـالك كلما تقربت منا فاح نشرك طيبـا ؟
كأن سليمى نبئت بسقامنا فاعطتك ريّاهـا ، فجئت طبيبا

وقال البحتري :

ورقّ نسيم الريح حتى حسبته يجيء بـأنفاس الأحبّة نُعَّما

ومن ميمية البوصيري :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضمِ

حس يعقوب رائحة قميص يوسف بالشم

التوجيه الثاني ـ ربما أن الله تعالى كان أرسل على الحقيقة ، رائحة قميص يوسف عليه السلام مع نسيم الصبا ، وأن الإله القدير الذي أوصل صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو على المنبر بالمدينة ـ الى قائد جيش المسلمين «سارية» بن زُنَيم ، وقيل ابن رستم الجُلحي ، وهو في نهاوند [١] لهو قادر على أن يوصل ريح قميص يوسف من آخر حدود مصر الى فلسطين ، وقـد قرأنا في الصحف السيارة أنه وقف رجل وامرأة في لندن في غرفة « مختبر » تحتوي على آلة نقل الصورة (تليفيزيون) المدهشة التي تحمل الصورة (كما يحمـل الراديو الصوت) الى مسافة الوف الأميال ، فشوهدت صورتهما في غرفة (مختبر) آخر ، في بلدة قريبة من نيويورك . فكما نؤمن بهذه الحوادث المستندة على آلات وأعمال فنية ، يجب أن نؤمن بالحوادث التي أخبر بها خالق الفنون والآلات .

تحسس يعقوب برائحة يوسف تحسساً معنوياً

التوجيه الثالث ـ قال الجاحظ : للعرب إقدام على الكلام ، ثقة منهم بفهم

---

(١) وفي هذه القصة كرامتان ، احدهما ان عمر (رض) اطلع وهـو على منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند ، وان العدو اعد له كميناً في الجبل ، والثانية انه ناداه « يا سارية الجبل » فأسمعه ، كذا روى هذه القصة البيهقي من المحدثين وتناقلها كثير من المؤرخين .

المخاطب من أصحابهم عنهم ، كما جوزوا أن يقولوا : « ذُقتُ » لما ليس يطعم ، وهو قول الرجل اذا بالغ في عقوبة عبده : (ذقْ) و (كيف ذُقته ؟) أي وجدت طعمه ، قال الله تعالى: ﴿ ذُق إنك أنتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ (٤٤:٤٩)، وقال تعالى ﴿ فأذاقها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخوفِ ، بما كانوا يَصنَعُون ﴾ (١٦ : ١١٢) وقال تعالى : ﴿ فذاقوا وَبالَ أمرِهِم ﴾ (٥٩ : ١٥) ثم قالوا : « طعمتُ » لغير الطعام ، كما قال العَرْجيّ :

فإن شئتُ حرّمتُ النساءَ سواكم وإن شئتلمأطعَم نقاخاً ولا بَرْدا[١]

فنظيره ههنا قول سيدنا يعقوب : (إني لأجد ريح يوسف) حال كون كل من يوسف وقميصه ليس له رائحة ، وإنمـــا هو مجاز عن تحسسه بابنه تحسساً معنوياً على الوجه الذي يفهمه هو ، ويعلمه الله تعالى .

اقتباس يعقوب ريح ولده يوسف بدون وساطة الحواس

التوجيه الرابع ـ ثبت أن الأنفس البشرية يقتبس بعضها العلمَ من الموجودات بشراً أو غير بشر ، وهـــذا الاقتباس يكون بدون وساطة الحواس وبدون الاستنباط العقلي ، كما شاهده بعض الأطباء الماديين ، الذين كانوا ينكرون مثل هذا ، فإنه روى عن مريض كان يعالجه ذلك الطبيب في مصر القاهرة انـــه ـ أي المريض ـ قال « : إن فلاناً ـ وذكر قريباً له في الاسكندرية ـ يريد أن يسافر الآن إلى مصر ، لأجل أن يعودني في مرضي » ثم إن هذا المريض عـــين القطار الحديدي الذي ركب فيه ، ثم الوقت الذي وصل فيه الى محطة مصر، ثم لم تكن إلا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هـــذا القريب ، وكان ذلك الطبيب ينتظره لاستبانة المكاشفة ؟؟ . .

(١) فقه اللغة ، والنقاخ كغراب : الماء البارد والنوم في العافية والامن ، والبرد : النوم .

وكان من أخبار هذا المريض أنه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ، ويخرج من دمه ما بلغ وزنه كذا ، فكان كما قال !!.

هذه حكاية المريض ، فلم لا يجوز أن يقتبس سيدنا يعقوب عليه السلام ريح ولده يوسف ، كما اقتبس هذا المريض ريح قريبه ؟ اللهم إن هذا جائز عقلاً ومروي نقلاً ..

وفي صحيح مسلم ، أن (أنس بن النضر) قال يوم أُحُدٍ : (واهاً [1] لريح الجنة ، أجده دون أحُدٍ) فقاتل فيه حتى قتل،وقد ورد في الحديث الصحيح (إن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام)، فكل هذاوما اليه يحمل على ماسبق.

إدراك يعقوب رائحة يوسف إلهاماً بقلبه

التوجيه الخامس ـ تعلمون أن الادراك يكون حسياً ، أي بإحدى الحواس الخمس ، ويكون معنوياً ، أي بالقلب ، فأما الأول ، فلأن الله جعل في العين قوة باصرة ، كما جعل في الأذن قوة سامعة ، وفي الأنف قوة شامة ، وفي الجلد قوة حاسة ، وفي اللسان قوة ذائقة .

وأما الثاني ، وهو إدراك القلب ، فهو انكشاف صورة المعلوم للانسان ، بحيث تكون نسبته إلى القلب ، كنسبة المرئي إلى العين مثلاً ، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى ، كما تبصر العين وتعمى ، قال تعالى : ﴿ فإنها لا تَعْمَى الأبْصارُ ، ولكنْ تَعْمَى القُلوبُ التي في الصدورِ ﴾ (٢٢ : ٤٦)، فالقلب يرى ويسمع ويشم ويذوق ويحس ، بل هذه القوى فيه ، أبلغ من قوى الحواس الخمس ..

والخلاصة : الإدراك نوعان ، إدراك بالحس ، وإدراك بالبصيرة ، فإدراك

---

(١) واهاً كلمة تحنن وتلهف .

الحس ووقوعه على نفس المحسوس أو مثاله الخارجي ، كرؤية وجه الانسان أو رؤية مثاله في المرآة والماء والصورة الشمسية ، وأما الادراك بالبصيرة ، فوقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي، فيكون إدراكه له بمنزلة إدراك العين مثلاً للصورة الخارجية ، أو الأنف مثلاً (للريح) الخارجية ، وقد يقوى سلطان هذا الادراك الباطن ، بحيث يصير الحكم له ، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمدركها بحيث يستغرق فيه ، فيغلب حكم القلب على حكم الحس ، فيستولي على السمع والبصر والأنف ، بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج، وكذلك يشم (ريحه) ، وهو في النفس والذهن فقط، لكن لغلبة الشهود ، وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب ، واستيلائه على القوى ، صار كأنـه مرئي بالعين ، مسموع بالاذن ، مشموم بالأنف ، بحيث لا يشك المدرك في ذلك ، ولا يرتاب البتة ولا يقبل عذلا : وحقيقة الأمر أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية ، تابعة للمعتقد .

فذلك الذي أدرك بعين القلب أو سمع القلب أو (أنف) القلب ، انما هو شاهد دال على الحقيقة ، وليس نفس الحقيقة ، فانّ شاهد نورِ جلالِ الذات في قلب العبد ، ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السموات والأرض ، فانه لو ظهر لها ، لتدكدكت وأصابها ما أصاب الجبل ، وكذلك شاهدُ نورِ العظمة في القلب ، إنمـا هو نور التعظيم والإجلال ، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والإكرام ، وهكذا هنا شاهدُ (ريح) يوسف ، ليس هو نفس رائحة يوسف، ولكنه مثاله في العطر والشذا ، وأما نفس رائحته وحقيقتها ، فهي وراء ذلك؛

فهذه الأمور التي قد يدركها الانسان ، انما هي شواهد تقوم بقلبه ، كما يقوم بقلبه شاهد من الآخرة والجنة والنار ، وما أعد الله لأهلها ، وهذا هو للذي وجده أنس بن النضر (رض) يوم أحُد ، لما قال: (واهاً لريح الجنة ،إني أجد ريحها دون أحُد) ومن هـذا قوله ﷺ : (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)

– قالوا : وما رياض الجنة ؟ – قال ﷺ: حِلَقُ الذِكر)،وقوله:ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) فهو روضة لأهل العلم والإيمان ، لما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة ، حتى كأنها مرئية لهم رأي العين ؛ ولكن إذا قعد المنافق هناك ، لم يكن ذلك المكان في حقه ، روضة من رياض الجنة ، ومن هذا حديث: (الجنة تحت ظلال السيوف) (انتهى ملخصاً من بعض كتب الصوفية).

وبناء على ما تقدم فلا مانع من أن المقصود من كلام يعقوب عليه السلام،أنه ادرك بقلبه إلهاماً رائحة يوسف ، ويقصد من تلك الرائحة (الأثر) من آثاره، كما يقال : (هذا الثوب أو هذا الكتاب أو السيف من رائحة فلان) أي هو أثر من آثاره ، فكأنه يقول إني لقد ألقي في روعي وصار عندي وجدان قلبي، من طريق الإلهام أدركت به أثراً من آثار ولدي يوسف ، وهو القميص المزمع أن يكون عندي قريباً) .

جواز إدراك يعقوب رائحة يوسف كما يدرك المنوّم تنويماً مغناطيسياً الأشياء

التوجيه السادس – للأنبياء أحوال ، يغيبون فيها عن الناس الحاضرين ، ليجدوا ما غاب عن حواسهم ، من قبيل ما يحصل عند المنوم تنويماً مغناطيسياً ، وهذا النائم يرى البعيد،كما يرى القريب،وتسمى تلك الحالة « بالرؤيا الواضحة » ، وفيها يشعر الانسان أيضاً بالاشياء،وإن كانت عيناه مغمضتين ، بل يمكنه القراءة بأي جزء من جسمه ، فقد حدث في محاكم مصر بتاريخ ٣ كانون الأول سنة ١٩١٣ م ، أنه نومت فتاة قبطية تنويماً مغناطيسياً ، فكانت تقرأ الساعة بمعدتها امام القضاة ، وكانت ترى الأشياء من قفاها،ورأت ما بيد أحد المحامين،وعيناها معصوبتان ، ويد المحامي مقبوضة. فاذا تقرر هذا، فهذه الحالة التي كانت حصلت ليعقوب عليه السلام ، ليست بأقل من حالة المنوّم تنويماً مغناطيسياً ، بل هي أقوى وأرقى بكثير ، ومن النوادر التاريخية التي لا تبعد صحتها ، ما روي أن

عمر رضي الله عنه ؛ كان يخطب بالمدينة ، فصاح في أثناء خطبته : « يا سارية الجبلَ ، يا سارية الجبلَ ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم » ثم عاد الى الخطبة ، حتى قال فيه بعض الصحابة : « إنه جُنّ » ، ولما سئل رضي الله عنه عن ذلك ، قال بانه رأى جيوش المسلمين تكاد تفتك بها الأعاجم على أبواب « نهاوند » فصاح بقائدهم ليتحصن بالجبل ، وبعد ذلك جاءت الأخبار بأن المسلمين كادوا ينهزمون ، لولا أن « سارية » القائد ، سمع مع بعضهم هاتفاً يرشدهم الى الجبل ، فدهش الناس لذلك ، وعلموا منه مقدار نفس عمر وكبر روحه ، وهذه من أعظم مناقبه رضي الله عنه .

شواهد على إدراك الرائحة بالإلهام القلبي

التوجيه السابع – كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخ اسمه « زيد » [1] قتل في جيش اليمامة [2] فكان عمر يقول : « ما هبت الريح إلا وجدت فيها رائحة زيد » ولهذا قال أبو العلاء المعري من قصيدة له في كتاب اللزوميات :

والقلب يَغْري[3] بما تهدي الرياحُ له
كحملها الريحَ من زيد إلى عمرا

فما كان يفهمه العرب في كلام عمر (رض) هو الذي ينبغي أن نفهمه في هذا القول الذي صدر من سيدنا يعقوب عليه السلام ، فالقول واحد ، فيجب أن يكون المعنى واحداً .

---

(١) القول انه اخوه مصرح به في « الاغاني » وفي « مناهج السنة » خلافاً لما في ديوان ابي العلاء المعري من انه ابنه .

(٢) ارسل ابو بكر هذا الجيش في خلافته تحت قيادة خالد بن الوليد لبني حنيفة في اليمامة حيث ارتدوا وآمنوا بمسيلمة .

(٣) من غري الرجل بكذا : اولع به ولزم ذكره ،

ونظير هذا ما في الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ،في أخبار « عروة بن الورد » وأحاديثه الحسان ، وقد كان مشهوراً بالسرقة والإحسان . رَوَى أنه جاء ليلاً ليسرق شيئاً ، فكمن كَسْرِ بيت رجل ، كان غائباً عن زوجته ، فأتاها عبد زوجها ، وكان أسود – بعلبة فيها لبن ، وقال لها : « اشربي » – فقالت : « لا .. أو تبدأ » ، فبدأ الأسود فشرب . و « عروة » ينظر ، ثم جاء رجلها ، ودعا بالعلبة ليشرب ، فقال حين ذهب ليكرعَ : « ريح رجل وربِّ الكعبة » ، يتهمها باتخاذ خِدن ، فقالت امرأته : « وأيّ ريح رجل تجده في إنائك غير ريحك ؟! » ثم صاحت فجاء قومها، فأخبرتهم خبره وقالت : « يتهمني ويظن بي الظنون » ، فأقبلوا عليه باللوم ، حتى رجع عن قوله ، ثم أوَى الرجل إلى فراشه ، فوثب عروة الى فرس ذاك الرجل ، فذهب به ، فركب الرجل فرساً عنده اخرى ، وجعل يركض وراءه ، فلما انقطع عن البيوت ، قال له « عروة »: « أيها الرجل قف ، أنا عروة بن الورد ، وقد رأيت الليلة منك عجباً ، فأخبرني به وأرد اليك فرسك » – قال : « وما هو ؟ » قال : « شممتَ ريح رجل في إنائك، وقد رأيت الرجل حين آثرَتْه زوجتك بالإناء،وهو عبدك الأسود، فقلت ريح رجل ، فلم تزل زوجتك تثنيك عن هذه حتى انثنيتَ ، فرأيتك في هذه الخصلة أكمل الناس، ولكنك تنثني وترجع ! » فضحك الرجل وقال : « إن الذي رأيت من صرامتي وحسن فراستي ، فهو من قِبَل أعمامي ، وما رأيت من ضعفي وعدم ثباتي ، فهو من قِبَل أخوالي ، وهم بطن من خزاعة ، والمرأة التي رأيت عندي ، امرأة منهم ، وأنا نازل فيهم ، وأنا منذ الآن لاحق بقومي ، وخارج عن أخوالي هؤلاء ومُخَلّ سبيل المرأة !!! » – فقال عروة : « خذ فرسك راشداً » – قال : « ما كنتُ لآخذه منك وعندي من نسله جماعة مثله، فخذه مباركاً لك فيه ! » .

وفي الأغاني أيضاً : حدث عروة بن الزبير قال : سأل « كلابُ » بنُ أمية ابنَ الأسكر : « أي الأعمال أفضل في الإسلام ؟ » — « فقيل له : الجهاد » ، فسأل عمرَ بن الخطاب فأغزاه في جيش مع أبي موسى الأشعري ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، فلما طالت غيبة (كلاب) قال :

أناديه فيعرض في إباءٍ   فلا وأبي كلاب ما أصابا
تركت أباك مُرَعشَةً يداه   وأمك ما تسيغ لها شرابا
وإنك والتماس الأجر بعدي   كباغي الماء يتبع السرابا

وطالت غيبة (كلاب) ، فأُهتِرَ[1] (أميةُ) وخلط جزعاً عليه ، ثم أتى عمرَ يوماً ، وهو في المسجد ، وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه ، ثم أنشأ يقول :

أعاذل قد عذلتِ بغير قدرٍ   ولا تدرين عاذل ما ألاقي
فإما كنتِ عاذلتي فردّي   (كلاباً) إذ توجّه للعراق
فتى الفتيان في عسرٍ ويسرٍ   شديد الركن في يوم التلاقي
فلا وأبيكَ ما باليتَ وجدي   ولا شغفي عليك ولا اشتياقي
وإيقادي عليكَ إذا شتونا   وضمّكَ تحت نحري واعتناقي
فلو فلق الفؤادَ حطام وجد[2]   لهمَّ سوادُ قلبي بانفلاق
سأستعدي على الفاروق رباً   له دفعُ الحجيج الى بُساق[3]
وأدعو الله مجتهداً عليه   ببطن الأخشبين[4] الى دُفاق[5]

(١) اهتر الرجل : فقد عقله من كبر او مرض او حزن .
(٢) حطام الوجد : الحزن الذي يكسر القلب .
(٣) بساق : جبل بعرفات .
(٤) الاخشبان : جبلامكة .
(٥) دفاق : واد .

إنِ (الفاروقُ) لم يردد(كلاباً) إلى شيخان[١] هامُهُما زواقي[٢]

قال فبكى (عمر) بكاء شديداً ، وكتب بردّ (كلاب) إلى المدينة المنورة، فلما قدم دخل إلى عمر ، فقال له : (ما بَلـَغ من برّك لأبيك ؟) ـ قال :(كنت أوثره وأكفيه أمره ، وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب لبناً ـ أغزرَ ناقة في إبله واسمَنَها ، فاريحها[٣] واتركها حتى تستقر ، ثم أغسل إخلافها[٤] حتى تبرد، فاحتلب له فأسقيه)، فبعث عمر إلى أميّة من جاء به اليه ، فأدخله يتهادى[٥]، وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : (كيف أنت يا أبا كلاب ؟) ـ قال:(كما تراني يا أمير المؤمنين) ـ قال : (فهل لك من حاجة ؟) ـ قال : (نعم ، كنت أشتهي أن أرى كلاباً ، فأشمّه شمة ، واضمّه ضمة قبل أن أموت) فبكى عمر ثم قال : (ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى) ، ثم أمر (كلاباً) ان يحتلب لأبيه ناقة ، كما كان يفعل ، ويبعث اليه بلبنها ، ففعل فناوله عمر الإناءَ وقال : (دونك هذا يا أبا كلاب) ، فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال : (نعم والله يا أمير المؤمنين ، إني لأشمُّ رائحة ولدي كلاب من هذا الاناء !!!) ، فبكى عمر وقال: كلاب عندك حاضراً قد جئناك به » ، فوثب إلى ابنه وضمّه اليه وقبّله، وجعل عمر يبكي ومن حضره ، وقال لكلاب : (الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ، ثم شأنك بنفسك بعدهما) ، وأمر له بعطائه،وصرفه مع أبيه. فلم يزل معه مقيماً، حتى مات أبواه !!!

ومن هـذا القبيل قول امرأة (كعب بن الأشرف) : (إني لأسمع صوتاً ،

---

(١) شيخان : هذا على لغة من ينصب ويجر المثنى بالألف والمراد بهما والدا كلاب والهام: جمع هامة وهي الرأس .
(٢) زواقي : جمع زقية وهي الصيحة ،
(٣) اراح الابل : ادخلها في المراح أي المأوى .
(٤) اخلاف : جمع خلف بالكسر وهو ضرع الناقة .
(٥) التهادي ؤ مشي فيه ثقل وتمايل وضعف.

كأنه صوت دم) ، وذلك ليلة قتله ، حينما ذهب اليه (محمد بنَ مسلمة) ، فدعاه ليلاً ، فنزل كعب اليه ، فقتل .

فما يفهم العرب في سماع امرأة « كعب »صوت الدم من لفظ محمد بن مسلمة ،وفي شم أمية رائحة ولده كلاب مـن الإناء ، وفي شم زوج المرأة ريح رجل في علبة اللبن ، وفي شم سيدنا عمر رائحة أخيه زيد في كل ريح تهب من جهة اليمامة ـ ما يفهمه العرب في هذا كله يجب أن نفهمه نحن في قول سيدنا يعقوب (إني لأجد ريح يوسف) .

انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع الريح

التوجيه السابع – تعلمون أن المخلوقـــات قسمان : أجسام كثيفة وأرواح لطيفة ، وأن الأرواح هي المؤثرة في الأشباح ، فاللطيف هـــو الذي يحدث في الكثيف الحي كل ما يطرأ عليه ومن ذلك الفرح والحزن ، والرجاء واليأس ، والنمو والحركة ، والنور والظلمة ، والقبض والبسط ، والسمع والصمم ، والشم والخشَم [1] ، والحر والبرد ، إلى غير ذلك .

خذ مثلاً اليك :

١ً – الهواء الذي لولاه لما عاشت هذه الأحياء ، الهواء (روح) ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك (الريح) وأصلها (رِوْح) بكسر الراء ، ولأجل الكسر قلبت الواو ياء .

٢ً ـ الماء الذى منه كل شيء حي ، وهو مركب من روحين لطيفين ، وهو يكاد يكون في حـــال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ، ولكنه الى الثاني أقرب .

٣ً ـ الكهربائية ، فهي من الأرواح اللطيفة ، وناهيك بفعلها في الأشباح ،

(١) الخشم : بطلان حس الشم .

فهذه الموجودات اللطيفة التي تسمى أرواحاً ، هي التي تحدث معظم التغيير الذي نشاهده في الكون ؛

إذا تمهد هذا القول : إن الله المسخر للارواح المنبثة في الكائنات قد أرسل لسيدنا يعقوب رائحة يوسف،مع بعض المخلوقات اللطيفة كالريح فأخبر بذلك.

نحن نعلم أنه يصعب على كثير من الشبيبة العصريين الاعتقاد بأن رائحة قميص يوسف ، وهي من الأعراض قد انتقلت مع الهواء المتحرك من بلد إلى بلد آخر – يستصعبون هذا جموداً على العادات ، ولو كان لهم دليل عقلي على عدم ذلك ، لكانوا معذورين ، ولكن لا دليل لهم الا أن هذا غير معتاد ، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل ، فمنه ما يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ؛ونحن نقول:إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات، قد يكون لها سبب خفيّ ، لم يقفوا عليه ، وشم سيدنا يعقوب رائحة يوسف لا لا ينزل عن ذلك ، وإما أن يكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب الظاهرة ليست واجبة وجوباً عقلياً مضطرداً ، وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما، ويعده مستحيلاً ، لأنه لم يعرف له سبباً ، ولعل أبناء العصور السابقة ، كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر ، الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حُدّث به عقلاء الغابرين ، لعدّوه من خرافات الدجالين .

اعتبار ريح يوسف استعارة مكنية مرشحة

التوجيه الثامن ـ يقولون (نطقت الحال بكذا) ، وأن هذا استعارة مكنية، بأن شبهت الحال بإنسان ذي نطق،وحذف لفظ المشبه به وهو الانسان،ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو النطق ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة، سميت

مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الإنسان ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به وهو النطق ، قالوا : « وهذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار النطق للدلالة استعارة تصريحية تبعية » إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون « ريح يوسف » من هذا القبيل أعني استعارة مكنية مرشحة ، وتقريرها أن يقال : شبه يوسف بالغيث ، وحذف لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الريح ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به ، وهو « الريح » ، ثم هذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار « الريح » للأمَرَةِ والعلامة ، استعارة تصريحية أصلية ، وعليه فيكون المعنى : إني أجد – من الوجدان – علامة يوسف الشبيه بالغيث.

وقبل الختام نقول : من عجائب تفاوت أفهام البشر ، لأنه لا يزال الكثيرون ينكرون من أخبار الرسل ما لم يألفوا ولا يرون المعروف منها إلا ما عرفوا ، وإذا قيل لهم فيه أو مثله : إنه قد اكتشفه (المسيو) فلان ، أو (المستر) فلان ، أو (المرّ) علاّن – قبلوه مذعنين ، وقالوا : إنه الحق المبين ، مع أن علم الكيمياء ، وعلم الكهرباء ، ونحوهما من العلوم الكونية ، قد وصلت اليوم إلى درجة ، لم يعد يستغرب معها شيء من أخبار علم الغيب ، لا سيما إذا كان المخبرون أخصائيين في هذا القبيل ، مثل الأنبياء والأولياء ؛

هذا ما فتح به الفتاح الكريم ، وفوق كل ذي علم عليم .

الاحفاد ينتقدون جدهم

آ (٩٥) « قالوا : تاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القديم !!! » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والتسعون ، فقام الشيخ عبد الحق الطمومي[1] وقال :

ما كاد سيدنا يعقوب يتفوه بقوله : (إني لأجد ريح يوسف) أمام أحفاده الذين كانوا حاضرين حوله ، حتى بادروه مؤنبين منتقدين بنفس كبيرة ، وصوت جهوري ، و (قالوا) له (تالله) — التاء ههنا حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب — كأنهم تعجبوا من قول جدهم (إني لأجد ريح يوسف) ، أو من استمراره على ذكراه إياه مع طول العهد (إنك) يا جداه (لـ) مستمر حتى الآن (في ضلالك) في ذهابك عن جادة الصواب ، المعروف أنت به منذ (القديم) منذ ولادة عمنا يوسف حتى الآن؛ بسبب إفراطك لمحبته ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه ، في حين أنه قد مضى وفات ، وصار في عالم الأموات .

حقاً إنه ليدهشنا أيها السادة هذا الانتقاد بل التأنيب ، وإنا لندهش بنوع خاص ، كلما تصورنا أنه صادر من حفدة سيدنا يعقوب ، الذين لم يكونوا أقل انتقاداً عليه من أبنائه القائلين : (إن أبانا لفي ضلال مبين) بل كانوا مثل آبائهم حذو القذة بالقذة ، لأنهم تلاميذهم ، أخذوا عنهم دروس الملاحظة والنقد ، بل لعمري لقد فاتوا في القحة والبهت آباءهم من ثلاثة وجوه .

١ — الحلف باليمن الغموس ، وأما آباؤهم فإنما طعنوا طعناً خلواً من اليمين .

٢ — المواجهة ، فإن آباءهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا

---

(١) نسبة الى الطموم من البلاد المصرية .

في غيبته ، ولكن هؤلاء الأحفاد واجهوه به مواجهة ، وخاطبوه به خطاباً ، ولم يحفظوا منزلة الجدودة وكرامتها ، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهباً ، ولم يحتملوا أن يسمعوا منه رأيه الذي رأى ، قال الشاعر :

وقد أبرّك من يرضيك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستترا

٣ - تسجيلهم على جدهم بأنه عاش - مع الأسف - في ضلال مستمر معه ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق - إلى أن جاء فلسطين - إلى أن شُرّد منها - إلى مصر - إلى هذا الوقت ، أي أنه في ضلال طيلة (٣٩) سنة ، ولذلك وصفوه « بالقديم » .

عدم الرد على السفيه أوجب لامتهانه من الرد عليه

وأما جدهم فلما سمع ذلك من أحفاده ، كبر عليه انتقادهم ، وهب جسمه ، وتمرمر في داخله ، وتنهد تنهداً عميقاً ولم يجبهم بحلوة ولا مرة ، كما كان أجاب أولاده الصلبيين ، قائلاً : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون) بل اغتفر لهم حديثهم وخشونتهم ، وتغاضى عن نغمتهم الجافة اليابسة واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالغض والاحتمال ، أو كأنه سكت ولم يجبهم ، لأنه ذكر أن اعتراضهم عليه ، وإن يكن مصيبة من المصائب ، لكن لا قيمة لمصائب الحياة ، بعد مصابه الذي كان نزل به ، بفقدان يوسف ، وتسريق بنيامين ، واحتباس راوبين ، فلم يعلق جدهم أهمية على كلمتهم هذه : بل سكت ، وفي سكوته ما يغني عن الجواب ، فلعمري إن سكوته عن مجاوبتهم أوجب لامتهانهم من الرد عليهم :

قال الشاعر :

قد أفلح الساكت الصموتُ فربما كلمة تميتُ
ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوتُ

وقال :

وأبعدُ من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكلُ

وقال :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهلِ
وإن كان مثلي في محلّ من العلى سكت إذاً حلماً وصفحاً عن المثلِ
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضلِ

وقد قيل : (ما تسابّ اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الأسفل) لذا لم يجبهم جدهم على قولهم : (تالله إنك لفي ضلالك القديم) وقال (حذيفة بن بدر) لرجل : (أيَسُرُّك أن تغلب شر الناس ؟ قال نعم ، قال لن تغلبه حتى تكون شراً منه) ، وشتم رجل حكيماً ، فقال : أسكُتُ فلست أدخل في حرب ، الغالب فيها شر من المغلوب) .

ومنه نتعلم أنه لا ينبغي لنا أن نكافىء السفيه على سفهه بمثله ، فإنا إن فعلنا قضينا له على أنفسنا ، وأصبحنا شركاءه في الخلة التي ننقمها منه ، فإن كان أحدنا لا بد منتقماً ، فليكن مثلُه مثل (الأحنف بن قيس) إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جُعلاً على أن يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ، ويُلحّ في ذلك إلحاحاً محرجاً ، والأحنف ساكت ، لا يقول شيئاً ، حتى ضاق بالرجل أمره ، فانقلب إلى قومه باكياً نادماً ، يأكل إصبعه أكلا ، ويقول : (والله ما سَكَتَ عني إلا لهواني عليه) .

أحفاد يعقوب

وقبل الختام ، رُبّ سائل يسأل : إذا كان أولاده الإثنا عشر غائبين عنه : ثلاثة منهم بمصر ، وتسعة في الطريق مع العير ، فمن هم هؤلاء الناس الذين خاطبهم سيدنا يعقوب عليه السلام ؟ والجواب إنهم حفدته ، وهم أولاد أولاده ؛

فلإبنه (راوبين) أربعة أولاد ، ولابنه (شمعون) ستة أولاد ، ولابنه (لاوي) ثلاثة ، ولابنه (يهوذا) ثلاثة أيضاً ، ولابنه (دان) ولد واحد ، ولابنه (نفتالي) أربعة ولابنه (جاد) سبعة ، ولابنه (أشير) أربعة ، ولابنه (يساكر) أربعة ، ولابنه (زبولون) ثلاثة ، ولابنه (بنيامين) ستة (تك ٤٦ : ٩ – ١٨) و (السنن القويم) .

فهؤلاء الحفدة الخمسة وأربعون ، كلهم كانوا حوالي جدهم يعقوب عليه السلام بفلسطين ؛

هذا عدا الإناث ، وربما كان الإناث أيضاً ، خصوصاً بنات (ليئة) لهن دخل كبير في الانتقاد على أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام .

البشارة

آ (٩٦) « فلمَّا أنْ جاءَ البَشيرُ أَلقاهُ على وجهِهِ فارتَدَّ بصيراً ! قالَ : أَلمْ أَقلْ لكم إني أَعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمُونَ ؟ »

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والتسعون ، فقام لسان الحق الحمصي وقال :

(فلما أن جاء البشير) وهو الابن الرابع يهوذا ، حاملاً قميص أخيه يوسف الرسمي المصنوع من الكتان ، دخل خيمة أبيه يعقوب، ثم سلم ، فقال له أبوه: ما وراءك ؟ قال : « كل خير .. بشارتي عليك ، الرائد لا يكذب أهله، يوسف حيّ ») ثم أخرج القميص و (ألقاه على وجهه) على وجه أبيه يعقوب وعلى عينيه أي عرّضه لوجهه حتى رآه (فارتد) أي صار ـ لأن ارتد تأتي في اللغة العربية

فعلاً ناقصاً بمعنى صار ، فتكون من أخوات (كان) ـ (بصيراً)عالماً بالقلب ، عارفاً بما عليه يوسف ، لأنه قبل ذلك لم يكن عالماً بما لولده من جاه ومنصب.

ويجوز أن المعنى : لما جاء البشير ألقى القميص الكتان على وجه يعقوب وعلى عينيه ، فعوفي من شدة فرحه وسروره . فرجع مبصراً ، هذا إذا حملنا (القميص) على اللباس الحكومي الرسمي ، فإن حملناه على القميص المعنوي وهو المنصب على وجه الاستعارة ، كان قوله (ألقاه على وجهه) ترشيحاً للاستعارة، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، ولا يقصد منه إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار لمعنى يلائم المشبه ، كأن يقال هنا : إن معنى (ألقاه على وجهه) عرفه به ، أي ألقاه على ذاته وأحاطه به علماً ، (قال) لهم أبوهم ، بصوت التقريع واللوم ، يا بني ، لم يزل فكري عالقاً بالجملة التي كنت أرسلتها لأسماعكم (ألم أقل لكم) سابقاً (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؟) ثم ألم أقل لكم : (إني لأجد ريح يوسف ؟) ـ فمقول القول محذوف ، لأنه معلوم للمخاطبين ـ وعليه فقوله : (إني أعلم من الله ما لا تعلمون) كلام مبتدأ ، لم يقع عليه القول ، ويحتمل أن المعنى : ألم أقل لكم سابقاً (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ؟) وعليه فهو مقول القول ، وإذا جرينا على الاحتمال الأول ، وقفنا على كلمة (لكم) ، وبدأنا بقوله : إني أعلم .. الخ وإذا جرينا على الاحتمال الثاني لم يجز الوقف على كلمة (لكم) بل يجب وصل الكلام بعضه ببعض لقوة الارتباط بين القول والمقول .

(جيد)

(فلما أن جاء البشير .. الخ)

- ٢ -

وقال الشيخ إبراهيم الأزهري[١] :

وصول البشير وإلقاؤه القميص على وجه يعقوب

سبق أن أولاده الصلبيين انتقدوه حين تولى عنهم وقال : (يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن) فقالوا له : (تالله تفتأ تذكر يوسف ، حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) فقال لهم : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون) ، وسبق وما بالعهد من قدم – أنه قال : (إني لأجد ريح يوسف) فقامت أولاد أولاده عليه ، وانتقدوه على كلامه انتقاداً مراً ، وما هي إلا سويعات قليلة، حتى وصلت العير ، فاستعجلوا البشير الذي يحمل قميص يوسف وهو (يهوذا) بالذهاب والتقدم إلى أبيهم ، لينبئه برجوعهم ويبشره بحياة يوسف ومركزه الرسمي ، وفيما يعقوب جالس في خيمته إذا بالبشير (يهوذا) قد دخل عليه وهو يصيح صياح الفرح قائلا له : لتهنأ بحياة يوسف ، وإنه (عزيز مصر) و (وزير ماليتها) وهذا هو لباسه الرسمي الذي يدل على نوع رتبته في البلاط الملكي المصري !

فلم تكد تموجات هذا الصوت تدرك طبلة أذن والدهم حتى انفتح صدره ، وانتعشت آماله وحيي رجاؤه ، فأطرفه بالقميص الكتاني ، وألقاه على وجهه فأبلّ من ابيضاض عينيه الناتج عن الحزن ، فارتد بصيراً ، وبرح الخفاء ، وظهر الصبح لذي عينين ، إذ تبدل مرضه بالصحة ، وضعفه بالقوة ، وحزنه بالفرح ، وبكاؤه بالضحك ، وتبلبل أفكاره بالطمأنينة ، وانكسار قلبه بالجبران، وأسفه بالرجاء ،فارتقى نظره إلى دور السلامة كأنما في أضعاف هذا القميص جميع عقاقير

(١) نسبة الى الجامع الأزهر بالقاهرة (مصر) .

الصحة ، وكل قطرات الشفاء ، أو كأنما هو حلة من حلل الجنة ، من لبسها عوفي من كل سوء ، ومن هذا القبيل استشفاء العشاق بما يهب عليهم من جهة ارض المحبوب ، كما قال :

وإني لأستشفي بكل غمامة تهب بها من نحو أرضك ريحُ

والتعبير بارتداده بصيراً تواً عقب إلقاء القميص على وجهه ، تصوير للقارىء الكريم ، لما كان في ذلك الموقف الرهيب ، من انقلاب سريع وتطور مدهش .

وما لبس يعقوب أن قال لأبنائه وأحفاده ، بلسان الفرح أو الاحتجاج ، سامحكم الله ، يا أولادي ويا أحفادي ، ألم أقل لكم سابقاً ولاحقاً ، إني أعلم من أسرار غيب الله ما لا تعلمون ؟ وليس المخبر بالعلم كالراجم بالظنون ، فلم أكن أنطق بذلك جزافاً ، ولم أكن كالحاكي (الفونوغراف) ينقل الصوت بلا شعور ولا ارادة ، بل كنت أتكلم معكم بكلام أقصده قصداً ، وأفهم معناه جيداً ، وأشعر بمراميه ، وأتأكد اقتراب وقوع مضمونه لا محالة ، لأنني لا أتكلم إلا عن الله تعالى ، ولكني كنت أجمل لكم القول اجمالاً ، ولم أقله لكم بالتفصيل ، لأنه ما كل ما يعلم يقال ، وأما الآن فقد زالت الرغوة ، وبدا الصريح .

(فلما أن جاء البشير ... الخ)

– ٣ –

وقال لطفي باشا النابلسي :

خصائص قميص البشارة ورده بصر يعقوب

حكي أنه اجتمع في بعض الأزمنة ملوك الأقاليم ، من الصين والهند وفارس والروم ، وقالوا : (ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدوّن عنه على مدى الدهر) :

فقال ملك الصين : (أنا على ما لم أقل ، أقدر مني على رد ما قلت) .

وقال ملك الهند : (عجبت لمن يتكلم بالكلمة التي إن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أوبقته) .

وقال ملك فارس : (أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها) ؛

وقال ملك الروم (ما ندمت على ما أتكلم به قط ، وقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً) .

إذا كان الأمر هكذا ، فكم ندم أولاد يعقوب عليه السلام وأولاد أولاده على كلامهم السابق الذي أوقعهم في الخجل ، وسجّله عليهم التاريخ في باب السباب والشتائم والوقاحة ، ولهذا قال تعالى : (فلما أن جاء البشير) يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق .. يحمل على يده النبأ العظيم الذي كان يعقوب يستشرف اليه منذ (٢١) سنة ، يحمل ليعقوب السرور والغبطة والفرح والجذل ، يحمل ليعقوب الحياة الجديدة ، حياة اللقاء بعد الفرقة ، حياة ثلج الصدر بعد الحرقة ، يحمل ليعقوب نبأ أن فريسة (الذئب) هو في قيد الحياة ... يحمل ليعقوب نبأ أن العبد المملوك أصبح مالكا .. وأن نزيل الجب أصبح فوق العرش ... يحمل ليعقوب أن ابن البادية الذي كان يرعى الغنم ، قد أصبح اليوم يرعى رعية له هي أهل مصر . يحمل ليعقوب أن صاحب الأحلام ، قد آن للكواكب أن تخر له سُجّداً ، وأخيراً يحمل ليعقوب اللباس الرسمي مع الرتبة السامية الموجهة عليه من لدن الديار المصرية ، وعند ذلك ألقاه على وجه هذا الشيخ البائس، وبما في هذا (القميص) من البلاسم الشافية لجراح العيون ، ومن القطرات الممتازة المزيلة لغشاوتها البيضاء ، نشيط وأحس بحركة لا يعبر عنها إلا المجرى الكهربائي فارتد بصيراً ، لان صحة بصره شرعت تتراجع اليه ، وجعل نشاطه يدب فيه دبيباً ، وابتدأت عيناه تقبلان على الشفاء ، فما مضى أقل مدة يمكن فيها عادة الشفاء

إلا وقد عوفي وشفي ، والتعقيب في كل شيء بحسبه ، كما يقال تزوج زيد فولد له فهذه الفاء هنا مثلها في قوله تعالى : ﴿ ثم شققنا الأرضَ شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائقَ غلباً . وفاكهةً وأبّاً ﴾ (٨٠ : ٢١ –٣١) ، وقوله :﴿والذي أخرجَ المرعَى . فجعَلَهُ غثاءً أحوى﴾ (٨٧ : ٧و٨) : ﴿ أصابَها وابلٌ فآتت أكُلَها ضِعفَين ﴾ (٢ : ٢٦٥)، وقوله : ﴿ فأنزَلنا بهِ الماءَ ، فأخرجنا بهِ من كلّ الثمراتِ ﴾ (٤٣ :٥٦) وقوله ﴿ خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً ، فجعَلَه نَسَباً وصِهْراً) (٢٥ : ٥٤) .

تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه

وبهذا يكون الله قد صدّق قول يوسف : (يأتِ بصيراً) بالفعل، فيوسف من عباد الله الذين اذا أرادوا أراد ، كما أن الله أيضاً بمجيء البشير بالقميص صدّق بالفعل قول يعقوب (اني لأجد ريح يوسف) فيعقوب من الذين اذا وجدوا الشيء تلميحاً ، وجدوه فيما بعد صريحاً .

أثر المحبوب قد يسبب الشفاء والمعافاة ، لا سيما متى كان ذلك الأثر يبشر باللقاء ، كما في هذه الحادثة ، وعلى العكس ربما أن أثر المحبوب قد يسبب الغشى فالموت ، إذا كان ينذر بعدم اللقاء .

وبعد فمن غرائب التاريخ ونوادر الحوادث ، أن الذين يحملون القميص هذه المرة (القميص) الحاضر . الذي يشير الى حياة يوسف ، وقد نشأ منه سرور أبيهم ، هم الذين كانوا حملوا (القميص) الماضي ، الذي كان يشير الى موت يوسف ، وقد نشأ عنه حزن أبيهم !!...

وأخيراً أختم كلمتي هذه بالتعليقات التالية :

العلم يقر ماكان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر ارتداد بصر يعقوب بإلقاء القميص عليه

١ – أتى على الإنسان حين - وهو يعتقد أن الضياء الساطع في ظلام الليل لا يكون الا من طلعة القمر ، أو من لهب النار ، فإذا آنس تحت جناح الليل نوراً يتألق بمكان بعيد ، لم يرتب في أنه بهرة قمر ، أو شعلة نار ، فلم يشعر الا وقد انضم الى القمر والنار عنصر من عناصر الإنارة وهي (الكهرباء) فلو لم يخترع التنوير بالكهرباء ، وكان فيما نقل من معجزات الرسل انارة بعض الأجرام من غير أن تمسه نار ، لقال الذين في قلوبهم مرض ، ان الإنارة انما تنشأ عن لهب النار ولا سبيل الى تحقق الأثر ، متى فقد سببه .

٢ – زعم بعض المرتابين في المعجزات أن قطع المسافة الشاسعة ، كما بين (المسجد الحرام) الى (المسجد الأقصى) في ليلة واحدة أو بعض ليلة - أمر لا يحتمله الإمكان ، ولا يتقبله العقل ، ولكن هذا الأمر الذي كانوا يذكرونه بوصف المحال قد كشف العلم الصحيح عن امكانه ، وأخرجه للناس في جملة الكائنات المبصَّرة ، فهذه سكة الحديد التي قيل فيها :

هذا (وَبورُ البر) أكبر حجة ... ان تنكرِ الإسراءَ (للمختار)
ان كان صنع هذا العبد سيّرهُ ... فعلامَ تنكر صنعة (القهار)

بل اذا تمكن المخلوق باختراع (الطائرة) أن يجعلك تقطع المسافة القاصية في مدة وجيزة ، فماذا يكون شأن قدرة الخالق التي هي أبعد تقديراً وأحكم صنعاً ؟..

٣ كان الفلاسفة يعتقدون أن الوزن هو من خصائص ما يوصف بالخفة والثقل من الأجسام ، وقالوا : (لا نفهم لوزن الأعراض معنى يعقل) ، وما راعهم الا أن صنع بعض العلماء (ميزان الحرارة والبرودة والرطوبة والضغط

الجوي) وأراهم أن وزن الأعراض هو من قبيل الممكنات ، وأن للوزن طرقاً غير ما تعرفه الباعة في الأسواق .

٤ ــ لو كان النبي ﷺ قال : (ان هذا الماء الذي تشربونه حيوانات تذهب وتجيء) ، ولم يكن قد اخترع المنظار المكبر (ميكروسكوب) لأنكر ذلك كثيرون من ضعفاء الإيمان ، ولكن الاكتشافات الجديدة جعلت ذلك ممكناً ، بل من الحقائق الراهنة .

الى غير ذلك مما يفوقه ، ولا يأتي عليه الإحصاء ، فيجب علينا الإيمان بأنه حينما ألقي القميص على وجه يعقوب ارتد بصيراً ، فذلك ممكن ، والله قدير على كل شيء . (مرحى)

طلب الاستغفار

آ(٩٧) «قالوا : يا أَبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا إنّا كُنّا خاطِئينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والتسعون ؛ فقام فيض الله الكرمي وقال :

(قالوا) أي أبناء يعقوب بلهجة الاعتذار والتوبة ،وقد تزاحمت على وجوههم حمرة الخجل وصفرة الوجل : (يا أبانا) نعم ، قلت لنا: انك تعلم من الله ما لا نعلم ، ولكنا ـ مع الأسف ـ كنا في سبات عميق ، فأنت غير كاذب (ولا مُكذّب ، ونحن الخطأة الأثمة ، ما من ذلك بد ، وحيث اعترفنا استغفر لنا ذنوبنا انـّا كنا خاطئين) ، خاطئين أولاً بارتكابنا جرماً يستحق العقاب ، وخاطئين ثانياً بافترائنا حادثة ليس لها نصيب من الصحة ، وخاطئين ثالثاً بقطعنا

رحم أخينا ، وخاطئين رابعاً بعقوقنا لك والحاقنا بـــك الأذى والحسرة ، وخاطئين خامساً بحقارتنا لأنفسنا بتلك الأعمال الشائنة .

وبالجملة نحن حشو الخطيئة وأعضاء الجريمة والهيكل المظمي للحوب الكبير ، فتكراراً ومراراً نقول : (استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) .

(قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ... الخ)

— ٢ —

وقام ابو الخير اللدّي وقال :

أبناء يعقوب يطلبون من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم

تقدم أن أباهم قال لهم : (ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون ، فما كنت تنبأت به ما هو قد حصل) ، — قالوا : (نعم ، لك العتبى) — قال: (فإذن نحن الفريقين الآن قد تفاهمنا وانفقنا وارتفع الخلاف من بيننا) — قالوا: (يا أبانا) — قال : (قد سمعت) — قالوا (استغفر لنا ذنوبنا ، انا كنـــا خاطئين واننا لا نقدر أن نصف خجلنا منك ، وخطأنا اليك والى الله ، لما سببناه لك من البث والحزن والحسرة والأسف ، مع البكاء والسهر والفكر ، لإبعاد ابنك عنك ، وتشريده من وطنه ، نحن مدينون لك والى الله ، وقـــد خطئنا اليك والى السماء ، وأنت تعلم أننّا ما كنا في موطن منذ عقلنا الا أنّا نعرف فيه أمرنا ، غير موطننا هذا ، فكأنما هجمنا عليه متسرعين ، بدون جردٍ ، ولا إعمال روية ، وبلا نظر في العواقب ، وكأن القضاء السماوي جعلنا آيـــة لتنفيذ ذلك الأمر ، الذي رأينا عاقبته حميدة ، والحمد لله ، ولقد قيل: (النتيجة تبرر الواسطة) ، ومع كل هذا ، ورغماً عن كل ما نقول ، فنحن من حيث أننا لم نكن نقصد خيراً ، بل شراً ، نعترف بالخطأ ، نعترف بالحوب الكبير ، نعترف

بالذنوب إلى الله وإلى أبينا وأخينا ، فلا.. ولا .. وإنـّا .. وإنـّا.. » . وإليك المواد التالية على الآية الكريمة :

الشفاعة وأنواعها وحكمها

المادة ١ – اتخذوا آباءهم شفيعاً بينهم وبين ربهم ، لأن شفاعة أهل التقى لأهل التقى مشروعة مأذون فيها مرجوة الإجابة ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذ لا تنفَعُ الشفاعةُ إلاّ مَنْ أذِنَ له الرحمنُ ، ورَضِيَ له قولاً ﴾ (٢٠ : ١٠٩) ، وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ ولا يَشْفَعُون إلا لمـَن ارتَضَى ، وهم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشفِقُون ﴾ (٢١ : ٢٨) وقال تعالى : ﴿ ولا يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشفاعَة ، إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحقّ ، وهم يعلَمون ﴾ (٤٣ : ٨٦) وقال تعالى : ﴿ يومَ يقومُ الروحُ والملائكة صفاً ، لا يتكلّمون إلا مَنْ أذِنَ له الرحمنُ ، وقال صواباً ﴾ (٧٨ : ٣٦ و ٣٧) وقال تعالى: ﴿لا يَملِكون الشفاعة إلا مَنْ اتخذَ عند الرحمن عهْداً ﴾ (١٩ : ٨٨) فهذا موطن الشفاعة المثبتة ، التي شرطها الإذن للشافع ، والرضا عن المشفوع له ؛

وأما الشفاعة المنفية ، فهي شفاعة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الآلهة الباطلة ، أو كان المشفوع له من أهل الشرك أو الكفر ، فهذه لاجرم هي الشفاعة التي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ ويَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله – قُلْ : أتُنَبِّئونَ الله بما لا يَعْلَمُ في السمواتِ ولا في الأرضِ ؟!! سبحانه وتعالى عما يُشرِكون ﴾ (١٠ : ١٨)وقوله تعالى: ﴿ ويوم تقومُ الساعة يُبْلِسُ المجرِمونَ ، ولم يكنْ لهم مِنْ شرَكائِهِم شُفَعاء ، وكانوا بِشُركائِهِم كافرين ﴾ (٣٠ : ١٢ و ١٣) وقوله تعالى : ﴿ أمْ اتخَذُوا مِنْ دون الله شُفعاءَ ؟ قل : أوَلَوْ كانوا لا

لا يَملِكون شيئاً ولا يَعقِلون ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له مُلْكُ السموات والأرض ، ثم إليه تُرجَعون ﴾ (٣٩ : ٤٣ و ٤٤) وعلى ذلك تحمل باقي الآيات التي تنفي الشفاعة وذلك مثل قوله سبحانه :﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نَفْسٌ عن نفس شيئاً، ولا يُقبَلُ منها عَدلٌ ، ولا تَنْفَعُها شفاعةٌ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢: ١٢٣) وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أنفِقُوا مِمّا رزقناكم مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ ، لا بيعٌ فيه ، ولا خُلّةٌ ، ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢ : ٢٥٤) ، فبهذا يجمع بين الآيات التي ذكرت فيها الشفاعة نفياً وإثباتاً ، ويعلم أن شفاعة سيدنا يعقوب لأولاده ههنا هي من قبيل الشفاعة المثبتة ، والله تعالى أعلم .

سبب طلب الإخوة الاستغفار من أبيهم ولم يطلبوه من أخيهم

المادة ٢ – ههنا يتساءل المتسائلون : لماذا لم يطلبوا الاستغفار لأنفسهم من أخيهم ، وإنما طلبوه من أبيهم فقط ؟

وجوابنا عنه ما يلي :

لما كان سيدنا يعقوب من جهة رجل دين ، ومن جهة أخرى أباهم ، رأوه (طبعاً) أهلا لأن يسألوه الدعاء لهم ، وأما سيدنا يوسف فلما كان من جهة أخاهم الأصغر ، ومن جهة ثانية كان في نظرهم رجلا مدنياً ، وحاكماً إدارياً ، ووزيراً مالياً ، ولم يعلموا أيضاً أنه نبي – لم يطلبوا منه الاستغفار ، ولكن ذكروا له ما يَسُرّ الرجال المدنيين ، والحكام الإداريين ، من علو مراتبهم وتقدمهم على الأقران ، فقالوا له : ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ ومع أنهم لم يروه (في نظرهم) أهلا أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم ، فقد رأى هو شخصه أهلا لذلك، لأنه أعرف بنفسه منهم ، فقال : (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

مذهب السلف والطوائف الإسلامية الأخرى في النجاة والإيمان

المادة ٣ – طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم ليكونوا من الناجين ، فإن العبد لا ينجو بالإيمان فقط ، ولكن به وبترك سيىء الأعمال ، وفعل صالحها، والتوبة إلى الله تعالى ، وهذا هو مذهب (السلف) خلافاً (للمُرجِئَة) – وهم طائفة يُرجِئون الأعمال ، أي يؤخرونها ، فلا يقيمون للاعمال الصالحة وزناً في الخلاص وإن كان لها ثواب ، وإنما الخلاص بمحض الإيمان كما لا يقيمون وزناً للمعاصي في الهلاك ، وإن كان عليها عقاب ، وإنما الهلاك بالكفر فقط ، وعليه فهم يقولون: المؤمن يستحق الجنة بالإيمان فقط ، دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر ، دون بقية المعاصي ، وكأن مصدر هذا الخلاف ، الخلاف فيما هو الإيمان فالسلف الصالح يقولون : (الإيمان هو اعتقاد وقول وعمل) وهؤلاء يقولون : (الإيمان هو الكلمة والعقد ، دون الأعمال) – (والخوارج) يكفرون مرتكب الكبيرة ، لجعلهم العمل من الإيمان ، فهم بعكس المرجئة . وأما (المعتزلة) فهم يقولون في مرتكب الكبيرة أنه منزلة وسطى بين المؤمن والكافر ، وأنه يخلد في النار ، ولكن عذابه دون الكافر .

تعليل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع

المادة ٤ – رب سائل يسأل : لماذا قالوا : (ذنوبنا) بصيغة الجمع ، مع أنه ذنب واحد ؟ وجوابنا عن ذلك من ثلاثة وجوه :

١ – أنهم أتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم ، لأن كل واحد من العشرة قد اقترف الذنب ، فهو نظير : ركب القوم دوابهم ، ولبسوا عمائمهم .

٢ – لأن ذلك الذنب الواحد مُريع في الحقيقة ، باعتبار أنهم خطِئوا إلى

الله ، وإلى كل من أبيهم وأخويهم ، بل وإلى أشخاصهم وضمائرهم ، وشريعتي العقل والنقل .

٣ – إن الذي اجترموه ليس هو ذنباً واحداً ، بل هو ذنوب كثيرة : حسدوا أخاهم ، بغضوه من غير ما جرم ، ضللو أباهم ضلالاً مبيناً ، تآمروا على قتل أخيهم أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب ، وأخيراً قرروا هذه المشورة النهائية ، لعبوا على أبيهم دوراً مهماً ، نصبو أمامه الأحبولة فاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه وقالوا له : وإنا له لناصحون ، ولكن غشوه إذ وعدوا أنهم سيحفظونه ، وأخلفوا وعدهم ، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء ، ألقوه فعلاً في غيابة الجب ولم يرحموه ، وبذلك قطعوا الرحم التي بينه وبينهم ، بل والرحم التي بينهم وبين أبيهم ، عقّوا بذلك أباهم ، أحزنوا بذلك بنيامين، بكوا كذباً ، قالوا أكله الذئب كذباً ، جاؤا على قميصه بالدم كذباً ، أقر بعضهم بعضاً على الكذب كذباً ، إلى غير ذلك مما ظهر للمتأملين ، فلهذا قالوا : (استغفر لنا ذنوبنا) بصيغة الجمع ، وكان أقل هذا الجمع ثمانية .

لماذا لم يستغفروا لأنفسهم بأنفسهم

المادة ● – طلبوا الاستغفار من أبيهم لأن ذنبهم هذا لم يكن ظلماً لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى أبيهم فيكفي فيه استغفارهم لأنفسهم بأنفسهم – بل كان ظلمهم تعدى إلى إيذاء أبيهم ، من حيث أنه أب ، له وحده الحق في أن يزيد من المحبة من أولاده لأسباب جوهرية وحِكَمٍ عالية يعرفها هو ، فكان لا بد من توبتهم وندمهم على ما صدر منهم ، أن يظهروا ذلك لأبيهم ، ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه ، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم تعديهم عليه وعلى أخيهم

وأخيهم ، فان التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس ، لا تكون مقبولة ولا صحيحة ، إلا بعد استرضاء صاحب الحق .

وهناك وجه آخر في طلبهم من أبيهم الاستغفار لهم ، وهو أن مشاركة الناس بعضهم لبعض في الدعاء مسنونة ، وأن من سنته تعالى ، أن يتقبل من الجماعة ، بأسرع ما يتقبل من الواحد ، فدعاء الجماعة أرجى للإجابة ، وإن كان كل داع موعوداً بالاستجابة ،وإنما كانت المشاركة في الدعاء ، أرجى للقبول ، لأن الداعي للناس يؤدي هذه العبادة بسببهم ، أي أن ذنوبهم تكون هي السبب في شعوره وإحساسه بالحاجة إلى الله تعالى والخضوع له والاتحاد المرضي عنده ، فكأن حاجتهم حاجته ، فإذا كان يعقوب (ع) هو الداعي والمستغفر لأولاده أولئك التائبين مع استغفارهم هم ، فذلك من اشتراك قلبه الشريف مع قلوبهم بالحاجة إلى تطهير الله لهم من دنس الذنب ، وطلب النجاة من عقوبته ، وناهيك بقرب أبيهم يعقوب (ع) من ربه ، والرجاء في استجابة دعائه .

فان قلتم أين مشاركتهم لأبيهم في التوبة والاستغفار ، حتى يتم هذا التوجيه الذي ذكرته ؟ قلت طلبهم من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم مع قولهم (إنا كنا خاطئين) هو توبة واستغفار ، فمعنى كلامهم : يا أبانا ، هـا نحن أولاء نعترف بذنوبنا وخطئنا ، ونستغفر لذلك ربنا ، فشاركنا في هذا الالتجاء والخضوع ، نعم ، نحن نعلم أن الله أقرب من حبل الوريد لعباده ، لكنا نريد من هذا أن نقر لك أولاً بخطئنا معك ومع الله ، ونريد ثانيا أن يكون طلب المغفرة لنا من الخالق ، بلسان المخلوق الذي كنا قد اخطأنا اليه ،ليكون ذلك أدعى الى مغفرة الله لنا ، فان الله أكرم من كل ما سواه .

« أصوات متزاحمة من المؤتمر »

(مرحى) (قالون) (جيد) (أحسنت) (ليعيش جميع أهل اللد ، لأجل خاطرك يا أستاذ)

تسويف الاستغفار

آ (٩٨) (ــ قال : سوفَ أَستَغفِرُ لكم رَبّي ، إنّـــه هُوَ الغفورُ الرحيمْ)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الثامنة والتسعون ، فقـــام ابو الفضل الطنطاوي وقال :

سمع منهم أبوهم توبتهم وطلبهم الاستغفار فـ (قال) لهم : وإن يكن هــذا منكم إنما كان بعد حلول الدبرة،وخراب البصرة ، فلا عليكم ، أما أنا فلا موجدة في قلبي نحوكم ، لأن الأيام ، تمحو الآثام ، ولأني أب ، والأب يحن بطبعه لأولاده – على ما فيهم – ؛ هما يومان يا أبنائي ، وهما قميصان فمنذ ٢١ سنة جاءني « قميص » ينعي اليّ يوسف ، واليوم جاءني « قميص » يحمل بشرى حياتـــه وعزّه ، نعم نعم ، منذ ٢١ سنة حُمِلَ اليّ « قميص » أبكاني فابيضت عيناي ، واليوم حُمل اليّ « قميص » ردّني بصيراً ، والدنيا كلها ماضية ، والحمد لله على كل حال ، والله يغفر لي ولكم ولجميع من كان مخلوقاً من الماء والطين ، فهذا مـا كان من جهة حقي ، لا سيا وغريمكم يوسف ، غفر لكم ورضي عنكم ، فأنا إذن لا يصح لي أن أتقاعس عن مسامحتكم ، لئلا يقال: « رضي الخصمان وأبى القاضي » ، وأما من جهة حق الله تعالى فإني والله (سوف استغفر لكم ربي) أذاتكُمْ ، فهو حقيق بالمغفرة ، خليق بالرحمة (إنه هو الغفور الرحيم) وكفى ! فهو تعالى يُقيل عثرة الخاطئين ، وينهضهم من كبوتهم .

وهنا ملاحظات :

أسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده

الملاحظة الاولى – أجابهم بالتسويف والمهادة لأسباب :

١ً – ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها ، لأنه ما من شيء يفنى في الطبيعة ، وإنما الأشياء تتبدل مظاهرها .

٢ً – لحينما يذهب الى المعبد الذي كان علمه بالحجر حينما كان مسافراً من فلسطين الى العراق الى خاله « لابان » [١] ، وكان هذا المكان على غاية اثني عشر ميلاً من « القدس » وعلى الشمال منها على جبل أفرايم ، وبعبارة أوضح : هذا المكان يسمى « بيت إيل » وهو الى شرقي خط يمتد من « القدس » الى «نابلس » على بعد واحد من كلتا المدينتين ، ويسمى اليوم « بتّير » .

٣ً – لحينما يصل في طريقه لمصر الى « بئر السبع » فيدخل المعبد الذي كان بناه إبراهيم وإسحاق عليهما السلام [٢] وهناك يستغفر لهم ، لأنـه لا يرى أنسب وأقرب لاجابة الدعاء من أن يكون في المعبد الديني ، فكأنه رآى أن طِلـْبتهم هذه سابقة لمكانها ، ومكانها هو هذا المعبد ، قال أبو الطيب المتنبي :

ومِنَ الخيرِ بُطءُ سَيبكَ عَنّي أسْرَعُ السُّحبِ في المسيرِ الجهامُ

أي تـأخر عطائك عني يدل على كثرة ذلك العطاء ، لأن أسرع السحائب سيراً أقلها ماءً .

٤ً – لبعد ما يجتمع بيوسف ويراه قد صفح عنهم تماماً ، وحينئذ يكون العدل قد استوفى حقه ، ولم يبق الا حق الله تعالى ، فلا يكون بعدُ مانع من استغفار الله تعالى لهم .

---

(١) انظرتك ٢٨ : ١٠ – ١٩

(٢) انظرتك ٢١ : ٣٣ و ٣٦ : ٢٥

٥ – أخّر ذلك جرياً مع طبع الشيخوخة التي تتطلب التؤدة والتأني في سائر الأمور مطلقاً .

٦ – لحين تكون فيه الإجابة أقرب ، كما قال تعالى : ﴿ والمُستَغفِرِينَ بالأسْحارِ ﴾ (٣ ١٧) لأن النفس تكون حينئذ أصفى ، والقلب أفرغ من الشواغل ، كما نقل عن بعضهم أنه قال : « لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق في الأسحار -- ما أحببت البقاء في هذه الدار » .

٧ – شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الانسان مصراً على الذنب ، وبما أن أباهم لم يرهم في حال تدل على الإقلاع والندامة بالمرة ، بخلاف يوسف ، فإنه ربما يكون قد رآهم ، بحال تدل على الإقلاع والندامة ، إذ يجوز أن يكونوا قد خشعوا وخضعوا وبكوا أمام أخيهم يوسف ، فرآى أنه لا مانع شرعاً من أن يطلب لهم المغفرة ، ولكنهم أمام أبيهم لم يخشعوا ذلك الخشوع ولم يخضعوا ذلك الخضوع ، لأن لهم مع أبيهم حرية أكثر من حريتهم مع أخيهم « وزير المالية » و « عزيز مصر » و « وكيل الملك» فلذلك أخر أبوهم الاستغفار لهم حتى يتأكد توبتهم النصوح ، وندمهم الخالص ، لا سيما وقد سبق أنه رأى منهم الحيل ، وجرب عليهم الختل ، وأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون .

٨ – يرى بعض الناس - ولعل سيدنا يعقوب منهم – أن الوعد بالخير أفضل من إعطائه بغتة ، مثلاً : « منصور بن زياد » كلّم « يحيى بن خالد » في حاجة رجل ، فقال له : « عِده عَني قضاءَها » – فقال منصور بن زياد : « وما يدعوك إلى العِدَة مع القدرة ؟ » - فقال : « هذا قول من لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة إذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجحها لم تتحدث النفس بسرورها ، إن الوعد مَطْعَمٌ ، والإنجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام ، كمن وجد رائحته ، وتَطَعَّمه ثم طعمه ،فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها عند المُصْطَنَع حسن موقع ، ولطف محل » .

وقال بعض البلغاء : « دع الوعد يركض ثلاثـــاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل » .

هل وفّى يعقوب بوعده لأولاده بالاستغفار لهم

الملاحظة الثانية ـ سمعنا أن سيدنا يعقوب (ع) وعد أبناءه بالاستغفار، ولكن لم يبلغنا أنه استغفر لهم ربه كما وعد ، الجواب عن ذلك: إننا نتأكد يقيناً وقوع ذلك منه ، لأن وعد الحُرّ دَين ، وكما أن الله لا يخلف الميعاد ، فمظاهر أمره عليه الصلاة والسلام كذلك ، ولا يسعنا أن نعتقد في سيدنا يعقوب الا أنه كما قال أبو الطيب المتنبي :

أمضى إرادَتَه « فسوف » له «قدْ» واستقرب الأقصى « فثمّ » لهُ هنا

أو كما قال :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعـــاً مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازمُ

هجرتا يعقوب

الملاحظة الثالثة ـ نعلم من التاريخ أن يعقوب عليه السلام هاجر من فلسطين التي هي مسقط رأسه ووطنه الأصلي ـ هجرتين ، الهجرة الأولى للعراق ، وهذه كانت شخصية ، أي بشخصه فقط ، حينما كان أبوه في قيــد الحياة ، وكانت « للخوف » من شر أخيه « عيسو » وهرباً من أن يقتله ، ومدة هذه الهجرة كانت ٢٠ سنة ، والهجرة الثانية لمصر ، وهذه كانت عمومية ، بجميع الاسرة، وكانت ـ طبعاً بعد وفاة أبويه ، « إسحاق عليه السلام ، وليئة رحمهــا الله) ، وهذه الهجرة كانت لدفع ونفع ؛ أي لدفع الجوع والانتفاع بالغذاء ، وإن شئتم قلتم : كانت رَهَباً ورَغَباً ، أي رهبة من القحط ، ورغبـــة في لقاء يوسف ؛ وبعبارة أخرى : كانت هذه الهجرة كمن رمى حجراً ، فأصاب صيدين ، أو

كمن هرب من النار إلى الجنة ، أو كمن خرج من البدو إلى مملكة متمدينة أكثر من كل ممالك العالم ، ومدة هذه الهجرة (١٧) سنة ، ثم توفي عليه الصلاة والسلام

هجرة الأنبياء

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر نقول : كانت هجرة نبينا محمد ﷺ من مكة للمدينة هجرة خوف من أهل الاولى ، وأمنا عند أهل الثانيه ، وهجرة سيدنا ابراهيم كانت اضطهاد من أهل العراق ، وهكذا كانت هجرة المسيح عليه السلام من فلسطين إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وهجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ، وهجرتا لوط عليه السلام الاولى مع عمه سيدنا إبراهيم من العراق إلى فلسطين ، وهجرته الثانية من سدوم وعمورة إلى صوغر .

مخلفات سلالة ابراهيم في أرض الميعاد بعد جلائها عنها لمصر

الملاحظة الرابعة ــ قضي الامر ورحل إسرائيل بأسرته جميعاً للديار المصرية فسجل التاريخ في تلك الساعة أنه قد تم جلاء سلالة إبراهيم عليه السلام عن أرض الميعاد (سورية الطبيعية) بعدما كانوا أقاموا فيها ٢١٦ سنة شمسية، ولم يتركوا فيها وراءهم مِلْكاً ، سوى تلك المقبرة ، مغارة المكفيلة (الغار الشريف) ، في حبرون (الخليل) ، وهي تحتوي إذ ذاك خمسة قبور لإبراهيم وزوجته سارة ولإسحاق وزوجه رِفقه ، ولامرأة يعقوب ليئة ، وكان لسيدنا يعقوب (ع) قطعة حقل . مِلْكاً له في شكيم [١] (نابلس) .

هذا كل ما ملكوه في تلك السنين الكثيرة ، لانهم لم يكونوا لينظروا إلى أمور الدنيا ، ولكن كان اهتمامهم بأمور الآخرة !!

(مرحى)

(١) « تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٤ : ٣٢ » ،

الفصل الخامس

السفرة الرابعة والاخيرة لمصر

يوم اللقـاء

آ (٩٩) «... فلما دَخلوا على يُوسُفَ ، آوَى اليهِ أَبوَيْهِ ، وقالَ : ادخلوا مِصْرَ « إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ . »

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية التاسعة والتسعون ، فقام رفيق الكرام الرملي وقال :

أمر يعقوب(ع) أولاده بالتهيؤ والأخذ في معدات السفر ، تسرعاً وشوقاً للقيا ولده يوسف ، فلذلك تهيئوا وقاموا قاصدين مصر ، وما أن صاروا في حدودها ، حتى رأوا يوسف قد أمر بنصب الخيام عند هذه الحدود ، للقيا أبويه (فلما دخلوا) أي أبواه وإخوته (على يوسف) وقد أخذ مجلسه في سرداقه جالساً على عرشه ، قام فسلم على أبويه ، سلام الإبن على والديه ، ثم (آوى) أنزل وضم (اليه) في خيمته (أبويه) أباه يعقوب وأمه المجازية (بلهة) وهي مربيته وحاضنته بعد موت أمه (راحيل) وهو ابن عشر سنين ، ومن حيث كونـه استقبلهم في مضرب خارج مصر ، وقد أراد الجميع النهوض والقيام بعدما أخذوا حظهم من الراحة (قــال) لهم (ادخلوا مصر) أنتم وذراريكم (إن شاء الله آمنين) على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً ، حتى ولا من ملوك مصر ، آمنون من أن يلحقكم ضرر ما من جهتي بالجرم السالف ، لا سمح الله تعالى ، لأنني غفرت لكم ؛ آمنون من كل المكاره والخوف قاطبة من كل أحد .

(فلما دخلوا على يوسف ... الخ)

- ٢ -

وقال أبو الفيض الخليلي :

سفرة يعقوب وأسرته لمصر

كان إخوة يوسف أخبروا أباهم بما عليه يوسف ، ونفضوا له جملة حاله ، وما أوتيه من سمو ورفعة ، فأمرهم أبوهم بتحضير وسائل السفر بما يمكن من السرعة لشدة اشتياقه للقاء ولده يوسف على حد قول القائل :

حديثه أو حديث عنه يطربني　　هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا
كلاهما حسن عندي أسرُّ به　　لكن أجلاهما ما وافق النظرا

ولما هيأوا أنفسهم للرحلة من فلسطين لمصر ، ركبوا دوابهم وقد أطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً .

وداع يعقوب لفلسطين

وكأني بيعقوب لما وصل لمنتهى حدود فلسطين ومبدأ حدود القطر المصري ، وقف يودع فلسطين بما معناه .

« أنا اليوم في آخر ساعة من ساعات وجودي فيك يا فلسطين ، وأول ساعة من ساعات حلولي بالديار المصرية ، فسلام لك يا فلسطين المحبوبة ، سلام لك أيتها الأرض التي تشخب حجارتهـــا لبناً وعسلاً ، سلام لك يا مدفن إبراهيم وساراي وإسحاق ورفقة . والوداع الوداع ... الوداع . »

لقاء الشتيتين

وكان يوسف عليه السلام قـد أرسل فرساناً وحرساً لاستقبال أبيه الشيخ

وجلس هو في فسطاط أعد له ، جلس يتوقع مجيء أبيه، وهو على أحر من الجمر، وأخيراً وصلت الأسرة الإسرائيلية إلى فسحة الفسطاط ، وفي طليعتها نبي الله يعقوب عليه السلام .

ولما دخل يعقوب الفسطاط ، ووقعت العين على العين ، ولمس القلب القلب ، نظر في وجه « عزيز مصر » وتفرّس فيه ، وقال مستفهماً يوسف ؟ ... — فقال له مستفهماً أيضاً : والدي ؟ .. — قال نعم ؛ — قال : ابني ؟ .. — أبي ؟ .. قال : نعم ..ولعل الله بمثك من الموت بمعجزة لنجاتنا وسرورنا — قال: سأكون خادمكم أجمعين — فقال يعقوب : الحمدلله على انفراج الأزمة برؤية ولدي ، فاذا مت الآن فاني أتوسد التراب قرير العين ناعم البال » .

وكأني بحاضنته « بلهة » تبادلت معه عبارات التحية والسلام والشوق قائلة: « ولدي يوسف؟» .. قال: « أمي بلهة » ..؟—قالت: نعم ، قال : « أهلا وسهلا»

ولا تسل عن يعقوب وما حل به من دواعي الفرح التي أنسته جميع عوامل الحزن ، إذ نظر نظرة عوضت عليه كل أحزانـــه وبلباله ؛ والمسافر عليل ، دواؤه الوصول ؛

وهنا يحتاج القارىء إلى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة ، فانها من ساعات العمر ، إذ دخلوا على يوسف وهو على حال عظيم من الرقي والسؤدد، والتمكن في أرض مصر ، وعندئذ تمثلت له السعادة عبداً رِقّاً ، ولقد كان المشهد مشهـداً بهيجاً ، وكان الجيش والناس حوالي ذلك الحفل ، زرافات ووحداناً ، وكوكبة بعد كوكبة ، ثم قدمت لهم المرطبات والمنعشات الطيبة ، واستراحوا مـــن وعثاء السفر :

والقت عصاها واستقر بها النوى كما قـــر عيناً بالإياب المسافرُ

ولا تسل عن فرح يوسف بمجيء أبويه اليه ، ولا تسل عن ساعة اللقـــاء ما كان أحلاها ؟

ثم قال لهم يوسف : ها قد حللتم أهلا ، ووطأتم سهلا ، ادخـــل يا والدي « صوعن » العاصمة بـــل جميع الديار المصرية آمناً مطمئناً من الفراق والتهويش والتشويش،وادخلوا يا اخوان الصفا مصر . وأنتم آمنون من كل مقاومةوتكدير لأني سبق وقلت : (لا تثريب عليكم اليوم،يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

وإليك التعليقات التالية :

حال يعقوب عند رؤيته يوسف

أولاً ــ كأنك بيعقوب عليه السلام وقع بصره على ولده فبسم وبكى،وحمد ربه واشتكى ، وقال في نفسه: « أواه من الماضي ، وشكراً لله على الحاضر ». وعندي أنه لا شيء يصور حالته هذه مثل قول ابن نباتة المصري يهنيء السلطان الأفضل ، ويعزيه بوالده المؤيد :

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدّمـــا　　فمـــا عبس المحزون حتى تبسّما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع　　شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
نردُّ مجاري الدمع والبشر واضح　　كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى

مبدأ التاريخ العبراني

ثانيــاً ـ دخلوا على يوسف سنة ٢٣٩٣ ش. ق. هـ (أي سنة شمسية قبل الهجرة) واعتباراً من هذا الحين أصبح بنو إسرائيل جالية فلسطينية بمصر ، وهذا مبدأ تاريخ العبرانيين وكانت مدة إقامتهم بمصر (٢١٥ سنة) ثم بعـــده خرجوا من مصر على يـد قائدهم سيدنا موسى (سنة ٢٦٠٨ س. ق. هـ.) ثم افتتحوا بلاد« سورية » على يد قائدهم النبي يوشع بن نون عليه السلام ، ومن ذلك التاريخ اعتبروا أمة مستعمرة لبلاد كنعان وفلسطين ، التي هـــي أرض « الميعاد » حسب توراتهم .

من هي أم يوسف التي آواها اليه

ثالثاً - الكتاب الكريم يقول (آوى اليه أبويه) وإنه لمعلوم أن أباه هو سيدنا يعقوب ، ولكن من هي أمه هذه التي حضرت لمصر ؟ قيل هي أمه الحقيقية « راحيل » ، ولكن ورد في كتب المؤرخين تبعاً لسفر التكوين ، أن راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين، ودفنت على طريق إفراته « بيت لحم »، وأقام سيدنا يعقوب نصباً على قبرها، وكان موقع قبرها معروفاً لحد أيام صموئيل وشاؤل (١ صم ١٠ : ٢) وهو من الأماكن الفلسطينية ، التي يزورها اليهود والمسيحيون والمسلمون بدعوى التبرك به .. وقد زاره السائح « منددريل »(سنة ٢٣١٩ ق.هـ) ، واتفاق العموم على أن ذلك المقام هو قبر « راحيل »، لا سبيل إلى الاعتراض عليه ، لأن ما ورد في التاريخ يعضده من كل وجه .

وقيل : إن أمه التي حضرت لمصر هي « ليئة » أخت « راحيل » . لأن الخالة أم ، كما أن العم أب، وقد سمى النبي ﷺ عمه « العباس » أباه ، وقال تعالى: ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ (٢ : ١٣٣) ، ولكن ورد في التواريخ تبعاً لسفر التكوين أن « ليئة » ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر ، ودفنت في الغار الشريف .

وقيل إن المراد من أمه التي حضرت لمصر « بلهة » جارية أمه ، ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها، لا سيما أنه بعد وفاتها قد انتقل هو وأخوه بنيامين، لخيمتها ، والمربية أو الرابّة تدعى أماً ، لقيامها مقام الأم ، كما كان « هرون الرشيد » يدعو « عَبّادة » امرأة يحيى البرمكي ـ أماً له : لأنها كانت أرضعته ، وهذا هو الصحيح ، وقد ورد في الحديث ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أم أيمن أمي بعد أمي » لأن « أم أيمن » كذلك حضنته وكفلته بعد وفاة أمه السيدة « آمنة » من حين أن كان عمره ست سنين ، الى ان انتقل إلى بيت جده

« عبد المطلب » وكان ، روحي له الفداء ، يبرها مبرة الأم ، ويكثر زيارتها ، وكان عندها كولدها ، كانت رضي الله عنهـا مولاة لأم رسول الله ﷺ ، ثم صارت مولاة لرسول الله ﷺ بالميراث،وهكذا كان الحال في« بلهة » ، وكانت أولاً مولاة « لراحيل » أم يوسف ، ثم صارت مولاة لولدها يوسف بالواسطة ، أي بواسطة صيرورتها مولاة لأبيه يعقوب، حيث أن راحيل وهبتها لهليفترشها.

يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف

رابعاً ـ رحل يعقوب عليه السلاممن أرض الشام مع أنهـا أرض الميعاد ، وهي الأرض التي بارك الله فيهـا للعالمين ، حباً بولده يوسف « بجيرانها تغلوا الديار وترخص »

والجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، والمؤجر قبل المؤجر ، وأخيراً قال تعالى : « ربّ ابْنِ لي عندك بيتاً في الجنّة » (٦٦ : ١١) .

كيف قابل يوسف أبويه عند دخولهما عليه وكيف عاملهما

سادساً ـ عندنا أن يوسف قابل أبويه مقابلة تتراوح بين مراعـاة مركز الحاكمية ، ومراعاة الأدب ، ودليلنا على الشق الأول قوله تعالى : (فلما دخلوا على يوسف) فدخولهم ـ بما فيه أبواه ـ عليه في فسطاطه يشعر بأنـه لم يخرج منـه لاستقبالهم ، وكذلك قوله تعالى : (آوى اليه أبويه) يشعر أنه كان عاملهم إذ ذاك معاملة رحمـة ، معاملة راحم لمرحوم ، معاملة حاكم لمحكوم ، معاملة أمير لرعية ؛

ودليلنا على الشق الثـاني قوله تعالى (ورفع أبويه على العرش) ، يشعر أنه عامل أبويه إذ ذاك معاملة الإجلال والإكبار ، معاملة رعية لأمير ، معاملة ابن لأب ، فافهموا أسرار كتاب الله ، والسلام عليكم (مرحى)

خطبة الوئام والسلام

آ (١٠٠) « ... ورفَعَ أَبوَيهِ على العَرشِ ، وَخرُّوا له سُجَّداً ، وقال : يا أَبتِ ، هذا تأويلُ رُؤيايَ مِنْ قَبْلُ ، قد جَعَلها ربِّي حقاً ، وقد أَحسَنَ بي إذ أخرَجني مِنَ السِّجْنِ ، وجاءَ بكم مِنَ البَدْوِ ، مِنْ بَعدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي ، إنَّ ربِّي لطيفٌ لِما يشاءُ ، إنه هو العليمُ الحكيمُ . »

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المتممة للمئة ، فقام أبو الفتح الحلبي وقال:

(و) بعد أن دخل يوسف وأبواه وإخوته مصر ، وعبروا دار الحكومة ، (رفع أبويه على العرش) ليجلسا عليه معه ، ويشركهما معه في الجلوس على سرير الحكم ، سرير وكيل الملك ، وأما إخوته فقد طأطأوا رؤوسهم (وخروا له سجداً) لأنهم لم يروا أنفسهم أكبر من أن يسجدوا له ، ولم يروا يوسف وكيل الملك أصغر من أن يكون مسجوداً له ، ولأن هذا هو شكل التحية الذي كانت الرعية تؤديه للملك ، ولمن كان قريباً من منزلته كوكيله ، فهو قاعدة متبعة قديماً في مصر والصين والفرس والكلدان والهند وعند العبرانيين ، كما رواه لنا التاريخ الشرقي ، ونقله أصحاب السير والأخبار ، ثم عندئذ وقف يوسف خطيباً في أبويه وإخوته (وقال : يا أبت ، هذا) الحال الذي تراه اليوم ، في هذه الجلسة التاريخية ، هو (تأويل رؤياي من قبل) أي منذ ٢١ سنة (قد جعلها ربي حقاً) فأصبح المنام يقظة ، والحلم علماً ، والظن يقيناً والقول فعلاً ، فهذا هو «الشمس»

ـ وأشار الى أبيه ـ وهذه هي « القمر » ـ وأشار الى أمه بلهة ـ وهـــذه هي المجرّة المؤلفة من الأحد عشر كوكباً ـ وأشار الى إخوته ـ وهذا هـو الحقير المسجود له ـ وأشار الى شخصه الكريم (وقد أحسن) سبحانه وتعالى (بي) إحساناً مزدوجاً (إذ أخرجني من السجن) على الصورة التي أحب ، بريئاً ، شريفاً ، نقي الذيل ، أبيض الوجه (وجاء بكم من البدو) العراء على الصورة التي تحبون ، وكان هذا كله (من بعد أن) وقعت تلك الحادثة المتيقة ، وهي أنه قد كان ـ مع الأسف ـ أن (نزغ الشيطان) أفسد وأغرى وأثار داعية الشر (بيني وبين إخوتي) فعاضنا الله عن ذلك ، بالصفاء والمحبة والإلفة ، ولا ريب أن هذا كله بتدبير الرب (إن ربي لطيف لمـــا يشاء) اذا أراد حصول شيء ، سهل أسبابه ، ودبر له طريقة دقيقة ، فاذا هو حاصل ، وإن كـان في منتهى البعد عن الحصول (إنه هو العليم الحكيم) والعبرة بالخواتيم .

هذا هو النطق الذي قام يوسف في تلك الجلسة التاريخية وألقاه على الحاضرين، وكان يتكلم وعواطفه تتكلم معه ، وقلبه يتهلل فرحاً ، وقد وقع صوت هــذا النطق على قلب يعقوب عليه السلام وقوع الماء الزلال على قلب الظمآن .

ورفع أبويه على العرش ... الخ

– ١ –

وقام السيد فضل الله الغزي وقال :

مصداق رؤيا يوسف الثانية

ليعفني القارىء الكريم من وصف ما كان عرا سيدنا يعقوب عند تلاقيه مع ابنه يوسف ، من الغبطة والسرور ، وما كان تجدّ ليوسف حينذاك من الفرح والنشاط ، فذلك ما لا يقع في الإمكان ، ولا تنالــه قدرة كاتب ، ولا فصاحة

خطيب ولو لم يكن يعقوب نبياً ، لو لم يكن هو ذلك الثابت الوقور الرصين ، الذي لاتزعزعه حوادث الفرح والترح ـ لما احتمل لذة سماع البشري ، بسلامة ابنه وأنه وكيل ملك مصر ـ لما احتمل ذلك بدون أن يغمى عليه من الفرح والغبطة لما احتمل لذة رؤية ولده جالساً على العرش ، دون أن يغيب عن الوجود ، من شدة سروره وحبوره ـ لما احتمل سماع الخطاب التاريخي ، دون أن يملأ تلك الجلسة بكاء ، على حد « من عظم ما قد سرني أبكاني » ، وكيف لا .. وهو لا يشعر إلا وولده المحبوب قد خرج من بين انياب « الذئب » الى عرش الوزارة بمصر ـ من الغيبة الى الحضور ـ من الموت الى الحياة ـ من رعي الأغنـــام الى رعي المصريين ـ من بدو فلسطين ، الى حاضر الكنانة ـ وبالجملة من لا شيء ، الى كل شيء !!! .

أقول : عند وصول يعقوب وأبنائه الى دار الحكومة المصرية ودخولهم قاعة العرش التي فيها يوسف ، رفع يوسف أبويه على العرش الذي كان قد استوى عليه ، أي على سرير الوزارة وحاكمية الديار المصرية كعزيز لمصر ووكيل عن مليكها الريان ، وقد كانت هذه الساعة عند سيدنا يعقوب هي أهنأ ساعات العمر وأسعدها ، فغفر للدهر من أجلها جميع سيئاته عنده ، بل نسي عندها أنه ذاق شيئاً من طعم الحزن والألم ، وأما إخوة يوسف ، فقد خروا له سجداً ـ (هكذا قاله أبو حيان في بحره ، وكل من أرجع الضمير للإخوة والأبوين جميعـــا ، فقد اعتزل الفهم الصحيح) ـ خروا له سجداً ، والخنوع والذل يتمشيان في أعضائهم ، واستسلموا بين يديه بجدهم وحديدهم ، مع أنهم فيما تقدم منذ ٢١ سنة لم يكونوا راضين بما هو أقل من ذلكم جداً ، وهو أن يكونوا في المنزلة الثانية من محبة أبيهم اليهم ، خروا له سجداً ثم جلسوا محيطين به مثل إحاطة الهالة حول القمر ، جلسوا في

صمت عميق ، جلسوا وهم مأخوذون مسلوبون بما غمرهم من الخجل والحياء ، ويا ما أعظم هذا المقام الرفيع ؛ وذكر رفعه لأبويه على العرش، وخرور إخوته للسجود أمامه ، يكفينا في تصوير ما في هذا المقام من دهشه ورهبة وجلال ، وهذا مصداق رؤيا يوسف الثانية المذكورة في القرآن المجيد ، وهي سجود الأحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، كما أنه بمجيء إخوته الأحد عشر عنده ، في السفرة الثانية ، وسجودهم له حصل مصداق رؤياه الأولى ، المذكورة في سفر التكوين ، وهي أن حُزَمهم الإحدى عشرة سجدت لحُزمته ، وبهذا وهذا تم انتصاره على إخوته ، الذي هو من قبيل انتصار المحسود على حاسديه ، أو انتصار الفرد على الجماعة ، أو انتصار المشرد المطرود ، على مُشرّديه وطارديه .

وأما أبناء إخوة يوسف النجباء الكرام [١] !!. فمكثوا غير بعيد ، ينظرون لعمهم جالساً على عرشه وبجانبه أبواه ، وتحفه إخوته ساجدين لعظمته ، وعندئذ اعتقدوا أن الذي يبين درجات الناس إنما هو المجالس ، واجتماع الناس بعضهم ببعض .

وإذا ما خلا الجبان بأرض ذكر الطعن وحده والنبالا

ولا بد أنهم في هذه الحالة تذكروا قولهم لجدهم : ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ فخجلوا بينهم وبين أنفسهم ، وههنا وجد يوسف مكان القول ذا سعة ، فقام فيهم خطيباً وقال موجهاً الكلام إلى أبيه : (يا أبت الشيخ الوقور المحترم تراني لم أذهب بالخيال بعيداً ، ولا أزيدك علماً أن هذا الحال الذي وقع أمامك، هو مصداق رؤياي التي رأيتها سابقاً في صباي منذ ٢١ سنة ، وهو مصيرها ومرجعها لا أقل ولا أكثر ، وهي الرؤيا التي علقنا عليها آمالاً جساماً ، وكنا نتفاءل بها خيراً ، وكنا نقول ، ليس بكثير على الأيام أن يصبح حلمنا يقظة ، وآمالنا حقيقة راهنة ، فهاهو ذا قد جعلها ربي حقيقة واقعة ، حيث جاءت

(١) ويقصد بذلك الاستهزاء بهم .

كفلق الصبح ، أصفى من طلعة القمر ، ليس دونه سحاب ، فصدق بذلك فالنا ، وصحت أحلامنا وآمالنا ، فالحمد لله على آلائه ، وله الشكر على نعمائه ، وقد أحسن سبحانه بي إحساناً متصلاً بذاتي ممازجاً لنفسي ، إذ أخرجني من السجن سجن الظلم على الوجه الذي أحبه وتحبه ، وأرضاه وترضاه ، نقياً ، طاهر الذيل ناصع الجبين ، وجاء بكم من البداوة وشظف العيش ، لمصر التاريخية العظيمة بآثارها الخالدة ، المتمدينة المتحضرة ، زهرة ممالك العالم .. جاء بكم من البدو الذي قيل فيه : (من بدا جفا [١]) أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب لتوحشه وانفراده عن الناس ، جاء بكم من البدو إلى الحاضرة ، ذات الأنس والاجتماع ، وضروب الأشكال وأنواع المسرات ، ثم ألف بين قلوبنا من بعد أن نزغ الشيطان وأثار داعية الشر ودخل في الفساد بيني وبين إخوتي ، وقد ذاب وتلاشى هذا النزاع في الهواء ، أمام اتفاقنا ومحبتنا بعضنا لبعض ، عملاً بالوصاية السماوية ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا نِعْمةَ اللهِ عليكم ، إذ كنتم أعداءً ، فألَّفَ بين قلوبكم ، فأصبَحتُم بنِعْمَتِهِ إخواناً ﴾ (٣ : ١٠٣) ، وهذا من لطفه تعالى ، إذ أنه لطيف التدبير ، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ، ينفذ فيه مشيئته لطيف التوصل لما يريد ، بدقة ومهارة ورشاقة ، يتلطف لاستخراج الأمر الذي يريده ، وقريب منه : ﴿ وليَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرنّ بكم أحداً ﴾ (١٨ : ١٩) فمن لطفه تعالى أن سخرني لإعالة الناس في أيام السغب والمجاعة وبنوع أخص : بإعالتكم وقد بلغت أسرتكم الـ ٧٥ شخصاً ، ومن لطفه تعالى أنه أطفأ النائرة [٢] وسكن الثائرة [٣] وذهب بالعداوة بيننا ، وأبدلها بالمودة في القربى ، والرحمة مع

(١) حديث شريف .
(٢) النائرة : العداوة .
(٣) الثائرة : الغضب .

ذوي الرحم ، ومن لطفه أنه لم يحرمني منكم ، ولم يفجعكم بي ، بل حفظنا جميعاً، ثم زاد في لطفه بنا ، فنظمنا في سلك هذه الجلسة التاريخية ، وسيكون جامعاً بيننا في هذا القطر الواحد ، تحت سماء واحدة ، إلى ما شاء الله ، فليذهب الماضي بخيره وشره ، ولنسدل الستار وليأت لنا المستقبل بما نحب ، بقوة الله تعالى ،إنه هو العليم الحكيم .

هذه هي الخطبة النُورية[١] اللطيفة ، خطبة الوئام والسلام بينه وبين إخوته كانت منه في مقابلة خطبتهم (النارية)[٢]التي في (آ : ٨ — ١٠) التي كانوا ألقوها وتبادلوا فيها الآراء يوم المؤامرة على يوسف .

(أحسنت)

(ورفع أبويه على العرش .. الخ)

— ٣ —

وقال السيد نعمة الله الدمشقي الميداني[٣]:

سيقتصر بحثي في الآية الكريمة على التعليقات التالية :

(اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وتبسطه فيه في جلسة في السلام)

(١) - نرى يوسف عليه السلام قد اندفع فيخطابه الذيألقاه بحضور أهله جميعاً كالسيل المنهمر ، ورزق نشاطاً أيما نشاط ، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدى العزيز فوطيفار ، حينما قالت زليخا : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) ، فإننا رأيناه في ذلك الموقف قد اختصر القول اختصاراً ، إذ قال : (هي راودتني عن نفسي) وسكت ، فأين ذلك

(١) نسبة الى النور . (٢) نسبة الى النار .
(٣) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية) .

الانقباض والاختصار في القول ، من هذا التبسط والاندفاع فيه ؟ فهو قد أنشأ هنا خطاباً أطنب فيه أي إطناب .

ولعل السر في هذا الإطناب هو سروره وفرحه بأبيه وذويه ، والسر في اختصاره فيما سبق ، حصره وانقباضه ، لكونه كان عبداً خادماً،ويعجبني ههنا قول القائل :

فيّ انقباض وحشمة فإذا ... صادفت أهل الوفاء والكرمِ
أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما قلت غير محتشمِ

وأيضاً أين مقامه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخدوم ! وأين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم ؟ وأين مقامه وهو يتكلم بين يدي أهليه،من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه ؟ وأخيراً أين مقامه وهو صبي يافع،من مقامه وهو رجل كهل .

(مصداق قول يوسف ومصداق قول أبيه)

(٢) – يقول هنا سيدنا يوسف : (هذا تأويل رؤياي من قبل) يريد أن هذا مصداق قوله سابقاً : (إني رأيت أحد عشر كوكباً .. الخ) .

وأما مصداق قول أبيه له : (وكذلك يجتبيك ربك ..) فقد اجتباه بالنبوة والرسالة كما قال مؤمن آل فرعون :﴿ ولقد جاءَكم يوسفُ مِن قبلُ بالبيّنات فما زِلتمْ في شكٍّ مما جاءَكم به ، حتى إذا هلكَ ، قلتم : لنْ يَبعثَ اللهُ مِن بعدِه رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، وأما مصداق قوله : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) فقد أول حلمَي الساقي والخباز ، وحلمَي ملك مصر، هذا رأي الجمهور في معنى (تأويل الأحاديث) وأما على رأي البعض من أن (تاويل الأحاديث) مغازي[1] مطلق الكلام، فقد علمه مصائر جميع الكلام وأغراضه ومخارجه ومداخله ، وكل ما يرمي إليه القول سواء أكان حديث منام أو حديث يقظة،وسواء أكان كلاماًأخروياً،أو دنيوياً، سياسياً أو اجتماعياًأواقتصادياً،إلى

(١) جمع مغزى .

آخر فنون الكلام والدليل على ذلك كله أعمال يوسف الواقعة الثابتة التي قام بها في تدبير المملكة المصرية .

وأما مصداق قوله (ويتم نعمته عليك) فقد تمت بخروجه من السجن ،الى كرسي وكالة المملكة ، وأنه صار « وزير مالية مصر » و « عزيزها » وأنه كان السبب الوحيد في حياة المصريين ، حتى سماه « الريان » « صفنات فعنيح » ومعناه على ما قيل « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » والمعنى على كل من هذه التفاسير ، أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما آتاه من خزن الحنطة ، إلى زمن القحط ، ومن إتمام نعمته عليه أنه تزوج امرأة شريفة وهي « أسنات » بنت كاهن « أون » وهي قريـــة « بيت شمس » على ستة أميال من القاهرة ، وفي الشمال الشرقي منها ، وكان أبوها واسمه « فوطي فارع » من كبار رجال الدين المقدمين في نظر حكومة مصر ، وقـد رزق منها ولدان هما « منسّى » و « أفرايم » وكل هذا الذي بلغه يوسف لم يكن إلا بالعناية الإلهية ، فلذلك يعد من أمثلة إتمام نعمة الله عليه ، لا سيما متى تصورنا نبوته ورسالته ومنصبه الجليل . وأما مصداق قوله : (وعلى آل يعقوب) فقد صار بخروجهم فيما بعد من أرض السخرة والعبودية ، ثم بدخولهـم الشام أرض العز والحرية ، حيث استولوا عليها على يد موسى ، ثم على يد « يشوع بن نون » وقيض الله لهم قضاة يحكمونهم ، ثم آتاهم الله الملك ، وجعل في سلائلهـم النبوة والكتاب ، وأنزل على موسى منهم التوراة وعلى داود الزبور ، وعـــلى المسيح الإنجيل ، وفضلهم على عالمي زمانهم ، حيث كانوا موحدين ، وأما باقي أهـــل عصرهم ومواطنيهم من الأمم فكانوا وثنين .

(الإحسان يتعدى بالباء و بإلى)

(٣)　تعليقاً على قوله : (أحسن بي) الإحسان يتعدى بالباء وبإلى، فيقال أحسن إليه وأحسن به ، وكذلك أساء اليه وأساء به ، قال الشاعر : (أسيئي

بنا أو أحسني لا ملومة) ، والأول أبلغ ، لأن من أحسن به الله هو من يتصل به برّه ، وحُسن معاملته ، ويلتصق به مباشرة على مقربة منه ، وعدم انفصال عنه ، وأما من أحسن الله اليه ، فهو الذي بره ، ولو على بعد ، أو بالواسطة ، إذ هو شيء يساق اليه سوقاً ، ونظير ما هنا قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً﴾ (٢ : ٨٣) .

معنى « البدو »

(٤)– تعليقاً على كلمة (البدو) يجوز أن يكون ذلك مصدراً ، لأنه يقال : (بدا يبدو بَدْواً) إذا أقام أو نزل في البادية ، والواقع أن يعقوب وأولاده وأهله جميعاً كانوا من أهل الخيام ، من ساكني البادية غالباً ، وقد يكون ساكناً في الحاضرة مثل « قرية أربع » أو « بئر السبع » أو « سيلون » ولكن ذلك قليل ويقال للمقيم في البادية (باد) كقوله تعالى : ﴿ سواءٌ العاكِف فيه والبادِ ﴾ (٢٢ : ٢٥) وجمعه (بادُون) كما قال تعالى : ﴿ لو أنهم بادُون في الأعرابِ ﴾ (٣٣ : ٢٠) ، ويحتمل أن (البدو) هنا بمعنى البادية ، وهي خلاف الحاضرة ؛ والنسبة اليها بَدَويّ ، وههنا أتذكر قول القائل سراج الدين الورّاق موريا :

(وبي) من (البدو) كحلاء الجفون (بدت)
في قومها كمهاة بين آسادِ
فلو (بدت) لحسان (الحُضر) قمن لها
على الرؤوس وقلن : الفضل (للبادي)

فقوله : (وبي من البدو) أي البادية ، وقوله (بدت) أي ظهرت . ويقال بدا من باب سما أي ظهر ، وقوله (الحُضر) جمع حاضر أي ساكن في الحاضرة وهو كفارس وفُرْس ، وقوله (للبادي) هو موضع التورية ، ومعناه المقيم في البادية بقرينة (البدو) ومقابلته بالحُضْر ، أو معناه الظاهر بقرينة (بدت) ،

ويحتمل أيضاً أن كلمة (البدو) اسم موضع بالشام قرب (وادي القرى) كان به منزل (علي بن عبد الله بن عباس) وأولاده (رض) ، كما في (النهاية) .

معنى « النزغ » والرد على القول بأن اختلاف الأمة رحمة

(٥) — النزغ دخول في أمر لإفساده ، نزغ أفسد وأغرى ، وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري ، نزَغَ ونزَحَ ونزَقَ ونزَعَ ونسَغَ ونخَسَ ونخَرَ ونَفَرَ ونَكَزَ ووَكَزَ وهمَزَ وطعَنَ ، ألفاظ متقاربة المعنى،وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالإبرة والمهماز والرمح ، أو ما يشبه المحدد كالإصبع ، ويقال : نزع ونزغ بين الناس ؛ والمراد من نزغ الشيطان ، إثارته داعية الشر والفساد في النفس ، بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو معنويةبحيث تتقحّم بصاحبها إلى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهماز ، لتسرع في العدو، وغلب استعماله بالشر فقط ، وبناء عليه فنزغ الشيطان إفساده وإغراؤه ، وأما ما يرونه من حديث (اختلاف أمتي رحمة) فقال الحافظ السخاوي : (زعم كثير من الأئمة ، أنه لا أصل له) ، وهذا القول هو الصواب ، كيف والله تعالى يقول : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا،مِنْ بعدِ ما جاءَتْهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (٣ : ١٠٥) وكيف يقال : «الاختلاف رحمة ؟» والله يقول : ﴿ ولا يزالونَ مختلِفين إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك ﴾ (١١ : ١١٩) والثابت بالشرع والعقل والتجربة ، أن الاختلاف نقمة ، وبسببه تفرقت الكلمة وذهبت الريح والشوكة ، إلى أن وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف ، وذهب ملكنا ، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا ، تقع في قبضة الأجانب ، فلا يبالي سائر المسلمين بذلك ، فأين الوحدة والأخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟ كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف .

توجيه النزغ للشيطان

(٦) — وجّه دفة النزغ الى الشيطان ، مع أن (الكيد) إنما وقع من إخوته لطفاً منه وأدباً معهم ، وأيضاً فهو وجّه فكره للسبب الأول الأساسي، وهو الشيطان ، وأما أبوهم عليه السلام فنظر للسبب الأول ، ولمن سيتأثر منه ، فقال : فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين) .

أدب يوسف في التعبير وأمثلة من ادب تعابير القرآن

(٧) — يقول يوسف (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) ولم يقل مثلاً : من بعد أن تآمر عليّ إخوتي ، أو : من بعد أن ألقاني إخوتي في الجب ، أو : من بعد أن لعب الشيطان على إخوتي ، بل عبر بتلك الجملة الذهبية التي فاه بها أمام إخوته ، لأنها عبارة رقيقة مُعَزّية ، تنعش البائسين ولا تــذل عزة السامعين ، ولا تجرح عواطفهم ، وهذا أدب مشروع في التعبير ، ولطيف جداً وفي القرآن الكريم أمثلة عديدة كقوله : ﴿ لا تقولوا : راعِنــا ، وقولوا : انظُرنا ﴾ (٢ : ١٠٤) وهو خطاب للمؤمنين اذ نهاهم الله تعالى عن أن يقولوا للنبي ﷺ كلمة « راعِنا » لما فيها من سوء الأدب وأمرهم بكلمة أأدب وألطف منها وفيها المعنى الذي كانوا يريدونه منها وهي (انظرنا) ، ﴿ كانا يأكلان الطعامَ ﴾ (٥ : ٧٨) والكلام هنا عن المسيح عليه السلام وأمه ، وقوله عز وجل كانا يأكلان الطعام كناية عن أنهما بحاجة الى الغــذاء والى الهضم والى دفع الفضلات .. أي أنهما مفتقرين الى ما يقوم بأودهما كسائر أفراد نوعهما وجنسهما ، ففي قوله : (يأكلان الطعام) من أدب اللفظ ولطف التعبير مافيه ﴿ فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾ (٥ : ١٠٥) فالعصف المأكول كناية عن التبن الذي تأكله الدواب ثم تروثه ، وقد عبر القرآن الكريم بذلك لما فيه من الأدب والحشمة ، ﴿ خُلِقَ مِن ماءٍ دافقٍ ، يخرجُ مِنْ بين الصُلبِ والترائِب ﴾

(٨٦ : ٦ و ٧) الماء الدافق كناية عن المني ،وخروجه من بين الصلب والترائب كناية عن خروجه من مجرى التناسل،وهي من الألفاظ التي تتضمن الأدب الرفيع ﴿ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٧٤ : ٤) فتطهير الثياب كناية لطيفة عن نظافتها من النجاسات ، والكلام موجه إلى النبي ﷺ ، ﴿ وأقْرِضوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ (٧٣: ٢٠)فإقراض الله كنايةلطيفة عن أداء الزكاة إلى الفقراء ، ﴿ واهْجُرْهُم هَجْراً جميلا ﴾ (٧٣ : ١٠) فالهجر الجميل كناية لطيفة عن المخالفة والابتعاد ، ﴿ إنا خَلَقْناهم مِمّا يعلمون ﴾ (٧٢ : ٣٩) كناية عن النطفة التي يُستحى من ذكرها . ﴿ يُذَبِّحون أبناءكم ويَسْتَحْيُونَ نساءَكم ﴾ (٢: ٤٩)، فيستحيون يطلبون حَيْ المرأة ، وهو فرجها ، فعبر بكلمة « يستحيون » لما فيها من الأدب ولطف العبارة ،[١] ﴿ أُحِلَّ لكم ليلة الصيامِ الرَّفثُ إلى نسائكم ... فالآنَ

معنى استحياء النساء في قوله (يستحيون نسائكم)

(١) وههنا سأل بعض أعضاء المؤتمر الرئيس أن يوضح لهم يبسط هذا البحث ، وهو بحث « استحياء النساء » الذي جاء في الآية فقال : « يستحيون نساءكم » معناه : يطلبون « حيهم » وهو فرج الآدمية ، كما أن « الحيا » فرج الحيوان من ذوات الخلف والظلاف والسباع، ويترجح هذا المعنى في الاية بأمور سبعة :

١ ـ لو كان المقصود من قوله : « يستحيون نساءكم » يستبقوهن ، لكان يستغنى عنه بالاقتصار على ذكر تذبيح الأبناء ،

٢ ـ نسمع ربنا سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٢ : ٤٩) ، ولا ريب أنه أراد من البلاء مجموع الأمرين : تذبيح الأبناء ، واستحياء النساء ، وما هذا البلاء البلاء العظيم في استبقاء النساء ؟ لعمري انه نصف رحمة بأهلهن ، ورحمة كاملة بنفس هؤلاء النساء المستبقيات ، فما ذاك الا أن لاستحياء هؤلاء النساء معنى آخر به يكون استحياؤهن بلاء عظيماً ، وما ذاك الى المعنى الذي ذهبنا اليه .

٣ ـ لو كان المراد من الاستحياء ، الاستبقاء ، لعبر بقوله : « يحيون » لأنه أخصر ، كما قال : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٥ : ٣٥) .
←

باشروهُنَّ ، وابْتَغوا ما كَتَبَ اللهُ لكم ﴾(٢:١٨٧)،في هذه الآية ثلاث لطائف: الأولى هي أن أصل «الرفث» الفحش في الكلام ، وأراد منه الوقاع، والثانية أصل «المباشرة» مماسة ظاهر البشرة أي الجلد ، والمراد منه أيضاً الوقاع، الثالثة،يريد

→

٤ – لو كان الغرض من الاستحياء الاستبقاء ، لعبر « بالبنات » بدل تعبيره بالنساء ، الذي يغلب استعماله في المرأة الكبيرة ، موافقةللواقع ، لأن المصريينما كانو يستبقون النساء الكبيرات بل البنات الصغيرات ، كما أن اليهود بمصر ما كانوا يستسهلون تمكين المصريين من بناتهم ، ولكن بنسائهم فقط ، لأنهم تعلموا استسهاله من أصولهم - على ذمة التوراة - وعلى هذا فيشبهأن يكون في الاية الكريمة ، استخدام مذهب ابن مالك ، وهو أن يطلق لفظ له معنيان ، محفوف بقرينتين ، فالسابقة تتطلب أحد المعنيين ، واللاحقة تتطلب المعنى الثاني ، فهذا اللفظ هنا هو « يستحيي » يحتمل أن يراد به : يستبقي بقرينة قوله سابقاً « يذبح » ويحتمل أن يراد منه : يطلب « حي » المرأة بالزنى ، بقرينة قوله لاحقاً : « نساءكم » .

٥ – الزنا هو لزيم التوثن ، كما يعرف تماماً بمراجعة كتب التاريخ القديمة، لا سيما أسفار التوراة وتاريخ الكلدان وآشور ، وغيرهما من الكتب التي تحكي حوادث الأمم الوثنية العتيقة وانه لأمر معلوم أن المصريين وثنيون . ومثلهم الاسرائيليون بمصر في ذاك التاريخ ، فلا بد أن تكون وثنية الطرفين قد أوقعتهم في شبكة الزنا ، لان الزنا والشرك أخوان، كما هو المعروف عند جميع الوثنيين ، حتى وثنيي العرب والهند ، وحتى أهل الصين واليابان لليوم .

٦ – هذه القصة ذكرت في القرآن في ستة مواضع ، ولم يأت في موضع واحد منها لفظ: يحييون أو يحيي أو نحيي أو استحيوا ، فلو كان المراد الاستبقاء ، لكان عبر - ولو في محل واحد من هذه المحال الستة – بدون سين وتاء طلباً لتنشيط القارىء والسامع والكاتب ، بالتبدلات والتغيرات في اللفظ ، كما هو عادة القرآن .

٧ سنة القرآن باطراد ، أنه متى أراد المعنى المقابل للاماتة ، أن يعبر عنه « بأحيا » ، بدون سين وتاء ، كما أن سنته المطردة ، أن يقابل تذبيح أو تقتيل أبناء اليهود بمصر ، بمادة « الاستحياء » أي بالسين والتاء دائماً ، فلم هذا الاختلاف المطرد يا عجبا ؟ ! اذا لم يكن لنكتة ، وتلك النكتة هي ما فهمناه ؟

هذا بسط القول في هذا البحث الذي ذكرناه استطرادا وجواباً لسؤال السائل، والله أعلم . أه

رئيس المؤتمر

بقوله : ﴿ وابتَغُوا ما كَتَب الله لكم ﴾ (٢ : ١٨٧) المواقعة في ... ، لا في.. لأن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من النسل ، إنما يكون بالمواقعة الأولى ؛ ﴿ ولكنْ لا تُواعِدوهُنّ سِرّاً ﴾ (٢ : ٢٣٥) والسر هنا كناية لطيفة عن النكاح ، ﴿ وإن طَلَّقتُموهُنّ منْ قبلِ أنْ تَمَسّوهُنّ ﴾ (٢ : ٢٣٧) المس هنا كناية عن النكاح ، وهي من ألطف وآدب الكنايات. يقول القرآن الكريم عن التابوت حين أتي به من عند الفلسطينين لموقع بني إسرائيل ﴿ تحمله الملائكةُ ﴾ (٢ : ٢٤٨) وهذا التعبير أأدب وألطف من عبارة (تحمله البقر) التي عبرت عنه توراة اليهود ، ﴿ فإنْ تولوا فإنّ اللهَ عليمٌ بالمفسِدين ﴾ (٣ : ٦٣) ولم يقل فإن الله بفسادكم عليم ، ﴿ فالصالحاتُ ، قانتاتٌ حافظاتٌ لِلغَيْبِ بما حفِظَ اللهُ ﴾ (٤ : ٣٣) فالغيب هنا هو ما يستحى من إظهاره ، أي حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين ، ومنه ما يكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوة ، ولا سيما حديث الرفث ، فما بالك بحفظ العرض ، فهذه الكناية من دقائق كنايات النزاهة ، تقرؤها فرائد العذارى جهراً ، ويفهمن ما تومي اليه مما يكون سراً ، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق ، ﴿ واللذانِ يأتيانِها منكم فآذُوهما ، فإن تابا وأصلَحا فأعرِضوا عنهما ﴾ (٤ : ١٥) هو كناية في غاية الحشمة عن اللواطة ، بقابلة قوله قبله ﴿واللاتي يأتِينَ الفاحِشة من نسائِكم .. الخ ﴾ (٤ : ١٤) الذي هو عبارة عن السحاق ، ﴿ وكيف تأخذونَهُ ، وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ ﴾ (٤ : ٢٠) يقال أفضى إليه بسره ، وأفضى إلى امرأته باشرها ، وهو كناية لطيفة عن الوقاع ، أو معناه ، خلص بعضكم إلى بعض ذلك الخلوص الخاص بالزوجين ، واتصل بعضكم ببعض ذلك الاتصال الذي يكون في الخلوة ، وهذا من حسن نزاهة القرآن في التعبير وأدبه العالي في الخطاب ، ﴿ وبالوالدينِ احساناً وبذي

القُرْبى واليَتَامى والمساكِين والجارِ ذي القُربى والجارِ الجُنُبِ ، والصاحب بالجَنْبِ وابنِ السبيل ﴾ (٤ : ٣٥) فالسبيل الطريق ، وليس للطريق ابن ، فهو كناية عن «اللقيط» لأن اللقيط حيث لم يعلم له أب ينسب اليه ، نسب للطريق الذي وجد فيه ؛ ﴿ ذلكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ منكم ﴾ (٤ : ٢٤) العنت بحسب الأصل الشقة والفساد ، وهو هنا كناية عن الزنى ، ﴿ أوْ جاءَ أحَدُكم من الغائِطِ أو لامَسْتُمُ النساءَ ﴾ (٤ : ٢٤) فالمجيء الإتيان والغائط هو المكان المنخفض من الأرض كالوادي والجورة ، هذا هو حقيقة الكلام ، ولكن هو كناية عن قضاء الحاجة ، وخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وعبر عنه بذلك كناية كما هي سنة القرآن في النزاهة بالكناية عما لا يحسن التصريح به ، وسبب هذه الكناية أن أهل البوادي والقرى ، بل جميع المسلمين وقت نزول الآية لم يكن لهم مراحيض ، بل كانوا يقصدون بحاجتهم الأماكن المنخفضة لأجل الستر والاستخفاء عن الأبصار ، وكذلك قوله : (أو لامستم النساء) هو كناية لطيفة عن الوقاع ، ﴿ إنَّ الذينَ يَرْمُونَ المحصَنات الغافلات المؤمناتِ ، لُعِنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ (٢٤ : ٢٣) ، فهذا «الرمي» كناية لطيفة عن القذف بالزنا ، ﴿أتأتونَ الذّكرانَ منَ العالمين؟﴾ (٣٦ : ١٦٥) فالإتيان كناية عن اللواطة ، ويوجد في كتاب الله تعالى من اللطيفة ما لا يحصى ، كما ويوجد في الحديث الشريف وفي كلام الأدباء وحكاياتهم ما يشبه ذلك ، وفيما ألقيته على مسامعكم الكفاية .

عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية

(٨) – تعليقاً على قوله : (وجاء بكم من البَدْوِ) إذا اعتبر يوسف بجيء أبويه وإخوته من عيشة البداوة إلى عيشة الحضارة ، ذات الأنس والحبور والحياة الاجتماعية والسرور ، إحساناً به ، هذا وإن الدين لا يمنع من العناية بذلك ﴿قل مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لِعبادِهِ ، والطيباتِ مِنَ الرزق ؟ قل هي

للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ، خالصةً يومَ القيامة ﴾ (٧ : ٣١) ، وإذا كان الله يقول : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرضِ جميعاً ﴾ (٢ : ٢٩) فهل المسلم خارج عن دائرة هؤلاء المخاطبين ؟ وإذا كان الله يمتن على عباده بالظلال والكهوف والثياب التي تستر العورة كما قال : ﴿ واللهُ جعل لكم مِمّا خلق ظِلالاً ، وجعلَ لكم مِنَ الجبال أكْناناً ، وجعلَ لكم سرابيلَ تَقيكم الحر ﴾ (١٦ : ٨١) فكم تكون منته عليهم إذا سكنوا في المدن ، وتمتعوا بما فيها من مرافق الحياة؟. وإذا كان الله قد امتن على أهل البوادي بجمال الحيوانات كما قال : ﴿ ولكم فيها جمالٌ ، حين تريحونَ ، وحينَ تَسرحونَ ﴾ (١٦ : ٦) فكم تكون منته على الناس بما حوته المدن من مظاهر السرور ، ومجالي شرح القلوب ؟..

نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني

(٩) — تعليقاً على قوله تعالى : (ورفع أبويه على العرش) وبذلك وأمثاله نال يعقوب شرفاً دنيوياً ، وفخراً زمنياً ، عطفاً على شرف نبوتـــه ، وفخر رسالته ، فكان حاله مع ابنه كحال « أبي الصقر » مع « شيبان » في قول ابن الرومي يمدح أبا الصقر الشيباني وزير المعتمد العباسي :

قالوا : « أبو الصقر » من « شيبان » قُلت لهم
كلا ، لعمري ، ولكن منه شيبانُ
كم من أب قـــد عـــلا بابن له شرفاً
كما علت برســول الله « عدنانُ »

مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح
(حسب رأي الإنجيل) لامه

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أدب يوسف عليه السلام مع أبويه ، إذ اعتـــبر

حاضنته كأم ، وأعطاها واجبات الأم الحقيقة ، ورفعها مع أبيه نبي الله على العرش ، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ، كلهم يقومون بواجباتهم نحو ربهم ، ثم نحو آبائهم وأمهاتهم ، وأمثلهم في هذا الأدب ، سيدنا المسيح عيسى عليه السلام خلافاً للنصارى الذين ينسبون له عدم احترامه لأمه ، وإهانتها مراراً أمام الناس إذ مرة جاءته تطلب منه مساعدة أهل العرس في « قانا » ، فقال لها أمام الحاضرين والحاضرات : (مالي ولك يا امرأة) (يو ٢ : ٤) فرجعت بالطبع مكسورة الخاطر ، كسيفة « البال » ويا أسفاه ! ويقولون : « فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً – أي عند الصليب – قال لأمه : يا امرأة ، هو ذا ابنك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا أمك » (يو ١٩ : ٢٦) ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من قلة الأدب – حاشا سيدنا المسيح من ذلك ، إذ ناداها بقوله : « يا امرأة » ، كأنها أجنبية منه ، وكأن القواميس ضاقت عليه ، حتى أنه لم يجد فيها سوى كلمة « يا امرأة » التي تشعر بالجفاء واليبس ، ويقولون : فيما هو يكلم الجموع ، إذ أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً ، طالبين اليه أن يكلموه ، فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ؟ ومن هم إخوتي ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات ، هو أخي وأختي وأمي » (مت ١٢ : ٤٦ – ٥٠) ، فقابل أعمال المسيح عليه السلام هذه مع أمه على ما في الأناجيل بقول القرآن الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنا الإنسان بوالديه ، حَمَلَتْهُ أمهُ وهْناً على وهْنٍ ، وفصالُه في عامَين : أن اشكُرْ لي ولوالِدَيْكَ ، إليّ المصير ، وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشركَ بي ما ليسَ لك به عِلْمٌ ، فلا تُطِعْهما ، وصاحِبْهُما في الدنيا مَعْروفاً ، واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليّ ، ثمّ إليّ مَرجِعُكم ، فأنَبِّئكمْ بما كنتم تعملون ﴾ (٣١ : ١٤ و ١٥) ، وقوله : ﴿ وقضَى ربك أنْ لا تعبُدوا إلا إيّاه ، وبالوالدين إحساناً – إلى قوله – فلا تَقلْ لهما : أفٍ ، ولا تَنْهرْهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلّ من الرحمةِ ، وقل ربّ ارحمْهما كما ربّياني صغيراً ﴾

(١٧ : ٢٣ و ٢٤) ، والقرآن الشريف ، قد كذب الأناجيل في هذه الدعوى أيضاً حيث نقل عن المسيح أنه قال : ﴿ وَبَرّاً بوالدتي ولمْ يَجْعَلْني جبـاراً شقياً ﴾ (١٩ : ٣٢) ، أي لم يكن عاقاً لها ولا قاسياً عليها ، ولا على غيرها ، بخلاف ما يفهم من الأناجيل ، فأين حسن معاملة يوسف مع « بلهة » مربيته ، التي لما اعتبرها كأم له ، رفعها مع أبيه على العرش - من معاملة المسيح لأمـه الحقيقية ؟ على ذمة تلك الأناجيل ، ولكنا نبرأ إلى الله تعالى من مطاعنهم هذه ولا نعتقد إلا بما ورد في القرآن من أنه لم يكن عاقاً لها ولا عديم الاحترام ولا قاسياً ولكنه كان باراً لها ، ومطيعاً لها .

ذكريات يعقوب ويوسف وإخوته بعدما ألقى يوسف خطاب الوئام

(١٠)- نخال أنه بعد ما خرّ له إخوته سجداً ، ساد السكوت في تلك الجلسة الرهيبه ، لا يبدأ أحد بكلام ، حتى لقد يحاذر أحدهم إذا فاجأه السعال أن يتنحنح ؛

هم صامتون ، والقلوب تتناجى وتتفاهم ، وضرباتها أصوات حية ، تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح ، واستغرقوا في ذكريات الزمن الماضي وحوادثه ، فتمثلت لكل فريق حاله كما هي ، فأما إخوة يوسف فتذكروا حسدهم لأخيهم ، فمؤامرتهم عليه ، وما زالت تتسلل الأفكار في ذهنهم ، حتى الساعة التي حضروا فيها الآن جميعاً بأهليهم بين يديه ،

وأما يعقوب عليه السلام فأخذ يتذكر جميع ما جرى له منذ المنـام الذي قصه عليه يوسف ، إلى لقائه إياه وهو حي ، بل وهو « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » . والحاكم على نهر النيل بالوكالة عن الملك الريان .

وأما يوسف فقد تمثلت له حاله في تلك الجلسة كما هي ، فتذكر ما مرّ به من الأهوال منذ حداثته ، حتى وصوله إلى هذه الجلسة وسجود إخوته له ، فترك من هذه الذكريات ما لا ينبغي ذكره ، فقام ملخصاً الباقي في هذا النطق الذي ألقاه كخطيب مفوه .

(١١) – سمعنا يوسف يتكلم ويخطب ويأتي بالشيء الكثير ، وأما أبوه ، فلم نسمع منه حين اللقاء ، كلمة واحدة ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب قول العامري عاشق ليلى :

وإني لينسيني لقاؤكِ كلما لقيتك يوماً أن أبثكِ ما بيا

معنى السجود والخرور وحكمهما في الدين

(١٢) – حمل بعضهم السجود هنا على أعظم مظاهره ، وهو وضع الجبهة على التراب ، ولا بأس بهذا المعنى هنا ، بل هو من الحسن ، بمكان ، وقد كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس ، من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير ؛

نعم . نعم ، نعلم من مراجعة « أسفار العهدين ، القديم والجديد » والكتب التاريخية القديمة أن السجود للمخلوق ، بدون أن يتضمن شعوراً دينياً عبادياً ، كان جائزاً في الأديان السابقة ، منذ عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد السيد المسيح ، وأما السجود الذي يقصد به العبادة ، فهو عندهم غير جائز ، لأنه عمل وثني ، ولكن دين الإسلام يمنع السجود لغير الله مطلقاً ، سواء أكان عبادياً أو احترامياً احتياطاً وتحفظاً .

وحمل بعضهم هذا السجود على معنى آخر ، وهو التطامن والخضوع والانقياد كما هو معناه لغة ، ويكفي في الخرور أن يكونوا قد تطامنوا نحو الأرض ، كما يفعله بعض متمدني أهل اليوم ، عندما يريدون تعظيم انسان ذي مقام عال .

ولما كان المقام يقتضي البسطة في الكلام نقول : قد يتجوز بالسجود عن

الانقياد لقدرة الله وإرادته ، وله أمثلة ، أحدها قوله تعالى : ﴿ ولله يسجُدُ مَن في السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً ، وظِلالهم بالغُدُوّ والآصال ﴾ (١٣ : ١٦) ، يصح أن يحمل هذا كله على السجود المجازي ، وأن يحمل في حق العقلاء على السجود الحقيقي ، وفي حق الظلال على السجود المجازي ويكون فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز .

ثانيها قوله تعالى : - ﴿ ولله يَسجُدُ ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكةُ ﴾ (١٦ : ٤٩) .

ثالثها - قوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أنّ الله يسجُد له منْ في السموات ومَنْ في الأرض ، والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ مِنَ الناس ، وكثيرٌ حَقّ عليه العذابُ ﴾ (٢٢ : ١٨) ، وهذا إن حملته على السجود المجازي في الجمع صح ، لأن الكل منقادون لقدرته وإرادته وإن حملته على السجود الحقيقي فيمن يعقل وعلى المجازي فيما لا يعقل ، كنت جامعاً بين حقيقة شرعية ومجاز لغوي ، كما قرره « عز الدين بن عبد السلام » فههنا في هذه السورة يجوز أن يحمل السجود من إخوة يوسف على المعنى الحقيقي الشرعي ، وهو وضع الجبهة على الأرض لأنه كان جائزاً في شريعتهم ، وأن يحمل على السجود اللغوي ، وهو الإنقياد والطاعة ، ولا ينافي قوله : « وخروا » ، لأن الخرور ، لا يجب أن يكون معناه دائماً النزول من علو إلى سفل ، بل قد يستعمل في مطلق السقوط وقد يطلق على الاسترخاء ، كما نبه على كل ذلك في القاموس ، وقال في التاج ، يقال : خرّ ، إذا عثر بعد استقامة ، وفي التنزيل : ﴿ وخَرّ راكعاً وأنابَ ﴾ (٣٨ : ١٤) ، وفي الأساس ، يقال : « شجرة ساجدة : مائلة والسفينة تسجد للرياح : تطيعها وتميل بميلها ، وسجد البعير : طمأن رأسه لراكبه » فالخرور لا يقتضي السجود بوضع الجبهة على الأرض ، بل قد يستعمل

فيما قد يصل به الإنسان إلى حالة الركوع ، ولذلك نرى أبا حنيفة وأصحابه استشهدوا بهذه الآية في سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود ، وأما قوله : ﴿ إنّ الذينَ أوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ، إذا يُتْلى عليهم ، يَخِرّون للأذقانِ سُجّداً ، ويقولون : سُبحانَ رَبِّنا ، إن كان وعْدُ رَبِّنا لَمَفْعولا ؛ ويَخِرّون للأذقانِ يبكونَ ، ويَزيدُهم خُشوعاً ﴾ (١٧ : ١٠٧ — ١٠٩) فلا يجب فيه أن يكون السجود وضع الجبهة على الأرض ، بل يجوز أن يكون معنى السجود الخضوع والانحناء بالرأس للأذقان ، فقوله : « ويخرُّون للأذقان » أي يسترخون وينحنون لجهة الأذقان ، يفيدنا أن الخرور وقع منهم مرتين ، مرة في بدء سماع تلاوته عليهم ، قبل قولهم : (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وأخرى في أثناء تلاوته عليهم بعد هذا القول ، ولكن كانوا في هذه المرة الثانية يبكون لقوة ما اعتراهم من الخشوع .

البدو وسكناهم وشهادتهم

١٣ – في الحديث الشريف : (ساكن الكفور كساكن القبور)، وسكنى البدو تعد أنزل جداً من سكنى القرى ، بَلْهَ المدن ، حتى أنه كان في الإسلام من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من البدو ، من غير عذر ، يعدّونه كالمرتد ، فكان يحرم على المهاجر تركه هجرته ، ورجوعه للبادية ، ويعدّ ارتداد المهاجر أعرابياً من الكبائر ، ولكن كل هذا كان قبل فتح مكة ، فلما كان الفتح سقط فرض الهجرة ، وصارت السكنى في البدو جائزة ، إنما مع الكراهة ، وذلك لما فيها من البعد عن العلم والدين والنور ، ففي الحديث « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » ، فكرّه شهادة البدوي ، لما فيها من الجفاء في الدين ، والجهالة

بأحكام الشرع ، ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ، وإليه ذهب مالك ، والناس على خلافه . (أحسنت أحسنت)

حسن الختام

آ (١٠١) رَبِّ ! قد آتيْتَني مِنَ المُلْكِ ، وَعَلَّمتَني مِنْ تأويلِ الأَحاديثِ فاطِرَ السموات والأرضِ ، أَنتَ وَليِّي في الدنيا والآخرة ، تَوَفَّني مُسْلِماً ، وأَلحِقْني بالصالحين » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة والواحدة ، فقام السيد الفراتي وقال :

قال يوسف مخاطباً الباري عز وجل (ربِّ) كم أنا مدين لك ، حيث (قد آتيتني) حظاً (من الملك) بمصر في مملكة مليكها « الريان »(وعلمتني من تأويل الأحاديث) أحاديث المنام ، وأحاديث اليقظة ، يا (فاطر) يا خالق على غير مثال سبق (السموات والأرض) - والفطر هنا الاختراع والابتداء، وبابه نصر قال ابن عباس رضي الله عنه : « كنت لا أدري ما فاطر السموات ؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأتها » — (أنت وليي) متولي أموري (في) داريّ (الدنيا والآخرة) أوفي أولى أحوالي وأخراها (توفني مسلماً) فللآخرة خير للعبد من الأولى (وألحقني)عند نزول الحِمام بي (بالصالحين) في الملأ الأعلى وكفى ، فلست أسألك بعد ذلك شيئاً مع علمي بدوام افتقاري إليك .

(رب قد آتيتني من الملك ... الخ)

- ١ -

وقال السيد الطرابلسي :

تحدث يوسف بنعمة الله تعالى وترجيه أن تكون خاتمة حياته حسنة

نظراً لوجوب التحدث بنعمة الله تعالى ، ونظراً لكونه قد تم ليوسف كل شيء أراده ، ونظراً لقول القائل :

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالاً إذ قيل : « تَمّ »

ونظراً لأن الإنسان مهما عاش فهو ميت – نظراً لذلك كله ، انتقل يوسف من خطابه العظيم الذي ألقاه ، إلى بيان ما أنعم الله عليه ، كما انتقل من تذكر الدنيا لتذكر الآخرة ، ومن تصور حال الحياة ، لتصور حال الموت ، فقال يخاطب ربه : يا رب كم أنا مدين لك ، ومعترف لك بالجميل ؟ حيث أنا اليوم غيري بالأمس ، أنا اليوم وزير مالية ، وعزيز مصر ، ووكيل عن مليكها ، بعد ما كنت سجيناً ، مع أصحاب الجرائم ، ثم زد على ذلك أنك علمتني من تأويل أحاديث المنام وأحاديث اليقظة ، لا فرق فيها بين أن تكون دينية ، سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، وأن تكون أحاديث أخروية كالتي في صحف جدي إبراهيم وغيرها ، يا خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وأنت متولي أموري وقابض على زمام أحوالي في دارَي الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً لأني أرى أن السعادة أضَنّ بنفسها من أن تستقر زمناً طويلاً في مكان واحد ، وأن نَفَس المرء خطاه إلى أجله ، وما أسرع زوال هذه الدنيا وزخرفها ؟ وما أوشك بهجة الجمال ، بالفناء والاضمحلال ؛ وألحقني عندما تتوفني بالصالحين لأنتفع

بالموت على الإسلام ، وبصلاحي في يوم لا يكون معي فيه شيء من هـذا الملك وهذا العلم ، ألحقني بالذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وعلى الدنيا السلام ، توفني مسلماً لأفوز «بجواز الدخول» إلى الجنة ، وألحقني بالصالحين لأحصل على « بطاقة الجلوس » في المقصورة العليا معهم .

ونعلق على الآية المذكورة بالمواد التالية :

أنواع الأدعية في القرآن

المادة ١ – نقرأ في القرآن المجيد ، فنرى أدعية منوعة لأنواع كثيرة، فمنها:

١ – ثناء فدعاء – وذلك كسورة الفاتحة ، نصفها الأول ثناء ونصفها الثاني دعاء ، وكقول سيدنا إبراهيم : ﴿ الذي خَلَقَني فهو يَهْدينِ ، والذي هو يُطْعمني ويَسْقينِ ، وإذا مَرِضتُ فهو يَشفينِ ، والذي يُميتُني ثم يُحيينِ ، والذي أطمعُ أنْ يَغفِرَ ليَ خَطيئتي يومَ الدينِ ، رب هبْ لي حُكماً وألحقني بالصالحين واجعلْ لي لسانَ صِدقٍ في الآخرين ، واجعلني من وَرَثةِ جنةِ النعيمِ ، واغفرْ لأبي إنه كان من الضالين ، ولا تُخزني يومَ يُبعثون ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون ، إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ ﴾ (٢٦ : ٧٨ – ٨٩) .

٢ – دعاء فثناء – وإليك بعض أمثلته : دعاء سيدينا إبراهيم وإسماعيل : ﴿ ربَّنا تَقَبل منا ، إنك أنت السميع العليمُ ، ربَّنا واجْعَلنا مُسلمين لكَ ، ومِنْ ذريتنا أمّةً مُسلمةً لك ، وأرِنا مناسِكنا ، وتُب علينا ، إنك أنتَ التوابُ الرحيم ، رَبّنا وابْعَثْ فيهم رسولاً منهم يَتْلو عليهم آياتك ، ويُعلّمُهُمُ الكتابَ والحكمة ويُزَكّيهم ، إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٢ : ١٢٧ – ١٢٩) ، ودعاء الراسخين في العلم . ﴿ رَبَّنا ، لا تُزغْ قُلوبنا بعد إذْ هَدَيْتَنا ، وَهبْ لنا مِنْ لدنك رحمة ، إنَّك أنتَ الوهابُ ﴾ (٣ : ٨) ،

ودعاء سيدنا زكريا : ﴿ ربِّ ، هبْ لي منك ذُرية ً طيبة ً، إنك سميعُ الدعاء ﴾ (٣ : ٣٨) ، ودعاء المسيح عليه السلام ﴿ اللهمَّ ربَّنا أنزلْ علينا مائدة من السماء ، تكونُ لنا « عيداً » لأوَّلنا وآخرنا ، وآية ً منك ، وارزُقنا ، وأنتَ خيرُ الرازقين ﴾ (٥ : ١١٧) دعا به أيام « عيد » ميلاد « هيرودس » حين كان المسيح في الصحراء وكان معه جمع كثير جاءوا فأتي له بأرغفة وسمكتين فرفع نظره نحو السماء ودعا الله بالبركة وكسر الأرغفة وأمر أن يأكل هذا الجمع الكبير ، فأكلوا وزاد عنهم اثنتا عشرة قفة ، وكانت إحدى معجزاته الكبيرة (انظر مت ١٤: ١٥ — ٢١) ودعاء موسى عليه السلام ﴿ رب اغفِرْ لي ولأخي وأدخِلنا في رحمَتكَ وأنت أرحمُ الراحمين ﴾ (٧ : ١٥٠) ، ودعاء زكريا عليه السلام ﴿ ربِّ لا تَذَرْني فرْداً ، ، وأنت خيرُ الوارثين ﴾ (٢١ : ٨٩) ودعاء المؤمنين ﴿ ربَّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعلْ في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوفٌ رحيم ﴾ (٥٩ : ١٠) .

٣ — دعاء مختلط بالثناء — ومن أمثلته : قول المؤمنين ﴿ سَمِعنا وأطعْنا ، غفرانَكَ ربنا وإليكَ المصيرُ ... ربنا لا تؤاخذْنا إن نَسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً ، كما حَمَلْتَهُ على الذين مِنْ قبلِنا ، ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقةَ لنا به ، واعفُ عنا ، واغفِر لنا وارحمنا ، أنتَ مولانا ، فانصُرنا على القومِ الكافرينَ ﴾ (٢: ٢٨٥ و ٢٨٦) ، وقول المؤمنين ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً — سبحانك — فقِنا عذابَ النار ، ربنا إنكَ مَنْ تُدخِلِ النارَ فقد أخزَيْتَهُ ، وما للظالمين من أنصارٍ ، ربنا إنَّنا سمعنا منادياً يُنادي للايمان: أنْ آمِنوا بربكم ، فآمَنَّا ، ربنا فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا ، وكَفِّرْ عنا سيئاتِنا ، وتوَفَّنا مع الأبرارِ ، ربنا وآتِنا ما وَعدْتنا على رُسُلِك ، ولا تُخزِنا يومَ القيامة ، إنك لا تُخلفُ الميعاد ﴾ (٣ : ١٩١ — ١٩٤) .

٤ – دعاء محبوك الطرفين بالثناء – ومن أمثلته : قول سيدنا شعيب : ﴿ وَسِعَ ربنا كل شيء عِلماً ، على اللهِ توَكلنا ، رَبَّنا افتحْ بيننا وبين قومنا بالحقِّ ، وأنت خيرُ الفاتحين ﴾ (٧ : ٨٨) وقول موسى عليه السلام ﴿ أنتَ وَليّنا ، فاغفر لنا وارحمْنا ، وأنتَ خيرُ الغافرين ﴾ (٧ : ١٥٤) ، وقول سيدنا إبراهيم ﴿ رَبَّنا عليك توكلنا ، وإليك أنَبنا ، وإليكَ المصيرُ ، ربنا لا تجعَلنا فِتنةً للذين كَفَروا ، واغفرْ لنا ، ربَّنا إنك أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ (٦٠ : ٤ و ٥) .

٥ – دعاء محشو بالثناء – ومن أمثلته : قول سليمان عليه السلام : ﴿ رب أوزِعْني أنْ أشكُرَ نِعمتَكَ التي أنعَمْتَ عليَّ وعلى والدَيَّ ، وأنْ أعمَلَ صالحاً ترضاهُ ، وأدخلني برحمتِكَ في عبادِكَ الصالحين ﴾ (٢٧ : ١٩) ومثله قول الإنسان : ﴿ رَبِّ أوزعْني أنْ أشكرَ نِعمتَكَ التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ ، وأنْ أعمَلَ صالحاً ترضاه ﴾ (٤٦ : ١٥) .

٦ – خبر في معنى الإنشاء – ومن أمثلته : قول آدم وحواء . ﴿ ربَّنا ظلمنا أنفُسَنا ، وإن لم تغفِرْ لنا وترحَمْنا ، لنَكُونَنَّ منَ الخاسرين ﴾ (٧ : ٢٢) ومثله قول بني إسرائيل : ﴿ لئِن لم يرحَمْنا رَبنا لنَكونَنَّ من الخاسرين ﴾ (٧ : ١٤٨) وقول يوسف ههنا : ﴿ وإنْ لا تَصرِفْ عني كيدَهُنَّ، أصْبُ إليهنّ ، وأكُنْ من الجاهلين ﴾ (آ ٣٣) وقول أيوب ﴿ إني مَسَّني الضرُّ ، وأنتَ أرحمُ الراحمين ﴾ (٢١ : ٨٣) وقول ذي النون ، وهو في الظلمات : ﴿ لا إله إلا أنت ، سبحانَكَ ، إني كنتُ من الظالمين ﴾ (٢١ : ٨٧) .

٧ – ثناء محض في ضمنه دعاء – وإليك بعض أمثلته : ﴿ مالِكَ المُلكِ ، تؤتي المُلكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ المُلكَ مِمَّنْ تشاء ، وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذل من تشاءُ ، بيَدكَ الخيرُ ، إنك على كل شيءٍ قديرٌ ، تُولجُ الليلَ في النهار ،

وتُولِجُ النهارَ في الليلِ ، وتُخرجُ الحيَّ من الميّتِ ، وتخرجُ الميّتَ من الحيِّ وترزُقُ من تشاء بغيرِ حساب﴾ (٣ : ٢٦ و ٢٧) ، ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ له الا هو ، وانْ يَمسَسْك بخيرٍ ، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ (٦ : ١٧) ﴿ انَّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالمين ، لا شريكَ له وبذلك أمرتُ ، وأنا أولُ المُسْلمين ﴾ (٦ : ١٦٣) ﴿ ولله غيب السموات والأرضِ ، واليه يُرجَعُ الأمرُ كلّه ، فاعبُدهُ وتوكلْ عليه ، وما ربك بغافلٍ عما تَعْملون ﴾ (١١ : ١٢٣) وقول الملائكة لساراي: ﴿رحمةُ اللهِ وبركاتهُ عليكم أهلَ البيتِ ، انه حميدٌ مجيدٌ ﴾ (٧ ، ٧٣) .

طفرات حياة يوسف عليه السلام

المادة ٣ — من تأمل في حياة يوسف وجدها كلها « طفرات » فمن حضن أبيه ، الى « غيابة الجب » ، ومن الحرية الكاملة الى « الرق والعبودية » ، ومن نازل « الجب » الى عالي « القصر » ، ومن « قصر العزيز » الى « سجن الذليل » ، ومن « متهم » بجريمة الفحشاء ، الى « بريء » الساحة ، معترف له بالطهارة والتقديس ، ومن « السجن » الى « بلاط الملك » ومن ذليل بين اخوته الى « عزيز » فوق رؤوسهم ، ومن « طريد » الى« مُجمِّع » ، ومن واقف فوق « منبر الخطابة » بحضور هيئة اخوته وأبويه ، الى « ماثل في محراب الدعاء » يدعو ربه بحسن الختام .

ايتاء الملك الشرعي وغير الشرعي

المادة ٤ — تعليقاً على قوله (رب قد آتيتني من الملك) : انَّ الذي أتى يوسف — بحسب الظاهر — شيئاً من الملك هو « الريان بن الوليد » ولكن الفعال الحقيقي والملهم هو الله تعالى ، فلذلك نسب هذا الإيتاء له سبحانه ، وهناك وجه

آخر دقيق ، هو بالاعتبار حقيق ، وهو أن كل من صار مَلِكاً أو أوتي شيئاً من الملك ، فإن لم يكن من أهل الإيمان والعدل ، فهو من قبيل المغتصب ،ولايسمى ما ناله أنه إيتاء من الله تعالى يخاطب إبراهيم قال تعالى: ﴿إني جاعِلُكَ للناسِ إماماً ، – قال : ومِنْ ذُرِّيّتي ، – قال: لا يَنالُ عَهدي الظالمين﴾ (٢ :١٢٣) فإن كانَ من أهل الإيمان والعدل ، وأوتي الولاية العامة الشرعية ، كالأئمة الراشدين أو أوتي شيئاً من هذه الولاية ، كالذين كانوا منصوبين تحت هؤلاء الأئمة ، فإن إيتاء هذا ، إيتاء رباني شرعي ، ينسب لله تعالى ظاهراً وباطناً ، وكذا لو لم يكن الولي العام مؤمناً عادلاً ، ولكن الذي تعين تحته كان مؤمناً عادلاً ، كما في حادثة يوسف عليه السلام ، فإيتاؤه حظاً من الملك إيتاء شرعي إلهي ، ينسب لله تعالى ظاهراً وباطناً ، ويعتبر انه نعمة إلهية على العبد ، يجب شكره تعالى عليها ، والدليل على ذلك كله تلك المحاورة السابقة التي جرت بين الله وبين إبراهيم عليه السلام .

فهذا الحظ الذي اوتيه يوسف من الملك ، هو عطية إلهية شرعية ، مسندة لله رأساً ، ثم هو لم يكن ملك قهر وقسوة ، بل كان ملك رأفة ورحمة ،ولم يكن ملك محاباة قوي على ضعيف ، بل كان ملك مساواة ، بين سكان القصور وسكان الأكواخ ، ولم يكن ملك إماتة للشعب ، بل كان ملك حياة سعيدة للأمة المصرية ، وإنقاذ لها من براثن الموت ، فلذلك كله كان يوسف عليه السلام خليقاً بأن يحمده تعالى عليه .

الرد على من يقول إن يوسف استقل بالملك

المادة ٥ - تعليقاً ثانياً على قوله (رب قد آتيتني من الملك ...) : قد يزعم من لا تحقيق عنده أن يوسف عليه السلام استقل آخراً بملك مصر ، وينسب

ذلك لبعض ضعاف المفسرين ، ومعتمدهم في ذلك قول يوسف عليه السلام في دعائه : (رب قد آتيتني من الملك) ولا دليل لهم في ذلك ، لأن كل من ملك شيئاً ، ولو في خاصة نفسه ، فاستيلاؤه عليه يسمى «مُلكاً» « حتى البيت والفرس والخادم ، فكيف من ملك التصرف في مصر ؟ ولو كان في شعب واحد منها فهو ملك ، وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً مثل «هجر» و « معان » و « دومة الجندل » ، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد ، وفي تلك الدولة ؟.. وقد كان في الخلافة العباسية ، تسمى ولاة الأطراف « ملوكاً » فلا استدلال لهم في هذه الصيغة ، وأحرى أيضاً فما يستدلون به من قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ﴾ ، أنه لا يكون لهم فيه مستند ، لأن التمكين يكون بغير « الملك » ، ونص القرآن إنما هو بولايته على أمور الزرع ، في جمعه وتفريقه ، كما قال تعالى : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليمٌ ﴾ ، ومساق القصة كلها ، أنه مرؤوس في تلك الدولة بقرائن الأحوال كلها ، لا ما يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه ، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن ، إلى هذا التوهم الضعيف[1] ، وقد قال تعالى : ﴿ وإذْ قال موسى لقومِهِ : يا قوم ، اذكروا نِعمة اللهِ عليكم ، إذْ جعلَ فيكم أنبياءَ ، وجَعلَكم ملوكاً ﴾ (٥ : ٢٢) ، خاطبهم موسى بهذا ، وهم في التيه ، فجعل كل واحد منهم « مَلِكاً » على حدة ، لأنهم ملكوا أنفسهم وحريتهم واستقلالهم ، بعدما كانوا عبيداً مسخرين ، تابعين للقبط ، فإذا لم يقتض قوله « وجعلكم ملوكاً » أن يكون كل واحد منهم « مَلِكاً » بالمعنى العرفي ، فلا جرم أن كلمة (آتيتني من الملك) لا تقتضي شيئاً من ذلك بالأولى .

الأنبياء الذين آتاهم الله الملك والنبوة معاً

المادة ٦ – تعليقاً ثالثاً على قوله : (رب قد آتيتني من الملك) وهو أن يوسف

(١) ابن خلدون .

من الأنبياء الستة الذين ذكرهم الله تعالى مجموعين في قوله : ﴿ ومِنْ ذريتِهِ داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرونَ ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (٦:٨٥) فهؤلاء ذكروا معاً ، لمعنى جامع بينهم ، وهو أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحُكم والسيادة ، مع النبوة والرسالة ، وقد قدم ذكر داود وسليمان . وكانا ملكين غنيين منعّمين ، وذكر بعدهما أيوب ويوسف ، وكان الأول أميراً ، غنياً عظيماً محسناً ، وكان الثاني وزيراً عظيماً ، وحاكماً متصرفاً ، ووكيلا عاماً مطلقاً ، ولكن كلا منهما قد ابتُليَ بالضراء فصبر ، كما ابتُليَ بالسراء فشكر ، وأما موسى وهرون ، فكانا حاكمين قائدين ، ولكنهما لم يكونا مَلِكين ، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة ، ممتاز بمزية ، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نِعم الدنيا ، وقد يكون على طريق الترقي في الدين ، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا ودونهما أيوب ويوسف ، ودونهما موسى وهرون ، والظاهر أن موسى وهرون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف ، وأن هذين أفضل من داود وسليمان ، بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء ، كذا أفاده بعض المعاصرين وهو من الحسن بمكان .

تعليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله « رب قد اتيتني .. الخ »

المادة ٧ – تعليقاً رابعاً على قوله (رب قد آتيتني من الملك .. الخ) : ذكر نعمة الله عليه بشيئين ، ما أوتي من الملك ، وما عُلم من تأويل الأحاديث ، ولم يذكر ما هو أعلى منها وهو النبوة ، فلماذا يا ترى؟

وجوابنا على ذلك من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول – يجوز أن يكون يوسف وقتما نطق بهذا الكلام لم يكن قد نُبىء ، وإنما نبىء وأرسل بعد هذا التاريخ ، عند الاحتياج إليه ، لا سيا بعد وفاة أبيه ، والغالب أن تكون النبوات بعد سن الأربعين .

الوجه الثاني – إن « المُلك » يدخل فيه النبوة ، لانه يشمل ملك الارواح وملك الاجسام ، وملك الارواح هو النبوة ، لأن سلطان الأنبياء على القلوب والأرواح سلطان كبير ، يضاهي سلطان حكام الدنيا على الأجساد والظواهر ، بل يفوقه بكثير ، لان من كان له سلطان على الروح ، كان له شيءمن السلطان على الجسد بالتبع ، وهؤلاء هم الانبياء ، وأما الملوك الزمنيون ، فإن سلطانهم على الجسد ، لا يستتبع السلطان على القلب ، وقد أطلق في كتب المسيحيين على المسيح ، أنه « ملك اليهود » (مت ٢ : ٢) أي الملك الروحي .

الوجه الثالث ـ إن النبوةداخلة في ضمن قوله(وعلمتني منتأويل الاحاديث) لان هذا التعليم الرباني المسند لله ، لهذه الأحاديث ، التي تشمل أحاديث الدين هو عين الوحي للانبياء .

وبعد فنرى من هذا أنه من أيام يوسف عليه السلام ، ابتدىء أن يجمع في شخص واحد ، بين الإيتاء من الملك والنبوة ، ثم برز هـــذا المعنى في موسى وهرون وزيره ، ثم هذا المعنى في « يوشع » بن نون ، ثم بعد مدة قضاةبني إسرائيل وهي (٢٥٠) سنة ، ابتدأت فيهم المملكة الحقيقية بكل معنى الكلمة فجلس منهم على كرسيّ الملك ٤٥ ملكاً ، في المملكتين ، الجنوبية والشمالية ، وكانت ملوك المملكة الشمالية ، من سلالة « أفرايم » بن يوسف ، وملوك المملكة الجنوبية ، من سلالة « يهوذا » أما مدة المملكتين فنحو ٥٠٩ سنين .

الأحاديث التي علم الله يوسف تأويلها

المادة ٨ – تعليقاً على قوله (وعلمتني من تأويل الاحاديث) في الحقيقةأن ربه سبحانه وتعالى علمه من تأويل الاحاديث وعلـّمه غير ذلك، فالعلم الذيعلمه الله إياه أعم ، كما قال الله عنه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ وقال هو عن نفسه (اجعلني على خزائن الارض ، إني حفيظ عليم) ، وقال الله عنه :

﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ، ولكن يوسف ، إنما نص هنا على تأويل الاحاديث ، لأن ذلك كان السبب في إيتائه نصيباً من الملك ، فهو من قبيل ذكر العلة بعد المعلول ، هذا إذا قصرناه على تعبير المرائي المنامية ، أما إذا عممنافيه والأحاديث ، على أحاديث الدنيا ، وأحاديث الدين ، وأحاديث النوم ، وأحاديث اليقظة ، وأحاديث الناس ، وأحاديث الملائكة ، وأحاديث السياسة ، وأحاديث الاقتصاد ، وأحاديث « تدبير المنزل » الكبير ، وهو المملكة أو الوطن الخ الخ فالأمر ظاهر .

الولي وأنواع الولاية

المادة ٩ - تعليقاً على قوله (أنت وايي) يأتي « الوليّ » بمعنى الناصر ، وبمعنى المحب ، وبمعنى متولي الأمر ، وبمعنى القريب ، قرباً نسبياً ، أو قرباً معنوياً : وكل هذه المعاني مناسبة ههنا ما عدا القرب النسبي ، لأن الله تعالى منزه عن القرابة النسبية ، وهذه الولاية تكون بين الله وأنبيائه وبين الله وملائكته ، وبين الملائكة بعضهم مع بعض ، وبين الأنبياء والملائكة ، وبين الأنبياء والمؤمنين وبين المؤمن والمؤمن ، وبين الظالم والظالم ، وبين الكافرين والشياطين ، وبين المنافق والكافر ، وكل ذلك وغيره مصرح به في كتاب الله ، وإليك بيانه :

١ - الله ولي المؤمن والطاغوت وليّ الكافر - قال تعالى : ﴿ اللهُ ولِيُّ الذين آمَنوا ، يُخرجُهم من الظلماتِ إلى النورِ ، والذين كفَروا أولياؤهُم الطاغوتُ ، يُخرجُونهم من النورِ إلى الظلماتِ ، أولئكَ أصحابُ النارِ ، هم فيها خالِدون ﴾ (٢ : ٢٥٧) .

٢ - المؤمن وليّ للمؤمن - قال تعالى : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ ﴾ (٩ : ٧٢) .

٣ – الظالم وليّ للظالم – قال تعالى : ﴿ وإنّ الظالمينَ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ ﴾ (٤٥ : ١٨) .

٤ – الكافر وليّ للشيطان – قال تعالى : ﴿ فقاتِلوا أولياء الشيطانِ ﴾ (٤ : ٧٥) وقال : ﴿ فتكونَ للشيطانِ ولياً ﴾ (١٩ : ٤٥) .

٥ – الشيطان وليّ للكافر – قال تعالى ﴿ إنـّا جَعَلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٧ : ٢٦) .

٦ – الكافر وليّ للمنافق – قال تعالى: ﴿بَشّرْ المنافقينَ بأنّ لهم عذاباً أليماً ، الذين يَتّخِذُون الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنين﴾ (٤:١٣٧و١٣٨)

٧ - المتقي وليّ للمسجد الحرامِ – قال تعالى : ﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله، وهم يصدون عن المسجد الحرام ؟ وما كانوا أولياءَه ، إن أولياؤه إلاّ المتقون ﴾ (٨ : ٣٤) .

٨ – الملائكة أولياء للمؤمنين – قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا : ربنا اللهُ ثم استقاموا ، تتَنَزّلُ عليهمُ الملائكةُ : أنْ لا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنةِ التي كنتم تُوعَدون، نحن أولياؤكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ﴾(٤١:٣١)

٩ – الله وليّ للتقي – ﴿ واللهُ وليّ المتقين ﴾ (٤٥ : ١٨) .

١٠ – اليهودي وليّ لليهودي والنصراني وليّ للنصراني – قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ، بعضُهُم أولياءُ بعض ﴾ (٥ : ٥٤) .

١١ – المهاجر وليّ للانصاري وبالعكس – قال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجَروا وجاهدوا بأموالهم وأنفُسِهم في سبيلِ اللهِ ، والذين آوَوْا ونَصَروا – أولئِكَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾ (٨ : ٧٢) .

١٢ – كل مؤمن تقي هو وليّ الله – قال تعالى : ﴿ ألا إنّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (١٠:٦٢و٦٣).

إلى غير ذلك من الشواهد التي لا تحصى ، وكلمة « وليّ » تشعر بالقرب والمحبة والنصرة ويقابلها كلمة « عدوّ » التي تشعر بالبعد والكراهة والخذل .

درجات الولاية

والولاية درجات متفاوتة ، فولاية الله ليوسف وأمثاله من الأنبياء ، أكبر من ولاية الله لمطلق مؤمن ، كما أن ولاية الله للمؤمن الكامل ، أعظم من ولاية الله للمؤمن إيماناً ناقصاً ، ومتى كان الإنسان ولياً لله ، كان عدواً للشيطان ، ومتى كان عدواً لله ، كان ولياً للشيطان ، وهكذا يقال في كل شيء بما يناسبه.

الآخرة في كتب اليهود والنصارى

المادة ١٠ ـ تعليقاً على كلمة (الآخرة) ، نقرأ في القرآن الكريم فنجده يذكر الآخرة مراراً وتكراراً ، بأسماء متعددة متنوعة ، أكثر من مائتي مرة، ونقرأ في كتب اليهود الدينية ، التي في أيديهم اليوم ، فلا نرى فيها ذكراً للآخرة ولا اسماً من الأسماء المذكورة في القرآن ونحوها ولا وعداً بالآخرة ولا وعيداً ، وإنما كل ما وعدوا به على العمل والتمسك بالوصايا ، هو الخير والخصب والعافية والسلطة في الأرض ، وكل ما أوعدوا به إن تركوا العمل بالكتاب ، هو سلب النعم الدنيوية عنهم ، وتسليط الأمم عليهم ، والجدب والمرض ونحو ذلك، ولهذا كان يوجد في اليهود فرقة يقال لهم « الصَدُّوقِيُّون » لا يعتقدون بالآخرة ، مع إيمانهم بموسى والتوراة، ومن الغريب أنه يوجد في الشيعة فرقة يقال لها « الخطابية » يزعمون أن الدنيا لا تفنى ، وأن الجنة هي ما يصيب الناس في الدنيا من خير، وأن النار هي ما يصيبهم من شر ؛

وأما النصارى فهم كالمسلمين تصرح كتبهم بيوم « الدينونة » فهم يعتقدون بيوم الدين ، ولكن يقولون بالحشر الروحاني دون الجسماني .

الإسلام دين جميع الرسل

المادة ١١ – تعليقاً على كلمة (مسلماً) :

الإسلام ليس بدين جديد ، وإنما هو الدين الذي أوحاه الله لجميع رسله ، فحرّفه أتباعه ، ثم أنزل إلى خاتم النبيين أخيراً ، لإحداث إصلاح ديـني عام ، لسائر الملل ، شرقيها وغربيها ، ولذلك جعلت قاعدته الإيمان بسائر رسل الله ، من نعرف أسماءهم ، ومن لا نعرف أسماءهم ، وبجميع كتب الله ، بأي لغـة كانت ، فالمسلم ليس تابعاً لدين من ضمن الأديان المنعزلة المتعادية ، ولكن للدين الأصلي ، الجامع لسائر الأديان ، والمسلم بهذا الاعتبار ، يجد في نفسه قيمة لم يحس بهـا من قبل ، لأنه يرى نفسه عاماً لا خاصاً ، يرى نفسه متبعاً ديناً هـو في نفسه دين الكل ، فمن كان كذلك ، فلا يتحامل على الأديان ، لأنه أمر بأن يؤمن بها كلها وأن يكون منها بالمركز الأوسط مكتفياً بما في كتابه من خلاصاتها ، ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الأوسط العام : وشعر أنه في مجتمع أميال الأمم وفي نقطة تلاقي مراميها ، واتحاد أفئدتها – في يوم من الأيام – فلا يهون عـلى نفسه أن يميل عنه إلى نقطة منطرفة ، ولو سيق إليها بقوة قاهرة ؛

المسلم لا يقول كما قالت اليهود : ﴿ ليْسَتِ النصارَى على شيء ﴾ (٢:١١٣) ولا يقول كما قالت النصارى : ﴿ ليْسَتِ اليهودُ على شيء ﴾ ، ولكنه يقول: إن اليهود على شيء ، والنصارى على شيء ، ولكن قد امتدت أيدي التحريف والزيادة والنقصان في كتبهم .

المسلم يقول : ﴿ إنّ الذين آمَنوا والذينَ هادوا والنصارى والصّابئينَ ، مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً ، فلهم أجرُهُم عنـد رَبّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢ : ٦٢) .

المسلم لا يعتقد أن مفاتيح الجنة في قبضة يده ، وأن مواهب الله منحصرة فيه ،

حق يقول كما قالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نَصارَى ﴾ (٢ : ١١١) ، بل يقول : ﴿ بَلى مَنْ أسلم وجهَه ُ لله ، وهو مُحسِنٌ ، فلهُ أجرُهُ عِندَ رَبِّه ، ولا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزَنون ﴾ (٢ : ١١٢) .

الإسلام إنما جاء بالإصلاح العام ، لسائر الأديان البشرية ، لا أنه دين منعزل مثل سائر الأديان ؛ الإسلام هو مؤسسة ديانة كبيرة ، وهو قديم ، وهو دين الأنبياء والرسل الأقدمين ،قال تعالى ﴿شَرعَ لكم مِن الدِّين ما وصَّى به نُوحاً ، والذي أوحينا إليكَ ، وما وصَّى به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقوا فيه ﴾ (٤٢ : ١٣) وقال تعالى : ﴿ ومَنْ يَرغَبُ عَنْ مِلَّة إبراهيمَ ، إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفسَهُ ، ولَقَد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لَمِنَ الصالحين ، إذ قال له رَبُّهُ : أسْلِمْ ، ـ قال أسْلَمتُ لرب العالمين ، ووصَّى بها إبراهيمُ بَنيهِ ويعقوبُ : يا بنيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدينَ ، فلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمون ، أم كنتم شُهداء إذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ ، إذ قالَ لبنيهِ : ما تعبُدونَ مِنْ بعدي؟ قالوا نعبُدُ إلهكَ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً ، ونحنُ له مُسلمون ﴾ (٢ : ١٣٠) وقال تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ (٣ : ١٩)

وقال نوح عليه السلام : ﴿ وأُمرتُ أنْ أكونَ مِنَ المسلمينَ ﴾ (١٠:٧٢) وقال موسى : ﴿ يا قومِ ،إن كنتم آمنتم باللهِ ،فعَليهِ توكلوا إنْ كنتم مُسلمينَ ﴾ (١٠ : ٨٤) وقال عن السحرة: ﴿ ربَّنا أفْرِغْ علينا صبراً وتوفَّنا مُسلمين ﴾ (٧ : ١٢٥) وقال عن بلقيس ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ لله

ربّ العالمين ﴾ (٢٧ : ٤٤) ، وقال تعالى : ﴿ يحكمُ بها النبيّون الذين أسلموا – للذينَ هادُوا ، والربّانيّونَ والأحبارُ ﴾ (٥ : ٤٧) وقال تعالى : ﴿ وإذْ أوحيتُ الى الحواريّينَ : أن آمِنوا بي وبرسولي ، قالوا آمنّا واشْهَدْ بأننا مُسلمونَ ﴾ (٥ : ١١١) .

المسلم – هو المسلم لإرادة الله تعالى ، هو الذي أسلم وجهه لخالق السموات والأرض ، والإسلام ليس هو دين النبي ﷺ خاصة ، بل هو دين جميع الأنبياء الذين أتوا قبله ، فكما هو دين الأمة المحمدية اليوم ، فقد كان دين اليهود والنصارى وغيرهم ، ولكن دخل على دين اليهود شيء من الديانة المدعوة « مسورا » وإن شئت قلت « التلمود » أي أقوال علماء اليهود وتفاسيرهم على التوراة وبهذا خرجوا عن الإسلامية التي يريدها الله تعالى ، كما أن الديانة النصرانية خرجت على الإسلامية المرادة لله ، بسبب التعاليم السرية ، والأفكار التي أذاعها « بولس » ، والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى .

فالإسلام هو دين يهودي ، خال من التقاليد الدخيلة ، وهو دين نصراني أيضاً ، خال من تعاليم « بولس » والرؤساء ، خال من عقيدة « الأمانة » و « عقيدة التثليث » التي وضعت في « نيقية » . في بدء القرن الرابع ، لأجل إماتة تعاليم التوحيد التي كان يتمشى عليها « آريوس » وجماعته (١)

دعاء يوسف بإماتته مسلماً

المادة (١٢) — لعل طلب يوسف في قوله (توفني مسلماً) مبني على قاعدة أن المرء يموت غالباً على ما عاش عليه ، فاذا عاش على الإسلام والصلاح ، مات على ذلك ، بفضل الله الذي كانت تلك القاعدة من سننه في خلقه ، فيكون معنى

(١) ان البحث في هذا الموضوع يتطلب طول الكلام ونتركه لفرصة أخرى .

دعاء يوسف : « رب احفظ عليّ اسلامي وأدم صلاحي لآخر لحظة من حياتي ».

مبلغ ما أوتيه من الملك

المادة (١٣) – سألني أحد مبشري النصرانية الإفرنج ، كيف يذكر القرآن أن يوسف أوتي الملك ؟ مع أنه لم يكن سوى مأمور على حاصلات الأرض ونواتجها الحبوبية كما نتعلمه من آ (٥٥) ومن (تك ٤١ : ٤١) ، وكما في تاريخ ابن خلدون على خزائن الزرع في المملكة المصرية ، يجمعها ويصرف الارزاق منها ؟ هذا كل منصبه لا أكثر ولا أقل ؟

فاجبته عن سؤاله بأنه قد سُمّيَ رؤساء « أدوم » ملوكاً (تك ٣٦ : ٣١) وهكذا رؤساء « مديان » (عد ٣١ : ٨) ورؤساء « موآب » (عد ٢٣ : ٧) وحاكم المدينة الواحدة ، « كملكي صادق » ملك « ساليم » أي أورشليم (تك ١٤ : ١٨) ، وقد سُمّيَ « هيرودس » رئيس الربع ملكاً (مت ١٤ : ٩) ، وسُمّي كل فرد من الشعب المسيحي ملكاً (رؤ ١ : ٦)[١] ، على أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لم يقل : « رب قد آتيتني الملك » ، ولكنا نراه قال : (رب قد آتيتني من الملك) أي أعطيتني حظاً ونصيباً من الملك ، وهذه الجملة تصدق على كل من استخدم في مملكة ولو أصغر خدمة ، وقد كان يوسف مستخدماً في البلاط الملكي على خزائن الأرض ، وهذا في ذاك العصر يشبه ما ندعوه اليوم « وزارة المالية » وأيضاً إن مليك مصر ، قال عن يوسف : (هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ، وخلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ، ووضع طوق ذهب في عنقه ، وأركبه مركبته الثانية ، ونادوا أمامه « اركعوا » وجعله على كل أرض مصر ، وقال له : أنا

(١) رؤ رمز لسفر الرؤيا من الانجيل .

فرعون ! فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر) (تك ٤١ : ٣٨ – ٤٤) فمن قيل له هذا القول الفخيم وعمل معه هــذا العمل العظيم ، ألا يصلح أن يقال إنه أوتي حظاً من الملك ؟

هذا خلاصة ما كنت أجبت به السائل المبشر ، فلما سمعه سكت مغلوباً وسكتُ غالباً ، ولله الحمد والشكر دائماً ودائباً .

الإسلام والجاهلية لغةً

المادة (١٤) – تعليقاً آخر على كلمة (مسلماً) : ظاهر أن الاسلام ههنا بالمعنى الشرعي الاصطلاحي ،وربما كان بالمعنى اللغوي ، وهو الانقياد والخضوع ، وأصله من السلام ، وهـو المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام ، قال تعالى : ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأرض هَوْنـاً وإذا خاطبَهُم الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾ (٢٥ : ٦٣) ، ولعل هذه الآية هي المفتاح الذي نصل بـه الى معرفة السبب في تسمية الزمن الذي قبل النبي ﷺ جـاهلية ، وتسمية عهده صلوات الله عليه إسلاماً ، فالجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة والتعدي ، وربما كان منه قول يوسف لإخوته : ﴿ هل عَلِمْتُم ما فَعَلْتُم بيوسفَ وأخيه ، إذْ أنتم جاهلون ﴾ (آ ٨٩) أي فيكم روح التعدي ، كما منه ﷺ لأبي ذَرّ رضي الله عنه ، وقد عَيرْ رجلا بأمّه : « إنكَ أمْرُؤ فيكَ جاهلية » أي فيك روح السفه والتعدي ،

ويقابل هذه المعاني هدوء النفس والتواضع والحلم ، وهذه كلها نزعة سلام ، ثم انتقلت الكلمة إلى معنى آخر قريب من هذا ، وهو استعمال « أسْلم » المشتق من السلام ، بمعنى خضع وانقاد ، لأن الخضوع أدعى إلى السلام ،ومنه ﴿ وأَنِيبوا الى ربّكم وأسْلِموا له ﴾ (٣٩: ٥٤) ثم خصت في الاستعمال بالدين الاسلامي ،

الذي أتى به النبي ﷺ ، ومنه : ﴿ وَرَضِيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ (٥ : ٤) ﴿ ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلَن يُقبَلَ منه ﴾ (٣ : ٨٥) وبهذا البيان الذي قلناه في معنى الجاهلية ، يسقط اعتراض علماء الغرب علينا،لأن اعتراضهم مبني على أن (الجاهلية) هـي ضد العلم ، فقالوا : (إن تسمية العرب في الزمن الذي قبل النبي ﷺ بذلك ظلم وخلاف الواقـع ، إذ كان فيهم علم وحكمة ، كما يعرف من مراجعة دواوين العرب وأشعارهم)؟ ووجه الرد انا لا نقول : (إنهم جاهلية من الجهل الذي هو خلاف العلم ، ولكن نقول إنه من الجهل الذي هـو السفه والتعدي والغضب والأنفة) ، فليفهم ذلك . . .

حال يوسف أثناء وبعد حفلة الختام

المادة (١٥) ــ نلاحظ أن الحفلة التي خطب فيها يوسف خطابه القيم الذي أنهاه بالتحدث بنعمة الله وبرجاء حسن الختام ، نلاحظ أنهـا انتهت بسرور ما بعده سرور ، لم يَرَ يوسف قبله مثله ، ولن يرى بعده مثله،ولم يُرَ يوسف منطلقاً في الكلام مندفعاً في الخطاب ، كمثل اليوم، ولعل ذلك لأنه حظي بأبويه وذويه وجميع أهليه فاسترسل في الكلام هذا الاسترسال ، نزولا على قول القائل :

فيّ انقباض وحشمة فاذا　　صادفت أهل الوفاء والكرمِ
أرسلت نفسي على سجيتها　　وقلت ما قلت غير محتشمِ

المادة (١٦) - عاش يوسف في مصر بعد خطابه الأخير (١٧) سنة عيشاً هنيئاً، لا تضطرب في سمائه غيمة، ولا تمر بصفحته غبرة، وكذلك أبواه وإخوته وأهلوهم ، وذلك هو كل ما استطاع أن يختلسه من يد الدهر في غفلته ؛ ومدة حياته كلها (١١٠) سنين، ثم قبض وحُنّطت جثته وأدرج في تابوت وختم عليه،

ودفن في بعض مجاري النيل ، وقد أوصى أن يحمل عند خروج بني إسرائيل من مصر ، ولم تزل وصيته محفوظة عندهم إلى أن أخذت مومياؤه مع بني إسرائيل إلى كنعان ودفنت في «شكيم» بجانب بئر يعقوب ، وقيل في قرية من أعمال نابلس يقال لها (بُلاطة) وقبره بها مشهور ، وقيل إن جثته نقلت بعد ذلك من (شكيم) إلى (حبرون) وقبرت في الغار الشريف مع أجداده الكرام .

وأما يعقوب فقد ولد صلوات الله عليه في (عين مويلح) ولما صار ابن ٥٠ سنة رحل للعراق عند خاله لابان ومكث عنده ٢٠ سنة ثم رجع قافلاً لفلسطين ، فعاش فيها أيضاً ٦٢ سنة أي إلى أن صار عمره ١٣٢ سنة ثم رحل لمصر فعاش فيها ١٧ سنة ثم توفي عن ١٤٩ سنة وأوصى بأن يدفن في فلسطين ، في الغار الشريف عند آبائه ، وقد قال عند وفاته : الحمد لله إذ خلفت ولدي يوسف ، ينضب الماء ، ويبقى بعده النبت الكريم) ومن أغرب الصدف أن عيشة يعقوب بمصر في كفالة ابنه يوسف كانت ١٧ سنة ، كما كان يوسف قد عاش في حضن أبيه بفلسطين ١٧ سنة !!!

قال (ابن جرير) في تفسيره : لما حضر يعقوب الموت أوصى ولده يوسف أن يدفنه عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات ، نفخ فيه المُرّ ، وحمله إلى الشام).

نهاية إخوة يوسف

وأما إخوة يوسف فقد سكنوا بمصر بين النيل غرباً ، والشرعة شرقاً ، وذاب وجودهم في وجود يوسف ، ولم يعد لهم وجود مستقل ، إذ كانوا في معيته ، وتحت نفوذه وسلطته فكانت إرادتهم في إرادته ، وكانوا بين يدي قهره كطير مقصوص الجناح ، وذهبت تلك العنجهية والدبدبة والعظمة قبض الريح ، وماتوا جميعاً بمصر وقبروا فيها :

كأن لم يكن بين (الحجون) إلى (الصفا)
أنيس ولم يسمر (بمكة) سامرُ

وأما ما يزعمه بعض الجهلة من أن يهوذا وروبيل (راوبين) مدفونان في طبرية بمسجد هناك ،أو أن روبيل مدفون على سيف بحر يافا، وأن شمعون مدفون في دمشق في حي الشاغور ، وفلان في بلد كذا و كذا فخطأ تاريخي .

نهاية بني إسرائيل وانقسام مملكتهم

وأما بنو إسرائيل فقد مكثوا بمصر نحو (٢١٥) سنة خلافاً لتوراة اليهود التي تقول (٤٣٠) سنة ،ونشأ عن اختلاطهم بالمصريين أنهم توثنوا مثلهم ، وصاروا من عبدة العجل « أبيس » وأذلهم المصريون ، وسخروهم واستخدموهم، وذبحوا أبناءهم ، واستحيوا نساءهم ، وعملوا على انقراضهم بكل حيلة ، ولما أراد الله خروجهم من مصر إلى أرض الميعاد ، أرسل « موسى » (ع) لذلك ، فآمنوا به ، ورجعوا لدين التوحيد ، وخرجوا من مصر تحت قيادته، ثم نظراً لتمكن التوثن منهم ، رجعوا وهم في طريقهم للشام إلى عبادة العجل ، ثم تابوا بمساعي موسى صلوات الله عليه ، وبعد أن صار لهم مُلْكٌ بفلسطين ، وبعد موت « سليمان » عليه السلام ، انقسمت المملكة إلى مملكتين ، جنوبية وعاصمتها « اورشليم » أي بيت المقدس وهي مملكة « يهوذا » وهي مؤلفة من سبطين فقط: يهوذا وبنيامين ولذا يقال لها « المملكة اليهوذية » ، وشمالية وعاصمتها «شكيم» أي نابلس تقريباً وتشمل عشرة أسباط منهم ، ولذا كان يقال لها مملكة « إسرائيل » وهذه توثنت كلها ، كما أن الأولى كان يوجد فيها توثن في بعض الأزمنة ، وكل هذا التوثن والرجوع إلى الشرك ، نجم عن اختلاطهم بالمصريين ، الناجم عن رحلتهم لمصر ، بسبب وجود يوسف هناك ، الناجم عن إبعاده عن وطنه فلسطين بيد إخوته ؛ و كأنه لذلك ، والله أعلم .. ، لما كان حدث بعده من اقتتال المملكتين الجنوبية والشمالية ، بعضهم مع بعض ، أخذ الله على قدماء بني إسرائيل في كتب أنبيائهم أن لا يقتل فريق فريقاً آخر منهم ، ولا ينفوا أحداً

من وطنه بمحض اتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثاقَكم لا تَسْفِكون دِماءَكم ، ولا تُخرِجون أنفسَكم من دِيارِكم ﴾ (٢ : ٨٤) لأن إخراج فريق لفريق آخر منهم يعرضه لتغيير دينه وأخلاقه وعوائده كما هو معلوم من التاريخ ، أي يعرضه للقتل الروحي ، الذي هو أعظم من القتل الجسدي .

الباب الخامس

الفصل الأول

خاتمة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة
أو الاستدلال على نبوة محمد (ﷺ)

آ (١٠٢) « ذلكَ مِنْ أنباءِ الغَيْبِ ، نُوحِيهِ إليكَ ، ومَا كنتَ لَدَيْهِمْ إذْ أجمعُوا أمْرَهُم وهُمْ يَمكُرونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة واثنتان ، فقام الشيخ محمود الخليلي وقال :

لا بد أنكم أيها السادة تذكرون ما كان بينه لنا الأخ الإمام القلقيلي في مطلع كلامه على الآية الأولى من السورة . وها نحن هنا اعتباراً من هذه الآية إلى آخر السورة ندخل في خاتمة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة أو في نتيجته :

لما قص الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ﷺ نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام قال له :

(ذلك) القصص وأمثاله يا محمد ، هو (من أنباء) من أخبار (الغيب) الغيوب السابقة (نوحيه إليك) ونعلمك به لما فيه العبرة لـــك والاتعاظ لمن خالفك، متتبعين فيه جميع حوادث يوسف ، مع بيان أسبابها ونتائجها وحِكمها نوحيه إليك ، أيها الأمي ، يا ابن الصحراء ، الذي لم يدخل مدرسة ولا دار علم، ولم يكن يتلو من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، يا ابن الصحراء ، الذي هو وقومه أبعد الناس عن كل بناء علمي ، يا ابن الصحراء الذي لم يكن معدوداً من بلغـاء العرب ولا من شعراء قريش ، ولا من خطبائهم ، نوحيه إليك يا ابن الصحراء الذي لم ينشأ كإبراهيم في مملكة راقية بالعلوم الكلدانية ، ولم ينشأ كموسى في دار مُلْك أربى على سائر ممالك العالم بالعلوم والشرائع المصرية ، ولم ينشأ كعيسى في مقاطعة كفلسطين كانت راقية بالعلوم والحِكَم اليونانية ،ونظامات حُكامها الرومان ، وقد تعلم وقرأ ودرس ؛ نوحيه إليك يا ابن الصحراء البعيدة عن العلم والعلماء ، الذي لم يكن مؤرخاً ولا قصاصاً وليس عنده أثارة من علم، وبالجملة — نوحيه اليك أيها الإنسان الذي كنت من قبله من الغافلين (وما كنت لديهم) لدى إخوة يوسف حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم (إذ أجمعوا أمرهم) على إلقاء يوسف في غيابة الجب (وهم يمكرون) به ويبغون له الغوائل ، مع أن كلاً من إجماعهم الأمر ومكرهم من الأمور التي تعمل تحت طي الخفاء ، فهذا النبأ غيب لم يحصل لك يا محمد إلا من جهة الوحي ، لأنك لم تحضر بني يعقوب حينذاك .

إنه لأمر عجاب حقاً ، رجل أمي لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ، وقد احتج بهذا على قومه ، فلم يستطع أحد منهم ممن انتصبوا لعداوته أن يرفع في الإنكار عليه رأساً ، أو ينبس في الرد عليه بكلمة .

وندرج فيما يلي التعليقات التالية على الآية الكريمة :

الرد على دعوى الكفرة بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة

التعليق الأول ـ كان قصارى الكفرة المعاندين المعاصرين لصاحب الرسالة ﷺ أن يقولوا تارة عن القرآن : إنه ﴿ أساطيرُ الأوّلينَ ، اكْتَتَبَها ، فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلا ﴾ (٢٥:٥) وتارة يقولون : ﴿ إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٦:١٠٣) كانوا يقولون ذلك ، وهم يعلمون أن محمد بن عبد الله مكث فيهم أربعين سنة ، لا يتلو من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، وأن لسان الذين يلحدون إليه أعجمي ولسان القرآن عربي مبين ، اتهموه بأن سلمان الفارسي كان يعلمه ، وهم لا يمارون في أن سلمان ما عرفه إلا بعد الهجرة ، ونزول كثير من آيات ومعجزات الفرقان ، ثم اتهموه بأن رجلا روميا دخل في الإسلام ، فكان يعلم الرسول ـ وهو أعجمي اللسان ـ تلك الآيات الباهرة ، ولو كان الأمر على ما وصفوا ، لكان لذلك الرومي من العلم والحكمة والفضل بحيث تضرب إليه أكباد الإبل ، وتجثو بين يديه الأمم ، ويعرف اسمه في مشارق الأرض ومغاربها ، ولكنهم لم يحسنوا سبك مفترياتهم ، ولم يجيدوا صياغة ترهاتهم ، إذ عجزوا حتى عن تعيين اسم الرومي فاختلفوا فيه على أربعة أقوال : هل اسمه « يعيش » أو « بلعام » أو « جبر » أو « يسار » على أنه لم يسمع عن واحد من أولئك الأربعة شيء مثل ما جاء به النبي الأميّ ، ولا عُرِف أحدهم حتى بالرواية عن رسول الله.

نتصفح تواريخ الرجال ، فلا نكاد نجد فيها ما يشعر بأنه لأحد أولئك النفر رواية ، حتى لما كان يقوله الرسول من أحاديثه ، فأنَّى لأولئك الجاحدين الجامدين أن يزعموا أن الرسول قد تخرج على أحدهم !!!

يزعم أولئك المبطلون أن الرسول قد استفاد كثيراً من رحلاته الى الشام ، حيث المدنية ورهبان النصرانية ، والقوانين الرومانية ، وما هم في تلك المزاعم الأولى بأحمق منهم في هذا الزعم الأخير ، فإن محمداً لم يغب عن قومه، ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب ليستمد شيئاً من علومهم ، بل عاش بين قومه يرعى كغيره من الأنبياء الغنم في صغره وشبابه ، وما خرج عنهم إلا في رحلتين إلى الشام ، ولم يتم اولاهما ، بل رده إلى مكة عمه « أبو طالب » بإشـــارة من الراهب «بحيرا » وكان عمره إذ ذاك تسع سنين ، وبلغ في ثانيتهما الشام،في تجارة « لخديجة بنت خويلد »(رضي الله عنها) وكان في سن الخامسة والعشرين ، ولم يطل في هذه الرحلة مكثه بالشام مدة يحتمل فيها أن يتعلم القليل من العلم ، بل بَلْـهَ الكثير ، بل كان في سفره لا يكاد ينفك عن قومه ورفاقه، وإلا لوغاب عن قومه بضع سنين ، لقالوا له : « لعلك تعلمت هذا مدة غيابك عنـــا » ولم يفوهوا بمثل هذا ، مع أنهم كانوا يحاولوا أن يلصقوا به هذه الشبهة، وهي التعلم من الناس ، وأيضاً فأي حامل يحمل هذا الفقير ، الذي نشأ هـذا المنشأ الذي بيناه ، ولم يوجد من ينبهه ويرشد فكره ، لفضيلة العلم ، حتى يترك ما يقتات به ، وهو في تلك البلاد الأجنبية ، ويترك ما به إرضاء لخديجة التي بعثته لتلك البلاد ، ويجهد نفسه في البحث عن عالم ليس من أمته ، ولم يكن على عقائدهم ، ويرضخ له حتى يبعث في قلبه كل هذه التعليمات ، ويسلم له فيما خالف معتقـد آبائه وأجداده ؟.

وأما حصول هذا التعلم له في بلاده فهو غير ممكن للاسباب الآتية :

أولاً ـ كان يُشاهَد أنه يفعل ذلك ولو مرة واحدة .

ثانياً ـ إن المعلم لـه ، إما أنه كان من اليهود ، وهذا لا يمكن أن يعلمـــه أخبار المسيح وأمه،والإقرار لهما بالفضل والنزاهة، ولا أن يرمي اليهود بالتحريف في كتبهم ، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن الكريم من الإنكار عليهم ، وإما

أنه كان من النصارى ، وهذا لا يُعلمه أن ينكر لاهوت المسيح ،ولا التثليث ولا الصلب ، ولا أن يرمي النصارى بالتحريف في كتبهم ، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الإنكار عليهم .

ثالثاً – أي حامل يحمل هذا المعلم على إجهاد نفسه ، وصرف وقته في تعليم هذا « الغريب الأميّ » ؟ ولِمَ لا يدعو الناس إلى هذه الأشياء بنفسه ؟ أو يختار أحداً ممن اشتهر بشعر أو خطابة أو شيء من العلم ، أو كان له جاه أو أعوان أو مال ، أو غير ذلك مما يصلح أن يكون سبباً في تخصيصه بالتعليم ؟

رابعاً – إنه من الصعب جداً أن يقدر أحد من الناس ، أن يهذب هذا « الأميّ » كل هذا التهذيب ، وأن يخرجه من عقائد آبائه وأجداده ، ويدخل في ذهنه مسائل النبوة والوحي والتنزيه والتوحيد ، وبجملة يعتقد ذلك اعتقاداً حقيقياً إلا إذا كان هذا المعلم ، مقتدراً عالماً حكيماً ، ومثل هذا لم يعرف له ذكر في بلاد العرب ، وفيما جاورها ، فكيف لم يشتهر بالعلم والفضل ؟ وأي مؤرخ لذلك العهد ، ذكر كلمة عن أحد مثل هذا متمسكاً بما يوجد في القرآن ، من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والمبادىء وغيرها ؟

خامساً – لِمَ لمْ يسرّ هذا المعلم إلى أحد ، بأنه يعلم محمداً ويهذبه ؟ وما الذي حمله على إخفاء هذه المسألة ، وكتمها هذا الكتمان المطلق ؟

سادساً – لِمَ لمْ يُشاهد محمد يحترم أحداً قبل نبوته أكثر من غيره ، أو يلوذ به ويلازمه ، كما هو شأن التلميذ مع معلمه ؟

سابعاً – أي شيء ألزَمَه الصبر أربعين سنة ، ولم يجعله يسارع إلى دعوى النبوة ، ولم يبادر إلى سرد القصص التي تعلمها مرة واحدة ؟ لا جرم أن شأن الذي يريد أن يدعي شيئاً مثل هذا ، أن تظهر عليه عدة أمور تدل على ما تطويه

سريرته ، ثم يتجرأ فيزداد شيئاً فشيئاً ، لا أن يسكت أربعين سنة ، ثم يندفع مرة واحدة بعزيمة واحدة ، قوتها في الأول ، كقوتها في الآخر .

ثامناً ــ كيف أن هذه الفكرة لم تأخذ بلبه ومشاعره ، فتجعله مشتغلاً بها طول السنة ؟ وكيف يتناساها أحد عشر شهراً ، ويشتغل بها شهر رمضان فقط من كل سنة ، فيستعد فيه لما سيدعيه . كما يزعمه أولو الأهواء في عزلته السنوية .

إن عادة المفترين أن تأخذ مثل هذه النيات بحواسهم وعقولهم ، حتى يظهر للناس أنهم دائماً في انشغال بال ولكن النبي ما كان يشغله شيء عن شيء وإلا لأنهك الفكر بدنه ، وصار سقيماً ، وكلت قواه العقلية ، من كثرة الحيل ،وتعداد الصعوبات ، التي كان يلاقيها، فتضعف عن تدبر كل ما كان يدبره، لولا الإرشادات الإلهية والإلهامات الربانية ، وكيف علم أنه لا ينقضي أجله حتى يتم القرآن في آخر سنة من حياته ، ويأمن على نفسه ، فيأتي به نجوماً نجوماً ؟

الرد على دعوى الكفرة بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة

التعليق الثاني - وإن كان التعليم حصل بعد ظهور النبوة تقول :

أولاً ـ كيف ابتدأ دعواه على جهله ؟ وأي منبه قام بفكره حتى حمله على ذلك ؟ وكيف ضمن أنه يجد من يعلمه ؟

ثانياً ــ لم يُشاهد مرة يلجأ إلى أحد الناس ليتعلم منه .

ثالثاً ـ لِمَ لم يقدم هذا المعلم ، ويفضله على أصحابه أو يوحي له بالخلافة ؟ ولم بقي معلمه مرؤوساً له ، ولم يكن رئيساً عليه ؟

رابعاً ــ لِمَ لم يوجد بين أصحابه من كان يأنف من أن يتلقى العلم منه ويخضع لأمره وينتهي بنهيه ؟ فأين كان هذا المعلم ؟ إذ لو كان موجوداً لأنف من أن يأخذ العلم عن تلميذه محمد ، ثم نحن لا نعرف أحداً بينهم ممتازاً بعلم، سوى ما أخذوه

بإقرارهم جميعاً عن كتاب الله وحديث رسوله ، فإن كان هذا المعلم موجوداً في عصر النبوة ، فلم لم يشتهر بالعلم والفلسفة قبل دعوى محمد ؟ ولِمَ أخفى نفسه حتى ادعى محمد النبوة؟ ولِمَ لمْ يظهر بين العرب، حتى تجله وتحترمه احترامها لمحمد وأي شيء استفاد حتى يكتم هذا كله؟ فيالله من التعصب الذي يعمي ويصم!

ثم إنه كان وعد أصحابه بالنصر والفتح والتمكين في الأرض والخلافة ،فوقع كل ذلك لهم ، وصدق في جميع ما أخبر به من المغيبات المستقبلة، كخبر انتصار الروم على الفرس .

هذا ولم يكن في مكة من أهل الكتاب إلا أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وكانوا من أجهلهم وأحطهم مقاماً في المجتمع الإنساني ، وكانوا يحترفون بدنيء الحرف، كخدمة بعض العرب ، أو الاتجار في بعض أشياء حقيرة.

الرد على دعوى البروتستانت بأن الرسول (ﷺ) كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها

التعليق الثالث ـ هب أنه كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها، كما ادعاه بعض البروتستانت ، فكيف أمِنَ من الوقوع في خرافاتهم التي يجزم العقل ببطلانها كقصة « شمشون » وما يتعلق بقوته وشعره ، ونحو ذلك من الأوهام التي كانت ولا تزال منتشرة بين النصارى واليهود إلى اليوم ، وقد ذكر منها إخواننا ستاً وثلاثين أسطورة منقولة عن « العهد العتيق » فلم تنزه كلامه عن تلك الحكايات المخزية ؟ ثم لم تنزه كلامه عن أضاليلهم في المسألة اللاهوتية ؟ كعقائدهم في المسيح والصلب والتثليث ، ومصارعة الله ليعقوب وغير ذلك ، أليس من المعهود أن الإنسان ، يقع في بعض غلطات من ينقل عنهم ويعتمدهم ؟ فلماذا لم يقع محمد في خطأ واحد من أخطائهم ؟

هل يعرف الأميّ الذي نشأ في وسط الجهل وفي زمن الجهل ، ما صح من المسائل وما فسد منها ؟ حتى لا يقع في كلامه إلا الصحيح ، مع أن انتشار

الخرافات والأقوال الفاسدة ، كان بحيث إذا كُلِّفَ فيلسوف بانتقاد واختيار صحيحها ، لوقع في الوهم ، ولحكم على بعض الصحيح بأنه باطل ، وعلى كثير من الباطل بأنه صحيح وخصوصاً في ذلك الزمن ، وفي تلك البلاد العربية ، التي كان العلم فيها عبارة عن مجموع خرافات للعجائز ، اختلطت بشيء لا يخلو من الصحة ، من بعض الوجوه ، فما بالك بمحمد الأميّ والرجل العاميّ !

أيتصور في هذا الرجل الذي كان يعتقد في أهل الكتاب ، أنهم غاشون ماكرون ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويفترون على الله الكذب ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : « هذا مِنْ عند الله » ليشتروا بــه ثمناً قليلاً ، أيتصور منه ، وهو يعرف كل هذا عنهم ، أن يثق بأقوال يسمعهــا من أفواه الجهلة عنهم ، ويزعم بعد ذلك أنها من عند الله ! مع أنه ما كان يثق بقول أعظم عالم من علمائهم ، بل كان يرميهم بأنهم لا يفهمون حقائق ما عندهم من الكتاب وأنهم يختلقون أشياء كثيرة لتضليل عامتهم وغشهم ، فكيف يقول النبي الذي لا ينكر أحد رجحان عقله ، على قولهم ، مع أنه شرح للناس مكرهم وكذبهم ، وكيف لا يخاف أن يكذبوا عليه ، ويغروه ويوقعوه في الخطأ ، الذي لا يمكنه التخلص منه ؟

أساس تسرب الغش لأذهان مفسري القرآن وعصمة النبي ﷺ من ذلك

التعليق الرابع ـ لقد جرينا أن الإسلام لما انتشر أيام عمر رضي الله عنه ومن بعده ودخل فيه كثير من جهلة اليهود والنصارى ومن منافقيهم ، تلقى قدماء مفسري القرآن الكريم ، ومن فم هؤلاء الجهلة وهؤلاء المنافقين ، ما لا يحصى من الأقاصيص الوهمية الباطلة ، فالجاهل أدخل الغش ، من حيث لا يشعر أنه غش ، والمنافق منهم أدخل الغش على المفسر قصداً ، وهو يشعر بأن ما يقوله ليس بصحيح

والمفسرون قبلوا منهم ذلك الغش لأنهم غير معصومين ، ولكن شيئاً من هـذا لم يقع مع النبي ﷺ ، بالنسبة لمن كان اجتمع بهم من اليهود والنصارى ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، فدل على أنه لم يكن يسمع منهم شيئاً أصلاً ، ولنا أن نتسامح ونقول : إنه ربما كان سمع من البعض،ولكن تمييزه بين الحق والباطل مما يسمع ، وعدم نزوله على تصديق شيء ما ، من باطلهم لهو دليل واضح على عصمته والعصمة هي آثار النبوة .

هل يمكن للعاميّ الأميّ ، إذا سمع خليطاً ، من قصص بني إسرائيل مثلاً ، من أفواه آحاد الناس في مجالسهم ، ممزوجة بكثير من الخرافات ، كما هو شأن العامة ، أن يفهم منها حقيقة تاريخهم ، وأن يترك ما سمعه من خرافة، ويقتصر على ما كان منه حقاً ، تصور حالة عاميّ من عامة أهل بلد كالشام مثلا ، إذا إذا سمع أقوالاً فيها الغث والسمين،ومن أفواه بعض جهلة الأوربيين، عن تاريخهم فهل يمكن هـذا العامي أن يأتينا بشيء عظيم صحيح من تاريخهم مثل ما أتى به القرآن بحيث لا يذكر منها إلا الصحيح ، ويترك الأباطيل؟ قل لي بربك هل هذا ممكن ؟ فلو كان مصدر القرآن كما يقولون ــ لكننا نجد كل صحيفة ممتلئة بالأوهام والخرافات ، ولكنا نستلقي على قفانا من الضحك عند سماع بضعة من كلامه في المسائل الطبيعية والتاريخية والعمرانية والأخلاقية واللاهوتية والشرائع المدنية والعبادات الدينية ، إذا حاول أن يملي علينا شيئاً مما سمع من ذلك الأوربي الجاهل .

بعض معجزات القرآن الدالة على أنه وحي من الله

التعليق الخامس – ١ ـ نظر طبيب إفرنسي من أهل العصر في ترجمة القرآن فرأى أن كل ما يتعلق بالطب والمحافظة على الصحة ، كالطهارة والاعتدال في الطهارة وعدم الإسراف ، موافق لأحداث المسائل التي استقر عليها رأي الأطباء في هذا العصر ، فقال :

« من أخبر محمداً بهذا الذي كان غائباً عن العرب ! » فرغبه ذلك في تأمله في كل القرآن فأسلم .

٢ ـ ونظر المستر « براون » الإنكليزي وهو ربان بارجة ـ في ترجمة المستر « سايل » الإنكليزية للقرآن ، فرآه أنه قد استقصى فيه الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبي ﷺ كان من أكبر ربانيّي الملاحين ، فسأل عنه ، فقيل له « إنه لم ير البحر قط ، وكان مع ذلك أميّاً ، لم يقرأ كتاب جغرافيا ، ولم يتلق عن أحد درساً ، من دروس الأشياء ، ولم يتعلم من دروس الطبيعة وعجائب المخلوقات ـ قال : فعلمت أن هذا كان بوحي من الله ، لأنه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وإنما هو إخبار من الله تعالى » فأسلم وتعلم العربية ، رحمه الله تعالى .

٣ ـ فالأخبار عن قصة يوسف وإخوته ومع إمرأة العزيز والفتيين ومليك مصر هو إحدى معجزات القرآن ، وهكذا باقي قصص الرسل مع أقوامهم ، وهذا النوع هو من قبيل الإخبار بالغيب الماضي .

٤ ـ ومن جملة أنباء الغيب الماضي التي أثبتها لنا التاريخ بعد بعثة النبي ﷺ بعد قرون ـ إخباره عن أهل الكتاب أنهم ﴿ نَسُوا حظّاً مما ذكّروا به ﴾ (٥ : ١٥) ، وأنهم ﴿ أوتوا نصيباً مِنَ الكتاب ﴾ (٣ : ٢٢) ، ذلك أنهم كانوا أضاعوا كتابهم وفقدوه عندما أحرق البابليون هيكلهم ، وخربوا عاصمتهم وسبوا ما أبقى عليه السيف منهم ، فلمّا عادت إليهم «الحرية» في الجملة ، جمعوا ما كانوا حفظوه من التوراة ووعوه بالعمل به ، أو ذكروه في بعض مكتوباتهم لنحو الاستشهاد به ونسوا الباقي ، هذا هو الذي وقع ، ولم يكن يخطر على بال أحد من العرب في زمن البعثة ـ وهم أميون ـ أن اليهود فقدوا كتابهم الذي هو

أصل دينهم ، ثم كتبه لهم كاتب منهم ، نشأ بين السبي والأسر بين الوثنيين بعد عدة قرون ، فنقص منه وزاد فيه ، ولم تعرف المصادر التي جمع منها ما كتبه ، معرفة صحيحة ، كل هذا كان خفي على علماء المسلمين عدة قرون بعد انتشار العلم فيهم .

(٥) جعل الله تعالى الآية على صحة رسالة النبي ﷺ علمية ، حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين ، وهي إتيان رجل أميّ عاش بين الأميين ، إلى ما بعد سن الكهولة ـ بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين ، الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً ، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه ـ ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها ، وأسلوب أشد إعجازاً .

(٦) ويوجد في القرآن ، إخبار عن الغيب المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿غُلِبت الروم في أدنى الأرضِ ، وهُمْ مِنْ بَعْد غلبِهم سَيغلِبون في بضع سِنين لله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ ، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرِ اللهِ﴾ (٣٠ : ٢ـ٥) وقد ظهر صدق ذلك بعد بضع سنين من نزول الآية ، وكان أبو بكر الصديق (رض) راهن بعض المشركين على صدق الخبر ، فربح الرهان ؛

ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل كما قال : ﴿ إنـّا نحن نزّلنا الذّكرَ وإنـّا له لحافِظونَ ﴾ (١٥ : ٩) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصّالحاتِ ليَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ ، كما استَخلفَ الذينَ مِنْ قبلِهم ، وليُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتَضى لهم ، وليُبَدِّلنَّهم مِنْ بعدِ خوفِهِمْ أمْناً ، يَعبدونَني لا يُشرِكون بي شيئاً ﴾ (٢٤ : ٥٥) وقد أنجز الله وعده .

الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً لذاته

التعليق السادس ـ هذه الآية (آ ١٠٢) بحث من بحوث أصول الدين ، وهو

الاستدلال على النبوة ، ولم يكد يتعرض له هنا قصداً ولذاته، ولكن ذكر بعد تمام القصة اليوسفية استدلالاً بها على صحة النبوة ، فهو بحث ذكر بالعَرَض ، ولذلك اختصر جداً ولم يطوّل فيه ، إذ ليس المقام مقام استدلال ، وانما هو مقام قصص وتاريخ .

هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ

التعليق السابع - غني عن البيان أن هذه السورة مكية ، واليهود والنصاري لم يسكنوا مكة ، ولو كانوا قد سكنوها ، لكان لكل منهما حي خاص ولكان لكل فريق معبد خاص ، يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم ، وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة عند اليهود والنصارى ما يشير أقل إشارة إلى وجود شيء من ذلك .

نعم ربما أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون إلى مكة لأشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون إلى « خيبر » ليجلبوا منها حليّ آل « أبي الحقيق » التي كانت نساؤهم وفتيانهم تتحلى بها حين زفافهن وغير ذلك.

كذلك كان « كعب » بن الأشرف قد جاء إلى مكة ليرثي قتلى « بدر » وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود . ويحدثنا الواقدي أنه وجد في مكة عبد من اليهود كان اسمه « عبد الدار بن جبر » سمع سورة يوسف، فكان لها وقع شديد في نفسه فأسلم ودخل في ذمة النبي ﷺ ، ولما بلغ الخبر مشركي مكة أوسعوه ضرباً ؛

نعم إن بعضاً من أفراد اليهود سكنوا الطائف ، وفي مدن أخرى من الحجاز غير مكة ، ومع ذلك كانوا قليلين، وقد كان بعض أفراد النصارى من أحرار وعبيد ساكنين في مكة ومختلطين بأهلها ، ولكنهم مع ذلك قليلون جداً .

هذا كل ما قدر عليه الأجانب أن يثبتوه لكي يخيلوا للناس أن النبي ﷺ

ربما كان سمع ما يتعلق باليهود والنصارى كقصة يوسف ونحوهـــا من بعض هؤلاء المذكورين .

تكرر المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات أخرى

التعليق الثامن – إن المعنى الذي حوته هذه الآية قد تكرر في عدة آيات، منها ما أُمِرَ النبي أن يقوله : ﴿ قلْ : هو نبأٌ عظيمٌ أنتم عنه مُعرِضونَ ، ما كانَ لي مِنْ عِلْمٍ بالملإِ الأعلى إذ يَختَصِمون ، إنْ يُوحَى إليَّ إلا إنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴾ (٣٨ : ٦٧ — ٧٠) يشير بذلك لما ذكره عقبه على الأثر من المقاولة بين المَلَك النائب عن الله تعالى وبين إبليس ، وهذان الفريقان هما المراد « بالملإ الأعلى » والمراد من كونهما ملأً أعلى، أنهما من العالم الروحاني لا الجسماني.

وقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿ وما كنتَ بجـانب الغربيِّ إذ قضَيْنا إلى موسى الأمْر ، وما كنتَ مِنَ الشاهدين ، ولكنَّا أنشأنا قروناً فتطاوَلَ عليهم العُمرُ ، وما كنتَ من الشاهدين ، ولكنَّا أنشأنا قروناً فتطاوَلَ عليهم العُمُرُ وما كنت ثاوياً في أهلِ مَديَنَ تتلو عليهم آياتِنا ، ولكنَّـــا كنا مُرسلين ، وما كنتَ بجانبِ الطورِ إذْ نادَينا ، ولكنْ رحمةً مِنْ رَبِّكَ ، لتُنذِرَ قوماً ما أتاهم مِنْ نذيرٍ من قَبْلِكَ ، لعلّهم يَتَذَكَّرون ﴾ (٢٨ : ٤٤ — ٤٦) ، قال ذلك بعدما قص عـلى نبيه ﷺ قصة موسى عليهـما السلام ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيهِ إليك ، وما كنتَ لديهـــم إذ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يكفلُ مريمَ ؟ وما كنتَ لديهم إذْ يَختصمون ﴾ (٣: ٤٤) وقوله تعالى بعد ما فصّل قصة نوح مع قومه : ﴿ تلك من أنباءِ الغيب نوحيها اليك ، ما كنت تعلمها أنتَ ولا قومُكَ من قبْلِ هذا ﴾ (١١ : ٤٩) .

المكر الثابت والمكر المقدر بقدر العمل المرافق له

التعليق العاشر - قوله (وهم يمكرون) جملة حالية ، ولم يقل ماكرين

حتى تكون حالاً مفردة ، لأنه يوجد فرق كبير في المعنى بين هذه الحال الجملة ، والحال المفردة ، فمعنى «وهم يمكرون» أن المكر وصف ثابت لهم في نفسه ،وقد أجمعوا أمرهم في حال تلبسهم به ، ولكنهم هم مكرة أيضاً قبل ذلك وبعده ، ومعنى « ماكرين » أن المكر كان وصفاً لهم حال إجماعهم أمرهم فقط،فهو تابع لإجماعهم أمرهم ، مقدر بقدره ، تقول مثلاً : « جاء زيد وهو راكب » ومعناه أن الركوب وصف ثابت له في نفسه ، وقد جاء هو في حال تلبسه به ، وتقول : « جاء زيدٌ راكباً » ومعناه أن الركوب كان وصفاً له حال المجيء ، فهو تابع للمجيء مقدر بقدره فإذا تقرر هذا المعنى،فليهنأ اليهود الصهيونيون الذين هم ذرية هؤلاء « المكرة » الموصوفين هنا بدوام المكر !!!

من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في كل مناسبة

التعليق الحادي عشر ـ هذه الآية والآيات التسع التي تليها ، أتي بها بعد تمام القصة اليوسفية ، لأن عادة القرآن المجيد هكذا ، إذ بينا تراه يتكلم في التاريخ لا يلبث أن يخرج عنه إلى موضوع « التوحيد » وأدلته ، وبينا تراه يتكلم في الشريعة لا يعتم أن يحكي عن « التوحيد » وآياته ، وبينما تراه يتكلم عن محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، إذ هو ينتقل لذكر « التوحيد» الأمر الذي نفهم منه أن بيان «التوحيد» هو أهم شيء في نظر القرآن ومنزّله والمنزّل عليه ، ولاريب أن الغرض الحقيقي من رسالة النبي ﷺ ، ونزول القرآن عليه ، هو رفض عبادة الأوثان والثالوث ، وهجر الاعتقاد بذلك ، والحرص على الاعتقاد بألوهية واحدة ، خلافاً للعرب وبربوبية واحدة ، خلافاً للنصارى ، كما أن القرآن يحرص جد الحرص ، على الاعتقاد بيوم الدين ، والعمل بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، ولعمري كأن النبي ﷺ كان يحس أن عقيدة العرب بالأوثان،وعقيدة النصارى بالثالوث ــ كأنها إبرة تنخسه في جسمه ، وتشكه في رأس قلبه ، فلذلك ولكون

ربه كان يسارع في هواه ، اعتنى القرآن المجيد كثيراً وكثيراً جداً ، بالطعن في تلك العقائد الوثنية الزائفة .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك .. الخ)

— ٢ —

وقال الحاج محمد الصومطري [١] :

طرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والأنبياء

« هذا القرآن العربي المكتوب في المصاحف ، المقروء بالألسنة باللغة العربية ، هو كلام الله تعالى المعجز للبشر ، وإنه ليس لجبريل منه إلا تبليغه عن الله ، كما أن الرسول ﷺ ليس له منه الا تبليغه ، فجبريل تلقاه من الله بالصفة التي تليق به تعالى ، ولا يعلمها من خلقه الا جبريل ، ثم محمد ﷺ تلقاه من جبريل بالوحي الذي لا يعرف كنهه الا محمد وأمثاله من الأنبياء الذين تلقوا مثله عن جبريل ، ثم الصحابة سمعوه من النبي ، ثم سمعه التابعون ومن تبعهم الى عصرنا ، وكما يسمعه بعضنا من بعض بأصوات البشرية .

وقد اخترع البشر في العصر الأخير ، وسائل لأداء الكلام وتبليغه لم يكن يعرفها ولا يعقلها أهل العصور السابقة ، كالتلغراف السلكي واللاسلكي والراديو والتلفون وكل منها مظهر من مظاهر الكلام النفسي ووسائل أدائه ، ويسمى كلاماً حقيقياً لا مجازياً ، وينسب كل كلام الى من صدر عنه ، وكان مجلى كلامه النفس ، فالجملة من كلام زيد من الناس يتناقلها الناس بألسنتهم وأقلامهم بآلات التلغراف والتلفون والراديو وكل منهم يقول « إنها كلام زيد » ، ومن يرى في

(١) نسبة الى جزيرة صومطرة في البلاد الاندونيسة .

القرطاس : « قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل » يقول إن هذا كلام امرىء القيس ، ومن يسمع ذلك من لسان أي إنسان يقول ذلك ؛ ولم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلق على الكعبة ، ثم كتب في الدفاتر وقرأه الناس ، إن لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الراسم ، وأن الذي أنشد على الناس فيه هو كلام المنشد ، وإن معناه فقط لامرىء القيس ، أو إن ما تمثل من هذا النظم في امرىء القيس هو شعره ، وما نقرأه في الكتب أو من حفظنا لمعلقته هو كلامنا ، ولا إن هذا كلامه مجازاً ، وذلك كلامه حقيقة ، بل أجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه ، وأنه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها إلا النقل لكلام غيرهم ،

وإذا قدر البشر على تمثيل كلامهم النفسي بعدة مظاهر لا يختلف مدلولها عن مدلول ما في أنفسهم ، فالله تعالى أقدر منهم على إبلاغ كلامه النفسي لرسله من الملائكة والناس ، بما يليق باستعداد كل منهم ، فلا غرو من أن يكون لوحيه للملائكة ، صفة غير صفة وحيه للرسل من البشر ، فيما يكلمهم به من غير واسطة المَلَك ، وأن يكون لما يسمعه النبي من المَلَك صفة غير صفة ما يسمعه المَلَك من الرب سبحانه وتعالى ، ولكن الكلام واحد في جميع مظاهره ، لا يختلف باختلاف طرق أدائه وتبليغه ، كما نعرفه بالكلام المسموع بالآذان والمقروء في الصحف والمأخوذ من آلة التلغراف السلكي أو الهوائي ، ومثله المرسوم في الهواء أو ما تكيف به الهواء ، وبهذا المثال يظهر للمتأمل أن تجلي كلام الله تعالى في الألسنة والصحف والهواء وآلات التلغراف ، وفي اللوح المحفوظ وفي أنفس الملائكة والبشر - لا يخرجه عن كونه كلامه تعالى ، ولا يقتضي أن تكون صفة الكلام النفسية له تبارك وتعالى ، مشابهة لصفة الكلام في أنفس البشر أو غيرهم من خلقه تعالى ، ولا أن يكون تكليمه للملائكة ولموسى ومحمد ﷺ كتكليم بعضنا

لبعض ولكن مؤدّاه واحد ، فالذي نقرؤه أو نكتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد الأمين ﷺ فتلقاه عنه بهذه اللغة العربية ، وهذا الاسلوب المعجز ، الذي يعجز عليه الصلاة والسلام كغيره من البشر عن مثله بمقتضى ملكته العربية »

(عن مجلة المنار)

طبيعة أكثر الناس عدم الإيمان

آ (١٠٣) « ومـــا أكثَرُ الناسِ « وَلَوْ حَرَصْتَ » بمؤمِنين » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وثلاثة ، فقام الهمام أحمد اليافي وقال :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ إنني قد أطلعتك يا محمد على أنباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، (و) مع هذا (ما أكثر الناس) عموم الناس ، أو أهل مكة خاصة ، (ولو حرصت بمؤمنين) حيث تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فأنت ولو استهلكت في سبيل إيمانهـــم ، واستقتلت في الحصول على تصديقهم إياك ، وطار قلبك شعاعاً على ذلك ، فالأكثرية هـــم جهنميون لا يؤمنون برسالتك ولا بالتوحيد ، لأن في قلوبهم مرضاً :

قال الشاعر :

ومن يكُ ذا فمٍ مرّ مريض يجد مرّاً به الماءَ الزلالا

وقال البوصيري رحمه الله :

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقمِ

كما أن البدن إذا مرض ، لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ والإرشادات .

وفيما يلي تعليقان على الآية :

تأسي الناصحين برسول ﷺ عند عدم إفادة إرشادهم للناس

أولاً – هذا قول الله تعالى لرسوله ، وهو أعلم المرسلين وأخلص المخلصين ، في إرشاده ونصحه للخلق ، فإذا كان هو كذلك ، فليتأسَّ به الناصحون، الذين تصدروا للإرشاد بإخلاص ، ولا يحزنوا من عدم إفادة إرشادهم لكثير من الناس وليعلموا أن عدم النفع له سببان : فساد في الواعظ يصرف الموعوظ عن سماع ما يقول وفساد في الموعوظ يجعله غير مستعد للانتفاع بما يسمع ، ولو جاءه جميع المرسلين .

المؤمنون أقل من الكافرين

ثانياً – مقتضى هذه الآية أن المؤمنين أقل من الكافرين ، ولذلك شواهد :

١ – قوله تعالى : ﴿ قال : أرأيْتكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عليّ ، لئِنْ أخّرتَنِ إلى يوم القيامةِ ، لأحتَنِكَنَّ ذُرِّيّتَهُ – إلاّ قليلاً﴾ (١٧ : ٦٢) أي لاستأصلنهم بالإغواء – من احتنك الجرادُ الأرضَ إذا جرد ما عليها أكلاً ، واحتنكَ الشاتين : أي أكلهما جميعاً – .

٢ – قال تعالى : ﴿ وما كان أكثَرُهُم مؤمِنينَ ﴾ كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسل لها لها نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يعلم من سورة الشعراء .

٣ – قال تعالى : ﴿ فلمّا أحسّ عيسى منهمُ الكفرَ ، قالَ : مَنْ أنصاري إلى اللهِ ؟ – قال الحواريّون : نحنُ أنصارُ اللهِ ، آمنّا باللهِ واشهَد بأنّا مُسْلِمون ﴾ (٣ : ٥٢) والحواريون كانوا اثني عشر فقط ، ارتد منهم « يهوذا

الأسخريوطي ، فبقي أحد عشر ؛ فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الإيمان ، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية ، فالمسلمون اليوم يعدون (٣٦٠) مليوناً ، ولكن عدد المسيحيين اليوم (٤٢٠) مليوناً ، وعدد الوثنيين (٥٠٠) مليوناً ، وهؤلاء واولئك وإن كانوا مؤمنين بالله إلهاً ، لكن النصارى آمنوا به إلهاً أباً ، وبالمسيح إلهاً ابناً وبالروح القدس إلهاً ناطقاً بالأنبياء ، قالوا : « والكل إله واحد !!!... » ، وأما الوثنيون فأشركوا في الألوهية : أي العبادة ، دون الربوبية : أي الخالقية ، فالخالق عندهم رب واحد ولكن المعبود عندهم ، هو وغيره من الوسطاء .

(مرحى)

إخلاص النبي ﷺ في دعوته

آ (١٠٤) « وما تَسأَلُهُمْ عليه مِنْ أَجرٍ ، إنْ هُوَ إلّا ذِكْرٌ للعالَمين » .

استمرت الجلسة منعقدة ثم تليت الآية المئة وأربعة ، فقام برهان الحق النابلسي وقال :

(وما تسألهم) يا محمد (عليه) على ما تحدثهم به وتذكرهم (من أجر)أي من جعالة ولا أجرة ولا جزاء ، أي لا تريد منهم منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار (إن هو) هذا الذي تحدثهم به (إلاّ ذكر) عظة من الله (للعالمين) عامة ، وحثّ على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ، يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

وإليكم الملحوظات التالية :

تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن

الملحوظة (١) – تكرر ذكر هذا البحث في القرآن الكريم عشر مرات :

فأولاً – قال تعالى خطاباً لخاتم النبيين : ﴿ قلْ ما سَأَلْتُكم مِنْ أجْرٍ فهو لكم ، إنْ أجْريَ إلاّ على اللهِ ، وهو على كلّ شيءٍ شَهيدٍ ﴾ (٣٤ : ٤٧)

ثانياً – قال تعالى خطاباً لجنابه الأعظم : ﴿ قلْ ما أسألُكم عليه من أجْرٍ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفينَ ، إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالمين ﴾ (٣٨ : ٨٦) .

ثالثاً – قال تعالى : خطاباً لنور العالم ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجراً ، إنْ هو إلاّ ذِكْرى للعالمين ﴾ (٦ : ٩٠) .

رابعاً – قال تعالى خطاباً لسيد الأنبياء : ﴿ أم تسألُهم أجراً ، فهم من مغْرَمٍ مُثْقَلونَ ؟ ﴾ (٥٢ : ٤٠) .

خامساً – قال تعالى خطاباً لفخر الإنسانية : ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودةَ في القُربى ﴾ (٤٢ : ٢٣) أي لكني إنما أقصد مودتي لقرباي ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البديع اللطيفة ، وهو أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح ، بتقدير دخولها في صفة الذم المنفية كقوله تعالى : ﴿ لا يَسمَعونَ فيها لَغْواً ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ (٥٦ : ٢٥ و ٢٦) وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائبِ

وقول الآخر :

ولا عيب فيه غير ان خدوده بهن احمرار من عيون المُتَيَّمِ

والدليل على ما جرينا عليه في معنى هذه الآية ما نقلناه لك من الآيات

الأربع المخاطب بها سيد الكائنات ، التي تنفي عنه طلب الأجر من الناس من أساسه ، بالمرة من كل وجوهه ، وخير ما فسرته بالوارد .

سادساً – وهكذا قال نوح : ﴿ وما أسألكُمْ عليه مِنْ أجْرٍ ، إن أجْريَ إلا على رب العالمين ﴾ (٢٦ : ١٠٩) .

سابعاً – وهكذا قال هود : ﴿ يا قَوم ِ لا أسألكم عليه من أجرٍ ، إنْ أجْريَ الا على الذي فطَرَني ، أفلا تَعقِلون ؟ ﴾ (١١ : ٥١) .

ثامناً – وهكذا قال صالح : ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ، إنْ أجْريَ إلا على رب العالمين ﴾ (٢٦ : ١٦٤) .

تاسعاً – وهكذا قال شعيب : ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ، إنْ أجريَ إلا على ربِّ العالمين ﴾ (٢٦ : ١٨٠) .

عاشراً – وهكذا قال حبيب النجار : ﴿ إتَّبعُوا مَنْ لا يَسألُكم أجْراً وهم مُهتدون ﴾ (٣٦ : ٢١) يعني بذلك رسل المسيح إلى أنطاكية .

الإخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها

الملحوظة (٢) – هذه الآية تشير إلى إخلاص النبي ﷺ في دعوته ، إذ الغاية من « الدعوة » صلاح العالم ، وانتظام شؤونه على منهاج السعادة ، فإذا وجّه الداعي قصده إلى هذا الغرض ، بدون نظر إلى منفعة مادية ، بل ولا معنوية تعود عليه ، استقام على الطريقة ، وقضى حياته في سيرة راضية ، وكان كلامه مقبولا جداً ، وإذا انحرف عن هذا القصد ، ولو قيدَ أنملة ، رأيته يضطرب في حال دعوته ، ويكون كالريشة تخفق بها الرياح ، أينما تصرفت وقد حكى التنزيل أن شعيباً (ع) قد برّأ نفسه ورفعها عن أن تؤمّ غرضاً من « الدعوة » سوى الإصلاح قال : ﴿ إن أُريدُ الا الإصلاحَ ما استطعْتُ ﴾ (١١

: ٨٨) ، فتشوّفُ « الداعي » الى ما في أيدي القوم ، وتطلّعه الى أن ينال من وراء ارشاده شيئاً من هذه الحياة ، قادح في صدقه ، وداخل بالريبة في اخلاصه .

معنى « العالمين »

الملحوظة (٣) – كلمة «العالمين» جمع عالَم وهم الناس كما يدل عليه استعمال القرآن ، في مثل : ﴿ لِيكون للعالمِين نذيراً ﴾ (٢٥ : ١) وقول لوط: (أتأتون الذُكرانَ مِنَ العالَمِين ؟) (٢٦ : ١٦٥) أي الناس ، فهو على هـذا مشتق من العالم ، ولذلك جُمعَ جَمع مذكر سالم .

الفصـــل الثـــاني

تقريع الغافلين عن التفكر في آيات الله

آ(١٠٥) « وكَأَيِّ مِنْ آيةٍ في السموات والأرضِ ، يَمُرُّونَ عليها ، وهم عنها مُعْرِضونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وخمسة فقام نعمة الله الجنيني [١] وقال

يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ، ودلائـــل توحيده بما خلقه الله في السموات ، من كواكب زاهرات ، ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات وغير متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات

(١) نسبة الى جنين من بلاد فلسطين .

متشابهة ومختلفات ، في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، فقال تعالى : (وكأيّن) وكم (من آية) علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والأرض)مروا و(يمرون) وسيمرون (عليها) ويرون فيها المعجب العاجب (وهم) أي الناس (عنها معرضون) مع أن الحقيقة بنت الفكرة والنظر بريد الصواب ، ولكن التفكير والتدبر عند هؤلاء ضائع ، وهم إنما يعيشون في الدنيا كالأنعام ، يأكلون ويشربون ولا يتفكرون ، مع أن هذه الآيات كثيرة ، يُحصى النمل ولا تُحصى ، وتُستقصَى الحركات والسكنات ولا تُستقصَى ، قال أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر ... الى آثار ما صنع المليكُ
غصونٌ من زبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريكُ

وقال أبو العلاء المعري :

كل يسبح فافهم التقديس في ... صوت الغراب وفي صياح الجدجدِ[1]
أما المجاوز فارْعَهُ وتوقه ... واستعف ربك من جوار الملحدِ
ليس الذي جحد المليك وقد بدت ... آياته ، بأخ لمن لم يجحدِ

(وكأي من آيةٍ ...)

— ٢ —

وقام الشيخ المحقق اليماني وقال :

اسمعوا لي أيها السادة بإسماعكم بضمة مواد على هذه الآية العظيمة :

تقريع الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية

الدالة على توحيد الإله

المادة (١) — قوله : (وكأي من آية .. الخ) — أي لم يكن كل أمرهم

(١) الجدجد طوير قفاز يشبه الجراد ويقال له صرار الليل .

أنهم لم يستدلوا بما ذكر في (آ ١٠٢) من دليل النبوة ، بل يعطف على هـــذا ويزاد عليه أنهم أضافوا إلى عدم الاهتداء بدليل النبوة ، عدم الاهتداء بالآيات الكونية التي تهديهم وترشدهم إلى توحيد الإله في الألوهية ، كما وحدوه في الربوبية ، أي فهم مع هذا الإعراض عن النظر في دليل النبوة ، معرضون عن الكثير من الآيات الكونية ، الدالة على أن الرب الواحد ، هو الحقيق بالألوهية وحده ، وأنـه لا يجوز أن يدعى غيره ، ولا أن يعبد سواه ، لأن الربوبية والألوهية متلازمتان ، فالآيات الدالة على أن الرب واحد ، دالة أيضاً على أنه هو الإله وحده ، ولولا إعراضهم عن النظر في ذلك ، والتأمل فيه عناداً من رؤسائهم ، وجموداً عـلى التقليد من دهمائهم ، المانع من النظر والاستدلال ، لظهر لهم ظهوراً لا يحتمـل المراء ، ولا يقبل الجدال – وأصل « الإعراض » التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه –.

تقريع أهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل أبصارهم وبصائرهم عما في الوجود من آيات

المادة (٢) – هذه الآية الكريمة ، نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة ، كما أنها للناس عامة ، وهي تقريع لمن عطلوا أبصارهم عن إدراك صحائف الوجود وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة ، وكم جاء في القرآن الكريم أقوال من هذه القبيل كما في قوله تعالى : ﴿ لهم قلوبٌ لا يَفْقَهون بها ، ولهم أعْيُنٌ لا يُبصِرُون بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمَعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ ، أولئِكَ هم الغافلون ﴾ (٦ : ١٧٨) .

النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله

المادة (٢) – آيات الله التي في السموات والأرض كثيرة جداً ، فمنهـا نوع عتيق ، ومنها نوع جديد ، فمن آيات الأرض من النوع العتيق أن النمل يرى

الإنسان قاصده ، أو ماشياً قريباً منه ، ولا يترك عمله الذي هو فيه ، ولا يجفل ولا ينثني لذعر ، ولا يخاف من غدر مع أن الإنسان بالنسبة للنمل كالجبل ، ولو أننا تصورنا جبلاً يمشي على الأرض ، ويكاد يصادم الإنسان ، لهلع إذا رآه ، ومات قبل أن يقرب منه ، فما ذاك إلا لأن الله تعالى أودع في قلب النمل من الشجاعة والثبات على العمل ما لم يودعه في قلب الإنسان ، وإن ذلك من أعظم آيات الله في أرضه ،

ومن آيات الأرض ، ثبوتها إذ لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض وذلك في قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسيَ أن تميدَ بكم ﴾ (١٦ : ١٥) .

ومنها أن كل شيء حي فهو من الماء ، حتى الجماد فإن له حياة قائمة بماء التبلور وذلك في قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍ ﴾ (٢١ : ٣٠) .

ومنها ما كشفه علماء النبات من تلاقح النبات ، وأنه أزواج : أي ذكر وأنثى والله تعالى يقول : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى ﴾ (٢٠ : ٥٣) ويقول : ﴿ ومن كلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجينِ اثنينِ ﴾ (١٣ : ٣) ويقول : ﴿ ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجينِ لعلكم تذكّرون ﴾ (٥١ : ٤٩) ويقول : ﴿ سبحانَ الذي خلقَ الأزواجَ كلَّها مما تُنبتُ الأرضُ ، ومن أنفسِهم ، ومما لا يعلمون ﴾ (٣٦ : ٣٦) .

ومنها كون الرياح تلقح النبات ، بنقل أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات بعضِها إلى بعضٍ فتثمر بالتلقيح ، كما هو صريح قولة تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقحَ ﴾ (١٥ : ٢٢) ، ولما علم الإفرنج بهذا قال بعض المطلعين على القرآن من المستشرقين وهو المستر « اجنيري » الانكليزي الذي كان معلم العربية في جامعة اكسفورد بانكلترة : « إن أصحاب الإبل — يعني العرب — قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً » (نقل ذلك السيد محمد بيرم الخامس في مقدمة « صفوة الاعتبار ») .

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح ، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك إلا من القرآن الكريم .

ومن آيات الله تعالى عظمة « الشمس » وكوكب « الشعرى » بالنسبة إلى الأرض ، فان هذه الأرض إذا نحن قدرناها تقديراً نسبياً بحجم الحمصة ، تكون مساحة «للشمس»بالنسبة اليها كمساحة مائدة مستديرة ،طول قطرها ذراع فرنسية؟

ومساحة سطح كوكب « الشعرى » الذي قال الله فيه :﴿وأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ (٥٣ : ٤٩) تبلغ مئة ذراع فرنسية ؟ بالقياس إلى تلك الحمصة .

ومن آيات الله تعالى ، أن جميع هذا العالم الشمسي يدور في الثانية الواحدة بسرعة عشرين الف ذراع فرنسية ، مجتازاً فضاء الله الذي لا نهاية له ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ والشمسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ (٣٦ : ٣٨) ، فتأمل هذا التنكير في قوله : « لمستقر » فهو يشمرك أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية الى نهاية محتومة ، فما الشمس بمؤلهة إذا كان لها استقرار ، بل هي محدثة فانية ، ثم قوله « لها » هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية ، لأن المستقر غير مطلق ، بل هو « لها » .

ومن آيات الله تعالى «المجرّة » وهي سطح هائل في غاية العظم ، وهي محيطة بالسماء ، وتسبح فيها الوف من العوالم .

ومن آيات الله تعالى أن يعدد درجات الليل والنهار . واصباً ودائماً ، ثلاثمئة وستون ، كما ذكر تلك ذلك علماء الميقات ، وقد أشير لذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) ، فان عدد « رفيع » بحساب الجُمل هو ما ذكر ؛

وهل سمعت « بحَمام الزاجل » ؟ خذ حمامة من مُطَيّرها ، واحملها إلى آخر حدود إقليم ما واطلقها ، فترجع إلى مُطَيّرها ، فما هي هذه الحاسة التي تدفع الحمامة إلى بيتها من مسافة الوف الأميال ؟ ليست حاسة السمع ولا النظر ، ولا شيء من الحواس الخمس ، هي حاسة لا نعرفها « لأنها ليست فينا .

ومن آيات الله الباهرة ، أن ما تأخذه الأرض مطراً وثلجاً تردّه بخاراً ، وذلك بحسب الاحصاء الأخير ١٦ مليون طن في الثانية وبيانه مذكور بالتفصيل في الكتب المختصة .

ومنها الطير كما قال تعالى : ﴿ أوَ لمْ يَرَوا إلى الطيرِ فوقَهم صافاتٍ ويَقبِضْنَ ؟ ما يُمسِكُهُنّ إلا الرحمنُ ، إنه بكل شيءٍ بصيرٌ ﴾ (١٩:٦٧) فمن آيات توحيده وعجائب قدرته ما يرونه في كل وقت وآن من تحليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستعلائها في طبقات الجو ، مع أنها أجسام ضخمة ، كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض ، ولكنه تعالى بباهر قدرته وعجيب صنعه وحكمته، خالف في أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى، لائقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعلي في الهواء من دون أن تسقط ، فمن فعل هذا يا ترى؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟

حقاً إنه ما أمسكها إلا الرحمن الذي رحم هذه الحيوانات ، فيسّر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان ما حفظ به نوعها، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها ، ولا بدع ، فهو تعالى بكل شيء بصير ، يعطي كل شيء من خَلْقه القوى والسُنن اللازمة له ، والمتوقف عليها إبقاؤه ، وقد اتفق العلماء على أن السبب في استمرار الطيور الطائرة ، يرجع إلى تَقَعُّر أجنحتها وتحدّبها ، وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح

في طيران الإنسان، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحاكي أجنحة الطيور وأوضاعها ، ولعمري إن طيران الإنسان، لهو من الآيات الحديثة العجيبة أيضاً كطيران الطير ، ولو كان الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى مسألة « الطيران » في جوّ السماء . لذكره القرآن الكريم ، لأهل ذلك العصر ، ولكن قبل اختراعه كيف يذكره لهم ، وهم لا يعرفونه ؟ وكيف يحيلهم على مجهول لهم قد ينكرونه ؟ ولعمر الحق إنه لا فرق بين طيران الطير ، وطيران الإنسان ، في أن كلاً منهما أثر من آثار قدرة الله وعجيب صنعه في خلقه ، « طار الطائر » بقوى ونواميس مودعة في تركيب جسمه ، وهي من الله ، و « طار الإنسان » بقوى عقلة وعلمه وملاحظته وصبره وثباته وشجاعته ،ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه هي مـن صنع طيارته ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ،ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلهنا ، وإنما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ،وفيض من روح الله ،آمنا بالله وما أنزل الينا من عند الله!!!...[١]

ومن آياتنا نحن أهل اليوم ــ النظارات المقربة ،التي هي عبارة عن عدسيات بللورية ، ضمن أنبوب طويل ،بها نَرَى النجوم البعيدة عنا مليارات من الأميال كأنها قريبة منا جداً .

ومنها أن قليلاً من المياه الغالية في مرجل ، تستطيع جر قطار ضخم ،بقوة لا يستطيعها جواد ولا مئة جواد .

ومنها أن مواد كيماويةفيوعاء يمتد منه شريط نحاسي ،وهومايسمى «تلغرافاً» يجعلنا نتخاطب مع أقاصي الأرض إلى أقاصيها كأننا واقفون بعضنا إزاء بعض ،

(١) الكلام لمعاصرنا الشيخ عبد القادر المغربي .

ومن آيات الله تعالى ، طريقة التصوير الضوئي« فوتوغراف »بامساك الظل ، وهي مذكورة في آية : ﴿ ألمْ ترَ الى ربِّكَ كيفَ مد الظِلّ ؟ ولو شاء لجَعَلهُ ساكِناً .. ، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلا .. ﴾ (٢٥ : ٤٥) فتأمل قوله ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾فان هذه الحروف تكاد تنطق بأن هـذا الأمر كائن لا محالة .

ومن آيات الله تعالى ، ما اكتشفه العلماء من أن مادة الكون هي «الأثير» ، والله تعالى يقول في بـدء الخليقة : ﴿ ثم استوى الى السماءِ وهي دُخانٌ ﴾ (٤١ : ١١) .

ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي ،والله تعالى يقول في السموات والأرض : ﴿ كانتا رتْقاً ، ففتَقناهما ﴾ (٢١ : ٣٠) .

ومنها المذياع « الراديو » الذي ينقل الصوت والغنة الى مئات الأميال .

ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون

المادة (٣) — هذه الآيـة الكريمة تنعي على الناس أنهم لا يستعملون ما عندهم من العلم والمعرفة التي وهبهم الله تعالى ، فلهذه الآية وأشباهها أثر كبير في الحياة العقلية وإثارة العقل الى النظر لما في العالم من الظواهر ، قال تعالى : ﴿ أو لم يَنظُروا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ ، ومـا خَلقَ اللهُ من شيءٍ ﴾ (٧ : ١٨٤) وقال تعالى: ﴿ فلْيَنظُرْ الإنسانْ مِمّ خُلِقَ ؟ ﴾ (٨٦ : ٥) وقال : ﴿ فلْيَنظُرِ الإنسانُ الى طعامِه ، أنـّا صببْنا الماءَ صبّاً ، ثم شقَقنا الأرضَ شقاً ، فأنبَتْنا فيها حبّاً ، وعنَباً وقَضْباً وزَيْتُوناً ونخْلاً ، وحدائِقَ غُلْباً ، وفاكهةً وأبّا ، مَتاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٨٠ : ٢٤-٣٢) ، وقال تعالى: ﴿ إنّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ

الذين يَذْكُرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنُوبِهم ، ويَتَفَكرون في خَلْقِ السموات والأرضِ : رَبَّنا ما خلقتَ هذا باطِلاً ، سبْحانَكَ ﴾ (٣ : ١٩١) وقال تعالى : ﴿ ومِنْ اياتِه خَلْقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسِنَتِكم وألوانِكم ﴾ (٣٠ : ٢٢) إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا الضرب من الآيات بَعَثَ العقل على النظر في الكون ، وكان له أثر في نموِّ الحياة العقلية .

فالله تعالى لا يريد أن يكون الناس منقادين في عقائدهم، والاعتراف بوجود الصانع ووحدانيته انقياداً أعمى ، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكر في ايات الكون ، قال : ﴿ أفَلَمْ يَسيروا فى الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلونَ بها ، أو آذانٌ تَسمَعونَ بها ﴾) ٢٢ : ٤٦).

العقل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى وكل من لم يستعمل عقله ، فكأنما رفض نعمة هذا المنعم،ولنضرب لكم مثلا: إذا أعطانا صديق هدية ولم نستعملها ونستفد منها ، بل رميناها، فاننا نهين صديقنا بهذه المعاملة ، فالصديق رمز عن الله تعالى ، والهدية هي العقل ، وطرحنا لهديته ظاهر بعدم استعمال عقولنا ، والاعتقاد بأمور تنافي العقل، دليل عدم تحكيم عقولنا فيما نعتقد، وعدم استعمال عقولنا فيما يجب أن نعرف ونعتقد ، إهانة كبرى نصنعها مع من قدم لنا هذه الهدية ، إذا كان باستطاعتنا إهانته،ولكن لا نستطيع أن نهينه تعالى جل وعلا.

التوحيد في الربوبية والإشراك في الالوهية

آ (١٠٦) « وما يؤمنُ أكثَرُهم بالله الا وهُمْ مُشركون »

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وستة ، فقام الشيخ مأمون من علماء القنفذة [١] وقال :

قال تعالى مخاطباً سيد الرسل (وما يؤمن أكثرهم) أي أكثر الناس أو أكثر

(١) القنفذة من بلاد الجزيرة العربية على ساحل البحر الاحمر .

أهل مكة ، في إقرارهم بالله وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض،(إلاّ وهم مشركون) مع عبادة الله عبادة الوثن – لأن أكثر العرب من أهل مكة كانوا يؤمنون بالله ويعترفون به رباً خالقاً،لكنهم مع الأسف كانوا يشركون في عبادته الوثن ، فهم موحدون في الربوبية ، مشركون في الالوهية، تعرف منهم وتنكر.

(وما يؤمن أكثرهم بالله.. الخ)

- ١ -

ثم تابع الشيخ مأمون كلامه قائلا :

متى يعبر القرآن بلفظ « الأكثر » و « الكثير »

لقد عبر القرآن « بالأكثر » في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم ﴾ لأنه كان يوجد في أهل مكة من يؤمن بالله ، وليس فيه شيء من الشرك، وذلك « كأمية بن أبي الصلت » و « ورقة بن نوفل » و « قس بن ساعدة » وغيرهم من الحنفاء، وأيضاً فالمعروف من طبيعة البشر من أهل كل دين أنهم على ثلاثة أقسام: قسم يميلون إلى الغلو والتشدد في الدين ، وآخرون معتدلون ، وقسم ثالث متساهلون يميلون الى الفسوق والعصيان ؛ والقرآن لم يحكم على أمة بمثل : ضلال ، فسق ، هدى ، إيمان بنص عام يستغرق جميع الأفراد ؛ بل تارة يعبر « بالكثير » وتارة يعبر «بالأكثر» كما هنا ، واذا أطلق أداة العموم يستثني ، كما قال في بني اسرائيل : ﴿ثم تولّيتُم إلاّ قليلاً منكم وأنتم مُعرِضُون ﴾ (٢ : ٨٣)،وقوله فيهم : ﴿ فلا تؤمنون إلا قليلا ﴾ (٤ : ٤٥) ، أو يحكم على البعض ابتداء كما في قوله : ﴿ ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ تَأمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّهِ إليك، ومنهم مَنْ إنْ تأمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ ﴾ (٣ : ٧٥) ، وقال تعالى فيهم : ﴿ ومن قوم موسى أمةٌ يَهدونَ بالحقّ وبه يَعدِلون ﴾ (٧ : ١٥٩)، وقال فيهم وفي النصارى:﴿منهم أمّةٌ مُقتَصِدَةٌ ، وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعمَلون﴾ (٥:٦٦)،فقد أثبت لبعضهم

عدم التولي ، ثم أثبت للبعض الإيمان ، ثم للبعض الأمانة ، ثم للبعض الهداية بالحق والعدل ، ثم للبعض الاقتصاد – أي الاعتدال في الدين – وقال تعالى: ﴿ لكِنِ الراسِخون في العلمِ منهم والمؤمِنون ، يؤْمِنون بما أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٤ : ١٦١) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الإيمان المخلصين الذين يتحرون الحق ، هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم ، فالقرآن يعلمنا أن ما من أهل دين إلا وفيهم الغث والسمين ، فيهم الفاسق والمتشدد والمعتدل ولكن المفسّر المتشيع لأمته ، الذي لم يختبر غيرهما ، ولم يكن عارفاً بطبائع الملل وحقائق الاجتماع البشري ، لايكاد يتصور أن الإيمان والإخلاص والتقوى توجد عند غير أهل ملته ، فهو يطبق الآيات على اختباره واعتقاده .

القرآن يبين ما عليه الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال

وجملة القول إن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم ، في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم ، وان الدقة التي نراها في تحرّيه الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ولا غيره مما يسمى بالأسفار المقدسة ، فإذا جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فإنهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر والبدع عليهم ، في عصر ظهور الإسلام ، لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار السريع .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

– ٢ –

كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الالوهية

وقام السيد الحضرمي من علماء حضرموت وقال :

سبق لأخي الشيخ مأمون أن قال في مقدمة الكلام على تفسير مجمل الآية أن

المراد بكلمة « أكثرهم » أكثر الناس أو أكثر أهل مكة ، على أني أرى أنها تصدق على كثير من مسلمي أهل اليوم المعدودين من الموحدين « اسماً » و« جغرافياً» أو بحسب « هوياتهم » و « سجل نفوسهم » فترى الكثير منهم يسجدون لبعض الأولياء أو لأضرحة الانبياء ، يرجون الله ويرجون بعض الانبياء أو الاولياء !! يقدمون نذورهم لله ولسواه !! يحلفون بالله وبغيره ، يدعون الله وسواه !! وكثيراً ما نسمعهم يهجرون الله مقتصرين على ما عداه !!

فيقولون : الله يا سيد ، الله يا بدوي ، الله والسيد البدوي ، الله يا إمام ، الله والإمام علي ، الله يا سيد عبد السلام ، الله والنبي ، الله يا نبي ، الله يا حسين ، في حفظ الله والسيد ، في حفظ الله والنبي ، هذا نذر لله وللنبي ، لله عليّ نذر ولك يا سيدي عبد السلام إن صار كذا وكذا ، هذا نذر لله وللسيد البدوي ، أقسم بالله وبسيدنا الحسين ، بالله العظيم وبالإمام علي ، وحياة السيدة زينب ، وحياة الله والنبي ، وحياة الباز والله .

وأما الذين يهجرون الله مقتصرين على ما سواه فيقولون :

يا سيد ، يا بدوي ، يا إمام ، يا سيدي عبد السلام ، يا نبي ، يا باز ، هذا الخروف للسيد البدوي ، وهذا الجدي لسيدي الدسوقي ، وهذا العجل لسيدي عبد السلام ، وهذا الكبش للسيدة زينب .. والخ ، ولك يا سيدي يا بدوي عليّ خروف إن شفي ولدي ، ولك يا ستي نفيسة خروف إن رجع ولدي بالسلامة ثم يقولون : وحياة سيدنا هاشم ، وحياة سيدنا الحسين ، وحق الإمام عليّ ، وحياة السيد البدوي ، وحياة عبد القادر الجيلاني ، وحياة الباز ، إلى آخر ما هو أكثر من الجهلاء المتعالمين وأزيد من أهل الحشو والجمود في الدين .

وعلى ذلك ترى أكثر الناس اليوم لا يذكرون الله إلا ذكراً مصحوباً بالوثنية والإلحاد ويحرصون على سؤال الأنبياء والاولياء وأشباه الاولياء والاستعانة بشفعائهم حرص البخيل على درهمه ولو زائفاً ، والجبان على دمه ولو فاسداً .

كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية المسلمين

هذا وان في القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على المسلمين ، ولكن (مع الأسف) وجد فينا من حشويي العلماء من طمس هذه الحقيقة ، وجعل كل ما ينكره القرآن هو منزل على غير المسلم ، وأما المسلم فلا يصيبه منه أدنى غبار ، ولا أصغر شرار ، ولو كان المسلم متلبساً بكل ما أنكره كتاب الله ، كما بالعكس جعل كل ما يحمده القرآن خاصاً بالمسلم ، ولو كان غير متلبس بشيء من تلك المحامد ، فكأن القرآن مجموعة قصائد شتى ، فما كان فيه من قبيل المدح ، فما كأنه إلا قصائد مدائح نظمت لتقريظ من حاز لقب « مسلم » سواء كانت أعماله حسنة أو قبيحة ، وما كان فيه من قبيل الطعن ، فما كأنه الا قصائد ذم دبجت لهجو جماعة اسمهم « غير المسلمين » سواء كانت أفعالهم صالحة أو طالحة . وبهذا حصل تنفير قارئي القرآن غير المسلمين من الإسلام ، كما حصل للمسلم غرور وخدعة ، ووقعت الحيلولة بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(لا فض فوك)

(الا وهم مشركون ...)

— ١ —

وقال العلامة المغربي [1]:

أنواع الشرك ومظاهرها في الاعمال والاقوال

الشرك ثلاثة أنواع : (١) الشرك في الربوبية (٢) الشرك في الألوهية وهو الشرك الأعظم (٣) النفاق أو الرياء وهو الشرك الأصغر .

(١) نسبة الى بلاد المغرب العربي .

(١) أما الشرك في الربوبية فهو أن يعتقد أن مع الله رباً آخر يشاركه في الخلق والرزق وتدبير الكون ، وهذا النوع ليس مقصوداً في الآية ، بل هو قليل جداً في عرب مكة وفي مشركي العرب قبل الإسلام وفي أيام خاتم النبيين ، لأنهم كانوا مؤمنين بوجود الصانع ، وبأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ولكنهم كانوا مشركين باتخاذ الشفعاء والتقرب إلى الوسائط من المقربين وتسويتهم برب العالمين ، في التعظيم والتوجه بالدعاء والالتجاء .

(٢) والشرك في الألوهية ، ويقال له الشرك الأعظم ، فهو أن يقدم فرداً من الأفراد العبادة لغير الله ، وذلك كالسجود والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والسؤال والنذر ، وما إلى ذلك مما لا ينبغي شرعاً تقديمه لغير الله ، وعلى هذا النوع تحمل الآية الكريمة التي نحن بصددها ، ولهذا النوع مظاهر في كلام العرب ، فكان يظهر منهم في التلبية ، إذ جاء في الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وفي صحيح مسلم انهم إذا قالوا : [« لبيك لا شريك لك» . قال رسول الله ﷺ « قَدْ ، قَدْ » أي حَسْبُ ، حَسْبُ ، لا تزيدوا على هذا] .

وكان يظهر منهم في الدعاء حين يدعون في الرخاء بعدما كانوا وقت البلاء موحدين ، قال تعالى: ﴿ فإذا رَكِبوا في الفُلْكِ دعَوا الله مُخلِصين له الدِّينَ ، فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هُمْ يُشركون ﴾ (٢٩ : ٦٥) .

واليوم يظهر من جهلة المسلمين في الدعاء مطلقاً ، في حيني البلاء والرخاء فتراهم وهم في البر لا يخشون شيئاً ، يقولون : يا محمد ، يا سيد يا بدوي ، يا يا خضر أبا العباس ، يا سروجي ، يا عبد القادر الكيلاني ، يا إمام عليّ ، كما تراهم وقد جاءتهم ريح عاصف: ﴿ وجاءَهُم الموْجُ مِنْ كلّ مكانٍ وظَنّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوا الله مخلصينَ له الدينَ : لَئِنْ انجَيْتنا من هذه لنكونن من الشاكرين

فلما أنجاهم إذا هم يَبغُون في الأرض بغَير الحق﴾ (١٠ : ٢٢) وبهذا تعلم أن مشركي هذه الأيام، شرٌ مكاناً من مشركي الأيام القديمة ، فالمشركون القدماء كانوا إذا تضايقوا في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، ولكن مشركي اليوم لا يدعون الله في هذا الحال مخلصين له الدين ، بل نسمعهم يقولون : يا سيد يا بدوي، وآخر يصرخ يا نبي الله ، وقوم ينادون : يا عبد السلام الاسمر ، وآخرون : يا حسين، وغيرهم : يا دسوقي.. الخ الخ مما لا يحصى ولا يستقصى، كل قوم لهم من يصرخون له ويلجؤون اليه ؛

وقد يظهر الشرك الأكبر في بعض الأعمال الوثنية، فإن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت : « دخل عبدالله فجلس إلى جانبي فرآى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط ؟ — قالت : قلت خيط رُقِي لي فيه — فأخذه فقطعه ، ثم قال : إنّ آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرُّقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد ، وفي لفظ لهما « الطيرة شرك » [١] .

(٣) وأما النوع الثالث من الشرك ، وهو النفاق أو الرياء ، ويقال له الشرك الأصغر ، وهو حين يعمل الانسان رياء الناس، فهو مشرك بعمله ذلك ، قال تعالى: ﴿ إنّ المنافقينَ يُخادِعونَ اللهَ ، وهو خادِعُهم ، واذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسَالى ، يُراؤُنَ الناسَ ، ولا يَــذْكرونَ اللهَ إلاّ قليلاً ﴾ (٤ : ١٤١) ، وفي الحديث : (يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه) رواه مسلم وعنه ﷺ : (إنّ أخوف ما أخاف عليكم ، الشرك الأصغر ، — قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ — قال : الرياء) رواه أحمد .

---

(١) الرقي جمع رقية ، وهي العوذة مع النفث .
والتمائم جمع تميمة ، وهي الخرزة تنظم في الخيط ويربط في العنق .
والتولة كهمزة وعنبة خرز أيضاً يعلق على المرأة لكي يحبها زوجها .
والطيرة كعنبة وكسيرة ما يتشائم به من الفأل الرديء .

(إلا وهم مشركون)

— ٢ —

وبعد أن انتهى العلامة المغربي من بيان أنواع الشرك أضاف قائلا ليسمح لي السادة الأفاضل أن أعلق على قوله تعالى (إلاّ وهم مشركون) بالتعليقات التالية :

الفرق بين الجاحد لوجود الله والمشرك

(١) — يوجد فرق كبير بين الجاحد النافي لوجود الإله ، كالطبيعي والمادي والدهري ، وبين المشرك ؛ لأن الأول نافٍ للاله بتة ؛ وأما الثاني فهو مثبت ، يعتقد أن الله موجود وأنه هو الخالق ، يشرك معه غيره في العبادة فقط ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السموات والأرضَ ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمر ؟ لَيَقُولُنَّ الله ، فأَنَّى يُؤفَكُونَ ؟ .. ولَئِنْ سأَلْتَهُم : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعدَ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قلْ الحمدُ للهِ ، بل أكثَرُهم لا يعقِلون ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣) وقوله تعالى : ﴿ ولَئِنْ سألتَهُمْ : من خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فأنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ (٤٣ : ٨٧) وقوله جل شأنه : ﴿ قلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِن السماءِ والأرضِ ؟ أمْ مَنْ يملِكُ السَّمْعَ والأبصارَ ؟ ومن يخرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ، ويخرجُ الميِّتَ مِنَ الحي ؟ ومَنْ يُدَبِّرُ الأمر ؟ فسيقولونَ اللهُ ؛ فقل : أفلا تعقِلونَ ﴾ (١٠ : ٣١) ومالى ذلك من الآيات الكثيرة التي تنطق بأن وثنيي العرب في الحجاز ما كانوا مشركين شيئاً في الربوبية ، ولكن كانوا مشركين في الالوهية ، فكانوا يسجدون لغير الله ، ويرجون ويخافون ويسألون ويدعون أوثانهم ، ويستغيثون بآلهتهم ، ويحلفون بها وينذرون لها ، ويتكلون عليها ، وكل ذلك عبادة لغير الله ، فإذاً قد اتخذوا لهم إلهاً غير الله ، وهم مأمورون أن يشهدوا : (أن لا إله ، أي لا معبود بحق ، إلا الله) .

تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية

(٢) قوله تعالى : « إلا وهم مشركون» يعني بهم أهل مكة إذ كانوا يقدمون لأصنامهم النذور ، ويحلفون بها ، ويسجدون ويركعون أمامها ويدعونها ، إلى غير ذلك من أنواع العبادات ، وكان هذا مع إيمانهم بالله ، أي بوجوده ووحدته في الربوبية وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، القائم بتدبير هذا العالم ، وهـذا النوع من الشرك قد نشأ في أمتنا، فبنينا للأولياء الهياكل والأضرحة في مساجدنا ودعوناها مع التعظيم والتذلل ، وسجدنا وركعنا لها ، ونقول اننا لم نقصد بذلك العبادة ، يعني اننا لا نسمي هذه الأعمال عبادة، بل ننتحل لها اسماً اخر . فنقول انها « استشفاع » وهذه جناية على اللغة ، تضم الجناية على الدين .

الاصل في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق

(٣) ــ الأصل في دين النصارى هو التوحيد ، فما كانوا ليؤمنوا إلا بالله وحده ، كما قال المسيح عليه السلام : « وهذه هي الحياةُ الأبديةُ ، أن يعرفوك أنتَ الإله الحقيقي وحدك ، ويسوعَ المسيح الذي أرسلته » (يو ١٧ : ٣٠) ولكن الشرك طرأ لهم في الربع الاول من الجيل الرابع ، فصاروا يعتقدون بالله أباً إلهاً قديماً ، وبالمسيح ابناً متولداً من الآب ، وهو إله قديم من إله قديم ، ويؤمنون بالروح القدس ، إلهاً متولداً من الآب والابن ، ومجموع الثلاثة إله واحد ، هذا هو ثالوثهم الاقدس ، وهذا ما رتبوه أيام الملك قسطنطين الوثني ، وخَلَفه من ملوك الرومان ، وهو طور جديد لم يعرفه المسيح وحواريوه عليهم السلام ، وتشكيل لدينهم بشكل من أشكال وثنيتهم السابقة ، مؤلف من تقاليد وثنيي الهندوس والصين والمصريين والاوربين القدماء ، كما بين ذلك علماء أوربا الاحرار .

هذا وإن من المعلوم أن الله تعالى أرسل قبل المسيح عيسى رسلا بشرائع

مخصوصة ، نخص من بينهم موسى ، لوجود بقية من أتباعه ، ولاعتراف المسيح عيسى بناموسه ، وإقراره بشريعته ، وانه جاء مكملاً لها فقط، ولو سألنا قومه اليهود عن أصل شريعتهم ، وعن اعتقادهم في الله ، المبني على دعوة موسى، لأجابوا بالتوحيد المطلق ، المجرد عن التثليث والاقانيم ، أخذاً من كتبهم ، فههنا نقول: هل هذه هي دعوة موسى ؟ وانها كانت للتوحيد المطلق ، أو أن قومه غيروها بعدما كانت بالتثليث ؟ لا شك أنهم سيقولون بالاول ، أي ان دعوة موسى كانت للتوحيد ، وعليه نقول : هل كان موسى يجهل ما يجب اعتقاده في مولاه ، الذي أرسله واصطفاه ؟ أو كان يكذب على قومه ، فيدعوهم إلى أن الله واحد فقط ، وهو يعلم انه ثلاثة في واحد ، أو واحد في ثلاثة أقانيم ، أو كان يستعمل التورية في أساس الرسالة، إذ معرفة الله أصل كل دين ، وأساس كل رسالة وشريعة سماوية؟ سيقولون إنه كان يعلم أنه واحد في ثلاثة (أي يعلم التثليث) ولكن لم يؤمر بتبليغه ، لان الشرائع تأتي على قدر العقول ، فنقول لهم : إن المعهود في تاريخ البشر ، هو ميلهم إلى الوثنية والتعدد ، وهؤلاء قدماء المصريين والآشوريين والكلدانيين واليونان والهنود – كان تعدد الآلهة ، معروفاً بينهم وآخذاً حده، فلو أتى موسى قومه ، ودعاهم على قدر العقول ، لكان الاليق به أن يدعوهم إلى التثليث ، ويقلل تعدد الآلهة نوعاً ما ، خصوصاً وقد كان ظهوره ، في مدة مجد المصريين ، وتعدد الآلهة عندهم أشهر من أن يذكر . فهذا قول لا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إن قضية التثليث غير معقولة ،فيجب الإيمان بها اتباعاً للوحي نقول : فلم لم يدع اليها موسى والانبياء ، ما دام لا يشترط فيها العقل ولا الاستعداد ؟

الاعتقاد بقدرة الاولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله

(٤)– يدعي البعض أو يعتقد أن الاولياء والصالحين في قبورهم يضرون وينفعون،ويحيون ويميتون ويعطون ويمنعون ، وأنه يتوسل إلى الله تعالى بذواتهم

ويدعى تعالى بواسطتهم ، لا وحده ، وهو شرك محض . إذ لا نافع ولا ضار إلا الله ، وانه لا يتوسل إليه تعالى إلا بما شرعه لعباده في كتابه ، وعلى لسان رسوله من الفرائض والسنن ، وأنه لا سبب لقضاء الحاجات ، وجلب النافع ودفع الضار إلا ما هدى الله الناس اليه من سننه المطردة في خلقه ، كما أنه لا فاعل إلا الله ، ولا يدعى معه أحد سواه ، وأن التوسل بالأولياء والصالحين ، إنما يصح بمعنى الاهتداء بهديهم المبين ، ولله أن يكرم من عباده من شاء ، ولكن لا يصح أن تكون الكرامات والخوارق ، كصنعة من الصناعات ، وفي أيدي الأولياء ، والحق أنه ليس لهم من الأمر شيء ، وأنه لا يكلف مؤمن أن يعتقد بولي مخصوص ولا بكرامة لولي معين مطلقاً ، ولكن على المؤمن أن يعتقد بأنه يوجد أولياء وتوجد لهم كرامات . .

ويقولون بأن للأولياء « ديواناً » يجتمع فيه الأحياء والميتون منهم ، فما أقروا عليه ، فهو الذي يقع في الكون ، — فنقول : إذا كان أولياء المسلمين وأنصار الدين ، هم المتصرفون في الأكوان ، لا يجري فيها إلا ما يجرونه ، ولا يستقر إلا ما يقررونه فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين ؟ وما بال الإسلام يخذل الآن ، باتفاق الأحياء منهم والأموات ؟؟؟

فضل الله على عباده وأقسامه

(٥) — « يعتقد البعض أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة ، التي منها السر والمدد ، ويقولون كما أن الغني يعطي شيئاً من رزقه المادي ، فلا مانع أن يمده بشيء من رزقه المعنوي » ، غير أن الحقيقة هي أن فضل الله على عباده قسمان : قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه ، وقسم ليس فى استطاعة البشر بذله أو البذل منه ، كالإيمان والمعارف الوجدانية ، ومنها ما يسميه الصوفية « بالأسرار » فإنهم قالوا : أنها أمور ذوقية لا يعرفها إلا من ذاقها . فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب .

تحريم سؤال الأولياء ذوي الأضرحة شيئاً مادياً أو معنوياً

(٦) – هذا ولا يصح أن نسأل الأولياء أصحاب الأضرحة شيئاً ما ، لا مادياً ولا معنوياً ؟ إذ كيف نسألهم ما قطعه الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها ، وما لا يبذل من ذلك بحسب الأسباب والسنن الإلهية ، وما يبذل ؟ فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى ، والإنتقام من الأعداء ؟ وكيف يجوز أن ندعو ممن كان بالأمس في نعشه، والمصلون واقفون يدعون له ، يشهدون له بالإسلام، ويقولون : « اللهم إن كان مسيئاً ، فتجاوز عنه ولقه برحمتك ورضاك حتى تبعثه آمناً برحمتك يا أرحم الراحمين » فكل مسلم من أبي بكر الصديق إلى اليوم ، يدعى له يوم يموت ويصلى عليه بهذا الدعاء ونحوه فهل يعقل أن يدعى للميت بالأمس يوم موته ، ولكنه متى قبر تدعوه النـــاس أو يدعوه من دعا له قبل ساعة ؟ !

هذا ولم يرد في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله ﷺ ولا نقل عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة ، ولا نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفيين مـــا يدعيه بعض المشايخ من أن سيدي فلاناً من الصالحين . وسيدي فلاناً من الأولياء ، هم أصحاب سر ومدد ، وإن تلامذتهم في حياتهم ، وأتباعهم بعد مماتهم ، يتوسلون بهم إلى الله تعالى ، ويطلبون منهم المدد والسر ، كما نرى ذلك في كتبهم ، ولم يكلفنا الله باتباعهم بل باتباع كتابـــه وسنة نبيه ، وهدى أصحاب نبيه ، الذين أخذوا الدين عنه مباشرة ، وكانوا به خير العاملين وبسيرة السلف الصالح لأنهم أعلم الناس بهما .

وأما كلام الصوفية المتأخرين، فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها ، الذين سلكوا هذه الطريقة إلى نهايتهـا ، وهم صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضلّ . وقد قال الشعراني في بعض كتبه : « أنه سأل شيخه الخواص

لماذا يطلب من الناس التأويل كلام الأنبياء إذا خالف ظاهر الشرع ، ولم يطلب منهم تأويل كلام الأولياء ؟ فأجابه : لأن الأنبياء معصومون ، فيجب حمل كلامهم على الصحة دائماً ، والأولياء ليسوا بمعصومين ، فيجوز أن يكونوا فيما خالفوا فيه مخطئين » .

التوسل بجاه الأنبياء والأولياء

(٧) — لسائل أن يسأل : ألا يجوز أن نضيف كلمه (جــاه) الى الأنبياء والأولياء عند التوسل بهم ؟ والجاه هو القدرة والمنزلة ، وكل واحد من الأنبياءله قدر ومنزلة عند ربه ، قال تعالى في موسى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ (٣٣ : ٦٩) وقال في عيسى : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴾ . (٣:٤٥)وقال تعالى : (واتخذا الله إبراهيم خليلا) (٤ : ١٢٤) وغني عن البيان أن من اصطفاه الله للخلة ، لا بد أن يكون وجيهاً في نظره ، وإلا لم يكن فيه أهلية للخلة ؟

فنقول في جوابه : المفهوم العرفي للفظ الجاه هو السلطة ، وإن شئت قلت : نفوذ الكلمة ، يقال : فلان اغتصب مال فلان بجاهه ، ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلاً ، فزعْمُ زاعم أن لفلان جاهاً عند الله بهذا المعنى إشراك جليّ لا خفيّ ، وقلما يخطر ببال أحــد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي ، وهو المنزلة والقدر . والتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة من الهجرة ، وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول ﷺ والسلف الصالح ،وأما﴿وكان عند اللهوجيهاً﴾(٣٣:٦٩) فليس معناه ، أنه وجيه عليه ، وإنما معناه أنه وجيه عنده ، وفرق كبير بين قولك فلان وجيه علي وفلان وجيه عندي ، فالوجاهة الاولى معناها السلطة والنفوذ ، والوجاهة الثانية معناها انه في حكم الله ذو قدر ومنزلة .

الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره

وقد يحتج البعض على جواز التوسل بما رواه الترمذي بسنده الى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : (إن رجلا ضرير البصر ، أتى النبي ﷺ ، فقال : ادعُ الله أن يعافيني – فقال : إن شِئْتَ دَعوْتُ ، وإن شِئْتَ صَبَرْتَ ، فهو خير لك – قال : فادعه ، – فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه اليك ، بنبيك محمد ، نبي الرحمة ؛ إني توجهت بك إلى ربي ، ليقضي لي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه فيّ » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب) ، فنقول أولا : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد ، والمسألة داخلة في باب العقائد ، لا في باب الأعمال ، ذلك أن الأمر فيها ، يرجع الى سؤال صورته : هل يجوز أن نعتقد أن واحداً سوى الله ، يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجاتنا ، أو لا يجوز ؟ والكتاب صريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم في قوله تعالى : ﴿ ويَعبدونَ من دون الله ما لا يَضُرهم ولا يَنفعُهم ، ويقولون هؤلاء شُفَعاؤنا عندَ الله ﴾ (١٠ : ١٨) ، وقد جاء في السورة التي نقرؤها كل يوم في الصلاة : وإياكَ نَسْتَعينُ ﴾ (١: ٤) ، فلا استعانة إلا به ، وقد صرّح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من الله نفعاً ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساساً للرسالة المحمدية ، ونحن لا يمكننا أن نتخذ حديثاً من أحاديث الآحاد ، دليلا على العقيدة ، مهما قوي سنده ، فان المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد الا الظن ، ﴿ إنّ الظنّ لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ (١٠ : ٣٦) وفي الختام نذكر قوله تعالى : ﴿ وإذا سألَكَ عبادي عَنّي ، فإني قريبٌ ، أجيبُ دعوةَ الداع إذا دَعان ﴾ (٢ : ١٨٦) وقال الشيخ محي الدين بن العربي ، شيخ الصوفية في صحيفة ٢٢٦ من الجزء الرابع من

فتوحاته ، عند الكلام على هـذه الآية : « إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل لله الحجة البالغة ، فلا يتوسل اليه بغيره ، فان التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وقد أخبرنا الله أنه قريب وخبره صدق » .

واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى

(٩) — إن واجب الوجود — وهو الله تعالى - واحد ، وهـذا هو توحيد الربوبية ، وكذا مستحق العبادة — وهو الله سبحانه — واحد ، وهـذا هو الالوهية ؛

فالمستحق للعبادة هو واجب الوجود ، وواجب الوجود هـو المستحق للعبادة ، وهو الله تعالى ، ولا تصدق العبارتان الا عليه تعالى ، وإن اختلفا في المفهوم ؛ هـذا هو مقتضى الشرع والعقل والمنطق والانصاف ، ولكن مشركي العرب المعاصرين لخاتم الأنبياء وقبله أيضاً . لم يعلقوا ولم ينصفوا، فهم مع قولهم بأن واجب الوجود واحد ، قد اعتقدوا غلطاً تعدد المستحق للعبادة ؛

أو نقول قد صرفوا كثيراً مـن أنواع العبادة لغير الله ، ومثل ذلك مثل شعب لا يعرفون لهم إلا ملكا واحداً ، هو الذي يرتب لهم المعاشات، وهو الذي يوليهم الولايات،وهو الذي يغدق عليهم بالخيرات، وهو الذي يمنع عنهم الغارات، الى غير ذلك ، ونظام هذا الملك أن يكون له الخضوع والركوع ، له الإكبار الملوكي والإجلال السلطاني ، له الذل والخنوع ، ولا يطلب شيء من غيره ؛ هذه ونحوهـا هي شارات هذا الملك وخصائصه التي أراد أن ينفرد بها عما سواه ، فاذا صرف الشعب شيئاً من هذه الاشياء لغير مليكه ، فقد خانه وأشرك معه غيره من الوزراء في مزاياه وخصائصه ، ولو اعتقد بأنه ليس له سوى المليك ، فلا يمنع عنه تسميته — الكلام عائد للشعب — أنه أشرك مع مليكه سواه ، ولا يمنع عنه العقاب .

ما هو المراد بمثقال حبة من خردل من الإيمان في حديث البخاري

(١٠) — جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: « يدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ ، ثم يقول الله تعالى : « أخرِجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، فيُخرجون منها ، قد اسودّوا — الحديث » ، فهل المؤمنون إيمان ربوبية ، المشركون شرك ألوهية — يشملهم هذا الخروج ، لأنه يصدق عليهم أن في قلوبهم مثقال حبة من خردل من إيمان ؟ والجواب عن ذلك : يرد بمثقال الخردل من الإيمان في حديث البخاري المثقال للإيمان الخالص ، الذي لا يشوبه مثقال خردلة من شرك ، جمعاً بينه وبين قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يغفرُ أن يُشرِكَ به ، ويَغفِرُ ما دونَ ذلك لمَنْ يَشاءُ ﴾ (٤ : ٤٧ و ١١٧) وقوله تعالى : ﴿ وقال المسيحُ : يا بني إسرائيلَ اعبدوا الله ربي وربَّكم ، إنَّه مَنْ يُشرِكْ باللهِ ، فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ ، ومأواهُ النارُ ، وما للظالمِينَ مِنْ أنصار ﴾ (٥ : ٧٥) ، وقال تعالى في سياق محاجة إبراهيم لقومه في التوحيد والشرك ﴿ الذين آمنوا ولم يُلبسُوا إيمانهم بظلمٍ اولئك لهم الأمنُ ، وهم مُهتَدونَ ﴾ (٦ : ٨٢) وقد فسر النبي ﷺ — الظلم هنا — بالشرك ، وهو نكرة في سياق النفي ، يفيد أن الأمن من العذاب المقيم ، الذي أعده الله للمشركين ، خاص بمن آمنوا إيماناً لا يشوبه شيء ما من الشرك ، وإن كان مثقال حبة من خردل ، وحينئذ فلا مندوحة من حمل حديث البخاري المسئول عنه — على ما يتفق مع هذه الآيات وهذا هو المراد من الحديث ، فإن لم يكن هذا هو المراد من الحديث ، كان معارضاً لما ذكرنا من الآيات ، ولا يمكن ترجيحه عليها ، أو إرجاعها اليه ، والقولُ بأن مثقال حبة من خردل من إيمان مشوب بالشرك ينجي صاحبه من النار بعد دخولها ، ويجعله من أهل الجنة ، لم يقل به أحد من المسلمين ، بل أجمعوا على أن الشرك بالله ، لا يغفر منه شيء، ولا

شك أنه يصدق على مشركي العرب في زمن البعثة ، أنه كان في قلوبهم إيمان كحبة الخردل أو أعظم ، كما هو مقتضى آيتنا اليوسفية وما شابهها من الآيات القرآنية ، فلو كان الإيمان بوجود الله، مع اتخاذ شركاء له منجياً ، لكان مشركوا العرب في الجاهلية – ناجين حتماً ، ولا قائل به من أهل الإسلام .

المعطل المنكر لوجود الله تعالى شر من المشرك

(١١) – المعطل المنكر لوجود الله تعالى ، لا يسمى مشركاً ، ولكنه شر من المشرك ، فاذا كان الله لا يغفر لمن يؤمن به بأنه الخالق الرازق ، إذا توجه لغيره ودعاه من دونه ، ولو ليقرب به إلى الله زلفى ، فهل يغفر لمن جحده مطلقاً؟

حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الالوهية

(١٢) – من تلوث من مسلمي اليوم بشيء من شرك الالوهية ، ولا يسمي نفسه مشركاً ولا فعله شركاً ، ولكنه يسمي نفسه متوسلاً متشفعاً متقرباً ، كما أنه يسمي فعله ، توسلاً وتشفعاً وتقرباً ، وهو مسكين جاهل لم يقصد الشرك ، فاهماً أنه شرك ، ولكنه وقع فيه بجهله ، لأنه لا يعتقد أن ما يفعله شرك ، وهذا يجب أن يُعَلَّمَ ، حتى تقوم عليه الحجة .

شرك النصارى في الربوبية والالوهية

(١٣) – النصارى لا يقولون بتعدد واجب الوجود صريحاً ، ولكن لهم فيه فلسفة لا تعقل ، وهي التوحيد مع التثليث ، ومع ذلك فهم مشركون في الربوبية ، من جراء قبولهم التشريع من رؤسائهم ، فيحلون لهم ويحرمون ، وكل النصارى لذلك يقبلون ؛ وأما شركهم في الالوهية ، فهو أيضاً واقع ، ماله من دافع ، لأنهم يعبدون المسيح عيسى ، وليس أقنوم الابن فقط الحالّ في جسد المسيح ، بل

يعبدون أيضاً جسد المسيح ، أعني أنهم يعبدون المسيح كله ، الحاوي للاهوت والناسوت – على رأيهم – ، فهم مشركون في الالوهية قطعاً وليس من هذه الجهة فقط ، بل هم أيضاً مشركون في الألوهية من جهة أنهم يقدمون أنواعاً من العبادات ، كالسجود والركوع والنذور والأصوام – للسيدة مريم عليها السلام.

الطوائف المنسلخة عن الإسلام بسبب شركها بالله أو بالتشريع

(١٤) – يوجد في مشركي المسلمين اليوم مَنْ أشركوا بالله بعضَ آل بيت نبيه بالعبادة والدعاء ونحوهما ، ومنهم أشركوا بالتشريع أيضاً ، كأصناف الباطنية وآخرهم البابية والأزلية والبهائية [١] ، وهؤلاء من أنسلخ من اسم الإسلام كما انسلخ من معناه، ومنهم من حافظ على انتحال اسمه،مع لقب مذهب أو طريقة أو طائفة ، ولو على سبيل التقية .

المشرك من يدعو الأصنام أو من يدعو الصالحين

(١٥) – إن بعض المشركين، بل الغالب من أفرادهم اليوم ، يزعم أن جميع الايات التي جاء فيها تقبيح الشرك وتوبيخ المشركين ، هي خاصة بالأصنام بمعنى الجماد ، مع أننا لو تتبعنا هذه الآيات ، التي جاءت في شأن الشرك والمشركين ، لوجدناها مصرحة بأن المشركين فريقان : فريق يدعو الأصنام المجعولة تماثيل لعباد الله الصالحين ، وفريق يدعو الصالحين غير ناظر إلى التماثيل ، فمما جاء في تسفيه أحلام الفريق الأول قوله تعالى: ﴿أتعبُدون ما تَنْحِتُون ؟﴾(٣٧:٩٥) وقوله : ﴿ ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفونَ ؟ ﴾(٢١:٥٢) ؛ ومما جاء في التشنيع على الفريق الثاني قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أضَلُّ مِمَّن يدعو مِنْ دُونِ اللهِ – مَنْ لا يَستَجيبُ له يوم القيامةِ ؟ وهم عن دُعائهم غافلون، وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً ، وكانوا بعبادَتِهم كافرين ﴾ (٤٦ : ٥ و٦) وقوله :

(١) الباطنية ...

﴿ قل ادعو الذين زَعمتُم مِنْ دونِه ، فلا يملكون كَشْفَ الضُرِّ عنكم ، ولا تحويلا، اولئك الذين يدعونَ ، يَبْتَغُونَ إلى ربِّهم الوسيلةَ أيهم أقربُ، ويَرجُونَ رحمَتَهُ ويخافون عذابَه ﴾ (١٧ : ٥٦ و ٥٧) وقوله تعالى : : ﴿ واتخذوا منْ دون اللهِ آلهة ، ليكونوا لهم عِزاً ، كلاّ !! سَيَكفُرون بعبادَتِهم ويكونون عليهم ضِداً ﴾ (١٩ : ٨٢ و٨٣) وقوله تعالى :﴿ والذين يَدعونَ مِن دونِ اللهِ ، لا يَخلُقُون شيئاً، وهم يُخلَقونُ ، أمواتٌ غيرُ أحياءٍ ، وما يَشعُرونَ أيّان يُبعَثون ؟ ﴾ (١٦ : ٢٠ و ٢١) فهل يعقل بأن الأصنام بمعنى الجماد تتصف بهذه الصفات ، التي وصف بها المدعون في هذه الآيات ، التي جاءت بشأن الفريق الثاني ؟ لا ريب أنه لا يعقل أن يتصف الجماد بالغفلة أو بضدها ، أو يتصف بالعداوة وضدها ، أو بالكفر وضده ، ولا يتأتى أن تبغي الجماداتُ الوسيلة إلى ربها ، وأن ترجو رحمته ، وتخاف عذابه ، ولا يمكن أن تكون الأصنام بمعنى الجماد ، ضداً على المشركين يوم القيامة ، ولا يتصور أن يوصف الجماد بموت أو حياة ، أو شعور ببعث ، فمن عنده أدنى مسكة من عقل يدرك أن جميع هذه الصفات، لا تنطبق على الأصنام بمعنى الجماد ، بل لا تنطبق إلا على المقربين من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين .　　(مرحى مرحى)

إنذار المشركين بالله

آ (١٠٧) « ... أفأَمِنُوا أنْ تأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ من عذابِ اللهِ ، أو تأْتِيَهُمْ الساعةُ بَغْتَةً ، وهم لا يشعُرونَ ؟ »

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وسبعة ، فقام الإمام القلقيلي وقال :

قتل الانسان ما أكفره (أفأمنوا) أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله (أن تأتيهم غاشية) أي نقمة أو وقيعة أو عقوبة تغشاهم بحيث تغمرهم وتجللهم ،

فيكونون حشوها (من عذاب الله) وعقابه في الدنيا (أو تأتيهم الساعة بغتة) أي هلاكهم الذي يعقبه خلاص الموحدين من شرهم، (وهم لا يشعرون) بإتيانهم فوق رؤوسهم ، فهل هم آمنون من ذلك ؟ حال كونهم تحت وقوع شيء منه في القريب العاجل ، فما عليهم إلا أن ينتظروا المعركة المقبلة ، ويُعدوا لها العدة ، إن جوزوا لأنفسهم مقاومة سوط النقمة الإلهية .

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية ... الخ)

— ١ —

وتابع الامام القلقيلي كلامه قائلاً :

الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها

إن الساعة في قوله ﴿ أوتأتيهم الساعة ﴾ هي فيما نختاره ساعة « بدر » ، فإن صناديد قريش وزعماء المشركين ، قد هلكوا جميعاً في وقعة بدر وغيرها ، ثم هلك باقي المشركين عن آخرهم ، أو نقول إن غزوة بدر هي من أشراط تلك الساعة ، وإنما ساعتهم هي ذلهم واضمحلالهم وهلاكهم التام ، وفناؤهم العام ، بحيث لا يبقى منهم ديار ، ولا نافخ نار ، قال تعالى في سورة الأنعام المكية : ﴿ قل أرأيْتَكُمْ إنْ أتاكم عذابُ اللهِ ، أو أتتْكم الساعةُ ، أغيرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كنتم صادقينَ ؟ بل إياهُ تَدْعُونَ ، فيَكشِفُ ما تدعونَ اليه إنْ شاء ، وتَنسَوْنَ ما تُشرِكون ﴾ (٦ و ٤٠ و ٤١) .

قال شيخنا الغواص: هذه « الساعة » هي ساعتهم الصغرى ، التي تحققت في غزوة بدر ونحوها ، ولا يجوز أن يراد بها الساعة الكبرى، لأن الساعة الكبرى لا تكشف لا عن المشركين ولا عن غيرهم ، ولا يشاء الله كشفها ، لأنها أمر حتم لا بد منه ، وقال تعالى في سورة الحج المكية : ﴿ ولا يزالُ الذينَ كَفَروا في

مِرْيةٍ منه ، حتى تأتيَهُم الساعةُ بغتةً ، أو يأتِيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ ، المُلْكُ يومئذٍ لله ، يَحكُم بينهم ، فالذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ في جناتِ النعيمِ ، والذين كفَروا وكذَّبوا بآياتِنا فأولئك لهم عذاب مُهين ﴾ (٢٢ : ٥٥ - ٥٧) قال شيخنا العارف بالله ، لا يزال أهل مكة الكافرون في شك من أمر الرسول الى أن تجيء ساعة انحطاطهم وهلاكهم في غزوة بـــدر وتعاظم أمر المسلمين وتعالي شأنهم ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم بافتتاح المسلمين مكة وانتصار أهل الإيمان عليهم من ذلك اليوم يكون لمظهر أمر الله ومنبع سلطانه وهـــو سيد الخليقة (ص) ولخلفائه من بعده ، وقـــد حكم النبي ﷺ وخلفاؤه بين الناس ، فالمؤمن العامل في نعيم ورفاه ، والكافرون من أهل مكة ويهود ويثرب في ذل وهوان ، وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ وإنه لَعِلْمٌ للساعةِ ، فلا تَمْتَرُنَّ بها ، واتبعونِ ، هـذا صِراط مُستَقيم ﴾ (٤٣ : ٦١) قال شيخنا ولي الله : المسيح هو علامة على ساعة انقراض النبوة من بني إسرائيل ونقلها إلى بني إسماعيل ، ولذلك كان قال لهم : ﴿ لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هـذا الحجر يترضرض ، ومن سقط هـو عليه يسحقه ﴾ (مت ٢١ : ٤٣ و ٤٤) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تَمْتَرُنَّ بها ، واتبعونِ ، هذا صراط مستقيم ﴾ (٤٣ ٦١) .

ويجوز أن يكون المسيح «علماً للساعة» ساعة هلاك ودمار وسقوط وانخفاض اليهود ، بسبب كفرهم به وإيذائهم له ، وساعة ارتفاع ورقي النصارى ، بسبب إيمانهم وتصديقهم له ، أي ساعة مجازاة كل منهم على عمله مجازاة دنيوية ، ونرى متى ومرقس ولوقا ، بعد أن نقلوا ما وصفه المسيح من أهوال الساعة وقيامتها ، قالوا نقلا عن المسيح : (الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله) (مت ٢٤ : ٣٤ مر ١٣ : لو ٢١ : ٣٢) .

وفي الحديث : (بعثت أنـــا والساعة كهاتين) وأشار الى إصبعيه السبابة

الوسطى ، أي متقاربتين متلاصقتين كهاتين الإصبعين : أي أن ظهوره (ﷺ) علامة على قرب ساعة هلاك وسقوط من كفر به ، وارتفاع ورقي من آمن به في الدنيا ، وفي البخاري: (اذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة – قيل: وما إضاعتها يا رسول الله ؟ – قال : (اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة) ، وفي البخاري أيضاً (إن من أشراط الساعة أن تلد الأمه ربتها أو ربها ، وأن ترى الحفاة الرعاة يتطاولون في البنيان ، وأن يكثر شرب الخمر والزنا) وكل ذلك وقع فعلاً ، فهذه الأشراط هي أشراط للساعة الصغرى وهذه الساعة هي لناس وعلى نـــاس ، فلناس ساعة علو وارتقاء ومنعة ، وعلى ناس ساعة انقراض واضمحلال ، وعلى الأقل ساعة ضعف وفتور .

ومن أمثلة استعمال لفظ الساعة في معنى الساعة الصغرى ما في الحديث الذي ذكره صاحب الأساس : « إذ رأيت مكة بُعِجَتْ كظائمَ وساوى بناؤهـا رؤوس الجبال ، فاعلم أن الساعة قد أظلت [١] » .

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية .. الخ)

— ٢ —

وقال الفاضل البيساني [٢] .

الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الأخروية

أضم صوتي الى صوت أخي الإمام القلقيلي حفظه الله وأقول :

(١) ليس لفظ « الساعة » ، متى أطلق ، ينصرف للساعة الكبرى دائماً ، بل قد يكون مراداً منه « الساعة » الصغرى ، والحكم في ذلك القرائن، والقرينة هنا على أن «الساعة» هي الساعة الصغرى ، قرنها بغاشية من عذاب الله ، وانتظامها

(١) – بعجت : حفرت فيهـا آبار كثيرة ، وكظائم جمع كظيمة وهي بئر بجنب بئر بينهما مجرى في بطن الأرض .

(٢) – نسبة الى بيسان من بلاد فلسطين .

في سلك واحد ، فكما ان هذه الغاشية هي في الدنيا ، فكذلك هذه « الساعة » تحصل لهم في الدنيا ، فآيتنا هذه في أنها تحتوي على مواعيد دنيوية هي نظير ما قال تعالى في سورة الأعراف المكية : ﴿ أفأمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيهُم بأسنا بياتاً وهم نائمون؟ أو أمِنَ أهلُ القُرى أنْ يأتيهم بأسُنا ضُحىً وهمَ يلعبونَ أفأمِنوا مكْرَ اللهِ ؟ فلا يأمنُ مَكْرَ اللهِ إلاّ القومُ الخاسِرون ﴾ (٧: ٩٧ ٩٩) وقال تعالى، في سورة النحل المكية :﴿أفأمِنَ الذينَ مكروا السيئاتِ أن يَخسِفَ اللهُ بهم الأرضَ أو يأتيَهم العذابُ مِنْ حيثُ لا يَشعُرون ! ﴾ (١٦ : ٤٥) ، وقال في سورة الإسراء المكية : ﴿ أفأمِنتُم أنْ يخسِفَ بكم جانبَ البَرّ؟ أو يُرسِلَ عليكم حاصِباً ؟ ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ (١٧: ٦٨) وقال في سورة المُلك المكية : ﴿ أأمِنتُم مَنْ في السماءِ أنْ يخسِفَ بكم الأرضَ ، فاذا هيَ تمورُ ؟ أمْ أمِنتُم منْ في السماءِ أنْ يُرسِلَ عليكم حاصِباً ؟ فستعلمون كيفَ نَذير ﴾ (٦٧ : ١٦ و ١٧) .

الحشر الدنيوي

٢ ــ وكما أن لفظ « الساعة » يرد لمعنى يحدث في الدنيا وهو الانقلابات والاضطرابات التي تحصل مفيدة لقوم ضارةً بآخرين ، فكذلك لفظ «الحشر» يأتي لمعنىً يحدث في الدنيا ، ويأتي للحشر الأخروي ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فحشرَ فنادى ، فقال أنا ربُكم الأعلى ﴾ (٧٩ : ٢٣ و ٢٤) فهذا الحشر كان باسم فرعون الخروج«منفثا»لعبيده القبط، فهو حشر دنيوي . ومثله قوله تعالى: ﴿ وحُشر لسليمانَ جنودُه ﴾ (٢٧: ١٧)، وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ هو الذي أخرج الذينَ كفروا من أهل الكتابِ من ديارهم لأوّل الحشرِ ﴾ (٥٩: ٢) ومعنى أول الحشر ، أنه أول حشرهم من المدينة الى الشام ، وآخر حشرهم إجلاء « عمر » إياهم من خيبر الى الشام ، واللام في قوله « لأول » هي اللام في

قولك : جئته لوقت كذا ، وكتبت لعام كذا ، ولشهر كذا ، فهي التي تصحب التاريخ ، وقـال تعالى : ﴿ والطيرَ محشورةً ﴾ (٣٨ : ١٩) فحشر الطير لداود وحشر بني النضير في الشام ، وحشر الجنود لسليمان وحشر القبط لمنفثا ، كل ذلك حشر دنيوي .

النشر والحساب الدنيوي

(٣) ـ وكذلك لفظ « النشر » يأتي لمعنى دنيوي كما في سورة الفرقان : ﴿ وهو الذي جَعَلَ لكم الليلَ لِباساً ، والنومَ سُباتاً ، وجَعَلَ النهارَ نُشوراً ﴾ (٢٥ : ٤٧) أي جعل النوم موتاً ، والنهار عيشة وحياة بعد الموت .

وكذلك « الحساب » يكون في الدنيا ويكون في الآخرة ، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ وإنْ ما نُرِيَنَّك بعضَ الذي نَعِدُهم ، أو نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا ﴾ لا عليك ﴿ الحسابُ ﴾ (١٣ : ٤٠) وقال تعالى في سورة الأنبياء المكية : ﴿ اقْتَرَبَ للناسِ حسابُهم ، وهم في غَفْلةٍ مُعرِضُونَ ، ما يأتيهم مِنْ ذِكْرٍ من ربِهِّم مُحْدَثٍ الا استمَعُوهُ وهم يلعبون لا هِيَةً قُلوبُهم ﴾ (٢١ : ١ ـ ٣) فالناس هنا هم مشركو أهل مكة كما قال ابن عباس ، وهو اصطلاح القرآن يعبر « بالناس » عن أهل مكة المشركين وبأهل الكتاب عن اليهود والنصارى ، وبالمؤمنين عن أتباع النبي المسلمين ، وكما هو صريح نفس هذه الآيات التي إنما ذكرت أحوال المشركين وأقوالهم خاصة ، فان الذين غفلوا عن حسابهم ، ثم لما نبّهوا أعرضوا ، وأتاهم الذكر فاستمعوه وهم يلعبون ، ذاهلين عنه وقالوا ما قالوا ـ إنما هم المشركون من أهل مكة لأن السورة مكية ، فهذا « الحساب » الذي اقترب إنما هو حسابهم فقط ، لا دخل لغيرهم فيه ، وهو حساب خاص ، يتجلى في مجازاتهم وإهلاكهم في الدنيا ، في مثل غزوة بدر وفتوح مكة وغيرهما .

الحساب العام الأخروي

(٤) — وأما «الحساب العام» في يوم القيامة الذي يعم المؤمنين وأهل الكتاب وجميع العالمين، فهو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿فوربّك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون﴾ (١٥ : ١٢)، كما في سورة الأنبياء يفيد أنه قرب جداً وقت محاسبة ومجازاة وإهلاك هؤلاء المشركين في حالي غفلتهم ثم إعراضهم عن الذكر، وفي حال أنهم لا يستمعونه إلا وهم يلعبون، ذاهلين عنه، أي أن عذابهم وهلاكهم سيكون في الدنيا وهم متلبسون بهذه الأحوال، ويساعد هذا الفهم قوله تعالى على الأثر: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها، أفهم يؤمنون؟!﴾ (٢١ : ٦) أي أنهم لا يؤمنون كما لم تؤمن القرى التي أهلكناها قبلهم، أي فحينئذ لا بــــد من إهلاكهم مثلهم في الدنيا لعدم إيمانهم، كما كنا أهلكنا تلك القرى لعدم إيمانهم أيضاً.

الصراط والعذاب والعقاب والأجر والثواب الدنيويات

(٥) — وكذلك «الصراط» يطلق على الصراط الدنيوي بمعنى الطريق، وقد ذكر بهذا المعنى في القرآن اكثر من ٤٥ مرة، ويطلق على الصراط الأخروي، وليس له ذكر في القرآن، ولكنه مذكور في الأحاديث، وكذلك «الميزان» يطلق على الميزان الدنيوي كما في قوله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ (٦:١٥٢) وقد ذكر هذا في القرآن تسع مرات، ويطلق على الميزان الأخروي وقد أشير له في مثل قوله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ (٧ : ٧).

وكذلك «العذاب والعقاب» وضده «الأجر والثواب» يكونان في الدنيا والآخرة، كما يعلم من كثير آيات الكتاب الكريم.

الميعاد الدنيوي

(٦) ــ وكذلك لفظ «الميعاد» يأتي لمعنى في الدنيا ولمعنى سيحدث في الآخرة ومن مُثُل الأول ما في قوله تعالى : ﴿ وإذْ يقولُ المنافِقونَ والذينَ في قلوبِهِم مَرَضٌ: ما وَعدَنا اللهُ ورسولهُ إلا غروراً﴾(٣٣: ١٢)قال «معتب بن قشير» حين رأى الأحزاب: «يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرزَ فرَقاً، ماهذا الا وعد غرور» فهذا وعد دنيوي، ومثله ما في قوله تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنونَ الأحزاب، قالوا: هذا ما وَعدَنا اللهُ ورسولهُ ﴾(٣٣: ٢٢)وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ فإمَّا نَذْهبنَّ بِكَ ، فإنَّا منهم مُنتَقِمُون ﴾ ــ في الآخرة ــ ﴿ أو نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدناهم ﴾ من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر ــ ﴿ فإنا عليهم مُقتَدِرون ﴾ (٤٣ : ٤١ و ٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ فرَدَدْناهُ الى أمِهِ كيْ تقرَّ عينُها ولا تَحزَنَ ، وَلِتَعلَمَ أنْ وَعْدَ اللهِ حَقٌ ، ولكنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمون ﴾ (٢٨ : ١٣) ، فوعد الله هنا هو قوله : ﴿ إنَّا رادُّهُ اليكَ ﴾ (٢٨: ٧) وقال تعالى : ﴿ وَعْدَ اللهِ، لا يُخلِفُ اللهُ وعدَهُ ، ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يَعلَمون ﴾ (٣٠ : ٦) يشير لوعد الله أن يغلب الرومُ الفرسَ في بضع سنين وقد وقع سنة ٦٢٥ ميلادية .

وقال الملائكة في أهل سدوم وعمورة وإهلاكهم :

﴿ إنَّ مَوعِدَهُم الصُبحُ ﴾ (١١ : ٨١) ، وقال تعالى في شأن المؤمنين مع المشركين في غزوة بدر : ﴿ وَلوْ تواعَدْتُم لاختَلفتُم في الميعادِ ﴾ (٨ : ٤٢) وقال تعالى: ﴿ ولا يَزالُ الذين كفروا تُصيبُهم بما صَنَعوا قارِعةٌ ، أوْ تَحُلُّ قريباً من دارِهم ، حتى يأتيَ وَعدُ الله ، إنَّ اللهَ لا يُخلف الميعاد ﴾ (١٣ : ٣٣) ، وعد الله هنا فتح مكة، وكان الله قد وعد النبي بذلك وقال تعالى:

﴿ ويقولون متى هـــذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين . قل : لكم ميعادُ يومٍ ، لا تستأخِرون عنه ساعةً ولا تستقدِمون ﴾ (٣٤ : ٢٩ و ٣٠) ، فهذا الميعاد دنيوي وقع في غزوة بدر ، ولفظ اليوم يراد منه السنة ، كما وقع كثيراً بهذا المعنى في العهد العتيق والعهد الجديد ، وغزوة بدر كانت في نهاية السنة الأولى من الهجرة الشريفة ، وبهذا المعنى وعلى هذا التفسير انطبق الجواب على السؤال ، فهم سألوا عن وقت الوعد وتحديده ، فأجيبوا بأن تحقيق هذا الوعد يكون بعد يوم من الهجرة .

البعث الدنيوي

(٧) ـ وكذلك لفظ « البعث » قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قول صموئيل ﴿ إنّ اللهَ قد بَعثَ لكم طالوتَ مَلِكا ﴾ (٢ : ٢٤٧) وقوله تعالى ﴿ بَعثْنا عليكم عِباداً لنا أولي بأسٍ شديد ﴾ (١٧ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وبَعثْنا منهم اثنَيْ عشرَ نقيباً ﴾ (٥ : ١٣) .

الآخرة والجزاء الدنيويان

(٨) ـ وكذلك لفظ « الآخرة » قد يجيء مستعملا في معنى دنيوي ، كما في قوله تعـــالى : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ الآخرة : لِيَسُوْوا وجوهكُم .. الخ ﴾ (١٧ : ٧) أي المرة الآخرة ، وقولهم : ﴿ ما سَمِعْنا بهذا في المِلّة الآخِرة ﴾ (٣٨ : ٧) وقوله تعالى ﴿ فأخذَهُ اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأولى ﴾ (٧٩ : ٢٥) أي كلمتيه ، فالآخرة هــي ﴿ أنا رَبُّكم الأعلى ﴾ (٧٩ : ٣٤) والأولى هي ﴿ ما عَلِمْتُ لكم مِنْ إلهٍ غيري ﴾ ٢٨ : ٣٨) .

وكذلك لفظ « الجزاء » قد يأتي لمعنى دنيوي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأعرَضُوا فأرسَلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ ، وبَدّلناهم بِجَنّتَيْهِم جَنّتَين ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ مِن سِدْرٍ قليلٍ ، ذلك جَزَيناهم بِما كفَروا ، وهل

نُجازي إلاّ الكفُور ﴾[1] (٣٤: ١٦و١٧) وقوله تعالى: ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا كلَّ ذي ظُفرٍ، ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحُومَهما، إلاّ ما حَمَلتْ ظهورُهما أو الحوايا أو ما اختلَطَ بعظمٍ، ذلكَ جزَيْناهم ببَغْيِهم وإنا لصادقون ﴾ (٦: ١٤٦) وقوله تعالى: ﴿ إلاّ آلَ لوطٍ نَجّيناهم بسَحَرٍ نِعمةً من عندِنا، كذلكَ نَجزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ (٥٤: ٣٤ و ٣٥).

الحياة بعد الموت في الدنيا

(٩) ـ وكذلك لفظ «الحياة» بعد الموت، قد يستعمل فى معنى دنيوي، كما في قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين خرجوا مِنْ دِيارِهم وهم ألوفٌ حذَرَ الموتِ، فقال لهم اللهُ: موتوا، ثم أحياهم؟ ﴾ (٢: ٢٤٣) قوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم، لا من قلة، فقد كانوا ألوفاً، أي كثيرين وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن، فأماتهم الله بامكان العدو منهم، فالأمر أمر التكوين، أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا موتاً معنوياً، بما أتوه من سبب الموت الطبيعي، وهو تمكين المحارب من أقفائهم بالفرار، فَفَتَكَ بهم وقَتَلَ أكثرهم، ثم أحياهم حياة معنوية، بأن أعاد اليهم استقلالهم، حيث قد جمعوا كلمتهم ووثّقوا رابطتهم، فعادت لهم وحدتهم القوية، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل الفرقة والعبودية، إلى عز اجتماع الكلمة والاستقلال كذا قاله الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وكما في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استَجيبُوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم لما يُحْيِيكم ﴾ (٨: ٢٤) وقوله: ﴿ أوَ مَنْ كان مَيْتاً فأحْيَيْناهُ وجعلنا له نوراً يمشِي به في الناس كمَنْ مَثَلُهُ في الظُلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ (٦: ١٢٢). (مرحى)

(١) الأكل: الثمر، الخمط والاثل والسدر: شجر.

الفصل الثالث

الدعوة إلى الإيمان بالدليل

آ (١٠٨) « قُلْ : هذه سَبيلي ، أَدْعو إلى اللهِ على بَصيرةٍ ، أنا وَمَنْ اتَّبَعَني ، وسُبحانَ اللهِ وما أنا مِنَ المُشْرِكينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وثمانية ، فقام المدقق اللدي وقال :

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمد ﷺ : أخبر الناس يا محمد و (قل) لهم : (هذه) السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد هي (سبيلي) أي طريقي ومسلكي وسنتي ونهجي (أدعو) الناس (إلى)دين (الله)وسأدعو وسوف أدعو ولا أزال أدعو إلى شهادة أنلا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، هذه سبيلي التي أحيا فيها وأموت عليها ، أدعوهم دائماً حتى يدفع الحق الباطل ، أدعوهم حال كوني (على بصيرة) ودليلٍ قاطعٍ ، وحجة واضحة غير عمياء (أنا ومن اتبعني) – فكل من اتبعه كذلك يدعو إلى ما دعا إليه الرسول ، على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي -- (وسبحان الله) أي وأنزه الله عن الشركاء وأجله وأعظمه وأقدّسُه عن أن يكون له شريك أو نظير أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه: ﴿ سُبحانَهُ وتعالى عمايقولون عُلواً كبيراً ، تُسَبِّحُ له السمواتُ السَّبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ ، وإن مِنْ شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ ، ولكنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ ، إنه كانَ حليماً غفوراً ﴾ (١٧ : ٤٣ و ٤٤) ، (وما أنا مِنَ المشركين) لا شرك ربوبية ولا شرك ألوهية ..

(قل : هذه سبيلي ؛ أدعو ... الخ)

- ١ -

وتابع المدقق اللدي قوله بسرد المواد التالية على الآية :

التقليد في الدين باطل

المادة ١ – البصيرة الحجة الواضحة والعقيدة ، ومنه : ﴿ بل الإنسانُ على نفسهِ بَصيرةٌ ﴾ (٧٥ : ١٤) أي هو حجة وشاهد ؛ يقال جوارحه بصيرة عليه : أي شاهدة ؛ ومنه (اجعلني بصيراً عليهم) أي شاهداً ؛ فالنبي والقرآن دائماً يستدل على قدرة الله تعالى وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا ﴾ (٢١ : ٢٢) وغير ذلك مما لا يحصى ، حتى أنه ليستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات ، والإفضاء إلى المنافع فالتقليد في الدين باطل ، لأنه ينافي أصل العلم باليقين ، فإن المقلد في الدين هو من يعتمد في دينه على قول من يثق به أهله وقومه أو معلمه ، وليس على علم وبصيرة فيه.

النبي والمؤمنون كانوا على بصيرة من الدعوة للإيمان

المادة ٢ – نعلم من قوله ﴿ أدعو إلى اللهِ على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ أن النبي ﷺ ومثله المؤمنون ، جميعهم كانوا على بصيرة ، فليس عندهم شيء من الشك ، بل هم من أهل العلم ، ومن هذا نعلم أن الأمر بالسؤال في قوله تعالى في سورة النحل المكية : ﴿ وما أرسَلنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً نوحي إليهم ، فاسألوا أهلَ الذِكْرِ إن كنتم لا تعلمونَ بالبَيّناتِ والزبرِ ﴾ (١٦ : ٤٣و٤٤) إنما هو للكفار من وثني العرب ، الذين قالوا : ﴿ هل هذا إلا بَشَرٌ مِثلُكم ؟ ﴾ فكان جواب الله اليهم بهذه الآية ، فالمخاطبون هنا بتوجيه السؤال لغيرهم

مخصوصون ، وهم جهلة العرب الوثنين ، والشيء المسؤول عنه هنا مخصوص ، وهو أن الرسل الذين جاؤوا قبل محمد ﷺ ماذا كانوا ؟ هل رجالاً أو ملائكة ؟

وكذلك الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فإنْ كنتَ في شَكٍّ ممَّا أنزلنا إليكَ فاسألْ الذين يقرَؤون الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لقد جاءَكَ الحقُّ من ربِّكَ ، فلا تكونَنَّ من المُمْترينَ ، ولا تكونَنَّ مِنَ الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، فتكونَ مِنَ الخاسِرينَ ﴾ (١٠ : ٩٤ و ٩٥) فهذا الخطاب إنما هو للشاك في صدق هذا الكتاب الذي أنزل لأجله ولأجل هدايته ، وأما النبي ﷺ فلم يكن شاكاً أبداً كما قال : ﴿أفَغيرَ اللهِ أبْتَغي حكماً ، وهو الذي أنزلَ إليكم الكتابَ مُفصَّلاً؟﴾ (٦ : ١١٤) وقال : ﴿ إني على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبي ﴾ (٦ : ٥٧) وقال : ﴿ إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحى إليَّ إني أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾ (١٠:١٥) ، فتوجيه الخطاب إذاً في آيتي « فاسألوا... » الخ و « فإن كنت ... الخ » هو لغير العالم وللشاك في صدق القرآن المجيد الذي أنزله الله لهدايته : أي إن كنت أيها الإنسان تشك فيما أنزلناه إليك بواسطة نبينا « فاسأل الذينَ يقرؤونَ الكتابَ من قبلِك » أي المحققينَ منهم هل لم يكن مذكوراً في كتبهم مجيء نبي وكتاب يجب الإيمان بهما ؟ حقاً « لقد جاءك » أيها الإنسان مطلقاً بواسطة نبيك : « الحقَّ مِن ربّك ، فلا تكونَنَّ من المُمترينَ ، ولا تكونَنَّ مِنَ الذينَ كذّبوا بآياتِ اللهِ ، فتكونَ » أيها الإنسان « مِنَ الخاسرينَ » .

وكون التنزيل يقصد به الناس أيضاً موضح في آيات كثيرة كما في آية : ﴿ وهو الذين أنزَلَ إليكم الكتابَ مفصّلاً ﴾ (٦ : ١١٤) وآية : ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِكْرَ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزّلَ إليهم ﴾ (١٦ : ٤٤) وآية : ﴿اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم من ربكم ﴾ (٧ : ٢) وآية: ﴿ يا أيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ من

ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مُبيناً ﴾ (٤ : ١٧٣) وآية : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكرُكم ﴾ (٢١ : ١٠) إلى ذلك مما لا يحصى كثرة ، ويظهر جلياً صدق هذا المعنى الذي نذهب إليـــه من قوله تعالى بعد آيات من قوله « فإن كنتَ في شكّ .. »الخ ﴿ قل يا أيها الناسُ إن كنتم في شك من ديني ، فلا أعبُدُ الذينَ تعبُدونَ من دونِ اللهِ ، ولكن أعبُدُ اللهَ الذي يتَوفاكم ، وأُمِرتُ أن أكونَ من المؤمنين ﴾ (١٠ : ١٠٤) كذا أفاده بعض المصريين من العلماء .

دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية

المادة ٣ – قام النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى عبادة الحق ، وقرّر أن للعالم إلهاً واحداً بريئاً من كل ما ينسبون إليه من كل ما لا يليق به ، أثبت ذلك بالحجج البينات ، وأمر الناس باستعمال الفكر والعقل في كل شيء ، ونهى عن التقليد ، وحض على النظر في الموجودات .

دعاهم بالحجج العقلية ، لتوحيده تعالى ، وإلى دين « العدالة » بـــين الغنيّ والفقير ثم « المساواة » في الحقوق المدنية والقضائية والسياسية والدينيــة ، ثم « الأخوة » بين المالك والمملوك .

تلك الأمور التي لم يهتد اليها الناس في « الغرب » إلا بعــد أن وصل إليهم شعاع من نور الإسلام في « الشرق » فارجع البصر إلى تاريخ أوربا قبل الإصلاح الديني بـ « لوثر » وقبل الإصلاح السياسي« بالثورة » الفرنسية، لتعرف ما كانوا عليه ، نعم إن النبي صلوات الله عليه وسلامه أتى بجميع الأخلاق الفاضلة المعتدلة والعبادات الصالحة ، والمعاملات الكاملة ، والمبادىء السليمة ، والسياسة القويمة ، وغيرها ، مما كان السبب في إصلاح أمر الإنسان ، وتحريره من العبودية ، وإنقاذ العقل من الأسر ، ورده إلى مملكته ، ليحكم فيها بالقسط ،فنهض«الشرق» نهضة

سريعة عالية ، لم يعهد لها مثيل في التاريخ ، ثم امتدت إلى « الغرب » .

أكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة

المادة ٤ — النبي عليه الصلاة والسلام ، كان يدعو إلى الله على بصيرة وهكذا خلفاؤه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون وسائر العلماء الصالحين ، ولكن من المؤسف ، أن أكثر دعاة أهل اليوم ، هم على غير بصيرة ، لأنهم مزجوا الدخائل بعقائد الدين ، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية ، وعلموا الجهال تعاليم خادعة ، لبّست الغيّ بالرشاد ، كما علموهم التأويلات الباطلة ، التي شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر « توحيداً » وإنكار الأسباب « إيماناً » وترك الأعمال المفيدة « توكلاً » ، ومعرفة الحقائق « كفراً وإلحاداً » وإيذاء المخالف في المذهب « ديناً » والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات « صلاحاً » واختبال العقل وسفاهة الرأي « ولاية وعرفاناً » والذلة والمهانة « تواضعاً » ، والخنوع وقبول الضيم « رضى وتسليماً » ، والتقليد الأعمى لكل متقدم « علماً وإيقاناً » .

دعوة النبي ﷺ وبعثته كانتا عامتين

المادة ٥ — مفعول (أدعو) محذوف إيذاناً بالعموم ، أي أدعو كل الناس حملاً على الآيات الأخرى ، الدالة على عموم بعثته ﷺ ، كقوله تعالى: ﴿وما أرسلناكَ إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (٣٤ : ٢٨) وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ (٢١ : ١٠٧) ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأمّيّينَ رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويُزَكيهم ، ويعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ، وآخرينَ منهم لما يلحَقوا بهم ، وهو العزيزُ الحكيمُ ﴾ (٦٢ : ٢) فقوله وآخرين الـخ : معناه يعلّم آخرين

غير العرب ، من جميع الأمم الأخرى ، فإنهم صاروا من العرب ، لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب، وكذلك دينهم وعاداتهم ، وقد اختلطوا بالعرب بالزواج وغيره ، حتى صاروا منهم في كل شيء ، ولذلك قال : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) أي لم يتجنسوا بالجنسية العربية الآن ، ولم يلحقوا بهم بعد ولكنهم سيلتحقون بهم فيما بعد في كل شيء ﴿ إنّ هذه أمتكم أمة واحدةً ﴾ (٢١ : ٩٢) والمقصود أن بعثة النبي المظم عامة ، وأما سائر النبيين ، فكانت رسالتهم خاصة ، بقوم دون آخرين ، ومنهم المسيح عيسى، ولا يلتفت إلى دعوى المسيحيين ، من أن المسيح مرسل لعموم الخلق ، فإن الإنجيل الذي في أيديهم ينطق بلسان المسيح بقوله : (لم أرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) (مت ١٥ : ٢٤) ، وهو حصر صحيح ، ولا ينافيه قول إنجيل مرقص : (واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها) (مر ١٦ : ١٥) لأن اللام «للخليقة» لا يصح أن تكون للاستغراق ، لأنه يدخل فيها حينئذ الحيوان الأعجم والنبات والجماد فيتعين أن تكون للعهد ، ولا معهود إلا خراف إسرائيل الضالة ، وبهذا يرتفع التناقض ويلتئم كلام الإنجيل مع قول القرآن الكريم ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾ (٣ : ٤٩) .

الدعوة والدعاء والإدعاء والدعوى

المادة ٦ — كلمة (أدعو) من الدعوة وهي الطلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قد أجيبَت دَعوَتُكُما ﴾ (١٠ : ٨٩) ، وقوله : ﴿ له دعوةُ الحق ، والذينَ يدعونَ من دونِهِ لا يَستجيبونَ لهم بشيء ، إلا كباسِطِ كفَّيه الى الماءِ ، ليَبلُغَ فاهُ ، وما هو ببالِغِهِ ، وما دعاءُ الكافرينَ إلا في ضلالٍ ﴾ (١٣ : ١٥) وقوله : ﴿ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ ، إذا أنتم تخرُجون ﴾ (٣٠ : ٢٥) ، وقوله : ﴿ رَبّنا أخّرنا إلى أجلٍ قريبٍ نجب دَعوتَكَ ونتّبع الرُّسلَ ﴾ (١٤:٤٤) وقول نوح : ﴿ إني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم

دُعائي إلا فراراً (٧١ : ٥و٦) فكل ذلك بمعنى الطلب ، سواء أكان طلباً من العبد إلى الله ، وهو ما نسميه دعاء كما في الآية الأولى ، أو طلب الإنسان من الأوثان ، بمعنى دعائهم أيضاً ، وهو ما في الآية الثانية ، أو طلب الله أن يخرجَ الميت من قبره ، وهو ما في الآية الثالثة ، أو الطلب من الإنسان أن يؤمن ، كما في الآيتين الرابعة والخامسة .

وأما « الإدعاء » مثل إدعى عليه كذا ، بمعنى زعم أنه له ، سواء أكان حقا أم باطلا ، فمصدره أو الاسم منه « الدعوى » وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءَهم بأسنا ، إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ﴾ (٧ : ٤) أي ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ، إلا اعترافهم ببطلانه .

وقد يطلق لفظ « الدعوى » على « الدعوة » بمعنى الدعاء ، كما في :﴿قالوا : يا ويلنا ، إنا كنا ظالمين ، فما زالت تِلك دَعواهم .. الخ ﴾ (٢١ :١٥) فكلمة (تلك) تشير إلى كلمة (يا وَيلنا) وهي دعوى بمعنى الدعوة ، وكما في﴿دَعواهم فيها سبحانك اللهمّ وبحمدِكَ .. الخ ﴾ (١٠ :١٠) ، فدعواهم هنا : دعاؤهم ، لأن (اللهم) نداء لله ، ففيه أيضاً إطلاق الدعوى على الدعوة .

الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة

المادة ٧ – قوله : ﴿ أدعو الله على بصيرة ﴾ أي بحجة واضحة غير عمياء لأن الرجل الثبْتَ ، لا يتكلم إلا بثبتٍ ، قال : ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحَسَنة ، وجادلهم بالتي هي أحسنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) فالدين إنما يقوم بالحجة ، لا بالسيف والقوة ، كما قال : ﴿ لا إكراهَ في الدينِ ، قد تبيَّن الرشدُ مِنَ الغَيّ ﴾ (٢ : ٢٥٦) وقال : ﴿ لكم دينُكم وليَ دين ﴾ (١٠٩ : ٦) وكذلك نوح عليه السلام قال : ﴿ يا قومِ ، أرأيتم إن كُنتُ على بيّنَةٍ من

ربي ، وآتاني رحمةً من عنده ، فعُمِّيَتْ عليكم ، أنُلزِمُكُموها وأنتم لها كارهون ﴾ (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى عن لسان نبيه الكريم : ﴿ قد جاءَكم بصائرُ من ربِّكم ، فمن أبصرَ فلِنفسِه ، ومَن عَمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظٍ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال : ﴿ فذكِّر ، إنما أنتَ مُذَكِّرٌ ، لستَ عليهم بمُصَيْطِرٍ ﴾ (٨٨ : ٢١ و ٢٢) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، التي تفيد أن الإسلام إنما قام بالدعوة لا بالسيف والقوة .

وأما حديث : (أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ ، حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم ، وأموالهم ، إلا بحقها) فإنما ورد في مشركي العرب ، الذين لم تقبل منهم الجزية بعد الإذن بقتالهم ، وما أذِنَ للمسلمين بقتالهم إلاّ بعد أن آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وقعدوا لهم كل مرصد ، ووقفوا في سبيل الدعوة ، فلم يكن الإذن إلا للدفاع عن الحق وحماية الدعوة ، والغرض من الحديث ، بيان أن قول (لا إله إلا الله) ، كاف في حقن الدماء ، وإن لم يكن القائل لها من المشركين معتقداً ، لأن الأمر في ذلك يبنى على الظاهر ، ولأن القصد من الاكتفاء بالإسلام ظاهراً ، أن لا يؤذوا المسلمين ، ولا يقفوا عقبة في طريق انتشار الدين ، لأن القصد أن تكون الجزيرة « ممملا » لأنوار كهرباء الإسلام ، تمتد منها أسلاكه إلى كل المعمورة ، فلا يناسب أن يكون في الجزيرة من يحول دون امتداد هذه الأنوار إلى باقي الجهات ، ومما يؤيد قولنا إن الحديث خاص بالمشركين ، وان كان لفظه عاماً رواية النسائي له بلفظ (أُمرتُ أن أقاتلَ المشركين) ، ولأن « الناس » بحسب اصطلاح القرآن يقصد بها غالباً أهل الشرك ، وقد علمتَ أن المراد بيان غاية القتال لا مشروعيته وأن سببه الدفاع وتأمين الدعوة ومنع الفتنة وليس الإكراه على الدين المنفي بنص القرآن العظيم .

الإسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم
و بيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه)

المادة ٨ – الإسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم اذا كفوا أذاهم عن المسلمين، وإنما نتعرض لهم إذا تعرضوا لنا بالأذى ، لأن كل انسان حر فيما يعتنق من الأديان ، وأما حديث « من بدّل دينه فاقتلوه » ، فسببه أنه كان المرتد من مشركي العرب يعود بعد ردته الى محاربة المسلمين وايذائهم ، وهو مطلع على عوراتهم وقلة عَددهم وعُددهم ، ويعرف مواطن ضعفهم ، فمشروعية قتله ، أظهر من مشروعية قتال جميع المشركين المحادين للإسلام ، وكان بعض اليهود ينفر الناس من الإسلام بإظهار الدخول فيه ثم بإظهار الارتداد عنه، ليقبل قوله بالطعن فيه كما ورد: ﴿ وقالت طائفةٌ مِنْ أهلِ الكتابِ : آمنوا بالذي أُنزلَ على الذين امَنوا وَجْهَ النهار ، واكفُروا آخِرَهُ ، لعلهم يَرجِعون﴾ (٣:٧٢) فإذا هدد أمثال هؤلاء بقتل من يؤمن ثم يرتد ، فإنهم يرجعون عن كيدهم هذا فالظاهر أن الأمر بقتل المرتد، كان لمنع شر المشركين مع العرب وكيد الماكرين من اليهود ، فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر ، وهي التي تسمى في عرف أهل عصرنا ، سياسة عرفية عسكرية .

منع النبي ﷺ بعض المسلمين من إكراه أولادهم المتهودين على الإسلام

المادة ٩ - إن خير دليل على أن الإجراء الآنف الذكر لم يكن لاضطهاد الناس في دينهم ، هو أن بعض المسلمين أرادوا أن يكرهوا أولادهم المتهودين على الإسلام – فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك بوحي من الله ، وكان ذلك عند جلاء بني النضير ، والإسلام في أوج قوته ، وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ لا إكراه

في الدين ، قد تبيّنَ الرُشْدُ من الغَيّ ﴾ (٢ : ٢٥٦) ، لأن سبب نزول هذه الآية ما روى أبو داود والنسائي وابن حيان وابن جرير عن ابن عباس قال : (كانت المرأة تكون مقلاة - أي لا يعيش لها ولد - فتجعل على نفسها ؛ إن عاش لها أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا: لا نَدعُ ابناءنا ، فأنزل الله : لا إكراه في الدين) وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : (نزلت - لا إكراه في الدين - رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ، يقال له « الحصين » ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي صلوات الله عليه وسلامه : ألا استكرههما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ فأنزل الله الآية . وفي بعض التفاسير ،إنه حاول إكراههما فاختصموا الى النبي ﷺ ، فقال يا رسول الله ، أيدخل بعضي الى النار وأنا أنظر ؟) ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية - تهويد أولادهنّ ليعيشوا وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا اكراه من لهم من الأولاد الذين تدينوا بدين أهل الكتاب - على الإسلام - فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم. وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي صلوات الله عليه وسلامه ، قال عندما أنزلت : (قد خير اللهُ أصحابكم ،فإن اختاروكم ، فهم منكم ، وان اختاروهم ،فهم منهم) .

هذا هو حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه - وفيهم من يظن أنهم من أوليائه - أنه قام بالسيف والقهر ، فكان يُعرَض على الناس والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه ، هكذا قال أعداء الدين ومنهم البروتستانت وبعض الجهلة من أتباع الدين ، ومنهم من لهم عمامة بيضاء على رأسه .

وهنا نسأل فنقول : هل كان السيف يعمل عمله في اكراه الناس على الإسلام في مكة أيام السيد الأعظم يصلي مستخفياً ، وكان المشركون يفتنون المسلم بأنواع التعذيب ولا يجدون رادعاً من المسلمين يردعهم ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون ان ذلك الإكراه وقع في المدينة وأكثر

أهلها أسلم طوعاً قبل أن يهاجر النبي اليها ، وقد أعز الله الإسلام بأهلها الأنصار ، وهذه الآية نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فإن غزوة بني النضير ، كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة ، نقض بنو النضير عهد النبي فكادوا له ، وهموا باغتياله مرتين وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبـــين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهودين – على الإسلام – ومَنْعِهم من الخروج مع اليهود ، فذلك هو أول خطر فيه على بال بعض المسلمين الاكراهُ على الإسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (كذا حرره بعض المعاصرين) .

مرتبتا الدعوة الى التوحيد

المادة ١٠ – قوله (أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أى ندعو الكافر الى التوحيد ، والمسلم الموحد إلى فعل الخير وترك الشر ، فللدعوة مرتبتان :

المرتبة الأولى - هي دعوة هذه الأمةِ سائرَ الأمم إلى التوحيد والإسلام ، وأنْ يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وهذا مطلوب منا بحكم جعْلِنا أمة وسطاً وشهداء على الناس ، وبحكم كوننا خير أمة أُخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وبحكم قوله في وصف المؤمنين : ﴿ الذينَ إنْ مَكناهُم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ ، وأَمروا بالمعروفِ ، ونهوا عن المنكر ﴾ (٢٢ : ٤١) ، فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام أولاً ، فإن أجابوا ، فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

والمرتبة **الثانية** - هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتأمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ولهذه المرتبة صورتان ، الصورة الأولى

الدعوة العامة الكلية ، ويقوم بها خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه ، وهم المشار اليهم بقوله تعالى : ﴿ فلولا نَفَرَ مِنْ كل فرقة منهم طائفةٌ ، ليتفقهوا في الدين ولِيُنذِروا قومَهم إذا رَجَعوا اليهم ، لعلهم يَحْذَرون ﴾ (٩ : ١٢٣) ، والصورة الثانية ، الدعوة الخاصة الجزئية ، وهو ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوي فيه العالم والجاهل ، وهو ما يكون بين المتعارفين من الدلالة على الخير والحث عليه عند عروضه ، والنهي عن الشر والتحذير منه ، وكل هذه التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدر .

جاء في الحديث (المؤمن مرآة المؤمن) رواه الطبراني في الأوسط، والضياء من حديث أنس ، ورواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود عن أبي هريرة بزيادة : (والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه)، وفي الحديث : (لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لهم) ، وفي الحديث : (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال ﷺ : (إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب) رواه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه .

الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل

المادة ١١ — قوله : (أدعو إلى الله على بصيرة) يعني أنه يدعو إلى توحيد الله الذي أثبته العقل بالدليل ، ولكنه لم يعرف كنهه ، وليس يدعو إلى ما ينفيه العقل ويجزم بعدم إمكان تحققه ، كأن يدعو الناس أن يؤمنوا بأن بعض الأنبياء إله كامل ، وإنسان كامل ، وأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، لأن هذا

الدعاء ، ليس على شيء من البصيرة ، يدعو إلى توحيد الله الذي أثبته النص والنقل في التوراة والزبور والإنجيل والقرآن المجيد ، وليس يدعو إلى ما هو خال عن البصيرة مما لم يثبت نقلاً صريحاً ، كالقول بثلاثة أقانيم ، فإن هذا إنما هو شيء ناتج عن مجتهدي النصارى في المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ ب . م ، ولا يجوز الاجتهاد مع وجود النص .

علينا أن نتأسى برسول الله في الدعوة اليوم

المادة ١٢ – قوله : (أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) : ولذلك فنحن أتباعه اليوم ندعو الناس إلى الله بفهم كلامه والتأسي برسوله مع البصيرة ، أي الدليل والبرهان . ندعو المسلمين الى اهتداء بكتاب الله وسنةرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، كل بقدر استطاعته ، لكن طالب الاهتداء اذا كان من العامة أمكنه أن يسأل العلماء عما يجهل عند الحاجة اليه ، لا عن رأيهم وفهمهم لكلام المقلدين فقط ، بل عن حكم الله ورسوله في الحادثة ، ولا يلزمه أن يبحث عن الدليل عندما يريد أن يعمل عملاً ؛ لأن الله يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا ما آتاها ﴾ (٦٥ : ٧) ، ويقول : ﴿ لِأُنْذِرَكُم به ومَنْ بَلَغَ ﴾ (٦:١٩).

الفصل الرابع

قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الأنبياء

آ(١٠٩) «وما أَرْسلْنا من قَبْلِكَ إلا رِجالاً ، نُوحي إليهم ، مِنْ أهلِ القُرَى ، أَفَلَمْ يسيروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقِبَةُ الذينَ مِنْ قَبلِهِمْ ؟ ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ اتَّقَوْا ، أفلا تَعْقِلون !؟»

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وتسعة فقام الفقيه الدمشقي وقال :

كان قوم نوح يقولون : ﴿ ما هذا إلى بَشَرٌ مِثلُكم ، يُريد أنْ يتَفضَّلَ عليكم ، ولو شاءَ اللهُ لأنزلَ ملائكةً ، ما سمِعنا بهذا في آبائِنا الأوّلينَ ﴾ (٢٣ : ٢٤) ، وكذلك عاد وثمود : ﴿ إذْ جاءَتهم الرسُلُ من بين أيْديهم ومن خلفهم : أنْ لا تعبُدوا إلا الله – قالوا : لو شاءَ ربُّنا لأنزلَ ملائِكةً ، فإنا بما أرسِلتم به كافرون ﴾ (٤١ : ١٤) ، وكذلك أهل مكة طلبوا أن يرسل اليهم مَلك ، كما قال تعالى في سورة الإسراء المكية : ﴿ وما منَعَ الناسَ أن يؤمِنوا إذ جاءَهم الهُدى إلا أنْ قالوا : أَبعثَ اللهُ بَشَراً رسولا ؟! – قل لو كان في الأرضِ ملائكة يَمشُون مُطمئِنِّينَ ، لنزّلنا عليهم مِنَ السماءِ مَلكاً رسولا ﴾ (١٧ : ٩٤ و ٩٥) ، وكذلك نفر من اليهود : ﴿ وما قدَروا اللهَ حَقَّ قدرِه ، إذ قالوا : ما أنزل اللهُ على بشَرٍ من شيءٍ ﴾ (٦ : ٩١) .

هذا ولما قال أهل مكة ما قالوه كغيرهم ، قال تعالى لنبيه ﷺ (ومـــا

أرسلنا من قبلك) يا محمد (إلا رجالا) لا ملائكة (نوحي اليهم من أهل القرى) وهي المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم « بالعواصم » — وهذا من قبيل قياس الحاضر على الماضي - (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين لك يا محمد (فلينظروا كيف كان عاقبة) آخر أمر (الذين من قبلهم) يعني الأمم المكذبة ، فيعتبروا ، فإنهم متى وقفوا على ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال تعالى(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) الذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه (أفلا تعقلون ؟) أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة في الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير .

(أفلم يسيروا في الأرض ... الخ)

— ١ —

وتابع الفقيه الدمشقي كلامه معلقاً على الآية بما يلي :

تطبيق القول على الواقع

التعليق الأول ـ سبق أن الله تعالى بما قص عليهم من سيرة يوسف وإخوته — علمهم بالقول ، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به ، نبههم إلى النظر في الأمور الواقعة فقال . ﴿ أفَلَمْ يسيروا في الأرضِ فينظروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿ فَسيروا في الأرضِ فانظُروا كيف كانَ عاقِبةُ المُكذّبين﴾ (٣ : ١٣٧) أي أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت في الأمم الماضية ؛ وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل ، وكان ذلك يجري بأسباب مطردة ، وعلى طرائق مستقيمة ، يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ، ينصر ، وأن من

ينحرف عنه يخذل ، فليسيروا في الأرض، وليستقرُوا ما حل بالأمم ، ليحصل لهم بذلك العلم الصحيح التفصيل ، لأن السير في الأرض ، والبحث عن أحـوال الماضين ، وتعرّف ما حل بهم ، هو الذي يوصل الى معرفة سنن الله في خلقـه والاعتبار بها كما ينبغي ، نعم إن النظر في التاريخ ، وسماع قصص الماضين، يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه الى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتبـاراً ، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ، ويرى الآ ثار بعينه .

الحث على السياحة المفيدة والإحسان الى السائح

التعليق الثاني – لأجل الترغيب في السير في الأرض للنظر في أحوال الأمم، ولأجل الإعانة على السياحة ، لرؤية وسماع الأخبار، أمر الله بالإحسان الى السائح في قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين احساناً ، واليتامى والمساكين، والجارذي القُربى ، والجارِ الجُنُبِ ، والصاحبِ بالجَنْبِ ، وابن السبيل ﴾ (٤ : ٣٥) فابن السبيل – في قوله – هو السائح الرحالة ، في غرض صحيح غير محرّم، سواء أكان دينياً أو اجتماعياً أو سياسياً ، أو علمياً أو اقتصادياً ، ففي هذه الآية بـل الآيات تنبيه الى أصل عظيم من أعظم أصول العلم التي تُستفاد في السياحـة ، واختبار أحوال الأمم وعواقبها ، وهذا العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة، هو المعبر عنه في هذا العصر « بعلم الاجتماع » .

أهل القرى وأهل البوادي والأعراب

التعليق الثالث – قلنا المقصود من القرى في قوله (من أهل القرى) المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم بالعواصم ، وانما كان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة ، لان سائر البلاد تتبع أهلها اذا آمنوا ، فالرسل تبعث من أهل المدن والامصار ، لانهم أعقل من أهل البوادي ، وأرق طباعاً وألطف

عريكة ، وأعلم وأحلم من أهل العمود ، بخلاف أهل البوادي ، الذين هم من أجفى الناس طبعاً وأخلاقاً ، أما أهل الريف والسواد فإنهم أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي ، وقد وردت في أهل البوادي آيات كثيرة ، واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كفراً ونِفاقاً ، وأجْدرُ أن لا يَعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولهِ ، واللهُ عليمٌ حكيم ، ومن الأعرابِ مَنْ يَتّخِذُ ما يُنفِقُ مغرَماً ويتربّصُ بكم الدوائرَ ، عليهم دائرةُ السّوءِ ﴾ (٩ ٩٨) واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ قالتِ الأعرابُ آمنّا – قُلْ : لم تؤمِنوا ، ولكنْ قولوا أسْلَمْنا ، ولمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبكم ﴾ (٤٩ : ١٤) واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى :﴿ وجاء المُعَذِّرون مِنَ الأعرابِ ليُؤذَنَ لهم ، وقَعَد الذين كَذَبوا اللهَ ورسولَهُ ، سيُصيبُ الذين كَفروا منهم عذابٌ أليمٌ ﴾ (٩ : ٩١) المُعذِّر من عَذّر في الأمر إذا قصّر فيه وتوانى ولم يجدّ ، وحقيقته أنْ يوهم أنّ له عذراً فيما يفعل ولا عذر له – قرن هؤلاء المعذرين بالمنافقين ، ووعد كلاً بالعذاب الأليم ، وقال تعالى : ﴿ سيقول لكَ المُخَلّفون مِنَ الأعراب ، شَغَلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستَغفِر لنا – يقولونَ بألسنَتِهم ما ليس في قُلوبهم – قلْ : فمَنْ يملِكُ لكم منَ الله شيئاً إن أرادَ بكم ضَرّاً أو أرادَ بكم نفعاً ؟ بل كان اللهُ بما تعملون خبيراً ، بل ظَنَنْتم أن لن يَنقلبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهلِيهم أبداً ، وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم ، وظَنَنْتم ظنَّ السَّوْء ، وكنتم قوماً بُوراً ﴾ (٤٨ : ١٠ و ١١) .

الاستدلال بالقياس الاستقرائي على صحة الدعوة

التعليق الرابع – تقدم أنه قال : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله

أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ فهذه دعوى صورتها أنهم إن لم يؤمنوا صار فيهم هكذا وهنا استدل على صحة هذه الدعوى بالقياس الاستقرائي ، ومعلوم أن القياس الاستقرائي أعلى مرتبة من جميع القياسات التي تثبت بها حقائق الأشياء ، فإذا ثبت لدينا شيء بواسطته ، لا يسعنا إنكاره ، وإذا أنعمنا النظر نرى أن علم أكثر أشياء هذا العالم وعلم حوادث الدهور الغابرة والأزمنة الماضية - إنما حصل لدينا بواسطة الاستقراء ؛ خذ إليك مثلاً : نحن نقول الآن : إن الإنسان منذ خلق يأكل بفمه ، وينظر بعينيه ، ويسمع بأذنيه ، ويشم بأنفه ، ويتكلم بلسانه ، فإذا ادعينا خلاف هذا نكون قد نفضنا أيدينا من النتائج القطعية الثابتة لدينا من الاستقراء .

الأنبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي

التعليق الخامس - قوله : (إلا رجالاً نوحي إليهم) يراد بهذا الحصر الرد على مزاعم ثلاث :

فأولاً - الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبية ، كما هو مذهب اليهود والنصارى ، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين ، وهذا الرد وإن يكن صحيحاً ، لكنه غير مراد هنا .

وثانياً - الرد على مشركي العرب ، إذ قالوا : ﴿ لولا أُنزلَ عليه مَلَكٌ ؟﴾ (٦:٨) ﴿ أو جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ (١١ : ١٢) ، لن نُؤمِنَ لكَ حتى .. تأتي باللهِ والملائكة قبيلاً ﴾ (١٧ : ٩٢) وهذا قد يكون مراد هنا .

وثالثاً - الرد على من يقولون إن الأنبياء هم سياسيون محنكون ، استفادوا من حنكتهم وحسن سياستهم تأييد سلطتهم وتصحيح دعواهم النبوة ، وهذا ما يعتقده ويزعمه في نبينا ﷺ بعض مشركي العرب ، كما يعتقده اليوم أهل

أوروبا ، أي أنهم يعتقدون أن النبي القرشي ، قام بما قام به ، بحنكته وسياسته لا بتأييد الله تعالى له بوحيه وعنايته به ، ومثل الإفرنج في هذا الرأي ، كل من لا يدين بدين الإسلام من علماء نصارى الشرق ، فدعوى أن نجاح النبي ﷺ كان بسياسته وحنكته أي بتجاربه هي أكبر شبهتهم على الإسلام، حتى أنهم لولاها لكانوا مسلمين ، ومن هؤلاء الدكتور « شميل » اللبناني الشهير ، إذ يقول من أبيات يمدح بها النبي ﷺ: « رجل الحجا رجل السياسة والدّها »،ومنهم البرنس « كايتاني » الإيطالي ، فإنه ألف كتاباً في تاريخ الإسلام . ذكر فيه أن مزية النبي (ﷺ) هـي كفاءته العجيبة كسياسي محنك ، وهو يعتبر أن ما تم على يديه إنما كان بالدهاء والسياسة وسمو الأفكار وعلو الأخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال « كبسمارك » و « نابليون الأول » ، وإن ما ادعاه من النبوة وما جاء به من القرآن ، لا تأثير لهما في نفسهما ، وإنما التأثير ، له هو بنفسه وبهما لأنه استخدمهما في تأثير سياسته .

هذا ملخص ما كان يعتقده بعض مشركي العرب ، ثم صار أهـالي أوربا يعتقدونه ويقررونه ويشرحونه ببسط ، فالله تعالى يرد عليهم ، بهذه الآيـة وأمثالها فيقول : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ ، أي ما كان الرسل إلا رجالا عاديين ، إنما امتازوا عن باقي الرجال وتأيدوا بالوحـي السماوي .

نعم الله يعلم حيث يجعل رسالته ، فلا بد أن يكون الرسل من ذوي الفصاحة وقوة الحجة العارضة ، ومن أهل الفطانة والذكاء ، ولكن بمجرد هذا لا يعلو بهم عن أمثالهم من الرجال الفصحاء والفطناء الأذكياء ، أقوياء الحجـة شديدي العارضة ، وإنما الذي بهم عن كل الرجال ، ويميزهم عنهم ، هو الوحي والتأييد الإلهي السماوي ، فهذه هي الخاصة التي تعلو بهم إلى الثريا ، ويمتازون بها عن كل من عداهم ، من فصحاء وأذكياء كل الرجال .

وعليه فيكون معنى الآية حينئذ ، وما أرسلنا من قبلك رجالا يكون جلّ أو كل اعتمادهم ونجاحهم، على أخلاقهم ومزاياهم الشخصية، أو على حسن سياستهم وحنكتهم ودهائهم، .. كلا .. فإن هذا وحده لا يفيد، ولكن إنما أرسلنا رجالا جلّ اعتمادهم أو كله على الوحي ، الذي نسدد به خطاهم، وبه نرشدهم ونثقفهم ونؤد بهم ، وبه ننصرهم ونعضدهم ونؤيدهم ، فالخاصة التي يمتازون بها عن باقي الرجال العقلاء الفطناء . ويعلون بها على الفصحاء والبلغاء ، ويتشرفون بها فوق كل السياسيين والمحنكين والحكماء ، هي الوحي ، كالقرآن مثلاً ، فالقرآن هو السبب في نجاح النبي المختار ، وفي هداية المسلمين .

تطمين محمد ﷺ بالنصر

آ (١١٠) « ...حتى اسْتَيْأَسَ إذا الرُّسُلُ ، وظَنُّوا أَنَّهُم قد كُذِّبوا ، جاءهم نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ ، ولا يُرَدُّ بأْسُنا عن القَومِ المجْرِمينَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وعشرة ، فقام الاستاذ الخوارزمي[1] وقال :

« حتى » هذه متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام ، فكأنه قيل: « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخى نصرهم (حتى إذا) حمي الوطيس ، وقامت الحرب على ساق و (استيأس الرسل) وقنطوا من نصرهم العاجل في الدنيا ، فهمأمنهم أنهم سوف ينصرون في الآخرة (وظنوا أنهم قد كذبوا) ــ فيه قراءتان ، فإن قرىء بالتخفيف على البناء للمجهول فمعناه : ظنوا أنهم كذبتهم أنفسهم حين

(١) نسبة الى بلدة خوارزم في تركستان .

حدثتهم بأنهم ينصرون ، أو ظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم ، وهذا نظير قوله : ﴿أم حسبتم أنْ تدخلوا الجنة ولمّا يأتِكم مَثلُ الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم : مَسَّتْهم البأساءُ والضَّراءُ وزُلزلوا ، حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا معه : متى نصْرُ اللهِ ؟ ألا إنّ نصرَ اللهِ قريبٌ﴾ (٢ : ٢١٤) . وإن قُرِىء بالتشديد على البناء للمجهول أيضاً فمعناه : ظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذّبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر — وعند ذلك (جاءهم) أي الرسل (نصرنا) فجأة ، من غير احتساب (فنجي من نشاء) عند نزول العذاب ، وهم المؤمنون المطيعون ، لأنهم الذين يستأهلون نجاتهم (ولا يرد بأسنا) عذابنا في تلك المعركة (عن القوم المجرمين) مهما أعدوا لها العدة ، بل يحيط بهم من كل جانب .

(حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ عبد الرحمن رياض الحيدر ابادي : عندي على هذه الآية التحقيقان التاليان :

الله سبحانه وتعالى يطمن محمداً ﷺ بأنه ناصره في دعوته

التحقيق الأول - لقد كان النبي ﷺ يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه ، والحق يسطع نوره ، وهم يعمون عنه ، حتى قال الله له : ﴿ فلعلّك تاركٌ بعضَ ما يُوحى إليك وضائقٌ به صدرُكَ ، أن يقولوا : لو أُنزلَ عليه كَنْزٌ أو جاء معه مَلَكٌ ، إنما أنتَ نذيرٌ ، والله على كل شيءٍ وكيلٌ ﴾ (١١ : ١٢) وقال له : ﴿قد نعلمُ إنّه لَيَحزُنُكَ الذي يقولونَ ، فإنهم لا يُكَذبونكَ ولكنّ الظالمين بآياتِ الله يَجحَدُون ، ولقد كُذّبتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فَصَبَروا على ما كُذّبوا وأوذوا ، حتى أتاهم نَصرُنا ، ولا مُبَدّلٌ لكلمات الله

ولقد جاءكَ من نبإِ المُرسَلينَ ، وإن كانَ كَبُرَ عليكَ إعراضُهم ، فإنِ استَطَعتَ أنْ تبتغي نفقاً في الأرضِ أو سُلماً في السماءِ ، فتأتيهمْ بآيةٍ ... ولو شاء الله لجمعهُم على الهدى فلا تكونَنَّ من الجاهلين ﴾ (٦ : ٣٣ – ٣٥) وقد قال تعالى : ﴿ إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ، ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً ، فسبح بحمْدِ ربِّكَ واستغفِرْه إنه كانَ تواباً ﴾ (١١٠ : ١-٣) وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ، ما يدل على أن النبي ﷺ كان يضجر ويقلق من استبطاء نصر الله للحق ، الذي بعث به نبيه ، بل فيه شيء من السهو الذي وعد الله بتأييد دينه ، وليس ذلك من النقص الذي يعاب به الأنبياء ، فإن كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله ، لا بد أن يمسه هذا الضجر ، ويصيبه هذا القلق ، وتأخذه الشدة بهذا النسيان ، حتى يكون الكمال لله وحده ، ولكن الله جل شأنه يعده على أقرب المقربين إليه ، كما قالوا : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

تخريج كلمة « كُذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها

التحقيق الثاني – الأظهر المنطبق على قواعد العقائد ، أن المراد باستيآس الرسل يأسهم من إيمان قومهم ، وفي قوله تعالى (كُذبوا) بضم الكاف ، قراءتان سبعيتان إحداهما بتشديد ذال (كذبوا) ولا إشكال فيها ، غير أن الظن فيها بمعنى اليقين لأنه قد يستعمل في الفصيح بهذا المعنى ، وبمعنى الوهم ، وبمعنى حديث النفس ، والقرائن هي التي تعين المعنى المراد . والقراءة الثانية بتخفيف ذال (كذبوا) ، وفي تطبيق القواعد عليها وجهان : أحدهما أن الضمير في (ظنوا) يعود لأقوام الرسل : أي ظن الأقوام أنهم كذبوا فيما أوعدوا به من وقوع العذاب عليهم ، وثانيهما أن الضمير عائد للرسل ، (كذبوا) ههنا ، معناه كذبتهم أنفسهم فيما تمنوا وأملوا في قومهم ، أي خابت آمالهم فيهم ، من كذبته نفسه ، إذا منته الأماني وخيلت إليه من الآمال ما لا يكاد يكون ، قال في الأساس : (وكذَبَ نفسه ، وكَذَبَتْه نفسه إذا حدثته بالأماني البعيدة والأمور

التي لا يبلغها وسعه ومقدرته) ، والمعنى حتى إذا يئس الرسل من إيمان قومهم وظنوا : أي أيقنوا أن أمانيهم في إيمانهم وآمـــالهم في قبولهم الدعوة ضائعة ، جاءهم نصرنا ، وورد أن عـائشة (رض) كانت تنكر قراءة التخفيف ، كما في صحيح البخاري من طريق عروة بن الزبيـــر ، وقد علمت أن العلماء خرّجوا هذه القراءة على معنى مستقيم والله تعالى أعلم .

هذه كلمتي ألقيتها على مسامعكم الشريفة ، وما أشبهني بن قيل فيه :

فإنك واستبضاعك الشعر نحونا　　كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا

فإنني أيها السادة أجنبي عن لغتكم ، وأنتم الأصل والأهل .

(مرحى مرحى ولا فض فوك)

الفصل الخامس والأخير
العبرة من قصص الرسل مع أقوامهم

آ (١١١) « لقد كانَ في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الألباب ، ما كانَ حديثاً يُفترى ، ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يَدَيهِ ، وتفصيلَ كلِّ شيءٍ ، ورَحمةً لقومٍ يُؤمنونَ »

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وإحدى عشرة ، وهي الآية الأخيرة في السورة ، فقام الفهامة الشيخ أحمد من علماء (عليكرة) وهي في الهند وقال:

يقول الله تعالى : بذاتي حلفت (لقد كان في قصصهم) أي في خبر المرسلين مع قومهم وذويهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ، وكيف نصرنا

المظلومين على الظالمين (عبرة لأولي الألباب) وعظة لذوي العقول . فإن تاريخ الرسل حافل بالمواعظ والذكريات (ما كان) القرآن المجيد (حديثاً يفترى) يكذب ويختلق من دون الله (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب السماوية ، كصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور ، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي مـا وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ، ويشير لما وقع فيها من نقصان ، ويحكم عليها بالتقرير لأكثرها ، والنسخ لبعضها (وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والإخبار عن الأمور الجلية ، وعن الغيوب المستقبلة ، الجملة والتفصيلية ، والأخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهته عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان (هدى ورحمة) وبياناً ونعمة (لقوم يؤمنون) تهتدي قلوبهم من الغي إلى الرشاد ومن الضلال إلى السداد .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)

— ١ —

وقال السيد نور الدين من علماء سنغافورة [١] ههنا مواد جميلة المسالك على هذه الفقرة من الآية الكريمة جمعناها من هنا وهناك وهنالك واليك بيانها:

محمد ﷺ مؤسس أمة وإمبراطورية وديانة

المادة (١) — قال « بوسورث سميث » في كتابه « حياة محمد » « من حسن الحظ في التاريخ دون غيره أن « محمداً » أسس في وقت واحد ، ثلاثة أشياء من عظائم الأمور ، وجليل الأعمال ، فإنه مؤسس لأمة ، وامبراطورية ، وديانة مع

(١) نسبة الى سنغافورة في شبه جزيرة مالاقا جنوب الهند الصينية .

أنه أمي وما كان يقدر يقرأ أو يكتب ، ومع ذلك أتى بكتاب هو آيــة في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد » وقال الدكتور « موريس » الفرنسي « إن القرآن أفضل كتاب أخرجته يـد العناية الأزلية لبني البشر » .

الغاية من قصص القرآن

المادة (٢) - قص علينا القرآن أحسن القصص ، ليكون عبرة وذكرى وشفاء للقلوب من أمراض الجهالة ، وإرشاداً لتقويم شؤون البشر ، وتهذيب نفوسهم ، وإصلاح معاشهم ومعادهم ، وليس الغرض من تلك الأقاصيص ، سرد تواريخ الماضين ، وذكر شؤونهم وأطوارهم ، ولكنها للعظة والاعتبار ، ولهذا لا يبالى فيها بالتكرار ، ولا يستهجن معها الاطناب بعد الإيجاز ، أو الإيجـاز بعد الأطناب ، ولا أن تسرد غير مُراعى فيها تعاقب الوقائـع ، ولا ترتيب الحوادث ، فالقرآن يذكر القصة في مواطنهـا ، بأساليب متغايرة ، أو صور متقاربة . لكل منها مغزى لا يؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وكُلّاً نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ الرسُلِ ما نُثَبِّتُ بـه فؤادَكَ وجاءَكَ في هذه الحقُّ ، وموعظةٌ وذِكرى للمؤمنين ﴾ (١١: ١٢٠).

هذا ولم تتكرر قصة يوسف لأنها قصة محزنة مؤسفة ، ولأن فيها من ذكر ما يتعلق بالعرض والناموس ما لا يتفق مع التكرار .

الغاية من ذكر الأنبياء وقصصهم في القرآن

المادة (٣) — ورد قوله تعالى بعد ذكر ثمانية عشر نبياً : ﴿ أولئـك الذين هَدى اللهُ ، فبِهُداهُمْ اقْتَدِهْ ﴾(٦: ٩١) فالغرض من ذكر الأنبياء وحوادثهم القدوة بهم في التبليغ وإقامة الحجة والصبر على التكذيب مثلاً ، والصبر على إيذاء

أهل العناد ، والأقارب والأباعد ، وإعطاء كل حال حقها ، من مكارم الأخلاق ، وأحاسن الاعمال ، والفائدة موجودة دائماً في كل قصص ، حتى في قصص يوسف مع امرأة العزيز وسيرة عشقها له ، ومراودتها إياه ، ثم في سيرة عشق النسوة المصريات لجماله ، فإن ذلك كله قد اقترن بما يدفع الإنسان عن التدهور في مثل هذه الوهدات التي تنزل بالنساء إلى الحضيض الاسفل ، وقد قال تعالى : ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ - إلى أن قال - ولا يزيدُ الظالمينَ إلا خَساراً﴾ (١٧ : ٨٢) وقال تعالى : ﴿وإذا ما أنزلتْ سورةٌ ، فمنهم من يقولُ : أيُّكم زادَته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادَتهمْ إيماناً وهم يَستبْشِرونَ وأمّا الذين في قلوبهم مَرضٌ فزادَتهم رِجْساً إلى رِجسِهِم ، وماتوا وهم كافرون﴾ (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) فكل أحد يرغب في سماع هذه القصة ، لتحريك المحبة المذمومة ، أو يرغب عن سماعها ، دفعاً لهذه المحبة ، فهو مذموم ، وإنما الممدوح من يحب سماع تلك السيرة لما حوته من العبر والذكر ، وما يستفاد من عواقب العشق السيئة ، وكذا كل من أحب أن يسمع هذه السورة لتعلم ضروب الحيل ، فهو مذموم ، ولكن الممدوح من يتدبر بعض هذه الحيل بما اشتملت عليه من النتائج السيئة ، والبعض الآخر بما شمله من العواقب الحسنة ، وهكذا كل من لذّ له أن يسمع ما انطوت عليه من الحسد والعقوق وقطع الرحم والختل والكذب والقساوة وخلف الوعد فهو مذموم ، وإنما المشكور من قرأ ذلك وعلم ما فيه من نتائجه السيئة وعواقبه المكروهة ، ثم التوبة منه إلى الله وإلى الناس الممكور بهم .

وليس ما ذكر خاصاً بسورة يوسف ؛ فقد ذكر الله تعالى في غير هذه السورة أحوال الكفار والفجار واللوطية والفراعنة والظلمة ، ثم الشرك بأنواعه والكفر بأسبابه ، وسائر ضروب الفسق ، والحسد وقطع الرحم والعقوق والكذب والاحتيال ونقض العهود وخلف الوعود ، إلى غير ذلك مما فيه ذكر معاصي الله

والصد عن سبيله ، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والكفريات وأنواع الفسوق، وكله مذكور في كتاب الله تعالى،ولكن ذكره محفوف بالنهي والترهيب وبيان سوء المغبة ، وقبح السمعة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات

المادة (٤) — القرآن ليس بتاريخ ، كما هو الشأن في سفر التكوين، وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل والملوك والايام وعزرا والخ والخ فإن هــذه الاقاصيص ، هي تاريخ محض جاف خال عن العبرة .

القرآن لا ينشر إلا التقوى والفضيلة بين الناس ، ولذلك نص نصاً صريحــاً ببراءة الانبياء الكرام ، الذين رماهم « أهل الكتاب » بالكبائر . راجع القران وقوله : ﴿ وما كَفَر سُليمانُ . ولكن الشياطينَ كفروا ﴾ (٢ : ١٠٢) وهو رد على توراة اليهود التي تنسب لسليمان — حاشاه — عبادة غير الله .

راجع القرآن وقوله : ﴿ قالوا : ما أخلَفْنا مَوْعِدَك بِمَلْكِنا ، ولكنّا حُمِّلْنا أوْزاراً من زِينةِ القومِ فقَذَفْناها فكذلك ألقى السامِريّ ،فأخرج لهم عِجلاً جسداً له خوارٌ — فقالوا : « هذا إلهكم وإله موسى فنسيَ » أفلايرَوْن أن لا يرجعُ إليهم قَولا ، ولا يملِكُ لهم ضَراً ولا نَفْعاً؟ ولقد قال لهم هرون منْ قبلُ : « يا قومِ إنما فُتِنتم به وإنّ ربَّكمُ الرحمنُ ، فاتبعوني وأطيعوا أمري » .. — قالوا : لَنْ نَبْرحَ عليه عاكفينَ حتى يَرجعَ إلينا موسى »... قال : يا هرونُ ما مَنعَكَ إذْ رأيْتَهُم ضلوا ألا تَتّبِعَنِ ؟ أفَعَصَيْتَ أمري » .. — قال : « يا ابنَ أمّ لا تأخُذ بلِحيتي ولا برأسي ، إني خشيتُ أن تقول : « فرّقتَ بين بني إسرائيل ، ولم ترقُب قولي » — قال : « فما خَطبُكَ يا سامريّ ؟ » — قال : بَصُرتُ بما لم يَبصروا به ، فقَبضْتُ قبضَةً من أثر الرسول ، فنَبذْتها ، وكذلكَ سَولتْ لي نفسي » — قال : « فاذهبْ فإن لك في

الحياةِ أن تقولَ : « لا مساسَ »[١] وإنّ لك موعِداً لن تُخلَفَهُ ، وانظرْ إلى إلهِكَ الذي ظلْتَ عليه عاكفاً لنُحرّقنّه ثم لنَنسِفنّهُ في اليمّ نسْفاً » (٢٠ : ٨٧ – ٩٧) فهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين يقولون إن هرون هو الذي صنع لهم العجل الذهبي (خر ٣٢ : ١ – ٦) .

القرآن لم يذكر من تاريخ الأنبياء ونحوهم إلا ما فيه عبرة ، وما بــه تغذية النفوس بالصلاح والاستقامة وتحصين الأخلاق والآداب – بسياج الفضيلة ، ولكن كتب اليهود والنصارى تقول ما فيه إفساد للأخلاق وتعليم للرذيلة ، اقرأ ما جاء في (تك ٩ : ٢٠ – ٢٧) عن ترجمة حياة نوح ، وما جاء في (تك ٢٧ – ٢٥) عن سكر الأنبياء ، وما جاء في (خر ٢٩ : ٤٠) و (لا ٢٣ : ١٣) عن إيجاب تقريب الخمرة للرب ، وما جاء في (٢ صم ٦ : ١٩) عن سقي داود الخمـرة لمن أصعد تابوت الرب إلى مدينة داود وما جاء في (يو ٢ : ٧ – ١٠) عن تحويل المسيح الماء خمراً وتقديمها للضيوف وما جاء في (مت ٢٦ : ٢٧) عـــن شرب المسيح الخمرة وأمره تلاميذه أن يشربوا منها ، وما جاء في (تك: ١٩ : ٣٠-٢٨)

---

(١) المراد من قوله « لا مساس » أنه كان في شريعة موسى عليه السلام ان الذي يرتكب خطيئة كبيرة ، يعد كأن به داء معدياً ، فينفصل عن سائر الشعب ، خارج الحلة ، باعتبار أنه نجس. فكان عندهم يجب عليه أن يعلن مرضه ذلك ، بثيابه واشارته وكلماته ، وذلك بأن تشق ثيابه ، ويكشف رأسه ، ويغطي شاربيه ، ويطرد من المحلة أو المدينة الى الخارج ، ويلزم أن يصرخ متى رأى أحداً مقترباً اليه ، فيقول : لا مساس لا مساس ، أو يقول : نجس نجس ، ويبقى على هذا الحال الى أن يتاب عليه ، فيرجع ويختلط بالناس، ويختلط الناس به ، ويعاشرهم ويعاشرونه ، وهذا قريب من « الهجر » المشروع في الاسلام ، لمرتكبي الكبائر ، كما في قصة « كعب بن مالك » و « زرارة بن الربيع » و « هلال بن أمية » المشار اليهم في قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم) (٩: ١٩) اهـ.

عما فعله لوط مع ابنتيه ، فأي عبرة في سرد ذلك للقارئين ؟ وما هو منفعته بل ما هي الحكمة وما هي العبرة في ذكر جريمة لوط ـ حاشاه من ذلك ـ التي أتت في كتبهم كأنها أمر عادي ، وكأن لوطاً لم يرتكب منكراً، حتى لم يذكر أن الله وبخه أو عاقبه على ذلك ، أو أنه تاب من ذنبه ، بل العجيب أن الكتاب المقدس ، سماه باراً تقياً(٢بط٢:٧–٩)(١)،فأي عبارة أتى بها كاتب هذه الجريمة لبيان شناعة هذا العمل الفظيع ، واستقباحه له ، أو وجوب التوبة منه ؟ وقد قالوا إن الحكمة في ذكر هذه القصة وأمثالها هي إظهار درجة قبح شرب الخمر ، وبيان ما تؤدي إليه !!! ونحن نقول إنما افتجر اليهود هذه القصص تبريراً لشرورهم الكثيرة ، وعصيانهم لله مرات عديدة ، واعتذاراً بها عن جرائمهم وآثامهم المتكررة المستمرة إلى اليوم.

القرآن لا يذكر من تاريخ داود ، إلا ما فيه عظة وعبرة لأولي الألباب ، ولكن سيرة داود عند اليهود والنصارى ، معروفة مشهورة ، وقساوته وظلمه، لا مثيل لها ـ حاشاه ـ ، اقرأ ما جاء في (٢ صم : ٣١) و (١ أي ٢٠ : ٣) عن نشره أسرى بني عمون بالمناشير ونوارج الحديد والفؤوس ، وما جاء في (١ مل ١٥ : ٥) عن تعريضه أوريا الحثي وزناه بزوجته ، وما جاء في (١ صم ٢١ : ٢) من كذبه وتعليمه الكذب ، وما جاء في (١ صم ١٨ : ٢٥ و ٢٧) من قتله ٢٠٠من الفلسطينيين ليتزوج ابنة شاول ، وما جاء في (١ مل ٢ : ٨و٩) من وصيته لابنه سليمان وهو محتضر بقتل رجل ، وما جاء في (٢صم١٣:١–١٤) من حزنه على ابنه « أمنون » حينما قتل ، مع أنه فسق بأخته بعد أن خدعها خدعة دنيئة ، وما جاء في (٢ صم ١٤ : ٢٤ و ٢٨) من أن داود حقد على ابنه أبشالوم الذي قتل أخاه « أمنون » انتقاماً لأختهما ؛ وداود هذا هو الرجل الذي نصت كتبهم على أنه كان باراً « وأن جميع أفعاله مرضية عند الله تعالى ، وكلها مستقيمة ، في عيني الرب ، وطبق وصاياه » (١ مل ١٥ : ٥) .

(١) ٢ بط : هو رمز لسفر بطرس الثاني من الانجيل .

قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والأخلاق

المادة (٥) — لا نرى قصة من قصص القرآن ، إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية ، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، وإرشاد ونصح ، وتبصره وتذكرة ، نرى القرآن يعرض عن كثير من الوقائع التاريخية التي لا لزوم لها ، ولا معول عليها ، وبالأولى تراه يعرض عما ذكرته توراة اليهود ، التي بين أيديهم من الحوادث المخجلة الشائنة ، التي نوهنا بالشيء الكثير عنها .

لا فائدة من درس التاريخ إن عدل به عن العبرة

المادة (٦) — درس التاريخ أن عدل به عن العبرة ، كان شغلاً بلا فائدة ، وضياع وقت وحياة بلا ثمرة ، و « العبرة » مشتق من عبور البحر ، فينقل قارىء التاريخ حال غيره على نفسه ، ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق الراهنة المنوطة بشخصه ، أو بأسرته أو بأمته ووطنه ، وبدينه ودنياه ، وهو ما أريد به من قصص القرآن التاريخية ، قال تعالى : ﴿ مـا ترى في خلقِ الرحمنِ مِنْ تفاوتٍ ﴾ (٦٧ : ٣) وقال : ﴿ كذلك قال الذين مِن قبلِهِم مِثلَ قَوْلِهِمْ ، تشابَهَتْ قلوبُهم ﴾ (٢ : ١١٨) ، ويقول سليمان عليه السلام ﴿ فليس تحتَ الشمسِ من جديدٍ ﴾ (جا ١ : ٩) ، ويقول العلماء : « التاريخ يعيد نفسه » ، وقد غفل الناس من تلك العبرة ، جهالة بالقصد ، ورمياً للفحوى ورضى بالقشور ، وابتعاداً عن أسرار البلاغة : جاء الخطاب بلسان العرب ،وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها ، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها ، أو المعاني دون مغزاها ، وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ذكر له قصصاً تشبه حاله ، فيردعه عن غيه ، فتكون أشد تأثيراً من وقع

الحسام ، وتثير في القلب حمية وإقداماً ، أو خيفة وإحجاماً أو إصلاحاً واستقامة ، فيزول المراء ، ويرتفع الغطاء فإن المثل في مغزاه ، كالسهم في مرماه .

قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة

المادة (٧) — إن جمال قصة يوسف ، سائق لما به السعادة ، وهو حفظ الأخلاق ودوام الثقة بالله تعالى ، وانتظار الفرج منه ، فإذا قرأ القارىء ، أن يوسف كان عفيفاً ، حين راودته زليخا لكي يخالطها ، تشوق القارىء الذكي التقي أن يكون كيوسف ، عفة وأمانة ، وكذلك يقلده في العفو ممن ظلمه ، وسماح من تعدى عليه ، بل في نفعه وتشريفه ، ويقول في نفسه إن هذه الأخلاق اليوسفية ، كانت عاقبتها النبوة والملك ، فهكذا من قلده في أخلاقه ، تكون عاقبته الولاية والرفعة .

ليس المقصود من قصة يوسف ، أن نلوم إخوة يوسف على حسدهم له ، ولكن المقصود أن نلوم أنفسنا عندما يحصل منا حسد لإخوتنا ، وليس الغرض أن نتكدر منهم حينما احتالوا على أبيهم وغدروا بأخيهم ، ولكن الغرض أن نتكدر من أنفسنا عندما نجري الحيل على بعضنا ، ويغدر بعضنا ببعض ، وليس المطلوب أن نعترض على إخوة يوسف وقتما نراهم قد قطعوا الرحم ، وقذفوا بأخيهم في غيابة الجب ، وإنما المطلوب أن نعترض على أنفسنا وقتما تحصل منا أعمال شاذة وحشية كهذه مع ذوي رحمنا وأقاربنا .

كما أنه ليس بالأخبار بلقيا يعقوب لولده يوسف ولمّ شمله به ، واجتماع الأسرة الاسرائيلية جميعاً ، في صعيد واحد ، مطمئنين مسرورين ، وإنما المراد أن نفرح بلم شملنا نحن المسلمين ، وجمع كلمتنا واتحادنا واجتماعنا جميعاً ، تحت راية واحدة وتحت إمام واحد .

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

المادة (٨) – لقد كان في قصص يعقوب وأولاده عبرة ، فليعتبر بذلك هؤلاء الناس ، الذين اقتصروا على معرفة الفروع الفقهية ، وظنوا أن الحلال والحرام ، كافيان في الإسلام ، وكم تركوا العظة بآيات كثيرة ، بحجة أنها نزلت في الكفار أو المنافقين ، فلا لزوم للتأمل فيها والاتعاظ بمراميها .

ليقيسوا حالهم على حالهم ، وليقيس كل من كان اليوم من ذرية النبي ﷺ أو غيره من الصحابة ، كأبي بكر أو عمر (رض) – نفسه على أولاد يعقوب ، ويعلم أن كل من كان من السلالة المحمدية أو البكرية أو العمرية مثلاً ، فهو بين شيئين ؛ إن كان من الصالحين المتقين ، كان على قدم يوسف عليه السلام ، وإن كان من المذنبين ، احتاج لمتوبة وكان على قدم إخوة يوسف رحمهم الله تعالى ، فيوسف وإخوته كلهم من سلالة بيت نبوة ؛ لكن يوسف إنما انتفع باستقامته وتقواه ، كما أن إخوته إنما انتفعوا بتوبتهم إلى الله ، فهكذا كل من كان اليوم من سلالة الحسين أو الحسن أو أبي بكر أو عمر (رض) أو نحو ذلك ، لا ينفعهم عند الله العمل الصالح والتقوى ، والسيرة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ وقلْ اعملُوا ، فسَيَرى اللهُ عَمَلَكم ورسوله والمؤمنونَ وستُرَدُّون إلى عالم الغَيْبِ والشهادة فيُنَبِّئُكم بما كنتم تعملونَ ﴾ (٩ : ١٠٦) وقال: ﴿ يا أيها الناسُ ، إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى ، وجعلناكم شُعوباً وقبائِلَ ، لِتعارفوا ، إنَّ أكرَمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾ (٤٩ : ١٣) ، وقد قال تعالى : ﴿ أم حَسِبَ الذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَهم كالذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ ، سواءٌ محْياهم ومماتهم ؟ ساءَ ما يَحكمون ! ﴾ (٤٥ : ٢٠) ، وهذا استفهام إنكاري يقتضي الإنكار على من يحسب ذلك ويظنه ، وإنما يُنكر على من حسب وظن من الخطأ صواباً والباطل صحيحاً .

فعلم أن التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، مما يعلم بطلانه ، وأن ذلك من أظلم الشيء الذي ينزه الله عنه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أم نجعلُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ ، كالمُفسِدين في الأرضِ ؟ أم نجعلُ المتقينَ كالفجارِ ﴾ (٣٨ : ٢٨) وقوله تعالى : ﴿ أفنَجعلُ المسلمينَ كالمجرمينَ ، مالَكم ؟ كيف تحكمُون؟) (٦٨ : ٣٥) وبالإجمال ، فالتسوية بين الأبرار والفجار، والمحسنين والظالمين ، وأهل الطاعة وأهل المعصية — حكم باطل يجب تنزيه الله عنه ، فإنه ينافي عدله وحكمته ، وهو سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفين ، فهو يسوي بين المتماثلين كقوله تعالى : (أكفّاركم خيرٌ من أولئكم ؟ أم لكم براءةٌ في الزُّبر ؟) (٥٤ : ٤٣) وقوله : (كدأبِ آلِ فرعونَ والذينَ من قبلِهم) (٣ : ١١) فالشريف الهاشمي التقي النقي الصالح ، هو كيوسف ، والشريف الهاشمي الذي خرج عن الحد ، ثم تاب وأناب إلى الله وحسنت حاله ، هو كإخوة يوسف .

(الله أكبر الله أكبر)

(ما كان حديثاً يفترى)

— ١ —

وتابع السيد نور الدين السنفافوري كلامه فقال :

ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير

المراد من قوله (ما كان حديثاً يفترى) : أن قصص القرآن ليس مخترعاً ولا مفترى بدليل وجود أمثاله بين الناس قبل نزوله ، فهو وإن اختلف قليلاً في بعض التفاصيل أو الجزئيات — عما يرويه الناس ، إلا أنه موافق في الجملة والجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن النبي إخترعه بعقله ، بل اسألوا عنه

أهل الكتاب ، تجدوا أنه معروف بينهم ، ومروي في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند أهل الكتاب من قبل ، لا يضعف حجته ، كما يتوهم من يسمون « بالمبشرين » بل هو من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه ، يستدل بذلك على كونه من عند الله ، لأن النبي لم يطلع على كتب أهل الكتاب ولا يستنتجنْ القارىء من هذه الآية ، أن قصص القرآن ، يجب أن لا يختلف عن قصص التوراة والإنجيل في شيء ما .. كلا .. إذ لو كان هـذا الاستنتاج صحيحاً ، لما قال تعالى : (إنّ هذا القرآن يَقُص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) (٢٧ : ٧٦) ، فقصصه قد يختلف عما عندهم ، فيبين لهم حقه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، وبين مخالفته لها في بعض الجزئيات ، كما قلنا .

ويقال أيضاً (ما كان حديثاً يفترى) من قبيل الخرافات والأساطير التي في أسفار الغير ، ولكنه كان بالعكس هادماً لتلك الخرافات والأساطير التي خلقتها تلك العصور اليهودية والعصور الستة قبله ، وكان مصدقاً لما تقدمه من الكتب خلا ما زيد فيها أو حذف منها أو فسد بسبب الترجمة السيئة ، وكذلك خلا الكتب « الأبو كريفية » – أي التي ليست قانونية – الموجودة في الترجمة السبعينية ، التي قبلتها الكنيسة البابوية بين الكتب المهمة .

(ولكن تصديق الذي بين يديه)

– ٢ –

وقال المدقق اللدي :

ليسمح لي السادة أن أعلق على هذه الفقرة من الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد

أولاً – القرآن مصدق لما قبله في تقرير التوحيد الخالص واتقـاء الشرك ،

صغيره وكبيره، وإثبات النبوّات والرسالات، وما يغذي الإيمان ويقويه، ومن ترك الفواحش والمنكرات وعمل الصالحات.

القرآن مصدق لما قبله من أصول الدين

ثانياً — القرآن مصدق لأصول الدين وأركانه، التي هي المقصد من إرسال جميع الرسل، لا يختلفون فيها، وإنما يختلفون في طرق حمل الناس عليها، وهدايتهم بها، وترقيتهم في معارجها، بحسب سنة الله في ارتقاء البشر بالتدريج جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، خذ اليك مثلاً على ذلك: المقصد من جميع الحكومات هو العدل، وانما تختلف الدول في القوانين المقررة له، باختلاف أحوال الأمم، فليس من العقل ولا الصواب أن تنكر الأمة تغيير حاكم جديد ما كا عليه من قبله إذا كان يوافقه في جعله مُقرّراً للعدل مقيماً لميزانه بين الناس كما كان أو أكمل، وهو في هذه الحال يسمى مصدقاً لما بين يديه لامكذباً ولا مخالفاً، فالقرآن قرر نبوة إبراهيم وموسى وداود وعيسى ونحوهم، وصدّقهم فيما جاؤوا به عن الله تعالى، ووبخ الأقوام المدعين أتباعهم، على إضافتهم لبعض ما جاؤوا به وتحريفهم للبعض وزيادتهم في بعض المواضع، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم، حتى أن أكثرهم هدموا الأساس الأعظم للدين، وهو التوحيد، فثلثوا واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، فتصديق القرآن لما بين يديه، لا ينافي ما عناه عليهم من الاضافة والنسيان والتحريف والتأويل المغلط.

القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد

ثالثاً — القرآن مصدق للكتب السالفة في التوحيد وروح العبادة وتزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات وتهذب الأخلاق، وفي الكليات الخمس وهي

« حفظ الدين » بعدم الردة والكفر و « حفظ النفس » بعدم الانتحار وقتل الناس و « حفظ المال » بعدم السرقة والربا والغش والخيانة و « حفظ النسب » بالتباعد عن الزنا و « حفظ العقل » بأن لا يتعاطى مسكراً ولا مخدراً ، هذه هي الكليات الخمس التي هي مشروعة في كل دين وموصى عليها في كل كتاب .

القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين

رابعاً – القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين ، فإن ديننا هو عين دينهم ، مع مزيد بيان وإصلاح يقتضيه ترقي البشر ، ومع إزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين وما هي من الدين في شيء .

القرآن مصدق للكتب السماوية الاصلية

خامساً – القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ، ولكن وجد في هذه السورة ، في القصة اليوسفية ، ما هو مغاير للقصة في سفر التكوين الموجود عند اليهود والنصارى ، ما بين زيادة في السيرة عما هو في سفر التكوين ونقصان في السيرة عما هو المذكور ، ولا يهولكم ذلك ، فالقرآن نزل مهيمناً على كتب اليهود والنصارى ومصححاً لها ، فما حكاه القرآن كان صحيحاً وما نفاه كان ليس بصحيح وما سكت عنه غير مهم ، لأن التوراة دخلها ما دخلها من التحريف والزيادة والنقصان ، وأما قوله تعالى : (وكيف يُحَكِّمونَكَ وعندَهم التوراةُ فيها حُكْمُ اللهِ ؟) (٥ : ٤٦) ونحو ذلك مما يحتج به دعاة النصرانية ، على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود ، هي ما أنزله الله تعالى على موسى ، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف – فهو احتجاج ضعيف ، لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ من القرآن ما يوافق هواه ، ويرد ما يخالفه جدلا ، فالمؤمن يؤمن بالكتاب كله ، والكتاب يبين لنا أن عندهم التوراة ، وأن فيها

حكم الله ، في القضية التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ ، وهي قضية رجم الزاني المحصن ، وقد صدق الله تعالى وهو أصدق الصادقين ، ولكنه يبين لنا مع ذلك في نفس الكتاب أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه (٤ : ٤٥) ، وأن اليهود نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٥) ، وأن اليهود أوتوا نصيباً من الكتاب (٣ : ٢٣) ، إذ أضاعوا منه نصيباً آخر ، وقد صدق الله أيضاً في ذلك كله ، فقوله : (وعندهم التوراة) (٥ : ٤٦) لا يجب أن يعني التوراة الصحيحة ، بل يجوز أن يراد بها التوراة ولو محرفة أو مزيدة أو ناقصة ، فكل ذلك يصدق عليه أنه توراة ، ولا تنس ههنا قوله تعالى : (إنّ هذا القرآنَ يقُصُ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختَلِفون) (٢٧ : ٧٦) .

شواهد من التوراة الحالية على أن فيها زيادة

هذا ولما خرجت أمة القرآن بالقرآن من الأمية ، وعرفوا تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ، ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله ، إذ ظهر لهم أن اليهود كانوا فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها ، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حُفظ منها ممزوجاً بما ليس منها ، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك ، فإن فيها ما نصه : (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها ، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا ، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ، ليكون هناك شاهداً عليكم ، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة ، هو ذا وأنا بعدُ حيّ معكم اليوم ، قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحري بعد موتي ؟ اجمعوا إليّ شيوخ أسباطكم وعرفاءكم ، لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض ، لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون ، وتزيغون

عن الطريق الذي أوصيتكم ، ويصيبكم الشر في آخر الأيام ، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم – فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه) (تث ٣١ : ٢٤ - ٣٠) وههنا ذكر النشيد في (تث ٣٢) .

ثم قال الكاتب بسفر التثنية : (فأتى موسى ونطق بجميع كلمات هذا النشيد في مسامع الشعب ، هو ويشوع بن نون ، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع بني اسرائيل بهذه الكلمات قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات ، التي أنا أشهد عليكم بها اليوم، لكي توصوا بها أولادكم ، ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم ، بل هي حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التي أنتم عابرون الأردن اليها لتمتلكوها) (تث ٣٢ : ٤٧–٤٧) ، فلا شك أن هذا الخبر أي كتابة موسى للتوراة زائد على التوراة ليس منها .

وثانياً – خبر موت موسى ، وكونه لم يقم في إسرائيل نبي مثله بعد، أي إلى وقت الكتابة ، فقد ورد في سفر التثنية (وصعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو ، إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد الى دان ، وجميع نفتالي، وأرض أفرايم ومنسى، وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي ، والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر ، وقال له الرب : هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً : لنسلك أعطيها ، قد أريتك إياها بعينيك ، ولكنك إلى هناك لا تعبر ، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ، ودفن في الجواء في أرض مؤاب ، مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ، وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته ، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات مؤاب ، ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى،

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة ، إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو إسرائيل ، وعملوا كما أوصى الرب موسى ، ولم يقم بعدُ نبيّ في إسرائيل مثل موسى) (تث ٣٤ : ١ - ١٠) فهذا الخبر عن موت موسى معدود عندهم من التوراة ، وما هو في الحقيقة من التوراة المنزلة على موسى ، التي كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل هذا الخبر كتب كغيره بعده . وقد ظهر تأويل علم موسى في بني إسرائيل ، فإنهم فسدوا وأزاغوا بعده كما قال ، وأضاعوا التوراة التي كتبها ، ثم كتبوا غيرها ، ولا ندري عن أي شيء أخذوا ما كتبوه على أنه فقد أيضاً ، وقد قالوا : (إن « حلقيا » الكاهن وجد سفر شريعة الرب وسلمه إلى « شافان » الكاتب ، فجاء به شافان إلى الملك » (٢ أي ٣٤ : ١٤ — ١٦) . قال صاحب دائرة المعارف العربية : « إنهم ادعوا أن هذا السفر الذي وجده حلقيا هو الذي كتبه موسى ، ولا دليل لهم على ذلك ، على أنهم أضاعوه أيضاً » ثم إن « عزرا » الكاهن الذي (هيأ قلبه لطلب شريعة الرب ، والعمل بها ، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء) (عز ٧ : ١٠) [١] قد كتب لهم الشريعة بأمر « أرتحشستا » ملك فارس ، الذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم .

التوراة الحالية كتبت بعد السبي

وعلى ذلك فجميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي كما كتب غيرها من أسفار العهد العتيق ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية فيها ، وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقد توراة موسى ، مع أنها هي أصل دين النصارى وأساسه ؛ وقد قال صاحب خلاصة الأدلة السنية ، على صدق أصول الديانة المسيحية » ما نصه : « والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما خرّب « بختنصر » الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث

(١) عز هو رمز لسفر عزرا في التوراة .

كان جارياً بين اليهود هو أن الكتب المقدسة فقدت ، وأن « عزرا » الكاتب الذي كان نبياً ، جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية » انتهى بحروفه .

الرد على القول بأن « عزرا » الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية

ولقد نعلم أنهم يجيبون من يسأل : من أين جمع « عزرا » الكاتب تلك الكتب بعد فقدها ، وإنما يُجْمَعُ الموجود ؟ وعلى أي شيء إعتمد في إصلاح غلطها ؟ فيجيبونه قائلين : « إنه كتب ما كتب بالإلهام ، فكان صواباً » !!

ولكنا نقول : هذا الإلهام مما لا سبيل إلى إقامة البرهان عليه ، ولا هو مما يحتاج فيه إلى جمع ما في أيدي الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، ولو كتب « عزرا » بالإلهام الصحيح لكتب شريعة موسى مجردة من الأخبار التاريخية الزائدة على التوراة ، ومنها ذكر كتابة موسى لها وأنه أمر بوضعها في جانب التابوت ، ومنها ذكر موته ودفنه وعدم مجيء مثله ؛

وقد بين بعض علماء أوربا أن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة واحد فقط ، وليس من غرضنا الآن أن نطيل في ذلك ، وإنما نقول : إن الذي بين يدي القرآن ، الذي أتى القرآن مصدقاً له — هو ما أوحاه الله الى موسى ليبلغه قومه بالقول والكتابة ، وأما سفر التكوين الذي عند القوم المشتمل على قصة يوسف ، فهو سفر تاريخ مشتمل على ما هو صحيح وغير صحيح .

(الله أكبر)

(وتفصيل كل شيء ..)

- ١ -

وقال الشريف المكي :

القرآن يذكر كل شيء مهم من أمو ر الدين

يقول القرآن الكريم : وتفصيل كل شيء ، أي كل شيء يحتاج اليه في الدين، لأنه القانون الذي تستند اليه السنة والإجماع والقياس ، بعد أدلة العقل ، وهذا نظير ما قال عن موسى عليه السلام : ﴿ وكتبنا له في الألواح مِنْ كلِّ شيءٍ موعِظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ ﴾ (٧ : ١٤٤) مع أن الالواح إنما هي ثلاثة أو إثنان ، جرياً على قول اليهود وعلى قول من قال : « أقل الجمع إثنان » وكانت من حجر ، هي لا تسع إلا بعض الشيء ، ولكن المقصود من كلمة « وتفصيلاً لكل شيء » هام يحتاج اليه في الدين ، وذلك الكلمات العشر وما اليها ، فالدين هو نقطة كثرها الناس .

والشيء بالشيء يذكر ، فقد كان سألني بعض مبشري البروتستانت: كيف تقولون إن القرآن كان « تفصيل كل شيء » كما في آخر آية من سورة يوسف ، وكيف يقول القرآن إن ألواح موسى مكتوب فيها من كل شيء، وفيها التفصيل لكل شيء ، مع أن تلك الالواح الحجرية الثلاثة على قولكم أو الاثنان على قولنا لا تسع كل شيء ، لا جملة ولا تفصيلاً ؟

فأجبته بقولي : المقصود كل شيء مهم يحتاج اليه في الدين ، ثم ماذا تقول فيما هو في آخر انجيل يوحنا : (وأشياء أخر كثيرة ، صنعها يسوع ان كتبت واحدة ، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة) (يو ٢٢ : ٢٥)[١] ثم ماذا تقول فيما ينقل عن موسى أنه قال لبني اسرائيل : (وهو ذا أنتم اليوم

(١) يو : هو رمز لانجيل يوحنا .

كنجوم السماء في الكثرة) (تث ١ : ١٠) ، وماذا تقول في قول سفر القضاة (وكان المديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالّين في الوادي ، كالجراد في الكثرة ، وجمالهم لا عدد لها ، كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة) (قض ٧ : ١٢) وماذا تقول فيما ينقل عن المسيح : (وأنتِ يا كفرنا حوم المرتفعة الى السماء) (مت ١١ : ٢٣) ، وماذا تقول فيما هو في سفر يوحنا (هو ذا العالم قد ذهب وراءه) أي وراء المسيح (يو ١٢ : ١٩) ومما يقرب من قول يوحنا هنا قول جامعة سليمان (لعمل كتب كثيرة لا نهاية) (جا١٢ : ١٢) فما قاله مفسروكم في مثل هذه الاقوال نقوله في آيات القرآن الكريم ، مع أنك سمعت الجواب عن آيات القرآن الكريم ، ولله الحجة البالغة .

(أحسنت)

(ورحمة وهدى ، لقوم يؤمنون)

— ٢ —

وقال الشيخ الطبرسي :

القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة

القرآن في نفسه هدى ورحمة ، وشفاء وموعظة ، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل ، وان لم يستعمله ، فهو دواء له بالقوة ، وكذلك الهدى ، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتدِ به ، والهدي في الاصل مصدر هَدى يَهْدي هدىً ، فمن لم يعمل بعلمه ، لم يكن مهتدياً ، كما في الاثر : (من ازداد علماً ولم يزدد هدى . لم يزدد من الله إلا بعداً) ، ولكن سمي هدى لان

من شأنه أن يهدي ، وههنا ثلاثة أشياء : فاعل وقابل وآلة ، فالفاعل الهادي هو الله تعالى ، والقابل هو قلب العبد ، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل ، فالله سبحانه يهدي خلقه هدى ، كما يقال دلهّم دلالة، وأرشدهم ارشاداً ، وبيّن لهم بياناً ، والمقصود أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه ، الخائف منه ، الذي يبتغي رضاه ، ويهرب من سخطه ، فإذا هداه الله بكتابه ، وصل أثر فعله إلى محل قابل ، فيتأثر به ، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول ، وإذا لم يكن المحل قابلا ، وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه ، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للإغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئاً ، بل لايزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده ، كما قال تعالى في حق الآية التي كان نزلها : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يَسْتَبْشِرونَ ، وأما الذين في قُلوبهم مرضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهِم ﴾ (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) وقال : ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَساراً ﴾ (١٧ : ٨٢)، فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ، ولعدم آلة الهدى تارة ، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الثلاثة ، وقد قال سبحانه : (ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمَعَهم ، ولو أسمَعَهم لتَوَلَّوْا وهم مُعرضون) (٨ : ٢٣) فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء ، وهي إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها ، لعدم قبول المحل ، فإنه لا خير فيه ، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه ، والميل إليه والطلب له ، والحرص عليه ، والفرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك ، فوصل الهدى اليها ووقع عليها ، كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية ، التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات ، فالماء في نفسه رحمة وحياة ، ولكن ليس فيها قبول له ، ثم أكد هذا المعنى في حقهم بقوله : (ولو أسمَعَهُم لتَوَلَّوْا وهم

مُعرضون) (٨ : ٢٣) أي أنهم مع عدم قبولهم وقلة فهمهم، فيهم آفة أخرى وهي الكبر والإعراض وفساد القصد ، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به ، فالهدى في حق هؤلاء ، هدى بيان وإقامة حجة ، لا هدى توفيق وإرشاد ، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، وأما المؤمنون فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ، ولأولئك هدى بلا رحمة .

(وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

– ٢ –

وقال السيد الدمشقي :

القرآن هدى ورحمة لمن يتفهمه

يقول الله تعالى : ان القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لأنهم هم الذين يفهمونه فيعملون به فينتفعون به ، وأما من لا يفهم كتاب الله ،فنفسه (حمارية) كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ، ثم لم يَحمِلوها ، كمثَلِ الحمار يحملُ أسفاراً ﴾ (٦٢ : ٥) ، وكذلك الذين يولون مدبرين عن درس كلام الله في القرآن ، هم في نظر الله تعالى حمير ، كما قال تعالى : ﴿ فما لهُمْ عن التّذْكرة مُعرِضينَ ؟ كأنهم « حُمُرٌ » مُستَنفِرَةٌ ، فرّتْ مِنْ قسورَةٍ ﴾ (٧٤ : ٤٩ – ٥١) ، وأما من يفقه الكتب السماوية كالقرآن مثلاً ، ولكنه لا يعمل حسبما يعلم ، فهو عالم السوء ونفسه « كلبية » وفيه يقول الله تعالى : ﴿واتلُ عليهم نَبأ الذي اتيناهُ اياتنا فانسلَخَ منها ، فأتبَعَهُ الشيطانُ فكان من الغاوين ، ولو شِئْنا لرفعناهُ بها، ولكنه أخلدَ إلى الأرض ، واتبعَ هواهُ ، فمثلُهُ كمثلِ الكلبِ : إن تحملْ عليه يلهثْ ، أو تتركْهُ يلهثْ﴾ (٧ : ١٧٤ و ١٧٥) .

الهدى هو الدعوة والدلالة والبيان

والهدى يكون بمعنى الدعوة والدلالة والبيان ، سواء وصّل أم لم يوصل ، وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر ، كقوله تعالى : (وأمّا ثمودُ فهَدَيْناهُم فاسْتحبّوا العمى على الهدى) (٤١ : ١٧) ، ويكون بمعنى جعل الإنسان مُهْتدياً ، أي بمعنى الدلالة الموصلة ، وهذا يختص بالمؤمنين ، وهو المطلوب في قوله : (اهْدِنا الصراطَ المُسْتقيمَ) (١ : ٥) وبقوله في وصف الكتاب : (هُدى للمُتّقينَ) (٢ : ٢) ثم قوله : (أولئكَ على هدى مِنْ ربهِمْ) (٢ : ٥) وقوله هنا في الآية : (وهدىً ورحمة لقوم يؤمنونَ) ، وقد شرع الله لنا ، أن نسأله ذلك في كل صلاة ؛ وهو أفضل الدعاء ، وأفرضه وأجمعه لكل خير ، وكل أحد محتاج إلى الدعاء به ، فلهذا أوجبه الله تعالى على العبد ، في كل صلاة .　« الله أكبر »

جلسة الختام

وهنا بعدما انتهت جلسات موتمر تفسير السورة وقف رئيس المؤتمر واختتم جلسات المؤتمر ثم ألقى كلمة تناسب المقام ، شاكراً فيها الحاضرين الأكارم على ما بذلوه من مشقة وجهد في سبيل كتاب الله العظيم ، واعداً إياهم بدعوتهم إلى عقد مؤتمرات تفسيرية لسور أخرى من القرآن الكريم ، ثم انفضّ عقد اجتماعهم وهم يهنئون بعضهم بعضاً على حسن الختام [١] .

---

(١) غير أننا نذكر بملء الأسف والأسى أن المنية قد عاجلت السيد الرئيس ، اذ تغمده الله برحمته ورضوانه في اليوم التاسع من شهر جمادى الاولى لسنة ١٣٥٥ ﻫ الموافق لليوم السادس والعشرين من شهر تموز (يوليو) لسنة ١٩٣٦ .

محتويات الجزء الأول من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصفحة الموضوع

٥ مقدمة الطبعة الثانية ٦ إهداء الكتاب ٧ كلمة سماحة المفتي العام للبلاد السورية الدكتور أبو اليسر عابدين
٨ التعريف بهذا التفسير لابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي
١٥ تقديم الكتاب لفضيلة علامة الشام الأستاذ محمد بهجة البيطار
٢٠ رسالة الأستاذ الامام السيد محمد رشيد رضا لمؤلف الكتاب
٢١ التعريف بمؤلف الكتاب لفضيلة الأستاذ محمد علي عمار الدمشقي
٣٠ ايضاح الرموز الواردة في التفسير

٣١ الباب الأول

٣١ الفصل الأول : في دفع شبهة العجاردة على سورة يوسف عليه السلام
٣٣ المناسبة بين نبينا محمد ﷺ مع قريش وبين يوسف الصديق مع اخوته
٣٧ ايقاف النبي ﷺ مع اليهود وبين يوسف الصديق مع اخوته

٤١ الفصل الثاني : في هل إخوة يوسف أنبياء ؟

٥١ الفصل الثالث : في شيء عن حياة إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام
٥١ في شيء عن حياة إبراهيم عليه السلام ٥٦ في شيء عن حياة يعقوب عليه السلام ٥٧ في شيء عن حياة يعقوب عليه السلام

٦١ الفصل الرابع : في زوجات يعقوب عليه السلام .

الصفحة الموضوع

٦٣ الفصل الخامس : في أبناء يعقوب عليه السلام ٦٦ التشاؤم والتفاؤل من اسم يوسف ٦٨ التشاؤم والتفاؤل من الأسماء ٧٠ في بنات يعقوب

٧٠ الفصل السادس : في تقليد المفسرين بعضهم لبعض

٧٢ الفصل السابع : في أبطال قصة يوسف وأن القصة صورة طبق الأصل لحياة الشعب الإسرائيلي

٧٣ الباب الثاني

٧٣ الفصل الاول – في متعلق البسملة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

٧٥ مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف

آ (١) ﴿ الر. تلك ايات الكتاب المبين ﴾ . (الر) كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب ٧٦ نظائر لفظة الر في التوراة والإنجيل ٧٧ الأساليب المبتكرة في القرآن .

٨٠ (آيات) معنى آيات القرآن ٨١ (الكتاب) أسماء القرآن ٨٤ (المبين) بيان القرآن وسهولته ٨٥ الناسخ والمنسوخ في القرآن ٨٧ المتشابهات في القرآن .

٨٩ نزول القرآن آ (٢) ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾

٩٠ (أنزلناه) ما معنى إنزال القرآن الكريم ٩٢ زمن بدء نزول القرآن ٩٤ جمع القرآن ٩٥ (قرآناً عربياً) لغات كلام القرآن ٩٦ لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ٩٨ بعث محمد (ص) العربي للامم كافة ٩٩ ترجمة القرآن ١٠١ اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الاسلامية ١٠٢ فلسفة لغة القرآن ١٠٢ (لعلكم تعقلون) تعقل القرآن وفهمه ١٠٤ تعقل القرآن وتفهمه من صفات المؤمنين ١٠٥ مزية الإنسان بالعقل والإدراك ١٠٦ استعمال أكثر المسلمين القرآن الكريم في غير ما هو له ١٠٧ القرآن يمتدح

الصفحة الموضوع

المتعقلين بآياته وندم الغافلين عنها ١٠٩ تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه ١١٠ الحكمة من إنزال القرآن

١١٢ الفصل الثاني : القرآن وعلم التاريـــخ آ (٣) ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ! وان كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ ١١٣ سور القرآن التي سميت بأسماء حوادث تاريخية ١١٤ (نقص)الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن ١١٥ جبريل (ع) السلام هـــو واسطة نقل كلام الله إلى النبي ﷺ ١١٦ (أحسن القصص) لماذا عبر أن قصص القرآ ن هو أحسن القصص ؟ ١١٧ مقابلة ما بين آيات قصة يوسف في القرآن وفي التوراة ١٣١ قصص القرآن وقصص التوراة ١٣٢ غلط التوراة في قولها إنه يوجد ليل ونهار قبلما كانت الشمس ١٣٣ مخالفة التوراة لعلم النشوء والترقي ١٣٤ قول التوراة بأن الله ينهى عن العـــلم وأسبابه ١٣٥ غلط التوراة بقولها إن الحية تغتذي بالتراب ١٣٥ نسبـة التوراة السكر لنوح حاشاه وأنه لعن من لم يسيء ١٣٦ نسبـة التوراة التوراة الدياثة لإبراهيم حاشاه والرد على ذلك ١٣٨تكرار نسبة التوراة الدياثة لإبراهيم حاشاه والرد على ذلك١٣٩ نسبة السكرلإبراهيم حاشاه، غلط التوراة بقولها إن الملائكة يأكلون ١٤٠ نسبة التوراة السكر والزنى إلى لوط حاشاه ١٤١ دعوى التوراة أن إسحق ديوث كأبيه حاشاهما ١٤٢ تعليم التوراة الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد ١٤٥ تعليم التوراة الخداع وخلف الوعد والزنا ١٤٧ غلطة تاريخية في التوراة ١٤٨ تعليم التوراة الزنا والمحاباة ١٥٠ تعليم التوراة اغتصاب الأموال ١٥١ تعليم التوراة تقديم القربان للشيطان وتسييب السوائب ١٥٢ تعلـيم التوراة استئصال الشيوخ والأطفال والنساء في الحرب - تعلـيم التوراة

الصفحة الموضوع
قتل غير المسيء ١٥٣ التوراة تنسب الرقص لداود حاشاه ـ التوراة تنسب الزنا لداود حاشاه ١٥٨ التوراة تنسب القساوة والبربرية لداود حاشاه ـ التوراة تجازي على الزنا بالزنا ١٦٠ ملخص لاثنتي عشرة قصة أخرى من التوراة هي من أقبح القصص: وهي قصة زنى أمون بن داود بثامار اخته من أبيه ـ قصة شرك سليمان وأنه تزوج بالوثنيات ١٦١ قصة كذب بعض الأنبياء في البلاغ ـ قصة نزول الوحي بسبب آلات الطرب ١٦٢ قصة إثبات التعب لله حاشاه ـ قصة إثبات الحياة في السماء لأخنوخ ـ قصة تعليل التوراة القصاص بالموت ـ قصة اثبات التوراة أن الأصل في الانسان الشر ١٦٣ قصة غلط التوراة في التاريخ ـ قصة زنى شكيم بن في حمور بدينة بنت يعقوب حاشاه ـ قصة قول التوراة بتضييع المال بغير فائدة ١٦٤ (أوحينا) الوحي الاصطلاحي ١٦٥ الفرق بين الوحي والالهام ـ الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني ١٦٦ (هذا القرآن) سبب ايحاء القرآن ١٦٧ (لمن الغافلين) محمد ﷺ في طفولته وشبابه ١٦٨ القرآن معلم النبي ﷺ ١٦٩ غفلة النبي ﷺ ليست عيباً يذم به .
١٧٠ الفصل الثالث : بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة آ (٤) ﴿ إذ **قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، رأيتهم لي ساجدين !!!** ﴾
١٧١ (يا أبت) استعطاف الأبوة والفرق بين خطاب يوسف لأبيه وخطاب إبراهيم لأبيه ١٧٢ إعراب يا أبت ١٧٣ أدب الخطاب ١٧٤ (رأيت) يوسف في رؤياه يوسف يقص رؤياه لأبيه ١٧٦ الرؤيا والشرع ١٧٧ رؤيا الأنبياء ورؤيا الناس ١٧٩ الرؤيا عند النصارى ـ الرؤيا المنامية لا تحرم حلالا ولا تحل حراماً ١٨١ لماذا لم ير

الصفحة الموضوع

يوسف رؤيا تدل على ما سيصيبه من شر ١٨٢ رؤيا يوسف الحزم الأحد عشر ١٨٣ (أحد عشر كوكباً) علو الرؤيا بعلو النفس ١٨٤قداسة عدد ١٢ ، ١٨٩ (كوكباً) لماذا عبر عن إخوةيوسف بالكواكب١٩٠ التعبير عن الرجل بالشمس وعن المرأة ١٩٢ من هو المقصود بالقمر فيرؤيا يوسف ١٩٣ هل سجد أبوا يوسف له ١٩٥ (رأيتهم لي ساجدين) التطرية في القرآن ١٩٧ اعتراض يعقوب على رؤيا ولده يوسف ثم تسليمه بها ـ معنى السجود ١٩٨ لا تقصص الرؤيا علىالعدد آ (٥) ﴿ **قال يا بني ، لا تقصص رؤياك على اخوتكفيكيدوا لك كيداً، انالشيطانللانسانعدومبين** ﴾

١٩٩ (قال يا بني) نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه على إخوته ٢٠١ التصغير في اللغة وأنواعه ، الحكم المقتبسة من الآية٢٠٢ خطاب الاستعطاف بين الأقرباء ٢٠٤ (لا تقصص) بعض العداءات التاريخية التي تشبه عداء إخوة يوسف له ٢٠٦ وجوب إطاعة الابن للأب – الوصايا العشر في التوراة وفي القرآن ٢٠٨ (اخوتك) المناوئون ليوسف من إخوته – التنافس بينهم٢٠٩ (فيكيدوا لك كيداً)تعريف الكيد ٢١٠ (إن الشيطان) الشيطان عالم غيبيضار بالإنسان٢١١ إطلاق لفظ الشيطان على العدو وبعض الأشخاص والجن والانس ٢١٣ الشيطان قوة غضبية أو قوة ذميمة في الإنسان ٢١٧ معاهدة سيلان بين المندوب السامي عن الله تعالى وبين إبليس ٢١٨ سلطان الشيطان علىإخوة يوسف ٢١٩سعادة الدين تكونبإقامته٢٢٠انتقاد عقد معاهدةسيلانوالرد عليه .

٢٢٣ آمال يعقوب في يوسف آ (٦) ﴿ **وكذلك ، يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ، ان ربك عليمحكيم** ﴾.

الصفحة الموضوع
٢٢٤ (وكذلك) بشارة يعقوب ليوسف بثلاث : الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ٢٢٥ فرح يوسف ببشارة أبيه له ووقوعها حرفاً بحرف ٢٢٦ (يجتبيك) الاجتباء في اللغة واجتباء الله ليوسف وللانبياء وللاسلام ٢٢٨ نبوة يوسف والأنبياء المرسلين قبله وبعده ٢٣٠ (ويعلمك) تعليم يوسف ٢٣١ (تأويل الأحاديث) مقومات الحديث وتأويله ٢٣٤ الحديث لغة واصطلاحاً ٢٣٦ (ويتم نعمته) إتمام النعمة على يوسف ٢٣٧ (آل يعقوب) من هم آل يعقوب ٢٣٩ النعم التي أتمها الله على آل يعقوب ٢٤٣ (كما أتمها) النعم التي أتمها الله على آل يعقوب ٢٤٣ (كما أتمها) النعم التي أتمها الله على ابراهيم واسحق ٢٤٤ (ان ربك عليم حكيم) علم الله وحكمته .

٢٤٥ الفصل الرابع – الحكم والعبر في قصة يوسف آ (٧) ﴿ **لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين** ﴾ .

٢٤٨ (لقد كان) التفكير والاعتبار حال قراءة القرآن ٢٤٩ (وإخوته) القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية ٢٥١ سلامة قلب الاناث وبعدهن عن حسد أقاربهن ٢٥٢ (آيات) العبر المتضمنة قصة يوسف ٢٥٥ العبرة بعاقبة يوسف وإخوته ٢٥٦ (للسائلين) تخصيص الفائدةبمن يبحث عنها .

٢٥٧ مقدمة المؤامرة :

آ (٨) ﴿ **اذ قالوا: ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة!!! ان أبانا لفي ضلال مبين !!** ﴾ ٢٥٨ (اذ قالوا) تفاوض الاخوة بشأن يوسف ٢٥٩ سبب عداء إخوة يوسف له ولأخيه بنيامين ٢٦١ أسباب عداء الاخوة الهامة ليوسف ٢٦٣ تفنيد عداء إخوة يوسف له ٢٦٤ ضرر تعدد الزوجات ٢٦٦ لم يسند الله الحسد لجماعة معينين الا

الصفحة الموضوع

لليهود - الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن ٢٦٩ الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين ٢٧٠ إسناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً ٢٧١ الساكت عن المنكر يكون شريكاً في الاثم لفاعله ٢٧٢ (ونحن عصبة) وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه والرد عليه ٢٧٣ العصبة في اللغة ٢٧٤ (ضلال مبين) تضليل إخوة يوسف لأبيهم جهلاً منهم وسفاهة ٢٧٥ شرح كلمة ضلال ٢٧٧ انتقاد اخوة يوسف على تضليلهم لأبيهم .

٢٧٨ الدخول الجدي في المؤامرة :

آ (٩) ﴿ اقتلوا يوسف،أو اطرحوه أرضاً « يخل لكم وجه أبيكم » !!! وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ .

٢٧٩ (اقتلوا يوسف) الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٢٨٠ مؤامرة قريش على قتل أو إبعاد أو حبس النبي ﷺ ٢٨١ (أو اطرحوه أرضاً) الطرح أرضاً كالقتل ٢٨٢ الفوائد المستنبطة من الآية - تعليل الاخوة الايقاع بيوسف ٢٨٣ لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامرتهم ٢٨٣ من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٢٨٤ الحسد هو الدافع الحقيقي لاخوة يوسف على إرادة قتله ٢٨٥ أنواع الأمزجة البدنية وتطبيقها على إخوة يوسف - غرابة مشايعة دان ونفتالي لاخوتهم في المؤامرة ٢٨٦ نظائر أعمال الاخوة العشرة في التاريخ ٢٩٢ التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية ٢٩٤ الحسد والغيرة والعداء هي أصل كل شر ٢٩٥ النتيجة عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت منحطة ٢٩٦ إن أكرمكم عند الله أتقاكم - بعض طبائع الاسرائيليين - ما هي أفكار الصهيونيين اليوم مع أبناء اسماعيل ٢٩٧ الطرح أرضاً في اللغة - كلمة اطرحوه في القرآن

الصفحة الموضوع

ـ الصلاح وأقسامه ٢٩٨ الحسد والغبطة والمنافسة ٢٩٩ عمل اخوة يوسف مع يوسف هو من الحسد الممقوت المشؤوم ٣٠٠ سبب اقتصار الاخوة الحكم على يوسف وحده ـ ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين ٣٠١ شواهد من التوراة على صلابة اليهود وقساوتهم ووحشيتهم ٣٠٢ يهود اليوم متخرجون على مدرسة اليهود القدماء ٣٠٣ غيري جنى وأنا المعذب فيكم .

٣٠٤ تعديل الحكم :

آ (١٠) ﴿ **قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، ان كنتم فاعلين** ﴾ ٣٠٤ (قال قائل منهم ..) طلب تعديل الحكم على يوسف ٣٠٧ من هو القائل بتعديل الحكم على يوسف ٣٠٩ القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة ٣١٠ غيابة البئر ـ الجب وهل هو جب معهود ؟ ٣١٢ التحقيق في تفسير الغيابة . ٣١٣ اخوة يوسف لم يبيعوا يوسف ـ لماذا لم يبت « القائل » برأيه ٣١٤ ضلع « القائل » مع يوسف .

٣١٥ تدبير الحيلة لتنفيذ المؤامرة :

آ (١١) ﴿ **قالوا : يا أبانا ! ما لك لا تأمنا على يوسف ! وانّا له لناصحون** ﴾

٣١٥ (قالوا يا أبانا) التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف ٣١٧ طريقة طلب الاخوة ليوسف من أبيهم تدل على سوء نيتهم ٣١٨ دفع ونفع ـ وثيقة الاعتماد ـ النصح لغة ومعنى ٣١٩ لسان إخوة يوسف هو ترجمان أهوائهم ـ المتكلم يطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة .

الصفحة الموضوع

٣٢٠ السم في الدسم :
آ (١٢) ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وانا له لحافظون ﴾
٣٢٠ (يرتع ويلعب) الاخوة يضربون على الوتر الذي يحبه أبوهم ليوسف ٣٢١ معنى الرتع ٣٢٢ فوائد اللعب ٣٢٣ اللعب عند العرب وأنواع اللعب عندهم ٣٢٤ لعب النبي ﷺ والصحابة (رض) ٣٢٥ جواز اللعب للكبار كما للصغار ـ (لحافظون) ـ خديعة اخوة يوسف لأخيهم ٣٢٨ خلف الوعد والوفاء به .

٣٢٩ تخوف يعقوب من طلب أولاده :
آ (١٣) ﴿ قال اني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ﴾ .
٣٣١ (ليحزنني أن تذهبوا به) عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات ٣٣٢ (وأخاف أن يأكله الذئب ..) خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب ٣٣٤ التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف ٣٣٥ خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي وقسري ٣٣٧ جواز عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرباه ـ جواز قصد يعقوب بالذئب وأكله إضرار شمعون بيوسف ٣٣٨ (وأنتم عنه غافلون) يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيبون ٣٣٩ يعقوب يصف غفلة أبنائه عن حفظ يوسف بأنها أمر ثابت لهم في نفسه .

٣٤٠ جواب الخاتلة :
آ (١٤) ﴿ قالوا : لئن أكله الذئب ، ونحن عصبة .. إنا إذاً لخاسرون ﴾
٣٤١ (قالوا لئن أكله الذئب) إصرار الاخوة على أخذ يوسف من

الصفحة الموضوع

أبيه ٣٤٣ تهرب الاخوة من الإجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له ـ القوة الجسمانية لا تكفي وحدها لحفظ يوسف ٣٤٤ اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية ـ حال التاريخ قبل الإسلام وبعده ٣٤٥ عنـــاية المسلمين في أول الإسلام بالرواية والرواة ـ خلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة .

٣٤٧ الفصل الخامس : تنفيذ المؤامرة :
آ (١٥) ﴿ فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابـــة الجب .. ، وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ .
٣٤٨ (فلما ذهبوا به) الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب ٣٥٠ يوسف مع اخوته في طريقهم الى دوثان ، ومبررات تسليمه نفسه بذهابه معهم ٣٥١ كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لإخوته رغم تخوفه عليه منهم ٣٥٢ حذف جواب الشرط في القرآن وشواهد عليـــه ٣٥٥ يوسف في الجب ٣٥٦ كيف اتفق اخوة يوسف على إلقائه في الجب مع اختلاف مشاربهم وميولهم ٣٥٧ خيبة آمال اخوة يوسف ٣٥٨ سيـلون ودوثان والجب ٣٥٩ (وأوحينا اليه) الإيحاء ليوسف وهو في الجب ٣٦١ الوحي لغة واصطلاحاً .

٣٦٤ دموع التماسيح :

آ (١٦) ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ﴾

٣٦٥ (وجاؤوا أباهم) حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع إخوته وحال اخوة يوسف بعد القائه في الجب ٣٦٧ اختلاف القرآن والتوراة في كيف ومتى رجع اخوة يوسف بعد القائه في الجب .

الصفحة الموضوع

٣٦٩ عذر أقبح من ذنب

آ (١٧) ﴿ **قالوا : يا أبانا ،إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين** ﴾

٣٧٠ (قالوا يا أبانا ..) اخوة يوسف يلفقون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف ٣٧١ المعذرة المصطنعة ٣٧٢ الاستباق ٣٧٣المتاع ـ ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه ٣٧٤ اطلاق أكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً ـ تعدي الايمان بالباء واللام وبعلى ٣٧٥ الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة ـ الخير مؤجل والشر معجل ٣٧٦ (فأكله الذئب) التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤية يوسف وبشائره ٣٧٧ استعمال الذئب والأكل مجازاً ٣٧٨ الذئب مجاز عن شمعون ٣٧٩ الأكل مجاز عن النهش والعض والإضرار ٣٨٠ تفسير كلمة «يأكله» بكلمة « يتولى أمره ويتصرف فيه » تسبيك القول بأن «الأكل » هو الاستيلاء والإضرار ، وبأن « الذئب » هو « شمعون » في المجاز ٣٨٢ رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة ـ رد قول الطبرسي بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها كانت مذأبة ٣٨٣ من أنكر على مفسر رأياً فعليه أن ينكر أيضاً على جميع المفسرين تفاسيرهم ٣٨٤ جواز كون الذئب ذئباً معهوداً غائباً أو حاضراً ٣٨٥ المعنى المجازي المقصود من الذئب وأكله .

٣٨٧ قميص العلامة :

آ (١٨) ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً !! فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** ﴾

٣٨٩ (وجاءوا على قميصه) القميص والدم ـ القميص ٣٩٠ دم القميص

الصفحة الموضوع
٣٩١ حجة القميص التي لهم صارت عليهم ـ البرهان الباطل ـ مناجاة يعقوب للذئب الحقيقي والمجازي ٣٩٣ الدم نفس أو جسد ـ السجع والترسل في القرآن ٣٩٥ القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف ٣٩٧ انتقاد دعاة النصرانية اعتقادنا بنبوة يعقوب والرد عليهم ٣٩٨ مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم ـ لفظ القميص في القرآن ٣٩٩ هل حقق يعقوب في صحة افتراس الذئب ليوسف (قال : بل سولت لكم..) حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف ٤٠٠ عدم انطلاء الكذبة على يعقوب ٤٠١ صبر يعقوب الجميل ـ يعقوب يغمز من قناة أولاده فيما ذكروه عن يوسف ٤٠٢ مواعيد الله في يوسف خففت وطأة مصيبة يعقوب فيه ـ انتقاد يعقوب على تفريطه بيوسف والرد عليه ٤٠٣ حال إخوة يوسف عندما عرض أبوهم بهم بأنهم كاذبون ٤٠٤ الغمز من قناة شمعون ٤٠٦ المشاركون ليعقوب حزنه على فقد يوسف ٤٠٧ السول والأمر والصبر ـ معنى السول ٤٠٨ احساس يعقوب بمكيدة أولاده إجمالا ـ التنكير في لفظة « أمراً » ٤٠٩ معنى الصبر والصبر الجميل .
٤١٠ الباب الثالث
الفصل الأول : خروج يوسف من الجب
آ (١٩) ﴿ وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه . . قال : « يا بشرى هذا غلام » ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ﴾
٤١١ (وجاءت سيارة) القافلة تخرج يوسف من الجب وتقوده معها إلى مصر ٤١٣ الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه ٤١٤ يوسف بين يدي السيارة ٤١٦ لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع السيارة ٤١٨ المشابهون لحالة يوسف في الرق ٤١٩ معنى

الصفحة الموضوع

السيارة - معنى الوارد ٤٢٠ فاء السرعة في قوله « فأرسلوا » و «فأدلى» - يا بشرى - الدلو .

الفصل الثاني : بيع يوسف

آ (٢٠) ﴿وشروه بثمن بخس ! ! دراهم معدودة ! وكانوا فيه من الزاهدين﴾ (وشروه بثمن بخس) أسواق الرقيق ٤٢٣ يوسف في سوق الرقيق ٤٢٤ معنى شروه ٤٢٥ عود الضمير في شروه والتحقيق عن من باع واشترى يوسف ٤٢٦ الثمن البخس ما هو وكم هو ٤٢٧ الاسترقاق قبل الإسلام وفي الإسلام ٤٣٠ استفادة الرقيق عند المسلمين - استرقاق الشعوب في أوربا وأمريكا ٤٣١ حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع ٤٣٢ زعم دعاه المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه .

٤٣٣ الفصل الثالث : وصية عزيز مصر لامرأته بيوسف .

آ(٢١) ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث .. والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ... ﴾

٤٣٥ (وقال الذي اشتراه ...) دخول بالقارىء إلى المملكة المصرية الهكسوسية - فوطيفار عزيز مصر ٤٣٦ حياة يوسف المادية في بيت فوطيفار ٤٣٨ مصر أيام يوسف ٤٣٩ شيء جديد عن حياة يوسف ٤٤٠ مصر مهبط الأولياء والأنبياء - منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين ٤٤١ منزلة المرأة عند العرب ٤٤٥ منزلة المرأة في الإسلام ٤٤٨ أخطاء فوطيفار ٤٤٩ المثوى ٤٥٠ مرادفات كلمة مصر - (عسى أن

الصفحة الموضوع

ينفعنا أو نتخذه ولداً) وصية فوطيفار لزوجته ٤٥١ يوسف وكيل فوطيفار ٤٥٢ امرأةالعزيز تنفذ وصية زوجها بيوسف٤٥٣ الظهاروالتبني عند المصريين وفي الإسلام ـ المقصد من استعمال حـرف « أو » في قوله « أو نتخذه ولداً » ٤٥٤ (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) تمكين يوسف الأول ٤٥٦ تمكين يوسف الثاني ٤٥٧ (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) تعليم يوسف ٤٥٨ فوائد الارتحال والسفر ٤٦٠ العلم الكسبي والعلم الوهبي ـ العطف على محذوف في القرآن ٤٦٢ (والله غالب عـلى أمره) الله غالب على أمر نفسه أو على أمر يوسف ٤٦٣ (ولكن الناس لا يعلمون) جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله .

٤٦٤ **شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان .**

آ (٢٢) **﴿ولما بلغ أشده، اتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين﴾**

٤٦٥ (ولما بلغ أشده) بلوغ يوسف الأشد ٤٦٦ الأشد والرشد في القرآن ٤٦٧ (آتيناه حكماً وعلماً) إيتاء يوسف الحكمة العملية والحكمـة الفكرية ٤٦٨ لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين ٤٦٩ تفسير العلم بالمعرفة ٤٧٠ إيتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل ٤٧٢ سبب تقديم الحكم على العلم ٤٧٤ (وكذلك نجزي المحسنين) الاجماع على إحسان يوسف ـ الجزاء على السبب لا على النسب ٤٧٥ أركان الاحسان في القرآن وتحلي يوسف بها ٤٧٧ الجزاء يكون في الدنيا كما في الآخرة ٤٧٨ الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالاحسان ٤٧٩ الوعد يتناول الناس بحسب أوصافهم ٤٨٠ الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر إحسانه .

٤٨٠ **المراودة :**

آ (٢٣) **﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب ،**

الصفحة الموضوع

وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ! انه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون ﴾ ٤٨١ (وراودته التي هو في بيتها) المراودة من زليخا والترفع من يوسف ٤٨٣ الكبرياء ـ المرأة العتيقة الجديدة ٤٨٤ المرأة أعف من الرجل ٤٨٥ مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب ٤٨٧ المراودة من طرف واحد ٤٨٩ الحكمة من ذكر حديث المراودة ٤٩١ مواضع استعمال المراودة في القرآن ـ اختلاط الرجل بالمرأة ٤٩٣ وجه اضافة البيت الى زليخا ٤٩٤ لماذا عبر بكلمة « عن نفسه » ـ عمر يوسف وزليخا حين المراودة ٤٩٥ (وغلقت الأبواب) أبواب قصر العزيز ٤٩٦ المراودةوتغليق الأبواب ٤٩٧ ما معنى « غلقت » ـ (قالت هيت لك ، قال معاذ الله) طلب زليخا الفاحشة من يوسف وإباء يوسف ٤٩٩ (إنه ربي أحسن مثواي) اعتراف يوسف بالجميل ٥٠٠ الأسباب التي تبعد الإنسان عن الفحش والمخالطة ٥٠١ توبيخ يوسف لزليخا ضمناً ـ تعريض يوسف بزليخا ـ المراد بالرب في قوله « إنه ربي » ٥٠٣ تعاليم القرآن في كلمة « الرب » ـ هل كان العزيز خصياً حقيقة أم مجازاً ٥٠٤ (إنه لا يفلح الظالمون) الظالم لا يفلح

٥٠٥ **بدء المعركة بين زليخا ويوسف :**

آ (٢٤) **﴿ ولقد ... همت به ، وهم بها ! لولا أن رأى برهان ربه ... كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين ﴾** ٥٠٧ (ولقد همت به وهمّ بها .. همت به جلباً وهمّ بها دفعاً ـ برهان ربه هو حجة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ٥٠٨ همت بقتله وهمّ بقتلها ٥٠٩ البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان ربه » ٥١٠ الرؤية في قوله (لولا أن رأى) هي رؤية علمية ٥١٣ الرد على من طعن في

الصفحة الموضوع

عفاف يوسف بقوله إنه همّ بمخالطة امرأة العزيز ٥١٥ (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)الكاف في كذلك ـ السوء ـ الفحشاء ٥١٧ (إنه من عبادنا المخلصين) إخلاص يوسف لله وإخلاص الله ليوسف .

٥١٨ قميص الشهادة :

آ (٢٥) ﴿ واستبقا الباب ، وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب .. قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن او عذاب اليم ﴾ .

٥٢٠ (واستبقا الباب) هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به ٥٢١ (وقدت قميصه من دبر) قد القميص ٥٢٢ هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده ٥٢٣ (وألفيا سيدها لدى الباب) مفاجأة فوطيفار لزليخا ويوسف عند الباب ٥٢٥ ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة ٥٢٦ (قالت ما جزاء ...) المرافعة والاتهام ٥٢٨ التناقض في حكم زليخا على يوسف – ارتياب العزيز في أمر زوجته منذ بدء تكلمها ٥٢٩ ما المراد بكلمة «الأهل» ـ زليخا تضيف نفسها إلى زوجها إعظاماً للخطب ٥٣٠ زليخا تبادر بالكلام خشية أن يسبقها فيه يوسف أو زوجها – إطالة زليخا الكلام في الشكوى – عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية – إخفاء زليخا اسم يوسف عند الاتهام ٥٣١ القميص المقدود كان دثاراً – سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته ٥٣٢ الثأر هو الدافع للتهمة .

٥٣٢ المحاكمة :

آ (٢٦) ﴿ ـ قال : « هي راودتني عن نفسي » ... ، وشهد شاهد من اهلها : ان كان قميصه قد من قبل ... فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ .

الصفحة الموضوع

آ (٢٧) ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر . . . ، فكذبت وهو من الصادقين﴾
٥٣٣ (قالت هي راودتني عن نفسي) دفاع يوسف عن نفسه ٥٣٥ (وشهد شاهد من أهلها) الشاهد والتحقيقات ٥٣٩ شهد شاهد بمعنى أخبر حاضر أو حكم حاكم ٥٤٠ موجبات الحكم ٥٤١ من هو الحاكم - مرادفات الشاهد ٥٤٢ نفي كون الشاهد كان طفلاً - تحريم الدفاع عن الخائن والجـرم ٥٤٣ لم يكن الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء - تغلب الحق على القوة ٥٤٤ مشابهة الشاهد لبعض الحكام والحكماء - جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات ٥٥٠ سبب تأخير أمارة صدق يوسف على أمارة صدق امرأة العزيز ٥٥١ (وإن كان قميصه قد من دبر . . .) هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي ٥٥٢ احتقار الشاهد لامرأة العزيز رغم مقامها - قد القميص من قبل دليل الإقبال وقـده من دبر دليل الادبار .

٥٣٣ وثيقة البراءة :

آ (٢٨) ﴿فلما راى قميصه قد من دبر ، قال: انه من كيدكن ان كيدكن عظيم﴾
٥٥٤ (تبرئة يوسف وتجريم زليخا وتوبيخها ٦٥٦ رب محنة في وسطها منحة - حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى ٥٥٧ تبادل التهنئـة والشكر بين يوسف والشاهد - مرادفات الكيد - الكيد والمكر من صفات الضعفاء واليهود ٥٥٨ كيد المرأة ٥٥٩ فضل المرأة ٥٦٢ كيد النساء وكيد الشيطان ٥٦٣ قميص يوسف والقميص الذي وضع في الحجر الأسود

٣٦٣ نتيجة الحكم :

آ (٢٩) ﴿ « . . يوسف ! اعرض عن هذا . . . ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين . . » ﴾

الصفحة　الموضوع

٥٦٤ (يوسف أعرض عن هذا) طلب الإعراض من يوسف ٥٦٦ (واستغفري لذنبك) طلب الاستغفار من زليخا ووعظها ٥٦٨ بعض فضليات النساء في التاريخ ٥٦٩ لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة ٥٧٠ بدا فوطيفار أوكنا وفوه نفخ ٥٧١ احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الأخلاق ٥٧٣ احتمال خوف العزيز من أسرة زوجته وضعفه تجاهها ٥٧٤ احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين - احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته ٥٧٦ معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير ٥٧٧ عقاب المراودة في الشريعة الاستتابة مع التعزير ٥٧٩ (إنك كنت من الخاطئين) العزيز يخطىء زوجته ويوبخها ٥٨٠ الخطأ .

٥٨١ كل سر جاوز الاثنين شاع :

آ (٣٠) ﴿ وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه! قد شغفها حباً ! إنـّا نراها في ضلال مبين ﴾ .

٥٨٢ (وقال نسوة في المدينة) وصول خبر السوء إلى نساء الأمراء الخمس ٥٨٤ (امرأة العزيز تراود فتاها) - انتشار حديث السوء وإغفال اسمها الشخصي ٥٨٧ تسمية العبد فتى ٥٨٨ تسمية حاكم مصر عزيزاً (قد شغفها حباً) شغف الحب ٥٨٩ (إنـّا نراها في ضلال مبين) تلوم السيدات الخمس على امرأة العزيز حبها ليوسف .

٥٩١ إقامة الحجة على النسوة الخمس :

آ (٣١) ﴿ فلما سمعت بمكرهن ، ارسلت إليهن ... واعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ... وقالت : « اخرج عليهن » .. فلما رأينه اكبرنه ... ، وقطعن ايديهن ، وقلن : « حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم » ﴾

الصفحة الموضوع
٥٩٣ (فلما سمعت بمكرهن ..) بلوغ امرأة العزيز اغتياب النسوة لها
٥٩٤ وجه تسمية الغيب مكراً ٥٩٦ (أرسلت إليهن ..) دعوة امرأة العزيز للنسوة ٥٩٧ (واعتدت لهن متكأ ..) المطعم الصائد – المتكأ ٥٩٨ معنى اعتدت – معنى المتكأ ٦٠١ (وآتت كل واحدة منهن سكيناً ..) سكين الطعام ٦٠٢ (وقالت اخرج عليهن..) اجتماع المحب والحبيب والعواذل ٦٠٤ (فلما رأينه أكبرنه ..) انقلاب العواذل محبين ٦٠٥ عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً ٦٠٦ احترام النسوة الأقصى ليوسف (وقطعن أيديهن) جرح النسوة المدعوات أيديهن ٦٠٨ وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز ٦٠٩ احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع – أمثلة من التاريخ للنسوة اللاتي جرحن أيديهن ٦١١ حمل التقطيع على التحزيز والتشطيب ٦١٢ كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن مليك مصر – جمال يوسف ٦١٤ (وقلن حاش لله) النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر ٦١٥ (ما هذا بشراً) المغالاة طبيعة في المرأة ٦١٧ (إن هذا إلا ملك كريم) النسوة اللائمات ينقلبن إلى متغزلات مادحات
٦١٩ لوم واعتراض ووعيد :
آ (٣٢) ﴿ قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه ... ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين .. ﴾
٦٢٠ (وقالت : فذلكن الذي لمتنني فيه) لوم زليخا للنسوة ٦٢٣ (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) اعتراف زليخا للنسوة ٦٢٤ زيادة قحة زليخا عدم صبر النساء على حفظ الأسرار ٦٢٥ اعتراف فاسقة لفواسق – الاعتراف السري ٦٢٦ (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين) انذار يوسف ووعيده ٦٢٧ وعيد زليخا ليوسف دون وعده – دلائل نفوذ زليخا وشموخها .

الصفحة الموضوع
٦٢٩ المناجاة :
آ (٣٣) ﴿ قال : ربّ السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه، وإلّا تصرف عني كيدهن اصب اليهن ، وأكن من الجاهلين ﴾ .
٦٣٠ (قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه ٦٣١ سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات ٦٣٢ كيف كانت مشقة نزول السجن أحب إلى يوسف مما يدعونه النسوة اليه ٦٣٣ لماذا نسب يوسف الدعوة لجميع النسوة ٦٣٨ (وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب إليهن ، وأكن من الجاهلين) استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة ٦٤٠ الدعاء إلى الله تضرعاً وخفية ٦٤١ الجاهلون هم الفاعلون فعل الجهالة .
٦٤١ استجابة الدعاء :
آ (٣٤) ﴿فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن، انه هو السميع العليم ﴾ .
٦٤٢ (فاستجاب له ربه ..) اشكال الدعاء ٦٤٣ (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه ٦٤٤ كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع أنه سجن بعد ذلك .
٦٤٥ الفصل الرابع : يوسف في السجن .
آ (٣٥) ﴿ ثم بدا لهم ، من بعدما رأوا الآيات ، ليسجننه حتى حين﴾
٦٤٦ (ثم بدا لهم من بعد رأوا الآيات ...) لماذا سجن يوسف ٦٤٧ حالة يوسف عند دخوله السجن ونتائج سجنه ٦٥٠ متى سجن يوسف – مرادفات لفظة « بدا » – من هم الذين « بدا لهم » سجن يوسف وهل

الصفحة الموضوع

لامرأة العزيز دخل في ذلك ٦٥٢ سجن يوسف كان بعــد دعوة النسوة وخروجه عليهن ـ الاستقلال الإداري لأمراء ووكلاء الدولة المصرية في عهد مليكها الريان ٦٥٣ دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم ٦٥٤ بعض الأنبياء والصلحاء الذين سجنوا ـ تحسر يوسف وهو في السجن ٦٥٥ مكان سجن يوسف (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات...) ما هي الآيات التي أدت إلى سجن يوسف .

٦٥٩ **سجن الفتيين ورؤياهما :**

آ (٣٦) ﴿ **ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

٦٦١ (ودخل معه السجن فتيان) من هما الفتيان السجينان مع يوسف وما سبب سجنهما ٦٦٢ غاية عزيز مصر من سجنه يوسف مع الفتيــين ـ الفتى والرب في اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الإسلامي ٦٦٣ (قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل ..) رؤيا الفتيين ٦٦٥ ملوك مصر الأقدمين والخمر ـ أقوال في الخمر ومضارها ٦٦٦ الخمر عند الأمم الغربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث ٦٦٩ هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في زمن يوسف ٦٧٠ الخمر عامة هو ما يعصر أو ينبذ ـ الرؤى الصريحة ٦٧١ اطلاق الضمير المفرد على المثنى ـ إحسان يوسف لأهل السجن ٦٧٢ الاعتراف بإحسان يوسف .

« **انتهى** »

الصفحة الموضوع

جدول محتويات الجزء الثاني من كتاب مؤتمر تفسير

سورة يوسف عليه السلام

٦٧٥ الفصل الخامس

يوسف يعرف بحاله ويمهد للدعوة للتوحيد

آ (٣٧) ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتاويله قبل أن يأتيكما ذلك مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون﴾

٦٧٦ يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية ٦٧٩ (إني تركت ملة قوم) يوسف يغتنم الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتهما للتوحيد ٦٨١ المراد بالترك الامتناع ، القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف عليه السلام ٦٨٢ الأدوار التي سكت فيها يوسف والأدوار التي تكلم فيها ٦٨٣ معنى ترزقانه ، معنى ذلك مما علمني ربي ، مصدر فضل يوسف ٦٨٤ ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاولة ٦٨٥ البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها ٦٨٦ الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً ٦٨٧ الأدلة على وجود الله تعالى ٦٨٨ عقيدة إبراهيم عليه السلام وأولاده وعقيدة العرب الجاهليين ٦٨٩ سقوط أكثر بني إسرائيل في هاوية التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بأيديهم ٦٩٤ الإيمان بالله واليوم الآخر ٦٩٥ يوم الآخرة ، الإيمان بالآخرة والطوائف التي لا تعتقد به ٦٩٦ اتباع يوسف ملة آبائه بعد التفكير ـ الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له ٦٩٩ عقيدة الإيمان الكاملة بالله .

الصفحة الموضوع

٧٠٠ **يوسف يبدأ بالدعوة للتوحيد**

آ (٣٨) **﴿ واتبعت ملة آبائى ، ابراهيم واسحق ويعقوب ، ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون ﴾**

٧٠١ (واتبعت ملة آبائي ...) ملة آباء يوسف عليه السلام ٧٠٢ أصول الدين الموجودة في كل ملة موحدة - أركان الإيمان الستة - العمل بأركان الإيمان شرط هام في الدين ٧٠٥ عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد .

٧٠٧ (ما كان لنا أن نشرك ...) يوسف ينهى عن الشرك بالله وأسلوب القرآن في استعمال النفي بمعنى النهي ٧٠٨ دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الأنبياء - نصوص عقيدة التوحيد في الإنجيل ٧٠٩ الشرك في الربوبية والشرك في الالوهية .

٧١٠ (وذلك من فضل الله ...) التوحيد فضل من الله على عباده ٧١١ المؤمنون اخوة - المرء بأعماله لا بنسبه .

٧١٤ (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) الغمز من قناة الفتيين وأدب الأنبياء في الخطاب .

٧١٦ يوسف يدعو إلى التوحيد

آ (٣٩) **﴿ يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟؟ ﴾**

٧١٧ (يا صاحبي السجن ...) يوسف يهدي الفتيين بالمحاجة والاقناع ٧١٨ الديانة الوثنية بمصر ٧٢٠ واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثلة من القرآن ٧٢٢ واجب المصلح المرشد ٧٢٣ الدعوة إلى الحق بالدليل ولا اكراه في الدين ٧٢٧ انطباق الآية على معتقد البولسيين من النصارى ورد استدلالهم على

الصفحة الموضوع

معتقدهم في ألوهية المسيح ٨٢٨ التثليث عند المصريين القدماء ٧٢٩ التثليث عند باقي الامم ٧٣٢ فرق النصارى الشهيرة ٧٣٥ شرك المصريين القدماء في الربوبية والألوهية ٧٣٦ وحدانية الربوبية والألوهية - الدعـوة الأدبية ٧٣٧ واجب الداعي التحقق مما يدعو إليه ٧٣٨ مثل من يعبد عدة آ لهة أو إلهاً واحداً كمثل العبد المملوك لشركاء عديدين أو لمالك واحـد ٧٣٩ فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها ٧٤٠ صفات الداعي إلى التوحيد ٧٤١ اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين ٧٤٢ وجه عدم ذكر اليوم الآخر في التوراة ٧٤٣ عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين بيوم الدين - ضعف عقيدة اليهود بيوم الدين كانت سبباً في كون أكثر معجزات المسيح عليه السلام تدل على هذه العقيدة ٧٤٤ وجود المسيح عليه السلام من غير أب آية على وجود القيامة ٧٤٥ التعليق على قوله (أم الله الواحـد القهار) ٧٤٦ التعليق على قوله (القهار) .

٧٤٦ يوسف عليه السلام يتابع الدعوة للتوحيد .

ا (٤٠) ﴿ ما تعبدون من دونـه الا اسماء ، سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، امر ان لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

٧٤٨ (وما تعبدون من دونه...) اعتناق المصريين الأقباط النصرانية - وجوب الجهر بالدعوة الدينية ٧٤٩ الامور الداعية لعبادة المعبود ٧٥٠ العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته - ليس في المخلوقات شيء من اللاهوت ٧٥١ وجوب علم أمور الدين علماً استقلالياً استدلالياً .

٧٥٢ (ما أنزل الله بها من سلطان...) اصطلاحات القرآن اللفظية ٧٥٣ السلطان والحق وتعظيم شأنها ٧٥٥ الدين مبني على الحجة والعلم - المسميـات لا

الصفحة الموضوع

تتبدل بتبدل الأسماء كما أن العجل والشمس والتماسيح لا تصير آلهة بتبديل أسمائها ٧٥٦ سكوت صاحبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه .

٧٥٧ الاستدلال مطلوب في الدين

٧٥٨ (إنِ الحكمُ إلا لله ...) الحكم الشرعي والحكم الفعلي

٧٥٩ (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) وحدة الألوهية ووحدة الربوبية .

٧٦٠ (ذلك الدين القيم) الدين والعلم أخوان

٧٦١ (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يوسف يكرر الغمز من قناة صاحبيه في السجن ـ عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد ٧٦٢ وجوب الجهر بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان وحال ٧٦٣ حكم القرآن بالأحكام الرديئة على الأكثرية الساحقة من الناس ٧٦٥ حكم القرآن بالأحكام الحسنة على القليل من الناس .

٧٦٦ يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم .

آ (٤١) ﴿ يا صاحبي السجن اما احدكما ، فيسقي ربه خمراً ، واما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾

٧٦٧ (يا صاحبي السجن ...) يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم والصراحة ٧٦٨ اصغاء الفتيين إلى وعظ يوسف ٧٦٩ استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة ـ الحجر الأول في بناء مجد يوسف ٧٧٠ حالة الفتيين حين سماعهما رؤييهما ـ النواة والشجرة والثمرة ـ تسمية الملك رباً عند المصريين ـ لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة ٧٧١ تحقق وقوع رؤيا الفتيين ٧٧٢ خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى ـ من عادة قدماء المصريين حلق

الصفحة الموضوع

شمور رؤوسهم ولحام ٧٧٣ الصلب عرفاً هو الاماتة على الصليب —معنى الصلب في القرآن

٧٧٤ استشفاع يوسف بالناجي من الفتيين

آ (٤٢) ﴿ وقال للذي ظن انه ناج منهما : اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

(وقال للذي ظن أنه ناج) استشفاع يوسف بالفتى الناجي ٧٧٦ نسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك وأسبابه ٧٧٨مدة بقاء يوسف في السجن ـ التوسل وأنواعه والجائز منها شرعاً ٧٧٩ الرد على من انتقد توسـل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر ـ التوكل ٧٨٠ تحقق رجاء يوسف من الشرابي ٨٧١ الاستمانة بالأسباب في قضاء الحاجة ٧٨٣هل قام الشرابي بما طلبه منه يوسف فور خروجه من السجن ٧٨٤ أسباب عـدم إخبار يوسف أباه بسجنه ٧٨٥ فصول مأساة يوسف ـ على من يريد انتقاد أحد أن يتمهل حتى تستوفي البيئة نصابها ٧٨٦ تعليل تعبيره بكلمة (ظن) في الآية ٧٨٧ إطلاق لفظ الرب مضافاً للعاقل على غير الله تعالى – علاقـة الشر بالله تعالى ٧٨٨ معنى قوله « ذكر ربه » تذكير ربـه ٧٨٩ سبب مكث يوسف في السجن بضع سنين – التحقيق في معنى « البضع » وفي مدة مكث يوسف في السجن .

٧٩١ الفصل السادس

حلما الملك

آ (٤٣) ﴿ ... وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ، ان كنتم للرؤيا تعبرون ﴾

الصفحة الموضوع

٧٩٢ (وقال الملك إني أرى ...) الملك الريان يقص حلميه على الملأ طالبـــاً تعبيرهما له ٧٩٣ من هو الملك في قوله وقال الملك ٧٩٤ دولة الهكوس في مصر - تعبير القرآن بلفظ « ملك » ولفظ « فرعون » لحـــكام مصر الأقدمين ٧٩٥ غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر » في زمن يوسف باسم « فرعون » ٧٩٦ عدد سبعة في تاريخ يوسف - احتياج الملوك للعلماء ٧٩٧ الملأ جماعة من رجال البلاط والعلماء - يغلب على الحلم أن يرى ولا يسمع ٧٩٨ الفتوى - تعبير الرؤيا ٧٩٩ إمكان رؤية حلمين في نوم واحد .

٧٩٩ جهل الملأ بتأويل الأحلام وجوابهم .

آ (٤٤) ﴿ **أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾

٨٠٠ (قالوا : أضغاث احلام ...) طعن الملأ في رؤيا الملك على اعتبار انها غير صحيحة ٨٠١ جهل الملأ بتأويل رؤيا الملك على اعتبار انها صحيحـــة ٨٠٢ كذب الملأ وصدقهم في جوابهم للملك - جواب الملأ للملك يدل على جهلهم تعبير الرؤى - معنى الضغث ٨٠٣ الحِلْم والحُلُم - احـــتمال تجاهل الملأ تعبير رؤيا الملك وسببه .

٨٠٦ وعند جهينة « يوسف » الخبر اليقين أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب ليؤول له حلمي الملك .

آ (٤٥) ﴿ **وقال الذي نجا منهما ، وادّكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله، فارسلون** ﴾

٨٠٧ (وقال الذي نجا منهما ...) تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهاب اليه ليستعبره حلمي الملك ٨٠٨ ثمرة الاحسان - الحكمة من صرف الله

الصفحة الموضوع

الملأ عن تأويل رؤيا الملك ـ التدابير الآلهية وجهل المـــلأ ٨٠٩ الفتى الناجي يتحدى الملأ .

٨٠٩ **استعبار رؤيا الملك من يوسف :**

آ (٤٦) ﴿ يوسف ، أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ﴾ .

٨١٠ (يوسف أيها الصديق...) الفتى الناجي يقابل يوسف ويمتدحه ويستعبره رؤيا الملك ٨١١ الشرابي ينبه يوسف إلى سابق محبته له بدعوته إياه باسمه ولقبه ٨١٢ كرم أخلاق يوسف بعدم معاتبته الشرابي لعدم قيامه بما كان طلبه منه ـ ألقاب يوسف ٨١٣ إخفـــاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف ـ معنى الافتاء ٨١٤ معنى الصديق ٨١٥ وجوب التزام الأدب عند مخاطبة النبي (ص) ـ الايجاز في القرآن .

٨١٧ **تأويل يوسف لرؤيا الملك :**

آ (٤٧) ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سنبله ، إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ .

٨١٨ (قال تزرعون ...) تعبير يوسف لرؤيا الملك ببسط التدبير اللازم .

٨١٩ سرعة إجابة يوسف بتعبير رؤيي الملك دون قيد ولا شرط ٨٢٠ تدبـير يوسف الاقتصادي لأهل مصر ٨٢١ ملكية الحاصلات في مصر ـ الخبر في معنى الأمر والانشاء في قوله (تزرعون) . ٨٢٢ ادخار الحنطة ـ السنون والأعوام ٨٢٣ أقسام الأحلام الصحيحة ٨٢٤ معنى الدأب .

الصفحة الموضوع

٨٢٥ **تتمة تعبير يوسف لرؤيا الملك :**

آ (٤٨) ﴿ ثم ياتي من بعد دلك سبع شداد ، يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴾ .

٨٢٧ يوسف يبشر بانتهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب .

آ (٤٩) ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام، فيه يغاث الناس، وفيه يعصرون﴾

٨٢٨ (ثم يأتي من بعد ذلك عام ...) عزو إخبار يوسف بحسن عاقبة الأزمة إلى ذكائه – عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين ٨٢٩ بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الرؤيا – لطف الله بالمصريين عن يد يوسف ٨٣٠ اغفال يوسف تأكيد ذكره عند الملك في هذه المرة – تدبير يوسف أزمة المصريين بنفسه – مقابلة بين الملأ الجهلاء وبين يوسف العالم – أين فوطيفار في هذه الأزمة – الرؤيا على ما عبرت أولاً .

٨٣٢ **الفصل السابع :**

القصر يطلب يوسف عليه السلام .

آ (٥٠) ﴿ ... وقال الملك : ائتوني به ، فلما جاءه الرسول .. قال : ارجع الى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

٨٣٣ (وقال الملك : ائتوني به ...) الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته ٨٣٦ البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً – تأدب يوسف بعدم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته ٨٣٧ سؤال يحقق البراءة – هوية الرسول الذي ذهب إلى يوسف – تسمية الملك رباً – العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن العلماء بالملك ٨٣٨ – حجر

الصفحة   الموضوع

أصاب صيدين ـ الاجتهاد في نفي التهم واجب ٨٣٩ ديموقراطية حكم الملك الريان – سبب نزول الملك على رغبة يوسف بعدم خروجه من السجن قبل إجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه ٨٤٠ دواعي عدم خروج يوسف من السجن٨٤١ كيف لم يخش يوسف من النسوة أن يكتمن حقيقة أمره ٨٤٢ كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤالهن عن قصة المراودة ولم يقع منهن شيء من ذلك – لم يقصد يوسف التشهير بامرأة العزيز في طلبة التحقيق بل ظهور براءته ٨٤٣ سعة صدر الملك الريان – قذف البريء يعود عليه بالخير عندما تظهر براءته ٨٤٤ على الباغي تدور الدوائر – المراد بالكيد .

٨٤٥ **اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف :**

آ (٥١) ﴿ ... قال ما خطبكن، إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ – قلن : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء – قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ﴾

٨٤٧ (قال ما خطبكن إذ راودتن ...) استنطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف – نسبة المراودة إلى جميع النسوة والمراد منه واحدة ٨٤٨ شهادة النسوة ليوسف بالعفة والطهارة – حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه ٨٤٩ دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ٨٥١ معنى حصحص – الاجماع على سلامة شرف يوسف ٨٥٤ تحقق حرف الكيد عن يوسف – الاعتراف بالخطأ فضيلة ٨٥٥ انصياع الرسول ليوسف بمراجعة الملك – عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته ٨٥٦ داعي اندفاع زليخا للاعتراف بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف .

الصفحة الموضوع

٨٥٩ تتمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف :

آ (٥٢) ﴿ ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب، وإن الله لا يهدي كيدالخائنين﴾

٨٦٠ توبة زليخا - معنى بالغيب ومحله اللغوي – الكيد المذموم والكيد المدوح ٨٦١ نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم ... » الى زليخا وليس إلى يوسف .

٨٦٢ ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران .

آ (٥٣) ﴿ وما ابريء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .

٨٦٤ (وما ابريء نفسي ...) اطلاق لفظة « ما » على العاقل وغيره إذا أريد بها الصفة ٨٦٥ فضائل الرحمة ومزاياها ٨٦٦ رحمة الله الخاصة ورحمته العامة – أقوال في توبة زليخا ٨٦٧ نهاية سيرة العزيز وامرأته – العار دائم والسبة خالدة ٨٦٨ زليخا تعد مجرمة عزماً وليست مجرمة فعلا ٨٦٩ مؤثرات الحب في النفس والأخلاق ٨٧٠ زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها – صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الأوساط ٨٧١ عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامرأته .

٨٧٥ الباب الرابع

الفصل الاول :

من ظلمة السجن إلى نور الحرية أو خروج يوسف من السجن بريئاً .

آ (٥٤) ﴿ وقال الملك : ائتوني به استخلصه لنفسي ، فلما كلمه ، قال: انك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ .

٨٧٧ (وقال الملك : ائتوني به استخلصه ...) طلب الملك ليوسف ثانية بعد

الصفحة الموضوع

رجوع المندوب من التحقيق ٨٧٨ عدد جيئات الرسول للسجن ٨٧٩ دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه إياه لنفسه – هندام يوسف حينما استعد لمقابلة الملك ٨٨٠ عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك – تفاهم يوسف مع الملك في اللغة ٨٨١ دعاء يوسف لأهل السجن الذي كان فيه – العبرة من هذه الآية وما بعدها .

٨٨١ **يوسف وزير مالية :**

آ (٥٥) ﴿ **قال اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم** ﴾ .

٨٨٢ (اجعلني على خزائن الأرض ...) مؤهلات يوسف لترشيح نفسه لوزارة المالية ٨٨٥ عمل يوسف في سني الخصب والجدب في مصر ٨٨٦ (اني حفيظ عليم) الشدائد علمت يوسف ادارة شؤون مصر المالية والاقتصادية ٨٨٩ عزيز مصر وخديويها ٨٩٠ نظير حادثة يوسف في التاريخ ٨٩٢ الدين الاسلامي والسعي في الدنيا ٨٩٤ دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال ٨٩٨ حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي والتصوف في الاسلام ٩٠١ التزهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية ٩٠٤ حدود تعاون المسلم مع غير المسلم ٩٠٥ خضوع المسلم لغير المسلم ٩٠٦ موالاة المؤمن لغير المؤمن ٩٠٨ ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته .

٩٠٩ **تمكين يوسف** عليه السلام :

آ (٥٦) ﴿ **... وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ .

الصفحة الموضوع

٩١٠ (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ...) تمكين يوسف الخاص والعام ٩١١ تقدير الملوك الاقدمين للناس بحسب مواهبهم ٩١٢ تزكية انتصار يوسف - كيف ان اخبار يوسف لم تصل لأبيه ٩١٣ الانتصارات التي فاز بها يوسف - اطلاق يد يوسف بمصر ٩١٤ تمكين يوسف في مصر سبعين سنة - مصر في أيام يوسف وبعد ٩١٥ رحمة الله واحسانه يصيبان جميع من يستحقهما ٩١٦ أجر المحسنين في الدنيا - إحسان يوسف الذي استحق عليه التمكين والتبوء في الأرض - مبدأ تبادل الاحسان ٩١٧ أجر المحسنين في الآخرة .

٩١٧ أجر الدنيا وأجر الآخرة :

آ (٥٧) ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

٩١٨ الآخرة لغة واصطلاحاً ٩١٩ ثواب الجنة جسماني وروحاني - حظ المؤمن في الآخرة أرقى منه في الدنيا ٩٢٠ أجر الآخرة مادي وروحي- أجر يوسف في الآخرة أجل مما كان له في الدنيا ٩٢١ الاخلاص يكون بالإيمان والعمل الصالح ٩٢٢ يوسف النبي والرسول - الجزاء يكون على الإيمان والعمل معاً ٩٢٤ رد دعوى زواج يوسف بزليخا بعد موت زوجها فوطيفار .

٩٢٥ الفصل الثاني :

سفرة إخوة يوسف الأولى لمصر .

آ (٥٨) ﴿ ... وجاء اخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون ﴾ .

٩٢٧ (وجاء اخوة يوسف ...) مجيء اخوة يوسف لمصر للايثار ٩٢٩ وصف

الصفحة الموضوع

منظر المتارين من الناس في مصر في زمن يوسف ٩٣٠ ترقب يوسف مجيء اخوته - يوسف يشرع في تحقيق هدفه - ابتداء يوم يوسف ٩٣١ حال اخوة يوسف بعد ما شردوه - مجيء اخوة يوسف لمصر كان من أكبر المساعدات لتحقيق آماله - الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين ٩٣٢ أسباب عدم معرفة اخوة يوسف له عندما قابلوه - معنى أنكر ونكر ٩٣٣ سبب عدم اظهار يوسف نفسه لاخوته ٩٣٤ داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً .

٩٣٥ **يوسف يجهز اخوته بالميرة ويطلب منهم الاتيان ببنيامين .**

آ (٥٩) ﴿ ... ولما جهزهم بجهازهم ، قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، الا ترون أني اوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ .

٩٣٦ (ألا ترون اني اوفي الكيل ..) جود يوسف على اخوته وبعض الأمثلة المشابهة في التاريخ .

٩٣٨ (ولما جهزهم بجهازهم ...) معنى الجهاز - اشارة رمزية من يوسف لأبيه يعقوب عليهما السلام ٩٤٠ وجه قبولي اخوة يوسف منة أخيهم ٩٤١ سلسلة كرم يوسف مع إخوته - دواعي طلب يوسف لبنيامين ٩٤٢ منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين - لماذا لم يذكر يوسف أباه بشيء ٩٤٣ كيف يمن يوسف على إخوته بما جاد به عليهم ٩٤٤ محاولة يوسف اغراء اخوته وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم ٩٤٥ محاولة يوسف رجوع اخوته بنيامين عن طريق الترغيب والتحبيب ٩٤٦ معنى الايفاء ووجه امتنان يوسف على اخوته .

٩٤٧ **يوسف يطلب بنيامين بالقهر :**

آ (٦٠) ﴿ فان لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ، ولا تقربون ﴾ .

الصفحة الموضوع

٩٤٨ (فان لم تأتوني به ...) يوسف ينذر اخوته إذا لم يأتوه ببنيامين .

٩٥٠ وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر .

آ (٦١) ﴿ قالوا : ... سنراود عنه اباه ، وإنا لفاعلون ﴾ .

٩٥٠ (قالوا : سنراود عنه أباه ...) وعد الاخوة باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة أبيهم .

٩٥٢ يوسف يأمر باعادة ثمن الميرة لاخوته لضمان مجيىء بنيامين.

آ (٦٢) ﴿ وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتكم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم ، لعلهم يرجعون ﴾ .

٩٥٣ سعى يوسف بمجيىء بنيامين بالقول والفعل – المراد من كلمة الفتيان – ماذا أراد يوسف برد بضاعة إخوته اليهم ٩٥٤ كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية ٩٥٥ معنى الرحال ٩٥٦ مقصد يوسف مما قاله لاخوته ومما فعله معهم – لماذا لم يخبر يوسف اخوته بجلية الواقع في سفرتهم الأولى ٩٥٧ كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم .

٩٥٨ الاخوة يطلبون بنيامين من ابيه :

آ (٦٣) ﴿ فلما رجعوا الى ابيهم ، قالوا : يا ابانا ، منع منا الكيل ... فارسل معنا اخانا، نكتل ، وإنا له لحافظون ﴾ .

٩٦٠ اخوة يوسف بين مطرقتين – فكرة سفر بنيامين – يعقوب يفكر فيما عمله « العزيز » مع أولاده .

٩٦١ الشك يخامر نفس يعقوب :

آ (٦٤) ﴿ قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟؟! فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين ﴾ .

الصفحة الموضوع

٩٦٢ (قال هل آمنكم ..) جواب يعقوب لأولاده جواباً سلبياً منددأ بهم وبوعودهم ٩٦٤ موقف يعقوب مع أبنائـــه فى طلبهم بنيامين ٩٦٥ عمر بنيامين عندما طلبه إخوته من أبيهم ٩٦٦ الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب وأولاده .

٩٦٦ اولى الامور بالنجاح التكرار والالحاح أو اتخاذ ابناء يعقوب رد بضاعتهم اليهم حجة للإلحاح في طلب بنيامين .

آ (٦٥) ﴿ ... ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ، قالوا : يا ابانا ، ما نبغي ؟؟! هذه بضاعتنا ردت الينا .. ونمير اهلنا ، ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ﴾ .

٩٦٩ (ولما فتحوا متاعهم ...) « ما » استفهامية في قوله « ما نبغي » ـ اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء ٩٧٠ نجاح حيلة يوسف في طلبه بنيامين ـ معنى الميرة ـ معنى المتاع .

٩٧١ قلب المؤمن دليله أو اشتراط يعقوب على أولاده لإرسال بنيامين معهم أن يعاهدوه على إرجاعه .

آ (٦٦) ﴿ ... قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقـــاً من الله ، لتأتنني به ، إلا ان يحاط بكم ... فلما آتوه موثقهم ، قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ .

٩٧٣ (قال لن أرسله معكم ...) الاحتيـــاط والتحفظ لازمان بجانب المقدر ٩٧٤ وجوه سماح يعقوب بإنقاذ بنيامين مع اخوته ـ الحالف بالله حالف على حساب الله ٩٧٥ حس يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه ـ وجوب

الصفحة الموضوع

التعلم من دروس الماضي ٩٧٦ معنى الإحاطة بالشيء – وعـــد راوبين ويهوذا لأبيهما باعادة بنيامين اليه .

٩٧٧ **نصح يعقوب لأولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية :**

آ (٦٧) ﴿ ... وقال يا بنيّ ، لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من ابواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتكلون ﴾ .

٩٧٩ (وقال يا بني ، لا تدخلوا ...) استعداد أبناء يعقوب الاحد عشر للسفر ونصح أبيهم لهم ٩٨١ سر التوكيل ٩٨٢ وجوب الأخذ بأسباب التحرز والحيطة مع التوكل – الأخذ بأسباب الحيطة والسلامة فرض ديني ٩٨٣ أسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل منهم من القضاء والقدر ٩٨٤ أنواع الناس بالنسبة الى عقيدة القضاء والقدر ٩٨٥ التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي والأخروي ٩٨٦ العين الشريرة وعادات الأمم في دفع أذاها ٩٨٧ أبواب الدخول الى مصر ٩٨٨ الحذر لا يغني من القدر – هل للعبد ارادة واختيار ٩٩٠ قول الخوارج لا حكم الا لله – نظام وأحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر .

٩٩١ **الفصل الثالث**

سفرة اخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) ﴿ ... ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ، ما كان يغني عنهم من الله من شيء ، الا حاجة في قلب يعقوب قضاها ، وانه لذو علم لما علمناه ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

٩٩٤ اجتماع شمل الشقيقين .

الصفحة الموضوع

آ (٦٩) ﴿ ولما دخلوا على يوسف ، آوى اليه اخاه ، قال : اني انـــا اخوك ، فلا تبتأس بما كانوا يعملون ﴾ .

٩٩٥ (ولما دخلوا على يوسف ...) اخوة يوسف الأحد عشر بين يدي يوسف ٩٩٧ يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه اليه .

٩٩٨ بدء المعركة بين يوسف واخوته – التسريق .

آ (٧٠) ﴿ ... فلما جهزهم بجهازهم ، جعل السقاية في رحل اخيه .. ثم اذن مؤذن ايتها العير ، انكم لسارقون ﴾ .

٩٩٩ (فلما جهزهم بجهازهم ...) الحادثة التي يظن انها جرت بين يوسف واخيه بنيامين قبل تسريقه ١٠٠٣ هل كانت العير حميراً أم إبـــلا ١٠٠٤ المراد بالمؤذن– بـــدء المعركة بين يوسف واخوته بايقاعهم في مأزق حرج مع أبيهم ١٠٠٥ اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه ١٠٠٦ مبررات قبول بنيامين التسريق ١٠٠٧ الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين « انا اخوك اخوة صداقة وحب » ١٠٠٨ كيف جوز يوسف لنفسه أن يعمل على اخوتـــه حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها ١٠١٢ شبه حادثة يوسف هذه بحادثتي العبد الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام .

١٠١٣ استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم .

آ (٧١) ﴿ قالوا : – واقبلوا عليهم – ماذا تفقدون ؟! ﴾

١٠١٣ الصواع المفقود .

آ (٧٢) ﴿ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وانا به زعيم ﴾ .

١٠١٥ اخوة يوسف يردون التهمة .

الصفحة الموضوع

آ (٧٣) ﴿ قالوا : تالله ، لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين ﴾

١٠١٧ استدراج الاخوة للحكم على نفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع .

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ؟ ﴾ .

١٠١٨ الجزاء من جنس العمل .

آ (٧٥) ﴿ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله ، فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين .. ﴾

١٠١٩ (قالوا جزاؤه من وجد ...) جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه كعبد ١٠٢٠ إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله جزاؤه – جزاء السارق في شتى الشرائع ١٠٢١ الاسترقاق في شتى الشرائع – كيف جوز ليوسف أن يجازي إخوته بشريعتهم .

١٠٢٣ الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة .

آ (٧٦) ﴿ ... فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ، ثم استخرجها من وعاء اخيه – كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك ، إلا ان يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

١٠٢٤ (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ...) كيد يوسف لأخوته كان بوحي من الله عقاباً لهم في الدنيا ١٠٢٦ كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر – كيد يوسف لاخوته كان حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم أو حيث اختاره لنفسه – لِمَ لمْ يُسرق يوسف أحد اخوته غير بنيامين ١٠٢٨ يوسف يحتال على اخوته بالحسنى لشعوره

الصفحة الموضوع

بالضعف نحوهم ـ أين جرى تفتيش الأوعية ١٠٣٠ تذكير ضمير الصواع وتأنيثه ـ كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة على اخوته ـ الرأي واتباع المصلحة مصدر من مصادر الشريعة ١٠٣١ علم الله فوق كل علم في الكيف والكم ١٠٣٢ علم الله فوق كل علم توصل اليه ويتوصل اليه الانسان ١٠٣٣ كيف رضي بنيامين بتطبيق حيلة أخيه يوسف عليه ـ ماهية الكيد في هذه الحادثة وأنواعه ١٠٣٥ معاني الدين ١٠٣٦ جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم ١٠٣٧ الدرجات وأنواعها وإطلاقها ١٠٣٨ رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم من الاختيار والاستقلال ١٠٤٠ جواز كون ما عمله يوسف عقاباً لاخوته في الدنيا كان موحى من الله تعالى .

١٠٤١ الطعن بيوسف وشقيقه .

آ (٧٧) ﴿ ... قالوا : إن يسرق... فقد سرق اخ له من قبل ، فأسرّها يوسف في نفسه ، ولم يبدها لهم ، قال : انتم شر مكاناً ، والله اعلم بما تصفون ﴾ .

١٠٤٢ اتهام يوسف بالسرقة وحقيقة هذه السرقة ١٠٤٥ إعراض يوسف عن اللغو ١٠٤٦ تذكر الاخوة ليوسف بالسوء ـ ظن الاخوة بأن بنيامين بريء من السرقة ـ ثبات الاخوة على كره يوسف ١٠٤٧ اختصار الاخوة الطعن بيوسف ١٠٤٨ أوجه احتمال قوله « فأسرها... » مثال لحلم يوسف .

١٠٥٠ استعطاف الاخوة :

آ (٧٨) ﴿ ... قالوا : ايها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

١٠٥١ (قالوا يا أيها العزيز ...) استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق سراح

الصفحة الموضوع

بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه١٠٥٢ أي الأخوة قام بالاستعطاف ـ طلب الاخوة ترك الجاني وأخذ البريء ١٠٥٣ ألقاب يوسف .

١٠٥٤ يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على أخذ سارق الصواع .

آ (٧٩) ﴿ قال : معاذ الله ان نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنـّا إذاً لظالمون ﴾ .

١٠٥٥ (قال معاذ الله ...) رفض يوسف ترك بنيامين أو أخذ غيره من الإخوة ١٠٥٦ يوسف بين عاملي فرح وكدر ١٠٥٧ ومحاباة في أحكام الشرع ـ لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ـ يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق بـه إخوته ١٠٥٨ تكرار جملة معاذ الله في القرآن ـ ظاهر قوله « إنـّا إذاً لظالمون » وباطنه ١٠٥٩ التورية في قوله متاعنا ١٠٦٠ برقيتـا شفرة من يوسف لأبيه .

١٠٦٠ اليأس والمفاوضة والمناجاة :

آ (٨٠) ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً .. قال كبيرهم : الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي ابي ، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين﴾

١٠٦٣ (فلما استيأسوا منه ...) يأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاضيهم وأقوال أخيهم الأكبر ١٠٦٥ معنى النجي ١٠٦٦ مجلس شورى الاخـوة ١٠٦٧ إقرار الإخوة على التفريط بيوسف سابقاً :

١٠٦٨ نتيجة المفاوضة :

آ (٨١) ﴿ ارجعوا الى ابيكم ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين ﴾ .

الصفحة الموضوع

١٠٦٩ جهل البشر وفهم الأنبياء بالغيب ـ إقامة الحجة على النصارى بعدم ألوهية المسيح .

١٠٧١ شهود الحال على جريمة التسريق :

آ (٧٢) ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي اقبلنا فيها ، وإنّا لصادقون ﴾ .

١٠٧٢ التحقق من القرية والعير ـ المراد من القرية أهلها ١٠٧٣ حال يعقوب واسرته آنئذ .

١٠٧٤ تكذيب فصبر فترجي :

آ (٨٣) ﴿ ... قال : بل سولت لكم أنفسكم امرأ ، فصبر جميل ، عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

١٠٧٥ (قال: بل سولت لكم أنفسكم ...) حال يعقوب عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين ١٠٧٧ هاتف من يعقوب ١٠٧٨ الايجاد والحذف في القرآن ١٠٧٩ استفشاش يعقوب لأولاده في نبأ بنيامين ـ يعقوب بين الابتسام والانسجام ـ تشكك يعقوب في حادثتي يوسف وبنيامين ١٠٧٠ صبر يعقوب ـ موقف يعقوب واحد في حالتي كذب وصدق أولاده ـ خوف يعقوب من أولاده .

١٠٨١ دمعة على يوسف :

آ (٨٤) ﴿ وتولى عنهم ، وقال : يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم ﴾ .

١٠٨٢ (وتولى عنهم ، وقال يا أسفا ...) تجدد حزن يعقوب ١٠٨٤ أخلاق

الصفحة الموضوع

يعقوب والنبيين عليهم السلام ١٠٨٥ لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن ١٠٨٦ تكرار أسف يعقوب على ابنه يوسف ١٠٨٧ الحاجة التي في نفس يعقوب ١٠٨٨ إنما الصبر عند الصدمة الأولى — جرح على جرح ١٨٩ وجوه أسف وحزن يعقوب على يوسف ـ المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه » ١٠٩٠ معنى الكظيم — مقابلة بين حزن يعقوب وحزن إرميا النبي ١٠٩١ سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف — الرسل بشر يعتريهم ما يعتري البشر ١٠٩٢ لفظة « يا أسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن ـ التجانس بين لفظتي الأسف ويوسف ١٠٩٣ الرد على من يقول إن حب يعقوب لابنه يوسف لا يليق إلا بمن كان غافلا عن الله ١٠٩٤ ابيضاض العينين هو امتلاؤهما بالدمع من أثر الحزن ١٠٩٦ تفسير ابيضاض العينين بمعناه المجازي .

١٠٩٧ اشفاق ونصح :

آ (٨٥) ﴿ قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف، حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ .

١٠٩٨ (قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف ...) ابناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على أبيهم وتسرية همومه وأحزانه مع شيء من اللوم ١١٠٠ « تالله » كلمة صحيحة أريد بها باطل — الحرض ومرادفاته ـ استعمال كلمة « الهلاك » للمسلم والكافر سواء .

١١٠١ أين الشجيّ من الخليّ :

آ (٧٦) ﴿ قال : إنما أشكو بثي وحزني الى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

الصفحة الموضوع

١١٠٢ (قال إنما أشكو بثي وحزني ..) يعقوب يرد لأبنائه نصحهم له ولومهم إياه على حزنه على يوسف ١١٠٥ جواز ابتـلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا وصاحب الباطل بالنعم والعطايا ١١٠٦ الحكمة من منع علم الغيب عن الناس وإطلاع الأنبياء على شيء منه ١١٠٨ وجوب الوقوف عنـد النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب ١١٠٩ طرق نقل العلم .

١١١٠ العودة الى مصر للتحسس :

آ (٨٧) ﴿ يا بنيّ ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

١١١١ (يا بنى اذهبوا فتحسسوا ...) يعقوب يطلب من أولاده العودة لمصر للاختيار ظاهراً ، والتحسس من يوسف وأخيـه باطناً ١١١٣ يعقوب يطلب من أولاده التحسس من يوسف وبنيامين ثم جلب الميرة – معنى التحسس ١١١٤ روح الله وأن اليأس منها كفر – معنى الكفر والكافرين وإطلاقه غمط النعمة ١١١٦ إطلاق الكفر على المعصية الكبيرة ١١١٧ إطلاق الكفر على الضلال – إطلاق الكفر على ترك بعض أركان الإسلام ١١١٨ الكفر في عرف القرآن الكريم .

١١١٩ الفصل الرابع :

سفرة إخوة يوسف الثالثة لمصر :

آ (٨٨) ﴿ ... فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنـا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ .

١١٢٠ (فلما دخلوا عليه ...) دخول أبناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة

الصفحة الموضوع
الثالثة وتذللهم له في طلب الميرة ١١٢٢ مراحل الخطاب أو «الاستدعاء»
– مقايسة بين العبرانيين والعرب في الهمة ١١٢٣ البضاعة وطرق المبادلة بها
١١٢٥ جزاء المتصدقين في الدنيا والآخرة ١١٢٦ ذلة الاخوة مع الأجنبي
« العزيز » وعظمتهم مع أبيهم وأخيهم – خضوع البشر لحكم الغريب .
١١٢٧ عتاب وتذكير :
آ (٨٩) ﴿ ... قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ انتم جاهلون ؟ ﴾
١١٢٨ (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ...) عتاب يوسف لاخوته
وتذكيرهم بالتوبة ١١٣٠ يوسف يشفق على اخوته ويتنصح لهم – العلم
بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجر الى التوبة ١١٣١ درجات المعاتبة
وموقع كلام يوسف منها – صدق الخبرُ الخبرَ ١١٣٢ أدب الاخوة في
طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم حقده عليهم ١١٣٣ أسباب عدم
ذكر يوسف أباه في هذا المقام ١١٣٦ توجيه السؤال من يوسف لأخوته
كان بمثابة دعوتهم للاعتراف والتوبة ١١٣٧ تضمين يوسف عتابه لاخوته
الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم – سلوك يوسف مسلكاً وسطاً في أعماله
وأقواله ١١٤٠ عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم
مع يوسف – معنى الجهل والجاهلين .
١١٤١ اظهار يوسف نفسه لاخوته :
آ (٩٠) ﴿ .. قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ – قال : أنا يوسف ، وهذا
أخي ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر
المحسنين ﴾ .
١١٤٢ (قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟..) استعراف يوسف لاخوته بنفسه
وبأخيه وتعريضه بهم ١١٤٤ التعريض في الكلام – التعريض في سورة

الصفحة الموضوع

يوسف ١١٤٥ المحسن ـ إحسان يوسف ١١٤٦ نتيجة كيد اخوة يوسف له ١١٤٨ العبر المستنبطة من هذه الآية ـ يوسف نال الحظوة بأخيه بحواسه الخمس ـ ١١٤٨ التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » ١١٥٠ الجزاء يكون في الدنيا والآخرة .

١١٥٥ اعتراف الاخوة بالخطيئة :

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإنْ كنا لخاطئين ﴾ .

١١٥٦ (قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ...) اعتراف إخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم ١١٥٨ وجوب الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران ١٦١١ الفرق بين لفظي الخاطىء والمخطىء واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين ١١٦٢ عدم تمادي الاخوة في انكار المحسوس ـ الحي الميت ـ توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز ١١٦٤ مقابلة بين أقوال اخوة يوسف السابقة وأقوالهم الحالية ١١٦٦ مقابلة بين تفكير الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن .

١١٦٧ شفيع المذنب اقراره :

آ (٩٢) ﴿ قال : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو ارحم الراحمين ﴾ .

١١٦٨ (قال لا تثريب عليكم اليوم..) يوسف يعفو عن اخوته ويطلب لهم المغفرة ١١٧٠ معنى التثريب ١١٧١ متعلق كلمة « اليوم » ١١٧٢ المشابهون ليوسف في عمله الأخير مع اخوته ١١٧٤ الحكمة في مبادرة الاستغفار لاخوته بخلاف أبيهم ١١٧٥ العفو أشد أنواع الانتقام ١١٧٦ أرحم الراحمين ـ العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة ١١٧٧ غفران الاساءة واجب

الصفحة الموضوع

١١٧٨ من تاب غفر الله له ـ ما هو الجزاء الذي وقع على إخوة يوسف حق غفر الله لهم ١١٨٠ المغفرة والعفو والفرق بينهما ١١٨١ المغفرة في التلمود والانجيل – العبرة بالخواتيم ١١٨٢ فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف ـ الطريقة المثلى في المسامحة ١١٨٣ إسباغ النعمة على اخوة يوسف.

١١٨٤ قميص البشارة :

آ (٩٣) ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ، فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

(اذهبوا بقميصي هذا ...) تحقيق عما هو هذا (القميص) وعن كلمة (بصير) – « القميص » هو كسوة رسمية ١١٨٦ « البصير » هو العالم علماً قلبياً ١١٨٨ يعقوب بصير عالماً علماً قلبياً بحال ابنه يوسف ١١٩٠ تفسير (يأت بصيراً) يجيء مبصراً بعينيه ١١٩١ تأويل « القميص » بالرتبة العالية والرد عليه ١١٩٩ تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله: «اذهبوا بقميصي هذا ..» ١٢٠١ تفسير الآية ينطبق بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها ١٢٠٤ تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الاضافية ١٢١٠ رد تفسير كلمة « بصير » ضد الأعمى « يبصر » ١٢١١ عظمة يوسف بتوخي المنفعة لأهله ولو بعد ما أهانوه ١٢١٢ لزوم استخدام المال والمنصب والجاه في منفعة ذوي الرحم ١٢١٣ أوصاف المؤمنين الأربعة تمت ليوسف ١٢١٤ حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب أهليهم لمصر – نتيجة رحلة بني إسرائيل لمصر ١٢١٥ الإرهاص والمعجزة – عطايا يوسف لاخوته عند ذهابهم لجلب أهليهم – حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه .

١٢١٨ عودة القافلة بالبشارة :

الصفحة الموضوع

آ (٩٤) ﴿ ... ولما فصلت العير، قال ابوهم: اني لأجد ريح يوسف!! لولا ان تفندون ... ﴾ .

١٢١٩ تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم ١٢٢٠ تنسم يعقوب ريح يوسف عابقة من قميصه الكتان ١٢٢٢ حس يعقوب رائحة قميص يوسف بالشم - تحسس يعقوب برائحة يوسف تحسساً معنوياً ١٢٢٣ اقتباس يعقوب ريح ولده يوسف بدون وساطة الحواس ١٢٢٤ إدراك يعقوب رائحة يوسف إلهاماً بقلبه ١٢٢٦ جواز إدراك يعقوب رائحة يوسف كما يدرك المنوّم تنويماً مغناطيسياً الأشياء ١٢٢٧ شواهد على إدراك الرائحة بالإلهام القلبي ١٢٣١ انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع الريح ١٢٣٢ اعتبار ريح يوسف استعارة مكنية مرشحة .

١٢٣٤ الأحفاد ينتقدون جدهم :

آ (٩٥) ﴿ قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم !! ﴾

انتقاد أحفاد يعقوب جدهم يعقوب على قوله (اني لأجد ريح يوسف) ١٢٣٥ عدم الرد على السفيه أوجب لامتهانه من الرد عليه ١٢٣٦ من هم أحفاد يعقوب .

١٢٣٧ البشارة :

آ (٩٦) ﴿ فلما ان جاء البشير، ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا ! قال : ألم اقل لكم اني اعلم من الله ما لا تعلمون ؟! ﴾

١٢٣٩ وصول البشير وإلقاؤه «القميص» على وجه يعقوب ١٢٤٠ خصائص قميص البشارة ورده بصر يعقوب ١٢٤٢ تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه ١٢٤٣ العلم يقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر ارتداد بصر يعقوب بإلقاء القميص عليه .

الصفحة الموضوع

١٢٤٤ طلب الاستغفار :

آ (٩٧) ﴿ قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنـّا كنا خاطئين ﴾ .

١٢٤٥ أبناء يعقوب يطلبون من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم ١٢٤٦ الشفاعة وأنواعها وحكمها ١٢٤٧ سبب طلب الاخوة الاستغفار من أبيهم ولم يطلبوه من أخيهم ١٢٤٨ مذهب السلف والطوائف الاسلامية الأخرى في النجاة والإيمان – تعليل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع – ١٢٤٩ لماذا لم يستغفروا لأنفسهم بأنفسهم .

١٢٥١ تسويف الاستغفار :

آ (٩٨) ﴿ ... قال : سوف استغفر لكم ربي ، انه هو الغفور الرحيم ﴾

١٢٥٢ أسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده ١٢٥٤ هل وفى يعقوب بوعده لأولاده بالاستغفار لهم – هجرتا يعقوب ١٢٥٥ هجرة الأنبياء – مخلفات سلالة ابراهيم في أرض الميعاد بعد جلائها عنها لمصر .

١٢٥٦ الفصل الخامس :

السفرة الرابعة والأخيرة لمصر – يوم اللقاء .

آ (٩٩) ﴿ ... فلما دخلوا على يوسف ، آوى اليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ﴾ .

١٢٥٧ سفرة يعقوب واسرته لمصر – وداع يعقوب لفلسطين – لقاء الشتيتين ١٢٥٩ حال يعقوب عند رؤيته يوسف – مبدأ التاريخ العبراني ١٢٦٠ من هي أم يوسف التي آواها ١٢٦١ يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف – كيف قابل يوسف أبويه عند دخولهما عليه وكيف عاملهما؟

الصفحة الموضوع

١٢٦٢ خطبة الوئام والسلام :

آ (١٠٠) ﴿ ... ورفع ابويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال: يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو ، من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ، إن ربي لطيف لمن يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

١٢٦٣ مصداق رؤيا يوسف الثانية ١٢٦٧ اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وتبسطه فيه في جلسة السلام ١٢٦٨ مصداق قول يوسف ومصداق قول أبيه ١٢٦٩ الاحسان يتمدى بالباء وبإلى ١٢٧٠ معنى « النزغ» والرد على القول بأن اختلاف الأمة رحمة ١٢٧٢ توجيه النزغ للشيطان — أدب يوسف في التعبير وأمثلة من أدب تعابير القرآن ١٢٧٣ معنى استحياء النساء في آية ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ ١٢٧٦ عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية ١٢٧٧ نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني ـ مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح (حسب رأي الانجيل) لأمه ١٢٧٩ ذكريات يعقوب ويوسف وإخوته بعدما ألقى يوسف خطاب الوئام ١٢٨٠ معنى السجود والخرور وحكمها في الدين ١٢٨٢ البدو وسكناهم وشهادتهم .

١٢٨٣ حسن الختام :

آ (١٠١) ﴿ رب ! قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، انت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً، والحقني بالصالحين ﴾ .

١٢٨٤ تحدث يوسف بنعمة الله تعالى وترجيه أن تكون خاتمة حياته

الصفحة الموضوع

حسنة ١٢٨٥ أنواع الأدعية في القرآن ١٢٨٨ طفرات حياة يوسف عليه السلام ايتاء الملك الشرعي وغير الشرعي ١٢٨٩ الرد على من يقول ان يوسف استقل بالملك ١٢٩٠ الأنبياء الذين آتاهم الله الملك والنبوة معاً ١٢٩١ تعليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله « رب قد اتيتني ... » ١٢٩٢ الأحاديث التي علم الله يوسف تأويلها ١٢٩٣ الولي وأنواع الولاية ١٢٩٥ درجات الولاية ـ الآخرة في كتب اليهود والنصارى ١٢٩٦ الاسلام دين جميع الرسل ١٢٩٨ دعاء يوسف بإماتته مسلماً ١٢٩٩ مبلغ ما أوتيه يوسف من الملك ١٣٠٠ الاسلام والجاهلية لغة ١٣٠١ حال يوسف أثناء وبعد حفد الختام ١٣٠٢ نهاية اخوة يوسف ١٣٠٣ نهاية بني اسرائيل وانقسام مملكتهم.

١٣٠٤ الباب الخامس :

الفصل الأول: خاتمة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة أو الاستدلال على نبوة محمد ﷺ .

آ (١٠٢) ﴿ ذلك من أنباء الغيب ، نوحيه اليك ، وما كنت لديهم ، إذ أجمعوا أمرهم ، وهم يمكرون ﴾ .

١٣٠٦ الرد على دعوى الكفرة بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة ١٣٠٩ الرد على دعوى الكفرة بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة ١٣١٠ الرد على دعوى البروتستانت بأن الرسول ﷺ كان يقصد المسائل من نصارى العرب ويهودها ١٣١١ أساس تسرب الدش لأذهان مفسري القرآن وعصمة النبي ﷺ من ذلك ١٣١٢ بعض معجزات القرآن الدالة على انه وحي من الله ١٣١٥ هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ ١٣١٦ تكرر المعنى الذي حوته الآية في آيات أخرى المكر الثابت والمكر المقدر بقدر العمل الموافق له ١٣١٧ من عادة القرآن

الصفحة الموضوع

المجيد ذكر « التوحيد » في كل مناسبة ١٣١٨ طرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والأنبياء .

١٣٢٠ طبيعة اكثر الناس عدم الايمان :

آ (١٠٣) ﴿ وما اكثر الناس « ولو حرصت » بمؤمنين ﴾ .

١٣٢١ تأسي الناصحين بالرسول ﷺ عند عدم إفادة إرشارهم للناس — المؤمنون أقل من الكافرين .

١٣٢٢ اخلاص النبي ﷺ في دعوته :

آ (١٠٤) ﴿ وما تسألهم عليه من اجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

١٣٢٣ تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن ١٣٢٤ الإخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها ١٣٢٥ معنى « العالمين » .

١٣٢٥ الفصل الثاني :

تقريع الغافلين عن التفكير في آيات الله :

آ (١٠٥) ﴿ وكأي من آية في السموات والارض ، يمرون عليها ، وهم عنها معرضون ﴾ .

١٣٢٦ تقريع الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية الدالة على توحيد الإله ١٣٢٧ تقريع أهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل أبصارهم وبصائرهم عما في الوجود من آيات ـ النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله ١٣٣٢ ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون .

١٣٣٣ التوحيد في الربوبية والاشراك في الألوهية :

آ (١٠٦) ﴿ وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

الصفحة الموضوع

١٣٣٤ متى يعبر القرآن بلفظ « الاكثر » و « الكثير » ١٣٣٥ القرآن يبين ما عليه الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال – كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الالوهية ١٣٣٧ كثير من الآيات نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية المسلمين – أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال ١٣٤٠ الفرق بين الجاحد بوجود الله والمشرك ١٣٤١ تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية – الأصل في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق ١٣٤٣ فضل الله على عباده وأقسامه ١٣٤٤ تحريم سؤال الأولياء ذوي الأضرحة شيئاً مادياً أو معنوياً ١٣٤٥ التوسل بجاه الأنبياء والأولياء ١٣٤٦ الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره ١٣٤٧ واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى ١٣٤٨ ما هو المراد بمثقال حبة من خردل من الايمان في حديث البخاري ١٣٤٩ العطل المنكر لوجود الله تعالى شر من الشرك – حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الالوهية – شرك النصارى في الربوبية والألوهية ١٣٥٠ الطوائف المنسلخة عن الاسلام بسبب شركها بالله أو بالتشريع – المشرك من يدعو الأصنام أو من يدعو الصالحين .

١٣٥١ إنذار المشركين بالله :

آ (١٠٧) ﴿ أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة ، وهم لا يشعرون ﴾ .

١٣٥٢ الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها ١٣٥٤ الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الأخروية ١٣٥٥ الحشر الدنيوي ١٣٥٦ النشر والحساب الدنيويان ١٣٥٧ الحساب العام الأخروي – الصراط والعذاب والعقاب

الصفحة الموضوع
والأجر والثواب الدنيويات ١٣٥٨ الميعاد الدنيوي ١٣٥٩ البعث الدنيوي الآخرة والجزاء الدنيويان ١٣٦٠ الحياة بعد الموت في الدنيا .

١٣٦١ الفصل الثالث :

الدعوة الى الإيمان بالدليل .

آ (١٠٨) ﴿ قل:هذه سبيلي ، أدعو الى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني وسبحان الله ، وما انا من المشركين ﴾ .

١٣٦٢ التقليد في الدين باطل ـ النبي والمؤمنون كانوا على بصيرة من الدعوة للإيمان ١٣٦٤ دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية ١٣٦٥ اكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة ـ دعوة النبي ﷺ وبعثته كانتا عامتين ١٣٦٦ الدعوة والدعاء والإدعاء والدعوى ١٣٦٧ الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة ١٣٦٩ الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم وبيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ـ منع النبي ﷺ بعض المسلمين من إكراه أولادهم المتهودين على الاسلام ١٣٧١ رتبتا الدعوة الى التوحيد ١٣٧٢ الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل ١٣٧٣ علينا أن نتأسى برسول الله في الدعوة اليوم .

١٣٧٤ الفصل الرابع :

قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الأنبياء .

آ (١٠٩) ﴿ وما ارسلنا من قبلك إلا رجالا ، نوحي اليهم ، من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟! ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، افلا تعقلون ؟! ﴾

١٣٧٥ تطبيق القول على الواقع ١٣٧٦ الحث على السياحة المفيدة والإحسان

الصفحة الموضوع
الى السائح ـ أهل القرى وأهـــل البوادي والأعراب ١٣٧٧ الاستدلال بالقياس الاستقرائي علىصحة الدعوة ١٣٧٨ الأنبياء رجال كباقيالرجال امتازوا عنهم بالوحي .

١٣٨٠ تطمين محمد ﷺ بالنصر :
آ (١١٠) ﴿ ... حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا انهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ .
١٣٨١ الله سبحانه وتعالى يطمئن محمداً ﷺ بأنه ناصره في دعوتـــه
١٣٨٢ تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الدال وتخفيفها .

١٣٨٣ الفصل الخامس والأخير :
العبرة من قصص الرسل مع أقوامهم .
آ (١١١) ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، ورحمـــة لقوم يؤمنون ﴾ .

١٣٨٤ محمد ﷺ مؤسس امة وامبراطورية وديانة ١٣٨٥ الغاية من قصص القرآن ـ الغاية من ذكر الأنبياء وقصصهمفي القرآن ١٣٨٧ ليس فيالقرآن تاريخ بل عبر وعظات ١٣٨٨ المراد من قوله « لا مساس » في آية (٢٠ : ٨٧ ـ ٩٧) ١٣٩٠ قصصالقرآن تعلمالتوحيد والعلم والأخلاق ـ لا فائدة من درس التاريخ ان عدل به عن العبرة ١٣٩١ قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة ١٣٩٣ ان اكرمكم عند الله أتقاكم ١٣٩٣ ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير ١٣٩٤ القرآن مصدق لما قبله من امور التوحيد ١٣٩٥ القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين ـ

الصفحة الموضوع
القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد ١٣٩٦ القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين ـ القرآن مصدق للكتب السماوية الأصلية ١٣٩٧ شواهد من التوراة الحالية على ان فيها زيادة ١٣٩٩ التوراة الحالية كتبت بعد السبي ١٤٠٠ الرد على القول بأن « عزرا » الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية ١٤٠١ القرآن يذكر كل شيء مهم من امور الدين ١٤٠٢ القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة ١٤٠٤ القرآن هدى ورحمة لمن يتفهمه ١٤٠٥ الهدى هو الدعوى والدلالة والبيان ـ جلسة الختام .
١٤٠٩ جدول محتويات الجزء الاول من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف(ع)
١٤٢٧ » » » » الثاني » » » » » » » »

جدول الأخطاء المطبعية الواردة في الجزء الثاني
من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف وتصويبها

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٦٧٦	١٢	ظهر له	ظهر لهما
—	١٦	وأعظم	واعظ
٦٧٧	٦	أولى وواجب	أولى به وواجب
٦٧٨	٨	شبث	شببت
٦٨٨	٢٣	ويقال وقب	ويقال لها وقب
٦٩١	١٥	(اصم : ٣ و ٤)	(اصم ٧ : ٣ و ٤)
—	١٨	تراقيم	ترافيم
٦٩٢	٥	٣٢ و ٢٣	٢٢ و ٢٣
—	١٠	أخزيا	أيام أخزيا
—	١٣	عثليا	أيام عثليا
٦٩٣	٦	منسي	منسى
—	٨	منسي	منسى
٦٩٨	٦	الأقنوم	لأقنوم
—	١٧	هراطقة(١)	هراطقة (٢)
—	٢٥	....	(٢) الهراطقة الخارجون على الدين عند النصارى
٧٠١	٣	له بتقديرنا	له قولاً بتقديرنا
٧٠٤	١٩	(٢.١١١و١١٢)	(٢ : ٨٠ – ٨٢)

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٧٠٤	١٩	....	وقال تعالى: ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَنْ كانَ هوداً أو نصارى ؟ تلك أمانيُّهم ، قلْ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى مَنْ أسلمَ وجهه لله ، وهو محسنٌ ،فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون﴾
٧٠٥	٢٢	والعجنهية	والمنجهية
٧١٣	٢	لم يضره	لم يضره لؤم
٧١٤	٧	إذ يشكرون	إذ يشركون
—	٩	كفراً	كفرا
٧١٩	٠	آلهة ثلاثة	آلهة ثلاثة ثلاثة
—	٥	الثالوث المسيحي يعتقدون	الثالوث المسيحي، إلا أن المسيحيين ليس لهم إلا ثالوث واحد، وأيضاً إن المسيحيين يعتقدون
—	١٢	فيه من الالوهية	فيه جزء من الالوهية
—	١٣	وأجاروا أن يكون	وأجازوا أن يكون
٧٢٠	٢	خير أم الواحد	خير أم الله الواحد
٧٢٥	٤	إنها قبل	إنها كانت قبل
٧٣١	٧	الفرق كله	الفرق ينحصر كله
٧٣٧	١٨	(٢ : ٤٢)	(٢ : ٤٤)
٧٤٢	٢٠	نقض كثير	نقص كثير
٧٤٣	١٣	لنا هؤلاء	لنا أن هؤلاء

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٧٤٥	٥	القيامة ،بدون وساطة	القيامة ، أي كما جاز أن يولد شخص بدون أب ، يجوز أن يوجد الناس يوم القيامة بدون وساطة
٧٤٦	١٦	أسماءٌ	أسماءَ
٧٤٧	١١	للسيارة الذاهبة	وللسيارة الذاهبة
٧٥٢	٥	بامعان وإنعام	فتفهمه بإمعان وإنعام
٧٥٣	١١	وهو منقبل الفرض	وهو من قبيل الفرض
٧٥٤	٥	وليس لهم به	وما ليس لهم به
٧٥٧	١٢	بصحة هذا	بصحة كلام هذا
٧٥٨	١١	لهذه الآية	لهذه الجملة
٧٦٢	١٩	الفراعنة والامة	الفراعنة والأمة المصرية والأمة
٧٦٢	٢١	السجن	السجون
٧٦٣	٢١	حق عليهم العذاب	حق عليه العذاب
٧٦٤	٢١	، وما يؤمن اكثرهم	﴿ وما يؤمن اكثرهم
٧٧٤	١٤	والبضع واحد	والبضع من واحد
٧٧٧	٤	وكثيرا من الاولاد	وكثيراً من أن الأولاد
—	١٧	وهذا وإن الفاء	هذا وإن الفاء
٧٨٤	٢١	اجتماعه بولده	اجتماعه بولده يوسف
٧٨٩	١٠	إضافة المصدر	إضافة المصادر كان المعنى: الذكر الذي ذكرته ، وهو كلامه الذي أنزله ، فهو من إضافة المصدر
—	١١	به الذكر	به من الذكر

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٧٩٦	١٤	تلتفت حوله	تلتف حوله
٧٩٨	٣	السورة خمسة	السورة الجيدة خمسة
—	١٩	للحكم بن عبدة	للحكم بن عبده
٨٠٠	١٢	الذي عنده	الذين عنده
٨٠١	١٤	خيط في نفس	خيط كان في نفس
٨٠٥	٤	أن ننصح له	أن لا ننصح له
—	٩	لكي يدلوا	لكي يؤلوا
٨١١	١١	النعمة بأولها	النعمة الأخيرة بأولها
٨١٦	١٠	فتاب عليكم	فتاب عليكم بارئكم
٨٢٣	٢١	البصرة والبصيرة	البصر والبصيرة
٨٢٤	١٣	والمعنى الثاني الشأن والعادة	والمعنى الثاني الشّوْق الشديد
—	١٣	وهذا المعنى الثالث	والمعنى الثالث
٨٢٧	٤	رؤيا الملك بالبشر	رؤيا الملك بالبركة والخصب
—	٩	قضى يوسف	قضّى يوسف
٨٣٠	٦	فان هذا القول	فإن في هذا القول
—	١٧	العالم الجاهل	العالم والجاهل
٨٣١	١٠	عن البلجي أن	عن البلخي أن
٨٣٧	١٤	الشعوب والمماليك	الشعوب والممالك
٨٤٤	١٧	قُرِفَ به	قُرّفَ به
٨٤٨	٢٢	حر ... سة	حر ... سه
٨٥١	١١	الأسباب التي	الأسباب هي التي
٨٥٢	٢٤	فإنه استدل	فإنه استبدل
٨٥٤	١٨	بجرد طرد	بجرد الطرد

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٨٥٥	٥	بمراجعة يوسف	بمراجعة الملك
٨٦١	٨	على العزير	على العزيز
—	١٩	ممقول قول	مقول القول
٨٦٢	٩	يخرجكم بسحره	يخرجكم من أرضكم بسحره
٨٦٣	١٦	يا نفسي	يا نفس
٨٦٤	٣	وبمقتضي دينها	وبمقتضى ديدنها
—	١١	بها الشبيبة	بها الشبية
٨٦٦	٩	يخفف هن	يخفف من
٨٦٧	١٨	في محاولة	في هوة محاولة
٨٦٩	١٢	في النفس	في الناس
٨٧١	٩	مراسح التمثيل	مسارح التمثيل
٨٧٤	٤	تطمع فيه	تطمع الا فيه
٨٧٥	١٦	حكى شفاهياً	حكى شفاهاً
٨٧٦	١٢	والشكر لإلوهي	والشكر لألوهي
—	٢٤	ذو المكانة	وذو المكانة
٨٧٨	١	الرسول السجين	الرسول السجن
—	١٩	الرسول اليسجين	الرسول السجن
٨٧٩	٦	وقف الملك الملك	وقف الملك
٨٨٤	٩	أجرأ للعمل	أجزأ للعمل
٨٨٧	٩	فيعطف الأخ	فيعطف على الفقير عطف الأخ
٨٨٨	٩	يوسف عليه	يوسف عليه السلام
—	٢٠	طلت الفضائل	طلب الفضائل
٨٨٩	١٠	ويكون كأمير	ويكون العزيز كأمير

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٨٩٧	١٥	بالدنيا والناس بالدنيا	بالدين ، والناس بالدنيا
—	٢٣	في صناديهن	في صناديقهن
٨٩٩	٩	دين يقوم	دين يقول
٩٠٢	١٥	يحب أن	يجب أن
٩٠٣	١٢	(١٩ : ٢٣ و ٢٤)	(مت ١٩ : ٢٣ و ٢٤)
٩٠٤	٤	لتماليم دينها	لتعاليم دينهم
—	١٣	وإن ما ورد	وإن ورد
٩٠٨	١٣	دنيوية في بره	دنيوية في معاشه ، وماذا عليه من موادته له إذا أخرجه من سجنه وقربه لديه ؟ وماذا عليه في بره
٩٠٩	٥	سخر قلب	سخر له قلب
٩١٠	٩	نسي فلسطين	نسي يوسف فلسطين
٩١٢	١٦	الحقيقة أصبحت	الحقيقة الواقعة أصبحت
—	٢١	لمصر، وانه كانت	لمصر ، بل قد أثبت لنا التاريخ ، أن القوافل كانت تسير من فلسطين لمصر ، وأنه كانت .
٩١٤	١٤	وهذا التبوء العام	وهذا التنبؤ العام
—	١٧	صغيراً من	صغيراً جداً من
[illegible]	٧	وسَنُجزي الشاكرين	وسَنَجزي الشاكرين
٩٢١	٣	وحسنُ مآب	وحسنَ مآب
٩٢٥	١٨	لينة	لينة
٩٣١	٢٠	ومن لاحق :	ومن لاحق قوله
٩٣٢	٥	الوزارة المالية	وزارة المالية

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٩٣٥	٢٢	والتنزيل	والنزيل
٩٤٢	١٧	هذي الأرامل التي قد	هذي الأرامل قد
٩٤٣	٣	يعرف أخاه	يعرف أن أخاه
٩٤٤	٢٢	الذين يذكران	اللذين يذكران
٩٤٩	٢٣	عند ميرة	عندي ميرة
٩٦٠	٧	لا يدرون يقومون	لا يدرون أيقومون
٩٦٣	١٩	تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟	تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟ لا يتسنى لي أن أنعمكم عيناً بهذه الطلبة
٩٨٤	١٨	ويعتمد أن	ويعتقد أن
٩٨٩	٣	ذلكم انه للعبد	ذلكم انه ليس للعبد
—	١٩	قدر بقدر	قدراً بقدر
٩٩٢	٧	وسلمه دون	وسلمه لهم دون
٩٩٧	٢	ما نرجوا	ما نرجو
١٠٠١	١٢	فهل تمطيعني	فهل تطيعني
—	١٩	لا تعرض ذكرها	لا تعرض بذكرها
١٠٠٢	٢٠	مال السرقة	مال السَّرَقة
١٠٠٥	٥	وخذوا أبيها	وخذوها أبيها
١٠٠٦	١٨	لما رجعوا البيت	لما رجعوا إنما رجعوا لبيت
١٠٠٧	٣	اليه في السفرة	اليه ما سبق في السفرة
١٠٠٨	٤	توراة اليوم	توراة اليهود
١٠٠٩	١٨	طبيعي عَرَضاً	طبيعي حاصل عرَضاً
١٠١٣	٨	بلهجة الذي	بلهجة الاستفهام الذي

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
—	١٥	الشرب كان	الشرب إذا كان
١٠١٦	١٦	وادي العضا	وادي الفضا
١٠٢٤	٣	يومئذ يوفهم	يومئذ يُوَفيْهم
١٠٢٥	١٣	كاد الله أن دبر	كاد الله ، أي دَبر
١٠٢٦	٢٣	سنجزي الشاكرين	وكذلك نجزي الشاكرين
١٠٢٧	٢	منهج منهج	منهج
—	١٨	والكيد لهم ، بل	والكيد لهم فقط ، بل
١٠٢٩	٩	وأما الجند قالوا	وأما أن الجند قالوا
١٠٣٩	١٦	كان هو « شجرة »	كان هو « الشجرة »
١٠٤١	٢	فدليل على	دليل على
—	١٧	الآية السابعة وسبعون	الآية السابعة والسبعون
١٠٤٧	٢٢	بعضهم ببعض	بعضهم لبعض
١٠٤٨	١٥	التي تفهمها	التي لا تفهمها
١٠٤٩	٢١	اعطه نثره	اعطه على نثره
١٠٥١	٧	عسى نعمل	عسى أن نعمل
١٠٥٣	١٣	مليق مصر	مليك مصر
١٠٦٠	٨	(ع ٦٩ ــ ع ٧٩)	(آ ٦٩ ــ ٧٩)
١٠٦٢	١١	وذلك راوبين	وذلك أن راوبين
١٠٦٤	١٧	ولا طاقة العشرة	ولا طاقة لعشرة
١٠٦٥	٦	وعدته وإياه بأن يقتل إن لم أجيء	وعدته إياه بأن يقتل ابني إن لم أجيء
—	١١	المسميّ تفسيره على هذه	المسميّ على تفسيره لهذه الآية

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
—	١٥	عمن حوله	عمن دونه
١٠٦٧	٢٣	بأنهم أفرطوا	بأنهم فرطوا
—	—	هذا نتيجتها	هذا نتيجة
١٠٦٨	١٢	رجوعاً بصفة	رجوعاً بصفقة
١٠٦٩	٢	الموثوق	الموثق
—	١٧	صدقوا قولهم	صدقوا في قولهم
١٠٧٠	١٤	آذننا	آذاننا
١٠٧١	٧	ما نُقل	ما ننقل
—	١١	رافقناه	رافقناها
١٠٧٥	٢	مصيبةٌ	مصيبهٌ
—	٣	عجيبةٌ	عجيبهٌ
١٠٧٦	٧	الذي يفتت له الصخر	الذي يتفتت له الصخر
—	١٨	الرمضا	الرمضاء
١٠٧٧	٢ و ٣ و ٤ و ٦	القاسيةٌ ، الصافيةٌ ، التاليةٌ ، القاضيةٌ	القاسيهٌ ، الصافيهٌ ، التاليه ، القاضيهٌ
—	١٤	سيؤبون	سيؤوبون
١٠٧٩	١٠	هذه مع أنهم	هذه الحادثة مع انهم
١٠٨١	٦	وابيصتْ	وابيضّتْ
١٠٨٢	٦	يسؤهم	يسوؤهم
١٠٨٤	١٩	وقال الطبيب	وقال الطيب
—	٢٠	يعقوب والنبين	يعقوب والنبيين
١٠٨٥	١٩	انه لما يسمع	انه لم يسمع

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٠٨٨	١٢	مصيبته فهاجت	مصيبته الأولى فهاجت
١٠٨٩	٢١	مقلة العين في قوله	مقلة العين ويسمى (بالصلبة) وعلى ذلك فيكون المراد من العين في قوله
١٠٩٠	٦	: ٦٨)	(٦٨ : ٤٨)
١٠٩١	٥	دون عداه	دون من عداه
—	١١	غريزة كل منا	غريزة في كل منا
١٠٩٢	٤	وجهه في الحفرة	ووجهه ووقع في الحفرة
—	١٨	وهم ينهون عنه وينأون	وهم ينهون عنه وينأون عنه
١٠٩٣	١٥	تتحذون منه سكراً	تتخذون منه سكراً
١٠٩٤	٤	ابيضاض العين	ابيضاض العينين
—	٢١	الأمراض المضرة	الأمراض المنفرة
١٠٩٦	١٢	يكون هزواً	يكون هزؤاً
١٠٩٨	٩	مع شيء من الهم	مع شيء من اللوم
١٠٩٩	١٣	ورفه بنسيان	ورفه نفسك بنسان
—	١٣	الماضي ، بأسرع	الماضي ، لا تأس على ما مضى ، إصبر قليلاً أيها الشيخ الجليل ، فها هو الموت يمشي اليك بأسرع
١١٠٢	٢٠	أولالادي	أولادى
١١٠٣	٩	في التأنيت	في التأنيب
١١٠٦	٢١	منع علمه الغيب	منع علم الغيب
١١٠٨	١٠	وعنده مفاتيح الغيب	وعنده مفاتح الغيب
١١٠٩	٣	زويت	رويت
١١١٢	١٢	السماة والرواة	السماة والرواد

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١١١٤	٣	فلان بخير	فلان بخبر
—	٢١	طلع المنخل	طلع النخل
١١١٥	٢	فرق ، يقولون	فوق الدرع ، يقولون
١١١٦	١٣	فيتعلمون منها	فيتعلمون منهما
—	١٦	معصية للسحر	معصية السحر
—	١٧	واذا خملوا	واذا خلوا
—	٢٢	فكفرهمههنا هو عندقولهم	فكفرهم هنا هو قولهم
—	—	مريم للبهتان العظيم	مريم البهتان العظيم
—	٢٣	الآية مرتين	الآية قبلها مرتين
١١١٩	٧	ولعمل شعباً	وللعمل شعب
—	١٩	أبناء يعقوبالعشرة كلام	أبناء يعقوب كلام
١١٢٠	٩	في الدين وكذا	في الدنيا وكذا
١١٢١	١٠	والهزالسوء الحال	والهزال وسوء الحال
—	١٨	طافاً زائد	طافاً زائداً
١١٢٣	٢٢	البلاد المتمدنه	البلاد المتمدينة
١١٢٥	٨	فمؤل	فمأول
١١٢٧	٧	مصريون أو خلاء	مصريون أو دخلاء
—	٨	يرجع أنهم	يرجح أنهم
—	١٥	ما قالوا الآية	ما قالوا في الآية
١١٢٨	١٥	التمرين في أعمال	التمرين على أعمال
١١٣٠	١٠	رقراقة تترجع في	رقراقة تتأرجح في

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١١٣٤	١٣	من العقو هو	من العقود هو
١١٣٥	١٢	عيشه بشيء	عيشه شيء
—	١٣	عشر معاشر	عشر معشار
١١٣٦	٤	وإن ولديها	وإن ولديها
—	١٤	عبرة الهم	غبرة الهم
١١٣٧	١٠	عنهم تمحلة لهم	عنهم بالجهل تمحلة لهم
—	١٦	فإنه غفور رحيم	فإن الله غفور رحيم
١١٤٢	٥	مضطربوا الحواس	مضطربو الحواس
١١٤٦	١٩	من أبيهم ، اليوم	من أبيهم ، واليوم
١١٤٧	١٢	وذو القرى	وذو القربى
١١٤٩	١٢	عليه باسم	عليه باسمه
١١٥٧	١٠	لا بد لنا من تعترف	لا بد لنا من أن نعترف
١١٦٠	٦	الصخرة ابن كنيستي	الصخرة أبني كنيستي
١١٦٥	٥	ينشأ عن خلو	ينشأ عنه خلو
١١٦٧	٤	حتى يستولوا ،بل	حتى يستولوا عليه ، بل
١١٧٤	١٦	نظرة الرفع	نظرة الرفيع
—	٢١	من أصاب المناصب	من أصحاب المناصب
١١٨٠	٢١	يكن ، لا يبقي	يكن، بأن لا يبقى
١١٨١	١٠	للبريء الملوم	للبريء المظلوم
١١٨٣	٥	يا عزّ مصيبة	يا عزّ كل مصيبة
—	١٨	تمفيه	تُعَفّيه
١١٨٥	٢٢	شيئاً لم ولكنهم	شيئاً ولكنهم
١١٨٧	٤	أ كان حس العين	أ كان بحس العين

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
—	٢٣	يُبصَروا به	يُبصِروا به
١١٨٨	١	عالماً قلبياً	عالماً علماً قلبياً
—	٦	بما لم يُبصروا به	بما لم يُبصِروا به
—	١٣	وبابه كظرف	وبابه كظرُف
١١٩٢	٥	الاجتهاد يحتمل	الاجتهاد والاجتهاد يحتمل
—	١١	في يده	في يده »
١١٩٦	١٥	ويعمله التفريخ	ويعمله للتفريخ
١١٩٨	٧	يبْصرووا به، فقبضْت	يَبْصروا به ، فقَبضْتُ
—	١٩	فأنـقذكم منها	فأنْقذكم منها
١١٩٩	١٩	من الخمرة شربها	من الخمرة فشربها
١٢٠٠	٢	« للقميص »	« القميص »
١٢٠٦	١١	والله شربت	والله لو شربت
١٢٠٧	٢٠	المؤمنين المؤمنين	المؤمنين
١٢٠٨	١٨	فلك ثلاث أيام	فلك ثلاثة أيام
١٢١٢	٨	فهلا هطلت	فلا هطلت
١٢١٦	٢٠	لأنه يتوجه نظر	لأنه بتوجه نظر
١٢٢٥	٢١	هو للذي	هوي الذي
١٢٣٣	١٥	أفهام البشر،لأنه	أفهام البشر ، أنه
—	١٧	أو مثله	أو في مثله
١٢٣٤	٢٠	الحلف باليمن	الحلف باليمين
١٢٤١	١٩	لدن الديار	لدن مليك الديار
—	٢١	الا المجرى الكهربائي	الا بالمجرى الكهربائي
١٢٤٢	١٧	يحملون القميص هذه	يحملون في هذه
١٢٤٤	٤	إن هذا الماء	إن في هذا الماء

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٢٤٥	١١	تفاهمنا وانفقنا	تفاهمنا واتفقنا
١٢٤٨	١٥	دون الكافر	دون عذاب الكافر
١٢٥٥	٦	وأمنا عند أهل	وأمن عند أهل
—	٧	كانت اضطهاد	كانت هجرة اضطهاد
١٢٥٨	٧	قال: اني؟.. أبي؟	قال اني ؟ – قال أبي ؟
١٢٦٧	١٤	جلسة في السلام	جلسة السلام
١٢٦٨	٣	فيه أي إطناب	فيه أيما إطناب
١٢٧٠	٤	فهو الذي بره	فهو الذي يسري بره
١٢٧١	١٢	استعماله بالشر فقط	استعماله في الشر فقط
—	١٢	واغراؤه ، واما	وإغراؤه يحمل على التفريق بين الجماعة المؤتلفين، وهذا هو عين الشقاوة، وأما
١٢٧٢	١٣	عديدة كقوله	عديدة منه كقوله
١٢٧٣	٨	(٣٩ : ٧٢)	(٣٩ : ٧٠)
—	١٣	لهم يبسط هذا	لهم ويبسط هذا
١٢٧٣	١٤	يطلبون «حيهم»	يطلبون « حيهن »
—	١٥	ذوات الخلف	ذوات الخف
—	٢٠	وما هذا البلاء	وما هو هذا البلاء
١٢٧٤	٩	استخدام مذهب	استخدام على مذهب
—	٢١	بالتبدلات والتغيرات	بالتبدلات والتغييرات
١٢٧٧	٩	وحينَ تسرخونَ	وحين تسرحونَ
١٢٨١	١٢	في الجمع صح	في الجميع صح
١٢٨٤	١٣	ما كنت سجيناً	ما كنت بالأمس رقيقاً ومملوكاً لا شأن لي ولا منصب ، بعد ما كنت سجيناً ،

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٢٨٩	٤	تعالى يخاطب	تعالى ، قال الله تعالى يخاطب
—	٤	ابراهيم قال تعالى	ابراهيم
—	٨	إيتاء هذا	إيتاءه هذا
١٢٩٠	٩	أيضاً فما يستدلون	أيضاً فيما يستدلون
١٢٩١	١٩	ما هو أعلى منها	ما هو أعلى منهما
١٣٠٣	٢٠	عن ابعاه عن وطنه	عن إبعاده عن وطنه
١٣٠٤	١٥	من السورة	من هذه السورة
١٣٠٥	١٠	لم يكن معدوداً	لم يكن قبل معدوداً
١٣٠٦	١١	كثير من آيات	كثير من آيات القرآن
—	١٧	اسم الرومي	اسم ذلك الرومي
—	١٩	شيء مثل ما	شيء من مثل ما
١٣٠٧	١٣	كانوا يحاولوا أن	كانوا يحاولون أن
١٣٠٨	١٣	وفيما جاورها	ولا جاورها
١٣٠٩	٢	ثم يندفع مرة	ثم يندفع بدعواه مرة
—	١٩	أو يوحي له	أو يوصي له
١٣١١	٢	بانتقاد واختيار	بانتقادها واختيار
—	١١	الجهلة عنهم	الجهلة منهم
—	٢٢	فالجاهل أدخل	فالجاهل منهم أدخل
١٣١٢	٧	هي آثار النبوة	هي من آثار النبوة
—	٢١	أهل العصر	أهل هذا العصر
١٣١٤	٢	نشأ بين السبي	نشأ في السبي
١٣٢١	٣	برسول	بالرسول
—	١٧	لها لها نوح	لهم نوح

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٣٢٤	٦	عليه من أجرٍ	عليه أجراً
١٣٣٠	٢٢	الطيور الطائرة	الطيور طائرة
١٣٣٢	١٨	الانسان ممّ خلق	الانسان مِمّ خُلِقَ
١٣٣٣	١٠	آذان تسمعون	آذان يسمعون
١٣٣٤	١٩	من تأمنه إن بقنطار	مَنْ إنْ تأمنْهُ بقنطار
١٣٣٥	٨	يختبر غيرهما	يختبر غيرها
١٣٣٦	١٨	يا ستي نفيسة	يا سيدتي نفيسة
١٣٤١	١١	تضم الجناية على الدين	تضم الى الجناية على الدين
١٣٤٢	٢٠	فيجب الايمان	ويجب الايمان
١٣٤٣	٢	ويدعى تعالى	ويدعى اليه تعالى
١٣٤٥	٢	الناس التأويل كلام	الناس تأويل كلام
١٣٤٧	١٩	أن ينفر بها	أن ينفرد بها
١٣٤٨	٨	يرد بمثقال الخردل	يراد بمثقال الخردل
١٣٤٩	٤	لكان شركوا	لكان مشركوا
١٣٥١	١	قل ادعو الذين	قل ادعوا الذين
—	١١	أن تبغي الجمادات	أن تبتغي الجمادات
١٣٥٣	٨	يكون لمظهر أمر	يكون الملك لمظهر أمر
١٣٥٤	٢	الوسطى ، أي متقاربتين متلاصقتين كهاتين الاصبعين	والوسطى ، أي متقاربين متلاصقين كهاتين الاصبعين
١٣٥٦	٦	النشر والحساب الدنيوي	النشر والحساب الدنيويان
١٣٥٧	٥	كما في سورة	فما في سورة
١٣٥٨	١٤	إنا راده اليكِ	إنّا رادّوه اليكِ
—	٢٢	(٣٣:١٣)	(٣١:١٣)
١٣٦٠	١٤	الموت الطبيعي	الموت المادي الطبيعي

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٣٦٢	١٣	يثق به أهله	يثق به من أهله
١٣٦٤	٣	الى ذلك مما	الى غير ذلك مما
١٣٦٧	١٧	ادعو الله	أدعو الى الله
—	١٨	الرجل الشيْتَ	الرجل الثّبْتَ
١٣٧٠	٢٣	مكة ايام السيد	مكة أيام كان السيد
—	٢٤	بانواع التعذيب	بأنواع من التعذيب
١٣٧١	٨	أول خطر	أول يوم خطر
١٣٧٢	٦	وهو ما يكون	وهي ما يكون
—	٨	وكل هذه التواصي	وكل هذه من التواصي
١٣٧٣	١٠	المسلمين الى اهتداء	المسلمين الى الاهتداء
١٣٧٦	١٠	لرؤية وسماع	لرؤية الآ ثار وسماع
١٣٧٩	٢٠	وقوة الحجة العارضة	وقوة الحجة والعارضة
١٣٨٠	١١	حتى استيأس إذا الرسل	حتى إذا استيأس الرسل
—	١٢	كـُذّبوا	كـُذِبوا
١٣٨١	١٨	لو أُنزل عليه	لولا أُنزِلَ عليه
١٣٨٢	٨	من السهو الذي وعد الله	من السهو عن وعد الله
١٣٨٣	١٤	وتفضيل كل شيء	وتفصيلُ كلّ شيءٍ
—	١٧	عليكرة (وهى) في الهند	عليكرة في الهند
١٣٨٤	١١	والأخبار عن الرب	والإخبار عن الرب
١٣٨٥	٢	يقدر يقرأ أو يكتب	يقدر ان يقرأ أو يكتب
—	١٢	بعد الاطناب	بعد الإطناب
—	١٥	قوله تعالى: ﴿وكلا نقصُ	قوله تعالى هنا : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لاولى الألباب ﴾ وقوله تعالى : وكلاّ نقصّ

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٣٨٨	٢	لنْ تُخلِفَهُ	لنْ تُخلَفَه
—	١٧	فكان عندهم	وكان عندهم
١٣٨٩	٢	منفعته بل	منفعته للسامعين بل
—	١٤	(٢صم:٣١)	(٢صم١٢:٣١)
١٣٩٠	٩	درس التاريخ أن	درس التاريخ إن
١٣٩١	٢	أو إصلاحاً	أو صلاحاً
—	٩	ممن ظلمه	عمن ظلمه
—	٢٠	ليس بالأخبار	ليس بالإخبار
١٣٩٢	١١	احتاج لمتوبة	احتاج للتوبة
—	١٥	الله العمل	الله الا العمل
—	٢٣	وظن من الخطأ صواباً	وظن الخطأ صواباً
١٣٩٤	١٧	الكتب المهمة	الكتب الملهمة
١٣٩٥	٧	البشر بالتدريج	البشر بالتدرج
—	١٩	لا ينافي ما عناه	لا ينافي ما نماه
١٣٩٦	١٤	عما هو المذكور	عما هو في السفر المذكور
—	١٦	سكت عنه غير مهم	سكت عنه كان غير هام
١٣٩٧	٥	(٥ ١٥)، وأن اليهود أوتو نصيباً	(١٤:٥) ، وكذا النصاري نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٥) وان اليهود إنما أوتوا نصيباً
١٣٩٨	١٢	(تث ٣٢:٤٧-٤٧)	(تث٣٢:٤٤ – ٤٧)
١٤٠١	٢٠	واحدة، فلست أظن	واحدة واحدة ، فلست أظن
١٤٠٢	٢٠	من الله الا بعداً	من الله تعالى الا بعداً
١٤٠٤	١٨	الذي اتيناه آياتنا	الذي آتيناه آياتنا